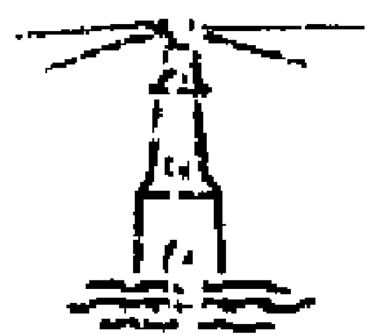
اقرأ

بقلم إبراهيم دسوقي أباظة

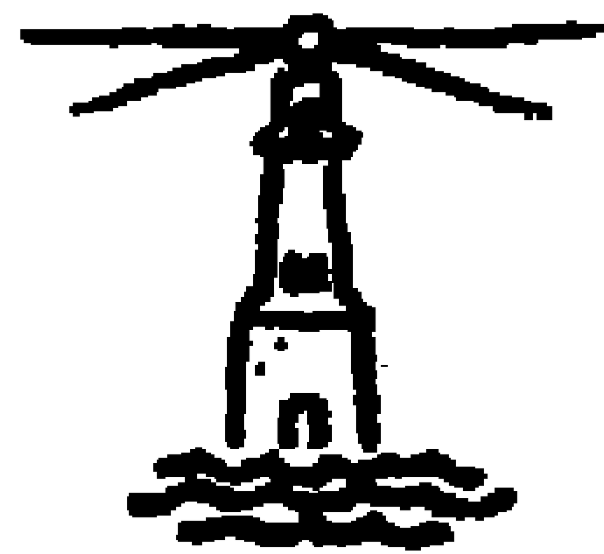
تقدميون إلى الخلف



دار المعارف بمصر



تصدر في أول كل شهر



دار المعارف بمصر



دكتور إبراهيم دسوقي أباظه

تقدميون إلى الخلف

اقرأ ٤١١

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤١١)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

تقــديم

التقدميون والرجعيون . . .

المجددون . . . والمتجمدون . . .

الزاحفون إلى الأمام . . . والمشدودون إلى الخلف . . . الشاخصون إلى الأفضل . . . والرافضون للأفضل . . . مصطلحات تنوء بها قواميس اللغات . . . وتفيض بها صفحات الجرائد والمجلات . . .تثقل العقل العربي، بالمضمون الغامض والشعار البراق . . . وتشحذ العاطفة العربية بوعد الجنة . . . ووعيد النار .

تقدميون . . . ورجعيون ! !

تقدميون إلى أين . . . ورجعيون من أين ؟ ؟ ! !

وكيف ينهض المعيار . . . وكيف يجرى التصنيف . . . أسئلة كبيرة . . . تدور كلها حول هدف واحد : الرفاهية الإنسانية .

والرفاهية الإنسانية ترتبط بالمذاهب والنظريات الاقتصادية وتشكل موضوعها الأول . . . وموضوعها الأخير . . .

والنظرية الماركسية على رأس النظريات الإنسانية التى تطرح حلاً للمشكلة الاقتصادية . . . وتفرضه بديلاً للتخلف لا بديل عنه،ومرادفاً للتقدم لا مرادف له .

والحل لا يكون من صنع الإنسان ابتداء . . . ولكنه يأتي من سياق التاريخ . . . فالمجتمعات البشرية صائرة لا محالة من مرحلة البورجوازية

المستغلة إلى دكتاتورية البرولتاريا . . ومنها يتهيأ البشر للمسيرة النهائية إلى المجتمع الشيوعي . . . مجتمع الوفرة حيث لا طبقات ولا دولة !

غير أن الباحث لا يلبث أن يكتشف أن الحل الذى تقدمه النظرية الماركسية حل جامع مانع لا يدع للحوار مجالاً ولا للمناقشة مكاناً ، فالنظرية الماركسية مثل فريد للفكر الشمولى الذى يدعى احتكار الحقيقة واستيعاب الواقع ، وبالتالى فإن منطق أنصارها لا يتسع لمفهوم الرأى الآخر الذى يقبل الحوار والمقارعة .

وهكذا ينتهى كل من يرفض آراءهم عدواً لهم . . . ويصبح كل من يخرج عليهم خصماً لهم ، ولا يبقى لهم من رابط بالرأى الآخر سوى رابط الخصومة والبغضاء .

ولكن الماركسية ليست فكراً فحسب ، إنما هى فكر وعمل يظاهره جهاز ويحاول فرضه على العالم أجمع . . .

ومن هنا كان العمل السياسى الدائب الذى تتولاه أحزاب تعمل سراً وجهراً فى الدول المختلفة لإدراك غاية الحكم ، ومن هنا أيضاً يبرز الوجه السياسى للماركسية ذلك الوجه الذى نعرف ملامحه تحت اسم « الشيوعية العالمية » .

وإذا كان التمييز بين الفكر والجهاز ممكناً من الوجهة النظرية فإن الفصل بينهما مستحيل من الوجهة الواقعية ، لأن الفكر الماركسى قد اختلط بالممارسة من خلال الجهاز اختلاطاً أفقده الكثير من خصوصياته وطوع مجرداته لاستراتيجية الدعوة . ومن هنا كان الانتشار والذيوع للفكر الماركسى

انتشاراً ما كان لِيُعرفَ لو لم يحمله جهاز جعل من العالم ساحته ومن موسكو وبكين مركز قيادته .

وإذا كان الباحث الاقتصادى يملك قدرة المتابعة والرصد والتحليل لتلك الظواهر المتشابكة المعقدة التى يفرضها الطرح الماركسى . . . فإن حظه من الإفادة والتبليغ جد ضئيل . . . فجمود المادة التى يعالجها وصعوبة إخضاعها للأساليب الأدبية تضعف من قدراته على استمالة الجمهور . كما أن الحقائق التى يعرضها . . . والنتائج التى ينتهى إليها . . . غالباً ما تصطدم بالأماني الشعبية التى تُلهِبُهَا أقلام الكتاب والمتفلسفين .

غير أن هذه العقبات والمخاوف تتهاوى بشدة أمام المخاطر الجسام التى تترتب عن ترك الساحة خاوية من آراء الاقتصاديين . . . لأن النظرية الماركسية لا تجد سندها والدعوة الماركسية لا تجد ركيزتها إلا من خلال مجموعة المبادئ والحلول الاقتصادية التى تطرحها،فهذه المبادئ والحلول هى الجواد الرابح فى سباق المذاهب التى تتنازع الساحة الدولية .

وقد تناولنا بعضاً من هذه المبادئ والحلول بالبحث والتحليل فى دراسات متفرقة . . . جرت فى مناسبات مختلفة ، منها ما اتصل بالنظرية فى أصولها الأولى ومنها ما ارتبط بالتطبيق عبر التجارب القائمة . . . وقد حاولنا قدر الإمكان التمييز بين النظرية والممارسة وحددنا دور الجهاز فى حمل الدعوة ومدى احترامه لمبادئها . . .

وانتهينا إلى طرح « التجربة الماركسية » بكل دقائقها وأبعادها . . . لنستخلص منها أخيراً النتائج المتحققة والدروس المستفادة .

ورائدنا فى هذا البحث . . . إطلاَع القارئ العربي على الوجه الآخر للماركسية . . . ذلك الوجه الذى زينته الدعاية . . . وزوقته الشعارات . . . فبدا جميلاً أخاذاً . . . يَشُد الناظرين . . .

وسبيلنا إلى اكتشافه لن يكون « بالأدلة الغيبية » التى يُنكرها الماركسة ويصفون أصحابها بالجهل والشعوذة .

ولكن بالمنطق العقلى . . . والتجربة الملموسة،وهى نفس الأدوات التى استخدمها ماركس لتشييد نظريته واستخلاص نبوءته عن مآل المستقبل . وهى أيضاً نفس الأدوات التى اعتمدها أتباعُه بوصفها أصل منهجهم « العلمى » الذى لا يعترف إلا بسلطان العقل ولا يقر إلا التجربة الملموسة .

ونحن لا نحرض الماركسى « المؤمن » على التخلص من « إيمانه » بالنظرية .

ولا نطالب غير الماركسى « المنكر » للنظرية بالتمادى فى « انكاره »

ولكننا نسأل كل عربي . . . أياًّ كان لونه . . . أو عقيدته أو انتماؤه . . أن يتعرف على الماركسية . . . وأن يقف على دقائقها وخباياها،فليس العيب أن يؤمن الإنسان بفكرة أو أن ينكر فكرة . . . ولكن العيب كل العيب أن يجهل الإنسان ما يؤمن به . . . أو أن يجهل ما يكفر به فى الوقت الذى تتوافر فيه بين يديه وسائل المعرفة وأدواتها .

فإذا ما ارتفعت جهالة المؤمن عما يؤمن به . . . وجهالة المنكر عما يتنكر له استضاء المجتمع بنور الحقيقة . . . وتلمس فى اطمئنان طريقه إليها .

ونحن نعلم كم من فِرَقٍ وجماعات فى صفوف هذه الأمة تخشى الأضواء . . وتتلافى المواجهة وترهب الحقائق . . . وهى فِرَقٌ وجماعات

بنت « أمجادها » فى الظلام . . . وبثت دعوتها فى غيبة الرأى الآخر . . . وهى لابد متحفزة اليوم لكل صوت يعلو بالحق ولكل كلمة تَقْهر الباطل . . ولم لا ، وعندها من المدد مالا حصر له ولاعد . . . ومن قدرة الإرهاب الفكرى مالانهاية له ولا حد . . . وكيف لا وهى الفئات الوحيدة فى أمة العرب التى تتلقى عون دول عظمى . . . وتحظى بتأييدها الرسمى بغير تحرج ولا مبالاة . . . وهى الفئات الوحيدة فى أمة العرب التى تجد المساندة من الشيوعية الدولية وأحزابها المنتشرة فى كل مكان . . . وهى الفئات الوحيدة فى أمة العرب التى يتردد صوتها فى أرجاء العالم إن قالت لا وإن قالت نعم . وعلى الرغم من كل هذه الوسائل الطاغية . . . والإمكانيات العملاقة فنحن نرتاد الساحة . . . ونقبل المنازلة . . . وليس عندنا من سلاح سوى إيمان بالله لا يتزعزع . . . وثقة فى قدرته لا تنتهى . . .

وحسبنا الله . . . ونعم الوكيل

رباط الفتح فى ١٨ من رمضان ١٣٩٥

القسم الأول

النظريّة

النظرية

. . . على كل صعيد لهم آية . . . هؤلاء الذين يصرخون بالماركسية . . ويلوحُون فى كل وادٍ بأعلامها الحمراء .

الفلسفة تدينُ لهم بالجديد الذى يجعل من الإنسان مُسيراً بمعيشته المادية . . .مرتبطاً بها ارتباط الدواب بالأعلاق : المادية الجدلية .

والاقتصاد يدينُ لهم بالفريد الذى يفسر كل النظام الرأسمالى ويجعل من نهايته حتمية لا تقبل الجدل والمقارعة : فائض القيمة . .

والاجتماع يدين لهم بذلك الاكتشاف العجيب الذى يؤكد نزوع العالم إلى جنة موعودة حيث لا طبقات ولا دولة : الصراع الطبقى .

ولنتناول معاً هذه الآفاق . . . لنعى قدرها من العلم وموقعها من الحقيقة .

الحتميون

قالوا : لماذا تُهاجم الماركسية ؟

قلت : إني لا أهاجمها إنما أنقد أفكارها كلما طرحت من فوقها فكرة جديدة . وطرح الفكرة الجديدة يلزم بتجاوز الأفكار السابقة . . .
ومن هنا يأتي نقدى للماركسية .
فأنا لا أهاجمها من فوق منابر السياسة ولكننى أنقدها على صعيد المذاهب .

قالوا : ولكنك تسدد كل ضرباتك للماركسية . . . ولا نراك تنتقد غيرها من المبادئ والنظريات . . . مما يظهرك بمظهر المتحامل عليها ، الناقم على أهلها .

قلت : إن تشديدى على نقد الماركسية لا يعنى قبولى بغيرها من المذاهب السياسة والاقتصادية . . . فكما أننى أرفض الماركسية علمياً . . .
فإنني أرفض الليبرالية علميًا أيضاً . . . فكلاهما قد أدى فى التطبيق إلى كوارث إنسانية . . وإذا كنت أكرس اليوم جهداً أكبر لنقد الماركسية وإبراز أوجه الخطأ واللاواقعية فى العديد من مفاهيمها الأساسية ، فان ذلك مردود إلى سببين :
أولهما : ألمحت إليه حالاً ، وهو أن هذا النقد ضرورى ولازم كلما كنت بصدد طرح فكر جديد . . . فالنقد هنا من ضرورات البناء .

ثانيهما : هو أن الماركسية قد تملكت من رؤوس عدد كبير من شبابنا . . . واستهوت نفراً غير قليل من أصحاب النوايا الحسنة الذين أعيتهم السبل فى البحث عن طريق . . . لذلك كان حرياً أن نهتم ببحثها ونقدها وبيان وجه الحق فى دعوتها أكثر من اهتمامنا بغيرها من المذاهب السياسية (كالليبرالية مثلا) التى لم تعد تسترعى من جمهور الشباب اهتماماً . . . وبالتالى لم تعد تشكل خطراً .

قالوا : وهل تعتقد أن أسلوب النقد المباشر مجدٍ فى دفع خطر الماركسية أو صرف الشباب عنها ؟

قلت : إنى لا أوجه النقد للنقد . . . ولكننى أوجهه دائماً بمناسبة طرح جديد قد يستلزم مقارنة بمفهوم أو استجلاء لمفهوم . . . وأعلم أن فى هذا النقد المباشر متاعب عديدة . . . خصوصا وأنه كثيراً ما يسبب إيلاماً فكرياً وتمزقاً نفسياً لمن فتنوا بالماركسية فتعلقت آمالهم بها . . . فهؤلاء يشبهون الغرقى الذين يتصورون أنك انتزعت منهم أطواق النجاة . . . فيقاومونك بعنف . . . لا عن اقتناع هذه المرة . . . ولكن عن عناد ومكابرة . . . وهذا موقف طبيعى طالما أن شبابنا لا يتلمس البديل .

قالوا : وما البديل ؟

قلت : قيم جاء بها الإسلام تتناول الفرد والمجتمع بالتوجيه والتنظيم واستجلاؤها . . . يستلزم جهداً . . . ويستنفد صبراً . . .

قالوا : وهل تعارض الماركسية بالإسلام . . . « المستقبل بالماضى » . . .
إن فى هذا ارتداداً إلى الوراء . . . وانتكاساً لمسيرة البشرية . . .

قلت : وهل رادفتم الماركسية بالمستقبل . . .والإسلام بالماضى . . .
فاعتبرتم الجديد فيما تقرره الماركسية والقديم فيما يقرره الإسلام ؟

قالوا : نعم . . . وهذه حقيقة يفرضها العلم . . . ويقرها التفسير العلمى
للتاريخ ، فالفارق بين النظريتين هو الفارق بين الحقيقة العلمية
والرؤية الغيبية !! !

قلت : وما معيار العلمية عندكم . . . وهل تعتبرون « الحقيقة العلمية »
مطلقة أم نسبية .

قالوا : الحقيقة العلمية هى ما نلمسه بالحواس . . . وما نثبته بالتجربة . .
وما دون ذلك حدس وتخمين . . . ومضاربة !

قلت : وهل لمستم بالحواس . . . وتأكدتم بالتجربة أن البشرية صائرة
إلى الصورة التى تدعون : المجتمع الشيوعى . . . مجتمع الوفرة . .
حيث لا طبقات ولا دولة ؟ !

قالوا : لقد تأكدنا بالتحليل وتثبتنا بالتجربة . . . ودللنا بالمنطق أن الغد
المأمول قادم لا ريب فيه . . . وأن المجتمعات . . . كل المجتمعات
صائرة لا محالة . . . إلى الشيوعية ! ! !

قلت : وهل قارنتم موقفكم هذا بالنظريات والقيم المضادة . . . هل تعمقتم
مثلا فى فهم الإسلام وهل تعمقتم فى فهم الماركسية ؟ ! !

قالوا : نعم . . . لقد قرأنا عن الإسلام . . . واستوعبنا آراءه . . . ومن هذا الموقع نتكلم .

قلت : هل درستم القرآن . . . كل القرآن . . . وهل درستم الحديث كل الحديث . . . وهل درستم التفسير كل التفسير . . . أو قرأتم فقط ما قدم لكم من كتب المستشرقين . . . وما تيسر من كتابات المتأخرين . . . والمدعين . . . ؟ !

قالوا : قرأنا ما فى متناولنا من الكتب والمؤلفات المتداولة لكبار الكتاب المسلمين . . . وأعملنا اجتهادنا فيما نقرأ . . . وفيما نشهد فى الممارسة .

قلت : وهل يستقيم الحكم دون الرجوع إلى المصدر . . . إلى النبع الأصيل . . للإسلام وهو القرآن والسنة . . . أتتركون الأصل إلى الصورة التى تتلون بتلون الكتّاب والمفسرين والممارسين ؟ ! !

قالوا : نحن لا نبحث عن التفقه فى الإسلام أو غيره من المذاهب المطروحة . . . ولكننا نسعى إلى تقييمه بالقدر المتاح من المعلومات وقياسه بالمعايير العلمية الأصيلة . .

قلت : القدر المتاح ليس كافياً . . . إذا لم يتضمن الرجوع إلى الأصل وهو القرآن والسنة . . . والقياس بالمعايير العلمية ليس سوى قياس بمعاييركم . . . فالنظرة العلمية التى تعنون ليست سوى نظرتكم للحياة من خلال المقاييس الماركسية .

قالوا : وهل ترى سبيلا آخر للحكم غير هذا السبيل . . . وهل ترى معياراً آخر للتقييم غير المعيار الماركسى ؟ !

قلت : أعتقد أن الجدل يتجه إلى طريق مسدود . . . إذ ما دمتم ترون أن سبيلكم هو أفضل سبيل ومعياركم هو أفضل معيار فلا جدوى من الجدل ولا أمل فى المناقشة

قالوا : لماذا ؟

قلت : لأنكم تتصورون احتكار الحقيقة . . . والحقيقة أمامنا جميعاً . فهى ليست حكراً لأحد

قالوا : أنتم الذين تحتكرون الحقيقة . . . وتفسرون الحياة وفقاً لمجموعة من « المسلمات » التى تدعون قدسيتها وترفضون بالتالى كل مناقشة فى مضمونها .

قلت : إننا نستطيع أن نكيل لكم ذات الاتهام . . . ولن يفيد ذلك فى شىء . فإذا أردتم الخروج من هذه الدائرة المفرغة . . . فعلنا أن نسلك فى الجدل منطقاً جديداً وأن نعتمد فى التفسير أدوات جديدة لا هى بأدواتكم . . . ولا أدوات خصومكم

قالوا : وهل هناك منطق محايد وأدوات تفسير محايدة .

قلت : نعم . . . إن تحررتم بعض الوقت من اسار المذهب وطغيان العقيدة فأدخلتم فى الحساب كل المتغيرات التى تَعُجُّ بها الحياة بدلا من الاعتماد على متغير واحد وهو الاقتصاد . . . وانتقلتم بالفكر من الحتميات إلى الممكنات .

وفارق كبير بين ما نقول . . . وما تقولون . . . فنحن نقول بالممكن وأنتم تقولون بالمحتوم،وكأنكم ترون الغيب وتكشفون المستقبل .

قالوا : لتعلم أن التنبؤ بالمستقبل علم يقوم على قواعد ويخضع لقوانين . . . وقوة الماركسية تكمن فى قدرتها على اكتشاف المسار الإنسانى نحو المستقبل بجملة المناهج والقوانين التى استحدثتها .

قلت : هنـاك فارق خطير بين التنبؤ والتوقع . . . التنبؤ بالمستقبل يحمل معنى القطع الذى لا يرقى الشك إليه . . . وقولكم باتجاه الإنسانية فى خط معين . . . وصيرورتها إلى قدر معلوم وهو الشيوعية . . . يعتبر من قبيل الحتم الذى لا ريب فيه .

أما التوقع فيحمل معنى الخطأ والصواب . . . وكل ما يستطيعه العلم حتى اليوم هو التوقع على أساس من الترجيح كما هو الشأن فى نظرية الاحتمالات La Probabilite المعروفة فى علوم الرياضيات والإحصاء وفى عمليات الحساب الكونية المعروفة فى علم الفضاء .

قالوا : لقد استطاع عقل الإنسان أن يحدد زمان ومكان هبوط صاروخ إلى سطح القمر قبل إطلاقه،ألا ترى فى هذا تنبؤاً قطعياً بالمستقبل ؟

قلت : إعمال نظرية الاحتمالات تسمح بترجيح ميل على ميل أو اتجاه على اتجاه فى المسيرة الاجتماعية . . . ولكن هذه النظرية لا تستطيع القطع باتجاه . . . أو الجزم بآخر . . . كذلك يقوم الترجيح فى مجال الحسابات الكونية على الرغم من دقتها وانضباطها . إذ يمكن احتساب مسار صاروخ إلى القمر . . . ومعرفة الوقت الذى سيصل فيه إلى هدفه والدائرة التى سيهبط فيها . . . ولكن كل هذه الحسابات ترجيحية وليست قطعية،فهى ليست فى دقة

المليمتر القياسي أو الثانية الزمانية ، ذلك أن هذه الحسابات على جديتها تحتمل دائماً هامشاً من الخطأ وهذا الخطأ وإن كان يسيرا واهياً لا يتجاوز أحياناً جزءاً على جزء من الثانية أو جزءاً على جزء من المليمتر ، إلا أنه يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى أخطاء جسيمة ، فانحراف صاروخ عن مساره عند الإطلاق بجزء على جزء من المليمتر يمكن أن يخطئ القمر بآلاف الكيلومترات ، فهذا الانحراف اليسير عند الإطلاق يتزايد ويستفحل مع البعد الشاسع الذى يفصل الأرض عن القمر .

وأعظم دليل هو أن محطات الفضاء لا تعتمد إطلاقاً على الحسابات الكونية الأولية فى تحديد مسار الصاروخ ومكان هبوطه . . . ولكنها تتدخل باستمرار لتصحيح مساره بعد إطلاقه ، وإذا لم تفعل . . . فلن يصل الصاروخ إلى مداره . . . ولن يهبط فى المكان المستهدف !

هذا التدخل المستمر من جانب محطات الفضاء لتوجيه الصاروخ إلى هدفه إذا ما أضفناه إلى احتمال تحطم الصاروخ لخلل أو عطب فى أجهزته يسقط عن العملية كلها صفة القطع ويجعل منها تغليباً وترجيحاً . . .

وبمعنى آخر فهذه العملية تعتبر غيباً لا تعرف نتائجه على سبيل اليقين . . . وإن كانت تعرف على سبيل التغليب والترجيح .

قالوا : ولكن الصاروخ فى مثالكم يصل إلى القمر دائماً ، وقد استطعنا

اكتشاف هذا الكوكب العجيب حتى قبل الوصول إليه فإدراك القمر كان يقيناً . . . ومعرفة سطح القمر كان يقيناً أيضاً .

قلت : قبل إدراك القمر . . . كانت حقيقة القمر غيباً . . . ولم تصبح هذه الحقيقة يقيناً إلا بعد إدراكه . ثم ما الصلة بين الحسابات الكونية واكتشاف القمر وبين القوانين التى تحكم حركة المجتمع وتحدد مساره . . .

فى الحالة الأولى نحن فى مجال العلوم الحقيقية أو المنضبطة ، أما فى الحالة الثانية فنحن فى مجال العلوم الإنسانية .

قالوا : ولكن لماذا لا تخضع العلوم الإنسانية للانضباط العلمى كما هو الشأن فى العلوم الحقيقية . . ولماذا نحرم عالماً من الاجتهاد فى مجال العلوم الإنسانية مستعيناً بكل ما استحدثته الحركة العلمية فى مجال العلوم الحقيقية .

قلت : هذا خلط بين مجالين متباينين ، فمجال العلوم الحقيقية كمى يخضع لضوابط العد والإحصاء ، بينما مجال العلوم الإنسانية كمى وكيفى فى آن واحد . . . لأن موضوع هذه العلوم ليس مادياً فقط – كما هو الشأن فى العلوم الحقيقية – ولكنه مادى ومعنوى فهى تتناول الإنسان والمجتمع الإنسانى . . . وإخضاعها المطلق للعلوم الحقيقية فيه تجن على الإنسان وإهدار لإنسانيته . وعندما استعان ماركس بهذه العلوم وحدد على ضوئها اتجاه التاريخ . . .والشكل الذى سينتهى إليه المجتمع البشرى . . .

فقد ادعى لنفسه اكتشاف الغيب وقراءة المستقبل .

قالوا : ولم لا تنطبق العلوم الحقيقية على الإنسان . . . لقد وجدت المادة قبل أن يوجد . . . وهو محكوم بها . . . ومدفوع بقوانينها .

قلت : إن المنطلق المادى الذى اعتمدتموه . . . هو الذى أدى بكم إلى هذا الخلط . . . فقد تصورتم أن الإنسان مادة . . . واستخلصتم أن قوانين المادة تسرى عليه . . . ومن هنا كان إقحامكم للعلوم الحقيقية فى مجال العلوم الإنسانية .

قالوا : لقد أثبتنا أن الإنسان مادة . . . وحددنا قانون المادية الجدلية الذى يحكُم عملية التطور الاجتماعى . . . وعليكم أنتم أن تثبتوا العكس . . .

قلت : هذا قلب لقواعد الإثبات . . . ومع ذلك فنحن نقبل التحدى . فهل تقبلون ؟ ! !

الإمام والأتباع

كان ماركس إمام المراكسة فيلسوفاً ومؤرخاً وباحثاً اجتماعياً ومجتهداً اقتصادياً ومجادلا سياسياً،فأين أتباعه مراكسة اليوم من كل ذلك .

أين هم من تلك الرأس التى عالجت كتب الأولين انطلاقاً من الإغريق حتى الثورة الصناعية فلم تترك تراثاً انسانياً إلا وتناولته ولم تترك تراثاً دينياً إلا وتصدت لبحثه . . .

سئل أحد كبار مراكسة العالم المتخلف . . . إن كان قد قرأ النظرية الفلسفية عند ماركس ، فأجاب بالإيجاب . . . ثم سئل إن كان قد قرأ التفسيرات والاجتهادات التى تتابعت منذ ماركس وإلى اليوم فأجاب بالإيجاب .

وعندما سئل عن المراجع التى استند إليها فى قراءاته أجاب بغير تردد : كل ما كتب ماركس ولينين وستالين وغيرهم ونقلته الترجمة إلى العربية ! !

والسبب يعود إلى أن الماركسى الكبير . . . لا يعرف لغة أجنبية واحدة . . . ومن هنا كان اعتماده فى فهم الماركسية واستيعابها على عمليات التعريب التجارى والدعائى التى تمت فى معظمها من قبل معربين محترفين لا يعرفون شيئاً عن المادة التى يقومون بنقلها إلى العربية .

وفى الحالات القليلة التى تم فيها تعريب مؤلفات ماركس من قبل خبراء متخصصين منزهين عن الغرض . . . يبرز العجز عن تعريب العديد

من المصطلحات . . . ويبدو القصور عن ايضاح ، الكثير من العبارات والجمل مما يفتح الباب أمام الاجتهاد والتأويل . . . ويغرق الباحث المبتدئ فى بحر من الغموض ، وثمة سبب آخر يميز مراكسة العالم المتخلف عن غيرهم . . . وهو أنهم بشكل أو بآخر قرأوا ماركس وأتباعه . . . ولكن قلة قليلة منهم هى التى درست ماركس وأتباعه . . . وفارق بين القراءة والدراسة

فالقراءة يتناولها كل من ملك قدراً من الثقافة ، أما الدراسة فلا يطرقها إلا من ملك قدراً من التكوين العلمى المتخصص يسمح بتناول نظرية اجتماعية متعددة الجوانب كالنظرية الماركسية .

ونسمع كثيراً عن « قادة ماركسيين » تطرقوا إلى شروح فلسفية للنظرية الماركسية . . وهم ليسوا بفلاسفة . . وتناولوا أبعاداً اقتصادية للنظرية الماركسية وهم ليسوا باقتصاديين . . . وبحثوا جوانب سياسية واجتماعية للنظرية الماركسية وهم ليسوا بسياسيين ولا باجتماعيين . . .

وإذا كان التخصص غير مطلوب فى القواعد الشعبية التى تتسمع وتنساق بوازع من إيمانها فى « القيادة الماركسية » فإن هذه القيادة يجب أن تكون على قدر من الدراية والتخصص فى الميادين التى طرقتها النظرية الأم . وإلا فكيف لها أن تؤمن بما أطلقته النظرية من شعارات وكيف لها أن تنقل هذا الإيمان إلى القواعد الشعبية العريضة التى تعمل على استمالتها ! ؟

ومع ذلك تجد فى العالم المتخلف من يقول فى إصرار الواثق : إن المراكسة يقرأون . . . ويبحثون . . . ويجيدون ما يقرأون وما يبحثون . . . ولكنه

لا يعرف أن هذه الإجادة المدعاة تقوم على استغلال جهالة غيرهم .

فهم يستغلون جهل غيرهم بالفلسفة المادية ليغرقوه فى مضامينها الغامضة . . .

وهم يستغلون جهل غيرهم « بالاقتصاد الماركسى » ليسقطوه فى متاهاته البعيدة .

وهم يستغلون جهل غيرهم « بالقوانين الاجتماعية » ليدفعوه فى دوامتها العتيدة .

وليسأل كل لبيب نفسه . . . هل يعود السر فى « تفوق » المراكسة إلى أنهم يقرأون ويبحثون ويجيدون ما يقرأون وما يبحثون ؟ أم يعود السر أيضاً إلى أن غير المراكسة لا يقرأون . . . ولا يبحثون . . . وإن قرأوا فإنهم لا يجيدون ما يقرأون وما يبحثون ؟ !

من المقطوع به أن مراكستنا لا يقتدون بإمامهم ولا ينهجون نهجه فى البحث والتحصيل . . . فهم ولا شك يقرأون ولكنهم – مع شديد الأسف – لا يقرأون إلا فى اتجاه واحد . . . وهو اتجاه الإمام . . . فلا يطالعون من النظريات إلا نظرياته . . . ولا يبحثون من المذاهب إلا مذهبه . . ولا يرون من قوانين المجتمع إلا قوانينه ، وهم فوق ذلك يلتقون بإمامهم على صفحات الكتب المترجمة وعلى أعمدة الصحف السيارة،والتى تبتعد كثيراً أو قليلاً عن تعاليم « الإمام » الأصيلة وكتبه الأصلية والتى تضيف إلى فكر « الإمام » أو تحذف منه أو تعدل فيه تبعاً لقدرات المترجم أو أمانة الناقل .

ولكن هل حاول كل هؤلاء بناء قناعتهم بالنظرية الماركسية على أساس الاطلاع على أعمال « الإمام » الأصلية . . . وتفحص مؤلفاته الأولى التى صدرت باللغتين الألمانية والإنجليزية ؟ ؟

هل حاول كل هؤلاء العودة إلى المنابع الأولى للفكر الذى يحملون عبء الدفاع عنه بدلاً من تلقى هذا الفكر بالواسطة عن أناس غير متخصصين – فى غالبيتهم – إن لم يكونوا أيضاً غير أمناء فى العرض والتحليل ؟ ؟

ثم هل قرأ هؤلاء المراكسة الكبار فى اتجاهات أخرى غير اتجاه « الإمام » كما قرأ الإمام نفسه تراث كل المفكرين الذين سبقوه وعاصروه ؟ ؟

هل أجادوا قراءة النظريات المضادة حتى يحسنوا الدفاع عن نظريتهم كما أحسن « إمامهم » من قبل ، هذا الدفاع . . .

يطالبنا المراكسة بالرفض المطلق لكل نظرية تناهض نظريتهم . . . . . . وبالنقد لكل فكر يزاحم أفكارهم ، ويتصور القارئ أو السامع من خلال الرفض أو الهجوم سعة الإلمام بالرأى الآخر وعمق الفهم لمضمونه . ولكن الواقع غير ذلك . . . فالمراكسة الضالعون فى فهم الرأى الآخر . . . الحريصون على استيعابه . . . المدققون فى مضامينه،قلة نادرة لا تتجاوز أصابع اليد . . .

ولنسألهم . . . من منهم درس القرآن والحديث وتعمق فى خباياه وفلسفته . . .

ومن منهم درس المسيحية وأمعن النظر فى مذاهبها وفرقها . . .

ومن منهم درس الرأسمالية ودقق البحث فى نظمها وتطورها . . .

هناك ولا شك من مراكسة العالم الثالث من اهتم بدراسة الرأى الآخر . . . ولكن هذه الدراسة على ضآلتها مطبوعة دائماً بالنظرة المذهبية . . . فهم لا يرون الرأى الآخر إلا من خلال المنظار الماركسى . . . ولا يقيمونه إلا وفقاً لهذا المنظار . . . وهنا يكمن الخطر . . . ويعظم التضليل . . .

فى يقينهم أن الأديان – ومن بينها الإسلام – مرحلة من مراحل التطور ... انقضت وولى عهدها . . . وهم بهذا المنطلق عاجزون عن تصور دور الأديان فى البعث الحضارى لأمم معاصرة . . . وهم عاجزون أيضاً عن تفسير قيام دويلة إسرائيل على أساس دينى محض . . . وهم عاجزون أخيراً عن تفسير الدور الذى لعبته العقيدة الدينية فى حرب العاشر من رمضان . . .

هم عاجزون عن إعطاء تفسير مقنع لكل هذه الظواهر الملموسة . . . لأن القاعدة التى انطلقوا منها – وهى النظرة الماركسية – تحجب عنهم كل رؤية بديلة وتحصرهم دائماً فى إسار منطق واحد لا محيد عنه وهو منطق المراحل الآلية الذى اعتمده ماركس .

وفى يقينهم أيضاً أن الرأسمالية صائرة إلى زوال وأن الشيوعية مقبلة بلا ريب . . . ولكنهم عاجزون عن إعطاء تفسير مقنع لكل تطور وقع داخل النظام الرأسمالى . . . وعاجزون كذلك عن إعطاء تفسير مقنع لكل تطور وقع داخل النظام الجماعى . . .

وهم عاجزون عن تقديم السبب فى عدم سقوط الرأسمالية إلى اليوم . . .

وهم عاجزون كذلك عن تقديم السبب فى عدم إدراك الشيوعية إلى اليوم . . .

هم عاجزون عن تقديم الأسباب التى حالت دون تحقق نبوءة ماركس فى سقوط الرأسمالية –برغم بلوغها أوج قوتها – وقيام الشيوعية لأنهم حبسوا أنفسهم فى نطاق المتغير الواحد الذى لا متغير سواه وهو الاقتصاد . . . وظلوا يستبعدون كل احتمال لقيام متغير آخر يعطل من الاتجاه الذى ينشدون . . .

وعندما أثبتت التجربة أن المتغير الواحد الذى استندت إليه الماركسية فى تفسير التطور تبسيط ساذج وأن الحياة الاجتماعية تخضع فى تطورها للعديد من المتغيرات المتشابكة المعقدة . كان المراكسة « المتقدمون » يجتهدون فى التمويه والترقيع لإخفاء عورات المذهب وستر معايب العقيدة . أما المراكسة المتخلفون فقد ظلوا على حالهم يجترون تعاليم الإمام « الأصلية » ويرددون تعاويذه الأولى !

إننا نسأل المراكسة ،كبارهم قبل صغارهم – فى نصيحة خالصة – أن يخرجوا عن التقليد الخالد « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » . . . نسألهم أن يقرأوا فى كل اتجاه . . . وأن يبحثوا على كل صعيد . . . فربما أمكن تحرير عقولهم من إسار المادة . . . وإنقاذ مداركهم من وهم التجريد .

الاشتراكية العلمية . . والاشتراكية الغيبية

من اللافتات الوامضة التى يعلقها الشيوعيون على صدر الدعوة اصطلاح « الاشتراكية العلمية » . . . وهذه التسمية خلعها ماركس على دراساته وأبحاثه التى جرت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد أراد بهذه التسمية تمييز منهجه وأسلوبه فى البحث عن غيره من الاشتراكيين الذين كانوا ينازعونه الساحة فى وقت طغت فيه التجريبية والمنهجية على العلوم الحقيقية (الرياضة – الكيمياء – الطبيعة الخ) فعمد إلى محاولة تطبيق هذه القواعد والمناهج على العلوم الإنسانية ليخرج من هذه التطبيقات بعدد من « القوانين » ضمنها نظريته . غير أن هذه التسمية لا يمكن بحال أن تعمينا عن حقيقة النظرية الماركسية فى كونها اجتهاداً فى ميدان العلوم الإنسانية لا يخرج بها من هذا الميدان إلى ميدان العلوم الحقيقية ، ولا يخلع عليها وصف العلمية الدقيقة المنضبطة . . . انضباط قوانين الحركة والجاذبية . . . ومع ذلك فإن قوانين الرياضة والطبيعة وغيرها ليست مطلقة فى الزمان والمكان . . .ولكنها نسبية تقبل الزيادة والنقصان . . الإلغاء والتعديل . . . فإذا كان ذلك أمر العلوم الحقيقية فماذا يكون أمر العلوم الإنسانية التى لا تخضع لقواعد العد والإحصاء . إن الموضوع الأول والأخير لهذه العلوم هو الإنسان . . . فهذه العلوم لا تتعامل مع مواد ولا تجادل فرضيات رياضية ، ولكنها تتعامل مع الإنسان فى مسيرته عبر

الحياة . . . تتعامل مع عقله ومشاعره . . . مع سلوكه وتطلعاته . . . وهى بهذا الوصف لا يمكن أن تكون على انضباط ودقة العلوم الحقيقية ، ومن غير الممكن أن نتصورها كذلك إلا إذا تصورنا الإنسان أداة صماء مفرغة من كل إرادة خاوية من كل عاطفة . . . فلو كان من الممكن للعلوم الحقيقية أن تجرى حساباً لتحديد مكان وزمان وصول صاروخ إلى القمر أو عودته إلى الأرض (على الرغم من أن هذا التحديد لا يتسم بالدقة المطلقة ولكن يحتمل هامشاً من الخطأ يختلف تبعاً للظروف) فإنه من غير الممكن فى العلوم الاجتماعية مثلاً تحديد خصائص وزمان تطوز مجتمع ما بصورة دقيقة أو قريبة من الدقة . . . وكل ما يمكن تحديده فى هذا الشأن هو مجموعة احتمالات أو تخمينات تقترب بالباحث من حقيقة تطور هذا المجتمع ، غير أن المفاجآت تظل دائماً متوقعة والاتجاهات غير المحسوبة تظل دائماً محتملة .

لقد استطاع العلم إخضاع جسد الإنسان للقياس الحسابي والعد الإحصائى . . . فأصبح من الممكن « بيولوجيًا » إحصاء عدد كرات الدم الحمراء والبيضاء وحصر نسبة الأملاح فى الجسم وتحديد سرعة الدورة الدموية ومعرفة عدد دقات القلب الخ ، ولكن العلم — على ما بلغ من تقدم — لم يستطع بعد أن يدرك الجانب المعنوى فى الإنسان . . .

لم يستطع العلم أن يدخل إلى نفسية الإنسان ليحللها ويعللها ويحصى عناصرها ويحدد مكوناتها . . . وما زالت هذه النفسية تشكل المجهول الكبير الذى يحار فيه العلم ويتوه فى مسالكه العلماء .

وإذا كان بعض العلماء يستخدمون الرياضيات والإحصاء فى علم النفس . . . ويجهدون فى محاولة إيجاد قواعد أو ضوابط يمكن الركون إليها فى دراسة نفسية الإنسان ، فإن كل المحاولات التى بذلت إلى اليوم لازالت فى المهد . . .

وسوف ينتهى الإنسان . . . فى اليوم الذى يستولى فيه العلم على داخلية نفسه . . . ويتحكم فى نوازعه . . . ويسيطر على أهوائه . . .

لأن العلم فى هذا اليوم سيكون قد استولى على الإنسان ذاته وأفرغه من مدلوله الذى جبل عليه . . . وحوله إلى كم مطلق يخضع لقواعد العد وفرضيات الرياضة .

والمؤمنون بالنظرية عن صدق أو عن مخادعة يريدون فرض الإيمان على غيرهم . . . بالإصرار على إلحاق صفة العلمية بالاشتراكية الماركسية . . . ولكنهم فى ذات الوقت يرفضون النظريات الاشتراكية التى سبقتهم كالسانت سيمونيه والبرودونيه وغيرهما تأسيساً على أنها اشتراكيات خيالية لا تقيم للعلم وزناً ولا للمنهج العلمى مقاماً ، ويميزون أنفسهم عن دعاة هذه الاشتراكيات بادعائهم اكتشاف قوانين علمية تقودهم إلى رؤى استعصت على غيرهم نهايتها « الجنة » الموعودة أو الشيوعية العالمية .

وهم فى ذات الوقت يتنكرون للدين « لابتنائه على الغيبيات التى يرفضها العقل العلمى » . . . فالجنة والنار والجزاء والعقاب كلها غيبيات لا تقبل المحاكمة العلمية ولا تخضع للملاحظة التجريبية ، فإذا كانت بعض قوانين ماركس « العلمية » تعوزها الموضوعية وإذا كانت كل

توقعاته عن مآل الرأسمالية والتحول إلى المجتمع الشيوعى لا تعدو أن تكون تقديرات شخصية،فكيف يمكن بعد ذلك القول « بالعلمية » فى الأخذ بالتوقعات التى تضمنتها النظرية .

العلم يقوم على التزام الموضوعية وتجنب الأحكام الذاتية . . . .

والعالم يصف . . . ويحلل ويقرر . . . ولكنه لا يصدر أحكاماً قيمية .

يقول الدكتور زكريا إبراهيم(١) « العلم لا يعرف الأوامر والنواهى ، والعالم لا يهمه ما إذا كان الموضوع الذى يدرسه حشرة صغيرة تافهة الشأن أو كائناً عاقلاً ذا إرادة واختيار ، بل كل ما يهمه أن يصف ويقرر ويحلل ويركب دون أن يصدر أى حكم من أحكام القيمة على شتى الموضوعات التى يقوم ببحثها » .

ماركس ومن تبعوه . . . لم يكتف فى أبحاثه بوصف الظاهرة الاجتماعية وتحليلها ، ولكنه أصدر أحكاماً قيمية فى العديد من جوانبها . . . وانتهى إلى أن النظام الرأسمالى يقوم على الاستغلال وأنه صائر إلى زوال . . . وما الحتمية التاريخية التى أصر ماركس على التمسك بها سوى نوع من الحكم القيمى على مسار التاريخ لا تسانده واقعة ولا تؤيده تجربة .

إن التسليم بالتوقعات التى فرضتها النظرية الماركسية لا يعتبر فى الواقع مسألة علمية . . . ولكنه يعتبر مسألة اعتقادية أى إيمان بمنطوق النظرية من عدمه . . . لأن إعمال المقاييس العلمية كما بينا يؤدى إلى رفض الصفة العلمية بالمعنى السابق . . . ولا يمكن التسليم بهذه الصفة إلا للتقدير

(١) دكتور زكريا إبراهيم « مبادئ الفلسفة والأخلاق » .

المبنى على أسس موضوعية . . . أما التقدير والتوقع الذى لا يستند إلى حقيقة تجريبية ويخضع للحدس والتخمين فإنه لا يمكن بحال أن ينعت بالعلمية . . .

ولا يبقى أمام الإنسان سوى فرضين :

الأول : أن يتعامل مع النظرية على أساس عقلانى ، أى باعتبارها جزءاً من التراث الإنسانى قابلاً للخطأ ، ونسبى التحقيق . وهنا نكون قد احترمنا العلم وطبقنا مقاييسه . . .

الثانى : أن يتعامل مع النظرية على أساس وجدانى فيقبل بها جملة وتفصيلاً ويؤمن بقوانينها وتوقعاتها . . . وفى هذا الفرض الثانى نكون أمام رفاق يؤمنون بالغيبيات فى إطار نظرية إنسانية لان هذه النظرية تنطوى على مضاربة على المجهول لا يمكن قبولها سوى من هؤلاء الذين يؤمنون بها . . . وإذا كان الإيمان « بالاشتراكية العلمية » ليس إيماناً بواقع . . . ولكنه إيمان بغيب . . . فلماذا يصر المراكسة على رفع لافتة العلمية على مذهبهم . . . ورجم غيرهم بالغيبية والشعوذة ؟ ! !

الأصل والصورة

إذا كان التبسيط أسوأ تعبير عن الحقيقة فإن التعقيد أكبر مضيع لها . . . والنظرية الماركسية بما تضمنته من إطلاق لا يقبل النسبية . . . وتعميم لا يطيق التخصيص وشمول يدعى استيعاب الواقع الإنسانى من كل جوانبه . . . قد انتهت بمنطقها ذاته إلى تعقيد فى المفاهيم وغموض فى النظرة .

ومن خلال هذا الغموض تستمد النظرية قوتها . . . والشارحون على المتون من المراكسة الجدد ، قد أفادوا كثيراً من هذا الغموض لاعطاء النظرية روحاً جديدة تتناسب ومعطيات النصف الثانى من القرن العشرين ، فحللوا وعللوا واستنبطوا وانتهوا بنا إلى آراء جديدة ونظريات جديدة ابتعدت كثيراً أو قليلاً عن النظرية الأم . . . ولكنها تشترك جميعها فى محاولة إنقاذ (التراث الماركسى) من ركام الواقع الذى ران عليه .

والمتفحص لنظرية ماركس فى طبعتها الأصلية التى صدرت إبان حياته وصور النظرية الماركسية المتداولة اليوم ليدرك مدى الشحوب الذى أصابها بالقياس للأصل الذى ادعت الانتماء إليه .

فقد كانت النظرية فى يد لينين أقل ابتعاداً عن أصولها منها فى يد ستالين . . . وكانت فى يد هذا الأخير أقل ابتعاداً عن أصولها فى يد خروشوف . . . وهكذا فنحن فى حلبة الأدب الماركسى المعاصر لا نعرف

على وجه الضبط أين نقف ولا أين نسير، إنما كل ما نعرفه أن الإضافة أو الحذف أو التعديل تم دائماً باسم النظرية الأم . . . وباسم الفكر الذى ابتدعها .

ولسنا هنا أمام تطور فى الفكر الماركسى كما يرى البعض . . . لأن تطور الفكر يستلزم حفاظاً على أسسه . . . إنما نحن هنا بصدد خروج على النظرية الماركسية وابتعاد متفاوت عن أصولها

ويبدو هذا التباعد بين النظرية والأدب الماركسى الجديد أكثر وضوحاً على ضوء واقع بعض التجارب المعاصرة التى طبقت باسم الماركسية أو بوحى منها .

فالربح والفائدة يعتبران من فائض القيمة وفقاً للنظرية الأم . . . وهما بهذا الوصف عنصران ملازمان للاقتصاد الرأسمالى القائم على الاستغلال . . . فاذا ما اختفى هذا النظام اختفى معه بالضرورة هذان العنصران

ولكننا نلاحظ قيام الربح والفائدة فى قلب النظم الاشتراكية المعاصرة ، صحيح أن دورهما فى هذه النظم يختلف عن دورهما فى النظام الرأسمالى ، إلا أن قيامهما فى حد ذاته ينفى أصلا من أصول النظرية وهى اعتبارها هذين العنصرين جزءاً من فائض القيمة الذى لابد وأن يختفى بسقوط الرأسمالية ؛ بينما يكشف الواقع أنهما جزء من الاقتصاد الأساسى الذى لا يتغير بتغير النظام وتحوله إلى الاشتراكية

وحتى نظرية المراحل التى حرص ماركس على التمسك بمضمونها . . . لم تعد تجد هى الأخرى من بين مراكسة اليوم من يدافع عنها أو يتحمس لها .

فالانتقال العنيف المباشر من الرأسمالية إلى دكتاتورية البرولتاريا . . . لم يعد لازماً عند المراكسة الجدد . . . بل أصبح من الممكن عندهم الانتقال من مرحلة الرأسمالية إلى « الاشتراكية » عن طريق النضال البرلمانى المنظم ، وذلك بالدخول فى اللعبة الديمقراطية التى تسمح بها الدول الرأسمالية ، وبالتالى فلم يعد ضرورياً الاستيلاء على السلطة بالعنف الدموى أو بالانقلاب التآمرى ، كما أشار ماركس . إنما أصبح من الممكن إدراك الحكم بالأساليب « المشروعة » التى تتيحها النظم البرلمانية فى هذه الدول .

ولننظر إلى الأسلوب الذى تستخدمه الأحزاب الشيوعية فى فرنسا وإيطاليا وإنجلترا مثلا للوصول إلى الحكم ، وسنجد أن هذا الأسلوب هو بعينه الأسلوب الذى تأخذ به كل الأحزاب العاملة بها بما فى ذلك الأحزاب الفاشية والذى يقوم على التنافس فيما بينها فى الانتخابات للفوز بمقاعد تخولها الأغلبية فى البرلمان . . .

ويقفز إلى الذهن تساؤل :

ما الذى حدا إذن بالمراكسة الجدد فى الدول الرأسمالية إلى نبذ تعاليم ماركس الأصيلة وأساليبه الثورية فى التحول إلى المجتمع الشيوعى وقبول الدخول فى لعبة الديمقراطية الرأسمالية ؟ ؟

يمكن القول فى بساطة إن الواقع هو الذى أرغم النظرية على الانصياع له . . . وهو الذى نبذ الخط الذى فرضته التعاليم الماركسية للتحول إلى المجتمع الشيوعى . فقد ثبت بالتجربة أن هذا الخط – الذى يرتكز أساساً على العنف – يتنافى واتجاهات التطور فى النظم الرأسمالية . ويصطدم

بالمؤسسات الديمقراطية والمفاهيم الثقافية السائدة بها .

فالعنصر الأول الذى تستند إليه النظرية الماركسية لإجراء التحول العنيف من الرأسمالية إلى دكتاتورية البرولتاريا هو البرولتاريا نفسها،ومن المعلوم أن المجتمع الرأسمالى لم يعرف البرولتاريا بالمفهوم الماركسى — أى العمال الذين يبيعون سواعدهم لرب العمل الرأسمالى مقابل أجر الكفاف — سوى فى مرحلة قصيرة من تطوره ، وهى المرحلة الأولى للتصبنيع التى عاصر ماركس بعض مظاهرها . غير أن هذه المرحلة انقضت بعد وفاته وانتقل المجتمع الرأسمالى إلى مراحل جديدة تختلف كثيراً عما تنبأ به ماركس ، فقد واكب تقدم النظام الرأسمالى ارتفاع محسوس فى مستويات الأجور ، وأخذت الفئات العمالية حظها فى الحياة السياسية والنقابية بعد أن كانت محرومة منها ، وتحسنت أحوالها المعيشية ، ولم يعد المجتمع الرأسمالى يعرف أثراً للعامل البرولتارى الذى أسند إليه ماركس الدور الأساسى فى عمليات التغيير الثورى . أما المبدأ الخالد الذى اجتذب الأنظار وخلب العقول « لكل بحسب حاجته » فقد انقلب فى التطبيق إلى مبدأ أكثر تواضعاً وأقل بريقا « لكل بحسب عمله » ! !

وبعد أن رفعت الثورة البلشفية علم المساواة فى الأجور بين جميع الفئات العاملة عادت تحت إكراه الواقع إلى نظام التدرج فى الأجور وأخذ هذا التدرج فى التزايد والاستفحال بمرور الزمن إلى أن وصل اليوم إلى تفاوت بين عامل وعامل وبين موظف وموظف . . .

وهذا أمر معقول . . .

فقد تناست النظرية حوافز العمل والإنتاج . . . وعندما نادت بالمساواة فى الأجور لم تضع بديلاً مقبولاً لنظام الحوافز القائم على تدرج الأجور الذى يأخذ بـه النظام الرأسمالى . . . بل تصورت عالمـا تتساوى فيه أجور العاملين على الرغم من تفاوت الأعمال وتباعد المسئوليات المتعلقة بها .

وكان طبيعياً أن يؤدى التطبيق إلى هبوط كبير فى الانتاجية أعقبه خراب اقتصادى لم يعرف له التاريخ الاقتصادى مثيلاً ، فما دام العامل والخامل يستويان . . . وما دام العمل اليدوى والعمل الفنى يتماثلان فإن حوافز العمل والإنتاج لابد وأن تهبط إلى أدنى المستويات !

لقد قيل للعامل : عليك أن تستبدل بالمزايا المادية التى يمنحها النظام الرأسمالى الإيمان بالغد الأفضل الذى يطغى فيه الإنتاج على الحاجات ويتساوى فيه الجميع فى الحقوق والواجبات . . .

ولكن الإيمان بالغد الأحمر لم يكد يدخل قلوب العاملين بحلاوة الكلمة وسحر الشعار إلا ليخرج منها بضراوة الواقع وصدمة التجربة . . . فقد ثبت أن الإيمان بالماركسية . . . لم يكن عند الغالبية العظمى من العاملين سوى إيمان برغبة تحركها الغرائز الحسية . . . وقد تبددت هذه الرغبة عند أول امتحان مع الواقع . وعندما لاح لجموع العمال أن الجنة الموعودة تبتعد كلما تضاعفت جهودهم . . وأن الغد المأمول يتلاشى كلما تزايد كدهم . . وأن المساواة المصطنعة فى الأجور لا يبررها مبرر . . ضعفت

عزائمهم . . . وتهاوت حوافزهم . . . وهبطت إنتاجيتهم عند أحط المستويات .

ماذا بقى إذن من عناصر الصورة التى حرصت النظرية الماركسية فى طبعتها الأصلية على إبرازها ؟

لاشىء سوى إطار فارغ يحاول الأنصار ملأه بدعاية رديئة !

الإنسان مادة ! !

الباحث في هذا الركن الركين الذى قامت عليه النظرية الماركسية أى المادية الجدلية لابد أن يكون مكتشفاً لحقيقة هامة طبعت الفكر الماركسى وتحكمت فى اتجاهاته، وهى النزعة العلمية التى سادت عصر ماركس ودفعت به فى طموح مدمر إلى استخدام المنهجية العلمية التى غزت العلوم الحقيقية (الفيزياء – الكيمياء – الأحياء إلخ) لاكتشاف ما أسماه بالقوانين الطبيعية التى تحكم تطور المجتمعات البشرية . وبدا تأثره بداروين فى أكثر من موضع ، حتى يمكن الجزم بأنه نقل إلى نظرياته فى الفلسفة والاقتصاد والاجتماع عدداً من المفاهيم الأساسية المستمدة من علم الحيوان !

ويبدو تأثرُ ماركس بداروين فى موضعين على الأقل :

أولا : قوله بأن الكائنات الحية تتبعُ فى تطورها طريقاً حتمياً لا مناص منه يترتب على ضغط البيئة الخارجية على الكائن الحى ومحاولة الكائن بالتالى تكييف حياته مع هذه البيئة ، ومن هنا تنقرض أعضاء أو وظائف معينة أثناء عملية التطور لعدم ملاءمتها للبيئة ، وتنمو بدلا منها أعضاء ووظائف جديدة أكثر منها ارتقاء وتعقيداً . غير أن الكائنات الحية – وهذا هو الهام هنا – لا إرادة لها فى هذا التطور ولا حول ، إنما هو مفروض عليها من الخارج كقدر لا يدفع . فلا قبل لهذه الكائنات إذن بالتحكم فى

درجة التطور ولا مداه ، ولا قدرة لها على تحويله عن مساره ، فالأمر فى كل ذلك متروك للبيئة الخارجية : « للطبيعة » .

وقد طبق ماركس وأتباعه هذه النظرية تطبيقاً كاملاً على التطور الاجتماعى ، وزعموا أن ما يمكن استخلاصه من النتائج صحيح لأن الأساس الذى ارتكزوا عليه صحيح !

ثانياً : النظرة المادية البحتة للإنسان ، تلك النظرة التى تقترب به من الحيوان فتنكر عليه النوازع الروحية والمثل العليا وتحصره فى محيط ضيق لا يتعدى مطالب الجسد ومدركات الحس .

حقيق أن ماركس استحدث تغييراً فلسفياً عندما أخذ بمقلوب الديالكتيك عند هيجل ، وخرج منه فى النهاية بمفهوم المادية الجدلية ، غير أنه لم يؤمن إلا بالجانب المادى فى الانسان ، فالعقل عند ماركس ما هو إلا أداة مادية تعكس المؤثرات الخارجية ثم تتأثر بها،ولكنه ليس فى حد ذاته بالحقيقة الفعالة المؤثرة : « إن الأفكار يبتدعها دماغ الانسان وهذا الدماغ ليس إلا مادة دقيقة التركيب وهو جزء من الجسم يعكس مؤثرات العالم الخارجى » .

ولعل أفضل ما يُرَدّ به على هذه الفكرة هو الحقيقة البديهية فى أن الفكر عامل هام رئيسى فى تغيير الواقع الاجتماعى ، ولكنه ليس محكوماً دائماً بهذا الواقع ، وليس مرتبطاً به ارتباط السبب بالمسبب ولا خاضعاً له خضوع التابع للمتبوع ، فهذه الحتمية الآلية التى يؤكدها ماركس يرفضها العلم وتنفيها التجربة . فالنظريات والآراء والأنظمة السياسية إن

هى إلا مجموعة أفكار قد تكون منبثقة عن فكرة كلية وقد لا تكون،وقد تكون ناجمة عن واقع موجود أو نابعة عن شيء مجرد يراد جعله واقعاً .

فإذا كانت منبثقة عن فكرة كلية فهي مستمدة من أفكار،وبالتالى فقد نشأت عن فكر ، وإن كانت غير منبثقة عن فكرة كلية فقد أوجدها الفكر من الواقع ، وإن كانت صادرة عن واقع موجود فهى لم تستخلص منه وحده بل شاركت فى إيجادها معه المعلومات الفكرية المسبقة ، وإن كان الفكر متعلقاً بشيء يراد إيجاده فإنها لم تنشأ عن واقع كائن بل عن فكر محض .

ويقطع فى هذا أن البحث عن منشأ الآراء والنظريات والنظم السياسية والاجتماعية السائدة اليوم فى الاتحاد السوفييتى (أى ما يعرف عند ماركس بالأبنية الفوقية) لا يمكن أن يكون فى واقع حياة المجتمع السوفييتى المعاصر ولا فى واقع حياة هذا المجتمع عندما اندلعت الثورة البلشفية إنما يكون فى الأفكار الماركسية ذاتها وما تفرع عنها من مبادئ ونظريات .

إن هناك اقتصاداً أساسياً يتشابه فى كل الدول التى بلغت درجة واحدة من التقدم التكنولوجى،فوسائل الإنتاج المستخدمة فى الولايات المتحدة « الرأسمالية » هى ذاتها وسائل الإنتاج المستخدمة فى الاتحاد السوفييتى « الاشتراكى » ، وعلى الرغم من ذلك فإن استخدامها فى الاتحاد السوفييتى لم يفرض عليه بالضرورة أن يكون رأسماليًا بل إنه لم يبدأ فى استخدام هذه الوسائل على نطاق واسع إلا بعد أن تحول إلى « الإشتراكية » . .

فأسلوب الإنتاج إذن ليس بالقوة الجبرية الحتمية التى تشل حركة

الإنسان وتخضعه لسلطانها القاهر ، والدليل أن الاتحاد السوفييتي تصرف في شكل النظام الاقتصادى والاجتماعى (الأبنية الفوقية) تصرفاً حراً ، فرتب نظم الإنتاج والتوزيع والعمل على النحو الذى رسمه لنفسه ، ولم يكن هناك إجبار أو حتمية إزاء هذا الأسلوب الإنتاجى يرغمه على انتهاج طريق معين لا مناص منه . وبالمثل تصرفت دول أخرى إزاء ذات الوضعية تصرفاً آخر ، وكان هذا التصرف وذاك نابعاً عن إدراك معين أو عقيدة معينة سابقة فى وجودها على قيام التنظيم الاقتصادى، مؤثرة فى هذا التنظيم ومحددة لأساليبه وأهدافه . . .

ولا يقدح فى هذا القول بأن الإدراك « أو العقيدة » هو بدوره نتيجة لعوامل اقتصادية سابقة عليه فى كل من الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة لأن هذا لا ينفى الاختيار الحر والتصرف الإرادى فى أشكال التنظيم السائد فى كل منهما .

فالفكر عامل كبير فى قيام الأنظمة والنظريات والآراء وإن لم يكن العامل الوحيد ، وإليه يسند الدور الأكبر فى تغيير كيان المجتمع بالنهوض به أو تعطيل نموه . . . وإليه يعود أمر تكييف العلاقات الاجتماعية وتحديد السلوك الإنسانى إلى حد بعيد .

ومثال من واقع التاريخ العربي والإسلامى فيه الدليل كل الدليل على بطلان الزعم بأن واقع الأفراد المادى هو الذى يحدد إدراكهم . فواقع العرب المادى يوم جاء الإسلام كان فى تناقض كامل مع قيمه وتعاليمه . وجاءت قيم الإسلام وتعاليمه لتحدد لهم حياتهم المادية وأسلوب

معيشتهم ، كذلك واقع البلاد التى دخلها الإسلام كان هو الآخر فى تناقض كامل مع قيم الإسلام وتعاليمه،وعلى الرغم من ذلك طبقت هذه القيم والتعاليم على مجتمعات هذه البلاد فقلبتها كلها وجعلت منها مجتمعاً واحداً متماسكاً يحكمه نظام واحد وتسوده عقيدة واحدة وهو المجتمع الإسلامى .

فى هذا المثال المحسوس يتضح كيف أن العقيدة هى التى أثرت فى واقع الحياة المادية فغيرت منه ، أى أن هذه العقيدة هى التى حددت للناس معيشتهم وطرائق سلوكهم إلى درجة كبيرة،سواء عندما نزلت هذه العقيدة مع قيام الرسالة المحمدية فى الجزيرة العربية أو حين حملت ونقلت إلى خارجها عند انتشار الإسلام إلى أطراف الأرض بالفتوحات أو الدعوة .

إن القيم الأخلاقية مثلا ليست فقط انعكاساً للوضعية الاقتصادية كما يقول ماركس وأتباعه،بل إن لها مقياسًا ثابتاً فى كل زمان ومكان ، وجاءت الأديان لتؤكد هذا المقياس وترسم حدوده فى وقت كان فيه الواقع الاقتصـادى للمجتمعات وخاصة المجتمع العربى الجاهلى يبيح الغزو والقتل والاغتصاب والاعتداء على أموال الغير وإهدار حقوق المرأة . . إلخ .

ومثال بسيط يبين أن القيم الأخلاقية ليست بالضرورة انعكاساً للواقع الاقتصادى . . . فالصدق يعتبر قيمة أبدية لا يتغير جوهرها بتغير العصور . . . ولا يتبدل فحواها بتبدل المراحل . . . فإذا رأيت إنساناً وادعيت أنك لم تره . . . وإذا سمعت إنساناً وادعيت أنك لم تسمعه . . . وإذا لمست جسداً وادعيت أنك لم تلمسه . . . فأنت فى كل الأحوال

مجانب للصدق . . . ومرتكب للكذب . . . سواء كنت فى عصر الفراعنة أو فى عصر الرومان . . . أو فى العصور الوسطى . . . أو فى العصر الراهن . . .

. . . تلك الأمور وغيرها تعتبر اليوم من البداهة بحيث لا تحتمل النقاش والجدل ، فالإنسان يولد معه على الأقل ميلان مستقلان عن واقع الحياة المادية : حب الحياة والرغبة الجنسية عندما يحل موعدها المحدود . وهاتان النزعتان على الأقل لا تنشآن عن العوامل الاقتصادية ظالمة كانت هذه العوامل أو غير ظالمة ، محققة لأطماع الإقطاع أم لشهوات البرجوازية . . . فكل مخلوق يوجد فى هذا الكون تحت ظل أى نظام اجتماعى يتشبث بأهداب الحياة ولا يتركها إلا مكرهاً،وتدركه الرغبة الجنسية ولا يمسك عنها إلا جاهداً،وكل ما يمكن أن يصنعه الواقع المادى بظروفه الاقتصادية هو (تكييف) الصورة التى يحيا بها الإنسان أو ملاءمتها فيرفعه إلى حياة القصور أو يهبط به إلى عيش الكهوف ، والصورة التى يقضى بها حاجته الجنسية فيقضيها فى الطريق العام أو البيت أو الغابة . ولكن هذا الواقع المادى ليس بمنشئ لهذه الرغبة أو تلك ، فهى كلها من أصل نابع عن النفس فقط .

هذه الحقيقة من الوضوح والبساطة بحيث يستحيل إنكارها . . . ولكن ماركس وأتباعه استطاعوا مواجهتها والخروج بتفسير ملائم ينقذ النظرية من تكذيب الواقع ، فذهبوا إلى الاعتراف بأن الغرائز تستقل فى وجودها عن البناء التحتى لأنها من العناصر اللاصقة بجوهر الإنسان،وبالتالى لا يمكن لها أن تتغير إلا بتغير هذا الجوهر . وبذلك يستثنى المراكسة حب

البقاء والرغبة الجنسية من الخضوع لقانون المادية الجدلية .

هذا الاستثناء قصد به إنقاذ النظرية من المأزق الذى تردت فيه عندما ردت كل ما هو معنوى إلى واقع الحياة المادية.ثم اكتشف أنصارها أن هناك ميولا غريزية فى الإنسان لا تستقيم وهذا التخريج ، فأعملوا اجتهادهم لاستثناء بعض الغرائز من الخضوع لقانون المادية الجدلية . . . ولكن اجتهادهم هذا أسقطهم فى مأزق جديد . . . أشد حرجاً . . . وأفدح خطراً :

فمن المعلوم أن إلغاء الملكية الفردية يعتبر من الأركان الأساسية للنظرية الماركسية . . . وهنا يثور التساؤل : هل غريزة حب التملك تعتبر بدورها مستقلة فى قيامها عن البناء التحتى . . . أم هى لاحقة بهذا البناء . وبمعنى آخر هل هى غريزة ترتبط بجوهر الإنسان أم بأنماطه السلوكية التى تتشكل وفقاً للواقع الاجتماعى .

يجيب المراكسة هنا أيضاً بغير تردد بقولهم إن حب التملك ليس بالغريزة اللاحقة بجوهر الإنسان ، ولكنه من أنماط البناء الفوقى التى تتبع الواقع المادى للمجتمع وجوداً وعدماً .

يا للعجب ! ! .

حب البقاء غريزة . . .

والرغبة الجنسية غريزة . . .

وحب التملك والاقتناء ليس بالغريزة ولكنه سلوك ينبثق من الواقع المادى للمجتمع ! !

ونحن نسأل المراكسة إن كان حب التملك والاقتناء . . حب

الاستحواذ على الأشياء والاستئثار بها قد تغير فى الإنسان منذ بدء الخليفة ، أم أنه ظل ثابت الجوهر على الرغم من التغيرات والتقلبات التى طرأت على الواقع المادى للمجتمعات البشرية .

هل كان طفل العصور القديمة أقل نزوعاً إلى الأثرة والتملك من طفل العصور الوسطى أو الحديثة ؟

إن مؤدى النظرية الماركسية هو اختلاف النزعة السلوكية تجاه الاقتناء والتملك باختلاف العصور والنظم .

فسلوك طفل العصر الاقتصادى القديم (حيث يسود نظام الأموال المباحة والملكية المشاعة) يختلف عن سلوك طفل العصر الاقتصادى الحديث (حيث تسود النظم الرأسمالية والملكية الفردية) .

وهذه النتيجة كما يبدو غريبة كل الغرابة عن الواقع التاريخى والشواهد الملموسة .

فحب الاقتناء والتملك أصل من الأصول النفسية التى تقوم على حب الذات قبل حب الغير . . . وحب إيثار هذه الذات بالأموال والأشياء إن هو إلا إشباع لجانب غريزى فى الإنسان لا يتبدل بتبدل العصور ولا يتغير بتغير الأزمان . فالطفل السوفييتى الذى تربى فى نظام يلغى الملكية الفردية ليس أقل نزوعاً إلى الاستئثار والتملك من الطفل الأمريكى الذى تربى فى نظام يبيح الملكية الفردية ويقدسها . . .

لقد استطاع النظام السوفييتى منذ أكثر من نصف قرن من الزمان إلغاء حق الملكية . . . ولكنه لم يستطع منذ أكثر من نصف قرن من الزمان إلغاء

غريزة التملك (أو حب التملك) من نفوس المواطنين السوفييت . . . وما التهافت على الملكية والسعى إلى اقتناء الذهب . . . وانتشار السوق السوداء إلا من الظواهر الدالة على مدى تمكن هذه الغريزة من نفوس السوفييت على الرغم من عظم الضربات التى أنزلتها الدولة بالملكية والملاك .

ومرة أخرى يخلط المراكسة بين النشوء والتكيف . . . فحد اليقين الذى لا مراء فيه أن غريزة حب الاقتناء والتملك أصل من الأصول النفسية التى ترتبط بجوهر الإنسان . وهى بهذا الوصف مستقلة فى وجودها عن الواقع الاقتصادى ولا تخضع بحال لمراحل تطوره، وكل ما يفعله هذا الواقع هو تكييف هذه الغريزة وتشكيلها بما يتلاءم وظروف كل مرحلة . . . ولكنه لا يخلقها بحال من العدم .

هذا هو الخلط الذى سقط فيه المراكسة . . . عندما تصوروا أن غريزة حب التملك بناء فوقى يتغير بتغير الواقع المادى . . . ومع كل ذلك فهم لا يتحرجون من هذا الخلط ولا يستحون . . . لأن الحياء عندهم بناء فوقى ! !

المادية والصراع

هل صحيح أن تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع حول المادة . . .

وهل صحيح ما يدعيه ماركس من أن مطالب الإنسان تنحصر فى ثلاثة : الغذاء والكساء والإشباع الجنسى .

هل صحيح أن حول هذه الأمور تصطرع البشرية من القدم . . . ومن أجلها تتوالى الأنظمة . . . من الرق إلى الإقطاع إلى البورجوازية . . . الخ .

يقول ماركس « إن الطاحونة تعطينا مجتمع الأسياد الإقطاعيين بينما تعطينا آلة البخار مجتمع الرأسماليين الصناعيين »

وهكذا يتناسب مع كل نمط من أنماط الإنتاج نمط من أنماط المجتمع . . .

والانتقال من نمط إلى آخر لا يكون إلا بصراع شاق مرير ينتهى بفوز طبقة على طبقة . . . واستيلائها على مقاليد السلطة فى المجتمع . . .

فبالأمس دار الصراع عنيفاً بين الإقطاع والبورجوازية وانتهى بفوز الأخيرة . . . واليوم ينشب صراع جديد بين البورجوازية والبرولتارية . . .

وهذا الصراع لابد وأن ينتهى بانتصار البرولتاريا واستيلائها على مقاليد الحكم .

ومناط البحث هو ذلك الصراع الذى يدعيه ماركس بين ما سماه بالطبقات . . .

هل هذا الصراع حقيقة واقعة يمكن على ضوئها تفسير تاريخ البشرية . . .

وهل سبب هذا الصراع هو الاشباع الحسى من غذاء إلى كساء إلى إشباع جنسى .

حقيق أن التاريخ الإنسانى يعرف صراعاً بين الفئات الاجتماعية . . . ولكنه يعرف أيضاً وفاقاً بين الفئات الاجتماعية . . .

فإذا صح القول بأن تاريخ البشرية هو تاريخ الصراع بين الطبقات فإنه يصح القول أيضاً بأن تاريخ البشرية تاريخ الوفاق بين الطبقات ! ! !

فكما اصطرعت فئات أو طبقات حول وسائل العيش المادية . . . وحاولت إدراك أهدافها بالوسائل الدموية . . . فقد اتفقت فئات أو طبقات وحاولت ادراك أهدافها بالطرق السليمة . . .

هذا الوفاق والاتفاق الذى ميز البشرية لفترات طويلة من تطورها . . . لم يعترف به ماركس ومن تبعوه . . . ولم يتصوروا لحظة إمكانية قيام هذا الوفاق والاتفاق بين الفئات الاجتماعية فى المستقبل . . . وهكذا جاءت نظريته وتنبؤاته نكراناً لواقع اجتماعى لا يمكن نكرانه وهو واقع الوفاق والاتفاق الذى يطبع كل مجتمع بشرى ينبض بالحركة والحياة . . .

ولنا أن نتساءل – من زاوية أخرى – إن كان صراع الانسان يدور فقط حول المادة وينشب فقط بسببها ؟ ؟

يؤكد ماركس أن اساس الصراع هو المادة . . . هو الواقع المادى الذى يعيش عليه المجتمع .

هذه النتيجة يرفضها العلم لأن العلم لا يقبل رد التغيير إلى عامل واحد

وهو الواقع المادى للمجتمع إنما ينسب التغيير إلى العديد من العوامل المادية والمعنوية،ومن هنا لا تنحصر اهتمامات الإنسان فى نطاق ما هومادى ضرورى للحياة فقط ولكنها ترقى إلى ماهو معنوى أيضاً . . .

فكما تنصرف اهتمامات الإنسان بضرورات الحياة المادية من غذاء وكساء إلخ تنصرف أيضاً إلى ضرورات الحياة المعنوية من مشاعر المحبة والتعاطف والتراحم إلخ .

فالإنسان لا يحيا بالخبز فقط . . . إنما يحيا أيضاً بتلك الأمور المعنوية التى تشكل جانباً له خطره من حياته . . .

فلو كان الانسان كماً فقط لحلت جميع مشكلات الانسانية . . . ولكن الإنسان كيفٌ أيضاً يتسم بالروح والمدارك والمشاعر . ومن هنا يصعب حصره فى نطاق المادة . . . وربطه فى إسارها على نحو لا يخرج عنه ولا يحيد .

ألم يقاتل الإنسان – منذ الأزل – من أجل قيم أخرى غير تلك القيم المادية .

ألم يضح بحياته من أجل فكرة أو مبدأ . . . لا صلة لها من قريب أو بعيد بالبناء التحتى وما ينطوى عليه من ماديات ؟

الحروب الدينية ، هل كانت صراعات حول المادة ومن أجلها ؟ لا . . .

الحروب الإسلامية لم تندلع من أجل المادة . . . والذين قاتلوا واستشهدوا فى هذه الحروب لم يقاتلوا ولم يستشهدوا من أجل المادة ، إنما من أجل إعلاء قيمة روحية يؤمنون بها . . . يعيشون لها ويموتون فى سبيلها .

واذا كان ماركس ومن تبعوه يتهمون قادة هذه الحروب باستغلال الدين

من أجل تحقيق مآرب مادية،فإن هذا الاتهام لن يغير من الواقع شيئاً . . . وهو أن القواعد العريضة لم تكن تقاتل . . . ولم تكن تستشهد من أجل جاه أو من أجل كسرة خبز . . .وإنما كانت تقاتل وتستشهد فى سبيل الله . . . وفى سبيل نصرة دين الله .

إن فى التاريخ البعيد والقريب العديد من النماذج لأفراد وشعوب قاتلوا من أجل إعلاء قيمة روحية . . . أو نشر دين . . . أو الدفاع عن شرف . . .

بل ان صراعات من هذا النوع كانت السمة المميزة للبشرية لعصور ما قبل طغيان المادة،أى قبل عصور الرأسمالية « الحرة » والاشتراكية العلمية » ولم يتحول صراع إلى قتال من أجل المادة وحدها سوى على يد الفلسفات المادية من ليبرالية إلى ماركسية .

فهذه الفلسفات قد عزلت الإنسان عن روابطه الروحية وحصرته فى إطار المادة فجعلت لها من حياته مكاناً طاغياً يناهض إنسانيته . . .

ونحن لا ننكر ضرورة المادة ولزومها للحياة . . . ولكننا ننكر أنها العامل الوحيد المتحكم فى حياة البشر . . . وننكر أنها السبب الوحيد الذى من أجله يصطرع البشر .

فهذه الجبرية المادية التى يقول بها ماركس ومن تبعوه . . . لا تنهض سببا كافيا لتفسير مراحل الصراع الإنساني . . . لأن بذور هذا الصراع كما يمكن أن تكون فى المادة يمكن أن تكون فى الروح .

التحتى والفوقى

« ليس شعور الانسان هو الذى يحدد وجوده ولكن وجوده هو الذى يحدد شعوره » ذلك هو الأصل الكبير الذى عليه أقام ماركس ماديته الجدلية . . . واليه رد كل التغييرات الاجتماعية ومنه صاغ تنبؤاته عن مآل البشرية .

فالبناء التحتى ، أى واقع المجتمع المادى من إنتاج إلى أساليب إنتاج هو الذى يحدد إدراك الناس ويكيف مشاعرهم .

وينبنى على ذلك أن القوانين والعادات والثقافات وحتى الأديان تعتبر كلها من مكونات البناء الفوقى الذى يعكس وضعية البناء التحتى ويتكيف تبعاً له . . .

فعندما تفكر . . . فأنت تفكر انطلاقاً من هذا البناء التحتى . . . تفكر انطلاقاً من واقع المجتمع المادى . . .

فى نطاق نوع الآلة التى تنتج وسائل المعيشة المادية من غذاء وكساء يتحدد وعى الإنسان من معتقدات ومشاعر وآراء . . . وكلما تطورت هذه الآلة تطور وعى الإنسان . . .

ذلك أن نوع الآلة . . . طاحونة هواء أو آلة بخارية هو الذى يفرض طريقة الإنتاج . . . وطريقة الإنتاج هى التى تفرض العلاقات التى تقوم بين الإنسان والإنسان فى المجتمع وهذه العلاقات لابد أن تقوم بمناسبة الإنتاج .

فالعلاقات الإنسانية التى قامت فى مجتمع الإقطاع فرضتها طاحونة الهواء .

والعلاقات الإنسانية التى قامت فى المجتمع البورجوازى فرضتها الآلة البخارية . . . وهكذا .

وبناء على ذلك فإن إمكانيـة وسائل الإنتاج . . . وطريقة توزيع ثمار الإنتاج . . . تختلف بالضرورة من مجتمع طاحونة الهواء إلى مجتمع الآلة البخارية .

واذا تمشينا مع هذا المنطق . . . فانه يجب القول بأن مجتمع الآلة البترولية ومجتمع الآلة الكهربائية . . . ومجتمع الآلة الذرية . . . ومجتمع الحاسبة الإليكترونية كلها مجتمعات تقابلها بالضرورة أشكال جديدة من الوعى الاجتماعى . . . وتنهض فى مقابلها بالضرورة صور جديدة من علاقات الإنتاج .

وواقع الأمر أن بين الحق والباطل فى هذه المقولة الماركسية . . . خيطاً واهياً رفيعاً . . . لا يستبين بالعين المجردة . . . بل لابد من إعمال أدوات العلم لاكتشافه . . . وتحديده .

لا جدال فى أن تطور نوع الآلة . . . وتغير طرق الانتاج تؤثر بالضرورة فى العلاقات الانسانية التى تثور بمناسبة العملية الإنتاجية . . . فطاحونة الهواء تعمل فى ظروف تختلف عن ظروف الآلة البخارية وتستوعب عمالا يختلفون من حيث العدد والكفاءة عن عمال الآلة البخارية . . . وتنتج كماً وكيفاً يختلف عما تنتجه الآلة البخارية . . . وأسلوب إدارتها يختلف عن

أسلوب إدارة الآلة البخارية . . . فلماذا إذن يراد لطاحونة الهواء نمط من الحياة الاجتماعية مساو للنمط الذى يقابل الآلة البخارية ؟ ؟

لابد إذن أن يختلف نمط الحياة الاجتماعية بين هذه الأداة وتلك ، وأن تختلف أيضاً بعض العادات والآراء والمعتقدات . . . ولكن هل هذا الاختلاف نابع دائماً عن الآلة . . . ناشئ دائماً عما سماه ماركس بالواقع المادى للمجتمع ؟

و بمعنى آخر . . . هل تطور الآلة هو السبب الأصيل لتطور نمط الحياة الاجتماعية ونشوء عادات وتقاليد وآراء جديدة ؟

تطور الآلة أو استبدالها لا يعتبر سبباً لتطور نمط الحياة الاجتماعية أو تغيره . ولكنه فى حد ذاته نتيجة تعود أسبابها إلى عوامل أخرى . . .

فكما أن هناك فارقاً بين المرض وسبب المرض . . . فهناك فارق بين تطور الآلة وسبب هذا التطور .

المرض هو النتيجة . . .

وسبب المرض قد يكون ميكروباً أو ضعفاً عضويًّا أو غيره . . .

تطور الآلة هو النتيجة . . .

وسبب هذا التطور . . . اكتشاف علمى . . . أو ابتكار . . . أو تجديد. فالسبب إذن ابتدعه عقل الإنسان . . . وقد يكون هو ذاته ، أى السبب ، راجعاً إلى واقع مادى أولا يكون . . . وقد يكون خليطاً من الواقع المادى والفكر المحض . . . انما لا يمكن الزعم إطلاقاً بأن تطور الآلة راجع إلى واقع مادى بحت . . .

أما القول بأن نوع الآلة وأسلوب الإنتاج يقابلهما بالضرورة نمط من أنماط المعيشة وشكل من أشكال الوعى الإنسانى . . . فقول تعوزه الدقة . . . وينقصه التحديد . . .

فأنماط الحياة الاجتماعية وأشكال الوعى الإنسانى لا تتبدل بالضرورة مع تبدل نوع الآلة وأسلوب الإنتاج فتندثر كل القيم والمعتقدات وقواعد السلوك التى كانت قائمة فى مرحلة ما، وتنشأ قيم ومعتقدات وقواعد سلوك جديدة . . . انما تبقى قيم ومعتقدات وقواعد سلوك ثابتة الأصول رغم تغير نوع الآلة وتبدل أسلوب الإنتاج . . . وكل ما يطرأ عليها هو عملية تكيف مع مقتضيات الآلة الجديدة وأسلوب الإنتاج الجديد . . .

ولنتساءل عما إذا كانت المعتقدات الدينية مثلا قد تبدلت فى أوربا المسيحية بمرور المجتمع الأوربي من مرحلة الاقطاع إلى مرحلة الآلة البخارية ومن مرحلة الآلة البخارية إلى مرحلة الآلة البترولية .

ان أوربا الغربية لا زالت تحمل العقيدة المسيحية برغم مرورها بمراحل تطور مادية عديدة . . . وكل ما حدث هو تكيف المسيحيين مع أدوات الانتاج الجديدة وأساليب الإنتاج الجديدة ... والتكيف شيء والنشوء والاندثار شيء آخر .

واذا كانت هناك مفاهيم وتقاليد تتغير وتتبدل بتغير أدوات الانتاج وأساليب الإنتاج، فإن هناك قيماً ومعتقدات راسخة . . . لا يلحقها تغيير . . . ولا ينالها تبديل ، وكل ما يمكن أن يلحقها هو التكيف والتلاؤم بظروف الانتاج المادية . . .

ويثور تساؤل جديد : هل يؤثر الواقع المادى للمجتمع فى أنماط الحياة وأشكال الوعى دون أن يتلقى تأثير هذه الأخيرة ؟ وبمعنى آخر هل التأثير من جانب واحد فقط وهو الجانب المادى أم أن التأثير يمكن أن يحدث ابتداء من الجانب الآخر أى الجانب المعنوى من آراء ومعتقدات إلخ . . .

يجيب الماركسة بالنفى . . . ويؤكدون أن السبب المنشئ والمحرك لكل تغير هو الواقع المادى للمجتمع . . . أما البناء المعنوى من آراء ومعتقدات فلا يمكن أن يحدث التغيير أو يؤثر فيه ابتداء . . .

وفى هذا الادعاء تطاول على الحقيقة لأنه فى أبسط تعبير ينطوى على إطلاق بغير تقييد . . . وتعميم بغير تخصيص .

فاذا كان صحيحا أن الآراء والمعتقدات تتأثر بالبناء المادى للمجتمع فإنه من الصحيح أيضاً أنها يمكن أن تؤثر فى هذا البناء ابتداء . . . فهناك تأثير متبادل بين التحتى والفوقى،لا تأثير من جانب واحد يصدر عن البناء التحتى وحده،وما يصدق على العادات والثقافات يصدق أيضاً على القوانين ، فكلها تؤثر فى البناء التحتى ويمكن أن تتأثر به .

إن رد شعور الإنسان إلى واقعه المادى يضعنا أمام تساؤل آخر :

هل الحب مثلا شعور نابع عن النفس أم عن البناء المادى للمجتمع . . .

وبعبارة أخرى :

هل يتلون الحب بالمصالح الطبقية فيصير مع البورجوازيين حباً بورجوازياً ومع البرولتاريين حباً برولتارياً . . ؟

ان تطبيق النظرية الماركسية يؤدى لا محالة بنا إلى هذه النتيجة ؟ ولكن

امعان النظر فى ظاهرة الحب – بعيدا عن إسار النظرية – يقودنا إلى نتيجة أخرى .

إن للحب أعراضاً ومقاييس ، فإذا ما استولى على القلوب حرك من الأحاسيس والعواطف ما لا يختلف باختلاف الانتماء الطبقى للمحبين . . .

فالبورجوازى والبرولتارى يستويان تماماً أمام عاطفة الحب . . . فكلاهما ينعم بالحب وكلاهما يشقى بالحب . . . والفارق بينهما – ان كان ثمة فارق – يكمن فى السلوك الخارجى لكليهما . . . فسلوك البورجوازى تجاه من يحبُ ، يختلف عن سلوك البرولتارى تجاه من يحب . واختلاف السلوك مردود إلى اختلاف البيئة والعادات والمحيط الثقافى . . . فهناك مجموعة من القواعد والآداب تفرضها البيئة ويمليها الوسط ، ولكن كل هذه القواعد والآداب ليست سوى أنماط من السلوك الخارجى للفرد تتشكل تبعاً للبيئة والمحيط . . . ولكنها لا تؤثر بحال فى جوهر الحب إذ يظل دائماً إحساساً عاطفياً مصدره النفس . . .

وواقع الأمر أن ماركس يخلط مرة أخرى بين النشوء والتكيف . . . فمنشأ الحب فى مثالنا هذا لا يمكن البحث عنه فى البناء التحتى للمجتمع فى العلاقات التى تثور بمناسبة الإنتاج ، إنما فى ثنايا العاطفة الإنسانية التى تنبع عن النفس . أما التكيف فيأتى من البيئة المادية والمعنوية التى تحيط بالمحب . . . وهذا التكيف يفرض عليه أنماطاً من السلوك تجاه من يحب تتغير تبعا لتغير هذه البيئة . . .

إن منطق المادية الماركسية لابد وأن ينتهى بنا إلى مثل هذه النتائج

الغريبة ، لأن تقسيم البنيان الاجتماعى على هذا الوجه التحكمى إلى تحتى وفوق . . . قد كفى المؤمنين بالفكرة مؤونة البحث والتدقيق . . . وحصر عقولهم فى عمليات آلية من التصنيف والاستنتاج لا يدفع ثمن أخطائها إلا الغافلون .

التسيير والتخيير

فى قضية الانسان الكبرى وموقفه من التخيير والتسيير يقطع المراكسة برأى يدّعون انضباطه على قاعدة علمية وهو الجبرية الاقتصادية التى لا حيلة للانسان أمامها . . . ولا قبل له بدفعها ، فهو مسير بالبناء التحتى الذى يشكل شعوره ويصنع تقاليده ويوجه مسيرته . . . فهو والحالة هذه يتحرك مع الواقع المادى ويخضع له ، لأن هذا الواقع المادى هو المنشئ لما فوقه من شعائر وتقاليد ومعتقدات . والتفاعل المتبادل بين الفوقى والتحتى لا يقدح فى صحة هذه النظرة لأن النشوء يجىء دائماً من التحتى وليس العكس . وهكذا يتحرك الإنسان مع الواقع المادى مسيراً لا مخيراً،فإرادته لا تستقل فى وجودها عن هذا الواقع وسلطة التقرير التى يتمتع بها وهم كاذب لأنها لا تخرج به عن الخط المحتوم المتمثل فى الاتجاه المادى للتاريخ ! !

ويقول المراكسة فى ذلك :

« يستنتج المثاليون خطأ أن البشر يقررون تاريخهم حسب رغبتهم الحرة وهم مقتنعون بأن المجتمع البشرى يتخلص من المشاعية البدائية بفضل القرار الذكى لبعض الأفراد،وأن فترة العبودية هى نتاج ارادة شخصية وأن الإقطاعية عائدة إلى رأى بعض الأشخاص وأن الرأسمالية هى تطبيق تصميم صاغه ذكاء خارق » .

إلا أن الانسان لا يقرر تاريخه وفقاً لرغبته الحرة وارادته الواعية . . .

ولكنه مكره على المضى قدما فى الطريق الذى يفرضه واقع الحياة المادية من وسائل إنتاج وأنماط إنتاج وعلاقات إنتاج !

ويؤكد المراكسة هذا المعنى بقولهم « تعلمنا المادية التاريخية أن واقع البشر الاجتماعى – أى شروط الحياة المادية – هو الذى يحكم وعيهم الاجتماعى : أفكارهم ، آراءهم ، أحكامهم ، عقليتهم الخ »

وعلى ذلك لا يمكن الكلام عن ارادة انسان أمام مسيرة التاريخ . . . ولا يمكن الادعاء بأن هذه الارادة قادرة على صنع الأحداث ابتداء وقادرة على التحكم فى مسارها أصلا . . .

فارادة نابليون وهم كاذب . . .

وارادة هتلر محض خيال . . .

شخصية نابليون لم تترك بصماتها العريضة على تاريخ القارة الأوربية طوال القرن التاسع عشر . . .

وشخصية هتلر لم تصنع مجرى الأحداث التى هزت العالم خلال النصف الأول من القرن العشرين . ! ! إنما الصحيح أن نابليون وهتلر وغيرهما من كبار القادة والمفكرين كانوا مدفوعين دفعاً إلى سلوك الاتجاه الذى أملاه الواقع المادى للمجتمعات التى خرجوا منها ! ! !

نتيجة غريبة . . . تصدم القارئ العادى . . . أما القارئ « المتمركس » المدرب على أصول الدعوة . . . فلا يجد فى هذا الزعم غرابة . . . ولا يجد فى هذا الادعاء تطاولا على الحقيقة وإنكاراً لأبسط قواعدها . . . وقد أسلمه أصحاب النظرية والشارحون على المتون من أتباعهم مفاتيح التحايل للخروج

من هذا المأزق ، وفى ذلك يقولون : « إن البشر . . . الجماهير ، الشعوب . . . هم بالطبع صانعو التحول التاريخى والتطور الاجتماعى غير أن التحول والتطور محكومان بقوانين اجتماعية موضوعية نابعة من الشروط المادية لوجود المجتمع نفسه »

وكل لبيب يرى أن الشطر الثاني من هذا النص يلغى الشطر الأول . . . فما اعترفوا به للانسان فى صدر النص سحبوه فى آخر النص . . .

فالإرادة الإنسانية ليست مستقلة بحال عن « الشروط المادية لوجود المجتمع نفسه »

والإنسان بالتالى لا يريد . . . إنما يُراد له . . . ولا يفعل إنما يُفعل به . . . فهو محكوم بالواقع المادى للمجتمع بالغذاء والكساء . . . والاشباع الجنسى . . . بكل ما يتطلبه الجسد . . . وتستوجبه الغرائز . . .

وواقع الأمر أن كثيراً من العناصر التى سماها ماركس ومن تبعوه بالأبنية الفوقية كالأفكار والمشاعر والآراء والنظم السياسية إلخ ليست ناشئة بالضرورة عن الواقع المادى للمجتمع (أو البناء التحتى) بل يمكن أن تقوم باستقلال كامل عنه . فالواقع المادى للمجتمع ليس بمنشئ للإرادة الإنسانية وإن كان من الممكن أن يؤثر فيها . . . وأن يوجه مسارها . . . وأن يحدد تطورها . . . ذلك أنها ترتبط بجوهر الانسان من حيث هو كائن مادى ومعنوى فى آن . . .

وهل يمكن القول بأن قرار نابليون بغزو أوربا أو قرار هتلر بدخول الحرب ضد روسيا قد أملتهما معاً الظروف المادية للمجتمع الأوربي بغير أن يكون لارادة الرجلين دخل مباشر فى صنع هذه القرارات ؟ ؟

ان الفارق بين ما يزعم المراكسة وما تسجله ملاحظة الواقع . . . من هذه الزاوية . . . هو الفارق بين الممكن والحتمى . . . فالممكن أن تتأثر الإرادة الإنسانية بالواقع المادى للمجتمع . . . أما أن يكون هذا الواقع المادى مصدرها الوحيد . . : وموجهها الاوحد . . . فهذا هو الحتم الذى ترفضه الملاحظة . . . وتأباه التجربة . . . .

فإذا ما سلمنا بأن الإرادة الإنسانية ليست ناشئة عن البناء التحتى وليست مرتبطة به برباط حتمى فإنه يجب التسليم لهذه الارادة بقدرتها على صنع الواقع وتشكيل الأحداث كما يجب التسليم لها بالقدرة الدائمة على تصويب الأحداث وإعادة ترتيبها . . .

إن الأخذ بالنظرة الماركسية تجاه الانسان والتاريخ لا يعنى سوى التسليم بتبعيــة الإرادة الإنسانية للواقع المادى للمجتمع . . . أما الاعتراف بإمكانية استقلال هذه الارادة وقدرتها على حرية الحركة بعيداً عن هذا الواقع فانها تقودنا إلى نتيجة مؤداها فقدان التاريخ لمدلوله المادى فلا يبقى له من معنى سوى ذلك الذى يريده الانسان . . . صانع مصيره . . . صانع تاريخه . . .

الصفوة والطبقة

هل يظل الإنسان موصوماً بواقعه الطبقى . . فلا ينسلخ عن هذا الواقع من الميلاد إلى الموت ؟

إن فى تحليل المراكسة وتطبيقاتهم ماينبئ بذلك . . بل وأكثر من ذلك فهم يعتبرون أن الواقع الطبقى للإنسان لامفرمن احتماله . ولا جدوى من الهروب منه إلا بعمليات تنكر آلية تفرضها تعاليم مذهبهم . .

أما إذا ظل الإنسان بعيداً عن هذه التعاليم . . أورافضاً لها فإن سماته الطبقية من مفاهيم وسلوك ستظل عالقة بأعماله لاحقة بشخصه ، إلى أن يعترف يوماً بالماركسية أو يكره على الاعتراف بها فى مجتمع يأخذ بتعاليمها ويفرضها قسراً على أعضائه .

والمتابع للماركسية . . من النظرية إلى التطبيق لا يعدم الأمثلة على ذلك،فالنظرية تلخص تاريخ الإنسانية فى صراع طبقى جرى ويجرى منذ الأزل وتحدد مراحل التطور الاجتماعى بذلك الصراع الطبقى .

والماركسية تبنى التصنيف الطبقى على أساس مادى ، إذ تعتبر أن الطبقة المستغلة فى كل عصر . . هى الطبقة التى تمسك بمقاليد الإنتاج .

فهولاء الذين يملكون وسائل الإنتاج المادية فى المجتمع يشكلون طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات . . وهذه الطبقة بالضرورة هى الطبقة المستغلة ! !

كيف ذلك ؟

لزيادة الإيضاح يقول ماركس : إن أساليب الإنتاج ذاتها تخلق علاقات إنتاج جديدة . بين أصحاب وسائل الإنتاج (المُستَغَلِينَ) والذين يقومون بأعباء الإنتاج (المُستَغَلِينَ) وهذه العلاقات تنشئ أنماطاً من السلوك وطرقاً من التفكير تحدد الوعي الطبقي عند هؤلاء وأولئك . . .

الطبقية إذن ترتبط بنوع الآلة وشخصية مالكها . . الطاحونة كانت مملوكة للسيد الإقطاعي . . وكانت إدارتها موكولة للعبيد . . . لذلك كان مجتمع العصور الوسطى مقسماً إلى طبقة الإقطاعيين المستغِلين وطبقة العبيد وخدام الأرض المستغَلين .

الآلة البخارية مملوكة (للبورجوازى) . . . وإدارتها موكولة للعمال « البروليتاريا » . . . لذلك يتكون مجتمع اليوم من طبقة البرجوازيين الصناعيين المستغلين . وطبقة العمال « البرولتاريا » الكادحين المستغلين .

ويحق لنا وفقاً لهذا المنطق العجيب أن نتساءل عن كيفية تصنيف مجتمع اليوم فى أوربا وأمريكا حيث تبدل نوع الآلة وتغير أسلوب الإنتاج ، مرات ومرات ،فقفزنا من ثورة صناعية إلى ثورة صناعية دون أن يصحب ذلك أى تغيير طبقى جذرى كما أكد ماركس . . فلازالت « البورجوازية » هى « الطبقة » المسيطرة فى أوربا وأمريكا منذ اختراع الآلة البخارية وحتى اختراع الآلة الذرية ! !

لقد مرّ المجتمع الغربى بثورات تكنولوجية عديدة نالت ولا شك من تركيبه وأثرت فى تكوينه . ولكن هذا النيل والتأثير ليسا فى الاتجاه

الماركسى . . . إنما فى اتجاهات أخرى جديدة . . . لم يتنبأ بها ماركس . .
ولم يتخيلها فى أى من كتاباته . .

لقد وقعت ثورة تكنولوجية فى الغرب باكتشاف الكهرباء . . .

ووقعت ثورة تكنولوجية أخرى باكتشاف البترول واستخدامه على نطاق واسع . . .

ووقعت ثورة تكنولوجية ثالثة باكتشاف الذرة وتفجيرها . . .

ووقعت ثورة تكنولوجية رابعة باكتشاف الالكترونات واستخدامها فى كل مجالات الصناعة . . .

ومع كل ثورة تبدل نوع الآلة المستخدمة . . وتبدلت أساليب الإنتاج . . . بل وتبدل الهيكل الكلى للإنتاج فى المجتمع الغربي ، ومع ذلك لم يحدث تغيير طبقى على الصورة التى توقعها ماركس ، بل بقيت ملكية الآلة الجديدة للطبقة البورجوازية ، كما فى حالة الآلة الكهربائية أو البترولية أو الإليكترونية ، أو انتقلت إلى الدولة كما فى حالة الآلة الذرية ! ! !

فكيف إذن نفسر هذا التغيير بالاستناد إلى مفهوم الطبقة الذى اعتمده ماركس . . . ؟ !

وكيف نصنف المجتمعات الغربية المعاصرة وفقاً للمعيار الطبقى الماركسى ؟ ! !

مثال آخر يسأل فيه الإنسان نفسه إن كان من الممكن تصنيف المفكر ، والعالم تصنيفاً طبقياً ، وكل منهما لا يملك أداة إنتاج مادية ولا وسيلة إنتاج ماديّة ؟ !

أين موقع المفكر و العالم الذى لا يملك سوى فكره أو علمه من الهرم الطبقى الذى شيده ماركس ؟ !

سؤال سرعان ما يجيب عليه المراكسة إجابات متخبطة ، فتارة يعتبرون المفكر والعالم ملحقين « بالطبقة المستغلة » وفى خدمتها طالما أن هذه الطبقة تملك وسائل المعيشة المادية،إذ فى استطاعتها دائماً تسخيرهما لخدمة قضيتها .والدفاع عن استغلالها . وتارة يعتبرون المفكر والعالم من « الطبقات المستغَلة » تأسيساً على أنهم يكدحون بجهدهم الفكرى والعلمى شأنهم فى ذلك شأن « البروليتاريا » العاملة،ومن الممكن بالتالى أن يكونوا موضع استغلال الآخرين .وتارة يقررون أن المفكر والعالم يشكلون النخبة القيادية التى ستقود المجتمع من جحيم الاستغلال « البورجوازى » إلى جنان التحرر « الشيوعى » وأنهم بالتالى يكونون فئة من نوع خاص . . . فئة خارج التصنيفات الطبقية التى تعارفوا عليها !

فأين وجه الحقيقة من كل ذلك ؟ ! !

أين ؟ ! !

ومن زاوية أخرى . . إذا ماركزنا النظر على مفهوم الطبقة فى حد ذاته باعتباره حشداً من الأفراد تربطهم مصالح مشتركة ومفاهيم مشتركة وتطلعات مشتركة لتبينا أنه ليس بالمفهوم المطلق . . ولكنه مفهوم شديد النسبية . . شديد التجريد . . . دقيق المراجعة على الواقع .

والواقع أن هذا التصنيف الجامد الذى أخذ به ماركس ومن تبعوه يخرج من الاعتبار الحدود المتحركة لمفهوم الطبقة الاجتماعية . . . ويُخرج

بالتالى من الاعتبار التداخل و الامتزاج بين « الطبقات » التى يتركب منها المجتمع الواحد .

فالإنسان الذى يولد وينمو فى « طبقة برولتارية » ليس مرتبطاً بالضرورة بطبقته . . وغير محكوم عليه أبد الدهر أن يظل حبيس هذه الطبقة . . إذ من الممكن أن يقع « تصعيد طبقى » فينتقل « البرولتارى » إلى الطبقة التى تعلوه فى سلم التدرج الطبقى . . . والشواهد كثيرة لأفراد بدأوا حياتهم « برولتاريين » وتحولوا من بعد إلى « بورجوازيين » بل ومنهم من تنكر بشدة للطبقة التى خرج منها وانسلخ عنها حتى أصبح ينازعها المصالح ويناصبها العداء ! !

ومن عجب أن يكون أكثر الناس غلظة فى التعامل مع الفئات « البرولتارية » و أشدهم قسوة على مصالحها فى أيامنا هذه هم هؤلاء الذين خرجوا من صفوف العمال واكتووا بآلامهم !

وعلى النقيض من ذلك فإن أبرز المدافعين عن حقوق « البرولتاريا » وأشد المعبرين عن مصالحها لا ينتمون بالتعريف الماركسى « للطبقة البرولتارية » أو لم يكن كارل ماركس ولينين وغيرهما من أقطاب الحركة الشيوعية فى العالم من أسر برجوازية ؟ .

وإذا ركزنا النظر على « طبقة من الطبقات » لوجدنا أن هذه « الطبقة » لا تتسم باتساق المصالح ولا تتصف بوحدة الهدف، إنما كثيراً ما يقوم بين أعضائها تنافر فى المصالح . . وتصادم فى الأهداف ، ويكفى مثالاً التعارض الذى ينهض من آن لآخر بين عمال الزراعة وعمال الصناعة

أو بين عمال الصناعة الفنيين وعمال الصناعة العاديين ، وهذا التعارض يصل فى حالات كثيرة إلى درجات من العنف لاتقل عن التعارض الذى يمكن أن يقوم بين البرولتاريا والبرجوازية .

وأمام هذا الجمود والغموض لذلك المفهوم الأساسى الذى تقوم عليه النظرية الماركسية نطرح التساؤل التالى :

أليس مفهوم الصفوة أقرب إلى الحقيقة الاجتماعية من مفهوم الطبقة ؟

إن القول بأن التعارض بين الفئات والجماعات التى يتشكل منها الجسد الاجتماعى هو تعارض بين الصفوة القيادية أيًّا كانت الطبقة التى تنتمى إليها قول أقرب إلى الحقيقة الاجتماعية وأجدى فى تفهمها من مفهوم الطبقة . . .

فالصفوة وهى الجماعة الموهوبة بفكرها وطاقاتها وقدرتها على الإبداع مهيأة بطبيعتها للقيادة الاجتماعية . .

وهذه الصفوة ليست وقفاً على طبقة دون طبقة أو فئة دون فئة . . ولا يرتكز تحديدها على المصالح أو درجة الثراء ولكنها تستند إلى الموهبة الخاصة والكفاءات الذاتية والقدرة على العطاء لخير المجموع .

والواقع أن هذه الصفوة القيادية تتواجد فى كل مجتمع ، بل إن القفزات الهائلة التى حققتها البشرية عبر تاريخها الحافل بالنضال مردودة إليها .

وهذا المنظور الجديد يسمح بتحديد أكثر وضوحاً لمفهوم الصراع الطبقى » الذى اجتهد ماركس فى تقديمه كمحرك للمجتمعات ، فهذا

الصراع لم يكن فى يوم من الأيام صراع طبقات اجتماعية متحددة ومتراصة فى مواجهة بعضها البعض . . ولكنه « صراع صفوة » لا يحركها بالضرورة وعى طبقى ، إنما الذى يدفعها ويحرك مسيرتها هو وعى الصفوة بحقيقة دورها فى التغيير الاجتماعى وسعيها الدائب إلى هذا التغيير .

وإذا كانت الطبقات تعكس أحياناً أبعاد هذا الصراع فإنها لا تحركه . . ولا تقوده . . إنما التحريك والقيادة يكونان من صنع الصفوة ومن تخطيطها .

وعلى الرغم من وضوح مفهوم الصفوة وسهولة مراجعته على الواقع فإن المراكسة يرفضونه . . ويقاومونه بشدة . . وينعتون من ينادى به بكل النعوت ، وهذا أمر طبيعى . . لأن فى التسليم بهذا المفهوم هدماً للنظرية الماركسية وتحطيماً لأهم محاورها وهو الطبقية وما انبنى عليها من نتائج .

فهل يأتى يوم يناقش فيه المراكسة مفهوم الصفوة بشيء من الموضوعية قبل أن يتهموا غيرهم بأنهم ينطقون كفراً ! !

الدنيا والآخرة

كلنا يعرف الدولة . . ويحمل لها فى أعماقه صورة القوة . . والبطش . . والإكراه . .

وكلنا يدرك أن الدولة « ضرورة اجتماعية » وبغيرها تستحيل الحياة فى المجتمع المنظم . فهى فى يقين الجميع ضرر لازم . .

ولكن ماركس استطاع أن يبعث فى أتباعه الأمل فى التخلص من الدولة . . والتحرر نهائياً من قوانينها وأعلن فى غير تردد بأنها آيلة للسقوط صائرة إلى الزوال .

وفكرة ماركس هذه . . تعود بالذاكرة إلى حلم طالما راود البشرية من قديم . . حلم المدنية الفاضلة التى لا شقاء فيها ولا حرمان ولا معاناة . . ولكن ماركس يذهب بطموحه إلى أبعد من هذا الحلم الجميل . . فيبشر بجنة فيحاء يتعايش فى ربوعها الأفراد بغير طبقية وبغير سلطة سياسية وبغير مشكلة اقتصادية . . إنه يبشر بمجتمع الوفرة حيث لا طبقات ولا دولة ! !

ويزف ماركس هذه البشرى فى إطار جديد وبأسلوب جديد .

فالدولة — كل دولة — فى المذهب الماركسى تعبير صادق عن الواقع الاقتصادى السائد ومجرد أداة لسيطرة الطبقة الحاكمة (البرجوازية) وبالتالى لا بد وأن تسقط وتتلاشى بعد انتهاء مرحلة دكتاتورية البرولتاريا

وقيام المجتمع الشيوعى . فإذا كانت الحكومة على حد تعبير كارل كوتسكى وهو أحد أتباع ماركس « هى ككل أنظمة الحكم السابقة أداة ممتازة لحفظ مصالح الطبقة الحاكمة » فلابد لها وفقاً لهذا المنطق من أن تفقد مبررات قيامها إذا ما حلت الشيوعية واختفت الطبقات .

والقانون عند ماركس لم يظهر إلا مع ظهور الدولة،والدولة لا يمكن أن تقوم بغير قانون . فالقانون إذن لا يوجد إلا مع وجود مجتمع طبقى ووجوده هو الذى يكفل سلاماً وقتياً فى الصراع بين البورجوازية والبرولتاريا .

وقبل وجود المجتمعات الطبقية حيث كانت المساواة . . لم تكن هناك دولة ولا قانون .

وكذلك الأمر بالنسبة للشعوب البدائية،فهذه الشعوب لا تعرف دولة ولا قانوناً،إنما تسوى الخلافات التى تنشب بين أفرادها بأسلوب التحكيم أوبأمر من رئيس القبيلة أوالأسرة .

وعندما تتحرر الطبقة المستعبدة (البرولتاريا) من نيرالطبقة المستعبِدة (البرجوازية) سيختفى القانون بسبب عودة الوفاق و الانسجام بين أفراد المجتمع . . .

وهكذا يرى ماركس أن القانون شأنه شأن الدولة مجموعة من النظم الوقتية التى أوجدتها المصالح المتصارعة . . وأن مآلها إلى الزوال عندما ينتهى دورها التاريخى ! ! .

وبديهى أن التسليم بهذه النتيجة يفترض بالضرورة التسليم بكل ما جاء به المذهب المادى من مفاهيم وتفسيرات وأخصها فكرة الصراع الطبقى التى

استولت على ذهن ماركس و إنجلز ومن جاء بعدهما من الأتباع والمريدين . فالقوة وحدها فى نظرهم هى التى تخلق الدولة ، وهى بذلك المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التى يحق لها اصطناع القوة ، فالدولة إذن منشؤها القوة التى صنعتها سواعد الطبقة المستغلة وأداة عنف وقهر وإرهاب فى يد هذه الطبقة ، أما القانون فهو روح الدولة وسندها وهو وسيلتها الأولى فى القمع والإرهاب .

وفى ظاهر هذا الرأى ما يغرى بالتسليم بصحته،غير أننا إذا ما أمعنا النظر فيه لوجدناه أقرب إلى نصف الحقيقة منه إلى الحقيقة الكاملة ، ومن هنا يمكن أن يؤدى بالذهن إلى أخطاء خطيرة ، فلأنصاف الحقائق من مسموح البساطة ما يستهوى العقل أكثر مما تستهويه الحقائق الكاملة ذاتها .

ذلك أن فكرة سقوط الدولة و اختفاء القانون تنطوى على محاولة فريدة لنقل الدنيا إلى الآخرة بالهروب من واقعها المؤلم إلى جنة غناء يحيا فى ربوعها البشر متحابين متوادين بغير شحناء ولا بغضاء . . . وفى مثل هذه الجنة لا يوجد للدولة مبرر ولا للقانون مكان ! !

والواقع أن إنكار وجود القانون فى المجتمعات البدائية التى لم تستكمل شكل الدولة خطأ فاحش ، فمما لاشك فيه أن هذه المجتمعات قد عرفت القانون لأنها عرفت مجموعات من قواعد السلوك التى تفرضها الجماعة وترتب جزاء على مخالفتها . كل ماهنالك أن قانون المجتمعات البدائية ذو طابع خاص لأنه ينشأ من العرف ويختلط كثيراً بالدين .

ومن ناحية أخرى يُلاحظ أن ماركس ومن تبعوه لم يتصوروا لحظة عملية التغيير السلبية التى يمكن أن تتم فى ظل الديمقراطية . فمن الثابت أن المصالح الطبقية المتصارعة فى سبيل تحقيق منافع خاصة يمكن أن تتباعد وأن تلتقى، فإذا ما التقت حول مصلحة مشتركة تضافرت جهودهـا لتحقق بالطرق السلمية تغييراً اجتماعياً يفيد منه المجتمع ، ومثل هذا التلاقى و التوفيق مستحيل الوقوع فى نظر ماركس وإنجلز على الرغم من أن تاريخ البشرية قبلهما وبعدهما يعج بالأمثلة الكثيرة عليه ، ولذلك من العبث فى يقين المراكسة تصور قيام دولة شعبية حرة قوامها الوفاق والاتفاق ، بل ويؤكد إنجلز أن قيام مثل هذه الدولة مستحيل ، ويؤيد لينين هذا التأكيد ويصر على أن الدولة لا يمكن أن تكون سوى أداة عنف للقضاء على الخصوم ، ولا بد من أن يظل الصراع محتدماً بين الطبقة الحاكمة وغيرها من الطبقات، إلى أن تقوم البروليتاريا وتلغى الوجود الطبقى من المجتمع .

الدولة إذن دليل الوجود الطبقى . إذ لولا هذا الوجود بما ينطوى عليه من صراع لما قامت الدولة . . . ومتى انتهى الصراع ببلوغ الشيوعية فقدت الدولة سبب وجودها . . وسقطت إلى غير رجعة ! !

ولكن ما معنى انتهاء الصراع الطبقى ؟

إن انتهاء الصراع الطبقى بقيام الشيوعية لا يعنى سوى نهاية المراحل التاريخية واستقرار المجتمع البشرى على صورة واحدة ، صورة مجتمع الوفرة والمساواة والحرية . . ولا يمكن للإنسان أن يستخلص من مدلول النظرية

غير ذلك متى أمسك ماركس عن كل إجابة صريحة عن التساؤل الكبير : وماذا بعد الشيوعية ؟ ألن توجد مراحل أخرى جديدة من التطور البشرى ؟ !

لقد اكتفى ماركس بالقول – دون ما تحديد – بأن الشيوعية ذاتها يمكن أن تنطوى على عدة مراحل ، وهذا يعنى استمرار التقدم فى المجتمع الشيوعى واستمرار التقدم مؤداه استمرار التطور واستمرار التطور فى اللغة الماركسية يعنى استمرار الصراع الطبقى ، وبتعبير آخر يعنى قيام المتناقضات ، وكل هذا وذاك يستلزم بداهة وجود الدولة !

. . وهكذا تبدو الدولة بالمنطق الماركسى ذاته حتمية لا يمكن بحال تصور زوالها . .

يمكن القول إذن أن مجتمع السلام والوئام الذى تنبأ ماركس بحتمية قيامه بغير طبقية ، وبالتالى بغير سلطة سياسية ، يعتبر مستحيل التحقق إلا بتوافر شرطين على الأقل :

الأول : ضمان ثبات العوامل الاقتصادية وعدم تغيرها بعد الانتقال إلى الشيوعية (أو مراحلها العليا) وهذا يفترض الوقوف بالتقدم التكنولوجى عند مستوى معين لأن هذا التقدم يقلب من علاقات الإنتاج بصورة مستمرة ، وبالتالى يغير من البناءات العليا للمجتمع !

والوقوف بالتقدم التكنولوجى عند حد معين يستلزم فى بساطة الحجر على عقل الإنسان ومنعه من كل اكتشاف وابتكار وتجديد !

لماذا ؟

لأن مجتمع الوفرة الذى تنبأ ماركس بحتمية قيامه يفترض بداهة إنتاج سلع وخيرات تفوق الحاجات البشرية ، ولما كان التقدم التكنولوجى يخلق عند الإنسان حاجات جديدة لم تكن موجودة من قبل - كما هو الشأن عند اختراع الراديو والتلفزيون والسيارة إلخ - فإن معنى ذلك التزايد المطرد فى الحاجات البشرية بصورة لا يستطيع الجهاز الإنتاجى مجاراتها دائماً .

إذاً مهما بلغ هذا الجهاز من قوة فسيظل عاجزاً عن الاستجابة الفورية لكل الحاجات الجديدة التى خلقها التقدم التكنولوجى وبالتالى تظل حاجات عديدة لفترة ما بعيدة عن دائرة الإشباع !

والثاني : ضمان ثبات النوازع الإنسانية النفسية منها والغريزية ، وهذا مستحيل فى المراحل الراهنة من التقدم العلمى . فلوكان الإنسان كماً فقط لحُلّتْ مشاكل الإنسانية حيث يخضع الكم لقواعد ثابتة من العد والإحصاء ، ولكن الإنسان كيفٌ أيضاً يتسم برغبات ويتصف بأهواء . . وبالتالى فمن الممكن أن تنقضى بعض حاجاته . . وأن تتبدل بعض أذواقه فيعزف عن سلعة موجودة . . . وينشد أخرى يصورها خياله . . . فكيف يمكن توفير هذه السلعة المرغوبة على الفور ؟

إن عقل المستهلك فى مجتمع الوفرة لا يكف عن العمل . . . وبالتالى فإن باستطاعته أن يستشعر نقصاً فى سلعة ما . . وفى استطاعته أن يبتكر طريقة لا ستكمال هذا النقص . . . ولابد للمجتمع أن يلبى حاجاته . . طالما أنها حاجات مشروعة . .

ولكن كيف يستطيع « مجتمع الوفرة » أن يحقق الوفرة فى هذه الحالة ؟

إن على هذا المجتمع أن يستحث جهازه الإنتاجى ليستجيب إلى تلك الحاجات والرغبات الجديدة . . . وحتى يستطيع إدراكها . . لابد أن يبقى مجتمع الوفرة – لوقت طال أم قصر – بغير وفرة ! !

بقى تساؤل أخير : هل يتخلص الإنسان فى مجتمع الوفرة من غرائزه . . . ونزواته . . . فلا ينزع إلى الاستئثار بما يفيض عن حاجاته، وبالتالى يؤدى بفعله هذا إلى تحويل مجتمع الوفرة إلى مجتمع ندرة ، يكفى بعضه كل حاجاته . . ولا يكفى بعضه الآخر كل حاجاته ؟ ! ! !

إنه مجرد تساؤل . . .

فهل من مجيب . . .

القسم الثانى

الجهاز

الجهاز

قال ليفى دافيدوفيتش برونشتاين ، المعروف باسم تروتسكى :

(مسئولية العمل الثورى توجب أن تستملك الطليعة القيادية قواعد فى أوساط الجماهير ، وتشيع بين الناس المناخ الثورى فى شعارات يسهل على الناس فهمها و القناعة بها : شعارات تُذكى النقمة على كوامن الماضى وعلى الظروف الراهنة ، وتروج الأمل بمستقبل أفضل ، وتستغل طبائع الفرد والجماعة فى حاجتهم الفطرية إلى النقد . فالنقدمظهر من مظاهر الحقد . والحقد سلاح بدائى ، ولكنه سلاح فعال ، وكلما نشطت الطليعة القيادية فى إشاعة الحقد بين الناس ، استملكت الطاقة على التحكم بالممكنات الثورية . . . إن الفرد مهما طاب عيشه ، يضمر نزوعًا فطريًا إلى الشكوى من ظروفه الحالية والطموح إلى ظروف أكثر مواتاة لأحلامه وأمانيه ، وبين الشكوى والطموح وضع نفسى فيه كثير من كوامن الحقد . والحقد هو أسهل معاول الصراع الطبقى . والصراع الطبقى عامل أساسى فى النشوء والارتقاء .)

لا نعتقد أنه يوجد فى التراث الماركسى كله أبلغ فى التعريف بالآلة الحزبية وأقدر فى الدلالة على أساليبها . . من تلك الكلمات الدقيقة

المعبرة التى صاغها أكبر أقطاب الحركة الشيوعية الدولية و أبرز مؤسسى العصر الثورى اللينينى : تروتسكى

ولنفصل فى الصفحات التالية بعض ما أجمله هذا « الرائد » الثورى الكبير .

تقدميون إلى أين ؟ !

« التقدم » لغة مسيرة إلى الأمام و ارتقاء إلى الأفضل . . .

و « التقدميون » لغة دعاة مسيرة إلى الأمام وصُناع ارتقاءٍ إلى الأفضل . .

و « التقدمية » صفة تطلق على موصوف يسعى دائماً إلى الأمام . . ويرنو دائماً إلى الأفضل . .

وإذا كانت هذه المصطلحات تحمل لغة معنى التغيير إلى الأفضل فإنها لا تحمل بالضرورة فى العمل ذات المعنى . .

فأنصار التقدم والتقدمية والتقدميون يدعون دائماً إلى التغيير ويعملون له . . ولكن هذا التغيير ليس دائماً إلى الأمام . . . وليس دائماً إلى الأفضل .

ذلك أن الإنسان فى بحثه عن التغيير ، وتطلعه إلى الأفضل يفتقر غالباً إلى عمق النظرة . . . وسعة الأفق . . . ووضوح الرؤية .

ولو اتصف الإنسان دائماً بهذه القدرات لأصاب التقدم فى كل الخطوات . . . ولطوى فى أقصر الأزمان ما طواه فى آلاف السنين من عوامل القهر والتخلف . .

غير أن الإنسان يقصر غالبًا عن قدرة التميز المطلق بين الغث والثمين . . . الصالح والطالح فهو دائم التراوح بين الخطأ والصواب دائم التأرجح بين الاندفاع إلى الأمام والارتداد إلى الخلف . . .

ذلكُ أن الفكر الإنسانى فى قيادته للمسيرة لم يكن منسق الجهود . موحد المنهجية ، بل تفاوت نتاجه بين الجيد والردىء ، بين الصاعد والهابط وكان حصاده صراعاً بين المفاهيم واختلافاً حول القيم دفع بالإنسانية إلى الأمام حيناً وعطل من مسيرتها أحياناً .

ولعل أشد تلك الصراعات احتداماً وأعمقها تأثيراً فى مسيرة الإنسان هى التى تدور اليوم دوائرها بين الماركسيين وغيرهم من ذوى الاتجاهات الأخرى التى تنازعهم النظرة .

وقد اتخذ هذا الصراع أشكالاً متعددة وصوراً متباينة التبس أمرها على الكثيرين ، وكان أكثر ما يميز هذا الصراع أنه لايحتدم إلا عند مستوى التطبيق للفكر الماركسى . ذلك أن الجهاز الذى يتشكل على صعيد التطبيق ينهج فى سلوكه نهجاً مناهضاً لجوهر هذا الفكر مما يؤدى فى الواقع إلى الانفصال بين النظرية والممارسة ، بين الفكر وتطبيق الفكر .

ومن هنا تبدو ضرورة التمييز بين النظرية والجهاز . . . بين الماركسى المتحرر من كل التزام يفرضه الجهاز والماركسى الملتزم الذى يرتبط بالجهاز القائم على نشر الدعوة وتطبيقها برباط عضوى .

والماركسى المتحرر من روابط الجهاز هو وحده الذى يستطيع أن يناقش التعاليم الماركسية بحرية كاملة ، وهو وحده الذى يستطيع تفسير هذه التعاليم بحرية واسعة ، ففكره طليق من كل الحدود والموانع التى يفرضها الجهاز ولا يبقى له من ارتباط إلا ما تقرره أصول النظرية وما تمليه قواعد المذهب .

والجدل المفتوح مع هؤلاء المراكسة « الأحرار » كثيرًا ما ينتهى إلى نتائج مجدية تذهب بهم إلى العدول عن استعمال بعض « القوالب » أو التحفظ عند استخدام بعض المفاهيم . .

ومن هنا تتطور نظرتهم إلى محتوى النظرية . . . فتصبح أقل جموداً وأكثر مرونة . . . فهم وان كانوا يؤمنون بالأسس الكبرى التى تقوم عليها النظرية إلا أنهم أكثر استعدادًا للتلوين و التحوير فى بعض المفاهيم التى لا تصمد أمام المجادلة . . ولا تقوى أمام المنطق السليم .

ولقد عانى الكثيرون من المراكسة « الأحرار » ضراوة الحقيقة عندما لمسوا أرض الواقع واستبانوا الفارق الشاسع بين ما يحملون من تعاليم وبين ما تجرى به أحداث الحياة ، وأدركوا اتساع الهوة التى تفصلهم عن حركة الواقع وبدا لهم من خلال إرادتهم المتحررة من التزام الجهاز أن القناعات التى تشكل جوهر العقيدة الماركسية تهتز بشدة أمام محاولات التطبيق . فالمادية الجدلية لا تفسر بوضوح اتجاه التاريخ ، وقيمة العمل لا تفسر تماماً القيمة التبادلية للأشياء فى النظام الرأسمالى . وفائض القيمة لا يفسر على الإطلاق أزمات الرأسمالية .

أما الحرية الفكرية . . والرفاهية المادية* والعدالة الاجتماعية فكلها شعارات ترفعها النظرية ويكذبها التطبيق . . فحرية الفكر لا تقوم فى « النظم الشيوعية » إلا فى الحدود التى يسمح بها الحزب . . وحرية

الانتقال واختيار العمل ومناقشة الأجر لا تنهض إلا فى الإطار الذى رسمه الحزب الواحد .

والعدالة الاجتماعية لا توجد إلا فى نشرات الإعلام وكتب الدعاية التى يوزعها الحزب الواحد .

والرفاهية المادية لا تتوافر إلا بين أفراد الفئة المحظوظة من أعضاء الحزب الواحد ، لذلك كان طبيعياً أن يرتاع « الماركسى الحر » من ضراوة الحقيقة . . . وأن تعوده يقظة ضمير ، تدفع به إلى التأمل والمراجعة .

وهكذا يستطيع الماركسى المتحرر من قيود الالتزام الحزبى المسبق أن يتخلص من جمود القيم التى يحملها . . وأن يلفظ الخطوط المستقيمة التى يفرضها الجهاز وأن ينطلق متفاعلاً مع الواقع الذى يحيطه فى مسيرة تتقدم به إلى الأمام .

وكثيراً ما يصل هذا الماركسى المتحرر إلى درجة الإخلاص الكامل لنفسه . . والنزاهة الكاملة لضميره . . . ويبرأ من العقيدة التى يؤمن بها . . .

والأمثلة كثيرة على : « ماركسيون مؤمنون » تحرروا من إسار لحزب وحاكموا النظرية على ضوء الواقع وانتهوا إلى إعلان رفضهم لمبادئها.

ولكن عندما يدخل « الماركسى المؤمن » تنظيماً حزبياً تتبدل النظرة ويختلف السلوك . .

فالحرية الفكرية تنتهى إلى ترديد لما يراه الحزب . . وحرية

الثقافة تنتهى إلى تمجيد لما يكتبه الحزب . . . وحرية السلوك تنتهى إلى قيد ثقيل يصنعه الحزب . . . ويخضع العضو الجديد لقيادة الحزب ويسقط فى إسار أدواته ويصبح فى النهاية مسيراً بأوامره وتوجيهاته .

ويلعب مبدأ الدكتاتورية الديمقراطية أو الديمقراطية المركزية الذى يأخذ به الحزب دوره الخطير فى ربط القاعدة بالقمة . . . وتحريكها على النحو الذى يخدم مصالح القيادة وأهواءها . .

والعضو فى هذا الجهاز الحزبى أداة تنفيذ لا حول لها . . ولا طول . . يشدها إلى الحزب صك العضوية ويدفعها إلى العمل التزام العقيدة

غير أن قواعد العضوية والتزام العقيدة ليست من صنع النظرية الماركسية ، إنما هى من صنع سدنة التطبيق الماركسى ، فقد فتح « نضالهم » من أجل نشر الدعوة وإرساء دعائم التنظيمات الحزبية الباب أمام تقاليد جديدة وأساليب جديدة تعتبر فريدة فى دقتها وفعاليتها . . وقدرتها على نشر الدعوة وفرض السلطان . . .

من ذلك الالتزام المطلق بأوامر القيادة والعمل المطلق بتفسيرها المعتمد لمضمون النظرية ، والقيادة تركب فى سبيل إدراك هذه الأهداف كل الوسائل . . وتكرس فى سبيل بلوغها كل الإمكانات ، فلا مانع من استغلال كل تيار . . . ولا مانع من تسخير كل فكرة . . مادامت كلها موصلة إلى الهدف دافعة إلى الغاية . .

وهكذا بدت فكرة التلاحم بين الشيوعية والقومية وفكرة المصالحة بين الشيوعية والدين أفكاراً رائدة ترفعها الأحزاب الشيوعية فى كل مكان

. . . وتدعو لها فى كل حين . . . بينما يرفض الماركسى « الحر » غير الملتزم كل تلاحم أو مصالحة بين الشيوعية والقومية أو بين الشيوعية والدين . . فمن المعلوم أن النظرية الماركسية تتجه فى أصولها بالخطاب إلى الإنسانية جمعاء . . . وهى تناهض مناهضة مطلقة كل دعوة قومية وتصادم مصادمة مطلقة كل نزعة إقليمية أو وطنية . . فكيف يمكن القول اليوم بالتلاحم بين الشيوعية والقومية إلا إذا كان المستهدف من الفكرة هو ركوب الوسيلة إلى الغاية ركوباً ينطوى على المداهنة . . والكذب ومخادعة الجماهير . .

ومن المعلوم أيضاً أن النظرية الماركسية تقوم فى أصولها على رفض الدين وإنكار تعاليمه واعتباره من الأبنية الفوقية التى تعكسها أوضاع البناء التحتى فى مرحلة معينة من التاريخ . . .

فكيف يمكن القول اليوم بالمصالحة بين الشيوعيه والدين إلا إذا كان المستهدف هو إحتواء الأديان وتحطيم مقاومتها للمد الماركسى .

ألا ينطوى هذا السلوك عند الماركسى المتحرر من كل التزام مسبق على مخالفة صريحة لقواعد النظرية التى تقول بأن الدين أفيون الشعوب وعلى انتهاك للضمائر واستخفاف بالعقول .

الواقع أن الأجهزة الحزبية الشيوعية لا يؤرقها مخالفة النظرية أو حتى العمل بمقلوبها إذا كان فى هذه المخالفة أو المناقضة ما يحملها إلى أهدافها . . .

غير أن الأهداف التى يعلنها الحزب تنحرف و تنجرف تحت

ضغط هذه الممارسة الحزبية لتصبح فى النهاية شيئاً آخر غير تلك الأهداف التى تطرحها النظرية .

فالشيوعية كهدف نهائى تنتهى فى كل الحالات إلى رأسمالية الدولة التى تقوى وتقوى من خلال جهاز بيروقراطى تحكمه دكتاتورية الحزب الواحد ، والحرية الإنسانية كهدف نهائى تنتهى فى كل الحالات إلى حرية مشروطة بأوامر الحزب فى القول والعمل والحركة والسلوك .

والعدالة الاجتماعية كهدف نهائى تنتهى إلى عدالة الأقلية الحاكمة التى تملك مقاليد كل السلطات السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

وهكذا تقتل الوسائل الأهداف،فلا يبدو منها فى النهاية سوى العطاء اليسير الذى يتضاءل أمام ضخامة الأمانى التى تطرحها الدعوة الماركسية .

وبعد . . .

إن هذه المقارنة البسيطة بين الماركسى المتحرر من قيود الجهاز والماركسى المكبل بأغلال الجهاز تضع أمام أعيننا بعُدًا ثالثًا يبدو فى الفارق الشاسع بين النظرية والتطبيق ، ذلك الفارق الذى إنتهى بالحركة التقدمية الماركسية كلها إلى الخلف بدلاً من الدفع بها إلى الأمام

وإلا فليقل لنا المراكسة الملتزمون . . أين محصلة التقدم فى سلوكهم . . وأين محصلة التقدم فى مسيرتهم .

أهى فى اقتصاد الدولة الذى يعود بنا إلى اقتصاد روما القديمة حيث مقاليد الخبز فى يد القيصر .

أم فى حرية الفكر المشروطة التى ترتد بنا إلى أيام هوبز حيث الوصاية

الفكرية فى يد الملك .

أم فى عدالة الحزب الواحد التى تنتقل بنا إلى العصور الوسطى .. حيث الامتيازات الطبقية فى يد النبلاء .

إذ على الإنسانية أن تدرك . . كم أضاعت فى مسيرة خاطئة ، عليها أن تدرك أن القيم التى لا تدفع بها إلى الأمام ترتد بها إلى الوراء، عليها أن تدرك أن أدعياء التقدم . . . يتقدمون دائماً فى مسيرة خاطئة . . . إلى الخلف !

ويل للمرتدين

الارتباط بفكرة . . أو التحلل منها . . موكول فى آخر الأمر لإرادة الإنسان . . وقدرة الاختيار الحر . . . والجدل المفتوح شرط أساسى لسلامة هذه الإرادة . .

والمراكسة وهم يعلقون أعلام الحرية على أبواب أحزابهم . . . ويستنكرون على غيرهم كل استبداد فكرى . . لايطيقون لرفيق مهما علا أن يخرج عن إطار دعوتهم التى اعتمدها الحزب وأقرتها قيادته .

فالرفيق ملزم دائماً بالتقيد بحدود « الرفاقة » فى القول والعمل . . ومجبر دائماً على التزام التفسير والتخريج والتفريع الذى تصوغه القيادة الحزبية لفحوى المذهب الماركسى .

وكل مخالفة لأوامر القيادة الحزبية ونواهيها فى التفسير أو السلوك تُصحح بصرامة . . . تبدأ من اللوم البسيط إلى التصفية الجسدية .

أما هؤلاء الذين انتهت بهم قناعتهم إلى رفض التفسير الحزبي للمذهب . . . والخروج على قواعد السلوك التى اختطتها القيادة . . . ولم يجد معهم « إصلاح » ولم ينفع معهم « تصحيح » فويل لهم من غضبة القيادة الحزبية . . . . وويل لهم من انتقام الرفاق فى كل مكان . .

هكذا كان شأن الكاتب السوفييتى سولجنيتن عندما تجرأ على نقد التطبيق السوفييتى للماركسية . . .

وهكذا كان من قبله شأن المفكر الفرنسي روجيه جارودى عندما جسر على فضح الفارق الشاسع بين النظرية الماركسية والتطبيق الماركسي . . وعندما أعلن عن تفسيره الخاص للمبادئ الماركسية بما يتنافى وتفسير الحزب .

وهكذا كان شأن الآلاف قبلهما من الكتاب والأدباء والفلاسفة ورجال الفكر الذين أعلنوا مخالفتهم للخطوط التي انتهجتها الأحزاب الشيوعية المحلية . . . أو خروجهم على « الاستراتيجية الشيوعية العالمية » التي يحرص كبار الرفاق على تطبيقها في كل مكان .

ومانال روجيه جارودى . . المفكر الفيلسوف « الماركسي » الذى ساند الحزب الشيوعي الفرنسي بآرائه ودفاعاته خلال فترة ما من حياته يبرز بوضوح موقف الجهاز الحزبي ممن يخالفه النظرة . . وأسلوبه في مواجهة الرأى الآخر .

إن روجيه جارودى في نظر كل الأحزاب الشيوعية الرسمية منها وغير الرسمية مرتد « كافر » تحق عليه لعنة ماركس ولينين .

فهو صاحب « فلسفة الردة » — كما يعبر ماركسي متحمس — التي تسعى إلى تقويض بناء النظرية الماركسية وهدم أصولها الكبرى .

لماذا ؟ ؟

لأن جارودى جرؤ على إعلان رفضه « للفلسفة الرسمية » التي يصوغها الحزب . . . وجرؤ على تقديم طرح نظرى جديد للمبادئ الماركسية .

قال جارودى إن هناك «كتلة تاريخية» من العمال اليدويين والمثقفين سوف تحل فى الدول الرأسمالية المتقدمة محل تحالف العمال والفلاحين .

وأنه من اللازم إقامة حوار حقيقى بين الحضارات : بين حضارات الشرق والغرب والجنوب »[١] والغرض من هذا الحوار كما يقول إبدال علاقات المنافسة والخصومات والتحديات الهمجية فى العلاقات الدولية ، وهى التى ولدها صراع الطبقات على المستوى الدولى بعلاقات تطابق متطلبات وإمكانات الثورة العلمية التقنية الجديدة[٢] .

وبمعنى آخر يرى جارودى ضرورة إخضاع النشاط البشرى لمقتضيات « الثورة العلمية التقنية » التى يعيشها عصرناالراهن وتمكينها من الانتشار عن طريق حوار الحضارات إذ فى هذا تحقيق لشروط التفتح الكامل للإنسان . وسيلعب العلماء والباحثون دوراً حاسماً فى هذا التحول بوصفهم فى طليعة القوى القادرة على التغيير .

وفوق ذلك نادى جارودى بفكره « التعدد الفلسفى النظرى » ونبذ « الجمودية الوثوقية » التى يؤدى إليها الأخذ بفكرة المادية الجدلية وحدها . وبمعنى آخر فقد آمن بتعدد النظرات الفلسفية إلى النظرية الأم . . أى النظرية الماركسية . . وآمن بإمكانية تعدد الآراء المذهبية داخل المنظمة السياسية أو الحزب .

---

(١) راجع روجيه جارودى « منعطف الاشتراكية الكبير » .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٥٨ .

هذه الآراء . . التى أعلنها جارودى . . . ودافع عنها اعتبرت في نظر القيادات الحزبية الشيوعية كفراً صراحاً . . وشركاً بالماركسية ! !

وانطلقت أبواقها . . تهاجم الرفيق السابق . . بعد أن جرده الحزب الشيوعى الفرنسي من عضويته . . .

وفى ذلك يقول أحد أصوات موسكو الوفية فى العالم العربي : إن مايراه جارودى ويدافع عنه هو المجتمع الصناعى التكنولوجى الذى يمارس فيه العلماء والباحثون والتكنوقراطيون الدور الحاسم . والصراع الطبقى القائم على تناقض طبقى اجتماعى يتحول حسب ذلك إلى أسطورة يؤدى القول بها إلى مواقع « الجمودية » و « اللاعلمية » و« الفلسفية الرسمية »[1] .

ويستنكر صوت موسكو الأمين إقحام مفاهيم أخرى على مفهوم المادية الجدلية . . . ويعتبر هذا الإقحام من قبيل الشرك « بالمبدأ المقدس . وفى هذا يقول رداً على جارودى : « أن تكون الفلسفة المادية الجدلية التاريخية ليست أكثر من واحد من التيارات الفلسفية المعاصرة : هذا هو معقد القضية لدى جارودى . وفى الحقيقة أن موقفاً انتقائياً مثل هذا هو بطبيعته موقف موجه ضد المنهجية التاريخية عموماً والتاريخية المادية الجدلية خصوصاً »[2] .

---

(١) راجع د . طيبب تريني « روجيه جارودى بعد الصمت » ، دار ابن خلدون ، ص ٢٧ .

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٨ وص ٢٩ .

أما فكرة « التعدد الفلسفي النظرى » وهى الفكرة التى أراد بها جارودى أن يخرج الماركسية من جمودها فقد كان نصيبها الهجوم الشرس العارى عن كل موضوعية،وفى ذلك يستطرد صوت موسكو الأمين فى « نقده الرسمى »

(إن جارودى فى نظريته حول « التعدد النظرى » يكمل الخط الذى بدأه على نحو واقعى فى نظريته « واقعية بلا ضفاف » أنه فى الحقيقة انفتاح على العالم ، كل العالم،ولكنه انفتاح لا يبقى على « المنطلق » فى شيء . ذلك لأنه انفتاح تلفيقى عاجز أمام سيل التحولات التى تجرى فى المجتمع الصغير (فرنسا) والمجتمع الكبير (العالم) انفتاح مترع بالأوهام الليبرالية الفوضوية الساذجة . وبالطبع لن يكون لهذا الانفتاح ،مستقبل على الأقل ضمن النظرية التى يكافح جارودى ضدها وباسمها نفسها !)[1]

هذا هو الكفر بعينه . . . والشرك بعينه فى نظر صوت موسكو الأمين . . .

لتسليم بالمجتمع الصناعى التكنولوجى كحقيقة راهنة والقول بأن هناك دورًا ينتظر العلماء والباحثين فى هذا المجتمع لإدراك التقدم والارتقاء كفر بمبادئ الصراع الطبقى التى اعتمدتها الماركسية وهدم للدور التاريخى لطبقة البرولتاريا ! !

القول بأن المادية الجدلية لا تكفى وحدها لتفسير التطور . . . وإن التعدد الفلسفى النظرى ضرورة لازمة لإثراء الماركسية شرك ما بعده شرك وردة ما بعدها ردة !

(١) المرجع السابق ص ٣٧ .

وإذا كانت أفكار جارودى قد تعرضت للهجوم والقذف والتجريح . .
فإن شخص جارودى لم ينج أيضاً من الهجوم والقذف والتجريح .

فهو فى نظر القيادات الماركسية وأتباعها « منافق مارق » . . يعمل « بوحى الإمبريالية وبتوجيهها » . . . وهو فى نظر هذه القيادات « انتهازى بورجوازى » لابد من مقاومته والقضاء عليه ! ! وكل دراسة موضوعية – كما يؤكد المراكسة – لابد وأن تأخذ فى الاعتبار ظروفه الشخصية وحالته النفسية لتحدد الدوافع التى حدت به إلى الخروج عن الخط الماركسى !

ولسنا هنا فى معرض الدفاع عن جارودى أو عن غيره من الذين خرجوا عن الخط الماركسى الذى قررته القيادات الحزبية . . . ولكنا نقدم فقط نموذجاً من الأساليب التى يتعامل بها المراكسة مع الخارجين عليهم وعينة من المواقف « الموضوعية » التى يتخذونها ضد كل مراجع لآرائهم . . .

فالرفيق المخلص لمبادئ ماركس . الوفى لأغراض الحزب . . . المتفانى فى خدمة الدعوة . . . هو ذلك الذى يبقى جامداً أمام ما تطرحه النظرية من مبادئ . . . متبلداً أمام ما يقدمه الحزب من تفسيرات . . . مستسلماً تجاه ما ينتهجه القادة من ممارسات . . .

أما الرفيق . . الذى يستخدم عقله لتنفيذ النظرية واستكمال نواقصها أو مهاجمة أساليب تطبيقها فهو « رفيق مارق » « مرتد » عن الماركسية جاحد بدعوتها . . منكر لأساليبها . . و بالتالى يحق فى شأنه ما يحق فى شأن كبار المرتدين من موت واستئصال .

حرية من ؟ !

بتباكون على الحرية وهم جلادوها . . .

وينعون ضياع الديمقراطية وهم قتلتها . . .

يرفعون الشعار تلو الشعار ويرددون النصوص تلو النصوص بأنهم ديمقراطيون تقدميون أحرار . مبدؤهم حرية التعبير وحرية التقرير وحرية الاختيار . فإذا ما نزلوا إلى الساحة شنقوا حرية التعبير وصلبوا حرية التقرير وأعدموا حرية الاختيار .

فحرية التعبير التى يبكونها ليست سوى حريتهم فى أن يقولوا ما يشاءون . أما غيرهم فلا حرية لهم فى أن يبدوا قولا فيه خروج على مذهبهم ، وحرية التقرير التى يندبونها ليست سوى حريتهم فى أن يقرروا ما يتفق وأهواءهم ، أما غيرهم فلا حرية لهم فى أن يتخذوا قراراً يناقض قرارهم . . .

أما حرية الاختيار التى يتشنجون لها فلا تعنى سوى فرض تعاليمهم وإجبار الآخرين على الخضوع لها .

وليقل لنا هؤلاء المتباكون على الحرية ، المدافعون عن الديمقراطية : أين هى الحرية وأين هى الديمقراطية فى الدول التى يحملون مذهبها ويروجون لنظمها ؟ ؟ أين الرابطة أو الصلة العضوية بين القواعد الشعبية العريضة وأعضاء الأحزاب الشيوعية الحاكمة بهذه الدول ؟ ؟

من المعلوم أن أعضاء الأحزاب الشيوعية فى أى من دول الكتلة الشيوعية لايتعدون نسبة ضئيلة جداً من مجموع السكان . . ومن المعلوم أيضاً أن من بين هؤلاء الأعضاء تتشكل القيادات السياسية والاقتصادية والعسكرية التى تملك كل السلطات .

ويؤكد المتباكون على الحرية المدافعون عن الديمقراطية أن هذه القيادات تمارس سلطات مشروعة ، فقد انتخبتها الأحزاب الشيوعية من بين أعضائها وأسندت إليها مهام القيادة والمسئولية ، ولكن السؤال الذى يجب أن يطرح هنا هو :

من الذى جاء بأعضاء الأحزاب الشيوعية ؟

هل تولى أعضاء هذه الأحزاب العضوية بالانتخاب الشعبى أى بالاختيار من قبل القواعد الشعبية العريضة التى يدعون تمثيلها و العمل باسمها ؟

لا . . . .

لقد تكونت هذه الأحزاب فى بادئ الأمر من أقليات محدودة استطاعت من بعد أن تفرض نفسها كأحزاب وحيدة ، إما بالتآمر والانقلاب العنيف المباشر ، وإما بمساندة قوة خارجية صديقة .

مثال :

كيف استطاع لينين وأتباعه الاستيلاء على السلطة فى روسيا القيصرية ؟

لم يكن هذا الاستيلاء ممكناً بغير التآمر والعنف . . . التآمر مع أعداء بلاده . . مع ألمانيا التى كانت مشتبكة فى حرب ضد روسيا

فى ذلك الوقت (١٩١٧) واستخدام القوة المسلحة ضد القيصر وأعوانه . .

وإلى هنا يبدو كل شيء مشروعاً ، فالإطاحة بالنظام القيصرى الفاسد وإنقاذ الشعب الروسى من مخالبه عمل جليل فى حد ذاته . . ولكن ما الذى حدث من بعد . . . . ؟

حدث أن استولى لينين وأتباعه وهم بضعة آلاف على مقاليد الحكم وضربوا بعنف وشراسة جميع الفئات التى تنازعهم النظرة المذهبية . . والتى تختلف معهم فى أسلوب الممارسة السياسية وفرضوا أنفسهم على أداة الحكم وشكلوا حزباً وحيداً يضم أعوانهم . . . ولم يسمحوا بالانضمام إلى هذا الحزب إلا لمن تتوافر فيه الشروط التى وضعوها وبعد صدور قرار من الحزب بقبول طلب العضوية . .

وحتى عام ١٩٧١ لم يكن عدد أعضاء الحزب الشيوعى السوفيتى يتجاوز أحد عشر مليوناً وخمسمائة ألف عضو بينما بلغ مجموع سكان اتحاد الجمهوريات السوفيتية مائتين وخمسين مليوناً ! ! !

ومثال آخر :

كيف اعتلى الشيوعيون مقاعد الحكم فى دول أوربا الشرقية ؟

هل اعتلوا هذه المقاعد بالاستفتاء الشعبي الحر المباشر ؟

أم اعتلوا هذه المقاعد بالتنافس الحزبى النزيه ؟

لا . . . .

لقد استولى الشيوعيون على دول أوربا الشرقية (بولندا ، تشيكوسلوفاكيا ، رومانيا ، يوغوسلافيا ، المجر ، بلغاريا ، البانيا ، وألمانيا الشرقية)

بالتآمر الذى تسانده قوة خارجية وهى الاتحاد السوفييتى .

فإبان الحرب العالمية الثانية اجتاحت الجيوش السوفيتية أوربا الشرقية إلى أن وصلت الأراضى الألمانية . . وبعد هزيمة النازية . . استطاع الاتحاد السوفييتى أن يعيد تنظيم الأحزاب الشيوعية فى هذه البلاد . . وأن يساند فلولها الهاربة من حكم النازى و أن يفرضها بالقوة المسلحة فى كل دول أوربا الشرقية . .

وكان نصيب الاتحاد السوفييتى فى القسمة التى تمت بين الحلفاء فى أعقاب الحرب العالمية الثانية إقرار الدول الغربية بالأمر الواقع . . والاعتراف بالنفوذ السوفييتى على هذه المناطق .

وحتى الجزء الشرقى من ألمانيا الذى احتله السوفييت . . لم ينج من هذا المصير . . بل فرض عليه قسراً . . حزب شيوعى وحيد من صنع المحتل . . . وفرض عليه قسراً نظام اقتصادى واجتماعى « اشتراكى » على غرار النظام المعمول به فى الاتحاد السوفييتى .

وإذا ما أمعنا النظر فى طريقة الانتماء للأحزاب الشيوعية ، لتبينا أن هذا الانتماء مقيد بشروط عديدة تضعها قيادة الحزب . . وهذه القيادة هى التى تبت أولا وأخيراً فى طلبات العضوية . . فترفض من ترفض . . وتقبل من تقبل . . .

وهذا أمر طبيعى ومشروع إذا كانت الأحزاب الشيوعية تقوم إلى جانب أحزاب أخرى . . فمن حق كل حزب أن يضع مبادئه . . وأن يحدد شروط الانتماء إليه . . ولكن إذا صارت الأحزاب الشيوعية

أحزاباً وحيدة فى بلادها وصارت كل مقاليد السلطة مركزة بين أيدى قادتها . . أصبح من غير المفهوم أن تغلن تمثيلها للشعب . . كل الشعب فى الوقت الذى تقيد فيه الانضمام إليها . . . وتقصر عضويتها على نسبة هزيلة من المواطنين لا يتجاوز فى أفضل الحالات – عشر مجموع السكان !

إن قاعدة الحكم للاغلبية تظل القاعدة الوحيدة المعمول بها فى كل النظم الديمقراطية . . . وهى القاعدة التى يقرها الشيوعيون فى كل الدول التى يحكمونها . . ويعلنون صبحاً وعشية أنهم ديمقراطيون لا يمارسون الحكم إلا من خلال الشعب . . كل الشعب ، أو على الأقل أغلبيته .

فأين هى الأغلبية التى يمثلونها بأحزابهم إذا كانت هذه الأحزاب الحاكمة لا تضم سوى أقلية محدودة من مجموع السكان ؟

ثم باسم من تمارس قيادات هذه الأحزاب كل السلطات فى الدولة ؟ .

من المعلوم أن هذه القيادات – التى تعتبر أعلى سلطة فى الدولة – يتم انتخابها . . لا بواسطة الشعب . . ولكن بواسطة أعضاء الحزب . . . فكأن الأقلية – أى أعضاء الحزب – تنتخب من يمثلها فى قيادة الحزب . . ولكن هل من الممكن أن ينسحب هذا التمثيل ليشمل الشعب برمته ؟

هل من الديمقراطية أن تنتخب أقلية مفروضة جماعة من الناس ليمثلوا مجموع الشعب ؟

وإذا كان فى هذا السلوك منافاة لأبسط قواعد الديمقراطية فكيف يمكن الادعاء بعد ذلك بأن الشعب . . قد ارتضى الماركسية مذهبًا ، وارتضى أولئك حكاماً ؟

أى حرية شعبية هذه فى اختيار المذهب ؟ ! !

وأى ديمقراطية شعبية هذه فى إختيار القيادة ؟ ! !

وليقل لنا المتباكون على الحرية المدافعون عن الديمقراطية أين هى حرية الكلمة وحرية العقيدة فى الدول التى يحملون مذهبها ويروجون لنظمها ؟ ؟

ليقولوا لنا إن كان من الممكن الجهر بعقيدة غير العقيدة الماركسية والمناداة بمذاهب غير المذاهب الجماعية فى هذه الدول ؟ ؟

أليس المبدأ عندهم هو قدسية العقيدة وعصمة المذهب . .

أليس نقدهم الذاتى نقداً لأخطاء التطبيق التى يقرها الحزب دون أخطاء العقيدة . ونقدًا لانحرافات التطبيق التى يقرها الحزب دون انحرافات العقيدة .

أليس نقدهم الذاتى – (أخيراً) – هو النقد المشروط بقرار حزبي يجيزه ؟ ! !

هل استطاع إنسان فى الاتحاد السوفييتى أن ينتقد الستالينية بعد موت ستالين بسنوات طويلة إلا عندما قام خروشوف بقيادة الحزب بهذا النقد فى المؤتمر العشرين ؟

بعد إقصاء خروشوف عن الحكم واستتباب السلطان للقادة الجدد

– الذين بدأوا يمارسون ستالينية جديدة – جرت محاولات على الصعيد الأيديولوجي لإعادة الاعتبار إلى ستالين فكتبت عدة مقالات بأقلام بعض كبار العسكريين والمسئولين المدنيين تشيد بالستالينية وتمجد أعمالها . .

وعند الإعداد للمؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفييتي صارت الخشية من أن تعيد القيادة الحاكمة الاعتبار الرسمي إلى ستالين .

فكان أن وجهت خمس وعشرون شخصية من أكبر الشخصيات العلمية والفكرية والفنية فى الاتحاد السوفيتي خطاباً إلى برجنيف يحذرون فيه من كل عودة إلى الستالينية . . ويعتبرون أن هذه العودة سوف تكون « كارثة كبرى » على الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية، وأن سلوكاً من هذا النوع سوف يؤدى لامحالة إلى شقاقات خطيرة بين الحزب الشيوعي السوفييتي والأحزاب الشيوعية فى كل مكان . .

ماذا كانت النتيجة ؟

النتيجة هي صدور مرسوم سنة ١٩٦٧ بتعديل المادة ١٩٠ من قانون العقوبات بحيث يعاقب كل شخص لا يقوم بالإبلاغ عن « الاحتجاجات الأدبية » بمجرد علمه بها بنفس العقوبة التى تنال « المحتج » !

وهكذا . . . عندما أجازت الخروشوفية نقد الماضي ، أى عندما أجازت نقد التطبيق والممارسة الستالينية، انبرت الأقلام الشيوعية والأحزاب الشيوعية فى النقد العنيف المباشر لشخص ستالين وأساليب التطبيق الستاليني . . . وعندما جاءت قيادة جديدة تتعاطف مع التطبيق الستاليني والأسلوب الستاليني – من الوجهة العملية – لم تسمح لرفيق أيًّا كان أن يهاجم أسلوبها . . .

ولا حتى أن يوجه إليها مجرد تحذير من مخاطر الانحراف فى التطبيق إلى ستالينية جديدة ! !

وليقل لنا بعد ذلك المتباكون على الحرية المدافعون عن الديمقراطية أين هى حرية الاختيار فى الدول التى يحملون مذهبها ويروجون لنظمها ؟ ؟

ليقولوا لنا إن كان للمواطن فى هذه الدولة حرية اختيار العمل والمهنة ؟ أم أن هذا الاختيار يفرض عليه من قمة السلطة، فيساق إلى العمل أو المهنة التى يقررها المخطط دون أن يكون لإرادته أدنى دخل فى ذلك .

إن جهاز الخطة من خلال سياسة اليد العاملة هو الذى يقرر لكل مواطن العمل « الملائم » وفى المكان « الملائم » . . . وهو الذى يحدد للعامل الأجر « الملائم » و« المزايا المهنية الملائمة » .

وما على المواطن سوى الانصياع والرضوخ ، أما حرية الاستقالة من العمل فمستحيلة بطبيعة الحال . . إذ عندما تكون الدولة هى المصدر الأوحد للعمل فإن رفض العمل لديها يعنى فى بساطة : الموت جوعاً . . . .

فالدولة عندما تصبح المصدر الأوحد للعمل تصبح بالضرورة المصدر الأوحد للخبز . . .

ومحتكر الخبز محتكر للحرية . . .

وليقل لنا بعد ذلك المتباكون على الحرية المدافعون عن الديمقراطية أى حرية يعنون وأى ديمقراطية يقصدون ؟ ؟ ؟

هل يعنون الحرية التي تخدم دعوتهم وتقهر خصومهم ؟
وهل يقصدون الديمقراطية التي تفرض ولايتهم وتقمع معارضيهم ؟
إن كانت تلك المعاني والمقاصد التي يستهدفون ، فبئس المنقلب
وبئس المصير .

الماركسية والاستغلال

حب الذات إلى درجة احتقار الآلهة هو الذى خلق المدينة الأرضية . . .

أما حب الله إلى درجة احتقار النفس فهو الذى خلق المدينة الإلهية . . .

وعندما ينطق القديس أغسطس بهذه الكلمات فإنه يعنى بالمدينة الأرضية الدولة الواقعية التى يعيش فيها . . . .

وعندما يتكلم عن المدينة الإلهية فإنما يعنى المجتمع القديم الصافى بعاداته وتقاليده والمتصل روحانياً بالله . . . . أى المدينة المثالية .

وجنسية الإنسان تظل مختلطة بين المدينة الإلهية والمدينة الأرضية حتى يفصل الله بينهما يوم القيامة .

ويوضح القديس أغسطس الفارق بين المدينة الإلهية والأرضية . بقوله : « بينما يستخدم الخيرون الحياة الدينية حتى ينالوا السعادة من الله يرغب الأشرار على العكس استخدام الله حتى يتلذذوا بالحياة الدنيا » !

ويجىء ماركس بعد قرون ليقول :

إن الرأسمالية تقوم على الاستغلال . . وإن الرأسمالى عندما يصادر على العامل حقه فى فائض القيمة فهو لا يفعل ذلك عن قصد منه أو سوء نية ، إنما هو مدفوع دفعاً بالنظام الرأسمالى ، لأن الاستغلال يعتبر طبيعة لاصقة بهذا النظام .

وعندما يجيء ماركس ليقول ذلك فهو لا يقول سوى نصف الحقيقة ، أما النصف الآخر فيكمن فى البناء المادى للرأسمالية . . . ذلك البناء الذى يجعل من الربح الحافز والهدف من قيام النظام . . ويجرد الإنسان من نوازعه وقيمه ليرده ، « إنساناً اقتصادياً » يعمل بوحى المادة بعيداً عن دائرة العاطفة والأخلاق .

ولنا أن نتساءل :

هل الاستغلال شعور نابع عن النفس أم عن البناء المادى للمجتمع ؟

ألم يكن الاستغلال عالقاً بالنفوس منذ الأزل ؟ . .

ألم يكن قائماً عند الفراعنة ، والرومان ، والفرس ، وغيرهم من الشعوب والأمم .

فليس صحيحاً القول بأنه سمة نظام دون نظام . إنما الصحيح القول بأن ابتناء النظام الرأسمالى على القيم المادية وإهداره للقيم الروحية هو الذى يؤدى إلى قيام الاستغلال واستفحاله .

ثم ما الذى اختطه ماركس ومن تبعوه لتخليص الإنسان من قيود الاستغلال ؟

لقد تصور اتجاهاً مادياً للتاريخ يقوم على تطور الواقع الاجتماعى فينقل البشرية من طور إلى طور حتى ينتهى بها إلى طور أخير لا استغلال فيه وهو الشيوعية !

وحتى ندرك هذا الطور الأخير لابد من سيطرة البرولتاريا على أداة الحكم . . وإقامتها لدكتاتورية الطبقة الواحدة . . . ودكتاتورية

البرولتاريا فى يقين المراكسة لا استغلال فيها . . ولا طغيان . . بل هى دكتاتورية الأغلبية فى سبيل الأغلبية . . ولا يمكن أن تستغل الأغلبية الأغلبية . . ولا أن تضطهد الأغلبية الأغلبية . . .

كلام منمق جميل . . . ولكنه لايستقيم مع منطق . . ولا يستوى مع تجربة . . .

فما هى البرولتاريا . . . وكيف تصل إلى الحكم ؟

إنها تدرك أداة الحكم من خلال جماعة قيادية تتولى تسييرها . وهذه الجماعة كما علمتنا التجارب ليست بالضرورة من « طبقة البرولتاريا » ، فلم يكن لينين زعيم الثورة البلشفية من أصل برولتارى ، ولكنه تولى قيادة « البرولتاريا الروسية » – إن صح وجودها بالتعريف الماركسى للبرولتاريا – قصد الإستيلاء على الحكم . . وعندما قضى على خصومه واستتب له السلطان . . استدار ليصفى أتباعه من المشكوك فى ولائهم له ، لأن ولاءهم له يساوى فى نظره ولاءهم لمبادئ الثورة البلشفية والتعاليم الماركسية كما يفهمها ويعمل بها . . وقد سار ستالين على نهج سلفه بصورة أكثر بشاعة وأشد عنفًا . . .

والسؤال المطروح الآن : أين هو تمثيل الأغلبية البرولتارية فى سلطات لينين أوستالين . . وأين هو رأى الأغلبية التى ادعوا الحكم بها وباسمها ؟

لا يشك عارف فى أن هذه « الأغلبية » المدعاة تكمن فى قواعد الحزب الشيوعى .

وهو الحزب الوحيد المسموح به فى الاتحاد السوفييتى !

ولكن هذا الحزب لا يمثل بحال أغلبية شعوب الاتحاد السوفييتى، فحرية الانضمام إليه مشروطة بشروط من صنع قيادة الحزب نفسها . . فهى التى نظمت قواعد الانضمام إليه . وهى التى تبت فى طلبات العضوية فترفض أو تقبل طلب الانضمام دون إبداء أسباب . . . أو بيان مبررات . . .

وهكذا لا يضم الحزب الشيوعى السوفيتى وغيره من الأحزاب الشيوعية فى دول الكتلة الشيوعية سوى نسبة هزيلة من الأعضاء لا تتجاوز فى أفضل الظروف عشر مجموع السكان القابلين للتصويت . . .

وإذا ما انتقلنا من الشعب إلى الحزب لوجدنا أن أعضاءه ليسوا جميعاً على سوية واحدة . . فهم يتدرجون من حيث الأهمية من القاعدة إلى القمة ، ويجرى فى شأن انتخاب القيادة الحزبية ما يجرى فى شأن انتخاب أعضاء الحزب . . فهذه القيادة مفروضة من « المنشأ » أى منذ قيام الانقلاب الشيوعى والاستيلاء على السلطة . . . ولا تسلم مقاليد القيادة إلا توارثاً . . من قائد إلى قائد . . . ومن جماعة إلى جماعة قيادية . .

ولم تعرف انقلابات فى القيادة الحزبية ومن ثمة فى قيادة الدولة أو تغير فيها إلا بموت القائد على فراشه . . أو تنحيته غيلة وغدراً . . كما حدث بعد موت لينين . . . وستالين . . وأولبر يخت . . .

وكما حدث أيضاً عند إقصاء خروشوف عن السلطة . . .

فكيف نضمن مع قيام أقلية حاكمة تملك عملا مقاليد السلطة المطلقة

عدم الإسفاف والإسراف . . والجنوح إلى الاستغلال بكافة صوره . . . كيف نضمن لحاكم بشر مهما بلغ من منزلة وسمو . . قدرة التحكم فى غرائزه وقدرة السيطرة على أهوائه والامتناع عن كل استغلال باسم المذهب . . وكل اضطهاد باسم العقيدة ؟

ولنفرض أننا أدركنا حاكماً عدلاً فى منزلة الأنبياء ، فكيف نعصم بطانته وحاشيته من الاستغلال وكيف نمنعها من الشطط إذا لم يكن عليها من رقيب أو حسيب سوى سلطان الحزب الصورى الذى لا يمثل سوى نفسه . . .

يقول ماركسى مناضل : إنها العقيدة . . إنه المذهب . الإيمان بالمبادئ الماركسية هو الدرع الواقية من كل انحراف . . هو الحاجز المانع من كل استغلال . . .

ولكن الممعن فى هذه المبادئ المدقق فى أصولها لابد وأن يكتشف وجه استغلال آخر . . أشد بشاعة وأقوى عنفاً من أوجه الاستغلال الأخرى التى عرفها التاريخ البشرى فى ظلال الإقطاع والرأسمالية . . . إذ مادامت الماركسية تفرض سيادة طبقة على ما دونها من الطبقات . . . وتفترض فيمن يولون أنفسهم على هذه الطبقة حسن السير ودقة السلوك فلابد أن تؤدى بمنطقها ذاته إلى استغلال من نوع جديد . . استغلال من يملكون كل سلطة لمن لا يملكون أى سلطة . . .

وتفصيل ذلك أن القابضين على مقاليد السلطة السياسية من خلال الحزب الواحد هم فى ذات الوقت القابضون على مقاليد السلطة الاقتصادية ،

فكل أمور الجماعة موكلة إليهم . وإليهم وحدهم . . لذلك كان طبيعياً أن يولد من خلال الاستيلاء على السلطة واحتكار ممارستها فروق مادية ومعنوية بين من يملكون مقاليدها ومن لا يملكون .

وتؤكد التجربة فى كل العصور . . أن السلطة المطلقة . . مفسدة مطلقة . . وأن المفسدة المطلقة . . استغلال مطلق . .

فالاستغلال شعور مصدره النفس عندما تتحرر من ضوابطها الروحية فتسقط فى اسار المادة ، وتحيل الإنسان فى النهاية عبداً لها يتحرك بوحيها ويحكم بقوانينها .

فتلك الجبرية الاقتصادية التى سقطت فيها الماركسية لا تقل بشاعة وظلماً عن الجبرية المادية التى سقطت فيها الرأسمالية . فكلاهما برغم تباعد الشقة يحتكم إلى المادة ، ويقيد الإنسان فى دائرتها ، وكلاهما برغم تباعد الشقة مردود إلى نبع واحد . هو النبع المادى .

ولن يختفى الاستغلال إلا بعودة الإنسان إلى إنسانيته . . أى ارتداده إلى فطرته التى جبله الله عليها والاعتراف بتركيبه الحقيقى . . أى بأنه مادة وروح . . . فكما أن له فى المادة ضرورة . . . فإن له فى الروح ضرورة . . . . وكل نظام يبنى على أساس المادة وحدها هو نظام فاسد مهما علت دقة تنظيمه ومهما حقق من رفاهية مادية لأعضائه .

الدعاية فن

من بين العناصر التى تشكل قوة الدفع الشيوعى فى بلادنا . . . الاستراتيجية الدعائية التى ينتهجها الشيوعيون فى العمل .

ولئن تطورت هذه الاستراتيجية ، وتبدلت فى بعض عناصرها لتتلاءم مع التطورات الهيكلية التى أصابت المجتمعات النامية . . . إلا أن أسسها لا تزال ثابتة أو تكاد . . . فوسائلها ومضامينها تقوم دائماً على ذات المقومات التى اختطها معلموها الأوائل من ماركس إلى لينين . .

فالوسائل مازلت كما هى : الصحيفة ، والمجلة ، والكتاب والمنشور والكلمة المسموعة ، سواء كانت فى الإذاعة أم فى جمع عام أم فى خلية سرية .

والمضامين لازالت هى الأخرى ثابتة الجوهر من قديم . . . وتدور كلها حول الفردوس الموعود . . أو الشيوعية . . . مدينة ماركس الفاضلة .

وإذا كانت الوسائل والمضامين التى تقوم عليها الدعاية الشيوعية على هذا القدر من ثبات الجوهر . . . فإن هذا لا يعنى أن أحجامها وأبعادها ظلت دائماً ثابتة جامدة .

فقد سجلت السنوات العشر الماضية للشيوعيين توسعاً هائلاً فى الوسائل وتجديداً متزايداً فى المضامين ، حتى غرقت أسواق الفكر بنظرياتهم . . . ولم يعد لمن ناهضهم المذهب على كثرة عددهم متنفس للتعبير عن آرائهم ،

أو حتى مجرد الرد على مفترياتهم .

والواقع أن الدعاية الشيوعية قد اكتسبت منذ السنوات الأولى للثورة البلشفية قدرات جديدة لم تكن لها من قبل ، إذ أصبحت قوة مؤثرة فى صنع الفكر ، وتوجيه الحركة الثقافية فى العالم .

ويكفى للتدليل على حجم هذه الدعاية ما ورد فى إحصائيات الأمم المتحدة الأخيرة من أن الاتحاد السوفييتى يحتل المركز الأول بين دول العالم فى إنتاج الكتاب . إذ ينتج ٣,٧ ملايين كتاب يومياً ، أى ما يوازى ربع إنتاج العالم ، ويبلغ ما تنتجه المطابع السوفييتية فى الدقيقة الواحدة ٢,٥٠٠ نسخة . ، ولعل فى هذه الأرقام ما يكفى للتدليل على ضخامة إنتاج المطابع السوفيتية .

ونجاح الاتحاد السوفييتى فى إدراك هذا المستوى من الإنتاج الدعائى يعود إلى الأيام الأولى لقيام الثورة البلشفية وعلى وجه التحديد يوم ٢٩ ديسمبر ١٩١٧ عندما أصدرت الحكومة السوفييتية مرسوماً حددت فيه مبادئ تنظيم نشر الكتب والمطبوعات باللغات المختلفة ورسمت برامج تطويره .

وهذا المرسوم مؤسس فى جوهره على قاعدة عامة اعتنقها الشيوعيون منذ فجر دعوتهم ، مؤداها أن الصحافة والكتب تعتبر من أهم وسائل « الثورة الثقافية » أو بمعنى آخر ، من أهم وسائل الانقلاب الفكرى الذى ينشدونه ، إذ تعتبر من أمضى الأسلحة فى القضاء على الأفكار المعارضة ، وبث الآراء والأفكار الماركسية .

وتقول الأرقام إن عدد الجرائد فى الاتحاد السوفيتى يبلغ ٧٩٥٧ جريدة ، يبلغ مجموع النسخ فى كل طبعة ١٢٠ مليون نسخة ، ويصدر منها فى العام الواحد ٢٦ ملياراً و ٦٥٥ مليون نسخة . . .

أما عدد المجلات فقد بلغ ٤٧٠٤ مجلة يصدر منها فى كل طبعة ١٣٢ مليون نسخة ، وبديهى أن هذا الإنتاج الضخم من الجرائد والمجلات تغطى بعض حاجة المؤسسات الشيوعية التى تقوم بمهام الدعاية فى جميع أجزاء العالم ، إلى جانب ما يطبع منها باللغات المحلية واللهجات الوطنية .

وتجدر الإشارة إلى أن مؤلفات لينين مؤسس الدولة السوفيتية تحتل المكان الأول بين سائر المطبوعات السياسية والاجتماعية . حيث بلغ مجموع نسخها ٣٣٨ مليون نسخة صدرت بحوالى ٩٨ لغة من لغات شعوب الاتحاد السوفيتى ، بالإضافة إلى عشرات الملايين من الترجمات التى صدرت بجميع اللغات الحية .

هذه الأرقام ، وإن كانت لا تتناول سوى جانب واحد من جوانب الدعاية السوفييتية (مع استثناء السينما والراديو . . إلخ) إلا أنها تعتبر معياراً هاماً له دلالته فى تقدير الأهمية الكمية لهذه الدعاية . فإذا ما أضفنا إليها التقنية الدعائية الملائمة والتى تقوم على دراسة موضوعية للذهنية فى دول العالم الثالث لتبينا مدى فعالية هذه الدعاية فى صياغة العقول والسيطرة عليها وتوجيهها إلى خدمة الهدف .

ولنتناول وسائل الدعاية الشيوعية ومضامينها بشىء من التفصيل :

١ – إذا كان امتداد الوسائل وتعاظمها على النحو الذى نلمسه اليوم معروف السبب فى جملته ، فإنه مجهول الأبعاد فى تفاصيله . فمن المعروف أن سبب امتداد الوسائل ، يعود إلى كثرة المدد من دول تملك ناصية المادة ، وعلى الأخص الاتحاد السوفيتى والصين . ولكن ميكانيكية هذا الامتداد وأبعاده لازالت فى حاجة إلى الدراسة والتحليل .

وميكانيكية الامتداد الدعائى ، كما وردت فى المخطط الشيوعى ، تتحقق عن طريقين :

– اما بخلق وسيلة دعاية جديدة .

– وإما باستغلال وسائل الدعاية القائمة ، ويلجأ الشيوعيون إلى أحد طريقين :

* إما شراء الذمم نقداً وعداً ، كما وقع بالنسبة لبعض الصحف التي استطاع الشيوعيون شراء أصحابها أو بعض كتابها .

* وإما استغفال القائمين عليها باستغلال ظروفهم الخاصة والتظاهر بالتعاطف معهم والتفهم لمشاكلهم – برغم بعد الشقة – وبالتالى يستطيعون دس ما يريدون من أخبار تفيد دعوتهم .

ولن أتناول فى الكثير تفاصيل إمتداد وسائل الدعاية الشيوعية وتشعبها على هذا النحو . . . فليس فى الإلمام بها مشقة كبرى لكل من أراد البحث والاستقصاء ، وإن كنت أشك فى إمكانية التوصل إلى حقيقة العلاقات التى تربط بين بعض الصحف ودور النشر ، وبعض الكتاب وبين مراكز الدعاية الشيوعية التى تتعامل معها . وعلى كل حال

فإن النتيجة التى تستدعى وقفة إمعان وتمحيص هو ذلك الاستسلام المزرى لهذا السيل من الدعاية الشيوعية المركزة . . .

وتكفى نظرة واحدة إلى الصحف والمجلات والكتب والنشرات التى تصدر يومياً فى مجموع دول العالم الإسلامى ، لتحيط الباحث علماً بطغيان وسائل الدعاية الشيوعية على غيرها من وسائل الإعلام الأخرى – وخاصة الإسلامية منها – كماً وكيفاً . . ويبدو ذلك بوجه خاص فى تلك البقعة العربية من الوطن الإسلامى حيث يقف الشيوعيون اليوم خلف حوالى ٤٠ ٪ من إنتاج الكتب ، وحوالى ٣٥ ٪ من إنتاج المجلات ، وخاصة المجلات ذات الصبغة العلمية ، و ٣٠ ٪ من إنتاج الصحف اليومية .

يضاف إلى ذلك تأثيرهم غير المباشر فى أجهزة الإعلام الحكومية ونصف الحكومية من خلال عدد من الأقلام الرفيقة والصديقة التى باعت مدادها بالانتماء أو التعاطف .

ومحصلة هذه السيطرة المتزايدة على وسائل الدعاية وأجهزتها ، تبدو فى الحصار الذى ضرب على كل فكر ورأى لا يتفق والخط الماركسى . وعلى هذا الأساس صنفت الأفكار والآراء المحلية ، فكل رأى يحمل طابع الهدم للهدم يرحب به ولو لم يكن ماركسياً ، لأنه يتفق والخط الماركسى العام الذى يستهدف أولاً تحطيم ما هو قائم . وكل رأى يستخدم قوالب التحليل الماركسى يفسح له المجال حتى ولو لم يكن صاحبه ماركسياً لأن فيه دعاية وتقديراً لأدوات التحليل الماركسى .

أما تلك الأفكار والآراء التى تجادل فى سلامة النظرية الماركسية . . .

أو تطرح قيماً جديدة تتجاوز قيمها ، أو تعلى من شأن مذاهب دينية قائمة فلا يمكن أن تجد سوى المحاربة والتضييق . . . وغالباً مالا تجد سبيلها للنشر ، سوى فى بعض المجلات المتخصصة الضعيفة الإنتشار .

٢ - أما مضامين الدعاية الشيوعية ، فقد أصابها التجديد برغم ثبات الجوهر . فهى وإن كانت لا تعدو أن تكون نوعاً من الكذب المنظم إلا إنها أصابت هوى فى النفوس ، وارتأى فيها بعض السذج وأنصاف المثقفين والطامحين إلى زعامات سياسية جواداً رابحاً فى سباق السيطرة العقائدية تجدر المراهنة عليه .

وينصرف تجديد المضامين إلى النقاط التالية :

(ا) الحياد المصطنع بالنسبة للدين . . فبعدما كانت الأديان فى الدعوة الماركسية أفيون الشعوب . . تجتر تعاويذها لتتلهى بها عن آلامها . . أصبحت فى المضامين الدعائية الجديدة قيماً اجتماعية ، يلزم « احترامها » بإعلاء شأنها أو على الأقل بعدم التعريض بها . . وهكذا أصبح الشعار الدعائى المرفوع « الدين لله والشيوعية للمجتمع » ! !

وقد انبثقت عن هذا الاتجاه الجديد فى الدعاية الشيوعية شعارات جديدة تتصل بموقف الشيوعية من الإسلام من بينها أن لا تعارض بين الشيوعية والإسلام ، فكلاهما يسعى إلى هدف واحد . . وكلاهما يحدوه فى مسعاه نبل الهدف وعظمة الغاية . . كما أن كليهما ثورى فى وسائله . . . حاسم فى أساليبه « فلو كان طارق ابن زياد على قيد الحياة لما كان أقل تشدداً مع الإمبريالية الأمريكية من الجنرال جياب أو تشى جيفارا » . !!

وبهذا الاصطناع الظاهرى ترمى الدعاية الشيوعية إلى تحييد الدين الإسلامى بإبعاده عن دائرة المقاومة للغزو الماركسى ، خاصة بعد ما انتكس هذا الغزو مؤخراً فى العديد من الأقطار الإسلامية بسبب عنف المقاومة التى لقيها من جانب الإسلام .

وليس معنى ذلك أن الدعاية الشيوعية قد تابت وأنابت عن هدم القيم الإسلامية ، ولكن معنى ذلك أنها قد غيرت من أسلوبها فى هدمها ، فكتابات المراكسة لا تخلو من التلميح بخواء هذه القيم . . وعدم تلاؤمها مع روح العصر ومتطلباته . بل والمتصفح لمؤلفات علمية لمؤلفين مراكسة أو متأثرين بالفكر الماركسى لا يعدم العبارات المحبوكة والجمل المركبة بعناية قصد التشهير بالتعاليم الإسلامية وإفراغها من مدلولاتها العظيمة .

(ب) التبسيط الساذج لمشاكل العالم الثالث بطرحها فى قوالب ماركسية توحى للملاحظ العادى بسلامتها وصدقها ، وإذا كان التبسيط يعتبر أسوأ تعبير عن الحقيقة ، فهو عند المراكسة يشكل أكثر من نصف قوتهم الإعلامية . من ذلك مثلاً معادلة المستغِل والمستغَل التى لا يرى لها المراكسة حلاً إلا باستيلاء البروليتاريا العمالية على الحكم وإقامة دكتاتورية الطبقة الواحدة . ومعادلة التخلف التى لا يرون لها مخرجاً إلا فى التأميم الكامل للموارد والتخطيط الشامل المركز لعناصرها . . وهكذا تقدم « الحقائق » الماركسية فى أشكال براقة تستأثر بالعواطف ، وتطرح الحلول فى قوالب جاهزة تفرض على العقل العادى سلطانها .

(حـ) ركوب كل تيار يؤدى إلى خدمة أغراض الدعوة ، حتى

ولو كان مصادماً لجوهرها . ومن هنا ركب الشيوعيون تيار القومية وأداروه لحسابهم وامتطوا صهوة الاشتراكية « غير العلمية » وسخروها لأهدافهم ، بل وتعاطفوا مع الأقليات الانفصالية ، واستمالوا خيرتها إلى صفوفهم . . وعلى الرغم من أن هذا النوع من الدعاية يلعب دور ذى الوجوه السبعة ، إلا أنه لازال يحظى بالنجاح فى بلادنا . . لأنه يجد فى الواقع لكل حالة لبوسها ، ولكل مقام مقاله .

فعندما تغلق الأبواب دون دعوة أو عقيدة ، ويحاصر روادها من كل جانب ، يتحرك المخطط الشيوعى ليحتضن الدعوة والدعاة ، وتنبرى الدعاية الشيوعية لمدها بالعون المادى والمعنوى . أو لم يكن هذا موقف الدعاية الشيوعية من القوميين العرب ودعاة الانفصال فى الباكستان الشرقية وغيرهم ؟!

(د) ولعل الجديد الجديد فى مضامين الدعاية الشيوعية وأشدها خطراً على مستقبل العالم الإسلامى بوجه خاص والعالم الثالث بوجه عام ، هو تلك المحاولات القريبة التى بذلها بنجاح رواد الدعاية الشيوعية قصد تحطيم الجسور التى تصل إنسان العالم المتخلف بحقيقة الدعوة الشيوعية .

فكل ما تناوله الخبراء العالميون من دراسات وأبحاث تتصل بالتطبيق الشيوعى فى دول العالم الثالث ، قطع عليه الطريق وسدت دونه المنافذ حتى لا تصل حقائق التجارب الشيوعية فى بعض هذه الدول إلى دول أخرى تنتظر تجربتها . أو ليس من التزوير والزيف حقًّا أن يعمد الشيوعيون

إلى ترجمة مؤلفات هؤلاء الخبراء التى تنتقد التجارب الماركسية فى غانا وغينيا وكوبا و غيرها ، ونقلها إلى العربية محرفة مشوهة بعيدة عن كل موضوعية ، بل ومجردة عن كل أمانة علمية تستوجب احترام المعنى الذى قصده المؤلف ، والامتناع عن كل إسقاط أو حذف من شأنه الإخلال بالمبنى ؟ .

ويكفى أن أسوق كمثال مؤلفين لخبيرين كبيرين نشرا بالفرنسية وتناولا مشاكل التنمية والتجارب الاشتراكية فى دول العالم الثالث .

الأول هو مؤلف « التخلف والتنمية فى العالم الثالث » للبروفسير البرتبى ، استاذ العلوم الاقتصادية بجامعة ليون ، والثانى هو مؤلف « التجارب الاشتراكية أمام مشاكل التنمية » للبروفسير ديمون وهو استاذ جامعى سابق وخبير عالمى بالشؤون الاقتصادية .

وقد نقلت كلا المؤلفين إلى العربية دار الحقيقة ببيروت .

والذى يدعو للعجب حقًا ، هو تلك الجرأة الغريبة التى تصرف بها المترجمون لتوليف هذين المؤلفين على مزاجهم العقائدى وتقديمهما فى شكل لا يمس الصورة الجميلة التى نسجتها ابواق الدعاية الشيوعية عن الجنة الموعودة خلال نصف قرن من الزمان . ومن هنا كانت المقدمات الطوال التى تصدرت الطبعات العربية والتى حاول بها المترجمون أن ينتحلوا الأعذار للكاتب عندما يخرج عن الخط الماركسى بوصفه تارة بالرجعية ، وأخرى بالتعاطف مع البرجوازية ، أو ينتحلوا الأعذار للقارئ عندما يخشون

اطلاعه على نتائج التجربة الماركسية بإسقاط جزء من الأصل عنه بمقولة أنه غير مفيد له .

وبهذه « البهلوانيات » الدعائية تطل علينا الطبعات العربية للمؤلفات الأجنبية المتخصصة ، ويتلقى القارئ العربي هذه الطبعات وكأنها تعبير عن الأصل . . والأصل منها براء .

يحيا الوفد

جاء فى نبأ نشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ٣ مايو ١٩٧٥ ما يلى :

* « أمس الأول سحبت الرقابة على المصنفات الفنية موافقتها على مسرحية (يحيا الوفد) » وانتهى العرض أمس بكلمة من تحية كاريوكا اعتذرت فيها عن عدم تقديم المسرحية للأيام التالية .

وراء الخبر قصة دبلوماسية . لقد بعثت سفارة الاتحاد السوفيتى فى القاهرة إلى وزارة الخارجية المصرية ، ترجو التدخل باسداء النصح لوقف المسرحية لأن نص المسرحية الذى كتبه فايز حلاوة اعتبرت السفارة أن به مساساً بالاتحاد السوفييتى .

ولقد نقلت وزارة الخارجية رجاء السفارة السوفييتية إلى وزارة الثقافة التى وقفت حائرة ، فالنص موافق على كل صفحة منه من مراقبة المصنفات الفنية بالاضافة لعدم ذكر اسم الاتحاد السوفيتى ولا شعبه اطلاقاً فى المسرحية بحيث لا يؤخذ على النص أى مأخذ ، وبغض النظر عما تقوله المسرحية إذا كان يتعرض بالنقد للاتحاد السوفييتى أو الولايات المتحدة الأمريكية أو بريطانيا من خلال علاقتنا بهذه الدول سواء فى الماضى أو الحاضر . . فقد كان مثل هذا الطلب هو السابقة الأولى .

ولقد قيل إن رجاء الاتحاد السوفييتى قد تكرر مرة أخرى خلال زيارة

مسئول مصرى أخيراً لموسكو ، وإنهم أسمعوه هناك شريطاً مسجلاً يعلن ما يرونه ماساً بهم فى هذا الوقت الذى تبذل فيه الجهود على أعلى المستويات . . لإذابة كل ما شاب العلاقات بين البلدين ، ومن هنا كانت الاستجابة للرجاء ».

انتهت كلمة الأهرام .

وبعد هذا الحدث الغريب العجيب فى تاريخ العلاقات الدولية لنا أن نتساءل كيف تطلب دولة عظمى عريقة فى « الديمقراطية » مثل هذا المطلب ؟ وكيف نتصور أن تستجيب دولة مستقلة وتذعن لهذا المطلب ؟

وإذا كان الغضب مباحاً والاستياء ممكناً من دولة صديقة فإنه يجب أن يكون مقصوراً على موضوعه غير متجاوز لحدوده . . فلا يجوز بحال أن ينصب على رأس حكومة مصر وشعب مصر . . انما يجب أن ينصب على رأس تحية كاريوكا وفايز حلاوة ان كان فى تصرفهما خروج على القانون المصرى أو تجاوز للأصول الدولية .

أما أن يكون موضوع مسرحية سبباً فى تعكير صفو العلاقات الدولية بين صديقين أو أداة ضغط و محاسبة فى المفاوضات التى تجرى بين الطرفين فإن فى هذا ما يثير الدهشة ويدفع إلى التساؤل .

غير أن المُطّلع على منطق القيادة السوفيتية العارف لأساليبها فى الحكم لا يدهش لمثل هذا السلوك ولا يحار فى العثور على تفسير له .

فهذه القيادة مازالت تتصور أنها تتعامل مع نظم تماثلها فى الدكتاتورية المركزة حيث التطابق المطلق بين تصرفات الحاكم وتصرفات شعبه . . بين مسئولية الحاكم ومسئولية شعبه ، فالشعب لا يفكر إلا فى نطاق ما يريد

له حكامه . . ولا يعبر إلا فى حدود ما يريد له حكامه ولا ينتقد الا فى إطار ما يريد له حكامه . ففى مثل هذه النظم الدكتاتورية الجمعية لا يعرف للفرد كيان . . ولا للحرية الفردية مكان ، انما تساق الجماهير سوقاً إلى الاختيارات التى تريدها القيادة من خلال الحزب الواحد الذى تعتلى قمته .

أما النظم الديمقراطية الحقة التى تقوم على اختيار واع حر من الجماهير فهى وحدها التى تكفل حرية التفكير و التعبير فى إطار القوانين التى أقرتها الأغلبية الحقيقية لا الأغلبية الوهمية التى يمثلها الحزب الواحد . وبالتالى فهى وحدها القادرة على الفصل بين الحكومة و الشعب . . وهى وحدها القادرة على تقدير موقف الحكومة من ممارسة شعبها لحرياته الأساسية .

وإذا كانت القيادة السوفييتية قد رأت فى مسرحية يحيا الوفد ما يزعج دعوتها أو يمس سمعتها فى مصر فما عليها إلا أن تتجه إلى القضاء المصرى فهو وحده صاحب الاختصاص فى الفصل فى هذه الأمور

أما أن تتخذ من مسرحية لم تعجبها أداة للمساومة فتقدم للحكومة المصرية طلباً رسمياً بوقف المسرحية ، فهذا ما لا وجود له فى كل السوابق الدولية بل ولم يشهد عهد اللورد كرومر وأمثاله من ممثلى الاحتلال البريطانى فى مصر طلباً واحداً من هذا النوع على الرغم من الحملات العنيفة التى كانت تشنها الصحافة و المسرح ليل نهـار ضد الوجود البريطانى : وعلى الرغم من موجات التنديد و التشهير و القذف فى بريطانيا وحلفائها فكيف يمكن فى عهد الاستقلال أن تقدم دولة مستقلة لدولة أخرى مستقلة طلباً من

هذا النوع ؟ – ولماذا لم يقدم الاتحاد السوفييتى طلبات مماثلة لبريطانيا وفرنسا والدول الاسكندنافية وصحافتها ومسارحها تغص بألوان من النقد والسخرية بالنظام السوفييتى والنظم التى على شاكلته ؟

لماذا بالذات مصر . . .

ألأنها كانت بحاجة للاتحاد السوفييتى فى هذه الآونة فتستغل هذه الحاجة على هذا الوجه المهين ؟ أم لأن الصغار غير الكبار والمتقدمين غير المتخلفين فنعامل هؤلاء بأسلوب ونعامل أولئك بأسلوب ! !

أن مسرحية يحيا الوفد تعبر عن لون من ألوان الفكر فى مصر . . . وتعكس وجهة نظر قطاع من شعب مصر ، فهى لاتعبر بالضرورة عن آراء حكومة مصر . . ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر حكام مصر تجاه الاتحاد السوفييتى . .

وإذا كان هناك وجه للغضب والمساءلة فلا يتحمل مغبته سوى تلك الفئة التى أعدت المسرحية وهيأت نصوصها . وإذا كان هناك وجه للرجاء بوقف المسرحية . فإن السيدة تحية كاريوكا وفرقتها هى الأولى بهذا الرجاء

أما حكومة مصر فلا وجه لمساءلتها . . . ولامحل لتقديم طلب لها لوقف المسرحية،فقد كفت وصايتها على الفكر فى مصر . ورفعت ولايتها على حرية التعبير فى مصر . ولو كان الغضب والمساءلة–حتى بين دول صديقة – جائزاً على هذا النحو لكان لنا أن نسائل الاتحاد السوفييتى عن سيل الأقلام التى يساندها وسيل المجلات والكتب التى يمولها والتى تتطاول

كل يوم وساعة على مقدساتنا وتراثنا . ولكان لنا أن نقدم طلباً بل طلبات بوقف تداول القصص والمسرحيات والمقالات السوفييتية التى تتهجم على قيمنا وتسخر من عقائدنا داخل الاتحاد السوفيتى وخارجه .

هل يود القادة السوفييت أن نعاملهم بالمثل ؟

لاأعتقد . . . .

وإذا كان موقف القيادة السوفيتية من هذه القضية شاذاً . . فإن موقف الأحزاب الشيوعية المحلية والحزب الشيوعى المصرى كان أكثر شذوذاً وغرابة . . .

فهؤلاء جميعاً ملكيون . . أكثر من الملك . . لا يطيقون شبهة نقد لسياسة موسكو . . ولا لمحة تفنيد للأساليب الشيوعية . . . وانبرى كبارهم وصغارهم عند أول إشارة يسبون ويلعنون تحية كاريوكا ويعدون ويتوعدون فرقتها . . .

أما مخرج المسرحية . . فايز حلاوة فقد كان له نصيب الأسد فى حملات التهديد والوعيد . . . بوصفه المسئول الأول عن تلك النصوص « البذيئة » التى تضمنتها المسرحية .

هؤلاء الغيورون على الماركسية . . . المدافعون عن سدنتها فى موسكو . . المستنكرون لنصوص المسرحية بعبارات مثل « لا يجوز » . . و« ليس من اللياقة » و« من الخروج على قواعد الآداب الدولية » . « ومن الجحود بمقتضيات الصداقة المصرية السوفييتية » . . . هم أنفسهم

الذين لا يتحرجون صباح مساء من الهجوم على أقدس مقدساتنا فى الصحافة العربية والأجنبية .

وهم أنفسهم الذين يصفون الإسلام بأنه « موضة قديمة » وينعتون قيمه بأنها غير « مناسبة لروح العصر » و « متنافية مع أصول المادية الجدلية » بل ويخرج منهم من يطبق أسلوب المادية الجدلية على مرحلة البعث المحمدى ليستخلص من ذلك اتساق الإسلام – كمرحلة تاريخية – مع مبادئ النظرية الماركسية ! ! !

كتب ماركسى غيور يعبر عن قطاع كبير من الشيوعيين « العرب » يقول :

(كان من الطبيعى أن يمزق الصراع الطبقى مجتمع مكة ، وإن يبلغ قدراً من العنف والحدة أدى إلى تحطيم معظم المؤسسات الاجتماعية وإلى إعادة صياغتها إنطلاقاً من معطى الصراع هذا . لقد حطم هذا الصراع العلاقات الأسرية كما حدث فى عائلة النبى نفسها . كما أن أبا جهل قد قتل عشيقته سمية * وعندما تبعت محمداً أغمد حربته بين فخذيها ولم ينزعها حتى ماتت . . . . .

ثم يستطرد متسائلاً :

---

* هكذا يقول الشيوعى ، وهو خطأ صراح ، فسمّية لم تكن عشيقة أبى جهل وإنما كانت مولاة لأبى حذيفة عمّ أبى جهل ، وقد زوجها مولاها حذيفة لياسر فولدت عمار بن ياسر . وقوله : أغمد حربته بين فخذيها . . . . إلخ خطأ أيضاً ، فأبو جهل طعنها بحربته طعنة قاتلة .

« ولكن ما هى الفكرة الأساسية التى قدمها الإسلام إلى المعدمين والعبيد فى حربهم ضد أعدائهم الطبقيين ، والتى أصبحت فكرة الجذب الرئيسية للفئات المسحوقة ؟ ! ! ! . .

ويجيب الماركسى الغيور بقوله :

« لقد قدم الإسلام بدلاً من ذلك فكرة جنة الخلد التى يعيش فيها المؤمنون فى ترف يفوق ترف تجار مكة . الأبرار فى الجنة يشربون خمراً رائعاً ، من كأس كان مزاجها كافوراً ، متكئين على الأرائك ، ولا يرون فيها شمساً ولا زمهريرا ، قطوف فواكهها دانية يستطيع المتكئ على الأريكة أن يتناولها دون أن يغير من جلسته . خدامها ولدان يبدون للناظر لؤلؤا منثورًا ، وفيها الحوريات اللاتى لا مثيل لجمالهن ، والقصور الشامخة . . . . . إلخ . . . . .

وأخيراً ينتهى من تحليله إلى نتيجة مؤداها :

« أن التغيرات الاجتماعية التى توالت بعد ذلك جعلت الجنة ونقيضها يفقدان قدرتهما المؤثرة على تحريك الجماهير . وكان هذا هو البداية لنشوء الفكر الثورى الالحادى . فكيف تم ذلك ؟ . . .

لقد تحولت الجنة فيما بعد إلى أفيون يفتن البؤساء عن واقعهم ويقف فى طريق الثورة الشعبية . »[1]

ولا نريد استثارة القارئ بالاسترسال فى سرد مقتطفات من تبجح

---

(١) غالب هلسا : « حلم المدينة الفاضلة فى الفكر الإسلامى » مجلة قضايا عربية ، العدد الثالث ، يونية ١٩٧٤ .

الشيوعيين « العرب » على التراث . . . وتطاولهم على قيم الإسلام إنما نكتفى بهذا النموذج الدارج الذى تعودنا على مطالعته فى كتبهم ومجلاتهم باسم « العلم » و« العلمية » . . .

وهو لا يعكس فى واقعه سوى التبلد المذهبي والعقم الفكرى . . . الذى يذهب إلى اخضاع كل ظاهرة أيا كانت طبيعتها . . . وأيًّا كان بعدها التاريخى لأدوات التحليل الماركسى . . .التى صيغت منذ أكثر من قرن ونيف من الزمان . . .

ويرد التساؤل : هل قامت دولة إسلامية واحدة بالاحتجاج رسمياً على هذا السباب المعلن ؟

هل قامت جماعة إسلامية بتهديد هؤلاء الشيوعيين ووعيدهم . . . كما ذهبوا هم إلى التهديد والوعيد عندما ظهرت تمثيلية يحيا الوفد ؟

هل تناولهم أحد بالقذف والتجريح . . . أو استعدى عليهم دولة أجنبية عندما أخرجوا مسرحية « دنيا البيانولا » ومثلوها على المسرح وهى المسرحية الهادفة التى تدافع بشكل أو بآخر عن آرائهم ومعتقداتهم وتسخر من خصومهم ؟ ؟

إن ما حرك المراكسة العرب وأثار حفيظتهم الماركسية ليس فى الواقع عرض مسرحية يحيا الوفد . . . ولكن إقبال قطاع هام من الجمهور العربى على هذه المسرحية ، ولولا ذلك الإقبال الكبير الذى عرفته المسرحية فى مصر لما تحرك المراكسة العرب ضدها حتى ولو ظلت تمثل على المسرح ألف عام كاملة ! ! !

الذى حرك المراكسة إذن هو الإقبال على لون من ألوان المسرح فى بلد فتح من جديد على المنافسة الأدبية والفنية . . . والمراكسة لا يطيقون المنافسة إنما يفضلون الميدان خالياً إلا من سواهم . . . يفضلون احتكار القول فلا يرتفع فى الساحة صوت سوى صوتهم ، ويفضلون احتكار العمل فلا يبدو فى الساحة عمل سوى أعمالهم – وفى كلمة يفضلون قطعاناً يحركونها كما يشاءون ، أما بشر يفكر ويناقش وينتقد فهذا ما لا طاقة لهم به . . . وما لا صبر لهم عليه .

وبعد

أيها المراكسة فى كل مكان ؟ .

إن عقارب الساعة لا ترتد إلى الوراء ولن يعود الزمن الذى نصادر فيه حرية الرأى من أجل إرضاء صديق أو مجاملة حليف . . . حتى ولو كان هذا الصديق أو الحليف هو الاتحاد السوفييتى . . .

وإذا كان منطق الصداقة عند القيادة السوفيتية يخالف ذلك . . . فلتسقط الصداقة وليحى الوفد .

الملصقات

هل سمعت عن الديمقراطية الدكتاتورية ؟

إن لم تكنَ قد سمعت قبلا بهذا الشعار الغريب فاعلم أنه ليس لغطًا تلوكه المجالس ولكنه مبدأ رسمى مرفوع هناك فى الصين ! !

وهل سمعت عن الشيوعية الإسلامية ؟

إن لم تكن قد سمعت بها قبلا فاعلم أنها ليست نكتة يروجها القوم ولكنها فكرة يستغلها اليسار الشيوعى هنا فى بلاد المسلمين

فهذه « الملصقات » التى يرفعها الشيوعيون ليست للاعلان ولكنها من قبيل ركوب الوسيلة إلى الغاية .

فإلصاق الديمقراطية بالدكتاتورية كإلصاق الشيوعية بالإسلام تعتبر كلها من لوازم الاستراتيجية الشيوعية التى ترمى إلى تثبيت الدعوة وإقرارها فى بيئة رافضة لها متمردة عليها .

وعند هذه النقطة تنتهى أوجه التلاقى بين الشعارين . فشعار الديمقراطية الدكتاتورية يرفعه الشيوعيون من موقع السلطة ، أما شعار الشيوعية الإسلامية فيلوحون به وهم بعيدون عن السلطة . . .

ومن هنا كان أسلوب تطبيق الشعار الأول هو العنف المنظم الذى تجسده سلطة الدولة ، أما أسلوب تطبيق الشعار الثاني فهو الكذب المنظم الذى تهيئه أجهزة إعلام مدربة .

فشعار الديمقراطية الدكتاتورية اخترعه الشيوعيون لدعم سلطانهم داخل الدولة فقالوا بالديمقراطية للشعب والدكتاتورية لأعداء الشعب . . .

أما المعيار والفيصل بين أحباء الشعب وأعداء الشعب ، أى بين أولئك الذين سينعمون بجنة الديمقراطية وأولئك الذين سيصلون بنار الدكتاتورية فمردود إلى تقدير القيادة وخاضع لأهوائها .

ليوتشاوشي رفيق ماوتسى تونج والذى عمل كثيراً فى دعم الثورة الصينية وإرساء دعائمها . . . انقلب فجأة . . . من حبيب الشعب إلى عدوه اللدود .

لماذا ؟

لأنه اختلف مع ماوتسى تونج فى أساليب التوجية والقيادة الحزبية .

كان ماوتسى تونج من أنصار استراتيجية « الريف يطوق المدن » التى أعدها منذ ١٩٢٧ . . . وكان أوثق ارتباطاً بالفلاحين . . . بينما كان ليوتشاوشى منذ تأسيس الحزب الشيوعى الصينى منظماً لجماهير المدن من عمال ومثقفين . . . وما إن أحس ماوتسى تونج بأن رفيق كفاحه الطويل قد بدأ يسيطر على الحزب من خلال عماله ومثقفيه حتى انطلق يحاربه بعنف . تحت شعار إنقاذ الحزب من « النزعة البيروقراطية » وسياسة توزيع المناصب « على المحاسيب والأنصار » .

وانتصر ماو . . . .

وتحول ليوتشاوشى وأنصاره إلى أعداء للشعب تستباح دماؤهم وتسلخ جلودهم . . .

وأعلنت الأسباب وليس من بينها سبب واحد يتعلق بخوف ماوتسي تونج على سلطانه . . . ولا بخشيته من تقلص نفوذه

إنما كانت كلها تدور حول إنقاذ الصين من بيروقراطية المناصب الحزبية . . . والانتهازية . . . والثورة المضادة . . . إلخ . . .

ولم يستطع ليوتشاوشي بطبيعة الحال . . . الدفاع عن نفسه . . . لأن أعداء الشعب لا يتكلمون ! ! !

والجسد الراقد فى القبر الكبير بقلب موسكو . . . إلى جوار رفيقه فى الكفاح . . . جسد ستالين . . . البطل المغوار . . . الذى قاد كفاح شعبه من أجل بناء الاشتراكية وأنقذ أمته من غارات النازية . . . هذا البطل المغوار حبيب الشعب . . . بل حبيب الرفاق فى كل مكان . . . تحول فى لحظة . . . إلى مجرم سفاح . . . مصاص دماء . . .

انقلب ستالين بكلمة من خروشوف فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى . . . إلى عدو الشعب . . . بل عدو الإنسانية فى كل مكان . . .

وأخرجت جثته من مقبرة العظماء . . . وألقى بها فى مكان مجهول .

وفى هذه المرة أيضًا . . . وجدت القيادة الخروشوفية المبررات والأسباب . . . وقدمتها وسط الطبول والزمور إلى جموع المصفقين من قواعد الحزب

ولم يتمكن ستالين من الرد على خصومه . . . لأن الموتى لا يتكلمون ؟ !

وبنفس الأسلوب الدرامى . . . يختفى خروشوف ويقصى عن السلطان دون أن يصدر بيان واحد من القيادة الحزبية يوضح سبب اختفائه . . .

وينعت من القيادة الحزبية الجديدة . . . صراحة وضمناً . . . بكل النعوت . . . ويوصف من هذه القيادة بكل الأوصاف . . . وينقلب « حبيب الشعوب الاشتراكية » هو وأعوانه إلى أفاق جاهل يستحق اللعنة والازدراء ! !

أما شعار الشيوعية الإسلامية وهو آخر صيحة فى عالم الشعارات الشيوعية فقد كان ابتكاراً محلياً محضاً . . . اقترحته القيادات الشيوعية فى بلاد الإسلام واعتمدته القيادة الشيوعية الدولية ، وبمقتضاه تدخل الشيوعية إلى حظيرة الإسلام ، فتؤمن بالله ورسله واليوم الآخر ، وتعترف بالخير والشر والجزاء والعقاب إلخ ! !

ولا يبقى للمسلمين من ذريعة فى رفض اعتناقها أو التمرد على تعاليمها ، لأن مضمونها لا يتعارض مع قيم الإسلام . . .

فهى تحارب الاستغلال والإسلام يرفض الاستغلال . . . وهى تقاوم اللامساواة والإسلام يدين اللامساواة،وهى ترمى إلى العدالة والإسلام دين العدالة ! ! !

وهكذا شهرت الشيوعية إسلامها واكتشف سدنتها فى لحظة أنها تناضل لذات الأهداف التى من أجلها يناضل الإسلام وأنها تسعى لذات الغاية التى إليها يسعى الإسلام ! ! !

والواقع أن القيادة الشيوعية الدولية تعمل منذ فترة على « تطويع الدين » بمعنى عدم التصدى للفكر الدينى وما يمثله من قيم بصورة صريحة ومباشرة ، كما كان مسلك الشيوعيين التقليديين فى تطبيقهم لشعار ماركس القائل

بأن « الدين أفيون الشعوب » ، بل تحطيم مقاومته بأساليب مرنة ملتوية : كادعاء عدم التعارض بين الدين والماركسية ، كما ذهب البعض بالنسبة للإسلام بقوله إن أهدافه لا تختلف عن أهداف الاشتراكية العلمية ، وإن الرسول صلى الله عليه وسلم « كان أعظم الثوريين الاجتماعيين وإن الإسلام فى عصرنا الراهن يعبر بشكل ذهنى وموضوعى عن مشاعر أعضاء المجتمع الإسلامى وعن شعورهم بالتضامن ، ورغبتهم الملحة فى الاستقلال وتحقيق التقدم والرخاء[١] . . . إلخ .

وسواء كان القول بإمكانية تحقيق « الاشتراكية العلمية » تحت راية الإسلام ، يعتبر من قبيل التكتيك أو من باب الاقتناع ، فإن الرأى المسلم به من جانب أئمة المذهب الشيوعى والساهرين على تطبيقه يتحدد فيما يلى :

« سيدرك الناس حينما تختفى الأمية ويرتفع مستوى التعليم ، أن بناء المجتمع الاشتراكى مستحيل فى مجتمع تسوده التعاليم الإسلامية أو يسوده التمييز الدينى »[٢] .

ويضاف إلى هذا الأسلوب ، أسلوب آخر لا يقل فعالية وقوة عن سابقه ويقوم على التقليل من شأن القيم الدينية ، وخاصة ما تعلق منها

---

(١) راجع فى هذا الشأن الجريدة السوفيتية « افريقيا وآسيا اليوم » عدد رقم ٨ – عام ١٩٦٦ ص ١٠ .

(٢) التغيرات الاجتماعية والاقتصادية فى الجمهورية العربية المصرية وعلاقتها بالاشتراكية العلمية جريشيشكين ، نشرة « الاقتصاد الإفريقى » موسكو ١٩٦٥ ، ص ٢٥ .

بشؤون الدنيا ، وذلك بالتدليل على أنها تنطوى على مفاهيم عتيقة ، أدت رسالتها فى زمن غابر ولم تعد اليوم قادرة على مواجهة مشاكل التخلف ، تلك المشاكل التى يجب أن تعتمد فى تذليلها على حلول عصرية نابعة عن فكر عصرى .

منطق ساذج . . . ولكنه فعال فى ظروف أمتنا ، فجماهيرها الواسعة لا تعرف سوى قليل عن الشيوعية وقليل عن الإسلام . . . ومع هذا القليل يعظم التضليل ويسهل التجهيل . . .

والواقع أن الشيوعية والإسلام متعارضان وأنه على الرغم من تلاقيهما الظاهرى حول بعض المبادئ إلا أنهما خصمان لا يجتمعان . . . فمنابعهما مختلفة وغايتهما مختلفة ، فالإسلام يرفض المادية كأساس للحياة الإنسانية ولا يعترف بصراع الطبقات كمحرك للمجتمعات البشرية ولا يؤمن بالحتمية التاريخية كنهاية للبشرية ، فكيف يمكن القول بعد ذلك بتوافقه مع الشيوعية ؟ والتحامه مع مبادئها وغاياتها ؟

إن شعاراً كهذا لا يعنى سوى ركوب الوسيلة إلى الغاية حتى ولو كانت هذه الوسيلة افتراء على الإسلام وتضليلاً للمسلمين . . . وإذا كانت الغاية تبرر الوسيلة – كما ذهب مكيافيل أستاذهم فى التكتيك – فإن الوسائل القذرة لا يمكن أن تقود إلا إلى غايات قذرة .

الدين لله والشيوعية للجميع ! !

الطليعة الثورية المصرية تقود اليوم « ثورة فى عالم المشايخ »(١) وكعهد الطليعة بقيادة « الثورات » تنطلق بها من أكبر معقل للإسلام فى العالم . . . من الأزهر الشريف فتتطاول على إمامه الأكبر . . . بالقذف . . . والسب . . والتجريح . . .

وتتلقى الأوساط الإسلامية هذه « الثورة » العارمة بالحيرة والدهشة ويتساءل الجميع عن أسبابها . . .

قيل إن أسبابها تعود إلى أحقاد شخصية ترسبت فى نفوس بعض المهاجمين ضد الإمام الأكبر وهيئة علماء الأزهر الشريف ، وتوقف الكثير ون عند حدود هذا الادعاء ولم يبحثوا فيما وراءه .

غير أن المدقق فى طبيعة المد الشيوعى فى بلادنا . . . الممعن فى تاريخه البعيد والقريب يجد من الأسباب والدوافع ما هو أخطر وأفدح من مجرد الأحقاد الشخصية المقول بها . . . فالوقوف على الأبعاد الحقيقية لهذه « الثورة » يستلزم وضعها فى إطارها الزمانى والمكانى الصحيح . . . فى هذا الوضع كشف لأسبابها وتحديد لدوافعها .

ولنعد إلى الوراء قليلاً . . . إلى الستينات من هذا القرن أيام كان

---

(١) هذا هو العنوان الهازئ الذى اختارته روز اليوسف لمعاودة الهجوم على شيخ الأزهر بتبنيها لبعض الآراء نسبتها لمن أسمتهم « علماء الأزهر » .

الشيوعيون يجهرون فى كل مكان بعدائهم للدين . . . ويعلنون فى كل مكان بأن إرساء الاشتراكية العلمية وتحقيق الثورة التقدمية لن يكون إلا بعد التحلل من رباط الدين . . .

ولم يقل أى منهم فى هذه الآونة بالتحام الشيوعية بالدين . . . ولا بتعايشها معه . . . إنما كانوا يرددون فى وضوح الشمس كلمات إمامهم بأن الدين بناء فوقى أوجدته المصالح الطبقية المتصارعة وأنه أداة تخدير فى يد الطبقة السيدة تستعبد بها الطبقة المسودة . . .

وفى هذه الآونة أيضاً كان للشيوعيين المصريين مع النظام الناصرى صولات وجولات . . . تمكنوا خلالها من إرساء دعائمهم وتوطيد أقدامهم مستعينين فى كل ذلك بالمساندة المطلقة لدولة أجنبية وهى الاتحادالسوفييتى ، ووصلت درجة المساندة إلى حد التدخل السافر فى شؤون مصر الداخلية تطالب الإفراج عمن اعتقل منهم أو استثناء نشاطهم من المنع السياسى أو إمدادهم بالعون المادى الذى يسمح لهم بالاستمرار فى نشر الدعوة الماركسية فى مصر من خلال صحافة موقوفة عليهم ! ! !

ثم يأتي ميثاق العمل الوطني عام ١٩٦٢ ليمنح الدعوة الشيوعية — بصورة مباشرة أو غير مباشرة — سنداً فكرياً ضخماً . . . ووسادة تتكئ عليها للنفاذ إلى أعماق المسلمين . . . واختراق صفوفهم التى عمرها الإيمان . . . وشدها التشبث بالدين . . .

والمدقق فى وقائع هذه المرحلة الممعن فى أحداثها يلاحظ بغير عناء أنه لم يرد فى الميثاق كلمة واحدة تفيد بأن الإسلام هو دين الدولة أو الأمة ،

بل وردت فيه نصوص خطيرة تفتح الطريق إلى مناقشة الدين من زوايا جديدة ظاهرها الحرية وباطنها تمييع الدين والتكفير بتعاليمه !

يقول الميثاق : « حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها فى حياتنا الجديدة»ولكن علينا أن نكتشف **حقيقة الدين** وتجلية جوهر رسالته . وإن رسالة السماء كلها **كانت ثورات** وإن من واجب المفكرين الاحتفاظ للدين **بجوهر رسالته** على **أساس الاقتناع الحر** »

وظاهر النص هو الدعوة إلى اكتشاف « حقيقة الدين » تأسيساً على أن الرسائل السماوية « كلها كانت ثورات » . . . وإن« واجب المفكرين » لا علماء الدين فقط « الاحتفاظ للدين بجوهر رسالته » شريطة أن يكون ذلك « على أساس الإقناع الحر »

وإذا عرفنا أن الدين الرسمى للدولة السوفييتية والحزب الشيوعى السوفييتى هو « الإلحاد العلمى » وأن الإلحاد العلمى يعنى فى دائرة المعارف السوفييتية « الإقناع الحر » لتبينا بوضوح وجلاء مدى الصلة الوثيقة بين « الاشتراكية العلمية » وميثاق « الاشتراكية العربية »

وهذه الصلة بعينها هى التى أباحت لألسنة الإلحاد أن تنطلق . . . وأن تلوث بلغطها الساحة المصرية والعربية طوال عقد ونصف من الزمان .

وفى إنتاج وسائل الإعلام المصرية« وللطليعة القيادية لليسار العربى » خلال تلك الحقبة آلاف النماذج من هذه التوصية التى نادى بها الميثاق . . . وكلها ترديد للاجتهادات التى قام بها الاتحاد السوفييتى قصد ترويض . العقيدة الدينية وإخضاعها لمقتضيات الدعوة الماركسية .

وفى مؤلفات « الرفيق رايزنر » – وهو يهودى سوفييتى – نجد الأصل الأصيل لأول الاجتهادات الماركسية التى اتجهت إلى تجلية واكتشاف مبادئه على ضوء (الاشتراكية العلمية) « حقيقة الإسلام »وتعتبر مؤلفاته « دراسة فى عقائد الشرق » و « محمد خرافة رجل لم يكن » و « رجعية الإسلام » النبع الذى عنده توحدت اجتهادات الطليعة الثورية فى الوطن العربى .

واستناداً إلى هذه المصادر السوفييتية جاء أول تفسير مادى للتاريخ الإسلامى فوصفت هجرة الرسول إلى المدينة المنورة بأنها تمت نتيجة التجانس العقائدى مع جموع البرولتاريا من يهود يثرب .

والخلافة بعد وفاة الرسول الأعظم على أساس الصراع الطبقى . فقد تحالف أبو بكر « الرأسمالى » مع عمر بن الخطاب « الثورى الديمقراطى » فى « جبهة شعبية » اقتضتها ظروف « التكتيك المرحلى » وعندما آلت الخلافة إلى عمر وضع أول القرارات الاشتراكية التى تجلت فى « نظام الدواوين وبيت المال » ولكن الرأسمالية تآمرت عليه واغتالته وولت عثمان بن عفان « الرأسمالى » منصب الخلافة. غير أن « النضال الثورى » لم يتوقف بل واصل مسيرته تحت قيادة على بن أبي طالب ضد « الرجعية » التى أرادت أن « تحارب مكاسب الثورة » إلى أن كتب له النصر بمقتل عثمان ! !

غير أن هذه المخططات الهوجاء لم تفد كثيراً فى تقدم الدعوة الماركسية فى ديار الإسلام . . . إذ على الرغم من مظلة الحماية التى تلقاها الشيوعيون من بعض النظم « الثورية » العربية . . . وعلى الرغم من وسائل الدعاية الطاغية التى يمتلكونها اصطدمت الدعوة بجدار منيع من الإيمان الدينى

خاصة فى القطاعات الواسعة من الشعوب العربية . . . وكان لابد من إعادة النظر فى مخطط الدعوة الشيوعية فى بلاد العالم الإسلامى .

وبدت هذه الرغبة بشكل واضح فى مؤتمر باكو الثانى الذى عقد فى شهر سبتمبر من عام ١٩٦٧ بمناسبة العيد الخمسين للثورة البلشفية . إذ انبرى عدد من أقطاب الحركات الشيوعية فى دول العالم الإسلامى يطالبون بضرورة إدخال تعديل جذرى على مخططات الدعوة .

وأسسوا مطلبهم على أن التجارب التى خاضتها الدعوة الماركسية فى أقطار العالم الإسلامى تقتضى مهادنة الدين لا مهاجمته . . . وأن الهجوم المباشر على الدين لم يضعف من سلطانه على النفوس بل زاده دعماً ورسوخاً . وأن مصلحة الدعوة تقتضى إعادة النظر فى التراث الدينى لملاءمته على أصول الفكر الماركسى . . .

أما رجال الدين فلابد أن يظلوا هدفاً لهجوم الشيوعيين و « الطليعة التقدمية » شريطة أن يتغير المضمون . فبدلا من مهاجمتهم « بصفتهم رجال الدين » يجب أن ينصب الهجوم على « سلوكهم كرجال دين » ولكن شريطة أن يجرى هذا الهجوم باسم الغيرة على الدين والحفاظ على تعاليمه من عبث رجال الدين واستغلالهم له ! !

وأخيراً صدرت الأوامر من موسكو إلى الأحزاب الشيوعية فى أرجاء العالم بعدم التصدى مرحلياً للدين وما يمثله من قيم بصورة صريحة ومباشرة ، بل العمل على « تطويعه » وتحطيم مقاومته بأساليب مرنة ملتوية : كادعاء عدم التعارض بين الدين والماركسية كما ذهب البعض بالنسبة للإسلام

بقوله إن اهدافه لا تختلف بحال عن أهداف الاشتراكية العلمية وتوكيده بان الرسول كان ثوريًّا تقدمياً يناصر الطبقة المستغلة على الطبقة المستغلة. وينشد العدالة والمساواة بإلغاء كل تمايز بين الأفراد !

وفى إثر هذه التوجيهات الجديدة انطلقت أبواق الدعاية الماركسية فى كل أطراف الأرض تدعو لهذا الاتجاه . . . فقد امسكت هذه الأبواق عن التهجم المباشر على الدين والتهكم على قيمه وتعاليمه كما كان مسلك الشيوعيين التقليديين فى تمسكهم بشعار ماركس الخالد : « الدين أفيون الشعوب » واختطت أسلوب المواءمة والملاءمة بين الإسلام والشيوعية وبالتشديد على وحدة الغايات (إدراك المجتمع الأفضل) ووحدة الوسائل (الطريق الثورى) والإطناب فى تمجيد بعض الشخصيات الإسلامية كعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وأبى ذر الغفارى بإبرازها كرمز « للعمل الثورى الاشتراكى » قصد التغرير بجمهور المسلمين وتضليلهم .

وبرز هذا الاتجاه بشكل واضح فى القيادات الشيوعية المصرية التى راق لبعضها أنّ تستخدم قناع « الاشتراكية » و« الطليعة التقدمية » بدلاً من الشيوعية حتى لا تعيد إلى الأذهان ذلك الماضى القريب الذى كان الدين فيه « أفيون الشعوب » وحتى تنفى عن نفسها شبهة الإلحاد المنفر للجماهير

واجتهدت هذه القيادات فى إبراز الجانب « الاشتراكى » « الثورى فى الإسلام من خلال المسرحية والقصة والمقال، بل وفى الأركان المخصصة للكتابات الإسلامية فى الصحف اليومية !

وأصبح دارجاً فى الآونة الأخيرة أن يقحم الرواة والكتاب الشيوعيون فى سياق رواياتهم أو كتاباتهم وقائع مغرضة تستهدف التعمية والتضليل كقول أحدهم مثلاً عندما عاد من زيارة لموسكو إنه بينما كان فى طريقه للقاء الرفيق كذا . . . أدركته صلاة الجمعة . . . فعرج إلى أول مسجد صادفه وأدى فريضة الصلاة ! ! !

أو قول آخر : إن من بين الهدايا اللطيفة التى تلقاها من عضو فى اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى مصحفاً مذهباً مكتوباً بالخط الكوفى ! ! إلى آخر هذه « الجمل » الاعتراضية » التى تستهدف إبراز الشيوعيين فى ثوب جديد يتلاءم وضرورة مهادنة الأديان التى تقتضيها المرحلة القادمة .

وقد مكن هذا المخطط الجديد من توطيد أركان الدعوة الماركسية فى أوساط كانت بعيدة كل البعد عنها . . . ورأينا فلاحين وعمالاً ، وطلبة فى بعض المعاهد الدينية يمسكون المصحف والإنجيل بيد ومؤلفات ماركس ولينين باليد الأخرى . . . وسمعنا من صفوف المسلمين منادياً ينادى : الدين عقيدة . . . والدنيا مذهب . . . فلا حرج ولا لوم على من يؤمن بالله واليوم الآخر ويعتنق الشيوعية فى حياته الدنيا . . . فالدين لله والشيوعية للجميع ! ! !

وفى هذه الآونة الذهبية للمد الشيوعى فى ديار الإسلام يأتى استجواب الإمام الأكبر الذى نشر فى مجلة آخر ساعة . . . يأتى ليعلن –ولأول مرة منذ أكثر من عشرين عاماً– أن الماركسية والإسلام نقيضان لا يجتمعان . . .

وخصمان لا يلتقيان . . . وأن الشيوعية كفر صراح وأن اعتناقها يخلع عن المسلم صفة الإسلام .

فهى تقوم فى أساسها على مناهضة الدين واعتبار قيمه انعكاساً للواقع الاقتصادى فكيف تستقيم مبادئها مع قيم الدين ومبادئه ؟ ! !

ودوى استجواب الامام فى الساحة المصرية والعربية ليوقظ النائمين . . . وينبه البسطاء والمغرورين . . . وكان لابد أن يواجه بعنف وضراوة من قبل الشيوعيين . . . وأذنابهم . . . وكيف لا وقد أفسد الاستجواب كل المخططات التى عمل لها الدعاة الشيوعيون طوال السنوات العشر الماضية . . . وكان لابد لهم من عملية « ردع » « توقف الإمام عند حده » وتمنعه من التمادى فى كشف حقيقة الشيوعية فى صلتها بالدين .

وكانت ردود روز اليوسف العنيفة . . . وحملتها العنيفة التى جندت لها عدداً من الأقلام الصديقة والرفيقة ونسبت لبعضها صفة الانتماء إلى هيئة علماء الأزهر الشريف ! !

وسالت الأقلام الماركسية تهجم على علماء الأزهر بوقع جديد يتفق وأصول المخطط الذى أقرته الشيوعية الدولية وهو ادعاء الغيرة على الإسلام من أهواء رجال الدين . . . والحرص على حمايته من كل استغلال لتعاليمه ! !

ولم لا يعطون لأنفسهم هذا الحق والإسلام يحرم الكهانة ويرفض الوساطة بين الخالق والمخلوق . . . ويمنح لكل مسلم حق الاجتهاد فى تفسير النصوص القرآنية وفهم مراميها .

ويبدو أن المراكسة قد استظلوا بهذه الرخصة وتصوروا أنه مادام من حق كل مسلم الاجتهاد فى تفسير النصوص فإن فى مقدرة كل مسلم الاجتهاد فى تفسير النصوص .

وبين الحق والقدرة بون شاسع ... ولكن المراكسة استطاعوا أن يحققوه وأن يتصدوا للاجتهاد والتفسير ... فهم أصحاب حق فى الاجتهاد والتفسير بوصفهم « مسلمين » ... وهم أيضاً أهل قدرة على الاجتهاد والتفسير بوصفهم « علماء بخبايا الدين » ! ! !

ولكن الاجتهاد والتفسير كانا فى غير موضعهما إذ لم ينصرفا إلى القرآن والسنة بقدر ما انصرفا إلى كلمات الإمام الأكبر التى صرح بها لمجلة آخر ساعة ... فاستخلصوا من هذه الكلمات ما قاله الإمام وما لم يقله ... وحملوها من المعاني ما قصده الإمام وما لم يقصده ... وانساقوا يردون على الإمام بالعبارات المهيجة للمشاعر والشعارات المثيرة للفتن من أمثال : « الجنة ليست للأغنياء فقط » و « لا نريد حرباً صليبية » ... إلخ .

واستخدموا من أساليب السخرية بعلماء الدين والتشهير بهم ما يعاف القلم عن ذكره ، وذهبوا إلى الادعاء بأن الدين بخير فى الاتحاد السوفيتى .. وأن العبادة على قدم وساق فى الصين ... وساقوا من الأدلة على ذلك ما لا يكفى لاقناع غبى أو جاهل كادعاء أحدهم أنه صلى فى موسكو وتلقى مصحفاً ذهبياً من بكين ! !

وكان عليهم — ماداموا قد أدركوا هذا المستوى من صراحة القول — أن يبينوا لنا فى أى مذهب من المذاهب الإسلامية الأربعة يستباح تعليق صورة

الرفيق لينين فى محارب المساجد السوفييتية ؟

وفقاً لأى نص قرآنى تفتح المساجد وتغلق فى بعض الأقاليم السوفييتية تبعاً لساعات العمل الرسمية ؟ ؟

وطبقاً لأى سنة يحرم الدخول إلى المساجد فى أقاليم أخرى سوى ساعة الصلاة من يوم الجمعة ؟ ؟

رحم الله الزعيم علال الفاسى ، ففى إحدى زياراته للاتحاد السوفييتى طلب من السلطات السوفيتية زيارة قبر الإمام البخارى . . . وظل ينتظر رد السلطات إلى أن أوشكت زيارته على الانتهاء . . . وعندما ألح فى الطلب سمح له بالزيارة . . . وإذا به يكتشف أن مقبرة هذا الإمام العظيم حديثة الترميم والطلاء ، وهنا فهم – رحمه الله – السبب الذى دعا السلطات السوفييتية إلى المماطلة فى الزيارة .

والواقع الذى لا لبس فيه هو أن هذا الهجوم الضارى يدخل فى إطار المرحلة الأولى من مخطط الشيوعية الدولية الذى يرمى إلى تحييد الدين وتطويعه لمقتضيات الدعوة .

فالتصدى للاجتهاد والتفسير يعتبر عندهم « عملية نسف للدين من الداخل » بينما يعتبر النيل من رجال الدين « عملية عزل الدعوة من الخارج » وكلاهما ضرورى فى مرحلة أولى للقضاء على الدين وتحطيم مقوماته ! !

ولنعد مرة أخرى إلى الأذهان ما صرح به جهابذة الدعوة الماركسية وسدنتها فى العالم العربى أجمع : « سيدرك الناس حينما تختفى الأمية ويرتفع

مستوى التعليم أن بناء المجتمع الاشتراكى مستحيل فى مجتمع تسوده التعاليم الإسلامية أو يسوده التمييز الدينى »[1].

فهل بعد ذلك من مدعٍ بالتقابل بين الشيوعية والإسلام ؟

هل بعد ذلك من متبجح بالتلاحم والوفاق بين المادية الماركسية والشريعة الإسلامية ؟

إن الفارق بين الشيوعية والإسلام كالفارق بين الليل والنهار . . . والليل والنهار ضدان لا يجتمعان . . .

وإذا كان الشيوعيون قد استطاعوا الجمع بينهما زيفاً وبهتانًا بعض الوقت، فإنهم لن يستطيعوا الاستمرار فى هذا الزيف والبهتان طول الوقت .

---

(١) راجع فى هذا الشأن « التغييرات الاجتماعية والاقتصادية فى جمهورية مصر العربية وعلاقتها بالاشتراكية العلمية » جريشيشكين ، نشرة « الاقتصاد الإفريقى » موسكو ١٩٦٥ ، ص ٢٥ .

القسم الثالث

التجربة

التجربة

الرفاهية والتقدم . . . مهبط الأمل للملايين فى حياة أفضل يحتل فى فكر المراكسة أوفى نصيب . . . ويشغل فى أعمالهم أكبر مكان . . . فهم يعلمون أن قضية البطون — فى العالم المتخلف — أكبر من قضية العقول . . . وأن إدراك الخبز مقدم على إدراك الحرية . . . ومن خلال هذا الفهم يتحركون . . . يبشرون بالبديل الذى لا بديل عنه : الشيوعية ، ويقدمون الدليل الذى لا دليل سواه : التجربة السوفييتية ، حتى إذا نهضتَ لمجادلتهم . . . ناهضوك بغريب النظريات . . . وعارضوك بفج الشعارات . . فإذا ما استعصى عليهم غلبتك قذفوك بالتهم والأباطيل . . . ونعتوك بالمستغل والعميل . . .

هؤلاء هم مراكسة العالم المتخلف . . . أبطال الرفاهية . . . ورواد التقدم !

الأقوال والأعمال

منذ الأزل ارتبط وجود الإنسان بنزوعه إلى المعرفة . . . وتطلعه إلى الأفضل . . .

ومنذ الأزل ارتبطت المعرفة بحرية الفكر ولازمتها . . .

فتقدم المعرفة الإنسانية رهين بحرية فكرية تدفع إلى الاستقصاء وتعين على التحصيل . . . حرية فكرية تستحث العقل على مزيد من الجدل ومزيد من المقارعة دون جمود عند فكرة أو تقيد بقاعدة . . .

والتاريخ الإنساني لم يشهد انفصالاً بين المعرفة والحرية الفكرية إلا فى عصور الظلام والانحطاط عندما توقف المد الفكرى عند قيم سائدة أو مذاهب مفروضة يجتر أصولها ويردد مبادئها دون اجتهاد فكرى أو محاكمة عقلية .

غير أن عصور الظلام فى عمر البشرية لا تقاس فقط بفترات التخلف المادى . . . فقد يكون تقدم مادى . . . وحضارة مادية ومع ذلك يكون ظلام وانحطاط عندما يقوم حجر على الفكر واحتكار للحقيقة .

والفكر الإنساني ، قديمه وحديثه ، عانى من جماعات وفرق قامت تحتكر الفكر باسم الفكر والحقيقة باسم الحقيقة . . . تضع النظرية . . . أو تؤلف الفكرة ثم تضرب حولها أسواراً من المناعة ضد كل محاولة للتقييم أو المجادلة . . .

والفكر المعاصر يعرف هذا النوع من السلوك لفرق وجماعات تلقت مذاهب وضعية فرفعتها إلى مراتب الثبات والقدسية وأضفت عليها عصمة الخطأ وأخذت تردد مبادئها . . . وتلتزم بحرفية عباراتها . . . . وعندما أملت ظروف القرن العشرين أن تنزل هذه المذاهب إلى ساحة التطبيق استبانت الهوة التي تفصلها عن الواقع فعمد سدنتها إلى تعديل الواقع، على ضوء مبادئها لا تعديل مبادئها على ضوء الواقع ! !

هكذا كان موقف الماركسيين « المؤمنين الحقيقين » بالاشتراكية « العلمية » عندما شاءت ظروف مغايرة لمقتضى النظرية أن تقوم ثورة ما فى بلد ما ، وهى روسيا القيصرية ، فيجدون أنفسهم فى مواجهة ضروريات التطبيق العملى لما رددته أفواههم من وعود لأمة قهرها التخلف وسحقتها الهزيمة العسكرية .

ويكون التطبيق على غير هوى المذهب فتقوم الثنائية المفرطة بين القيادة والقاعدة وعلى كل المستويات ، وينهض الشقاق قوياً بين « المؤمنين الحقيقيين » و « المراجعين المرحليين » فى داخل روسيا وخارجها .

وفى هذه الظروف المعتمة يخرج علينا من سدنة الفكر الماركسى من يؤمن بالماركسية ويكفر بتطبيقها من أمثال ميلوفين جيلاس وروجيه جارودى ، ولكن غيره لا يعترف له بهذا الإيمان . . . بل يصمه بالردة والخروج عن التعاليم الماركسية الأصيلة .

فالإيمان الحقيقى عند هؤلاء – وهم كثرة – التزام مطلق بكل الأصول التى أعلنها المذهب وتمسك مطلق بحرفيتها .

ويبدو أن روجى جارودى كان أميناً مع نفسه ومع رفاقه عندما تحرر من اسار المذهب ونفض عن عقله تلك الغلالة السوداء التى حالت بينه وبين جلال الحقيقة . . . فانطلق فى إثرها غير عابئ بعقاب الحزب الشيوعى الفرنسى ولا بنقمة الدول الشيوعية .

والواقع أن مثالب الماركسية قد تكشفت من خلال محاولات التطبيق السوفيتى لها وخاصة إبان فترة الحكم الستالينى .

وتؤكد التجربة أن ستالين قد نجح بعد تضحيات جسام فى دفع الاقتصادالسوفيتى دفعات جديدة إلى الأمام ، كما نجح بعد التخلص من خصومه فى دعم سلطانه المطلق ، فاتجه بالدولة السوفييتية اتجاهًا جديداً يخالف التعاليم الماركسية المتعلقة باختفاء الدولة ، إذ تبدلت النظرة للدولة القائمة وخاصة تحت تاثير الحرب العالمية الثانية ، حيث طغى الشعور القومى . . . وبدت الدولة لا كأداة انتقالية فى أيدى « دكتاتورية البرولتاريا » بل كدولة قومية يغذيها الشعور القومى .

وهكذا قام التناقض واستفحل بين العقيدة الرسمية والواقع السوفيتى ، وامتد هذا التناقض ليشمل العديد من جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية .

فالعقيدة تؤكد بأن « دكتاتورية البرولتاريا » مرحلة انتقالية ، ولكن الواقع يؤكد من ناحية أخرى تركيز الأنشطة الاقتصادية والثقافية إلى جانب الأنشطة السياسية فى يد الدولة وتوطيد سلطانها فى هذه الميادين لدرجة يصعب معها مجرد التفكير فى إمكانية زوالها .

وتبشر العقيدة باختفاء الطبقية ، ولكن الواقع يفصح عن وجود الطبقية فى أعنف صورها متمثلة فى التصنيفات المهنية القائمة وهرم المقدرة السياسية والاقتصادية . وقد نتج عن هذا الواقع الطبقى الجديد العدول عن مبدأ « لكل بحسب حاجته » إلى مبدأ « لكل بحسب عمله » .

وتعلن العقيدة أن الحكم للشعب ، غير أن الواقع يؤكد أن الحكم للحزب الواحد الذى لا يمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من مجموع شعوب الاتحاد السوفييتى ، وعلى الرغم من أن الدستور يؤكد أن الحكم للشعب العامل وأن القوانين تنظم عملية الانتخاب من أدنى المستويات إلى أعلاها، إلا أن هذه النصوص لا تستطيع أن تحجب حقيقة هامة وهى أن الاقتراع الذى يجرى يوم الانتخاب هو فى واقعه اقتراع موجه يسيطر عليه الحزب سيطرة كاملة .

وترفع العقيدة شعار حرية الثقافة وحرية وسائل الإعلام ،ولكن العمل يجرى بما يناقض ذلك . إذ تأخذ السلطة بجميع الوسائل التى تأخذ بها الدكتاتورية الحديثة لاحتكار وسائل الإعلام ومراقبة وسائل التعبير عن الرأى ، ولا تقف فى سبيل إدراك هذا الهدف عند حد ، بل تستخدم كل الوسائل الممكنة من التجسس إلى الاعتقال والنفى .

ذلك أن للحرية الثقافية شروطها التى يصعب توفيرها فى ظل النظم الاشتراكية . وأخصها الحرية الحزبية ، فإذا ما اختفت هذه الحرية وفرضت الدولة حزباً واحداً افتقدت الحرية الثقافية لأن الحزب الواحد لابد أن يحتكر وضع البرنامج السياسى وفقاً لما تمليه القيادة السياسية العليا ،

وهذا البرنامج لابد وأن ينطوى على توجيه ثقافى معين يتفق مع الخط السياسى الذى تفرضه هذه القيادة .

ويصف روجيه جارودى الماركسى المتمرد واقع الممارسة الحزبية فى الاتحاد السوفييتى بقوله :

(نظراً لأن كل شيء يقرر « من الأعلى » ، من قبل الفريق القائد ، فإن مختلف الحاقات الحزب لا يكون لها ، من دور آخر ، سوى التنفيذ ، وفى أفضل الحالات ، تفسير التوجيهات الصادرة من الـ « مركزية »).

ثم يستطرد بعد تساؤل :

(كيف تستطيع الـ « قاعدة » من جانب آخر ، أن تناقش ، بصورة صحيحة ، فى التوجيه ، فى حين أنها لا تملك أى إعلام سياسى ؟ ولا نذكر إلا هذا المثل القريب : فى ٢١ أغسطس عام ١٩٦٨ ، لم يكن أى مواطن سوفييتى « باستثناء أعضاء المكتب السياسى وبعض كبار المواطنين » يعرف رد الحزب التشيكى على اتهامات أعضاء حلف وارسو . ذلك أن الصحافة السوفييتية والراديو والتلفزيون ، مع ما يجد الإنسان نفسه مضطراً إلى تسميته بالحذر من الجماهير « إن لم نقل ازدراء لها » ، لا تقطر فى وعى هذه الجماهير ، بعد انقضاء خمسين سنة على الثورة ، إلا الأفكار أو الوقائع الملائمة لتبرير خط الحزب)

ويؤكد جارودى أن هذا السلوك الحذر من جانب الحزب الشيوعى السوفييتى يمتد إلى الأحزاب « الشقيقة » وإلى قادتها، ويضرب لذلك مثالاً فيقول :

(فى ٢١ أغسطس كان التبليغ الموجه إلى قادة جميع الأحزاب « الشقيقة » لإعلامهم بالتدخل ، يبدأ بهذه الكذبة الرسمية : « تلبية لنداء اكثرية اللجنة المركزية ، ومجلسها الأعلى . . . » . وهذه الكذبة نفسها هى الإعلام الوحيد الذى كان يحصل عليه أعضاء الحزب الشيوعى فى اتحاد الجمهوريات السوفييتية الاشتراكية وقراء البرافدا .)(١) .

إن إحدى النتائج الهامة للثورة التكنولوجية الجديدة التى اجتاحت العالم الصناعى هى الإقلال من مركزية التقرير . . . ومضاعفة السرعة فى إصدار القرارات وتنمية المبادرات الفردية . . . وكان من المأمول أن تحقق الاشتراكية فى التطبيق هذه الشروط

غير أن النظام المركزى الدكتاتورى الذى ربما كان فعالاً فى المراحل الأولى لبناء « الاشتراكية » السوفيتية قد تحول فى مرحلة جديدة من نمو القوى الإنتاجية وقيام الثورة التكنولوجية إلى نظام عقيم يشل حركة المجتمع كله ويعطل من تقدمه نحو النمو والارتقاء .

وأصبحت القيادات السوفييتية الوارثة لعهد ستالين تشكل عقبة كأداء فى وجه التغيرات التى تفرضها الثورة التكنولوجية الجديدة ليس فى الاتحاد السوفييتى فحسب ، ولكن أيضًا فى وجه الدول الأخرى التى تدور فى فلكه والتى تبحث عن نماذج إنمائية تتلاءم مع هذه الظروف الجديدة .

وعلى الرغم من شعار الرفاهية والتقدم الذى تعلنه العقيدة فقد خلف العهد الستالينى تركة مثقلة بالأخطاء الاقتصادية ، ويكفى لبيان فداحتها

---

(١) روجيه جارودى : « البديل » .

ما اعترفت به القيادة الجديدة من أن الاتحاد السوفييتي عند موت ستالين عام ١٩٥٣ لم يكن قد أدرك بعد مستوى الإنتاج الزراعي الذي كان قائماً عام ١٩٢٩ ولا حتى مستوى الإنتاج الزراعي الذي كان قائماً عام ١٩١٣ !

وعندما أعلن خروشوف بعد ستالين شعار اللحاق بالولايات المتحدة كان النظام السوفييتي يعاني من ذات الأمراض التي خلفها العهد السابق دون أن تعمل القيادة الجديدة على تخليصه من هذه الأمراض . ويكفي لتقدير مدى التباعد بين تفكير القيادة وبين الواقع ما أعلنه خروشوف من أن الاتحاد السوفييتي عليه وفقاً للخطة التي أعلنها عام ١٩٦١ « والتي عدلت عنها القيادة منذ ذلك الحين » أن يتجاوز الولايات المتحدة في جميع القطاعات الأساسية عام ١٩٧٠ وأن يفوقها في كافة الميادين عام ١٩٨٠، ذلك أنه في الوقت الذي أعلنت فيه القيادة الخروشوفية عن هذه الأهداف كانت تنتهج من الأساليب التي تتناقض معها ، فقد عطلت هذه القيادة من « ثورة الآلات الحاسبة » لأسباب عقائدية في جانب كبير منها . . . مع أن هذه الثورة كانت ضرورية وحاسمة لكسب سباق التقدم مع الولايات المتحدة . والنتيجة أن الاتحاد السوفييتي يملك اليوم حوالي أربعة آلاف آلة حاسبة مقابل أكثر من اثنين وأربعين ألفاً من الآلات الحاسبة في الولايات المتحدة ! !

وهذه الثنائية بين القول والعمل . . . بين النصوص والتطبيق لا تبرز فقط على صعيد السياسة الداخلية السوفييتية ولكن تمتد أيضاً إلى سياسته الخارجية . . . خاصة تجاه الدول « الاشتراكية » التي تدور في فلكه .

وإذ تعلن النصوص وتؤكد التصريحات بأن الأحزاب الشيوعية على سوية واحدة . . . وأنه لا يوجد حزب قائد وحزب مقود . . . وأن كل حزب مستقل فى قراراته . . . متحرر فى اختياره للطريقة التى يبنى بها الاشتراكية . . . يفصح الواقع عن سلوك آخر :

مقاطعة يوغوسلافيا عام ١٩٤٨ . . . الغزو العسكرى السوفييتى للمجر عام ١٩٥٦ ، وقف كل مساعدة للصين عام ١٩٦٠ وأخيراً اجتياح تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ ! ! !

هذه المفارقات الخطيرة بين القول والعمل التى أبرزتها محاولات التطبيق للمذهب الماركسى ليست بجديدة على أهل الخبرة، وإن كان عدد من كبار المراكسة قد أبرزوها من زاويتهم الخاصة ومن خلال تفهمهم العميق لأصول المذهب وإدراكهم لأساليب تطبيقه .

ولكن المؤكد أن ما خرج به بعضهم من نتائج وما اقترحوه من علاج يبتعد كثيراً عن أصول المذهب الماركسى ، على الرغم من إصرارهم على التشبث به ، فما اقترحه روجيه جارودى مثلا كبديل عن التطبيق السوفييتى للماركسية يقوم على أصول جديدة ترفض الرأسمالية، ولكن يصعب نسبتها إلى الماركسية .

وما ينطبق على جارودى ينطبق على كثيرين من المراكسة « الأحرار » الذين أفجعهم التطبيق وذهب بأحلامهم فعاشوا أزمة ضمير . . . لم ينقذهم

من أتونها سوى الخروج من الصمت . . .

وإذا كان الخروج من الصمت قد أدان التطبيق فانه لم يبرئ النظرية ، بل أبرز أخطر مثالبها عندما كشف عن التجريد واللاواقعية اللذين يطبعان مفاهيمها الأساسية .

النبوءة والواقع

من الطبيعي أن تؤدى الأخطاء الخطيرة التى تردى فيها التحليل الماركسى والتى أشرنا إليها إلى نتائج خاطئة ، وكارل ماركس لم يقتصر فقط على الاستنتاج من نظريته بل خلع على هذه الاستنتاجات أيضاً صفةالنبوءات التى لا يتطرق الشك إلى سلامتها ولا يثور الجدل فى إمكانية تحققها .

ونبوءة ماركس الكبرى تدور حول مآل الرأسمالية حيث تتجه فى خط تاريخى معين إلى منحدر معلوم ينتهى باندثار أنظمتها وقيام المجتمع الشيوعى . نبوءةماركس إذن ذات شقين : الأول يتعلق بحتمية سقوط النظام الرأسمالى والثانى يتصل بحتمية قيام المجتمع الشيوعى .

لقد بنى ماركس نبوءته فى سقوط الرأسمالية على مجموعة من النبوءات الجزئية استخلصها من تحليله النظرى ، وتتلخص أساساً فيما يلى :

اتجاه الملكية الزراعية والصناعية إلى التركيز بسبب تراكم رأس المال الثابت واتجاه معدل الربح إلى الانخفاض مع ثبات الأجر الحقيقى الذى يحصل عليه العامل . وهذا ما يؤدى إلى استفحال الهوة التى تفصل بين الرأسماليين المتضائلين والعمال المتزايدين حيث يزداد الأولون ثراء وثروة ويزداد الآخرون بؤساً وشقاء . وتشتد أزمة النظام الرأسمالى التى تتمثل فى فائض الإنتاج كلما تقدم هذا النظام وارتقى . وعندما يصل إلى قمته يأتى دور البرولتاريا فى انتزاع السلطة من البرجوازية المالكة والتمهيد للمجتمع الشيوعى.

هذه النبوءات الصغرى وما بنى عليها من نبوءة كبرى ليست بحاجة اليوم إلى تفنيد أو محاكمة علمية ، بل يكفى لدحضها أن نورد فى شأنها كلمة التاريخ الذى أراد ماركس أن يحمله من المعانى والحتميات أكثر مما يحتمل :

(أ) فالزراعة لم تتعرض للملكية المركزة كما ذهبت تنبؤات كارل ماركس ، ولكننا نشاهد اليوم – وخاصة فى دول الغرب الرأسمالى – اتجاهاً عارماً إلى تفتيت الملكية الزراعية . ومن ناحية أخرى نلاحظ أن تركيز الملكية الصناعية لم يتحقق بالصورة التى قال بها ماركس . بل على النقيض من ذلك نرى اتساع الملكية الصناعية وشمولها لأعداد متزايدة من الأفراد مع قيام الشركات المساهمة وغيرها من اشكال التنظيم الخاص والمختلط .

(ب) ومن ناحية أخرى فقد أثبت التطور التاريخى بما لا يدع مجالاً للشك اتجاه معدل الربح إلى الارتفاع لا إلى الانخفاض ، وذلك نتيجة لارتفاع مستوى الإنتاجية بسبب التقدم التكنولوجى المتواصل ، ومعنى ذلك سقوط التحليل الماركسى للربح ، وما بنى عليه من نتائج ، وأخصها أزمة الرأسمالية .

. . . وترتبط هذه الحقيقة بحقيقة أخرى سجلها التاريخ ، وهى اتجاه الأجور الحقيقية إلى الارتفاع بصورة دائمة فى جميع الدول الرأسمالية مما استتبع تحسناً مطرداً فى مستوى معيشة الطبقة العاملة . وهذه الحقيقة التاريخية مناقضة لما أكده ماركس من ثبات الأجور الحقيقية وانحدار العمال إلى مدارك البؤس والشقاء .

(جـ) وقد دلل التاريخ أيضاً على تزايد رجال الأعمال المشتغلين فى الحقل الصناعى بحيث فاق عددهم بكثير عدد كبار الرأسماليين ، وغنى عن البيان أن وظيفة المنظم أو مدير العمل قد انفصلت عن وظيفة الرأسمالى مع تقدم أساليب الإنتاج وتعقدها .

وهذه حقيقة لم ترد فى تنبؤات ماركس ولم يحسب لها فى تحليله أى حساب .

وحقيقة تاريخية أخرى تناهض أيضا ما ذهب إليه كارل ماركس فى نظريته ، عندما أكد اتجاه الرأسماليين إلى التناقص مع اتجاه ملكية وسائل الإنتاج إلى التركيز .

فكيف يمكن أن تستقيم هذه النبوءة مع ما نعرفه اليوم من تزايد الشركات المساهمة التى تستقطب ملايين المساهمين فى رأس المال ؟

وهل يعتبر كل مالك لعدد من الأسهم مهما ضؤل رأسمالياً ؟ أم أن الرأسمالى عند ماركس هو كل من ملك نسبة معينة من رأس المال ، تسمح له باستغلال الآخرين ، وما هى هذه النسبة ؟ !

وأياً كان الجواب . . . فإن عدد الرأسماليين فى تزايد وليس فى تناقص . . وإن اتجه هؤلاء الرأسماليون إلى التجمع فى مؤسسات تمويل كبيرة (بنوك) فرضتها ظروف التقدم التكنولوجى المعاصر .

ومن ناحية أخرى يلاحظ أن البرولتاريا الصناعية بمعناها الدقيق الذى قصده ماركس أبعد ما تكون عن أن تشمل المجتمع برمته . بل إنها ليست بالأغلبية فى جميع الدول وحتى فى أشدها إغراقاً فى التقدم الصناعى . ذلك

أن ماركس عمد إلى تقسيم المجتمع إلى طبقتين لا ثالث لهما : العمال وأرباب الأعمال . . . وأغفل فى تقسيمه الطبقة الوسطى.بينما يثبت الواقع الاجتماعى فى العديد من الدول وعلى رأسها الدول الصناعية الرأسمالية أن عدد أفراد هذه الطبقة فى ازدياد مطرد مع نمو الإنتاج وتقدمه .

كما ثبت أيضاً أن الصراع المقول به بين العمال وأرباب الأعمال الرأسماليين لم يكن حتمياً ولا واحداً،فهذا الصراع ليس مقصوراً على هاتين الطبقتين فقط ، فقد يقع كثير من المنازعات والصراعات بين أفراد الطبقة الواحدة كالصراع بين الملاك والزراعيين ورجال الصناعة ، أو العمال الزراعيين وعمال الصناعة ، أو بين الطبقة الوسطى وغيرها من الطبقات .

(د) أما أزمة النظام الرأسمالى،تلك الأزمة المستمرة المستفحلة التى أجهد ماركس فكره وقلمه فى تبيان عناصرها،فلم تتحقق فى العمل حتى اليوم ولا يبدو إمكان تحققها فى المستقبل . ولعل ذلك مردود ليس فقط إلى خطأ الفروض التى بنى عليها التحليل الماركسى من هذه الزاوية . ولكن أيضاً إلى ادعاء ماركس حياد كل العوامل الأخرى التى يمكن لها أن تتدخل وتمنع من تحقق النتائج التى استخلصها ، وقد بينا كيف أن ماركس قد أخرج من حسابه إمكانية تطور الواقع الاقتصادى والاجتماعى فى اتجاهات أخرى غير تلك التى حددها،وإمكانية تطور دور الدولة ودرجة تدخلها فى النشاط الاقتصادى . . إلى آخر ذلك من الاعتبارات الأساسية التى أهملها فى تحليله .

لقد وقعت أزمات متعددة وتواترت حالات بطالة كثيرة ، ولكن ليس

من دليل واحد على أنها كانت أشد أو أطول أمداً مما كانت عليه حين صاغ ماركس نظرياته ، بل وعلى النقيض نجد ظاهرة الأزمات الدورية تخف حدتها وتتضاءل مدتها حتى لا يكاد العالم يعرف أزمة من الاتساع والشمول كتلك التى عرفها عام ١٩٢٩ / ١٩٣٠ .

والسبب فى ذلك مردود إلى العديد من التطورات الهيكلية التى أصابت الاقتصاد الرأسمالى بالإضافة إلى التقدم الكبير الذى أحرزته العلوم الاقتصادية والمالية ، إذ أمكن فى الكثير من الحالات الوقوف على أسباب الأزمات وبالتالى النجاح فى تلافيها أو التخفيف من حدتها .

(هـ) بقى أن نؤكد بأن وقوع « الثورة البلشفية » فى الاتحاد السوفيتى عام ١٩١٧ جاء مكذباً لنبوءة كارل ماركس لا مؤيداً لها . . .

فمن ناحية لم تبلغ الرأسمالية فى هذه الدولة الدرجة العليا من التقدم التى استلزمها ماركس وأصر على وجوب توافرها كشرط أساسى لوقوع ثورة البرولتاريا وانتزاعها السلطة من يد الرأسماليين ، فقد كانت روسيا القيصرية دولة زراعية تقف على أولى درجات السلم الصناعى ، وكان التخلف والبؤس يضربان فى طول البلاد وعرضها ، وكان لتخبط النظم القيصرية واستبدادها ما ساعد على التمكين من هذا الوضع واستفحاله .

. . وكل هذه الظروف والعوامل الموضوعية تغاير تماماً الخطوط التى حددها كارل ماركس للتحول إلى المجتمع الشيوعى .

ومن ناحية أخرى لم تكن البرولتاريا الروسية ذات شأن بالقياس إلى الفئات الاجتماعية الأخرى ، بل ولم تلعب نسبتها المزيلة دوراً يذكر فى

تحريك « الثورة البلشفية » وقيادتها ، ولم تكن هذه « الثورة » فى محتواها الفنى سوى انقلاب تآمرى دبره وأعد له صفوة من المثقفين الروس انحدرت فى غالبيتها من (سلالة) بورجوازية !

ويقطع فى هذا أن دور البرولتاريا فى « الثورة البلشفية » جاء تابعاً لدور هذه الصفوة التى لم تكن تملك من رصيد شعبى سوى النزر اليسير ، فلم تكن التعاليم الماركسية بمدلولاتها الدقيقة قد انتشرت بعد بين الفئات الشعبية العمالية منها وغير العمالية ؟ بل كانت هذه التعاليم وحتى ذلك الحين وقفاً على الصفوة الممتازة من المثقفين وأهل الفكر. وكل ما فى الأمر أن صفوة مثقفة من الحانقين على مباذل القيصرية قد التقت آمالها فى (الثورة) مع التعاليم الماركسية فجعلت من هذه التعاليم غطاء مذهبياً فعالا لحركتها . . تنفذ به إلى صفوف الجماهير وتجد لها من بينهم أنصاراً .

وقد أقر لينين نفسه بهذه الحقيقة عندما أكد فى وضوح وجلاء أن انتصار (الثورة) لا يستلزم اكتساب أكبر قدر ممكن من القواعد الشعبية بقدر ما يستلزم درجة عالية من التنظيم بين صفوف القائمين عليها .

بقيت ملاحظة أخيرة نوردها فى شأن « الثورة » البلشفية لأهميتها :

. . ذلك أن النظام الذى جاءت به هذه « الثورة » باستثناء فترة الفوضى والتخريب التى حاول خلالها لينين تطبيق الشيوعية وباء بالفشل (١٩١٧ – ١٩٢٢) يكاد يكون مقطوع الصلة بالتعاليم الماركسية ، وذلك على الرغم من أوجه التمسح الظاهر بهذه التعاليم ، وعلى الرغم من إجهاد الفكر

والقلم فى صياغة المبررات لكل واقعة أو تصرف يأتى من جانب المسئولين منافيًا ونافيًا لها . فالتعاليم الماركسية ليست فى الواقع سوى غطاء مذهبى للنظام السوفييتى القائم ، لكنها لا يجوز أن تحجب بحال حقائق الحياة الاقتصادية والاجتماعية التى تدور خلف ستاره .

ذلك أن الربح قائم فى النظام السوفييتى المعاصر ، وتفاوت الأجور وتدرجها قائم أيضًا والدولة قائمة بصورة لم يعرف لها التاريخ مثيلا من حيث تركيز السلطات والقبض على مقدرات الاقتصاد جميعها . والطبقية قائمة فى أعنف صورها حيث الامتياز والحظوة والسلطان لأعضاء الحزب الشيوعى — أبناء الطبقة الجديدة — دون غيرهم .

أما التخطيط وأسلوب التخطيط وكل ما يتعلق بالتخطيط فى الاتحاد السوفيتى أو غيره من البلاد التى أخذت به ، فيجدر التوكيد هنا بأنه ليس اختراعاً ماركسيًا ، فكارل ماركس لم يواجه التخطيط بمعناه الفنىّ ولم يقل به فى أى من مؤلفاته إنما هو تطبيق لينينى لأسلوب ضارب فى القدم عرفه كل مجتمع استولى على مقدراته فرد (أو زمرة) وأراد له توجيهًا إلى حيث يريد . وملكية الدولة السوفييتية لجميع وسائل الإنتاج وانتهاجها سياسة التخطيط الشامل لا يخرج بحال من الأحوال فى جوهره عن نظام رأسمالية الدولة الذى عرفته دول عديدة من بينها مصر إبان حكم محمد على . كل ما فى الأمر هو اختلاف الغايات المقول بها بين محمد على ولينين ، حيث أراد الأول بالأساليب العنيفة التى استخدمها تحقيق ما أسماه « استقلال مصر ومجدها وقوتها » بينما أراد الثانى بأساليب أشد عنفًا تحقيق ما أسماه بالمجتمع الشيوعى العالمى

حيث لا طبقات ولا دولة .

ويحق لنا بعد كل ذلك أن نتساءل : وماذا بقى إذن من تعاليم كارل ماركس فى التطبيق ؟ ؟ ربما بقيت نبوءته الكبرى فى التحول إلى المجتمع الشيوعى . غير أن أساليب اليوم فى روسيا السوفييتية لا تنبئ بحال من الأحوال ، عن اقتراب الغد المأمول ، ولا توحى بحال من الأحوال بإمكانية قيامه ، بل تضع الملاحظ والخبير فى الاتجاه المعاكس تماماً لما أكده نبى التاريخ .

تجربة للمبصرين

هذه تجربة للمبصرين . . . .

لمن تفتحت عقولهم قبل بطونهم . . واستيقظت ضمائرهم قبل غرائزهم فلم يتوقفوا عند حلو الشعار . . بل انطلقوا فى إثر الحقيقة لا يرهبهم فى إدراكها تهديد ولا وعيد .

وهى تجربة فريدة . . فى عمرها . . وفى عنفها . . . وفى نتائجها . . .

إنها التجربة السوفييتية . التى قيل فى إعلاناتها الكثير وقيل فى نقدها الكثير . . . . .

ولعل سبب الخلاف يعود إلى أن التصدى لتقييم هذه التجربة كثيراً ما يغفل عدداً من العوامل الهامة التى يلزم أخذها فى الاعتبار إذا ما أردنا استخلاص أحكام قيمية تفيد وجه الحقيقة . ذلك أن التغاضى عن الأخذ بهذه العوامل هو المسئول الأول عن اختلال الموازين . . وتخبط الأحكام حول جدوى هذه التجربة ومدى ملاءمتها لتطلعات الإنسانية فى التقدم والرفاهية .

ويمكن إيجاز هذه العوامل فيما يلى :

١ – إن كل تقييم سديد للتجربة السوفيتية – أو غيرها من التجارب لا يجوز أن يعتمد سوى معيار الرفاهية الإنسانية ، أى مدى ما تحققه التجربة للفرد من تقدم وازدهار فى كافة الميادين المادية والمعنوية . ومن هنا

تخرج عن بحثنا المعايير الأخرى التى يستلهمها أصحاب الدعوة الماركسية حكماً فى صالح هذه التجارب ، ونعنى بها معيار القدرة على الصمود فى وجه الاستعمار ومعيار القوة التدميرية العسكرية ، تلك المعايير التى طالما أفسدت تقييم النماذج الاقتصادية إذ أخرجتها عن أغراضها وجعلت كل تقدير لها خاضعاً فى الكثير من الحالات للاعتبارات السياسية والأهواء المذهبية .

فالقدرة على الصمود فى وجه الاستعمار ومقاومته التى يقول بها البعض لا تشكل معياراً صالحاً للحكم على النظام الذى نحن بصدده ، ذلك أن الصمود فى وجه الاستعمار ومقاومته لم يكن فى يوم من الأيام حكراً على هذه النظم . فقد عرف التاريخ البعيد والقريب نماذج رائعة على هذا الصمود لعل أبرزها الثورة المهدية ضد الاستعمار الإنجليزى فى السودان والثورة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى فى الجزائر .

أما إذا سلمنا بمعيار القوة التدميرية العسكرية لأمكننا أن نصفق مثلاً لما أحرزته الولايات المتحدة من تقدم فى هذا الميدان إذ يأتى النظام الأمريكى فى الصدارة من حيث إنتاج أجهزة الدمار كماً وكيفاً ، ولا أدل على ذلك من القوة الذرية الضاربة التى تملكها وهذا لا يمكن قبوله .

٢ - لا يجوز النظر إلى النتائج الإيجابية التى توصل إليها الاقتصاد السوفييتى دون النظر إلى الثمن المادى والإنسانى الذى دفع مقابلاً لها . فمقارنة النتائج المتحصلة بالتضحيات المبذولة عنصر هام من عناصر

التقييم، وذلك تأسيساً على أن اعتبارات النجاح تقاس أيضاً بما حققه النظام للمجتمع من تقدم وبأقل تضحيات ممكنة. أما الكلام عن النتائج وحدها وبغير مقارنتها بالتضحيات المبذولة. فكلام في المطلق لا يخدم بحال التقييم الموضوعي للتجربة .

وهل يمكن لإنسان أن يقيم تجربة اقتصادية سياسية اجتماعية بالنظر فقط إلى ما حققته من « مكاسب » ؟

الواقع أنه لا يمكن الاعتراف لتجربة ما بأية مكاسب إلا إذا فاقت جوانبها الإيجابية جوانبها السلبية أو بمعنى آخر : إذا تجاوزت منجزاتها التكلفة المادية والإنسانية التي تكبدها الشعب في سبيل تحقيقها .

ومن هنا يلاحظ أن النتائج التي تحققها تجربة إنسانية قد لا تبرر في بعض الحالات فداحة التضحيات المبذولة خاصة إذا ما اتسمت هذه النتائج بالتواضع أو القصور .

٣ — إن موضوعية التقييم تفرض علينا اعتبار العناصر الأساسية التالية :

(أ) إن الاتحاد السوفييتي لم يبدأ سياسة التصنيع انطلاقاً من نقطة الصفر كما تذهب الدعاية السوفييتية ، فقد تمكنت روسيا القيصرية حتى عام ١٩١٤ من إرساء دعائم الجانب الأكبر من البناءات الأساسية L'infrastructeur ووضع أسس الصناعات الكبرى كما تؤكد الدراسات الإحصائية التي أجريت في ذلك الحين . ويقول Gerschenkron بحق إن معدل الزيادة في الإنتاج الصناعي السوفييتي فيما بين عام ١٨٩٠ وعام

١٩١٤ كان أعلى من المعدلات الأخرى التى سجلتها دول أوربا الصناعية فى تلك الفترة !

وليس معنى ذلك أن روسيا القيصرية كانت دولة متقدمة على دول أوربا الغربية خلال تلك الفترة . . فقد كانت دولة متخلفة بالقياس لإمكاناتها الاقتصادية (مساحتها ، عدد سكانها، مواردها المادية . . إلخ) وظروفها الخاصة (موقعها من أوربا ، قدرتها على استيعاب التكنولوجيا الغربية . . إلخ) وحجمها السياسى المؤثر فى العالم ونفوذها السياسى وقوتها العسكرية إلخ) . . .

ولكن معنى ذلك أن إنتاجها الصناعى الإجمالى وإن كان غير كاف بالنسبة لها إلا أنه أكبر حجماً من الإنتاج الصناعى لدول أوربا الغربية مجتمعة .

والهدف من بيان هذه الحقيقة هو دحض الادعاء القائل بأن روسيا عند قيام الثورة البلشفية (١٩١٧) كانت صحراء جرداء لازرع فيها ولا نماء !

فروسيا القيصرية عرفت عمليات التصنيع قبيل قيام الثورة البلشفية بوقت طويل . إلا أن هذا التصنيع لم يكن كافياً لتغطية الحاجات الداخلية والنهوض بأعباء التنمية . .

وروسيا القيصرية عرفت أيضاً الزراعة منذ فجر التاريخ وتعتبر أراضيها من أخصب الأراضى الزراعية فى العالم ، إلا أن الإنتاجية الزراعية لهذه الأراضى كانت متخلفة عن مثيلاتها فى أوربا . .

(ب) إن الاتحاد السوفييتى واسع المساحة وغنى بموارد التربة وما تحت التربة «وخاصة مصادر الطاقة من بترول وفحم» كما أنه يمتاز بضخامة حجم سكانه وعظم مواهبه الإنسانية، لذلك يعتبر من هذه الزوايا بلداً غنياً يصعب مقارنته بالكثير من البلاد المتخلفة التى نعرفها اليوم.

يضاف إلى ما تقدم عنصر هام وحاسم، مؤداه أن الثورة التكنولوجية التى انتشرت فى أوربا قبل الثورة البلشفية قد أصابت جانباً من الاتحاد السوفييتى وإن ظلت ضعيفة الانتشار والتأثير، كما لا يخفى أيضاً أن جزءاً هاماً من الاتحاد السوفييتى يقع فى القارة الأوربية وأن سكانه يتمتعون بثقافة أوربية، وهم بالتالى مهيأون ذهنياً ونفسياً وثقافياً لتقبل الكثير من عناصر التقدم التكنولوجى الذى أفرزته الحضارة الغربية فالاتحاد السوفييتى من هذه الزاوية يختلف تماماً عن الفيتنام أو اليمن مثلا.. وفوق ما تقدم فقد انطوت تحت لواء الاتحاد السوفييتى بعد الحرب العالمية الثانية دول أخرى عديدة وخاصة دول أوربا الشرقية. وترتب على ذلك قيام تكامل اقتصادى واسع بين الاتحاد السوفييتى وهذه الدول. ولا يخفى أن من بينها من كان وصل قبيل الحرب العالمية الثانية إلى مراتب من التقدم الصناعى تفوق بكثير الاتحاد السوفييتى ذاته.

وتمثل تشيكوسلوفاكيا أهم هذه الحالات، وجدير بالذكر أن الاتحاد السوفييتى كان يعتمد اعتماداً أساسياً وحتى عهد قريب على الكثير من الصناعات التشيكية الدقيقة، بل ومازال يعتمد عليها إلى اليوم فى مجال صناعة الإلكترونات.

(حـ) إن الاتحاد السوفييتى – وهذا أمر هام جداً – قد استفاد من حصيلة الاكتشافات والاختراعات العلمية التى سبقت قيام الثورة البلشفية . فقد وضع كل هذه التجارب والخبرات فى خدمة نموه الاقتصادى . إذ استغل خلاصة تجارب عصرين كاملين – عصر البخار وعصر الكهرباء – فى إنماء جهازه الصناعى واللحاق بعصر الذرة ، ومن هنا تختلف التجربة السوفيتية من حيث الزمن الذى استغرقته عن المراحل الأولى للتنمية الاقتصادية فى الدول الغربية . ذلك أن جهود التنمية فى هذه الدول قد بدأت فعلاً من الصفر وتقدمت ببطء مع اختراع الآلة البخارية وتطورها ، إلى أن دخل العالم عصر الكهرباء . ولعل فى هذا العمل الجرهرى ما يفسر طول المدة التى استغرقتها عمليات التنمية فى هذه الدول .

حقيقة مؤلمة يجب أن تضاف إلى هذا السباق .

لم تسهم التجربة السوفييتية منذ قيامها وإلى اليوم بأى اكتشاف علمى هام أو اختراع عملاق من تلك الاكتشافات والاختراعات العلمية الكبرى التى أفادت الإنسانية ودفعت مسيرتها . . .

إكتشاف القوة البخارية واستخدامها كان من صنع الغرب قبيل قيام التجربة بوقت طويل ! ! !

اكتشاف الكهرباء واستخدامها . كان أيضاً من صنع الغرب وقبل قيام التجربة بوقت طويل ! ! !

اكتشاف البترول واستخدامه كان كذلك من صنع الغرب وقبل قيام التجربة بوقت يسير ! ! !

اكتشاف الذرة وتفجيرها كان من صنع الغرب وبعد قيام التجربة بوقت ليس بيسير . .

اكتشاف الالكترون واستخدامه كان من صنع الغرب وبعد قيام التجربة بوقت طويل . .

وكل الاختراعات المترتبة على هذه الاكتشافات الضخمة لم تسهم فيها التجربة السوفيتية بشيء : التليفون ، الراديو ، المسجل ، التليفزيون ، الآلة الحاسبة ، المحرك البترولي ، المحرك النفاث إلخ .

وهذه التذكرة الوجيزة . . ليس المقصود منها النيل من جهود الاتحاد السوفيتي . . ولكن هدفها قبل كل شيء إحاطة كل من يريد التصدي لتقييم التجربة بهذه الحقائق التي تعتبر أولية لسلامة الحكم ودقة التقييم

(د) إن أرقام التقدم وإحصائياته على افتراض سلامتها وصحتها لا تنبئ إلا عن التقدم الكمي . أما التقدم الكيفي فلا يمكن قياسه إلا على ضوء التجربة والاختبار العمليين مع إجراء المقارنات اللازمة بين المنتجات السوفييتية ونظيرتها في الدول الصناعية الكبرى . وغني عن البيان أن هذه التجارب والمقارنات ليست ميسورة في كل الأحوال مما ينبني عليه صعوبة الأخذ بالأرقام والدراسات الإحصائية السوفييتية كأساس فعال للتقييم .

وهل يكفي في الحكم على إنتاج مصنع أو مزرعة القول بأنها تنتج كذا وحدة أوكذا طناً ؟

١٧٦

لا . . .

لا بد من تحديد نوع الإنتاج الذى يخرجه المصنع أو المزرعة ، فقد يكون هذا الإنتاج على ضخامته من نوعية رديئة ، وبالتالى يصبح منخفض القيمة على الرغم من أنه مرتفع الكم ، فقد تكون عشرة محاريث آلية أفضل من عشرين محراثاً . إذا كانت الأولى من نوعية ممتازة بالقياس للثانية .

ونحن ننبه لهذا العنصر الهام لضرورته القصوى عند إجراء التقيم وإصدار الحكم على التجربة إذ لا يجوز الاعتماد فقط على الإحصائيات التى لا تفصح إلا عن كم محض .

والآن وبعد كل ما سقناه من اعتبارات وعناصر يجدر بنا تحديد أبعاد التجربة السوفييتية وتقييمها مسترشدين بمعيار الرفاهية الإنسانية الذى حددناه .

فإذا كان الهدف الأسمى لكل تنظيم إنسانى هو رفاهية الفرد المادية عن طريق التقدم الاقتصادى ورفاهيته الاجتماعية عن طريق العدالة فى توزيع أعباء الإنتاج وثمار الإنتاج ، وأخيراً رفاهيته السياسية عن طريق كفالة حقه فى ممارسة الحريات الأساسية

إذا كان ذلك ، كان لزاماً علينا أن نجرى التقييم انطلاقاً من هذه العناصر وقياساً عليها .

بالنسبة للرفاهية المادية نقول :

إنه على الرغم من انقضاء أكثر من سبعة وخمسين عاماً على التجربة السوفييتية ١٩١٧ – ١٩٧٥ فإن الاتحادالسوفييتى يعتبر من هذه الزاوية فى عداد الدول النصف متقدمة .

وليس معنى ذلك أن التجربة لم تحقق تقدماً ماديًّا يذكر فى ميادين الإنتاج المختلفة . فما من شك أن الاقتصاد السوفيتى قد حقق تقدماً ملحوظاً فى العديد من فروع الصناعة إلا أن هذا التقدم يتضاءل إذا ما قورن بالثمن الفادح الكبير الذى دفعه الشعب السوفييتى من جهده وحريته ودمه ، وخاصة إبان الحكم الستالينى . ولعل فى جسامة التضحيات التى تكبدها السوفييت ما يقلل من أهمية النتائج التى انتهت إليها التجربة ، وخاصة إذا ما قورنت من هذه الزاوية بنظم أخرى أشد فعالية وأقل كلفة .

إن متوسط دخل الفرد فى الاتحاد السوفييتى لا يتجاوز على أرفع التقديرات ١٥٠٠ دولار فى العام . ولكن مؤشر الدخل لا يكفى وحده لتحديد قيمة التجربة من الوجهة الاقتصادية . فالزراعة التى تعتبر من أقدم الأنشطة الإنتاجية وأعرقها فى الاتحاد السوفييتى لم تحظ بتقدم ملحوظ خلال تلك المدة الطويلة التى تتجاوز نصف قرن . فلا زالت إنتاجيتها – خصوصاً فى مزارع الدولة – أقل من نصف نظيرتها فى الولايات المتحدة وأوربا الغربية ، وذلك بسبب ضعف الميكنة وسوء التنظيم التعاونى وانهيار نظام الحوافز ، وقد ترتب على ذلك قصور كبير وخطير فى إنتاج المواد الغذائية ، خاصة القمح ، مما دفع بالاتحاد السوفييتى خلال السنوات الأخيرة إلى الاعتماد

شبه المطلق فى التزود بهذه المادة الحيوية على كندا والولايات المتحدة .

ومن المفارقات الغريبة . . . التى تدلك على مدى فشل التنظيم الزراعى (الكولكوز والسوفكوز) بالاتحاد السوفييتى أن الأراضى الزراعية المسموح بتملكها ملكية خاصة من قبل المزارعين وتبلغ ٤ ٪ من المساحة الكلية تنتج وحدها ٦٠ ٪ من قمح الاتحاد السوفييتى ! !

وما يصدق على الزراعة يصدق على الصناعات الزراعية والصناعات المتوسطة والخفيفة . وتسجل الإحصاءات المقارنات التالية :

– استهلاك اللحم فى الاتحاد السوفييتى يمثل نصف استهلاكه فى الولايات المتحدة !

– استهلاك السكر فى الاتحاد السوفييتى يمثل نصف استهلاكه فى إنجلترا !

– يستهلك الفرد فى الاتحاد السوفييتى ثلاثة أحذية كل عامين بينما يستهلك زميله فى الولايات المتحدة ثلاثة أحذية فى العام الواحد . !

– يشغل المواطن السوفييتى مساحة ٢ , ٧ أمتار مربعة لسكناه بينما يشغل المواطن الفرنسى ٢٥ متراً مربعاً ، علماً بأن فرنسا تعانى اليوم من أزمة سكنية خانقة ! !

أما دخول الفئات العاملة . . . فلم تسجل سوى تقدم هزيل . إذ أن معدل الزيادة فى الأجور الحقيقية فى الاتحاد السوفييتى لم يرتفع بين أعوام ١٩١٣ و ١٩٦٥ إلا بنسبة ١.٦ مقابل ٣,٨ فى الولايات المتحدة خلال نفس المدة ! !

ولم يكن مستغرباً أمام هذا القصور فى وسائل الاستهلاك الجارى

وضغط المطالب الشعبية أن يلجأ الاتحاد السوفييتى منذ أعوام قلائل إلى دول الغرب الرأسمالى ، طالباً المعونة الفنية خاصة فى قطاع الصناعات المتوسطة والخفيفة ، ولعل أبرز الأمثلة على هذا الاتجاه سعيه إلى تصنيع سيارات الركوب بالتعاقد مع شركة فيات الإيطاليـة وعمله على تصنيع المياه الغازية بالتعاقد مع شركة كوكاكولا الأمريكية ! ! !

وبالنسبة للعدالة الاجتماعية :

والملاحظ بعين الواقع ليدرك بما لا يدع مجالاً للشك أن فكرة العدالة الاجتماعية لا تجد تطبيقاً يذكر فى المجتمع السوفييتى المعاصر .

والنظرة الفاحصة المدققة للوضعية الاجتماعية فى الاتحاد السوفييتى لتسجل بوضوح لا مراء فيه اختلالاً اجتماعيًّا خطيراً لصالح فئة جديدة بدأت تبرز إلى الوجود من خلال كبار الموظفين ورجال الدولة ، وأصبحت تشكل اليوم طبقة عليا تتمتع بكل الامتيازات الطبقية التى كانت تنعم بها الأرستقراطية الروسية فى عهد القياصرة .

والمتتبع لتاريخ الثورة البلشفية يلاحظ كيف أن مصادرة السلطة من جانب البلاشفة قد مهدت لميلاد طبقة جديدة . إذ تقلصت ديكتاتورية العمال وانسلخت عنها فئة جديدة تجمعت فى أروقة السلطة بوازع من الضمير الطبقى ، وأصبحت مرتبطة فى وجودها واستمرارها بوشائج المصلحة المادية والمعنوية . تلك الطبقة الجديدة التى برزت بصورة سافرة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية هى وحدها صاحبة الامتياز فى كل ما

يتعلق بمراكز القيادة فى الدولة . فمن بين أعضائها يتشكل الحزب الشيوعى الحاكم ، ومن بين أعضائها تتكون الإطارات العليا للجيش الأحمر .

وغنى عن البيان أن المواطنين السوفييت ليسوا جميعاً أعضاء فى الحزب الشيوعى . فهذا الحزب لا يضم إلا نسبة ضئيلة جداً من الشعب السوفيتى لا تتجاوز بضعة ملايين من الأعضاء(١)

ولعل مايصدق على التجربة السوفييتية يصدق أيضاً على التجارب الأخرى التى نقلت عنها واقتدت بها ، وخاصة فى دول أوربا الشرقية ، كما تبين كتابات جيلاس بالنسبة لميلاد الطبقة الجديدة فى يوغسلافيا .

ومن الغريب أن يجرى التمييز بين أعضاء الحزب الشيوعى وعامة الشعب على أساس مذهبى ، فتبرر الامتيازات التى يحصلون عليها فى العمل وفى المسكن وفى وسائل الاتصال وفى أساليب الرفاهية تبريراً مذهبياً ! ! !

فهؤلاء كما يقول فلاسفة الحزب ومتفلسفوه مسئولون عن القيادة .. ويقومون بأعمال سياسية رفيعة فى خدمة المسيرة الاشتراكية . . . ونصرة الدعوة . . . ومن هنا حق على القاعدة أن تؤازرهم وأن تمنحهم كل الوسائل الكفيلة بتحقيق هذه الأهداف النبيلة !

وهذه الوسائل تبدأ من احتكار المناصب الكبرى . . . إلى الاستيلاء على السكن الملائم . . . مع ما يستتبع ذلك من وسائل اتصال سلكية

---

(١) بلغ سنة ١٩٦٤ ، ١١ مليوناً ونصف مليون عضو طبقاً لتقدير البرافدة السوفييتية — عدد ٢٧ / ١٠ سنة ١٩٦٤ الصفحة الأولى .

(تليفون) ووسائل نقل (سيارات) وأساليب رفاهية (الغابات والبحيرات وأماكن النزهة والترف الموقوفة على أعضاء الحزب)

وأمام هذه الوسائل يمتاز أعضاء الحزب الشيوعى أنفسهم ، فهم ليسوا على سوية واحدة فى الاستمتاع بها فالأعضاء الكبار غير الأعضاء الصغار . . . والقيادة الحزبية غير القاعدة الحزبية .

وكهنة كنيسة العصور الوسطى . . . وطبقة النبلاء ، وكبار الطغاة لم يستخدموا فى ابتزاز الشعوب واستعبادها غير تلك المبررات التى تستخدمها اليوم الأحزاب الشيوعية الحاكمة . فهؤلاء جميعاً كانوا يدعون القيام برسالة سامية تستهدف خير المجموع ، وهذه الرسالة تبرر استمتاعهم وحدهم بطيب الحياة ولذاتها .

ولنتساءل :

أى فارق بين ما كان يدعيه كهنة الكنيسة من أنهم وكلاء الله فى أرضه جاءوا لإنقاذ البشرية من النار وقيادتها إلى الجنة وبين ما يدعيه اليوم رفاق الأحزاب الشيوعية الحاكمة من أنهم رسل الاشتراكية العلمية جاءوا لإنقاذ البشرية من الاستغلال وقيادتها إلى جنة الشيوعية حيث لا طبقات . . ولا استغلال . . ولا دولة ؟ ! !

أى فارق ؟ ! !

وبالنسبة للحرية :

فمهما قيل عن مفهوم الحرية وفلسفتها فى ظل النظم الإشتراكية فلا يسعنا إلا القياس على المعانى الأصلية لها وهى ثلاثة معان أساسية :

- حرية الرأى والعقيدة .
- حرية الاختيار والعمل .
- حرية الحركة والانتقال .

وبالنسبة للأولى : فمن المعلوم أن لاحرية فى اعتناق المذاهب غير الماركسية . فلا حرية فى اعتناق المذاهب والنظريات السياسية أيًّا كان لونها ، ولا حرية فى إبداء الرأى أو الاجتماع أو التظاهر إلا فى إطار التعاليم التى يقضى بها الحزب الشيوعى وتقرها الدولة السوفييتية ، ولا حرية فى تكوين التنظيمات الحزبية أو النقابية . فالحزب الوحيد المسموح به هو الحزب الشيوعى ، وحق الانضمام إليه مقيد بشروط عديدة ، كما أن حق تكوين النقابات العمالية يعتبر وقفاً على الدولة ولا يجوز للعمال المبادأة فى شأنه .

وامتناع حرية الرأى وحرية التنظيمات الحزبية والنقابية هنا يتمشى فى الدافع مع منطق أنصار النظرية الماركسية الذى يقوم على احتكار الحقيقة ، فمتى كانت هذه النظرية فى يقينهم مانعة جامعة صالحة لكل زمان ومكان مؤدية فى تطبيقها بالحتم والضرورة إلى مجتمع الوفرة والرخاء ، فإنه من الخطأ البين اعتناق آراء أخرى أو المناداة بمذاهب

أخرى تعطل من سير التاريخ ! !

أما حرية اعتناق الأديان . . . فقد سمحت بها القيادة مؤخرًا فى الاتحاد السوفييتى لأسباب تتصل بنشر الدعوة . . . فقد هوجمت الماركسية من هذه الزاوية . . واتهمت بحق بأنها تسعى إلى تقويض صرح الدين وتحطيم نفوذه . .

ووجدت الدعوة الماركسية مقاومة شديدة من قبل الأديان . . وتعثرت مسيرتها فى كل دول العالم الثالث ذات التراث الدينى العريق . مما اضطر القيادة الشيوعية الدولية إلى تعديل استراتيجياتها بعقد هدنة مرحلية مع الأديان تسمح لها من بعد باحتوائها والقضاء عليها . .

وعلى الرغم من وجود المساجد والكنائس فى كل مكان من الاتحاد السوفييتى « كآثار باقية من عهود الظلم » ! إلا أن قلة نادرة من السكان هى التى تجرؤ على ارتيادها لممارسة العبادات . . ومع ذلك فإن « العباد الرسميين » من موظفى الدولة على استعداد دائم لأداء الصلوات وإقامة الشعائر بالمساجد والكنائس كلما جاء سائح أجنبى لزيارتها ! ! !

وبالنسبة للثانية :

فلا حرية فى اختيار العمل والمهنة ولا حرية فى قبول الأجر أو رفضه أو حتى مجرد المناقشة فى تحديده بل ولا حرية فى اختيار نوع الدراسة أو التخصص الذى يتجه إليه الطالب إذ تخضع كل هذه الأمور لأوامر

الدولة وتوجيهاتها من خلال جهاز التخطيط المركزى الذى يقوم بتنفيذ السياسة العليا للدولة .

وأخطر مظاهر انعدام الحرية فى اختيار العمل تبدو فى نظام العمل الإجبارى الذى تلجأ له الدولة فإلى جانب نظام الأشغال الشاقة المعمول به كعقوبة جنائية تقوم السلطات السوفيتية بتكليف فئات مختارة من العمال بانجاز بعض الأعمال الخطرة أو الشاقة لفترة معينة من الوقت وقد خضع لهذا النظام ملايين من العمال السوفييت وخاصة إبان حكم ستالين .

أما اختيار نوع الوظيفة أو العمل فيخضع لقيود دقيقة لعل أهمها وأخطرها هو سياسة « احتياطى اليد العاملة » التى يأخذ بها النظام السوفييتى . ومؤدى هذه السياسة توجيه الطلبة إلى التكوين الفنى الذى يستجيب لاحتياجات الخطة . ويظل الطلبة بعد تخرجهم من الجامعة مجبرين خلال عدد من السنوات على شغل الأعمال التى تحددها الدولة ، وفى الأماكن التى تحددها دون أن يكون لإرادتهم دخل فى ذلك .

وتخضع الأجور بدورها لتخطيط دقيق . . والعامل مكره فى كل الأحوال على قبول الأجر الذى يفرضه جهاز الخطة فلا حق له فى مناقشته ولا حق له فى الاحتجاج على تقديره بالوسائل النقابية أوغيرها .

بقى أن تعلم أن جهاز الخطة يخضع خضوعاً مطلقاً للقيادة السوفييتية العليا . . وأن اختيارات الخطة تخضع بالتالى لأهداف هذه القيادة وأهوائها ، ومن هنا كانت حرية اختيار العمل وتحديد الأجر حكراً على أصحاب هذه القيادة ! !

أما الثالثة والأخيرة :

فيصعب التسليم بوجودها فى الاتحاد السوفييتى . فحرية الانتقال داخل أقاليمه مقيدة وحرية الهجرة إلى خارجه ممتنعة ، فالستار الحديدى الذى ضرب حول الأراضى السوفييتية منذ الثورة البلشفية مازال قائماً حتى اليوم وإن خفت حدته فى السنوات الأخيرة ، وغنى عن البيان أن أعضاء الحزب الشيوعى وكبار الموظفين والحكام هم وحدهم أصحاب الحق المطلق فى الانتقال داخل البلاد والسفر إلى خارجها طبقاً للقواعد والإجراءات المنصوص عليها فى هذا الشأن .

وينظم تأشيرة الخروج من الاتحاد السوفييتى قانون صارم . . لايسمح بها إلا فى حالات خاصة محدودة على رأسها أداء خدمة عامة للدولة السوفييتة فى الخارج ، أما الخروج قصد السياحة فلم يسمح به إلا مؤخراً شريطة أن تكون هذه السياحة جماعية ومنظمة من قبل الدولة وتحت إشرافها . . ومعنى ذلك امتناع السياحة الفردية وامتناع الخروج لزيارة الأقارب والأصدقاء ، وامتناع الخروج بدعوة لحضور مؤتمر أو المشاركة فى ندوة إلا إذا كان المدعو ممن تنطبق عليهم الشروط القانونية وأهمها عضوية الحزب الشيوعى وموافقة الدولة على الاشتراك فى المؤتمر أو الندوة .

نوع وحيد من الخروج المسموح به فى الاتحاد السوفييتى وهو الخروج بغير عودة الذى يتم فى شكل هجرة لأسباب سياسية تقرها الدولة

السوفييتية . ومثالها الوحيد البارز هجرة اليهود السوفييت إلى إسرائيل ! ! !

ومع كل ما تقدم فقد علمتنا التجربة السوفييتية بأبعادها الإيجابية والسلبية ثلاث حقائق :

الأولى :

إن تدخل الدولة فى النشاط الاقتصادى وتملكها كافة وسائل الإنتاج لم يؤد فى كل الحالات إلى زيادة الفعالية الإنتاجية فى المشروعات المختلفة ، فدرجة تأثر الإنتاج بتدخل الدولة يتفاوت فى الواقع من قطاع إلى آخر . إذ ثبت من التجربة أن هناك قطاعات إنتاجية تتقبل هذا التدخل وأخرى تلفظه . ذلك أن طبيعة التكوين الهيكلى لبعض القطاعات تتنافر مع محتوى الاستغلال العام أيًّا كانت درجة إتقانه . فالحياة الاقتصادية لاتحتمل لوناً واحداً من ألوان الاستغلال بل تتطلب ألواناً متعددة متنوعة تستجيب لطبيعة القطاعات والفروع الإنتاجية فى تعددها وتنوعها . ولقد كان إهمال هذه الحقيقة سبباً فى سقوط التجربة فى عدد من القطاعات الإنتاجية السوفييتية وخاصة تلك التى يطغى فيها العنصر الإنسانى على غيره من العناصر .

الثانية :

إن أسلوب التخطيط الاقتصادى الذى أخذ به الاتحاد السوفييتى يمكن أن يشكل أداة ناجحة من أدوات التنمية الاقتصادية إذا ما أحسن

توجيهه وأتقن تنفيذه . فطابعا الشمول و الإكراء اللذان يتميز بهما هذا التخطيط يقللان كثيراً من فعاليته فى العمل. ولعل فى الأخذ بمبدأ المرونة والملاءمة بالنسبة لظروف كل دولة ما يجعل من التخطيط أداة محركة لعجلة التنمية الشاملة .

الثالثة :

إن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط . . . فالجوانب المعنوية من حياته تلعب دوراً له خطره فى بنائه الحضارى كله ، وهو ليس كماً يخضع للعد والإحصاء ، ولكنه كيفٌ أيضاً يمتاز بالروح والمشاعر. ومن هنا سقطت تجربة المادة فى نظام لا يرى فى الإنسان إلا أحشاءه . . . وما تحت أحشائه لتبقى الحقيقة ساطعة . . . حقيقة هذا الوجود ، وهى أن الخلق والإبداع ليسا رهينى الخبز فقط بقدر ما هما رهينا الروح فى تحررها وانطلاقها وسموها على قيود المادة .

استجواب تقدمى ! !

بناء المجتمع الأفضل . . .

وفى الزمن الأسرع

و بالجهد الأقل . .

المدخل الكبير الذى منه تدلف الماركسية إلى إنسانية ضائعة يطحنها التخلف و يدميها الاستعباد . .

إنه مدخل لغريق يحتضر . ليس أمامه سوى التشبث بأول إنسان يبسط له يد النجاة .

لقد استطاعت الدعوة الماركسية اجتياح العالم المتخلف من خلال الإجابة على هذا التساؤل الكبير : كيف نبنى المجتمع وفى أسرع وقت ممكن و بأقل جهد ممكن ؟ فأكدت بغير تردد أن الطريق الأوحد إلى البناء الاقتصادى والاجتماعى يكمن فى « الاشتراكية العلمية » وأنه بغير هذا الطريق « الثورى » يصبح النهوض من التخلف وتحطيم التبعية أمراً مستحيلاً !

والدعوة الماركسية تجد كل سندها . . وتستجمع كل مبرراتها فى هذه الأحلام العذاب التى تداعب بها البطون وتستميل بها الغرائز فى أمم قتلها الفقر وأذلتها التبعية .

وقد مكن من رسوخ هذه الدعوة وانتشارها صعوبة الجدل المفتوح . .

وغيبة الطرح المضاد . . وفقدان أدوات التبليغ . . وفى كلمة : خواء الساحة الفكرية من كل قوى منظمة تجابه العد الماركسى الزاحف عبر الأمانى الوطنية والقومية .

ومما دعم من هذا الاتجاه وأذكاه نظم سياسية ترى فى التحالف مع المراكسة دعماً لسلطانها وفى التمكين لدعوتهم تمكيناً لدعوتها . وقد هيأت لهم هذه النظم من السبل والوسائل ما مكنهم من احتكار الكلمة . . وتطويق الرأى الآخر فى أخطر قضايا المصير على الاطلاق : قضية البناء الاقتصادى والاجتماعى .

١ - سؤال : ما تعريفكم للتخلف الاقتصادى . .

جواب : أرى أن الرد الإيجابى على هذا السؤال الكبير لا يكون بتعداد أسباب التخلف وعوامله (انخفاض مستوى الدخل الفردى - ضعف مستوى التكوين الفنى والثقافى - انخفاض المستوى الصحى . . . إلخ . . . إلخ) .

بل يكون بتحديد أسباب التنمية وعواملها .

و بمعنى آخر علينا أن نعرف بالتنمية بدلا من أن نعرف بالتخلف . . . لأن التعريف بالتنمية يمكننا - بصورة إيجابية - من الوقوف على أسباب التخلف كما يلقى الضوء على وسائل علاجه .

٢ - سؤال : هل تقصدون بذلك إعطاء تعريف للتخلف والتنمية فى آن واحد . إن ذلك ليس بالسهل الميسور إذا لم ينبثق التعريف من سياق التاريخ .

جواب : أقصد ذلك تماماً . . فبدلاً من الإغراق فى سرد قائمة طويلة لأسباب التخلف . . . التى أصبحت معروفة للجميع من خلال التكرار وكثرة النقاش حول هذه القضية . يكون من الأجدر الإحاطة بمقومات التنمية .

وقد سبق أن تناولت تعريف التنمية فقلت بأنها « عملية منظمة . . . تستهدف تغيير الهياكل الأساسية للمجتمع المتخلف . . . وإبدالها بأخرى جديدة . . . تسمح بإطلاق التنمية وتوجيهها إلى خدمة الرقى الإنسانى » .

وهكذا تبدو التنمية كعملية إرادية محصورة وموجهة لا كنتيجة حتمية للسباق التاريخى الطويل كما تدعى النظرية الماركسية .

ومن خلال هذا التعريف بالتنمية نلاحظ :

(ا) أن التنمية عملية منظمة : أى تتم وفق نظام معين وبالتالى فهى تختلف عن العمليات الاقتصادية العشوائية التى تدور فى بعض الدول المتخلفة والتى لا يمكن أن ترقى إلى المستوى اللازم لإحداث التغيير المطلوب .

(ب) أن هذه العملية المنظمة التى تقوم عليها التنمية تستهدف إبدال الهياكل الأساسية أو البناءات الأساسية التى يقوم عليها المجتمع بأخرى ملائمة للانطلاق الاقتصادى . وعلى ذلك فعمليات التغيير والتعديل السطحى التى تتناول الهياكل الأساسية . . . أو عمليات التبديل والتغيير الجذرى التى تتناول الهياكل غير الأساسية لا تؤدى بحال إلى تحريك التنمية أو إطلاقها إنما تؤدى إلى تغيير ظاهرى غير مؤثر .

فالتغيير والتبديل هنا لابد وأن ينصرفا إلى هياكل أساسية . . . أو رائدة . . . كالهيكل الاقتصادى والتقنى . . . والذهنى لأن هذه الأنواع من الهياكل تعتبر مؤثرة فى مجريات التنمية ، إذ من شأنها أن تخلق الظروف الموضوعية الملائمة لإطلاقها .

(جـ) وأخيراً لابد أن تكون غاية التنمية خدمة الرقى الإنسانى . . . أى الارتقاء بالإنسان كماً وكيفاً عن طريق إعداده بمزيد متواصل من الرفاهية المادية والمعنوية . . وهذا طبيعى لأن الإنسان هو الموضوع الأول والأخير للتنمية .

وعلى ذلك فإن كل تجربة اقتصادية تقيم نجاحها على التقدم الكمى وحده فى إنتاج أجهزة الدمار والحرب هى تجربة فاشلة . . ولا يمكن أن تدخل فى مفهوم التنمية بالمعنى الذى حددناه .

٣ – سؤال : بمناسبة التجارب الاقتصادية فى دول العالم الثالث . . . ما هو فى نظركم . . . الطريق الأمثل للتنمية الاقتصادية من خلال المعنى الذى حددتموه ؟

جواب : نعتقد . . وعلى الرغم مما تروجه بعض المصادر – أنه لا يوجد طريق واحد للتنمية . . . ولكن هناك طرق عديدة وبدائل عديدة . . . . . . ولكن ظروف العالم الثالث التاريخية إبان الوجود الاستعمارى وحيرته فى البحث عن طريق بعد النزوح الاستعمارى قد مكنت لبعض النزعات المذهبية المعروفة من استغلال هذه الحيرة . . . وهذا التخبط لفرض مذهبها . . . وذلك بالقول . . . فى كل مناسبة . . . بل وأحياناً بغير

مناسبة بحتمية حل معين . . . وهو ما خلعوا عليه اصطلاح « الحل الاشتراكى » .

وأريد أن أؤكد هنا . . . أن كل التحليلات الاقتصادية الحديثة ، والتى قامت على الدراسات التجريبية ، دللت على أن عقيدة الحتميات قد سقطت مع سقوط التحليل الماركسى فى أكثر من موضع وحلت مكانها اليوم عقيدة الممكنات .

فالحتمية الآلية التى تفرض حلاً واحداً لكل مرحلة من مراحل التطور التاريخى للمجتمعات . . . لا وجود لها فى عالمنا الواقعى إنما هناك إمكانية تفضيل بين حلول متعددة لمرحلة واحدة .

فالقائلون بالحتمية هم المراكسة وأصحاب الخلفية الماركسية الذين يتسترون تحت أسماء جديدة تخفى حقيقة انتماءاتهم العقائدية .

٤ — سؤال : ولكن من الثابت أن الحل الرأسمالى البحت قد فشل فى النهوض بالمجتمعات المتخلفة كما يؤكد نفر غفير من الخبراء ، فما هو البديل فى نظركم ؟

جواب : ونحن نسلم بهذا الفشل . . . ولكن البديل ليس واحداً كما بينت . . . إنما هو متعدد . . . تبعاً لتعدد الظروف الهيكلية للمجتمعات المتخلفة .

٥ — سؤال : ولكن . . . واقع التجارب التى مر بها العالم الثالث يؤكد أن الحل الأمثل أمام الدول المتخلفة هو الحل الاشتراكى فما رأيكم فى ذلك ؟ .

جواب : أود قبل الإجابة على سؤالك أن أسألك بدورى تحريا للدقة العلمية . . . ماذا تقصد بالاشتراكية ؟ لأن هناك معانى عديدة للاشتراكية فى النظرية ، كما أن هناك أشكالاً عديدة للاشتراكية فى التطبيق ، وأود أن أعرف محتوى الحل الاشتراكى الذى تقصده بقولك إنه الحل الأمثل أمام الدول التى تسعى إلى الخروج من التخلف .

٦ – سؤال : أقصد الحل الذى يقوم على وضع جميع القطاعات الاقتصادية الأساسية فى يد الدولة وإقامة تخطيط شامل للاقتصاد . . . وتحقيق العدالة الاجتماعية بتطبيق شعار « لكل بحسب عمله » .

جواب : إذا تكلمنا بلغة التاريخ . . . الذى يحلو للبعض الاستشهاد به والتسليم بحكمته . . . فإننى أقول بأن تاريخ الوقائع الاقتصادية يثبت أن هذه الإجراءات الآنفة من تركيز الاقتصاد فى يد الدولة . . . إلى تخطيط شامل للموارد . . . إلى بحث عن العدالة التوزيعية ليست وقفاً على الاشتراكية بأنواعها . وإذا كان لهذه الكلمة رنين خاص فى آذان البعض . . . رنين يحمل نبل المعنى والمبنى . . . فإن الواقع شىء آخر . . . فالمذهب النظرى شىء . . . والواقع التطبيقى شىء آخر .

فاذا ما أغفلنا الشعارات التى تطلقها نظم عديدة ونزلنا إلى الواقع العملى نتفحصه بدقة لوجدنا أن هذه الإجراءات التى يطلق عليها فى مجموعها اصطلاح « الاشتراكية » معروفة فى تاريخ الوقائع الاقتصادية تحت أسماء أخرى .

فمثلا ملكية الدولة للقطاع الاقتصادى وتطبيقها للتخطيط الشامل

عرفته مصر إبان حكم محمد على . . . وليس هناك من يزعم بأن محمد على كان اشتراكياً أو متأثراً بالمذاهب الاشتراكية ؛ كذلك سيطرة الدولة على القطاع الاقتصادى وتوجيهه وفقاً لخطة شاملة عرفته دول عديدة إبان الحروب والفترات السابقة عليها ، وأبلغ مثال على ذلك إنجلترا خلال الحرب العالمية الثانية حيث استولت الدولة على القطاع الاقتصادى ووجهته إلى خدمة أهداف الحرب . . . كما أن الدولة طبقت عدالة صارمة فى توزيع جهود الإنتاج وفى توزيع ثماره خلال هذه الفترة .

وهناك إلى جانب هذا وذاك نظام الاقتصاد الإسلامى . فى النظرية وفى التطبيق . . . فهذا النظام يسمح لولى الأمر أن يتدخل فى النشاط الاقتصادى لخير المسلمين . . . فله حق الاستيلاء على مال معين أو أموال معينة وضمها إلى المال العام . . . وتوجيهها إلى خدمة التنمية فى المجتمع المسلم . . . من خلال خطة مرسومة .

أضف إلى ذلك أن الإسلام قد كفل العدالة التوزيعية بوجهيها : العدالة فى توزيع جهود الإنتاج ، والعدالة فى توزيع ثماره .

ولكنى أضيف هنا تحفظاً هاماً : إن هذه الإجراءات كانت تتخذ وتطبق بأسلوب العصر الذى قامت فيه . . . وهذا ما يجعل طبيعتها غير واضحة إذا ما نظرنا إليها بمنظار اليوم . . .

فالقطاع العام الاقتصادى كان موجوداً كعنصر رئيسى فى اقتصاد الدولة الإسلامية وذلك فى شكل أملاك الدولة العقارية وأموالها المنقولة التى كان يشرف عليها بيت المال ويقوم باستغلالها فى صالح المجتمع

المسلم . . . والتخطيط اللازم لحسن استغلال هذه الأملاك والأموال كان قائماً أيضاً ؛ ولكنه لم يكن فى تلك الصورة المتشعبة المعقدة التى نراها اليوم . . . بل كان مبسطاً إذا ما قورن بتخطيط اليوم . . . ولكنه تخطيط متقن على كل حال إذا ما قيس بمقياس غصره . . . فالفارق فى الواقع يعود إلى اختلاف المستوى التقنى بين العصور الإسلامية الأولى وعصرنا الراهن . . .

هذا الكلام يصدق بالنسبة لمن يعتبرون « الاشتراكية » وسيلة مثلى أو وحيدة للتنمية الاقتصادية والاجتماعية ، ويدعون بالتالى — من خلال هذه الحاجة الملحة — إلى الإيمان بجدواها واتخاذها عقيدة وأسلوب حياة .

فإذا ما تبينا أن سند الاشتراكية فى النظرية — وخاصة الاشتراكية العلمية وما نبع عنها — مادى بحت بحيث يقوم على تصور اعتقادى مضاد للواقع ومصادم لتراثنا المادى والروحى .

وإذا ما تحققنا من أن هذه الإجراءات الاقتصادية (من قطاع عام موجه إلى عدالة توزيعية) ليست وقفًا على المذاهب الاشتراكية وحدها ، بل يمكن أن تقوم أصلاً بدونها فإنه يكون من غير المنطق أن نذهب إلى مسايرة هذا النفر من غلاة الدعوة .

صحيح أن هناك عمليات تطويع « للاشتراكية » على ضوء الواقع التراثى لهذه الأمة . . . بحيث انقسمت الدعوة إلى « اشتراكية مادية ملحدة » و « اشتراكية مؤمنة » . . . وأراد أرباب هذا النوع الأخير من الاشتراكية ترويضها وملاءمتها على المزاج الروحى لدول العالم الثالث ،

فقالوا بأنها تؤمن بالله . . . واليوم الآخر . . . وأنها ممشية مع الأديان . . . بل ومنهم من أدخلها إلى حظيرة الإسلام . . . وألبسها ثوب العقيدة الإسلامية ! !

غير أن عمليات الترقيع هذه قد هدمت من تكامل النظرية . . . بحيث أصبحت فى العمل . — وفى غير دول « الكتلة الشيوعية » — مسخاً مشوهاً من الإجراءات المتناقضة . . . المتنافرة مع البناءات الأساسية للمجتمعات التى حاولت الأخذ بها .

٧ — سؤال : مع احترامنا لما أبديتم من رأى إلا أن هناك دولاً متخلفة نجحت فى الخروج من تخلفها بفضل الاشتراكية ، فما رأيكم فى هذه الحقيقة . وما قولكم فى التجربة السوفييتية وغيرها من التجارب الاشتراكية الناجحة .

جواب : هذا سؤال مركب . . . والإجابة عليه تستلزم تحديد أمرين : أولهما التفرقة بين دول « الكتلة الشيوعية » وغيرها من دول العالم الثالث . . . وثانيهما تحديد المقصود بالنجاح أو معيار النجاح . « فدول الكتلة الشيوعية » وأعنى بها الاتحاد السوفييتى ودول أوربا الشرقية والصين وكوريا الشمالية وفيتنام الشمالية وكوبا طبقت كلها نظاماً متكاملاً سنده المذهبى هو الماركسية وواقعه العملى هو رأسمالية الدولة . . . أى ملكية الدولة لجميع وسائل الإنتاج وتطبيق التخطيط الشامل المركز وسيادة دكتاتورية الحزب الواحد تحت شعار « دكتاتورية » العمال مع تطبيق عدالة توزيعية تختلف أبعادها باختلاف الانتماء إلى الحزب الواحد من عدمه وباختلاف التفاوت

فى درجة المكانة الحزبية .

هذا النظام نجح نجاحاً نسبياً فى الاتحاد السوفييتى وربما فى الصين . ولكننا لا يمكن أن نجزم بنجاحه فى دول أوربا الشرقية أو فى كوريا الشمالية وفيتنام الشمالية وكوبا على الرغم من سيل « المعلومات الإعلامية » التى تصل إلينا ، لأن كل هذه الدول تعتمد اعتماداً خاصاً على الدولة الأم – وخاصة الاتحاد السوفييتى – فى قيامها ونموها . . . بمعنى أن نظمها الاقتصادية والاجتماعية تعتبر نظماً تابعة لا تستمد حياتها واستمرارها من ذاتيتها ولكن من النظام الأم الذى يهيئ لها من يوم إلى يوم أسباب الحياة والحركة .

وإذا ما تفحصنا عن قرب دول الكتلة الشيوعية التى حققت نجاحاً نسبياً . . . ونعنى بها على وجه التحديد : الاتحاد السوفيتى والصين ، لتبينا أن أسباب هذا النجاح تعود فى غالبيتها لعوامل موضوعية خاصة قلما توافرت بالنسبة للغالبية العظمى من الدول ، وقد لا تتوافر بالمرة لأى دولة من دول العالم الثالث المعروفة لنا اليوم .

فهناك أولاً عامل المساحة الشاسعة الذى يرتبط غالباً بتنوع المناخ والتربة . . . وتنوع الثروات الزراعية والحيوانية والمنجمية

وهناك ثانياً عامل الكثافة السكانية الضخمة التى تؤدى دائماً وبصورة مطلقة لا نسبية إلى توافر الموارد البشرية المطلوبة للتنمية ، إذ كلما ازداد عدد السكان ارتفعت فرص الحصول على كفاءات بشرية فى الميادين المختلفة .

وهناك ثالثاً عامل التقدم الاقتصادى الذى يغفله البعض . . . فمن بين دول الكتلة الشيوعية . . . دول قطعت مسافات هامة فى بناء هياكلها الأساسية من اقتصادية واجتماعية (طرق — موانئ — مطارات مدارس إلخ . . .) قبل أن تدخل إلى حظيرة الدول الشيوعية والاتحاد السوفييتى — وعلى خلاف ما تروجه الدعاية — يقدم لنا خير مثال . وهناك رابعاً العامل الحضارى الذى يتنكر لأهمية المذهبيين من غلاة الدعوة الماركسية ، فهذه الدول — وخاصة الصين — ذات تراث حضارى عريق . . . كما أن الجزء الرائد من الاتحاد السوفييتى يقع فى القارة الأوربية . . . ومسته الحضارة الأوربية .

وعلى الرغم من ادعاء هذه الدول إحراق الماضى ونبذ التراث وتوكيدها بأن عملية بناء التنمية كانت من وحى العقيدة وصنع المذهب ، إلا أن الشواهد القريبة والبعيدة تؤكد بأن التراث الحضارى قد لعب دوراً له خطره فى إطلاق التنمية واستمرارها . فحماية مكاسب الثورة » اللينينية من مخاطر الغزو النازى لم تكن ممكنة على الإطلاق بغير نداء التراث الذى أطلقه ستالين يوم أطبقت الجيوش الألمانية على الجيش الأحمر فى لينتجراد وأصبحت على بعد ثمانية كيلومترات من موسكو .

فى هذه اللحظات الحاسمة من تاريخ روسيا البلشفية . . . لم يجد الإيمان بالحتمية التاريخية ولا الاعتقاد فى الغد الأحمر فى صد هجمات فرق العاصفة الألمانية ، إنما كان التراث الروحى . . . الذى أيقظه البلاشفة فى نفوس مواطنيهم . . . هو العامل الأول فى المقاومة

والصمود والتغلب على الأعداء برغم عظمة عدتهم ووفير عددهم .

وكذلك أمر الصين فى مجابهتها للتحدى الأمريكى ، فالقومية الصينية ، والتراث الصينى هما العماد الأول والأخير للفكر الماوى ، وبناة الصين الجديدة يضعون دائماً رهن الاعتبار . . . هذه الحقيقة عند إقدامهم على كل إجراء يستهدف ملاءمة الفرد الصينى على عملية الإنماء الاقتصادى .

ونود أن نتساءل كم من دولة متخلفة تتوافر على كل هذه الظروف أو حتى على غالبيتها ؟

وأخيراً لايمكن للخبير أن يتناسى حصيلة الاكتشافات والاختراعات العلمية التى سبقت دخول هذه الدول إلى حظيرة الشيوعية ، فقد وضعت كل هذه التجارب والخبرات فى خدمة نموها الاقتصادى . . . فاستغلت تجارب عصرين كاملين : عصر البخار وعصر الكهرباء فى إنماء أجهزتها الصناعية واللحاق بعصر الذرة .

ومن ناحية أخرى يلزم دائماً عند الكلام عن النجاح فى الحقل الاقتصادى والاجتماعى أن يكون بين أيدينا معيار متفق عليه للمراجعة والقياس حتى لا نعطى النجاح جزافاً لمن لا يستحقه .

فما معيار النجاح لتجربة ما . . . أهو الرغيف أم المدفع . . . ؟

أهو إطلاق صاروخ إلى القمر قبل أن يجد المواطن رفاهيته المادية والمعنوية على الأرض ؟

إذا ما اعتبرنا معيار النجاح هو رفاهية الفرد المادية والمعنوية لاختلف الأمر .

ولا أحسب أن التركيز على بعض القطاعات الإنتاجية الثقيلة والعسكرية ، وإهمال القطاعات الأخرى خاصة قطاع الزراعة إهمالاً شبه كامل . . . لا أحسب أن ذلك من شأنه أن يخدعنا فى حقيقة هذه التجارب الإنمائية .

وفى كل الأحوال . . . وبالنسبة لتقدير أى تجربة كانت لا يجوز النظر إلى النتائج الإيجابية التى توصلت إليها التجربة دون النظر أيضاً إلى الثمن المادى والإنسانى الذى دفع مقابلاً لها . فمقارنة النتائج المتحصلة بالتضحيات المبذولة عنصر هام من عناصر التقدير وذلك تأسيساً على أن اعتبارات النجاح تقاس أيضاً بما حققه النموذج الإنمائى للمجتمع من تقدم وبأقل تضحيات ممكنة .

بقيت قضية أود الإشارة إليها فى معرض الحديث عن معايير النجاح فى التجارب الإنمائية وهى أن أرقام التقدم وإحصائياته التى غالباً ما تستند إليها فى تقدير هذه التجارب لا تنبئ إلا عن التقدم الكمى ، أما التقدم الكيفى فلا يمكن قياسه إلا على ضوء التجربة والاختيار العمليين مع إجراء المقارنات اللازمة . . . وهذا مالا يكون ميسوراً فى كل الأحوال . . . ولذلك يجب أخذ البيانات الإحصائية وغيرها من المعلومات بالتحفظ الكامل .

٨ — سؤال : على الرغم من أوجه النقد التى أوردتموها . . . تبقى حقيقة هامة يصر عليها معظم الخبراء . . . وهى أن النموذج « الاشتراكى » يعتبر أفضل من غيره قدرة على تكوين رؤوس الأموال بالسرعة التى

تتطلبها ظروف العالم المتخلف ، فهل لديكم تعليق على ذلك ؟

جواب : لدى أكثر من تعليق . . . رد على هذا النفر من الخبراء الذين نعتوهم بالأغلبية وهم فى الحقيقة فريق من اليسار الملتزم تؤيدهم قلة من غير الملتزمين .

وسندهم فى ذلك أن حلول الدولة محل الأفراد فى اتخاذ قرارات الاستثمار من خلال خطة اقتصادية تسمح بتلافى فوضى وتقاعس القرارات الفردية فى اقتصاد حر ؛ ويؤدى بالتالى إلى رفع معدلات الاستثمار وتكوين رؤوس الأموال اللازمة للتنمية فى مدة وجيزة نسبياً .

وهذا القول ينطوى على كثير من الصحة ، فترك الحرية للقطاع الخاص فى اتخاذ قرارات الاستهلاك والاستثمار اللازم للتنمية دون ماتخطيط أو توجيه يؤدى إلى سلوك اقتصادى معطل للتنمية وذلك مردود إلى عوامل معروفة فى الاقتصاد المتخلف من بينها ندرة المنظمين الأفراد وضعف فرص الادخار والاستثمار . . . وضيق السوق . . . إلخ . . . إلخ . .

ولكن الشيء الذى ينطوى على الكثير من قصر النظر هو القول بأن حل هذا الإشكال والتغلب على هذه العوامل لا يمكن أن يكون إلا عن طريق واحد لا محيد عنه وهو « الاشتراكية » (بمعناها الموجود حالياً فى التطبيق) لأن تكوين رأس المال عن طريق تحقيق الادخار وتوجيه الاستثمار . . . يمكن أن يسلك طرقاً عديدة . . . وأن يكتسى أشكالاً مختلفة .

٩ — سؤال : وما هى هذه الطرق وما هى هذه الأشكال ؟

جواب : إن تكوين رأس المال يمكن أن يسلك طرقاً عديدة وأن يكتسى أشكالاً مختلفة . . . وقد سبق أن استبعدنا الطريق الرأسمالى فى التنمية بسبب عدم تلاؤمه مع الظروف الهيكلية لدول العالم الثالث كما أشرت مراراً . . . وذلك مردود أساساً إلى فوضى القرارات الفردية وعجزها عن تحقيق الادخار الكافى وتوجيهه إلى أنواع الاستثمارات المطلوبة للتنمية .

فإذا ما استطعنا أن نجد نظاماً يجند الطاقات الادخارية للأمة ويوجهها إلى خدمة الاستثمارات الضرورية للتنمية فى إطار خطة عامة تستهدف الارتقاء بالفرد مع احترام تراثه المادى والروحى ، لأمكننا أن نحقق نموذجاً إنمائياً أصيلاً يسمو فى دقة تنظيمه على كل نموذج مستورد لأن استيراد النماذج الاقتصادية . . . التى نبعت نظرياتها من بيئة فكرية غريبة عنا . . . وطبقت فى تربة اقتصادية واجتماعية . . . بعيدة عن عناصر تربتنا . . . لا يمكن لها أن تنهض بأعباء التنمية على الوجه الذى نرتجيه .

١٠ – سؤال : من المسلم به أن هناك وحدة فى الخبرة الإنسانية ، ولا يمكن قطع الاتصال بين الخبرات البشرية أو حرمان مجتمع من الاستفادة من تجارب الآخرين . . . إن فى هذا مجافاة للمنطق ، وخروجاً على التاريخ .

جواب : الاطلاع على خبرات الآخرين شيء . . .

والنقل والتقليد شيء آخر . . . الانفتاح على المعرفة الإنسانية ضرورى

ولازم . . . أما النقل والتقليد الأعمى فمآله الفشل بسبب اختلاف التركيب المادى والمعنوى للمجتمعات البشرية كما ألمحت حالاً .

ومشكلة تجنيد الطاقات المادية للمجتمع ليست بالمشكلة الوحيدة وإلا لهان الأمر فإلى جانب ضرورة ضغط الاستهلاك لتكوين الادخار اللازم للاستثمار توجد مشكلة تجنيد الطاقات المعنوية للأمة . . . وأعتقد أن تجنيد هذه الطاقات . . . يكون دائماً من خلال أقرب النظريات والمفاهيم الفكرية والروحية التي تعتنقها الأمة فعلاً وتزاولها فعلاً . .. وتتخذ من عناصرها غذاء روحياً ليومها وغدها . . . ولكن قد يكون فى هذه المفاهيم والنظريات المحلية ما يعوق التنمية . . . وهذا ما يطرح مشكلة جديدة إلا أن صرف الجهد إلى تخليص هذه المفاهيم والنظريات المحلية من شوائبها — إن كان هناك ما يشوبها ، يعتبر أقل كلفة . . . وأهون أمراً . . . من محاولة محوها أصلاً وإبادتها لإبدالها بمعتقدات روحية وفكرية جديدة خاصة إذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من تربة أخرى ومن خلال بيئة فكرية مغايرة .

وإننى أتساءل : كم من الوقت يضيع فى أخذ ورد . . . إذا ما استيقظ شعب فى الصباح ليجد عقيدة جديدة معلقة على أبوابه تدعوه إلى الغمل والإنتاج فى إطارها ؟

أليس من غرائب الأمور . . . بل ومن المصادم لطبيعة الأشياء ، أن تفرض على أمة نظرية فكرية بغير سابق معرفة لها . . . أو حتى مجرد إلمام بأصولها ؟

١١ — سؤال : وهل هناك عقبات تحول دون تطبيق مذهب ما ولا سيا المذهب الاشتراكى إذا كان فى هذا التطبيق فائدة بالنسبة للتنمية ؟ .

جواب : إننى لا أتجنى على المذاهب الاشتراكية . . . ولكننى أسأل الذين يستوردونها ويحاولون تطبيقها . . . كيف يمكن لهم ذلك بغير مستوى ثقافى معين يسمح للشعب باستيعابها والعمل بمضمونها ؟ .

وإذا كانت الغالبية العظمى لأى شعب متخلف دون المستوى الأدنى الذى يسمح له بمجرد القراءة والكتابة ، فكيف نطالبه باعتناق مبادئ جديدة ، وقيم جديدة . . . تصطدم فى جملتها وقد تصطدم فى تفاصيلها مع تراثه ومعتقداته ؟ .

إن المذهب الاقتصادى . . . يقوم دائما على تصور اعتقادى معين يعمل الفرد فى إطاره ويهتدى بتعاليمه . . . وهذا التصور الاعتقادى يرتقى بالفرد إلى مستوى الإيمان بالمذهب فى كل خطوة يخطوها وفى كل حركة يبدأها فى سبيل الإنتاج .

فإذا ما أردنا للفرد أن يصل إلى مرحلة الفهم الكامل والإيمان المجدى بالمذهب الاشتراكى فلا بد لنا أن نخلصه من روابط التراث . . . ولا بد لنا أن نزوده بالثقافة الضرورية لنسكب فى رأسه من بعد مفاهيم وقيماً جديدة قد تلائمه وقد تنفره ، قد يأخذ بها وقد يطرحها وفى هذا مضيعة للوقت .

١٢ — سؤال : لقد أثبتت التجربة كما يقولون إمكان ملاءمة الاشتراكية مع الظروف الموضوعية لكل دولة . . . فالاشتراكية مذهب مرن يقبل التطبيق .

جواب : هذا ما ادعاه أنصار المذهب بتأكيدهم أنه صالح لكل زمان ومكان شريطة القيام بعملية « أقلمة » مع مقتضيات التراث .

وعملية « الأقلمة » أو الملاءمة هذه استهدفت دولا متخلفة ذات تراث حضارى معين . . . وخاصة الدول الإسلامية حيث تصطدم الاشتراكية فى جوانبها العقائدية على الأقل بمقومات التراث .

ففى هذا النوع من الدول لا يوجد سوى مخرج واحد لتطبيق « الاشتراكية » بالمعنى السابق وهو ملاءمتها عقائدياً مع مقتضيات التراث .

وهذا ما ذهبت إليه بعض الاتجاهات عندما عطلت عدداً من المفاهيم والمبادئ المادية التى تقوم عليها النظرية الأصلية فى الاشتراكية والتى تعتبر مصادمة للتراث المحلى .

المهم أنه ترتب على استخدام هذا النوع من « الاشتراكية » تعايش شكلى بين بعض ما تتضمنه من إجراءات وبين التراث .

وهكذا أبرز العمل « اشتراكيات مؤمنة » ترفع راية العقائد والتقاليد المحلية . فى الوقت الذى تفرض فيه سيادة قطاع عام مستفحل . . وتخطيط مركز ، وتحديد للثروة .

هذه الإجراءات الأخيرة وغيرها من الإجراءات التى تستهدف تكوين رأس المال ، وتحقيق العدالة التوزيعية ليست وقفاً على الاشتراكية — كما أسلفت — بل عرفها الفكر الاقتصادى والسياسى فى صور أخرى كما عرفها التطبيق الاقتصادى والسياسى تحت أسماء أخرى .

ويكفى للتوكيد أن فكرة سيطرة الدولة على قطاع اقتصادى ضخم، عرفها الفكر الإغريقى القديم منذ أفلاطون وأرسطو، كما وجدت تطبيقات عديدة على مر العصور. منذ روما القديمة، وعهد الثورة الصناعية إلى الحرب العالمية الثانية . .

وفكرة التخطيط، أى تجميع الموارد المتاحة وتوجيهها إلى أفضل استعمالاتها فى سبيل مضاعفة الدخل القومى، هذه الفكرة قديمة فى مبادئها الأصلية وإن كانت قد تطورت وانتشرت فى عصرنا الحديث. وقد سبق أن أوردت تطبيقات لها فى الاقتصاد الإسلامى وفى عصر محمد على .

أما فكرة تحديد الثروة فتعتبر إحدى وسائل إدراك العدالة التوزيعية . . وهذه العدالة كانت دائماً وأبداً الغاية والهدف لكل مذهب يرمى إلى تحقيق خير البشرية . . . كل مافى الأمر أن المذاهب تختلف فيما بينها فى الوسائل التى يمكن بها إدراك العدالة التوزيعية على وجهها الأكمل، فمنها ما يعمد أساساً إلى تحديد منابع الثروة . . . بفرض قيود على ملكية وسائل الإنتاج أو الغائها . . ومنها ما يتجه أساساً إلى تحديد ثمار الثروة بتحديد عوائدها من الدخول .

ومنها أخيراً ما يجمع بين الاتجاهين، فيذهب إلى تحديد منابع الثروة . وإلى تحديد ثمارها بنسب تختلف أبعادها من مذهب إلى آخر .

١٣ – سؤال : هل يمكنكم بعد هذا التحليل أن تحددوا لنا الطرق البديلة للتنمية ؟

جواب : كما سبق وأن بينت هناك نماذج عديدة للتنمية ، فإذا أعمل الإنسان عقله وبحث واقعه ونبش تراثه . . تراءت أمامه ممكنات تنمية عديدة .

وفى هذه المنطقة من العالم ، وعلى ضوء واقعنا وتراثنا ، وما مر بنا من تجارب فى التاريخ المعاصر يمكن القول بأن أفضل ممكنات التنمية الاقتصادية والاجتماعية هى تلك التى تقوم على نظرية التوازن والتكافؤ بين الخاص والعام . بين الفرد والدولة فى إطار غاية سامية ، وهى رفاهية الفرد والمجتمع ، المادية منها والمعنوية .

١٤ - سؤال : من المعلوم أنه لا يمكن إجراء أى تنمية اقتصادية بغير عقيدة أو فلسفة ترتكز عليها ، فما هى عقيدتكم وما هى فلسفتكم إذن .

جواب : ركيزتنا العقائدية هى المبادئ والقيم التى جاءت بها الأديان السماوية ، أما الفكرة الفلسفية التى تستند إليها فمستمدة من الواقع . . . .

إن الحياة الواقعية . . فى سريانها وحركتها لا تحتمل لوناً واحداً من ألوان الاستغلال الاقتصادى . . بل تتطلب ألواناً متعددة متنوعة تستجيب لطبيعة القطاعات والفروع الإنتاجية فى تعددها وتنوعها ، ولذلك كان لزاماً علينا أن نسلم بأن فرض شكل واحد من أشكال الاستغلال على مجموع الأنشطة الاقتصادية المختلفة أو غالبيتها لابد وأن يعود بالضرر على مستقبل التنمية الشاملة ، فامتداد القطاع العام أو القطاع الخاص على هذه الصورة لا يؤدى فى كل الأحوال إلى دفع معدلات النمو

الإنتاجى إلى المستوى الأمثل . . . إذ لابد من إجراء توفيق أو تأليف بين القطاعين داخل إطار النظام الاقتصادى الواحد .

١٥ – سؤال : وكيف يتصور القيام بعملية التوفيق هذه ؟

جواب : إلى الذين يستهويهم تدويل الاقتصاد بصورة شاملة بالدعوة إلى تأميم كل الأنشطة الاقتصادية أو معظمها . . وإلى الذين تجتذبهم الفوضى الاقتصادية الشاملة بإطلاق الحرية الكاملة للقطاع الخاص . . إلى هؤلاء وأولئك أقول . . إن النظرة الفاحصة المدققة للواقع الاقتصادى لتؤكد ارتفاع كل تناقض جوهرى بين القطاع العام والقطاع الخاص ، وذلك على خلاف ما قد يبدو فى الظاهر . . . فالقطاع العام والقطاع الخاص ليسا سوى وجهين مختلفين لحقيقة واحدة تتمثل فى الطاقات الكامنة للاقتصاد الوطنى . . . فكلاهما مرتبط بالآخر . . ولا غنى لأحدهما عن الآخر وإسهام كل منهما جنبًا إلى جنب فى عملية التنمية أمر لازم لضمان نجاحها والقول باستبعاد أحدهما مؤداه تعطيل طاقات بشرية كامنة تتمثل فى مقدرة القطاع المستبعد .

وعلى ذلك . . . لابد من استبعاد نماذج التنمية المتطرفة التى تقوم أساسًا على أحد القطاعين دون الآخر ، وإرساء دعائم نموذج جديد يعتمد على التنسيق بين حق الفرد فى ممارسة الحرية الاقتصادية .وحق الجماعة فى تنظيم هذه الحرية . ويقوم هذا النموذج على معيار فنى يكفل تحقيق التوازن بين القطاعين – من حيث الحجم والطاقة – روعى فى صياغته المقتضيات الاقتصادية والاجتماعية والحضارية لكل دولة

نامية من دول العالم العربى .

١٦ - سؤال : ولكن كيف يمكن توجيه الاقتصاد فى ظل هذا النموذج الإنمائى .

جواب : طبيعى أن القيادة الاقتصادية لابد وأن تكون فى إطار خطة عامة تراعى فى صياغتها . . الاختيارات الأساسية والقدرات المادية والمعنوية الكائنة حتى تسمح بتوفير المرونة التى تستلزمها عمليات التنمية .

١٧ - سؤال : وما الغاية أو الهدف الذى يرمى هذا النموذج إلى تحقيقه ؟

جواب : الغاية من هذا النموذج الإنمائى كما أسلفت ، هو تحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية الشاملة . . بما يحقق رفاهية الفرد وسمو المجموع .

طبيعى أن إدراك مثل هذا الهدف يستلزم كفالة معدل تنمية اقتصادية واجتماعية مرتفع يسمح من بعد بإجراء عدالة توزيعية كاملة . . غير أن العدالة التوزيعية التى ننشدها هى تلك التى كفلتها كل الأديان . . . وهى لاتتحقق فقط بتوزيع ما هو كائن من ثروات ، ولكنها تستهدف أيضاً وقبل كل شيء توزيع ماسوف يكون ، أى إنها ترمى إلى تحقيق عدالة توزيعية تصاعدية تتكيف بظروف الإنتاج وترتبط بضرورة تصعيده بصورة دائمة مع إعادة توزيع ثماره فى كل مرحلة من مراحل نموه .

١٨ – سؤال : ولكن كيف يمكن تحقيق العدالة بغير تمليك وسائل الإنتاج للمجتمع . . هل من الممكن أن نتصور مساواة بين أعضاء المجتمع الواحد إذا كان بعضهم يملك وسائل الإنتاج والبعض الآخر محروماً منها ؟

جواب : إن أخطر عيوب الماركسية يكمن في عدم تصورها إمكانية تحقيق العدالة والمساواة عن غير الطريق الذى رسمته وتنبأت للبشرية بحتمية إدراكه ، ونحن نرى إمكانية تحقيق العدالة والمساواة من منطلق آخر غير المنطلق الماركسى « فاشتراكية التوزيع » يمكن أن تقوم من الوجهة العملية دون « اشتراكية الإنتاج » ولا تلازم بين « الاشتراكيتين » سوى فى النظرة الماركسية .

وفى رأينا أن عدالة توزيع ثمار الإنتاج شىء وعدالة توزيع وسائل الإنتاج شىء آخر ووجود الدولة وسهرها على مصالح المجتمع هى الضمان لهذا الفصل بين وسائل الإنتاج وثمار الإنتاج ، إذ يمكنها أن تكفل عدالة توزيع هذه الثمار بالعديد من الإجراءات والقوانين (كالضرائب التصاعدية مثلاً) مع تركها لمعظم وسائل الإنتاج بين أيدى الأفراد .

ونقول معظم وسائل الإنتاج . . لأن هناك من وسائل الإنتاج ما له أهميته وخطره بالنسبة للمجتمع . . . وهذا النوع من وسائل الإنتاج يجب أن يبقى دائماً بين يدى الدولة كما هو الشأن فى قطاع إنتاج الطاقة والصناعة الثقيلة والصناعات المنجمية والمواصلات إلخ .

١٩ – سؤال : إن معنى ذلك أنكم تقرون اللامساواة وتباركونها

لأن هذه الصورة التى تقترحونها لابد وأن تؤدى إلى التفاوت بين أعضاء المجتمع الواحد بينما النظرة الماركسية ترفض هذا التفاوت عندما تجرد الأفراد من وسائل الإنتاج وتجعلها ملكاً خالصاً للمجتمع .

جواب : يبدوأن محور الخلاف بيننا يكمن فى تحديد معنى المساواة !

ما المساواة التى تستهدفون وماهى أبعادها ومراميها ؟

إن النظرة الماركسية تخلط فى واقعها بين نوعين من التفاوت بين أعضاء المجتمع البشرى الأول وهو الذى يأتى نتيجة ظروف اجتماعية ظالمة تؤدى إلى تمايز فئة على فئة بالمال والجاه والسلطان . والثانى يأتى نتيجة ظروف طبيعية تؤدى إلى تفاوت أعضاء المجتمع الواحد فى القدرات الذهنية والجسدية . .

والنوع الأول ممقوت ومرفوض ، وما نزول الرسالات السماوية وقيام الثورات الإصلاحية إلا للقضاء عليه ، وتطهير المجتمعات البشرية من أدرانه .

أما النوع الثانى . . فلا سبيل إلى إصلاحه بالمساواة الحسابية بين الأفراد . . فهذه المساواة غير ممكنة . . إذ من غير المقبول أن نساوى بين الخامل والنشيط . . وبين الذكى والغبى . . . بين الموهوب والخالى من المواهب . . . والمجتمع الذى يجرى بين أعضائه هذا النوع من المساواة مجتمع محكوم عليه بالإعدام . . . ومقضى عليه بالموت . . .

إنما كل ما يمكن إجراؤه من علاج لهذا التفاوت الطبيعى بين

أعضاء المجتمع الواحد هو كفالة المساواة للجميع فى الحقوق . . وكفالة المساواة للجميع فى الواجبات . . . وضمان حد أدنى من المعيشة لكل ضعيف . . أو عاجز .

وفيما عدا هذه الكفالات والضمانات يبقى كل فرد حراً فى سعيه ودأبه لتحسين معيشته والارتقاء بشأنه وله أن يستخدم فى هذا السعى كل قدراته الخلاقة . . وكل طاقاته المبدعة طالما أن نشاطه لا يمس حقوق الجماعة . . ولا يخل بموازين العدل فيها .

أما تمليك وسائل الإنتاج للدولة فيعنى فى بساطة السماح لها بتركيز مقاليد السلطة الاقتصادية بين يديها إلى جانب السلطة السياسية . . وهذا الجمع بين السلطتين هو أخطر ما يواجه حرية الإنسان فى النظم الاشتراكية . لأنه يؤدى فى النهاية إلى لامساواة من نوع آخر وهى اللامساواة فى توزيع السلطات بين من يملكون كل سلطة (أعضاء الحزب الواحد) ومن لا يملكون أى سلطة (بقية أفراد الشعب) ! !

فهرس

الصفحة

القسم الأول – النظرية :

الحتميون ١٤
الإمام والأتباع ٢٣
الاشتراكية العلمية . . والاشتراكية الغيبية . . . ٢٩
الأصل والصورة ٣٤
الإنسان مادة ٤٠
المادية والصراع ٤٩
التحتى والفوقى ٥٣
التسيير والتخيير ٦٠
الصفوة والطبقة ٦٤
الدنيا والآخرة ٧١

القسم الثانى – الجهاز :

تقدميون إلى أين ؟ ٨٣
ويل للمرتدين ٩١
حرية من ؟ ٩٧

الصفحة

الماركسية والاستغلال ١٠٢
الدعاية فن ١١٢
يحيا الوفد ١٢٢
الملصقات ١٣١
الدين لله والشيوعية للجميع ! ١٣٧

القسم الثالث — التجربة :

الأقوال والأعمال ١٥٢
النبوءة والواقع ١٦١
تجربة للمبصرين ١٦٩
استجواب تقدمي ١٨٨

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٣٤٠
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٢٨٦ - ٩

١/٧٦/١٤٧ مطابع دار المعارف—١٩٧٦

هذا الكتاب

يقول المؤلف فى تقديمه لهذا الكتاب :

رائدنا فى هذا البحث . . اطلاع القارئ العربي على الوجه الآخر للماركسية . . ذلك الوجه الذى زينته الدعاية . . وزوقته الشعارات . . فبدا جميلاً أخاذاً . . يشد الناظرين . . وسبيلنا إلى اكتشافه لن يكون « بالأدلة الغيبية » التى ينكرها المراكسة ويصفون أصحابها بالجهل والشعوذة . . ولكن بالمنطق العقلى . . والتجربة الملموسة . وهى نفس الأدوات التى استخدمها ماركس لتشييد نظريته واستخلاص نبوءته عن مآل المستقبل . وهى أيضاً نفس الأدوات التى اعتمدها أتباعه بوصفها أصل منهجهم « العلمى » الذى لا يعترف إلا بسلطان العقل ولا يقر إلا التجربة الملموسة . .

محمود عوض

شخصيات

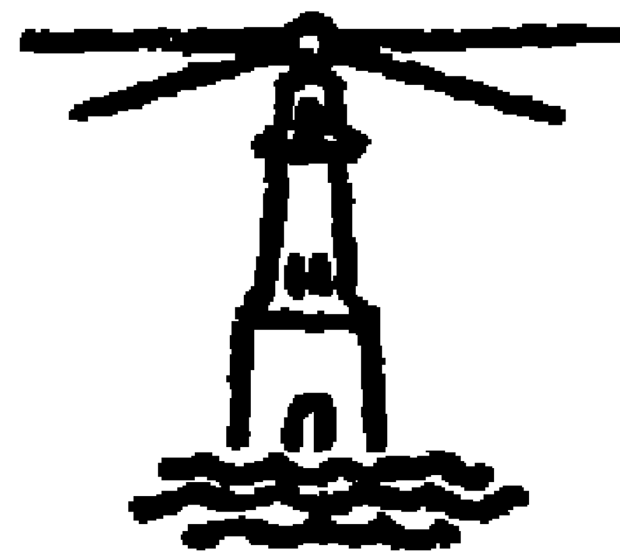
اقرأ





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير . أنيس منصور



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

محمود عوض

شخصيات

اقرأ ٤١٢

دار المعارف بمصر

(اقرأ ٤١٢)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . م . ع

إهـــــداء

إلى القلم الذى أحببته

ودفعت ثمنه مبكراً !

محمود

مقدمة

حدث هذا منذ سنوات . .

استدعانى إحسان عبد القدوس ، رئيس التحرير الذى أعمل معه فى جريدة « أخبار اليوم » . .

وقال لى : ممكن تفكر فى موضوع تكتب عنه فى الصفحة الأخيرة هذا الأسبوع ؟!

سألته مندهشاً : أى صفحة أخيرة ؟

قال إحسان : الصفحة الأخيرة من « أخبار اليوم » !

قلت محاولا تذكيره : إن كاتبها الثابت هو أنيس منصور .

رد إحسان : أعرف ذلك . . ولكننى أريدك أن تكتبها هذا الأسبوع . .

قلت : لماذا ؟

رد إحسان : لأن أنيس اختفى ، ولا أدرى أين هو الآن . . ولا متى سيرسل مقاله الأسبوعى . .

قلت له : صحيح أن اليوم هو موعد تسليم مقالات الصفحات الثابتة من الجريدة . . ولكن أنيس دقيق فى مواعيده كساعة سويسرية . . وربما نستطيع انتظار مقال أنيس حتى صباح الجمعة . .

فقد إحسان أعصابه لأول مرة منذ عشر دقائق . . ورد فى عصبية :

٨

أنا هنا رئيس عمل ، ولست زعيم قبيلة ! أريد مقالا منك للصفحة الأخيرة غداً . . !

عند كلمة « غداً » أحسست أن إحسان وصل إلى النقطة التى يستحيل عندها التفاهم معه . .

بالطبع إحسان رئيس عمل . . ولكنه يتعامل معى بالحب . . وليس بالسلطة !

وبالإضافة إلى ذلك فإن الأفكار لا تأتى للكاتب بقرار من رئيس التحرير . . حتى لو كان هذا الرئيس هو إحسان عبد القدوس ! إن إحسان بالنسبة لنا لم يكن أبداً « رئيساً » للتحرير . كان إحسان هو الصديق والأخ الأكبر والأب وحامل همومنا والمخفف عن آلامنا . كان واحداً ينتمى بحكم شهادة الميلاد إلى جيل آخر . . ولكن بحكم المشاعر ينتمى إلى جيلنا . . مضروب مثلنا ، متواضع رغم أنفه ، غنى بالأمل كأى شاب ، فقير فى السلطة كأى كفاءة ، مهزوم كأى فنان . متقوقع على نفسه كأى موهبة . إنها مصر فى سنة ١٩٦٨ ، وإحسان الذى يستطيع أن يحرك جبلا . . برقته ، وليس بعضلاته !

لقد خرجت من مكتب إحسان مباشرة إلى منزل أم كلثوم !

وفى اليوم التالى عدت لإحسان بمقال عن أم كلثوم ، لكى يرسله إلى المطبعة فوراً ، وينشر فى العدد الذى صدر بعد يومين من أخبار اليوم !

فى الأسبوع التالى تكررت نفس القصة ، ولكننى فى هذه المرة كنت

أكثر تصميماً على مقاومة رئيس التحرير .

إننى قلت لإحسان : أنت تفهم أن مقالات الصفحة الأخيرة من أخبار اليوم كانت دائماً محجوزة للمخضرمين من الكتاب . إننى أشكرك على كل ثقتك فى . . وأرجوك فى نفس الوقت أن تعفينى من كتابتها . . على الأقل لأننى أنا الآخر أريد أن أستمتع بمقال لأنيس منصور ، وأنيس من قلائل كبار الكتاب . الذى يجرى القارئ وراءهم بحب وشوق ومتعة .

رد إحسان ضاحكاً . خير .

بعد قليل خرجت منه كلمات أشبه بالتحية ولكنها أقرب إلى قرار الاتهام : اسمع . . أنا أصبحت رئيساً لتحرير مجلة روز اليوسف وعمرى ٢٥ سنة . . يظهر أنكم فى هذه الأيام جيل مدلل .

مدلل ؟ معقول يا إحسان ؟

فى اليوم التالى عدت له بمقال عن طه حسين . — وللمرة الثانية — نشره إحسان فى الصفحة الأخيرة .

ثم . . ظهر أنيس منصور ، بعد اختفائه فى الإسكندرية لمدة أسبوعين . فى هذه المرة كنت أول من نقل الخبر إلى إحسان . . ثم استدرت خارجاً من مكتبه .

نادانى إحسان متسائلا : إيه رأيك تكتب صفحة عن الشيخ الباقورى ؟

قلت : أى صفحة ؟

رد مبتسماً : أنت تكتب . . وأنا أنشر !

قلت : ما الذى تريدنى أن أكتبه عن الباقورى ؟

تساءل إحسان فى عصبية : من الذى يكتب ، أنا . . أم أنت ؟

كانت عصبية إحسان هى دائماً مثل جرس المدرسة .. انتهت الحصة . نتكلم فى موضوع آخر !

غلب إيه ده يا ربى ؟ ! هم رؤساء التحرير مالهم ؟ ألم يسمعوا أبداً عن اختراع . . اسمه الديموقراطية ؟ !

إننى خرجت من مكتب إحسان غير متحمس ، لا للكتابة ، ولا للباقورى . وظل هذا هو حالى إلى أن حان موعد تقديم المقال .

وبينما أنا فى حالة اختفاء كاملة عن إحسان وعن أخبار اليوم . . عثرعلى مصور زميل فى الجريدة وصاح متحمساً بمجرد أن رآنى . : انت فين؟ الأستاذ إحسان كلفنى بأن أذهب معك إلى الشيخ الباقورى لكى أصوره بمناسبة المقال الذى ستكتبه هذا الأسبوع !

قلت له : ولكننى لم أكتب أى شىء . .

رد المصور مذعوراً : لا تكشفنا مع إحسان وحياة أبوك . . لقد علمت منهم فى الجريدة أنهم حجزوا صفحة خالية تماماً من الإعلانات . . لنشر هذا الموضوع . . صفحة غير الأخيرة

هنا سألته بحماس : تقدر تعمل صورة كبيرة ؟ على خمسة أعمدة أو ستة مثلا ؟

رد : يا ريت . .

شرحت للمصور فكرة الصورة ، والمعنى الذى أريده منها ، قبل أن

أفكر حتى فى التحدث تليفونياً مع الشيخ أحمد حسن الباقورى .

وذهبنا إلى الباقورى . ونشرت الصفحة بعنوان « اعتذار إلى الله » !

فى هذا اليوم بدأ إحسان اجتماعه الأسبوعى معنا بسؤال من جانبه : ما رأيكم فى هذه الصفحة الجديدة ؟ أنا قررت أن تكون باباً ثابتاً بعنوان « تحليل شخصيات » . . أو – من باب الاختصار – نسميها « شخصيات » ونظر إلى إحسان ضاحكاً وهو يقول : الصفحة دى . . عهدتك !

. . وبدأت « عهدتى » . .

ويدأت معها مسئوليتى ..

كان إحسان كبيراً فى ثقته ، فناناً فى أفكاره ، رقيقاً فى لهجته . . إنه لا يطلب ، ولكن يقترح . لا يفرض ولكن يثير الحماس . لا يقرر ولكن يوحى . هذا رجل فنان يريد منك أن تسمو وتكتشف !

وبدأت أختار الذين أكتب عنهم . .

كان كل شخص يمثل بالنسبة لى معنى أريد أن أقوله . وبقدر إحساسى بالمعنى . . كان يأتى انفعالى بالشخص . بعضهم كان الانفعال يبدأ معه بالاختلاف . . وبعضهم بالموافقة التى تتحول بعد الفحص إلى اختلاف !

وربما يجد القارئ فى هذا الكتاب سطوراً بين السطور . . وربما يجد معانى مشروخة . . وربما يجد أيضاً كلمات ناقصة . إنها مصر التى نعيشها ، ولا نقرأ عنها . إنها الكلمات التى يمنعها فلتر الرقابة والسلطة من الظهور إلى النور . إنها مصر ١٩٦٨ .

إنها أيضاً صدمة التوقعات لكل شاب يجد نفسه فجأة وسط غابة نسميها السلطة !

وفى هذه الشخصيات أيضاً عرفت دروساً كثيرة . . وابتسامات أحياناً !

وعندما أقرأ هذه الصفحات الآن من جديد . . فإننى فى الواقع أقرأ حلماً كبيراً ، كنت أحياه فى كل مرة . .

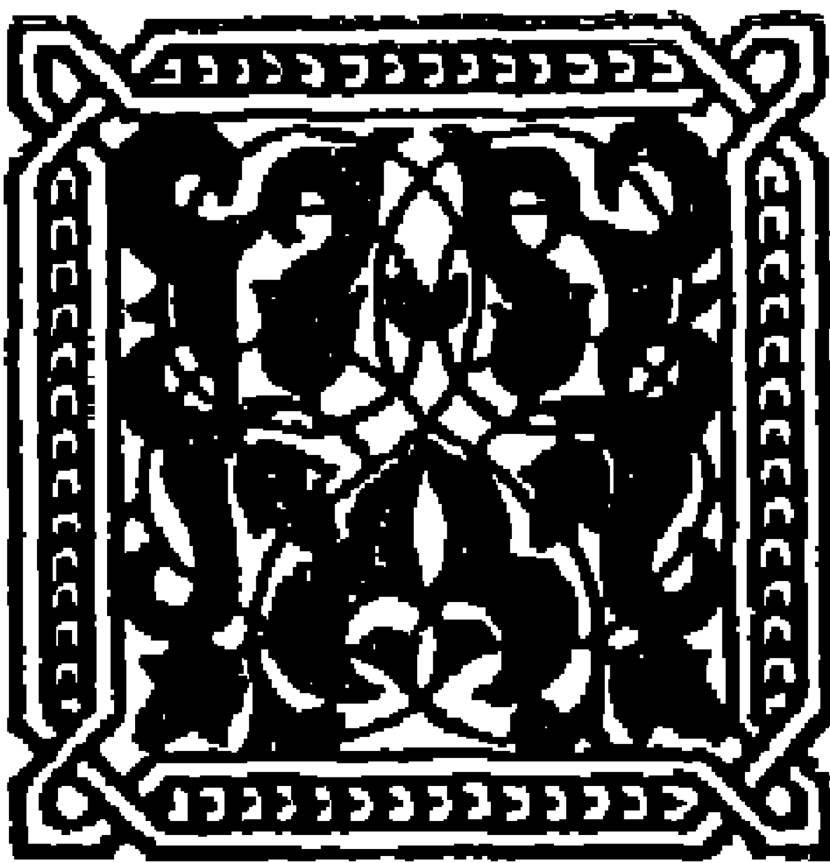
ويا عزيزى القارئ . .

ترفق بما ستقرؤه . .

فهذه الصفحات قطعة من قلبى !

محمود عوض

هذا المشاغب .. طه حسين !



— أخبار اليوم — عدد ٢٥ نوفمبر ١٩٧٢ .

لم أكن أنوى أن أكتب عن طه حسين .

* * *

طلب منى صديق أن أتوسط له عند طه حسين لكى يوافق على أن يسجل للتليفزيون حديثاً أدبياً ومناقشة محدودة .

وافق طه حسين .

* * *

سألت صديقى : كم من الأجر سيصرفه التليفزيون لطه حسين فيما لو تم تسجيل هذا الحديث ؟

بعد عمليــــة جمع وضرب وقسمـــــة وطرح وخصم ، المبلغ هو : ١٨ جنيهاً و ٦٠ مليماً !

بالصدفة ، سألت عما تتقاضاه راقصة مبتدئة عن المدة نفسها . فعلمت أن ما تتقاضاه حضرة الراقصة المبجلة هو ٢٨ جنيهاً .

إننى لم أمتعض ، ولم أبتهج . فقد فهمت الدرس بوضوح : إن هز البطن أهم لمجتمعنا كثيراً — وكثيراً جداً — من هز العقل . قلة عقل .

* * *

حكاية سمعتها من محمد عبد الوهاب لثالث مرة :

« . . . منذ ٣٥ سنة سافرت إلى لبنان مع أمير الشعراء أحمد شوقى .

لقد ارتبطت هناك بالغناء فى عدة حفلات . . كان أحمد شوقى — رحمه الله — يشملنى برعايته كعادته .

« . . وفجأة قرأت فى جريدة « المقطم » التى وصلت من القاهرة خبر وفاة أبى . . هذا الخبر أصابنى بصدمة بالغة قبل ساعات قليلة من غنائى فى حفل مقرر بمدينة (عالية) . .

« .. كان من الطبيعى أن أعتذر عن عدم الغناء ، بعد أن أصابنى انهيار نفسى ، وفى ذلك المساء أخذنى أحمد شوقى إلى الدكتور طه حسين الذى كان يصطاف بالمدينة نفسها ، وروى له ما حدث . . .

« . . فجأة قال لى طه حسين : لماذا لا تغنى ؟ . ولماذا تعتذر عن حفلتك ؟ . هل الغناء فرح فقط ؟. إن الغناء تعبير وقدرة على التعبير . إن الفن يستطيع أن يعبر عن الفرح ، ويعبر عن الحزن أيضاً . فى الفن سعادة . وفيه ألم . وبدلا من أن تعبر عن ألم بالدموع .. عبر عنه بفنك »

* * *

سألت طه حسين عن هذه القصة فقال : « نعم ، نعم ، نعم . . فى تلك الليلة غنى عبد الوهاب . . فى تلك الليلة لم تكن دموع عبد الوهاب هى فقط التى تحس بفداحة المصاب ، كانت دموع الجمهور هى أيضاً تساهم فى العزاء » . .

* * *

كما هى العادة ، كان حديثى مع طه حسين هو مجرد دردشة . حينما يثرثر الإنسان فإنه يتناول فى ثرثرته موضوعات وأسماء لا رابط بينهما .

الأسماء التى تناولها طه حسين كثيرة . .

عن توفيق الحكيم مثلا يقول : « . . إن أول كتاب له آثار اهتمامى هو مسرحية أهل الكهف . . لقد قمت بتقديمه للناس والكتابة عنه وتشجيعه لأننى رأيت فيه مستقبلا عظيماً بالنسبة للكتابة المسرحية . بعدها بفترة قصيرة كتب هو شيئاً فى الفلسفة ـ كتاباً على ما أتذكر ـ فكتبت أنا أنصحه بأن يتعمق فى الفلسفة بأكثر مما فعل ، وإنه يكون أكثر توفيقاً عندما يكتب فى المسرح . كان هذا رأيى الذى لم يتقبله توفيق الحكيم بصدر رحب » .

قلت : ولكنى ، أعتقد أن هذا الخلاف فى الرأى لم يستمر ، لأنكما اشتركتما بعد ذلك فى تأليف كتاب واحد . .

ـ لا . . لم يستمر ، لأننا تكلفنا نسيان أسبابه . .

ـ والآن ؟

ـ الآن لم يتغير رأيى كثيراً فى توفيق الحكيم ، وإن كان قد زاد عليه شىء من العتاب أحتفظ به نحوه .

ـ ونجيب محفوظ ؟ .

ـ نجيب لا يعجبنى فى الفترة الأخيرة ، أو ربما لا أتابعه أنا بدرجة كافية . على أى حال ، أنا أعجبتنى جداً قصصه المبكرة .

ـ وإحسان عبد القدوس ؟ .

ـ عتابى على إحسان أنه لم يرسل لى ولا واحد من كتبه ! ! .

ـ وهل تحب أن تقرأها ؟ .

ــ طبعاً ، طبعاً . . على كل ، أنا رأيي فى إحسان أنه كويس .

* * *

إن طه حسين فى حديثه ، يعطينى دائماً انطباعاً غير عادى ، إننى أحس أنه لم يكن أبداً مجرد شخص يريد أن يكون كاتباً ، أو أديباً ، أو مفكراً . . هذا رجل أراد أن يعيش . . يعيش عصره ، ومجتمعه ، وتحدياته . يعيش . . بكل الحب الطبيعى للحياة ، والحرية ، والفرصة ، والتجربة ، والتضحية . . التضحية التى صنعت الثورة العظيمة فى مصر سنة ١٩١٩ ، ثورة أعطت وهماً كبيراً فى بداية هذا القرن ، بأن مصر سوف تتفتح هكذا إلى الأبد ، وسوف تعيش عصرها هكذا إلى الأبد . ثورة سوف تعطينا سياسة وثقافة وعلماً وفناً وأدباً بغير حدود ، وانطلاقاً بغير سلاسل .

نعم ، طه حسين أراد فى بدايته أن ينزع السلاسل من عقل مصر . . من عقل الجيل الذى عاصره وخرج عليه وتمرد ضده . إنه فى تمرده كان جاداً ، وفى حديثه كان نموذجاً عصرياً للأديب والفنان الذى جاء به القرن العشرون . أديب لا يعتمد على الأفيون ، مثل كولريدج ، ولا على الحشيش . . مثل سيد درويش ، أديب لا يعتمد فى عمله على خمسين ألف فنجان قهوة ، مثل بلزاك ، ولا يعيش فى غرفة مغلقة هرباً من داتنيه . . مثل بروست . أديب يأخذ الأدب بجدية . . وفنان يعطى فنه بغير مخدر . . أو خمر . . أو شذوذ .

نعم ، كان طه حسين قاسياً على نفسه أولاً ، لكى يكون بعد ذلك قاسياً على مجتمعه .

١٨

المنزل :

طلبت المخرج السينمائى يوسف شاهين وطلبنى .

فى التليفون سألته : لماذا زرت طه حسين أمس ؟ .

رد : أبداً . . يعنى . . أصل . .

قلت : بمناسبة تفكيرك فى تحويل كتاب طه حسين « الأيام » . . إلى فيلم سينمائى . . ماذا أعجبك فى القصة ؟ .

رد يوسف شاهين : شرق . أزيك . سيما . سلطان . نوم . النور . حذاء . مكوى . خدامة . عندى . أسود . دوفينير . تدخل . مين ؟ . هائل . إسكندرية . ناس . عمر الشريف . سمك . شجرة . آه . . . هوليود . فوق . جذاب . عين . ثلاثة . ليلة . سعيدة . نصف . . . . .

قلت (مقاطعاً) : يوسف . . أنا أسألك لغير النشر . . فلتكن كلماتك مفهومة . . .

رد يوسف شاهين : آه . . كده ؟ . طيب . . أعجبنى فى « الأيام » قدرة الدكتور طه حسين العظيمة على تحليل الشخصيات نفسياً من الداخل ، ثم تجسيمه لأشياء كثيرة ، بحيث تحس وأنت تقرؤها كأنها مجسمة أمامك . . أعجبنى أيضاً القيمة الإنسانية التى تعبر عنها ذكريات طه حسين فى « الأيام » . . قيم استطاعت الحضارة الحديثة أن « تغلوش » عليها . . بحيث أصبح عقل الإنسان عاجزاً عن استخراج المعانى البسيطة للحياة . . أنا نفسى — وأتمنى — أن أخرج بشىء من هذا فى فيلم سينمائى . .

قلت : من الذى تتصوره لأداء دور طه حسين ؟ .

رد يوسف شاهين : شرق . أزيك . سينما . سلطان . نوم . نور . الخ .. الخ . الخ . .

* * *

« الأيام » :

« .. حادثة واحدة حدث ميله – طه حسين فى صباه المبكر – إلى الاستطلاع ، وملأت قلبه حياء لم يفارقه إلى الآن .. كان جالساً إلى العشاء بين إخوته وأبيه ، وكانت أمه كعادتها تشرف على حفل الطعام .. ترشد الخادم وترشد أخواته اللائى كن يشاركن الخادم فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون . وكان يأكل كما يأكل الناس . ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب !! . ما الذى يحدث لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه ، بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة ؟. وما الذى يمنعه من هذه التجربة ؟. لا شىء وإذن .. فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه وغمسها فى الطبق المشترك، ثم رفعها إلى فمه .. فأما إخوته فأغرقوا فى الضحك . وأما أمه فأجهشت بالبكاء ، وأما أبوه فقال فى صوت هادئ حزين : ما هكذا تؤخذ اللقمة يابنى .. وأما هو .. فلم يعرف كيف قضى ليلته » ..

لا أدرى لماذا أعود دائماً لقراءة هذه الفقرة من كتاب « الأيام » ، ولا لماذا وضعت خطوطاً تحتها .. هل لبساطتها ؟ . لقوتها فى التعبير ؟ لبراعة الطفل فيها ؟ . لصراع خياله المبكر فيها مع قوة التقاليد ؟ . أو لأنها تجربة

تبشر بالروح التى خاض بها طه حسين حياته بعد ذلك ؟ .

لقد انتقلت هذه الرغبة فى التجربة بعد ذلك من يد طه حسين إلى عقله .. لقد حرص طوال حياته الفكرية بعد ذلك على أن يقول للناس إنه لا شىء مقدس .. لا شىء يعلو على العلم والفهم والتجربة . لا شىء يتحصن ضد المناقشة والتأمل وإعادة النظر . لا شىء . ولا أحد .

* * *

يتنفس الإنسان كثيراً ، ثم فجأة يخطر بباله سؤال : لماذا يتنفس ؟ .

أيضاً : يقرأ الإنسان لطه حسين كثيراً ، ثم فجأة يسأل نفسه : لماذا طه حسين بالذات ؟ . لماذا نقرأ له الفكرة نفسها مرة وعشرين مرة .. وتظل فى كل مرة لها المتعة نفسها .. والتأثير نفسه ؟ .

تفسير بسيط .. إن ما يدفعنى إلى طه حسين شىء أكبر من كل أفكاره ، وكل كتبه . يدفعنى إليه الوفاء . الوفاء لمعنى ، لقيمة ، لتاريخ ، لمبدأ . . لرجل صاحب مبدأ ، لمحارب . طه حسين محارب . لقد عاش دائماً كمحارب . كم سنة عاشها .. بغير ما يكفيه من النقود ؛ من الطعام ، من الملابس ، من المأوى ، من الأمن ؟ . كم معركة خاضها وهو مستعد لأن يرهن حياته فى أقرب نقطة بوليس .. مقابل رأى واحد يؤمن به ؟ ! ؛ كم إهانة تلقاها ؟ . كم حرمانا عانى منه ؟ ! . كم تهمة وجهت له ؟ ! .

كافر وزنديق وملحد .. خارج عن الصف والطاعة والقانون والإسلام محرض على الخلاعة والإباحة والفسق والفجور ..

هذه مجرد عينة من القذائف التى أصابت طه حسين . قذائف لم

تصبه فقط فى سمعته ، وإنما امتدت شظاياها إلى حياته ومرتبه ووظيفته .. لقد نقلوه من منصبه الجامعى مرة ، وفصلوه من الخدمة نهائياً مرة . إن قرار الفصل صدر ضده من مجلس الوزراء مجتمعاً . هكذا ــ دفعة واحدة ــ تحول طه حسين شخصياً إلى مشكلة قومية فى سنة ١٩٣٤ . هكذا قضت عليه السياسة بأن يظل سنوات وسنوات موضوعاً فى القائمة السوداء التى ينبذها المجتمع وتحاربها الحكومة .

ولقد كان هذا كله بسبب موقف سياسى واحد لطه حسين : كتاب أصدره ، وقال فيه رأيه « فى الشعر الجاهلى » .. كتاب ظل محل جدل وأخذ ورد .. إلى أن تراكمت بعده مواقف طه حسين ضد السياسة ، فصدرت ضده العقوبة فى النهاية ، ليس باعتباره مفكراً .. ولكن كمتمرد .. كمشاغب .

* * *

المشاغب :

أفكار تراودنى عن تاريخ طه حسين . أفكار تنتهى إلى نتيجة واحدة ، إنه كان مشاغباً ، كان فى رأى السياسة والسياسيين مشاغباً ، رجل لا يريد أن يغلق فمه .. لا يريد أن يغلق عقله ويصفق مع الذين يصفقون ..

هذه الكلمات مثلا :

« . . . كانت رائعة بارعة خطبة العرش التى ألقاها رئيس الوزراء فى البرلمان ، صورت لنا الحياة المصرية كأحسن ما تكون حياة الأمم : حكومة

جادة لا تنام ولا تنيم ، وشعب عامل لا يريح ولا يستريح ! . وقد رضيت الحكومة عن نفسها فأثنت على نفسها ، ورضى البرلمان عن الحكومة فصفق للحكومة ، وسمع الشعب للحكومة تقول والبرلمان يصفق ، فهز الأكتاف وهز الرءوس ، وترك الخلق للخالق .. وأقبل المترفون على ترفهم ينعمون بغير حساب ، وأقبل المحرومون على حرمانهم يألمون بغير حساب »..

كلمات كتبها طه حسين سنة ١٩٤٧ بعنوان « جوع وأحاديث » .

كلمات من نار ، وسخرية من مرارة .

قبلها بـ ١٤ سنة كان موقف طه حسين — عميد كلية الآداب — مع وزير المعارف .

سأله الوزير : نريد أن تمنح كلية الآداب — وأنت عميد لها — الدكتوراه الفخرية لعدد من أنصارها السياسيين .. ممكن ؟ .

ويومها رد طه حسين : يا باشا .. عميد كلية الآداب ليس عمدة .. يتلقى التعليمات من مأمور المركز فينفذها . . هذه جامعة ، وليست عزبة ! ! .

كلمات قالها طه حسين .. واستعاذ بالله .. استعاذة لم تعفه من الفصل والتشرد والبقاء فى منزله يستدين نفقات حياته من أخيه ، يستدين بكبرياء .

* * *

نحن جيل مشحون بالكهرباء !

فى الطريق إلى غرفة نوم طه حسين . كنت أحس أننا ـ نحن الجيل الجديد ـ جيل مشحون بالكبرياء . من اليمين واليسار يحاولون أن يسحبوا منا الكبرياء . هم المطرقة ، ونحن السنداد . نحن الأغنية ، والموسيقى والكلمة وغداً . نحن البلد . نحن مصر . تراب مصر . وقودها لحظة الأزمة ، وترابها فى فترة الراحة . نحن جيل محكوم عليه بالراحة ، راحة من الحياة .. وإعفاء من المسئولية .

مع ذلك فنحن جزء من الحياة ، إن لم يكن اليوم فغداً ، أو حتى فى القرن القادم : يوم نستبدل بالغرور الأمانة ، وبالوهم الحقيقة ، وبالكذب الصدق ، وبالراحة المسئولية .

هل ننجح فى ذلك ؟ .

أكيد .. إذا لم نعط لمجتمعنا السمو .. فعلى الأقل نخفف عنه الألم .. إذا لم نحقق له الأمل .. فعلى الأقل نصحح الوسيلة ، إذا لم نعطه الحقيقة .. فإذن : الاقتناع .. إذا لم نشع فيه الأمانة .. فإذن : التفكير فيها .. إذا عجزنا عن الصراحة .. فعلى الأقل نقضى على النفاق .. إذا لم نعط لمجتمعنا العاطفة ، والقلب ، والإحساس . . فعلى الأقل نعطيه عقــلا أفضل ..

إلى أن يحدث هذا فلا بأس من أن نعترف بما نحن عليه .. لا بأس من أن نقف فى موقف الدفاع . نعم .. نعم .. نحن جيل التليفزيون والجاز

والشعر الطويل والكُرة والفوضى .. نحن جيل بليغ حمدى وعفاف راضى وعادل إمام والشرق الأوسط ونجلاء فتحى وبابويا . نحن أيضاً جيل الأتوبيسات المزدحمة والتليفونات الخرساء والصوت المختنق والنور المتقطع والنفس المتقطع . . نعم .. نعم . ليكن كل هذا ، نحن كل هذا . نحن فوق هذا . فوق النفاق والكذب والانتهازية وتقتلنى أو أقتلك . نحن الصراحة نحن الصدق .

و ... كفاية قرف بقى !! ..

* * *

طه حسين يتكلم .. يقول من جديد ويتكلم :

« .. كنا على أيامنا نهتم بالاختيار والتوجيه والتصحيح ، اختيار المواهب وتوجيه الأجيال الجديدة وتصحيح الأخطاء المتراكمة .. الآن لا أرى شيئاً من هذا . أرى إهمالا — فوق إهمال — للجيل الجديد فى كل شىء ، لا أريد أن أقول إننى أرى هجوماً ضد الجيل الجديد .. أنا شخصياً متفائل عموماً .. متفائل ، خصوصاً بكل جيل جديد » .

هذا طه حسين يتكلم .

عندما يتكلم فإننى أحس أن كلماته هى حديث رجل يفرغ جيوبه أمامى بغير توقف ، إنه لا يتحدث بكلمات ، يتحدث بأشياء ، بحقائق بأفعال ، بتجارب . إنه لا يحتاج إلى صفات ، يحتاج فقط إلى أفعال وأسماء ومواقف .. نعم : مواقف ، مواقف ، مواقف .

إنه أمامى يشبه سمكة شفافة فى حوض شفاف ، إننى أستطيع أن أرى

عظامه ، رئتيه ، قلبه ، كليتيه، أمعاءه .. أستطيع أن أرى الكرات الحمراء فى دمه تتحرك .. أستطيع أن أرى فى داخله نجوماً تتهاوى وكواكب تدور . إن الصمت — حتى الصمت — الذى يخلقه فى حديثه أحياناً يمكن أن يصيبنى بالصمم ..

إن الصوت عميق ، ولكن مؤثر . الإيقاع بطىء لكن محسوب . الابتسامة قليلة ، ولكن رنانة . الهدوء واضح ، ولكن مشحون بالانفعال . إن لهجته وتعبيراته جادة ، وساخرة . إن فى ذكرياته غالباً تكشيرة فى الطريق إلى وجهه ، قبل أن تغير رأيها عند شفتيه .. إن ابتسامته هى علاج بأكثر مما هى تعبير . علاج للمرارة فى جزء كبير من ذكرياته — من ذكريات يختارها طه حسين ويرتبها فى ذاكرة مدهشة غالباً ، ولكنها أصبحت تخونه أحياناً .

من الذاكرة يقول طه حسين :

« .. إننى أخطأت عندما كتبت نقداً مرة لكتاب « النظرات » الذى أصدره المنفلوطى ، كنت غير موضوعى فى نقدى ، لأننى ركزت على اصطياد الأخطاء اللغوية له ، بدل أن أركز على نقد موضوع الكتاب . . هذا شىء مرت عليه أكثر من خمسين سنة ، ولكننى أستحى حتى الآن من تذكره . .

« .. أخطأت أيضاً خطأ بالغاً عندما قررت إلغاء تدريس اللغات الأجنبية فى التعليم الابتدائى وأنا وزير المعارف .. كنت أريد أن أقوى معرفة التلاميذ باللغة العربية ، ووقتها تصورت أن تدريس الإنجليزية يؤثر

على استيعابهم للإنجليزية ، رأى خاطئ وقرار خاطئ ما زال مستمراً . . لا التلميذ استمر يدرس لغة أجنبية ، ولا هو — حتى — أصبح يعرف لغته العربية ! .

« .. طبعاً ، طبعاً ، أنا فكرت أكثر من مرة فى إعادة النظر فى كتابى : مستقبل الثقافة فى مصر .. لقد سجلت فى الكتاب ملاحظاتى على الثقافة فى مصر سنة ١٩٣٦ ، ولو عدت إلى تأليفه اليوم من جديد فسوف أقول : زفت . . مستقبل الثقافة . . زفت » !

* * *

حكاية :

روى لى الدكتور السيد أبو النجا المشرف العام على دار المعارف هذه الحكاية :

« .. كنت مديراً بجريدة المصرى ، يعمل معى صحفى يتأخر فى تقديم مواده . . فتتأخر الجريدة بسببه ، وبعد أن تم إنذاره أكثر من مرة تقرر فصله من العمل ، فوصل الخبر إلى الدكتور طه حسين — وكان الصحفى أحد تلاميذه فى كلية الآداب — فغضب لذلك غضباً شديداً . وعلمت أنا بالأمر . . فاتصلت به تليفونياً . لأعرف سبب غضبه . . ودارت بيننا هذه المناقشة :

— هل صحيح يا دكتور طه أنك غاضب منى ؟

ــ ورد طه حسين : ومن أدراك يا سيدى أننى غاضب ؟ هل هى عقدة الذنب ؟

قلت : أؤكد لك يا دكتور أننى لا أشعر بخطأ ، فضلا عن ذنب . ولكننى أجد من واجبى أن أسترضيك حين تغضب .

ــ يا سيدى أنت مدير ، ومن واجبك أن تحضر وأن تتصرف فى مواعيد محددة . . أما الكاتب فهو يكتب حين يستوحى . . لا حين تريد أنت .

قلت : إنه ــ حين تعاقد معى على أن يعمل صحفياً ــ قد قبل أن يقيد نفسه بمواعيد الجريدة .

قال : لا يا أخى . . إن حرية الكتابة لا يمكن تقييدها بعقود .

قلت : ليكن . . وكنى هذا الصحفى أنه تلميذك لكى يستحق العودة إلى عمله . . إننى كمدير أرى أن الحفاظ على صداقتك للجريدة كسب يزيد كثيراً على خسارتها بإعادة تلميذك .

رد طه حسين : إنك تعتقد أن منطق المكسب والخسارة هو منتهى ما يصل إليه النجاح . وأنا أؤكد لك أن فى الحياة من المثل العليا ما يعلو كثيراً على هذا المنطق .

قلت : هذا درس جديد أضيفه إلى مكسبى . . وانتهى الحديث .

* * *

الإسكندرية :

من وقت لآخر يحلو للإنسان أن يقطع الحبال التي تشده إلى الناس والواقع والظروف . من وقت لآخر يريد الإنسان أن يصبح كبالون اختبار انقطع حبله الذى يشده إلى الأرض فأصبح يتحرك مع الريح بقوة وضعف يميناً ويساراً . . شرقاً وغرباً ؟! .

من وقت لآخر يمر على صديقى الفنان بليغ حمدى . لكى نصبح معاً فى هذه الحالة البالونية الغريبة . . حالة دفعتنا هذه المرة إلى الإسكندرية .. فجأة قررنا أن نذهب وحدنا إلى المدينة التى نحبها : الإسكندرية . ثم فجأة قررنا أن نعود إلى المدينة التى نعيش فيها : القاهرة ..

فى الطريق إلى القاهرة سألنى بليغ حمدى : لماذا التعجل ؟

قلت : لأننى أريد أن أرى طه حسين . . إحساس غامض فى داخلى يدفعنى إلى أن أزوره فى منزله الليلة ! .

قال : ولماذا الليلة ؟ . .

ــ لا أعرف .

بعد لحظات من الصمت سألته : هل قرأت شيئاً لطه حسين ؟ .

ــ طبعاً . . كثير .

ــ ماذا ترى فى أسلوبه ؟ .

رد بليغ حمدى ــ بانفعال وفن وموسيقى : يعجبنى فيه الموسيقى ، يعجبنى الإيقاع ، إننى من أول ثلاثة أسطر أحس أن هذه الكلمات

كلمات طه حسين — ليس لها فقط وقع فى عينى وإنما لها إيقاع فى أذنى ، لها رنين ، لها نغمة ، لها موسيقى تجعلنى أقول على الفور : هذا أسلوب الدكتور طه حسين . .

* * *

الهرم :

— ماله الدكتور طه حسين ؟ .

— إن شاء الله خير . . إنها مجرد وعكة بسيطة ألمت به ظهر اليوم ، كان هنا أعضاء لجنة من مجلس الآداب والفنون ، جاءوا للاجتماع به ، وبعد ساعتين من الاجتماع شعر بآلام حادة فى معدته ، لقد ظل يتكتم الألم ويتحمل إلى أن انتهى الاجتماع بعدها بساعة . . بمجرد انصرافهم طلب أن ننقله إلى السرير ، وطلبنا نحن أن يحضر الطبيب . . نحن فى انتظار الطبيب .

هكذا سمعت الكلمات بطيئة فى بيت طه حسين بالهرم ، سمعتها بالإرهاق نفسه والملابس التى عدت بها حالا من الإسكندرية . . فعلا ، ربما كان هذا هو تفسير شعورى الغريب بأننى لابد أن أذهب لطه حسين الليلة . . خير . إن شاء الله خير .

* * *

الثلاثاء :

« إن شاء الله خير ، جاء الدكتور وقال : خير ، تفضل . . . »

هكذا أخبرنى سليم سكرتير الدكتور طه . لم أتفضل. لقد رأيت الدكتور طه يستمع إلى صوته المفضل والوحيد : أم كلثوم . إننى اطمأننت ، واستدرت خارجاً . فى الطريق إلى الباب تصفحت بعض الكتب التى وصلت حالا مهداة لصاحب المنزل .

إهداء من نجيب محفوظ : « إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين .. رمز إجلال وحب يفخر به الأدب العربى فى جميع العصور ».

إهداء آخر من يوسف السباعى : « إلى أستاذنا الكبير عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين . . مع خالص المودة والتقدير » . .

إلخ .. إلخ ... إلخ ...

* * *

الكويت :

حكاية سمعتها فى الكويت منذ سنتين ، رواها لى الدكتور أحمد زكى المدير الأسبق لجامعة القاهرة ورئيس تحرير مجلة « العربى » :

كان أحمد زكى وكيلا لكلية العلوم وكان العميد إنجليزى الجنسية ، وعندما انتهت مدة العميد الإنجليزى فى سنة ١٩٣٦ ، قام أساتذة الكلية بانتخاب الدكتور أحمد زكى عميداً . وطبقاً للقانون فقد أرسل القرار إلى

وزير المعارف لاعتماده ، وهنا اعترض الوزير على قرار أساتذة الكلية . . لأن أحمد زكى لم يكن من رجال الحكومة . كان رجل علم . . ولم يكن رجل سياسة .

وهنا أثارت المعارضة أزمة فى البرلمان حسمها رئيس الوزارة بقوله : إن القانون يعطينا الحق — كحكومة — فى أن نوافق . . أولا نوافق . . هذا كل شيء .

وبدون علم أحمد زكى ، ذهب طه حسين إلى رئيس الوزراء — متطوعاً — وسأله : عملتم إيه فى المشكلة ؟

رد رئيس الوزراء : مشكلة إيه ؟

قال طه حسين : مشكلة أحمد زكى .

— أحمد زكى . . مين ؟

قال طه حسين : يا أخى . . إن كان رجال السياسة لا يعرفون أقدار أهل العلم والفكر ، فهذه مشكلة رجال السياسة . إن أقدار الناس وقيمتهم لن يحددها فى النهاية أن تعرفهم أنت أو تتجاهلهم .

كلمات قالها طه حسين لرئيس الوزراء . وانصرف غاضباً !

إنه بعد ذلك لم يسكت . ولم يجامل . . لم يشتر ود رئيس الوزراء بالصمت . لم يرض — حتى — أن يقف الأمر عند هذا الحد . لقد ظل يحارب ويحارب . إلى أن أعيدت لأحمد زكى كرامته الضائعة .

وفى الوقت نفسه ، لم يعلم أحمد زكى بحقيقة دور طه حسين إلا بعدها بأربع سنوات . وعندما علم بالأمر . . بكى !

نعم . . حتى وهو يروى لى الحكاية فى منزله بالكويت منذ سنتين . . بكى !

* * *

يتساءل الإنسان أحياناً : ما هى مهمة المفكر ؟

هل المفكر مهمته أن يؤلف كتاباً أو كتابين ، يرفع شعاراً أو شعارين ثم يستدير بعد ذلك إلى حياته هادئ النفس مستريح البال ؟

هل المفكر مهمته أن يصفق للسيف . . طالما هو بعيد عن رأسه ؟

لا . ليس المفكر كذلك . . أبداً .

طه حسين لم يكن كذلك . . أبداً .

لقد أعطانا طه حسين من أفكاره وكتبه الكثير . ومع ذلك فإننا نظلم طه حسين كثيراً لو قسناه فقط . . بكتبه . إننى أحس دائماً أن حجم طه حسين الحقيقى أكبر من كتبه . . أكبر كثيراً . طه حسين ليس كتاباً صدر . . ولا هو شعار تردد . طه حسين فارس . مفكر كالفارس . إن حياته وفكره لم يكونا أبداً شيئين منفصلين . إن حياته تفسر أفكاره . وأفكاره تفسر حياته . لا ازدواج أو انفصال فى الشخصية . لا نفاق . لا شهرة عن طريق النفاق . لا مركز كسبه على جثة غيره ، ولا نقطة سجلها على حساب مبادئه . ربما من أجل هذا أقول : إن حياة طه حسين سوف تكون هى نفسها أحسن وأعظم كتاب يصدر عن طه حسين !

* * *

الأربعاء :

اطمئنان وحديث وخطاب وصل من ابنه مؤنس ، وسؤال منى عن مؤنس .

قلت لطه حسين : هل كنت تسمح لأولادك بالاختلاف معك فى الرأى ؟

رد الرجل واثقاً فخوراً : طبعاً .. فمن الذى قال إن أبناءنا لا بد أن يكونوا على شاكلتنا ؟ . هم شباب ، ونحن شيوخ . . هم عصر .. ونحن عصر . . هم رأى . . ونحن رأى آخر .

بين هذه الكلمات تراوحت مناقشتنا فى بيت الدكتور طه حسين ، بيت يعيش فيه صاحبه كالصينيين القدماء .. حينما كان الفنان أو الفيلسوف يبدأ فى الشعور بالشيخوخة ، فإنه يعيش ويتأمل فى سلام .

.. طه حسين يتأمل فى سلام . إن فى تأمله شيئاً حقيقياً من الطبيعة الصينية . إنه مثل الحكيم فى القصة الصينية القديمة . حكيم سألوه مرة : لماذا لم تحقق أبداً المعجزات التى تنسب لتلميذك ؟ . فأجاب : « إن الله قادر على أن يعمل هذه المعجزات ، ولكنه أيضاً قادر على أن يمتنع عن عملها » . .

. نعم ، طه حسين لم يكن أبداً نشيطاً . . لم يكن يعنيه أن يكون نشيطاً ، كان يعنيه فقط أن يرفض ، أن يعترض . إنه لم يكن متمرداً ، كان ثائراً ، ثائراً ضد الجيل الذى انتمى إليه .

بهذا الاعتبار – فقط – أحييه فى عيد ميلاده اﻟ ٨٣ ، تحية ضائعة ولا معنى لها ، لأنه هو شخصياً لا يتوقعها .

هل أنت تحيي الشجرة لأنها تنشر ظلالها ؟ ! .

* * *

لم أكن أنوى أن أكتب عن طه حسين .

اعتذارٌ إلى الله



- أخبار اليوم . . عدد ٦ يناير سنة ١٩٦٨ .

هو الله :

هو الخالق . . . ولا تشكرونه .

هو القادر . . . ولا تطيعونه .

هو النور . . . ولا ترونه .

هو الهادى . . . ولا تسيرون وراءه .

هو العزيز . . . ولا ترغبونه .

هو العليم . . . ولا تعرفونه .

هو السميع . . . ولا تخاطبونه .

هو العدل . . . ولا تتبعونه .

هو الغنى . . . ولا تطلبونه .

هو الرحيم . . . ولا تصارحونه .

هو الوهاب . . . ولا تخدمونه .

هو المنتقم . . . ولا ترهبونه .

هو القهار . . . ولا تخشونه .

هو المجيب . . . ولا تدعونه .

هو الله . . . ولا تعبدونه .

فإذا أدانكم . . . فلا تلوموه .

و . . كانت هذه أسطورة قديمة تحكى كيف تكلم أحد الحكماء إلى الناس . . . عن الله .

* * *

أنا الباقورى . . .

تسألنى عن نظرة الناس إلى الدين فى هذا العصر . وأنا أرد عليك بأنه حدثت فى التاريخ الإسلامى انطلاقات عديدة من قيود الدين . . فالدين يقف دائماً حاجزاً بين الإنسان وشهواته . . وإذا نظر الناس إلى الدين نظرة ذاتية فقد يجدون فيه من القيود ما يودون الانطلاق منها . ولكننا يجب أن ننظر إلى الدين منقطعاً عن البيئة التى يعيش فيها والعصر الذى يخاطبه . فى عصرنا هذا تنوعت صور الشهوات التى يشهدها الإنسان فى العالم كله . . وبرغم ذلك نجد فى مجتمعنا حرصاً شديداً على متابعة البرامج الدينية فى الإذاعة مثلا . فالنظرة النسبية للأمور تلطف حدة مشاعرنا وأحكامنا . . وهى تؤكد أن المشاعر الدينية فى هذا القرن تنفذ إلى نفوس الناس من خلال العقبات الكثيرة التى أنتجتها الحضارة المعاصرة . .

من الطبيعى أن الإنسان فى لحظات ضعفه يزداد تمسكه بالدين . . فالإنسان ضعيف فى حد ذاته . وضعفه هذا يدفعه إلى البحث عن القوة الأعلى منه . وتقربه إلى الله يتزايد فى فترات ضعفه . .

وأنت تلاحظ — مثلا أن النكسة التى أصابتنا بعدوان إسرائيل هى من أبرز أسباب الاحتماء بالله وبالدين فى مجتمعنا .

وأنت تسألنى عن الدين فى حياة أولادى . . حسناً . . أنت تعلم أن

لى بناتاً ثلاثاً . إنهن طبعاً يؤدين فريضة الصيام دائماً . . أما الصلاة . . آه . . فعلا . . إنهن كشأن معظم الناس دائماً . . لا يتذكرنها إلا وقت الشدة . . وهو أمر يؤسفنى .

ثم . . ماذا . . ؟ هل هذا يذكرك بسؤالى عن طريقة تربيتهن؟ لا . . لا تجد حرجاً يا أخى . . ولكننى أقول لك إن سيدنا على بن أبى طالب كان يقول: « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم وأمهاتهم » . وقد هزمنى هذا العصر أحياناً فى تربية أولادى.. وهزمته أنا أحياناً أخرى.. فلسوء الحظ مثلا . . واحدة من بناتى تدخن السجاير . . ولحسن الحظ مثلا إن بناتى ـ بما فيهن هذه التى تدخن ـ يتمسكن تماماً بأهداب الدين .

أنا ليلى :

ليلى أحمد الباقورى . عمرى ٢٦ سنة . متزوجة مثل أختى الأخريين عزة ويمنى . . أنت تسألنى عن نظام أبى فى تربيتنا . . طبعاً نحن عشنا حياة عادية مثل أى أسرة عادية . وطبعاً تستطيع أن تتوقع شيئاً كثيراً من مراعاة آداب الدين . . وهذا صحيح . . ولكننى لا أذكر أن أبى أجبرنا يوماً على التدين . . لا . . لم يستعمل معنا هذا الأسلوب . . ولكن نشأتنا نفسها هى التى جعلتنا نحس بمتعة الدين . .

ولم نكن لنتفق معه دائماً . . كان يحدث أحياناً أن نختلف . . ونحن أصدقاء عندما نختلف . . فهو لا يلجأ إلى سلطته كأب عندما نختلف

معه .. ولكنه يقنعنا كصديق .. إما أن نقتنع نحن .. أو يقتنع هو .. تستطيع طبعاً أن تتوقع النتيجة . فنحن اللاتى كن نقتنع فى معظم الأحيان .. !

أنا الصحفى :

والحديث بينى وبين الباقورى حديث دائرى كأتوبيسات هذه الأيام .. فالكلام مع ابنته باب خلفى إلى شخصيته هو .. والجلسة تجرى فى غرفة الصالون بمنزل الباقورى فى مصر الجديدة .. والرجل يجلس فوق أحد كراسى الصالون .. ظهره مستقيم تماماً . يتحدث ببطء ، يتقدم أحياناً نحو السرعة. يتوقف عن الحديث بين لحظة وأخرى . حكم السن . وجهه نحيف صديق. شعر رأسه فى صراع بين اللونين الأبيض والأسود. والرجل يخفى هذا الصراع تحت طاقية باكستانية يرتديها فوق رأسه. نظارته الطبية التى يكلمنى بها هى إحدى نظارتين يحتفظ بهما . يده اليمنى تساعده فى الحديث عندما يتكلم واليسرى تستمع . يرتدى بلوفر أزرق مع بنطلون أسود فوق كرسى أخضر أمام لوحة مرسومة معلقة على الحائط . لوحة صينية على ما أعتقد .

والرجل يتكلم بلغة عربية فصحى . إنه من القلائل الذين يفعلون ذلك فى هذه الأيام . لغة سليمة ، سهلة ، واضحة ، وبسيطة .

وأسأل الباقورى من النقطة التى توقف عندها حديث ابنته ..

أقول : هل تختلف الطريقة التى تربيت بها عن الطريقة التى ربيت بها أولادك .. ؟

ويضحك الرجل ويقول :

« طبعاً تختلف فى مجالات هامة . فأولا أنا نشأت فى بيئة غاية فى الفقر فكانت الحياة على غاية فى القسوة . وأنا نشأت نشأة فطرية . البقرة فى المنزل نسوقها فجر كل يوم إلى الحقل فى أيام بردها كثير وملابسها قليلة . ولكن أولادنا عاشوا حياة مترفة نسبياً لو قارنتها بخشونة حياتنا .

هذه نقطة . نقطة أخرى : أنا نشأت فى ظل نظام من التربية يقوم على الضرب . أحياناً الضرب المبرح . وإذا ضربتنا آباؤنا فأمهاتنا إلى جانبنا . . أما أولادى فقد تأثرنا فى نشأتهم بنظريات التربية الحديثة ومن ثم فهن لم يعرفن الضرب ، لا من أبيهم ولا من أمهم . .

نقطة ثالثة : علاقتى بأبى كانت علاقة خشية ورهبة . مثلا فى أسرتى — شأن معظم الأسر الريفية — لم نكن نجلس مع أبينا فى مجلس عام قط ، وإذا جلسنا نهرنا نهراً شديداً . ولكن لا شىء من هذا يسود فى علاقتى بأولادى . . إن أولادى ينظرون إلى أبيهم وأمهم نظرة صداقة وثقة . . إنهم أصدقاؤنا الصغار ، بأكثر مما هم أبناؤنا الصغار . .

نقطة رابعة : . . الزواج . فأنا تزوجت على الطريقة الريفية . فلم أر زوجتى مطلقاً قبل الزواج ، وفترة الخطبة لم تكن طويلة . وقد حدث بعض هذا مع بناتى عند زواجهن ، فصحيح أن رؤية البنت لم تكن ممنوعة تماماً على خطيبها قبل الزواج ولكنها عندما تحدث فبتوجيهى ومشورتى . لأن إطلاق الرؤية والغلو فيها أكثر خطراً من إهمالها ، ونستطيع أن نستخلص حدود الرؤية من آداب ديننا . . »

* * *

حسناً . . نعود إلى الدين :

إن الدكتور طه حسين سبق أن قال لى فى حديث سابق : « إن إنشاء كليات الطب والهندسة والمعاملات فى جامعة الأزهر هو اتجاه غير سليم . أدى إلى تطوير التعليم الأزهرى إلى أسوأ وليس إلى أحسن » . . .

وأسأل الباقورى الآن : ما رأيك ؟

والباقورى يرد : « إن فائدة وجود كليات الهندسة والطب والزراعة فى جامعة الأزهر يعرفها أستاذنا — أستاذنا بحق — الدكتور طه حسين . فهو يعلم قطعاً أن بعثات التبشير المسيحية قد نجحت فى أنحاء كثيرة من آسيا وأفريقيا بسبب ثقافة المبشرين . فالمبشر لم يعد لاهوتيا فقط . بمعنى أنه لم يعد رجلا متفرغاً لشئون الدين وحدها . وإنما إلى جانب درايته الدينية فهو خبير فى الطب أو الهندسة أو الزراعة مثلا .

فالحياة الروحية لم تعد منفصلة عن الحياة العلمية كما كان الناس يتصورون من قبل . . والإسلام بالذات يمزج بين الحياة الروحية والحياة العلمية ولا يفصل بينهما . وحينما طورنا الأزهر فإن الدكتور طه حسين — كما بلغنى ذلك وقتها — كان من أول الذين أخذ رأيهم فى هذا التطور وأقروه ورحبوا به . وقد أنشأنا فى جامعة الأزهر كليات للطب والهندسة والزراعة والتجارة إلى جانب دراسات الأدب ، واللغة العربية ، والشريعة والسنة النبوية . وقد كان للتطوير هدفان : فأولا تحقيق مبادئ الفكر الإسلامى ذاته . فمن يدرس تاريخ الأمة الإسلامية يرى أن الطبيب كان عالماً بالكتاب والسنة مع أنه طبيب . . والرحالة كان عالماً بالكتاب والسنة

وهو رحالة ، والمؤرخ كان عالماً بالكتاب والسنة وهو مع ذلك مؤرخ .
وخذ مثلا على ذلك . إن الذى اكتشف البحيرات الأفريقية التى ينبع منها نهر النيل كان رجلا عربياً مسلماً ، كما كان ذكر الدكتور جوستاف لوبون فى كتابه (حضارة العرب) .

وسيجريد هونكه المستشرقة الألمانية لها كتاب بعنوان (شمس الله على الغرب) أو « أثر الحضارة العربية فى أوربا » تثبت فيه أن كل علماء الأمة العربية كانوا أطباء ومهندسين وصيادلة وفلكيين ورياضيين إلى جانب أنهم كانوا فقهاء فى كتاب الله وأئمة فيه .

والهدف الثانى لتطوير الأزهر هو إحياء ماضى الأمة العربية . فالأزهر بوصفه حامل رسالة الإسلام كان هو المكان المفضل لابن الهيثم . وبالمناسبة فإن ابن الهيثم هو أول من اخترع نظارة للقراءة. وكان يلقى دروساً منتظمة فى الأزهر .

قلت : وهل نجحت تجربة الجامعة الأزهرية حتى الآن ؟

أجاب الباقورى بحسم : نعم . إن لدى رسائل رسمية من مؤسسات كثيرة .. تشكر فيها جامعة الأزهر على المستوى الرفيع لخريجى كلية الإدارة والمعاملات مثلا . . وهى الدفعة التى تخرجت فى العام الماضى » .

والحديث يتوقف مؤقتاً . .

فالتليفون يدق . تليفون أحمر . ويرفع الباقورى السماعة ليجد على الطرف الآخر الدكتور حسن بغدادى مدير جامعة الإسكندرية .

وفى أثناء انشغال الباقورى مع حسن بغدادى أتذكر بحثاً لجورج

برنارد شو بعنوان « الإسلام بعد مائة سنة» ويقول فيه : إن الرجال المفكرين عندما يريدون فى المستقبل العاجل ديناً يحمى الفضيلة ويقى المجتمع ويكون سبباً للحياة السعيدة بين البشر . . فإنهم سيجدون أن الإسلام هو الدين الوحيد الذى يضمن لهم التقدم والنجاح. وأول البراهين على ذلك أن الإسلام لا يمنع أى تقدم سواء كان فى النهضة الفلسفية أو الكيماوية .

ويقول جورج سارتون فى كتابه (الشرق الأوسط فى مؤلفات الأمريكيين) إن المسلمين يمكن أن يعودوا إلى عظمتهم الماضية وإلى زعامة العالم السياسية والعلمية — كما كانوا من قبل — إذا عادوا إلى فهم حقيقة الحياة فى الإسلام والعلوم التى حث الإسلام على الأخذ بها .

ويقول المستشرق سبنسر فاميرى : لا يستطيع عالم واحد أن يتأمل القبة الزرقاء دون أن يلفظ اسماً عربياً ، ولا يستطيع عالم طبيعى أن يحلل ورقة من الشجر أو يفحص صخرة من الصخور دون أن يتذكر درساً عربياً . ولا يستطيع أى طبيب أن يتأمل دائرة أحد الأمراض المعروفة منذ القدم دون أن يهمس بآراء طبيب عربى . .

ونعود إلى الحديث .

فالباقورى انتهى الآن من حديثه التليفونى . وذكرياتى توقفت .. والأسئلة أستأنفها .

— كيف ترى حياتك منذ أن أصبحت أحد رجال الدين فى مصر . ؟

ويقاطعنى الباقورى : ولكننى لست رجل دين ، فأنا لم أتخصص فى الدين ولكن فى اللغة العربية والأدب العربى .

قلت : طبعاً . ولكنك تخرجت فى الأزهر ..

وهو يجيب : فعلا تخرجت فى الأزهر . والناس ينظرون إلى رجال الأزهر على أنهم رجال دين . وهذا خطأ يجب تصحيحه . إن رجل الدين واسطة بين الناس وربه . وهذا المفهوم لا يعرفه الإسلام . الإسلام يفرض على أتباعه أن يعملوا فى الدنيا من أجل الدين . وكل مسلم مسئول عن الإسلام ، ولا واسطة بين المسلم وبين الله . .

قلت : أنا لا أقصد واسطة . بل أقصد الرجل الذى تقتصر معلوماته على الشريعة الإسلامية .. ألا يعتبر رجل دين ؟ .

والباقورى يجيب : حتى فى هذه الحدود لا يوجد فى الإسلام رجل دين .. إنما توجد دراسات دينية . وكل الذى يمتاز به الدارس فى الأزهر مثلا هو حصوله على دراسات فنية يستخرج بها أحكاماً شرعية من كتاب الله وسنة رسوله . تستطيع إذن أن تسميه فنياً .. فنياً فى استخراج أحكام الدين من أصول الإسلام . .

قلت : حسناً . . هل ترى فى حياة الرجل الفنى فى أحكام الدين الإسلامى ما يميزها عن حياة الرجل العادى ؟

قلت السؤال وأنا أحس على وجه الباقورى علامات انفجار قادم فى الطريق .. وها هو ذا الانفجار فى شكل كلمات متدفقة من فم الباقورى : إيه يا أخى . . الدين يسر لا عسر . ثم . . كيف تتصور حياة رجل الشريعة ؟

قلت : أنا لا أتصور شيئاً . . أنا أسأل فقط ؟ !

قال متراجعاً : « دعنى أفسر لك الأمر . عندما اتصل الشرق الإسلامى بالغرب المسيحى أخذنا نحن المسلمين كلمة (رجل دين) من الحضارة العربية وأطلقناها على أقرب الناس إلى الدين فى مجتمعنا وهم رجال الأزهر . وهذا مفهوم خاطئ . . إن تطوير الأزهر سيؤدى حتماً إلى تصحيح هذا المفهوم . ولكن لابد أن نتوقف نحن عن اعتبار شخص ما متفرغاً فى الدين . . وعن توقع شكل خاص لحياة هذا الشخص يميزه عن حياة باقى الناس » .

* * *

. . والكلام معقول !

إن كاتباً فرنسياً — هو رينيه ميليه — كان هو الذى قال فى سنة ١٩٠٨ إن الإسلام قضى على عادة التنسك واعتزال الدنيا .. وقرر على أتباعه الاشتغال بالدنيا والآخرة معاً . . فأعاد الدين إلى حالته الطبيعية ..

والتليفون يعود إلى الرنين فى منزل الباقورى (كان الشرباصى هذه المرة) وبعد حديث قصير أعود لسؤال الباقورى :

— هل تشعر أنك ارتكبت أية أخطاء فى حياتك ؟

ويرد الرجل بكلمات أمينة : هنا ياسيدى لا أجدنى قادراً على أن أدفع عن نفسى حديثاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم . يقول الرسول : كل بنى آدم خطاؤون . وخير الخطائين التوابون : . وأنا — ياسيد محمود — واحد من بنى آدم .

قلت : هل تشعر أنك ارتكبت أى تقصير فى حقوق أسرتك عليك ؟

مرة أخرى يجيب الرجل : « لقد حرمت طوال فترات كثيرة من

الاستمتاع بأسرتى ، كما حرمت هى من الاستمتاع بى . . وقد جنى هذا على ، أو فى الحقيقة جنته على ، بعض الوظائف العامة ، فعندما كنت وزيراً لم أكن أجد الوقت الكافى الذى تحتاجه منى أسرتى . هذا خطأ بغير شك ، والدرس هو أنه لا ينبغى لأى عمل مهما كان عظيماً أن يشغل رب الأسرة عن أسرته . فالأسرة التى لا خير لها فى عائلها .. لاخير لها فى وطنها . والمناصب العامة تجنى تماماً على أسر أصحاب هذه المناصب . والوظيفة بقدر ما تكون كبيرة بقدر ما تشغل صاحبها عن أسرته » .

* * *

قليل من المتعة !

والمتعة عند الباقورى هى القراءة . والكتاب الذى يقرأه الآن هو « مجمع البيان فى تفسير القرآن » . وهو هدية له من صديق عراقى . ويقول الباقورى عن الكتاب إنه « . . كتاب طيب خال من الخرافات التى يلجأ إليها كثيرون من مفسرى القرآن الكريم » .

والمتعة عند الباقورى تعنى أشياء أخرى بجانب القراءة. إنه مثلا يعجب بالموسيقى الهندية . ويحتفظ بعدد من أسطوانات الموسيقى الصينية التى كانت وصلته هدية . وهو يعجب بتمثيل سميحة أيوب ، وإن كان لم يدخل المسرح أو السينما منذ ١١ سنة . قبلها كان منتظماً فى مشاهدة مسرحيات الريحانى ، ثم فرقته بعد ذلك .

والمتعة ثالثاً تعنى السفر بالنسبة للباقورى . وهو قد زار بلاداً كثيرة إلى جانب البلاد العربية. زار الصين وأسبانيا والفيليبين والباكستان وإيطاليا

وهونج كونج والبرتغال و . . . بلاداً أخرى كثيرة .

وأسأل الباقورى : ما هو البلد الذى استرحت إليه أكثر من غيره ؟

ويجيب : فى الواقع لكل بلد ميزة . ولكن نفسى استراحت راحة تامة إلى مدريد عاصمة إسبانيا . ولعل راحة نفسى هذه ترجع إلى إحساسى بأننى أعيش فى بلد لا تزال النفحات العربية تعطر أجواءه .

قلت : كيف رأيت الناس يعيشون فى مدريد ؟

قال متذكراً : فى مدريد يعيش الناس فى ولاء شديد ـ كمسيحيين ـ للمذهب الكاثوليكى. وإن كانوا فى الحقيقة لا ينسون فضل العرب عليهم، بل إنهم لا يملون الحديث ـ بمناسبة وبغير مناسبة ـ عن آثار الحضارة العربية فى طول بلادهم وعرضها . وفى مدريد كنت أحس أننى أعيش فى عاصمة عربية . فهم ينامون القيلولة ويسهرون الليل . وهم يبدأون عشاءهم من العاشرة مساء ويباشرون عملهم بعد العاشرة صباحاً . فكأنهم يؤمنون بقول العربى القديم : نومة الضحى مبردة فى الصيف ، مسخنة فى الشتاء .

. . والباقورى أزهرى .

وقد سبقه إلى أوربا أزهرى آخر . سبقه إلى وصف إحدى عواصم أوربا وهى باريس . إنه رفاعة الطهطاوى الذى ذهب إلى باريس منذ ١٤٧ سنة وسجل انطباعات عنها فى كتابه « تخليص الإبريز فى تخليص باريز » . إن الطهطاوى يصف باريس قائلا : « . . أعلم أن الباريزيين يختصون بين كثير من النصارى بذكاء العقل ودقة الفهم وغوص ذهنهم فى العويصات . . ومن طباع الفرنساوية التطلع والتوسع بسائر الأشياء الجديدة

وحب التغيير والتبديل فى سائر الأمور خصوصاً فى أمر الملبس . ومن طباعهم المهارة والخفة . فإن صاحب المقام الرفيع قد تجده فى السكة كالصغير . ومن طباعهم أيضاً الطيش والتلون . فينتقل الإنسان من الفرح إلى الحزن وبالعكس ، حتى إن الإنسان قد يرتكب فى يوم واحد جملة أمور متضادة . وهذا كله فى الأمور غير المهمة . أما الأمور المهمة فآراؤهم فى السياسة لا تتغير . . كل واحد منهم على مذهبه ورأيه يؤيده مدة عمره » .

و . : ولقد تطور الأزهر .

ولكنى أسأل الباقورى : من هى أبرز شخصية فى الفكر الإسلامى الحديث من وجهة نظرك ؟

ويرد الرجل : جمال الدين الأفغانى بغير شك . فالأفغانى — ومدرسته التى تضم الشيخ الإمام محمد عبده — هو أبرز شخصية إسلامية حاولت أن تجمع بين الدنيا والدين فى العصر الحديث .

والتليفون يدق مرة أخرى فى منزل الباقورى . لا أدرى من المتكلم هذه المرة . ولكنى أدرى أن جمال الدين الأفغانى هو الذى قال : لا جامعة لقوم لا لسان لهم . ولا لسان لقوم لا آداب لهم . ولا عزة لقوم لا تاريخ لهم . ولا تاريخ لقوم إذا لم يقم منهم أساطين تحمى وتحيى آثار رجال تاريخهم . . فتعمل عملهم وتنسج على منوالهم : .

ونحن قوم نحمل خلفنا تاريخاً طويلا . . ونحمل فى عقولنا أدباً غنياً . . ولنا فى ديننا عقيدة ثرية تكمل قرنها الرابع عشر هذه الأيام .

وأسأل الباقورى : ما هو موقف الإسلام من الحضارة الحديثة . . أقصد من العلم الحديث ؟

وهو يرد : الإسلام فيما أعلم لا يضيق إطلاقاً بالعلم . ولكنه يضيق دائماً بكل ما يخرج عن إطار الإنسانية الشريفة . فإذا انتهى بنا العلم إلى الخروج عن هذا الإطار كان من واجبنا جميعاً — مسلمين وغير مسلمين — أن نضيق بهذا العلم .

وتساءلت : هل عندك أمثلة ؟

أجاب بسرعة : طبعاً . خذ مثلا العلم الحديث الذى تستخدمه أمريكا فى فيتنام . إن أى مسيحى أو مسلم لا يمكنه أن يوافق على ما يحدث فى فيتنام . خذ أيضاً قنابل النابالم التى حرقت بها إسرائيل معسكرات اللاجئين الفلسطينيين . إن هذا العلم — لا أقول إن الدين الإسلامى وحده يضيق به — بل أقول إن الدين المسيحى أيضاً يضيق به ويستنكره أشد الاستنكار .

. . وللمرة الرابعة : التليفون ؟

ولكن المكالمة ليست للباقورى . . إنها لزوجته . والباقورى قال منذ دقائق إنه لم ير زوجته قبل الزواج . وهو أيضاً يقول إننا نشبه ، زماننا بأكثر مما نشبه آباءنا . لماذا لا نسأله إذن عن نظرته إلى المرأة فى هذا العصر ؟ فلنجرب ..

إن الباقورى يقول : إن الأساس الأصيل للحب هو تقارب وجهات النظر بين الرجل والمرأة . والمرأة لا يعجبها مطلقاً الرجل المخنث . فالمرأة

لا تبحث فى الرجل عن تكرار لنفسها : إنما هى تبحث عن شىء مختلف.

« الحب بعد الزواج أقوى وأخلد من الحب قبل الزواج . إن الحب الذى ينشأ قبل الزواج ليس حباً . إنه بالكثير شهوة حب وعلى قدر ما يكون الحب شهوة . . يكون بقاؤه شهوة . .

« الحب يزيد عن الإعجاب . والحب يخاطب فى الطرف الآخر رقته وذوقه وأخلاقه » .

« الحب الموفق عنصر من عناصر السعادة . . ولكنه ليس السعادة كلها . .

« السعادة فى رأيى هى نفس مطمئنة راضية تتنزل عليها السكينة . . ولقمة عيش تسد الجوعة ، وثوب يقيك حر الصيف وبرد الشتاء . . وزوجة تسكن إليها وتسكن إليك ، أما ما وراء ذلك فمن كماليات الحياة . . التى قد تكون جناية عليك بأكثر مما تكون سعادة لك . فكلما قلت مطالب الحياة بانت معالم السعادة فى جوانبها » .

* * *

والكلمات الأخيرة للباقورى تذكرنى بكلمات قالها فيلسوف — قديم. يقول جون ستيوارت مل : لقد تعلمت أن أحقق سعادتى بتقليل رغباتى . . أكثر مما أحققها بمحاولة لتحقيق رغباتى .

وتذكرنى أيضاً بمفهوم أم كلثوم للسعادة : السعادة نسبية دائماً ، وكل منا يبحث فى السعادة عن الجزء الذى يهمه .

. . وخرجت من منزل الباقورى سائراً على قدمى فى شوارع مصر الجديدة . . وفى الطريق رأيت أناساً كثيرين يسيرون معى . وتصورتهم

ذاهبين إلى سينما ، ولكنني اكتشفت أنهم ذاهبون إلى مسجد قريب لتأدية الصلاة .

يبدو أننا جميعاً نفعل الشيء نفسه فى هذه الأيام . نقدم اعتذاراً إلى الله .

* * *

رَجلٌ بنصفِ صَوت !



- أخبار اليوم . : عدد ١٠ أغسطس ١٩٦٨ .

معظم الناس يجذبك إليهم شهرتهم . اعتراف المجتمع الرسمي بهم مقياس خاطئ . إن البرميل الفارغ له صوت أعلى من البرميل الملئ .

وبعض الناس يجذبك إليهم عدم شهرتهم . اختفاؤهم رسمياً . . خصوصاً لو كان هذا الاختفاء باختيارهم . لأن هذا معناه أنهم قاموا بعملية نفي اختيارية لأنفسهم بعيداً عن المجتمع . إن السبب بسيط : لقد أصبحوا بغير سلطة . فتصور . . كم لديهم من الفضيلة ؟ !

هذا الرجل واحد من هؤلاء . لقد كان مديراً لجامعة عين شمس . وظيفة فى قمة السلطة العلمية فى بلدنا . ولكنه بكامل إرادته . استقال من هذه الوظيفة . السبب هو « أننى شعرت بأننى لست مديراً لجامعة . . بل مديراً للمستخدمين . هذا عمل لا يغرينى ولا أستطيعه . لهذا فضلت التفرغ لعملى الطبى . . وهوايتى الأدبية » .

هكذا — ببساطة شديدة — تحول الرجل من واحد ضمن ثلاثة مديرين للجامعات ، إلى واحد ضمن ٢٢ مليون مواطن . (أصبحوا الآن ٣٥ مليوناً) :

هذه أول نقطة يتناقض فيها الرجل مع القيم التى تحكم حياتنا العامة . إنه يرى حياتنا الفكرية بوضوح ، مع أن عينيه مختبئتان داخل بئرين من التجاعيد . يكتب بفصاحة . . مع أنه يتكلم بنصف صوت . أسلوبه صعب . . مع أن حديثه بسيط . عالم . . مع أن فى عقله

كثيراً من الأفكار الآيلة للسقوط . طبيب . . مع أنه حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب !

إلى هنا تنتهى التناقضات . إلى هنا أستطيع أن أقول إن الرجل يفضل أن يعيش بيننا بشروطه الخاصة . أقول هذا مؤقتا قبل أن أذهب إلى الدكتور محمد كامل حسين فى منزله بحلمية الزيتون بالقاهرة .

والطريق إلى منزل الدكتور محمد كامل حسين طويل .. معقد . منزل يقع فى أطراف القاهرة . وأحاول أن أتذكر مَنْ مِنْ أدبائنا القدامى كان يقيم هكذا — على حدود مجتمعنا القاهرى . آه . . المازنى . إبراهيم عبد القادر المازنى . كان — رحمه الله — يسكن داراً وسط مقابر الإمام الشافعى . ولكن محمد كامل حسين لم يصل بعد إلى مثل هذه الرغبة فى الانعزال عن المجتمع . فمنزله أصبح — الآن على الأقل — يقع وسط منطقة سكنية لا بأس بها . ولكن الطريق إلى منزله يبدأ ضيقاً ثم أكثر ضيقاً . . شارع . . ثم حارة . بعدها حارة أخرى ثم : فيلا أنيقة ضخمة .

يجب إذن أن تتوه — مثلى — فى الطريق إلى منزله لأول مرة .. يجب أيضاً أن تتوه فى الطريق إلى عقله لأول مرة .

* * *

أقول للدكتور محمد كامل حسين : لو بدأنا بالطب ، هل يمكن أن أسألك : من هو أقدم طبيب فى العالم ؟

أجاب الرجل : إن أقدم طبيب فى العالم كان مصرياً . هل

تتصور ذلك ؟ لقد عاش هذا الرجل منذ خمسة آلاف سنة . كان واحداً من العمال الذين اشتركوا فى بناء الأهرام . . إن عمله هذا ، مضافاً إليه موهبة التفكير السليم ودقة الملاحظة والذاكرة القوية — هو الذى أتاح له أن يكون خبيراً فى علاج حالات إصابة الرأس . . التى تحدث عن السقوط من فوق الهرم . وقد سجل على ورق البردى علاجه لإصابات الرأس . . ولم تكتشف هذه الرسالة . . إلا فى سنة ١٨٦٢ ، بواسطة أمريكى من علماء الآثار المصرية . والواقع أن كل من قرأ رسالة هذا العالم المصرى القديم ، لا يسعه إلا أن يعجب إعجاباً بالغاً بمنطقه العلمى ومعلوماته الطبية . ورسالته هى بلا شك أقدم رسالة علمية فى العالم . .

قلت : وما فضل هذه الرسالة على تقدم الطب ؟

وهو يرد بزهو : هذه الرسالة . . رسالة فذة ، لأنها أول رسالة فى العالم . ولأنها أول رسالة فيها مصطلحات علمية تخفى على غير المختصين وهى فذة فى تبويبها . لقد وصف الطبيب المصرى القديم حالات إصابة الرأس مرتبة من قمة الرأس ، إلى الوجه ، إلى الصدر ، إلى الرقبة ، ثم الترقوة والعضل .

ثم — بأسف هذه المرة — يواصل الدكتور محمد كامل حسين حديثه : إلا أن هذه الرسالة لم تؤد إلى تطور خاص فى الطب . لأن أية طريقة جديثة فى التفكير ، لا تنمو ولا تنتشر إلا إذا كانت الحياة الفكرية مهيئة لها . والحياة الفكرية لم تستعد لهذا النوع من

التفكير العلمي حتى أوائل القرن السابع عشر — حين كتب « هارفى » رسالة عن الدورة الدموية ، وهى رسالة أستطيع أن أجد فيها ما يشبه أسلوب رسالة طبيبنا المصرى القديم . وفيما عدا ذلك . . فالواقع أن الفضل كله يرجع إلى اليونانيين القدماء فى بدء الدراسات المنظمة لعلم الطب على طريقتهم . .

قلت مقاطعًا : ولكنك تعتبر رسالة الطبيب المصرى القديم أكثر تمشيًا مع التفكير العلمى .

أجاب : نعم . فلو قارنت بين طبيبنا المصرى فى عمله بإصابات الرأس ، وبين ما كتبه أبوقراط — وهو أب الطب اليونانى — بعد ذلك بنيف وألفى سنة . . لوجدت الفارق واضحًا . الفارق بين تفكيرين : التفكير التجريبى والتفكير المنطقى . الأول يعتمد على التجربة ومن ثم فهو التفكير العلمى .. الثانى يعتمد على المنطق . ورسالة الطبيب المصرى هى خير نموذج للعقلية العلمية الحديثة التى تؤمن بالتجربة .

قلت لمحمد كامل حسين : هل تؤمن بالتفكير العلمى ؟

أجاب بسرعة : طبعًا .

قلت : إذن . . ماهو التفكير العلمى ؟ .

— إنه يعتمد على أن الأسباب لا بد أن تؤدى إلى نتيجة ، والنتائج لا بد أن يكون لها أسباب .

— . . مثلا ؟

ـ مثلا نأخذ مشكلة كالشحاذة . . هناك طريقتان للتفكير فى حل هذه المشكلة . الأولى تقول إنك يجب أن تصدر قانوناً بتحريم الشحاذة ومعاقبة الشحاذ بالسجن مثلا . . هذا أسلوب غير علمى لا يحل المشكلة .

أما التفكير العلمى فيرى أن الشحاذة مظهر من مظاهر البطالة . . يجب أولا أن تبحث عن أسبابها ، وأن الشحات سيظل موجوداً طالما وجدت البطالة . فإذا عالجت السبب . . اختفت النتيجة .

ـ وأى الأسلوبين تؤمن به أنت ؟

ـ الأسلوب العلمى طبعاً !

* * *

. . . فعلا !

فالواقع أن حياة الدكتور محمد كامل حسين تطابق إجابته حياة طويلة . لقد ولد بإحدى قرى محافظة المنوفية سنة ١٩٠١ ، وحصل على بكالوريوس الطب والجراحة من القاهرة فى يناير ١٩٢٣ . بعدها أمضى سنتى الامتياز فى مستشفى قصر العينى . ثم . . بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٢٥ لمدة خمس سنوات . . من هناك حصل على زمالة الجراحين الملكية ، وعلى ماجستير جراحة العظام من جامعة ليفربول . عاد إلى مصر سنة ١٩٣٠ عضواً فى هيئة التدريس بكلية الطب . أمضى تسع سنوات أستاذاً لكرسى جراحة العظام . ثم أصبح مديراً لجامعة عين شمس سنة ١٩٥٠ إلى أن استقال سنة ١٩٥٤ لكى يتفرغ لعلمه الطبى وهوايته الأدبية .

هوايته الأدبية ؟ . . هل قلت ذلك ؟ . . عفواً .

فلقد نسيت مؤقتاً أن الرجل أصبح عضواً بمجمع اللغة العربية منذ سنة ١٩٥٢ (يسمونه أحياناً مجمع الخالدين) . خمس سنوات ثم حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الأدب سنة ١٩٥٧ عن قصته التاريخية (قرية ظالمة) . قصة ممتازة . أسلوب رائع .

وفى الحقيقة أن الدكتور محمد كامل حسين ليس أول رجل علم فى مصر يهوى الأدب . سبقه إلى ذلك كثيرون . أبرز هم مثلا الدكتور أحمد زكى . . الذى يعتبر أسلوبه — فى رأيى — أحلى أسلوب على الإطلاق قرأته لعالم عربى (على الأقل قبل أن يذهب إلى الكويت) . هناك أيضاً إبراهيم ناجى الطبيب الذى هوى الشعر وتغنى له أم كلثوم إحدى قصائده (الأطلال) . . هناك أيضاً على محمود طه . . المهندس الذى تحول هو الآخر إلى الشعر . .

وأسأل الآن الدكتور محمد كامل حسين : كيف التقى الطب والأدب عندك ؟

وهو يجيب : الطب صناعتى والأدب هوايتى .

— أيهما استفاد من الآخر فيك : الطبيب . . أم الأديب ؟

— الأديب ياسيدى . فإيمانى بالتفكير العلمى جعلنى أطبقه فى أعمالى الأدبية :

قلت : ولكن الأدب ليس علماً ؛

أجاب : نعم . . هو ليس علماً . ولكن هذا لا يمنع من تناوله علمياً .

قلت : لنترك الطب مؤقتاً . . ونتكلم فى الأدب قليلا . لقد طبقت أسلوبك العلمى فى تحليلك لتاريخ الأدب العربى . . فهل وصلت إلى نتائج مختلفة ؟

أجاب : طبعاً . إننى أرى أن تراثنا الفكرى والأدبى من الضرورى لنا أن ندرسه . ولكن علينا ألا نحوله إلى إله نعبده . فالتراث القديم يجب أن ندرسه أولا باعتباره تراثاً ، وثانياً باعتباره قديماً .

سألته : من هى أكثر شخصيات الأدب العربى القديم التى تحترمها ؟

أجاب بغير تردد : شاعرنا الكبير أبو العـــلاء المعرى . إنه أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء . لا أستثنى من ذلك أحداً . وهو يتميز بأنه فكر أولاً ثم كتب بعد ذلك . فقيمته هو أنه كان مفكراً . . فى عصر كان الجميع يكتبون بغير تفكير .

قلت : أنت تتفق فى ذلك كثيراً مع طه حسين .

أجاب : نعم .

قلت : وتختلف قليلا مع العقاد .

أجاب : نعم .

قلت : بالمناسبة . . عندما نشرلك كتاب (وحدة المعرفة) هاجمك

عباس محمود العقاد — رحمه الله — سنة ١٩٦٢ ؛ واتهمك باقتباس الكتاب عن صمويل ألكسندر — أحد الفلاسفة الإنجليز فى القرن التاسع عشر . . فما رأيك ؟

صمت الرجل قليلا ثم بدأ يجيب : من العجيب أن من يريد الرد على كتاب « صمويل ألكسندر » لا يجد غير كتابى « وحدة المعرفة » . إلى هــذا الحد تتناقض أفكارى مع أفكار صمويل ألكسندر ؟ ! وعلى أى حال . . فلقد انتهت هذه المعركة وقتها إلى اقتناع الأستاذ الأستاذ العقاد بخطئه ؟

قاطعته قائلا : ولكن العقاد أعاد نشر رأيه هذا بعدها بسنتين فى الجزء الأول من كتابه « يوميات » . فهل هو تراجع عن رأيه فعلا ؟ أرجو أن تتذكر معى . .

أجاب الدكتور محمد كامل حسين : نعم . ولقد تقابلت مع العقاد بعد ذلك فى اجتماعات ومناسبات مختلفة . . . وكان الحديث ودياً ولم يعد العقاد إلى فتح هذا الموضوع .

دقائق صمت ثم سألت الدكتور : من هى أكثر الشخصيات التى تحترمها فى الأدب العربى الحديث . . ولماذا ؟

أجاب الرجل بسرعة : الدكتور طه حسين . إنه — كأبى العلاء المعرى — مفكر قبل أن يكون أديباً . على أن فضل طه حسين يتركز فى أنه هو الذى بدأ الدراسة الحديثة فى الأدب العربى : كما أنه أدخل أسلوباً جديداً فى النقد الأدبى .

* * *

. . . ولنغير الموضوع !

لقد كتب الدكتور كامل حسين مرة يقول : « . . قدر للأمة العربية أن تكون وسطاً فى أمور كثيرة . فبلادها وسط بين الشرق والغرب ، وحضارتها وسط بين القديم والحديث . . وقدر للطب أن يكون وسطاً بين العلوم » .

والواقع أن الدكتور محمد كامل حسين هو نفسه الذى قدر له أن يكون وسطاً فى أمور كثيرة . فإلى جانب تناقضات حياته التى أشرت إليها فى البداية ، هناك أمور كثيرة وسط فى حياة الرجل . هذا تناقض جديد . فالرجل — عن الأدب أتكلم الآن — هو أكثر من هاو . . وأقل من محترف . والرجل يفضل أن يعيش فى نصف ضوء . . لا هو مجهول إطلاقاً . . ولا هو مشهور تماماً . والرجل يكتب فى مسائل كثيرة . . لا هو منقطع أبداً . . ولا هو منتظم دائماً . والمناقشة معه دائماً لها حدود . فلا هو هادئ جداً . . ولا هو عنيف كثيراً . بين بين كما ترى .

ولعل هذا كله أدى إلى النتيجة النهائية : أن الرجل لم يتورط بعد فى حياتنا الفكرية . إنه رجل بنصف صوت . فنحن نسمع صوته فى حياتنا الفكرية من وقت لآخر . ونحن نراه فى الضوء بين فترة وأخرى :

على أن هذا كله يختفى إذا انتقلنا إلى الجانب العملى فى حياة الرجل هنا نجده منتظماً جداً : هنا نجده عضواً فى هيئات عديدة : المجمع

العلمى المصرى ، المجلس الأعلى للعلوم ، المجلس الأعلى للجامعات ، جمعية جراحة العظام البريطانية ، أكاديمية الجراحة بفرنسا ، جمعية الجراحة الدولية ، جمعية جراحة العظام الدولية .

ثم إن الرجل كان رئيساً للمجمع العلمى المصرى سنتين (٥٣/ ١٩٥٤) . . . وهو رئيس لجمعية جراحة العظام المصرية منذ سنة ١٩٤٩ حتى الآن : وهم يعتبرونه الأب الشرعى لطب العظام فى مصر :

أقول للدكتور محمد كامل حسين : أنت بحثت تاريخ الطب عند العرب بالتفصيل، ولك فى هذا الموضوع بحوث قيمة . فهل تستطيع أن تحدد لى بالضبط . . فضل الطب العربى على الإنسانية ؟ وهل كان الطب العربى ناقلا عن اليونان كما يقول البعض . . أو كان خالقاً كما تقول أنت ؟

وكأنما الرجل كان ينتظر هذا السؤال فعلا بعد حديث طويل فى الأدب ، ومن ثم فلقد أجاب فوراً : مبدئياً أنبه إلى أن الابتكار كلمة جديدة .. ولم تكن هى المثل الأعلى للعلماء فى العصور القديمة ، والابتكار اليوم مطلوب فى كل الجامعات ، لكنه فى العصور القديمة كان يعتبر بدعة وجهلا . سبب ذلك يرجع إلى أسلوب التفكير القديم . لهذا كان حتماً أن يكون التصور العـــام للطب العربى مشابهاً تماماً للطب اليونانى ، كان حتماً أن يكون البناءان متشابهين ، ولكنهما مع ذلك مختلفان فى التفاصيل ، ولكل منهما مشاهداته الخاصة . فالبحث فى التفاصيل من حيث المقارنة بين ما نقل العرب وما ابتكروا يكون بحثاً عقيماً . فالعرب أقاموا طبهم على النظام العام اليونانى ، وأخذوا نظرياتهم

العامة عن اليونان . . ثم تفقهوا فى هذا العلم وأصبح طبيعة لهم . . ونما بين أيديهم نمواً طبيعياً مستقلا إلى أن استعد الذهن البشرى للتغير التام الذى تم فى أوربا . ومثل الذين يقولون إن الطب العربى نقل عن الطب اليونانى دون ابتكار ، كمثل من يقول إن الطفل يصبح رجلا دون ابتكار : كل ذلك نمو طبيعى لم يكن منه بد . والطب العربى هو عهد من عهود نمو التفكير العلمى العالمى :

قلت : من أبرز الأطباء العرب القدامى فى رأيك ؟

— الرازى :

— وما الفارق بينه وبين ابن سينا ؟

— الفارق أن الرازى طبيب فيلسوف . أما ابن سينا فهو فيلسوف طبيب .

* * *

. . . والدكتور معه الحق فى وجهة نظره !

ولكنى أضيف إليها أن كتب الرازى وابن سينا فى الطب ظلت هى المرجع الأساسى فى معظم جامعات أوربا حتى أوائل القرن السابع عشر . . . وإلى مطلع العصر الحديث كانت أوربا تنقل ما وصل إليه الطب العربى . لقد ترجموا كتاب القانون لابن سينا (القرن الثانى عشر) ، وترجموا كتاب الحاوى للرازى (القرن الثالث عشر) وترجموا كتب ابن الهيثم (القرن الحادى عشر) . على أن المسألة ليست مبارزة بيننا وبين

الحضارة الغربية : : فهذا كله مجرد تاريخ : : يضيف ميزة لصالح أجـــدادنا ولا يضيفها لحسابنا نحن . ومن ثم فن الأفضل أن نعود بسرعة إلى حياتنا المعاصرة .

أقول للدكتور محمد كامل حسين : ما أهم عمل طبي أنجزته فى حياتك ؟

ـــ إنشاء مستشفى الهلال الأحمر بالقاهرة (١٩٣٧) .

ـــ ما هو مقياس نجاح الطبيب ؟

ـــ سمعته عند مرضاه .

ـــ ما أهم خطأ ارتكبته فى حياتك ؟

ـــ أنني ولدت أصلا !

ـــ ما هو أول هدف كنت تسعى إليه ؟

ـــ أن أكون صادقاً مع نفسى .

ـــ هل كنت فى مطلع شبابك مختلفاً مع المجتمع فى شىء من معتقداته ؟

ـــ أحياناً . فمثلا نظرة المجتمع إلى بعض المسائل على أنها حقائق مطلقة ، واختيارة لكثير من المسلمات التى جعلها فوق النقد . كل هذا كنت أدعو ضده لأنه ليس تفكيراً علمياً .

قلت : قرأت لك بحوثاً كثيرة عن الشعراء العرب القدامى .. فلماذا لم تمتد دراستك إلى الشعر الحديث والمعاصر ؟

أجاب : لم ـــ ولن ـــ أقرأ شيئاً من الشعر الحديث :

قلت : هذا موقف غير علمى ياسيدى !

أجاب : أنا لست محترفاً . أنا هاو فقط .

قلت : هذا صحيح . ولكنك فى الواقع تريد أن تأكل كعكتك وتحتفظ بها فى الوقت نفسه .

أجاب : لو كنت محترفاً لوجب على متابعة كل الاتجاهات المعاصرة ولكنى لست كذلك . .

* * *

إلى هنا أتوقف !

أنفاسى تقطعت ، صوتى اختنق وأسئلتى أصبحت تخرج بطيئة . . بطيئة . . بطيئة . والحل ؟ الحل أن نترك الرجل يعبر هو عن أفكاره . . بغير تنظيم . . ولا ترتيب .

يقول الدكتور محمد كامل حسين : « . . . السعادة ليست كلمة مجردة . إنها ذاتية دائماً . العالم سعيد بعلمه . . اللص سعيد بإجرامه .

« ... لا تسألنى عن السبب فى عدم زواجى حتى الآن . ليس لدى تفسير أقدمه لك . وأفضل ألا نتحدث فى هذا الموضوع .

« إذا كان علمنا بالماضى ناقصاً حتماً ، وإذا كانت قدرتنا على الإحاطة بأسباب الأحداث الماضية ناقصة حتماً ، وإذا كان تصورنا للماضى يختلف باختلاف تفكير كل منا وسابق خبرته . . . فكيف يستطيع أحد أن يطمئن إلى صواب تقديره للمستقبل وهو لا يعرفه إلا قياساً على معرفته بالماضى ، وهى ناقصة من غير شك . . .

« . . . حرية الفكر من الأمور التى لا تستطيع أية أمة أن تستعيض عنها بغيرها من الأمور . فالقوة والغنى والفتوحات لا تمنع الدولة من الانحطاط إذا لم يكن فيها القدر الكافى من حرية الفكر . بل إنه يشاهد فى التاريخ القديم أن زوال بعض الدول تم بعد فتوحات ضخمة ، لأن ذلك دفع القائمين بالأمور فيها إلى الاستبداد . . . وعند ذلك يبدأ الضعف المميت ».

« . . آخر كتاب قرأته هو كتاب فلسفة التاريخ الذى كتبه هيجل. إنه من أسخف الكتب التى قرأتها . إن هيجل — وهو الفيلسوف الذى أثر بشكل ضخم على الفلسفة الأوربية خلال القرن الماضى — يستقى معلوماته عن الشرق من السياح الإنجليز . ومن ثم فلقد وقع فى أخطاء مضحكة .

« الفرق بيننا وبينكم — شباب هذه الأيام — هو أننا ، فى شبابنا ، كنا نبذل جهداً أكبر مما تبذلونه اليوم . إنى أرى الآن نسبة مرتفعة من الشباب يفضلون دائماً اختيار الطريق الأسهل والأقل مجهوداً ».

* * *

فعلاً . ربما كانت السطور الأخيرة التى قالها محمد كامل حسين صادقة — وهى كذلك فعلا — ولكنها نصف الحقيقة . أما النصف الثانى الذى ينسونه دائماً فهو : لماذا نحن كذلك ؟

وفى الإجابة عن هذا السؤال يجب — مبدئياً — أن نتأمل حياتنا

فإذا فعلنـــا ذلك فسوف تصل بنا هذه الحقيقية إلى : أن أعظم لحظات الحياة فى مجتمعنا لا تأتى للذين ينتظرونها ، ولا للذين يستحقونها ، وإنما تأتى — فقط — للذين يتصادف وجودهم فى طريقها !

فلتفهموا الشباب . . قبل أن تطلقوا عنه الأشاعات !

الرجل الذى كان أبى!



- أخبار اليوم . عدد ٢٣ مارس سنة ١٩٦٨ .

اعتذار ضرورى

منذ ٨٢ سنة انتصرت دولة بروسيا انتصاراً حاسماً فى حربها ضد النمسا . ولكن بسمارك — الزعيم الألمانى — كان هو الذى علق على ذلك قائلا : نحن لم نكسب الحرب هـــذه بفضل الجندى البروسى : . ولكنا كسبناها بفضل المدرس البروسى ! إلى هذا الحد تستطيع الأمة — أى أمة — أن تعتمد على مدرسيها فى انتصاراتها . . وفى هزائمها ! ! من هنا كان الاهتمام بالخطابات المنشورة على هذه الصفحة . إن صاحبها وصل فى حياته إلى منصب وكيل وزارة . ولكنه يعتز بأنه كان فى الأصل مدرساً ابتدائياً . . ربما يكون مخطئاً فى ذلك — ولكن هذا موضوع آخر ! والخطابات المنشورة هى رسائل خاصة تبادلها مع ابنه وابنته . فى الواقع هى خاصة جداً . ولكننى وعدت صاحبها بأن الخطابات لن يقرأها أحد سوى اثنين فقط . وما زلت عند وعدى . شخصان فقط سيقرآن هذه الخطابات الخاصة : أنا . . وأنت !!

(م . ع)

● من عمرو . . . إلى والده أحمد خاكى

« أبى .

يؤسفنى أن أقول لك إنك لم تذكر لى الحقيقة فى أشياء كثيرة . لقد حدثتنى عن أشياء كثيرة تحدث فى مجتمع وهمى . . ولا تحدث فى مجتمعنا .

طلبت منى أن أبذل دائماً مجهوداً شاقاً فى الحياة . ولكن المجهود وحده لا يكفى . قلت لى إن التفوق شرط لتقدمى ونجاحى ، كما قلت لى إن الناس لا تحترم الانتهازى . ولا تحترم الغشاش . ولا تحترم من يأخذ كل شىء ولا يعطى شيئاً . وأخبرتنى بأن قيمة كل إنسان تتحدد بكمية المجهود الذى يبذله . وأخبرتنى بأن النفاق عملة مغشوشة لا يقبلها المجتمع .. وبأن الفضيلة تستطيع أن تحمى نفسها فى كل وقت . وبأن الحقيقة تستطيع أن تفرض نفسها على كل الأباطيل . . وبأن العمل يطرد من طريقه كل الكسالى والانتهازيين .

ويظهر يا أبى أنك برغم وصولك لمنصب وكيل وزارة التربية والتعليم لم تنس أنك بدأت حياتك مدرساً بالمدارس الابتدائية . ولذلك فإنك مازلت تحدثنى بمنطق المدرس الذى لا يقبل من تلميذه أية مناقشة . ولكنى سأخبرك بما أراه . إنى أرى الناس من حولى نوعين : الذين يعملون . . والذين ينجحون . ولا تعايش بين الاثنين .

إنى آسف يا أبى — فى الواقع آسف جداً — حينما أقول لك : إنك حدثتنى عن كل مجتمع . . إلا مجتمعنا . أخبرتنى عن كل شىء . . إلا عن الحقيقة . لقد كذبت على يا أبى »

ولدك المطيع : عمرو

● من أحمد خاكى . . إلى عمرو أحمد خاكى . شارع رقم ١١ — المعادى — القاهرة .

« ولدى العزيز عمرو . .

أنت ما زلت صغيراً يا بنى . ما زال عمرك ١٦ سنة . طالباً فى السنة الثانية الثانوية . ولست أدعى أن آرائى التى أقدمها لك هى الحق كله ، كما أنه ليس من حقك أن تفترض أن ما تراه هو الباطل كله .

وأحب أن ألفت نظرك فى البداية إلى شىء ربما تنساه : إننى الذى علمتك كيف تفكر . متى توافقنى ومتى تعترض على . فإذا انتقدتنى الآن فيما أقوله . . فتذكر أننى الذى شجعتك على هذا . كان هذا أسلوبى معك . . ومع أختك الكبرى سميرة ، ومع أختك الصغرى شهيرة ، بل هو ما زال أسلوبى : حتى مع بنت أختك هدى .

وأحب ثانياً أن ألفت نظرك لمسألة هامة للغاية : هناك دائماً حل وسط لكل مشكلة . ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ حسناً . . دعنى أكرره لك من جديد وأضيف : أنك ترى فى مجتمعنا فجوة واسعة بين الأمل والعمل . بين القول والتطبيق . بين ما تسمعه وما تراه . طبعاً هذا خطأ . فى الواقع خطأ فاحش . إن الله تعالى يقول «يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون ؟»

وأنا أدرك أنك ممزق نفسياً . ولكننا جميعا كذلك . كل ما أريده منك ألا تفقد الأمل . فاليائسون لا يبنون أبداً مجتمعاً عظيماً . ونحن نريد لمجتمعنا أن يكون عظيماً يابنى .

وأنت تكتب لى فى خطابك أننى — كمدرس — لا أقبل مناقشة من تلميذى . لا يابنى . هذه صورة خاطئة تماماً لعمل المدرس. إن المدرس الحقيقى هو الذى يحمى تلميذه من تأثيره الشخصى .

وأنا فى تربيتى لك لم أحرص مطلقاً على أن ألقنك الحقيقة . . بل حرصت على أن أدفعك أنت إلى اكتشافها بنفسك. ويظهر أنك الآن تعيب على أننى كنت مدرساً . إنك لم تقل ذلك صراحة فى خطابك ، ولكنى أحسسته .

حسناً . . فلتعرف إذن أننى عملت مدرساً برغم أنفى . فعندما تخرجت فى المرحلة الثانوية سنة ١٩٢٥ ، كنت أستطيع أن أدخل كلية الحقوق ، أو كلية الآداب مثلا . ولكن رسم الدخول كان ثلاثين جنيهاً فى السنة لكلية الحقوق ، وعشرين جنيهاً لكلية الآداب . هل تعرف قيمة الثلاثين جنيهاً فى تلك الأيام ؟ إنها تساوى مائة وخمسين جنيهاً على الأقل فى يومنا هذا .

ولقد كان أبى — الذى هو جدك أيضاً — فقيراً أشد الفقر . لم يكن مرتبه كله يكفى لدفع هذا المبلغ الباهظ . ولذلك فلم يكن هناك مفر من أن أدخل مدرسة المعلمين العليا . . وهى الوحيدة المجانية فى ذلك الوقت . بل إنها كانت تدفع جنيهين فى الشهر منحة للخمسة المتفوقين من الطلبة

الذين يلتحقون بها . جنيهين كاملين . . تصور ؟ !

ولم أكن وحدى الذى أعانى من هذه المشكلة . فالفقر كان هو الشيء الوحيد الذى يؤمن بالديمقراطية فى مصر . ولتعلم أن كل المتفوقين فى تلك الأيام — كل الممتازين عقلياً ولكن المتخلفين مالياً — كانوا يضطرون إلى الالتحاق بمدرسة المعلمين العليا . لقد تخرج فيها مثلا شفيق غربال والدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور أحمد زكى ، والدكتور محمد محمد عوض . . وغيرهم كثيرون .

وعندما تخرجت فى مدرسة المعلمين فى سنة ١٩٢٩ عينت مدرساً بمدرسة الأورمان الابتدائية بمرتب شهرى قدره خمسة عشر جنيهاً تقريباً وأقول تقريباً لأنهم كانوا يخصمون من المرتب أربعة قروش كاملة ضرائب ! ويوم تسلمت هذا المرتب لأول مرة كدت أرقص وأنا أسير فى الشارع . لا ، آسف — فالرقص عيب ! ولكن الدنيا لم تكن تسعنى . إن خمسة عشر جنيهاً أيامها كانت تستطيع أن تشترى لك أربع بدل من القماش الفاخر أو تشترى ٥٠٠ كيلو لحم أو ١٥ ألف بيضة !

لكن ما علينا . . أريد أن أقول إنه كان هناك طبعاً سبب اقتصادى دفعنى لأن أكون مدرساً . ولكن السبب الأهم أننى كنت أحب مهنة التدريس نفسياً — لا — بل كنت أعشقها :. فالتدريس رسالة . والمدرس الحقيقى هو مصنع متنقل لإنتاج القيادات الجديدة والعقول الجديدة . والمدرس — فى أيامنا — كان يرى فى التدريس مهنة تستحق العبادة ، وليس مجرد الاحترام . وكان المدرس قدوة حقيقية لطلبته . لقد حدثنى

أنت مرة عن تلميذ زميل لك كان يغش فى امتحان . هل تعرف ماذا كان يحدث أيامنا ؟

مثلا فى سنة ١٩٢٣ دخل علينا الأستاذ محمد فريد أبو حديد . . ليراقب علينا فى امتحان النقل إلى السنة الثالثة الثانوية بمدرسة روض الفرج الثانوية — هل تعرف ماذا فعل؟ لقد أحضر كتاباً وأخذ كرسياً وذهب إلى ركن فى الفصل . . وانهمك فى القراءة إلى أن انتهى وقت الامتحان . ولكن أحداً منا — نحن التلاميذ — لم يحاول أن يهمس لزميله ، أو أن يسأله ، أو أن يأخذ منه ورقة أو يعطيه ورقة . تعرف ليه ؟ لأن هذه إهانة لنا جميعاً ، للفصل كله ، وللمدرس الذى أراد لنا أن نتعود الأمانة ، ونراقب أنفسنا بأنفسنا ، هكذا كنا نحس أيامها .

المهم . . أخشى أن يكون هذا الخطاب قد أصبح طويلا . دعنى أسألك عن أخبارك فى المدرسة . وما أخبار كتاب الكهرباء الذى كنت تقرؤه فى آخر مرة رأيتك فيها ؟ على العموم أنا لن أمكث طويلا فى الإسكندرية . فالمؤتمر الذى أحضره الآن لن يستمر فترة طويلة . وإلى أن أعود اكتب لى فى خطابك القادم عن كل شىء فى حياتك . . عن الكتب التى تقرؤها والدروس التى تذاكرها ، والأفلام التى تشاهدها . وختاماً ، سلامى لك ولماما وللجميع .

والدك : أحمد خاكى

● من عمرو أحمد خاكى إلى أحمد خاكى — الإسكندرية .

« والدى العزيز ..

سلامى وتحياتى . . الخ .. الخ .

كتبت لك فى خطابى عن المدرسة فى أيامنا هذه . . فكتبت لى عن المدرسة فى سنة ١٩٢٣ . حدثتك عن المدرس الآن ، فحدثتنى عن المدرس سنة ١٩٢٩ . أنت لم ترد على يا أبى فى شىء مما كتبت لك عنه .

أما عن أفلام السينما فلم أشاهدها منذ ثلاثة أشهر ، المذاكرة أهم . إن مقرراتى المدرسية أصبحت لا تعطينى فرصة لأى شىء آخر فالامتحان على الأبواب وأريد أن أنجح فيه بتفوق .

أما عن كتاب الكهرباء الذى ذكرته فى خطابك فهو ليس مقرراً علينا . ولكنه من بين القراءات الحرة التى أهواها . وأنت تعرف أننى أحاول أن أقرأ الكتب العلمية فى وقت فراغى .

وبالمناسبة . . فإن مدرستنا تنوى القيام برحلة إلى أسوان قريباً . هذه الرحلة سوف أستفيد منها كثيراً ؛ لأننا سنزور السد العالى وسوف يشرحون لنا طريقة عمل محطات الكهرباء الجديدة هناك . سوف أطلب من ماما أن تدفع لى رسوم الرحلة إلى أن تعود أنت من الإسكندرية . إذا كنت توافق فتقبل تحياتى . . وتحيات الجميع هنا »

ولدك المطيع عمرو

● من أحمد خاكى إلى عمرو أحمد خاكى — شارع رقم : ١١ — المعادى — القاهرة .

« ولدى العزيز عمرو . .

اعذرنى يا بنى إذا كنت قد سرحت فى خطابى السابق إلى ذكريات الماضى ، إن الماضى يابنى هو عمرى . الماضى هو حياتى . ولن أعيش مثلما عشت . ولكنك – مثل شباب هذه الأيام – قليل الصبر ، قليل الحكمة ، قليل الوقت .

ولقد أردتنى أن أحدثك عن مهنة التدريس هذه الأيام . حسناً . اعلم يابنى أن المدرس الآن معذور بعض الشىء إذا كان يضيق بمهنته . إن التدريس أصبح الآن محطـة انتظار بالنسبة لنسبة كبرى من المدرسين انتظاراً لوظيفة أفضل . وهذه علامة سيئة بأكثر مما تتصور . فالتدريس كالحب . . لا ينجح إلا إذا كان عشقاً . التدريس مهنة تشترط أولاً الإيمان بها كرسالة فى الحياة . والمدرسة يا بنى – بغير المدرس والتلميذ – تبقى مجموعة حوائط صماء تنعى من بناها .

ولكن من ناحية أخرى تجد أن المدرس فى هذه الأيام معذور فى عدم إيمانه برسالته . إنه يجد أن التدريس مكانه فى القاع بالنسبة لجدول الأجور . ويجد حـوله نماذج كثيرة من الناس يبذلون جهداً أقل . . ويحصلون على عائد أكبر . ربما كان هذا سبباً لما نلاحظه الآن من أن معظم المدرسين يأخذون عملهم على أنه واجب ثقيل يستحق التخلص منه بأسرع ما يمكن . . وبأقل مجهود .

ولكن هناك أسباباً أخرى خاصة بالتدريس . منها مثلا أن المدرس هو جزء من المجتمع . وهو يرى المجتمع يركز كل جهوده واهتمامه على الواجهة . . على الشعار . . على الأقوال . هو يرى فجوة واسعة – فى

الحقيقة واسعة جداً — بين ما يقوله المجتمع وما ينفذه فعلا . بين ما يعلنه المجتمع وما يمارسه فعلا . وحينما يرى هو كل ذلك . . يتحول بدوره — مثلنا جميعاً — إلى شخص يقول مالا يفعل ، ويفعل مالايقوله . وحينئذ يصبح التلميذ مثلما قال عنه « فيكتور هوجو » المفكر الفرنسي يوماً : . . . يتمتع بالتفكير السليم . . بالرغم من التعليم !

حينئذ يصبح المدرس — مثلما يصبح أى شخص آخر — يعيش ليأكل . . . بدلا من أن يأكل ليعيش .

هناك أسباب أخرى كثيرة . خذ منها مثلا كثرة عدد الطلبة في الفصل الواحد . لقد أصبح جهازنا التعليمي كله يؤمن بالعدد بدلا من النوع وأصبحت مناهجنا الدراسية مكتظة بمواد محشورة حشراً لا مبرر له . وأصبح الامتحان هو تجربة مرعبة يحلم بها التلميذ قبل موعدها مائة مرة . سبب آخر هو أن التدريس مهنة تتطلب خبرة . فهي — مثل أى فن آخر — يحتاج إلى موهبة . . وممارسة . . ومران . وأنت ترى أن الشاب يتخرج الآن في الجامعة .. ثم يعين فوراً للتدريس لطلبة الثانوية العامة مثلا . إنها جرأة منقطعة النظير . ففي أيامنا مثلا . . كنا نتخرج في مدرسة المعلمين العليا — التي أغلقت سنة ١٩٣٣ — دون أن نجرؤ على التدريس في الثانوى قبل عدة سنوات من التدريس في الابتدائي . كان الواحد منا يقضي السنوات المبكرة من عمله في التمرين والتدريب على التدريس كمهنة وفن .

ولكن . . هأنذا أحكي لك من جديد عن الماضي . . أنا متأسف المهم . . بالنسبة لرحلتك إلى أسوان التي تفكر فيها . . قل لماذا إنني

موافق . وخذ منها النقود اللازمة للرحلة . اكتب لى بعد عودتك . والآن سلامى لماما ولأختك سميرة وزوجها ، وقل لأختك شهيرة أننى عاتب عليها لأنها لا تكتب لى .

والدك : أحمد خاكى

● من شهيرة أحمد خاكى . . إلى أحمد خاكى . الإسكندرية .

« بابا . . .

إزى حضرتك . . لماذا تأخرت كثيراً ؟ هل المؤتمر الذى تحضره بالإسكندرية يشغلك عنا إلى هذا الحد ؟ أرجو أن تعود إلينا سريعاً . أنا أكتب لك الآن بعد أن عدت مع ماما . إن ماما نزلت معايا . . واشترت لى حتة قماش . . إنما جنان . حاروح للخياطة بكره علشان تفصلها لى . وعندى حاجات كثيرة هاحكيها لك . . لما ترجع . . قبلات لك من الجميع .

شهيرة

● من أحمد خاكى إلى شهيرة أحمد خاكى . . شارع رقم ١١ ــ المعادى ــ القاهرة .

« ابنتى العزيزة شهيرة . .

قبلاتى لك . ماذا تفعلين الآن فى دراستك . هل تذاكرين كثيراً كما هى العادة ؟ أرجو ذلك .

والآن أريد أن أنبهك إلى شىء هام : اوعى تفصلى الفستان الجديد فوق الركبة ! إنها موضة سيئة وغير أخلاقية . طبعاً إذا أعجبتك هذه

الموضة فإنني لن أمنعك من متابعتها . وأنت تعلمين أنني قد عودتك منذ الصغر أن تكوني حرة في أفكارك الخاصة. تعرفي ليه ؟ لأن الحرية هي أن يفعل الإنسان ما يؤمن به. الحرية هي فيض من النفس .. لا فرض على النفس . وأنت تعلمين ذلك بالرغم من أن عمرك لم يصل بعد إلى ١٤ سنة ، وبالرغم من أنك مازلت في السنة الثالثة الإعدادية .

ولكني الآن أنصحك – وأنا لا أنصحك كثيراً – ألا ترتدي فساتين فوق الركبة . تعرفي على أيامنا . . مثلا . . كان الرجل تعجبه المرأة المتحجبة أكثر مما تعجبه المرأة السافرة . . طبعاً هذه ليست دعوة للعودة إلى الحجاب ولكنها دعوة للأخلاق . مجتمعنا كان دائماً مجتمعاً أخلاقياً ومتديناً . . برغم ما ترينه من مظاهر مؤقتة هذه الأيام . هذه المظاهر المؤقتة كنت ترينها سببها اختفاء القدوة الصالحة .

فالبيئة يا ابنتي هي التي تحدد كل شيء .

المهم . هل أنت ما تزالين تقرأين الرواية التي كنت تقرئيها قبل أن أسافر ؟ أنا أعلم طبعاً أنك تفضلين قراءة القصص والروايات . لا بأس بذلك الآن في هذه المرحلة من عمرك . ولكنني أتمنى أن تتعمقي أكثر من ذلك في القراءة .

أتعرفين أني لما كنت في سنك . . كنت قد انتهيت من قراءة أشياء كثيرة جداً. فالقراءة والمعرفة فيها شيء من الوراثة. وأنت تعلمين أن جدك – الذي هو أبي – كان مدرساً هو الآخر . وكان يحب القراءة ويكتب دواوين الشعر . وقد أحببت القراءة بفضله هو .

وقد لازمتنى عادة القراءة طوال حياتى. لازمتنى عندما عينت مدرساً لأول مرة سنة ١٩٢٩ بمدرسة الأورمان الابتدائية. وعندما سافرنا فى بعثة إلى إنجلترا سنة ١٩٣١ ، وعنـــدما عدت مدرساً للغة الإنجليزية فى الثانوى . هل تعلمين أننى كنت أول مصرى يشتغل بتدريس اللغة الإنجليزية فى المدارس المصرية ؟ فعلى حسب الموضة أيامنا كان الإنجليز محشورين فى كل نواحى حياتنا . فى التعليم وفى الرى وفى الزراعة وفى الإدارة وفى البوليس وفى القضاء وفى أشياء كثيرة أخرى غير الاحتلال العسكرى .

المهم أن عادة القراءة استمرت تصاحبنى بعد ذلك عندما عينت مدرساً بدار العلوم سنة ١٩٣٨ ، ثم عندما أصبحت مفتشاً للغة الإنجليزية بوزارة المعارف العمومية ، ثم بعد ذلك فى بور سعيد وأنا ناظر لمدرستها الثانوية ، وفى لندن عندما أصبحت وكيلا لمكتب البعثة المصرية هناك سنة ١٩٤٦ . وفى العراق وأنا ملحق ثقافى سنة ١٩٤٩ . وفى أمريكا وأنا مدير لمكتب البعثة المصرية هناك من سنة ١٩٥٠ . ثم من جديد فى القاهرة عندما عدت كبيراً لمفتشى اللغة الإنجليزية سنة ١٩٥٥ ، ثم مديراً لكلية فيكتوريا سنة ١٩٥٨ (التى أصبحت الآن كلية النصر بالمعادى) . و . . باختصار . . ما زالت عندى هذه العادة إلى الآن وأنا وكيل لوزارة التربية .

لكن . . تعرفين أننى أحس أننى لم أقرأ بعد كل ما أريده . لقد شغلتنى الحياة عن قراءة أشياء كثيرة . أنا نادم على ذلك الآن . لكننى

سأبلغ سن الإحالة إلى المعاش بعد أسبوع واحد . . وساعتها سوف أتفرغ للقراءة .. وأتفرغ لك حتى لا تتهميني بأن عملي يشغلني عنك . سأتفرغ لك تماماً يا شهيرة وإلى أن يحدث لك ذلك . . لك وللجميع أطيب تحياتي .

والدك : أحمد خاكي

* * *

● من شهيرة أحمد خاكي إلى أحمد خاكي . . الإسكندرية .

« بابا . . . .

اطمئن على أنني لن أرتدي فساتين فوق الركبة . أنا مقتنعة بذلك . اطمئن أيضاً على أن الروايات ليست وحدها الشيء الذي أقرؤه . لقد بدأت أمس مثلا في قراءة الكتاب الذي ألفته أنت عن الكاتب المسرحي الإنجليزي برنارد شو . لكن . . تسمح لي أسألك سؤالاً : اشمعنى يعني برناردشو بالذات ألفت عنه كتاباً ؟ !

شهيرة

● من أحمد خاكي إلى شهيرة أحمد خاكي .

ابنتي العزيزة شهيرة : .

أنا ألفت كتباً كثيرة غير برناردشو. هل نسيت ؟ مثلا سنة ١٩٣٥ أخذت الجائزة الأولى عن بحث أعددته بعنوان « رسالة الأزهر في القرن العشرين » سنة ١٩٣٩ فزت في مسابقة أجراها الدكتور محمد حسين هيكل عن كتاب أسميته « روح القومية مقدمة للإصلاح الاجتماعي في

مصر » . ومنذ سنوات قليلة ألفت كتاباً آخر بعنوان : فلسفة القومية .

لكن ما لفت نظرى فى برناردشو بالذات أشياء كثيرة . إنه كاتب مسرحى عملاق . وهو مفكر عبقرى . ولكنه أيضاً ناقد اجتماعى قدير . وهذا ما يهمنى أن تقرئى عنه فى أيامنا هذه بالذات . لقد وجد برناردشو نفسه يعيش فى مجتمع ينافق بعضه بعضاً . مجتمع فيه فجوة واسعة جداً بين القول والعمل . فكان على برناردشو — كما كان على كثير من أهل الفكر — أن يكتب عن هذا النفاق . عن الفجوة التى كانت تتسع سريعاً بين القول والفعل . وفى سبيل ذلك كان عليه أن يعادى أمة بأسرها من الأغنياء الذين نشأوا على الشره ، والاستئثار وحب المال والسلطة ، وأمة بأسرها من الكتاب الذين أيدوا هؤلاء بأقوالهم ، وكتاباتهم وقصصهم ومسرحياتهم .

وأول ما يلفت النظر فى برناردشو ،كناقد اجتماعى أنه كشف هذه الفجوات بين القول والعمل . بين نظريات السياسة وأساليبها. بين العقائد الدينية الأصيلة وبين ما يدعيه المتظاهرون بالتدين. بين التربية الصحيحة وما يقترفه المعلمون من آثام فى حق الطفولة . بين الأمانى التى تكمن فى النظريات الاقتصادية والنظم التى لا يمكن أن تحقق هذه الأمانى .

وقد جر هذا النقد على برناردشو كثيراً من الخصومات والعداوات بينه وبين فئات الناس التى كانت صاحبة مصلحة فى استمرار النفاق والانتهازية والوصولية .

إن برناردشو كان يرى مثلا أن الفقر هو أساس كل الشرور

والآلام فى العالم . كان يرى العالم أمامه ينقسم إلى طبقتين : طبقة تملك المال . . وطبقة أخرى فى حاجة إلى المال . . طبقة تملك السلطة . وطبقة تعانى من السلطة . طبقة تعمل . . وطبقة تنجح .

وبرناردشو له مجالات أخرى كثيرة أبدع فيها . ولن يكفى هذا الخطاب حتى لاستعراض عناوينها . ولذلك أترك هذا الموضوع كله إلى حين عودتى إلى القاهرة وجلستى معك .

وختاماً لك وللجميع أطيب تحياتى . واسألى ماما حتى لاتنسى : هل دفعت فاتورة التليفون ؟

والدك : أحمد خاكى

● من شهيرة أحمد خاكى . الإسكندرية . .

« بابا . .

أخى عمرو سافر إلى أسوان فى رحلته التى كتب لك عنها فى أحد خطاباته . بنت أختى هدى تسلم عليك سلامات كثيرة .

وبعد — فقد قرأت كلامك عن برناردشو فى خطابك الأخير بشغف شديد . كنت مبسوطه جداً . لكن — أليس برناردشو هو أيضاً الذى قال مرة : إن التدريس مهنة من لا مهنة له ؟ ما رأيك فى هذا الكلام ؟ أرجو ألا تزعل منى . آه . . نسيت : ماما تقول إن فاتورة التليفون وصلت متأخرة كالعادة . . وفيها أخطاء كالعادة . . ولكنها دفعتها على أى حال .. بالرغم من أن التليفون نفسه عطلان منذ خمسة

أيام . . كالعادة أيضاً !

من عنــدنا يهديك الجميع السلام . ويعــدون لك مفاجأة فى عيــد ميلادك . . هل نسيته ؟ عيد ميلادك الستين الذى يأتى بعد أيام قليلة ؟ نحن نرجو أن تعود إلينا قبله بمدة كافية .

مع سلامات كثيرة من : شهيرة

* * *

● من أحمد خاكى إلى شهيرة أحمد خاكى . شارع رقم ١١ — المعادى — القاهرة .

« ابنتى العزيزة شهيرة . .

سلامات وتحيات كثيرة وبعد : .

صحيح أن برناردشو قال إن التدريس هو مهنة من لا مهنة له . ولكن برناردشو كان دائماً ناقداً فكاهياً يبالغ فى نقده حتى يعبر عن رأيه . كان هذا رأيه فى مهنة التدريس بالشكل الذى وجدها عليه فعلا فى مجتمعه . أما التدريس كما يجب أن يكون فهو مهنة مقدسة . . بل هو أقدس مهنة على الإطلاق .

وربما تجدين حولك نماذج ينطبق عليها قول برناردشو . بالذات فى مجتمعنا . ولكن العيب فى هذه الحالة ليس عيبهم بقدر ما هو عيب النظام التعليمى الذى يعملون من خلاله .

تعرفين . . أننى أحس أحياناً أن وزارة التربية والتعليم عندنا هى مجرد إدارة كبيرة للمستخدمين ؟! . لا عمل لها إلا التنقلات والترقيات

وحساب مدد الخدمة إلخ .. طبعاً هذا ليس عيباً . لكن العيب أن يكون هذا على حساب المهام الأخرى للوزارة . فالمفروض أن تكون لدينا نظرية متكاملة للتعليم . والمفروض أن وزارة التربية والتعليم تشغل نفسها بالمناهج الفكرية فى التعليم .. وتطويرها لتلاحق التطور العالمى .. وتعرفين مثلا أنهم فى فرنسا عدلوا أسلوب تدريس مادة الرياضة مرتين بعد اختراع القنبلة الذرية . . وعندنا ما زالت الطريقة هى نفسها منذ سنة ١٩٢١ ؟

تعرفين مثلا أن الاتجاه العالمى يشدد الآن على ضرورة زيادة معرفة الطالب باللغات الأجنبية حتى يتعرف على الثقافات والحضارات الأخرى بينما عندنا أهملت اللغات الأجنبية إهمالا شديداً . لقد أصبحت هى مواد الرسوب التى يفضلها الطالب ! . يكفى أن تعلمى أنه منذ سنة ١٩٥٧ إلى الآن تخرج فى مدارسنا ١١ جيلا من الأميين تماماً بالنسبة للغات الأجنبية . يكفى أيضاً أن تعلمى أنه فى كل سنة يصل إلى وزارة التربية والتعليم بالقاهرة سمائة تقرير من المفتشين الأوائل . . ينبهون فيها إلى هـــذه المشكلة . . ولكن الله وحده يعلم أين تنتهى هذه التقارير ؟ !

لقد تخلفنا يا ابنتى تخلفاً شديداً فى مناهجنا التعليمية . ولا علاج لذلك إلا بثورة كاملة فى أجهزتنا التعليمية . . ثورة تحول الوزارة إلى جهاز فكرى قبل أن تكون جهازاً إدارياً . . ثورة تضاعف نسبة العمل اليدوى فى التعليم العام . ثورة تجعل مناهج التعليم أقل وأعمق . . بدلا مما هى أكثر .. وأتفه . ثورة لا تقيس الطالب بامتحان واحد فى السنة

أصبح كالكابوس عند كل طالب ، بل تقيسه بأعمال سنة كاملة . .

لكن . . على أى حال هذا موضوع طويل سوف نتناقش فيه كثيراً بعد ذلك عند عودتى إلى القاهرة . والآن سلامى لك وللجميع . . وبالذات سلامى للصغيرة هدى .

والدك : أحمد خاكى

● تلغراف :

من أحمد خاكى . إلى حرم أحمد خاكى :

أصل إلى القاهرة غداً فى ديزل الساعة الثامنة . سلامى للأولاد .

● من أحمد خاكى إلى عمرو أحمد خاكى . أسوان .

ولدى العزيز عمرو . .

ما أخبار رحلتك ؟ أرجو أن تقضى وقتاً ممتعاً فى أسوان مع زملائك فى الرحلة . أنا الآن فى انتظار عودتك يوم الأثنين . إن حياتى لم يعد فيها غير الانتظار . فمنذ أحلت إلى المعاش منذ ثلاثة أيام . . وأنا أجد حيـــاتى مليئة بفراغ كبير . لقد قضيت فى الوظيفة الحكومية ٣٨ سنة وثلاثة أشهر وعشرة أيام . . بالضبط ! وعلى مدى هذه السنوات الطويلة اكتسبت عادات لم أعد أستطيع أن أتخلص منها مثلا — كما تعلم — أننى أستيقظ يومياً فى الساعة السابعة صباحاً . تعرف أول يوم لى على المعاش حصل إيه ؟ صحيت من النوم تلقائياً فى الساعة السادسة صباحاً . . فى البداية لم يكن أمامى سوى أن أعيش فى الماضى .

ثم اكتشفت أن الحياة التى لا مستقبل لها . . هى موت وليست حياة . .

ولذلك قررت أن أشغل حيـاتى بشيئين : أولاً بالعودة إلى تأليف الكتب . . وستكون حياتى على المعاش هى فرصة جديدة لكى أبدأ حياتى من جديد . .

والشيء الثانى هو أننى سأتفرغ لهدى . تلك الصغيرة الكتكوتة . . سأحاول أن أساعدها فى تعلم القراءة والكتابة .. فلقد اكتشفت أنها — مع أنها فى السنة الثالثة الابتدائية — لن تعرف القراءة والكتابة لو اعتمدت على المدرسة . ولكن هذا شيء آخر .

المهم . . أنا فى انتظارك يوم الاثنين . . وإلى ذلك الوقت . . لك تحياتى .

أحمد خاكى

● من عمرو أحمد خاكى إلى أحمد خاكى . شارع ١١— المعادى القاهرة :

« أبى . . .

منذ مدة أريد أن أقول لك هذا الخبر : إنك لست أبى . لقد كنت أبى فعلا . ولكننى أحس الآن أنك أصبحت صديقى . كل المسألة أنك صديق أكبر سناً . . وخبرة .

تقبل تحياتى واحترامى وصداقتى .. إلخ . . إلخ . . إلخ . .

ولدك المطيع : عمرو

* * *

ملحوظة : سوف أعيد هذه الخطابات الآن إلى صاحبها : أحمد خاكي – وكيل وزارة التربية والتعليم سابقاً – والرجل المحال إلى المعـــاش حاليًا .

ولكن .

هل كتبت هذه الخطابات حقًا ؟ !

الإنسان كما يتصوره عالم



- مجلة آخر ساعة . . عدد أبريل سنة ١٩٧١ .

الإنسان ؟

هو مخلوق متزن ، بجسم يرتكز على قدمين تضمان ٢٨ مفصلاً ، بمولد كهربائي كيميائي . تكمله خزانات معزولة من الطاقة . . في بطاريات حاشدة ، بموتورات ملحقة . جسم يضم ٦٢ ألف ميل من الشعيرات . وملايين من إشارات المرور والإنذار . جسم يحتوي على شبكة سكك حديدية وناقلات وروافع (حيث الذراعان في الجسم يضمان ٢٣ مفصلا ومحطات تشحيم ذاتية ، وشبكة تليفونات لا تحتاج إلى صيانة لمدة سبعين سنة إذا أحسن استخدامها) . إن هذا التركيب المعقد وغير العادي لجسم الإنسان يعمل كله بدقة بديعة من خلال برج يضم آلات . تلسكوبية وميكروسكوبية وملحق به أيضاً شبكة لتسجيل المعلومات والأحداث السابقة ، وأجهزة لتحليل أطياف الأشعة و . . . و . . . »

وكنت أتوقع مثل هذه الإجابة من رجل العلم الدكتور أحمد زكي ، إجابة علمية . إجسابة دقيقة . . سهلة . . تشرح ما في داخل جسم الإنسان من معجزات . إجابة ترى الإنسان باعتباره مجموعة حقائق . . ممتعة نعم . . ولكنها ما زالت حقائق . إجابة تكشف عن دقة العالم ، مع أنها تكشف أيضاً عن افتقاده للخيال .

ولكن الدكتور أحمد زكي لم يقل لي هذه الإجابة !

إنه لم يقلها . . مع أنني اتوقعتها . إن السبب في ذلك بسيط .

فالإنسان بالنسبة لأحمد زكى ليس مجرد جسم يؤدى مجموعة من الوظائف، ولكنه — أكثر من ذلك — عقل يعى ما يراه . . ويفهم ما يحدث أمامه . . ويستخلص منه الدروس ، فلا يقع فى المصيدة مرتين .

الإنسان عند أحمد زكى هو أولا مخلوق عاقل . . مع أننا نرى قلة العقل حولنا فى كل مكان !

الإنسان عند أحمد زكى مخلوق عاقل . . من غير أن يعنى هذا أنه دائماً مخلوق حكيم . إن ما حدث بالضبط هو — فى رأى أحمد زكى — أن الحكمة . . «تخلفت فى الإنسان على حين تقدم عقله . ولا بد للحكمة أن تسبق . . حتى يتخلص الإنسان من شر العلم والتكنولوجيا وينعم بالخير وحده» .

— هل فى العلم شر ؟

— «لا . . العلم والتكنولوجيا ، كلاهما ليس فيه خير أصلا ، وليس فيه الشر . إنهما كمشرط الجراح . . يستطيع أن يفتك به ، أو أن يجرح ليشفى . أو هما كالماء ، تستطيع أن تبل به الظمأ . . وتستطيع أن تسد به الأنفاس وتغرق» .

مبدئياً : هناك كلمة واحدة فى الإجابة السابقة لم أكتبها كما نطق بها أحمد زكى . كلمة : التكنولوجيا . !

إن أحمد زكى لا يقولها كذلك . يقول : التكنية . ربما كان هذا اللفظ أكثر دقة لغوياً ، ولكن كلمة التكنولوجيا أكثر انتشاراً . أنا مع الانتشار وضد أحمد زكى .

ملاحظة ثانية : إن الرجل فى مناقشته معى يستخدم أسلوباً تتصارع فيه الدقة مع الخيال . إن أحمد زكى هو ــ بحكم تعليمه ــ رجل علم ولكنه أيضاً ــ بحكم ثقافته واهتماماته ــ رجــل أدب . إنه ــ حتى ــ يرأس تحرير واحدة من أكبر المجلات الشهرية فى العالم العربى . إنه، بعد أن وصل فى مصر إلى أرقى منصب علمى . . وهو مدير جامعة القاهرة . . سافر إلى الكويت ليصبح هنــاك رئيساً لتحرير مجلة «العربى». ربما يكون هذا تناقضاً . ربما لا يكون. سوف نرى على أية حال.

إن المهم الآن هو أن نجلس مع أحمد زكى نفسه . رجل طويل القامة ، معتدل القوام ، عميق الصوت ، دقيق الكلمات، واسع الثقافة ، متعدد الاهتمامات . لقد دخل إلى حجرة الاستقبال فى منزله بالكويت ، ملقياً بتحيته فى هدوء وشىء من الخجل يخفى به كثيراً من العلم . ولكن خجل أحمد زكى لا يستطيع أن يخفى أيضاً القوة الضخمة لشخصيته . إن شخصيته تجعلك متنبهاً فوراً إلى القوة واللياقة الظاهرة من بعيد فى قوامه الطويل ، حتى وهو فى عمره الحالى ــ ٧٧ سنة . إنها قوة واضحة فى وجهه، ومؤثرة تماماً فى لهجته . . كما توحى لك كتابته بالضبط .

ومع ذلك فإن القوة السحرية التى يتمتع بها لا تبدو فى حجمها الطبيعى إلا عندما يتكلم. إن أحمد زكى يتحدث بمثل التتابع الذى تسمعه من حبات مسبحة . إن كلماته تسير فى خط مرسوم ، وعقــل يفحص الطيب من الخبيث ، والسلبى من الإيجابى . وحينما يسرح فى إجاباته فإنه يكون فى أحسن حالاته . إن حديثه حينئذ يصبح نوعاً من مشرط

الجراح الذى تحدث عنه هو نفسه منذ دقيقة . . وأحياناً ـ خلال بحثه عن كلمة أو عن صورة لفظية ـ فإنه يغلق عينيه ويسرح هناك . أين تكون « هناك » هذه . . لا أحد يعلم بالضبط . كل ما أعلمه الآن أننى أجلس معه فى منزله بضاحية « الصليبخات » فى الكويت ، والتى تبعد ثلاثة عشر كيلومتراً عن قلب الكويت العاصمة نفسها. ضاحية صغيرة بنيت كل منازلها على الطراز الإنجليزى القديم . لهذا أجد الآن هدوءاً حولى فى كل مكان ، مع أن كلمات أحمد زكى نفسها تسحب منى تماماً كل الهدوء . إنه أحياناً يكرر أفكاره ـ بكلمات مختلفة طبعاً مليئة بالمترادفات ـ ولكنها أيضاً مشحونة بالانفعالات المعدنية . وحينما أتفعل أنا الآخر بحكم العدوى من أحمد زكى ، فإننى أجد أفكاره عميقة وساخنة كما لو كان قد تم استخراجها حالاً من وسط بركان متفجر فى داخله . بركان لا أحد يراه أو يحس به غير الرجل نفسه ـ أحمد زكى ـ ربما من أجل هذا بالذات ذهبت لمقابلة أحمد زكى فى الكويت .

لم يكن فى الكويت ما يشدنى إليها ، ولا حتى ما يجعلنى أفكر فى الهبوط بها وأنا عائد من الشرق الأقصى إلى القاهرة . لا شىء يشدنى إلى الكويت أو يجعلنى حريصاً على النزول فيها بالطائرة . لا شىء ولا أحد ، غير أحمد زكى نفسه ، الذى كنت أقرأ له فى صباى مقالاته المثيرة فى بعض الصحف المصرية اليومية . مقالات كانت كلها تقوم بمهمة التعارف بينهما وبين القرن العشرين . مقالات علمية تتناول أسرار الكون الفسيح حولنا فى بساطة ومتعة وجاذبية . مقالات تتعانق فيها رقة الأديب مع

دقة العالم . فى الواقع ، أن أحمد زكى واحد من كبار العلماء الذين أنجبتهم مصر . مع ذلك فهو فى النهاية واحـــد من كبار المثقفين الذين رفضتهم مصر فى إحدى نزواتها .

أقول لأحمد زكى : أنت فى القاهرة عضو بالمجمع اللغوى ، وأنت فى الكويت رئيس لتحرير مجلة شهرية ، وأنت فى جميع الأحوال تقرأ فى الأدب وتكتب فى العلم بأسلوب من الأدب . ما الذى يشدك هكذا إلى الأدب ؟

والرجل يقول : إن من مسئولية رجل العلم أن يعرف الناس بالقيم العلمية . . ويحيي فيهم سعيهم نحو القيم العلمية . إن الناس دائماً تهاب العلم ، لأن هناك إشاعة منتشرة تقول إن العلم صعب ، وإن للعلم موهبة توجد عند بعض الناس ولا توجد عند البعض الآخر . هذا غير صحيح . إننا جميعاً نبدأ حياتنا من نقطة متساوية ، ولكن أتجاهاتنا تتحدد على الطريق وليس من نقطة البداية نفسها . ولأن الناس تتصور أن العلم صعب ، فإنك تجد أن الذين يقبلون على كتابة الشعر أو القصة مثلا هم أضعاف من يقبلون على التخصص العلمى . إن الطريقة المثلى لتقريب العلم للجمهور هى أن يتحدث الناس علمياً فى الأمــور التى تتصل بحياتنا اليومية . فكلما قرأ الشخص العادى عن الدور الذى يؤديه له العلم داخل منزله . ، وفى مكتبه ، وفى حياته عموماً ، فإن أهتمامه بالعلم وقراءاته سوف تتزايد قطعاً .

ــ إذن ما هى المشكلة ؟

ــ المشكلة هى أن انتشار الكتابات العلمية التى تخاطب الناس العاديين

تواجهها صعوبتان . . صعوبة فيمن يكتب ، وصعوبة فيمن يقرأ. فبالنسبة لمن يكتب نجد أن أكثر أهل العلم يعزفون عن الكتابة بسبب تصورهم السابق أن الناس لا تحب القراءات العلمية . وبالنسبة للقارئ نجد أن كثيرين من القراء لم ينالوا من مبادئ العلم الأولية ما يكفى لمتابعة الجديد فى العلم . إن العالم الذى يكتب للناس لا يستطيع فى كل مرة يكتب فيها أن يبدأ موضوعه من ألف باء . هذا مستحيل ، حتى علمياً . فالمفروض إذن أن يكون القارئ قد نال على الأقل المقدار الذى تعطيه المدارس الثانوية من التعليم . وبغير هذا فإن من يكتب فى العلم لن يجد من يقرأ له ، ومن يقرأ فى العلم لن يجد من يكتب له .

— هل تعتقد أن هذا هو الحل الكامل لمشكلة تعريف الناس بالعلم فى وسائل الإعلام الشعبية ؟

— لا . فحتى لو تحقق هذا ، فإن العالم الذى يكتب للناس سوف تواجهه بعد ذلك مشكلة المصطلحات العلمية ، التى لا بد أن ترد فى كتاباته وهى مصطلحات لن يفهمها غير المتخصصين . فى هذه الحالة لا بد للعالم أن يدور حول هذه المصطلحات . وحتى إن جنح فى سبيل ذلك إلى اللغة العامية التى يفهمها الناس ، فإن هذا يكون أكثر يسراً .

قلت : ألا تتفق معى فى أنه ليس كل من هو عالم يستطيع أن يكتب للناس . ؟

— نعم .

— إذن هناك تناقض . فالعلم هو بطبيعته تخصص يضيق شيئاً فشيئاً .

أما مخاطبة الناس فتحتاج إلى ثقافة متسعة أكثر فأكثر . .

ــ « أنا رأيي أن العلم المفرط فى تخصصه لا ينتج عالماً إنسانياً . إن شأن مثل هذا العلم . . هو كشأن الخراط أو النجار مثلا . . الذى يحسن الخراطة والنجارة إحساناً كاملا لا يجاريه فى ذلك أحد . ولكنه إذا ترك هذا المجال لم يكن بعد ذلك شيئاً . إنما العلم الذى أعتبره علماً . . هو ذلك الذى لا يؤدى بمن يتخصص فيه إلى العزوف عن سائر أبواب المعرفة . إنه العلم الذى يجعل من الرجل إنساناً ، وهو الذى يجعل له من الحياة معنى ، ويجعل له فى الدنيا فلسفة .

* * *

إن هذه الكلمات من أحمد زكى ربما تتفق مع كلمات أخرى سابقة قالها « ألكسندر فيلمنج » ، مكتشف البنسلين ، حينما قال : « هناك أناس كثيرون يتصورون أن الطلاب الدراسين فى الطب يجب أن يتفرغوا للطب وألا يلعبوا مثلا . أنا لا أوافق . إذا لم تكن لطالب الطب ألعاب وهوايات أخرى ، وإذا كان يقضى كل وقته فى قراءة المراجع الطبية فقط ، فإنه ربما يعرف كتبه أحسن من الرجل المجاور له . أقول ربما ، لأنه ليس من المؤكد أبداً أنه سيعرف كتبه أحسن . إن من المحتمل أنه سيكون أكثر معرفة بما هو مكتوب فى الكتب ولكن ليس أكثر معرفة بمعنى ما يقرأ . إن على رجل الطب أن يعرف الناس وأن يعرف الطبيعة الإنسانية » .

إن « فيلمنج » ذكر هذه الكلمات عن رجل الطب ، ولكنها فى الواقع تنطبق على كل رجل . . فالعلم لا قيمة له إذا لم يخاطب فى النهاية

الطبيعة الإنسانية ، والمعرفة العلمية تظل دائماً ناقصة إلى أن تركز على معرفة إنسانية أوسع وأعرض وأكثر شمولا وتنوعاً . إن العلم هو التخصص ، والثقافة هى التنوع . . وما لم يكن المزيج قائماً فى عقل رجل العلم .. فإنه سوف يظل دائماً معزولا عن الدنيا والناس . ولكن أحمد زكى ليس معزولا . لا عن الناس ولا عن المعرفة ، ولا عن التنوع ، ولا عن الثقافة . فى الواقع إن الرجل منذ لحظة ولادته الأولى فى مدينة السويس وهو يبنى لنفسه قاعدة عريضة ومتنوعة من المعرفة .

لقد جاء أحمد زكى إلى الدنيا منذ ٧٧ سنة من أسرة يعمل فيها أبوه واحداً من موظفى وزارة المالية . أب رأسه تحمل العمامة على حين عقله يجيد اللغة الفرنسية .

وشب أحمد زكى ليجد نفسه تلميذاً بالكتاب فى السويس ، ثم تلميذاً فى الابتدائى والثانوى بالقاهرة . من الثانوى التحق بمدرسة المعلمين العليا سنة ١٩١١ لكى يدرس فى قسمها العلمى ويتخرج منها بعد أربع سنوات . الآن أصبح أحمد أفندى زكى حاصل على شهادة عليا . الآن أصبح يرتدى الطربوش فوق رأسه ، والبدلة فوق جسمه والمنشة فى يده ، على عادة الطبقة المتوسطة فى تلك الأيام . الآن أصبح أيضاً مدرساً بمدرسة السعيدية ، بمرتب مضمون آخر الشهر ، ووظيفة ثابتة فى الحكومة .

ولكن المدرس الجديد أصبح فى الشارع بعد شهر واحد ، حينما قررت الحكومة إلغاء التعيينات التى تمت ، كجزء من التقشف الذى ترتب على قيام الحرب العالمية الأولى . ولحسن الحظ لم تكن الحكومة فى

ذلك الوقت هى صاحب العمل الوحيد فى مصر .. . وإلا لما استطاع أحمد زكى بعدها أن يعمل بالمدارس الحرة ، مدرساً فى البداية ، ثم ، ناظراً بعد ذلك . ناظراً لمدرسة ثانوية ألمانية بالقاهرة كان يملكها والد يوسف وهبي واسمها مدرسة وادى النيل . إن أحمد زكى أصبح ناظراً لتلك المدرسة الثانوية وعمره أربع وعشرون سنة . يبدو أن الشباب وقتها كان ميزة لك ، وليس عبئاً عليك ، كما هى الحال فى هذه الأيام !

ما علينا !

أصبح بطلنا الشاب إذن واحداً من الذين يشكلون العقول فى المجتمع وهو فى تلك السن المبكرة . ومع ذلك فإن طموحه كان أكبر من مركزه . إن الطموح هو شيء يزرعه المجتمع فيك — أو يسحبه من عقلك — فى سن مبكرة .. وحينما يعطى المجتمع فرصاً واسعة لأبنائه فى شبابهم ، فإنه يوقد فيهم إلى الأبد شعلة الطموح التى لن تخبو أبداً .

هكذا أنتهى طموح أحمد زكى إلى ترك الوظيفة — مع إغرائها — والسفر إلى الخارج للمضى فى طريقه العلمي . إن « الخارج » فى تلك الأيام كان معناها لندن . الدنيا كلها كانت فى تلك الأيام تبدأ من لندن العلم والثقافة والحضارة والتقاليد — والاستعمار أيضاً — كلها تبدأ من لندن . إن لندن ، فى تلك الفترة التى سافر إليها أحمد زكى فى شبابه ، كانت هى ذلك الخليط المدهش من أحسن الأشياء وأسوئها على الإطلاق .

ولم يكن أحمد زكى مسافراً للحصول على أسوأ الأشياء ، ولكن على أحسنها . لقد التحق على نفقته بجامعة « ناتنجهام » متخصصاً فى الكيمياء

وحينما عثر لنفسه أخيراً على مكان فى جامعة لندن ، التحق بها ثم التحق أيضاً بجامعة ليفربول . من هنا حصل على الدكتوراه فى الكيمياء العضوية سنة ١٩٣٤ .

الآن يستطيع أن يتزوج .. فتزوج ، ويستطيع أن يعمل .. فعمل . الزوجة كانت إنجليزية ، والعمل كان باحثاً فى جامعة مانشستر .

إنه يتذكر تلك الفترة فيقول : « كان معى مفتاح لباب جامعة مانشستر حتى أحضر أو أنصرف وقتما أشاء . ومع ذلك كنت أظل فى أبحاثى إلى ما بعد منتصف الليل . فحينما يكون العمل هو هوايتك . . يصبح الرقيب عليك موجوداً فى داخلك ، وليس فى أى مكان آخر . »

وخلال السنوات الأربع التالية ، كان أحمد زكى قد واصل عمله وأبحاثه ودراسته أيضاً — فى إنجلترا أولاً ثم فى النمسا بعد ذلك — إلى أن حصل من جديد على الدكتوراه لثانى مرة من جامعة لندن . هذه المرة كانت الدكتوراه فى العلوم البحتة . شهادة كان أحمد زكى واحداً من أول اثنين من الشرق الأوسط يحصلان عليها . الثانى كان المرحوم الدكتور مشرفة.

الآن انتهت رحلة أحمد زكى مع الشهادات العلمية ، وبدأت رحلته فى الواقع العلمى . مرحلة بدأت بعودته إلى القاهرة لكى يعمل أستاذاً مساعداً لكلية العلوم فى جامعة فؤاد الأول (القاهرة حالياً) .

قلت لأحمد زكى : ها أنت ذا أخيراً أصبحت أستاذاً مساعداً فى الجامعة .. وهو شىء كنت تطمح إليه من البداية .. فهل سار كل شىء معك على ما يرام ؟

ويرد الرجل ضاحكاً ، عائداً بذاكرته إلى الخلف أربعين سنة : نعم . فالأستاذية فى الجامعة هى منصب علمى مقدس ، وهى أرقى أنواع العمل العلمى .. لأنه عمل ينعكس على جيل جديد أنت مسئول عنه بين يديك . ولقد كان هذا هو إحساسى طوال عملى بكلية العلوم أستاذاً مساعداً ، فأستاذاً ، فوكيلا للكلية ، فعميداً .

قاطعته قائلا : أصبحت عميداً إذن ؟

رد أحمد زكى : لا ، ليس بهذه السهولة التى توحى بها الكلمة .

ـــ لماذا ؟

هنا بدأت الابتسامة تتراجع ببطء من على وجه أحمد زكى ليحل محلها قليلا قليلا شىء من التجهم . فى البداية تجهم .. سرعان ما تحول إلى انفعال يوحى بذكريات سيئة يريد الرجل أن يسقطها من الحساب .

قال أحمد زكى : لقد انتخبنى الأساتذة بالإجماع عميداً للكلية ـــ فالعمادة وقتها كانت تتم بالانتخاب . ولكن مصطفى النحاس باشا ـــ يرحمه الله ـــ رفض اعتماد القرار بوصفه رئيساً للوزراء .

قلت مستغرباً : لماذا ؟

رد أحمد زكى بحرارة وأسف : لم أكن وحدى الذى رفضته الحكومة ، كان معى أيضاً الدكتور السنهورى الذى رفضوا الموافقة على تعيينه عميداً لكلية الحقوق .

ـــ وكيف سارت الأحداث بعد ذلك ؟

ـــ أزمة .. طبعاً حدثت أزمة سياسية . كانت المشكلة هى أننى لست

رجلاً سياسياً ، بمعنى أنني لا أنتمي للحزب الحاكم وقتها ، وهو حزب الوفد . إن السلطة الحاكمة هي دائماً — إذا لم يردعها وعي الأمة — تريد رجالاً تابعين لها .. حتى في المناصب العلمية . لقد أثارت المعارضة أزمة في البرلمان . ولم يرد النحاس باشا وقتها بأكثر من ثلاث كلمات . لقد صعد إلى منصة البرلمان وقال « القانون يعطينا الحق » . . قالها ، ثم نزل ، وهذا كل شيء . ولكن وزير المعارف وقتها — أحمد زكي العرابي — أصر على ضرورة تعييني في منصب العمادة حتى ولو لمدة شهرين . . احتراماً لقرار أساتذة الكلية . لقد أصر الوزير على موقفه .. وأصر رئيس الوزارة هو الآخر ..

قلت : هل كان الوزير ورئيس الوزراء هم كل أطراف الأزمة ؟

رد أحمد زكي — هذه المرة يصاحب كلماته اعتداد ملحوظ بالنفس : أبداً أبداً .. إن طه حسين دخل هو الآخر طرفاً جديداً ، لكي ينتصر للحرية الجامعية . لقد قابل مكرم عبيد باشا الذي كان وزيراً وزعيماً كبيراً في حزب الوفد ، وقال له : « ماذا فعلتم يا باشا في موضوع أحمد زكي ؟ » . ورد عليه مكرم عبيد مستنكراً : « أحمد زكي مين ؟ » ، هنا رد عليه طه حسين قائلا : « يا أخي .. إذا كنتم لا تعرفون أقدار الناس وقيمتهم ، فهذا جهل لا يصح الافتخار به » . في الحق أن هذا كان موقفاً لطه حسين لا أنساه .

قلت : ولكن أزمتك لم تحل بعد . .

قال : نعم . ولكن بعد أن تدخل طه حسين . . بدأ مكرم عبيد يفكر

فى إصلاح الموقف. وأخيراً اتصل بى طه حسين وأخبرنى أن المدير الإنجليزى لمصلحة الكيمياء انتهت مدة خدمته ، وأن مكرم عبيد يقترح تعيينى فى مكانه ، وأن الوظيفة — هذه كلمات مكرم عبيد — مرتبها على أى حال أكبر من مرتب العميد . وسألنى طه حسين عن رأيى ، فقلت له إننى أوافق ..

قاطعت أحمد زكى : .. ولكنك لم تعمل مديراً لمصلحة الكيمياء فى تلك الظروف . . .

— لا . . لم يحدث . لقد عاد مكرم عبيد إلى الاتصال بطه حسين بعد أسبوع وقال له إن الظروف تغيرت ، وإنه يعدنى بوظيفة أخرى بالمرتب نفسه . وحينما أخبرنى طه حسين بهذه المكالمة قلت له : لن أقبل أى وظيفة أخرى حتى ولو بأضعاف المرتب . إن المسألة لم تعد مسألة مرتب ، ولكنها أصبحت مسألة مبدأ .

هكذا تعقدت الأزمة من جديد .

— وكيف انتهت ؟

— انتهت بعد أسبوعين . لقد انتهت بمكالمة جديدة من طه حسين قال لى فيها : « يا سيدى المشكلة تم حلها . لقد تقرر تعيينك فعلا مديراً لمصلحة الكيمياء بمرتب ١٢٠٠ جنيه فى السنة » .

عدت لمقاطعة أحمد زكى مستغرباً : ما سر هذا التغيير ؟ لقد تغير الموقف من الموافقة إلى الرفض إلى الموافقة من جديد فى خلال ثلاثة أسابيع فقط . .

رد أحمـــد زكي بكثير — كثير كثير — من المرارة : « هذا السر لم أعرفه إلا بعدها بأربع سنوات . إن المستشار الإنجليزى لوزير المالية المصرى هو الذى رفض فى البداية تعيينى مديراً لمصلحة الكيمياء . أنت تعلم أنه كان يوجد لكل وزارة فى تلك الفترة مستشار إنجليزى يمثل السلطة الفعلية .. أما الوزير فمجرد « طرطور » . وعندما اعترض المستشار على تعيينى فى البداية .. لم يستطع وزير المالية أن يفعل شيئاً . ثم حدث بعد ذلك أن ذهب العميد السابق لكلية العلوم — العميد الذى كنت سأخلفه فى الكلية — لزيارة المستشار الإنجليزى . وفى تلك المقابلة سأله المستشار : « ما رأيك فى أحمد زكي » . . لقد سأله لسببين: أولا لأنه كان عميداً سابقاً للكلية التى كنت أنا وكيلا لها ، وثانياً لأنه — لأن العميد السابق — إنجليزى أيضاً ! لحظتها رد عليه العميد الإنجليزى السابق : « إننى لو أتيح لى أن أختار رئيساً لى من بين العلماء المصريين ، فلن أختار غير أحمد زكى ! » بهذه الكلمات سحب المستشار الإنجليزى اعتراضه ، وصدر قرار تعيينى من وزير المالية . هكذا يا سيدى كان الوزراء المصريون فى تلك الفترة ، مجرد : طراطير ! »

* * *

مع هذه الكلمات الأخيرة من أحمد زكي كان صوته قد تهدج وأصبح مشحوناً بكمية لا نهاية لها من الأسف والحزن. لقد تهدج صوته ، وتعثرت كلماته ، ودمعت عيناه . نعم . سقطت الدمعة مستترة من عينيه . دمعة على السياسة المصرية التى كانت تتشدق أمام الناس فى تلك الفترة بوطنيتها ولكن أقدامها ويديها

مشدودة إلى الأرض بسلاسل لا نهاية لها . إن الدمية هى التى كانت تتحرك أمام الناس على المسرح ، ولكنها الواقع كانت فى مشدودة بخيط تحركه السلطة الفعلية من خلف الستار . إن السلطة فى مصر كانت دائما مع من يملك فى يده البندقية . الإنجليز وقتها كانوا يحملون البنـــدقية ، أما السياسيون المصريون ، فهم الرصاص الذى كان ينطلق من تلك البندقية . إن الرصاصة لا تحدد هدفها ، ولا تختار مسارها . إنها تنطلق إلى حيث يوجهها من يضغط على الزناد .

وفى تلك الأزمة التى عاشها أحمد زكى فى صدر حياته العلمية ، لم يجد من يقف معه سوى طه حسين . إن هذا كان طبيعياً للغاية ، لأن طه حسين نفسه كان أحد ضحايا السياسيين فى تلك الفترة . إن طه حسين أديب ، وأحمد زكى عالم ، وكلاهما ــ الأدب والعلم ــ كان دائماً من الضحايا المبكرة للسلطة السياسية فى مصر . إن الأدب هو فى النهاية تفكير ، والعلم هو أسلوب فى التفكير . أما السياسة .. فكانت دائماً مجرد سلطة معدومة التفكير والأسلوب . لهذا أخرجت السلطة طه حسين من الجامعة . وأخرجت بعده أيضاً أحمد زكى . لهذا كان طبيعياً أن تتضامن الضحية السابقة مع الضحية اللاحقة . إنه تضامن وتحالف بين الأدب والعلم ضد السياسة ، ضد السلطة ، ضد البندقية . صدام خرج منه العلم شبه منتصر ، مع أنه لم ينتصر .

وأسأل أحمد زكى : هل الحرية ضرورية للعلم ضد السياسة ؟

وهو يرد : نعم . الحرية ضرورية للعلم ، من غير سياسة .

ــ لماذا هى ضرورية ؟

ـ لأنه لا علم بلا حرية ، ولا تقدم بغير مجتمع علمي .

ـ ما هو المجتمع العلمى .

ـ هو مجتمع يؤمن بالحقائق قبل الأشخاص . مجتمع يتقدم بناء على خطة مدروسة ، وليس بناء على نزوات فردية . مجتمع تصبح الحقيقة فيه أكبر حجماً من العاطفة ، والكفاءة قيد فوق المجاملة ، والسلطة تخدم قبل أن تحكم .

ـ بعض الناس يقولون إن المجتمع العلمى هو مجتمع مادى ..

ـ هؤلاء قوم من أهل المشرق . قوم من بيننا يفكرون مثل الثعلب الذى نظر إلى العنب ، فوجده عالياً لا ينال ، فقال : إنه الحصرم المر .. وذهب راغباً عنه . إنهم إذن يقولون ذلك عجزاً وقصر ذيل . فلنصبح أولاً مجتمعاً علمياً قبل أن نلعن غيرنا ..

ـ ما هو العلم ؟

ـ هو المعرفة . .

ـ وما هى التكنولوجيا ؟

ـ هى تطبيق المعرفة .

ـ مثلا ؟

مثلا ، الغاية الواحدة فى العلم هى المعرفة التى لا غاية لها غير تصور الدنيا ، فهى لا تهدف إلى نفع الإنسان فى ملبس أو مسكن أو مطعم . أما التكنولوجيا فهى ما يخرج من هذا العلم البحت من تطبيق ، مما ينفع الناس فى عيشهم .

ـ هل يمكن أن يتقدم العلم بالحظ؟

ـ لا . .

ـ ولو غيرت السؤال : هل يؤمن العلم بالصدفة ؟

ـ لا يمكن . وحتى الاكتشافات العلمية التى تمت بالصدفة ، فإن الصدفة فيها ذهبت فقط للعقل المستعد لها .

* * *

تمام . .

فإذا كنا نقصد بالصدفة تلك الكلمة الغيبية المرادفة للحظ ؛ فإن العلم لا يؤمن بالحظ ولا بالصدفة . إذا كنا نقصد بالحظ والصدفة تلك القوة غير المنظورة التى تؤثر على الأحداث بشكل سحرى .. فإن أول خطوات التفكير العلمى هى أن نلغى هاتين الكلمتين تماماً . لا سحر فى العلم . لا سحر ولا حظ ولا غيبيات ولا ذهباً تسقطه لنا السماء ونحن جالسون القرفصاء . إن العلم هو تفكير ، وتجربة ، وتمييز ، وإدراك ، واختبار وفحص ، وملاحظة ، وترقب وانتباه . إن تاريخ الاكتشافات العلمية هو نفسه دليل واضح على ذلك . لقد تأخرت فى العلم اكتشافات كثيرة عن موعدها لأنها تمت فى البداية أمام عيون لم تنتبه إليها . إن إدوارد جينر لم يكن أول من يطعم الناس بجدرى البقر لكى يحميهم من مرض الجدرى . إن وليام هارفى لم يكن أول من يفترض وجود الدورة الدموية . إن داروين لم يكن أول من يتصور فكرة التطور . إن كولمبوس لم يكن أول أوربى يذهب إلى أمريكا ، وباستير لم يكن أول من يقدم نظرية الجراثيم فى

المرض ، وليستر لم يكن أول من يستخدم حامض الفنيك كمطهر . إن هؤلاء الرجال لم يكونوا الأوائل ، ولكنهم كانوا أول من تنبه، وأول من نمى الأفكار التى اكتشفوها ، وفرضوها بعد ذلك على مجتمعات لا تريدها .

إن شيئاً من هذا القبيل يدور فى رأسى وأنا جالس فى منزل أحمد زكى بالكويت أشاركه المناقشة مع صديق مصرى آخر كلينا يتقاسم الاستمتاع بجلسة الرجل ومناقشته وتاريخه منير لسنوات طويلة سابقة ، وأنا لدقائق قليلة تالية إن طائرتى سوف تقلع بعد ساعة مع أن شخصية أحمد زكى تحتاج فى تحليلها إلى ألف ساعة . إن الرجل يبدو أمامى حصيلة أخيرة لقوى عديدة تتنازعه . . دون أن تحسم المعركة بعد . حتى فى سن السابعة والسبعين . ما زال الصراع مستمراً داخل شخصيته . لقد ولد أحمد زكى فى السويس — مدينة تطغى عليها التجارة ، وعاش حياته فى القاهرة — مدينة تطغى عليها السياسة . لقد بدأ ثقافته من أسفل السلم : الكتاب . وانتهى بها إلى أعلى درجات السلم : جامعات إنجلترا . لقد بدأ تعليمه بالقرآن الكريم . وانتهى تعليمه إلى تكون خلايا الحياة . لقد تخصص — قبل غيره — فى فروع علمية معقدة ، مع أنه — أحسن من غيره — استطاع أن يكتب للناس عن العلم ببساطة . إن البساطة هنا هى بساطة فى المنطق والتفكير والأسلوب والمناقشة والكتابة . ومع أن أسلوبه منذ سفره إلى الكويت قبل أكثر من ١٢ سنة — أصبحت فيه ملامح الصحراء التى تحيط بنا الآن فى منزله ، إلا أنه فى الحقيقة ما زال من أكثر الأساليب جمالا ورونقاً . إنه — بأسلوبه هذا — يقول :

« أشقى ما يشقى به الناس فى أممهم وبين ذويهم ، هو الخضوع . الخضوع الذى يصبح عادة . الخضوع الذى يأتى عقب الأمر ، مهما كان هذا الأمر ، كما يدق الجرس على الفور وراء ضغط الزر واتصال التيار .

« . . الغريزتان الكبريان فى حياة الإنسان هما : الطعام والجنس . لا هناءة لإنسان إلا بالطعام . ولا هناءة للإنسان البالغ ، ذكراً كان أو أنثى ، إلا بالجنس . إنها شرعة الحياة ، وهى شرعة الله . .

« . . على الإنسان العاقل أن يفهم الغاية من غرائزه ، وأن يبذل لها بمقدار ما يصل بها إلى غايتها . . فإذا زاد فعليه وزر ذلك . .

« . . إنى إذا أعطيتك سكيناً ، لكى تقطع بها رغيفاً هو بين يديك ما أن تقف فى المرآة ، وترفع السكين إلى عنقك ، وتذبح بها نفسك ، أفهذا ما كان للسكين بغاية .

« . . إن الحياة بدأت على هذه الأرض بسيطة ثم تعقدت ، والبساطة القديمة لم تكن تعنى السعادة حتماً . كان الناس قلة ، وكانت حاجات العيش قليلة ، وأبوابها على الأغلب مفتوحة . وكان النهب والسلب ، وحتى القتل فى سبيل العيش . ويدفن المقتول ، وتعود الشمس تطلع كأن لم يجد شىء وتعود الحياة إلى بساطتها . .

« . . ثم كثرت الناس وتجمعوا ، وتجمهروا . . فكانت القرى ، وكانت المدن وكانت أمم وشعوب . وكان لابد من حكم ، فكانت حكومات وشقى الناس بالحكومات ، وشقيت الحكومات بالناس ، حتى صاح صائح بالحرية ، وصاح بالديمقراطية ، فانقلبت الأوضاع ، وانعكست العلائق » .

أقول لأحمد زكى : ما هى الحرية ؟

ـ لا توجد حرية !

ـ كيف ؟

ـ أن الحرية التى يتكلم عنها معظم الناس غير موجودة . الحرية المجردة غيرة موجودة . نحن نقول مثلا إن الحق لا يعلى عليه ، ولكن هذا ليس موجوداً إلا فى الجنة .

ـ إذن ما هو الموجود فى عالمنا ؟

ـ الموجود هو حرية نسبية . إن إنساناً خيالياً مثل روبنسون كروزو . . هو الوحيد الذى يستطيع أن يعيش بحرية ، لأنه إنسان يعيش بمفرده على جزيرة منعزلة . إن أحداً لن يلومه فيما يتخذ من قرارات . ولكن الناس لا تعيش فى جزيرة . نحن نعيش فى مجتمع . فى المجتمع يريد كل إنسان أن يكون حراً . هذا مستحيل . ولأنه مستحيل فلابد أن يحدث تصادم بين الأفراد ، ولا بد أن توضع ضوابط للحرية . . حدود للحرية .

ـ ولكن الحرية بمجرد أن نضع عليها حدوداً . . فإنها لا تصبح حرية . تصبح أى شىء آخر . .

ـ وما العيب فى هذا ؟

ـ العيب هو أن هذه الحدود نفسها يمكن أن تكون مقدمة للديكتاتورية .

ـ لا . فطالما يوجد قانون ، وما دامت قواعد القانون هى الفاصل

بين إنسان وإنسان ، بين شعب وحكومة ، فلن تكون هنــاك ديكتاتورية . .

ــ يا سيدى ، لقد عاشت الديكاتوريات دائماً ، حتى باسم الدفاع عن الحرية !

ــ هذا صحيح ، ولكن الديكتاتوريات أخفقت فى العالم كله . الديكتاتوريات أخفقت ، وكذلك الديمقراطيات المتطرفة .

ــ لماذا تخفق الديكتاتورية فى رأيك ؟

ــ لأنها لا تسمح للناس بالتفكير خشية أن يرى الناس غير ما تراه الحكومة . إن هذا شيء ضد الطبيعة الإنسانية . فحتى الأديان السماوية فيها حرية . . .

ــ فلنغير الموضوع ، ولأسألك هذه المرة : هل ترى علاقة ما بين العلم والسياسة ؟

ــ طبعاً . السياسة نفسها أصبحت هى الأخرى علماً من العلوم . إن السياسة ليست علماً بمعنى وجود قوانين لها مثل الفلك والطبيعة مثلا ، ولكنها علم بمعنى أنها أصبحت تعتمد على الأسلوب العلمى والحساب العلمى والتفكير العلمى . فالسياسى أصبح عليه أن يكون مجرداً أولا ، ثم عارفاً بالحقائق دون أن يتأثر بالعلاقات الخاصة السائدة ، كالعلاقة بحزب ضد حزب أو دين ضد دين مثلا . إنما أصبح على السياسى أن ينظر إلى المسائل دائماً باعتبار أن الناس أمامه تسيرهم أشياء أكثر من القوانين . فمن دراسة الناس زائد دراسة ظروفهم . . يستطيع السياسى أن

يخرج بمجموعة قوانين غير عاطفية تحدد سلوكه . لهذا أصبحت السياسة تعتمد الآن على علوم النفس والاجتماع ، بالإضافة إلى دراسة ظروف الناس . من الحصيلة النهائية يستطيع الإنسان أن يكتشف القوانين التى تسير الناس . إن اكتشاف هذه القوانين هو علم السياسة .

— يا دكتور أحمد . . كيف شغلت أنت من قبل منصباً سياسياً ، وهو الوزارة ؟

— أبداً . كل ما حدث هو أنه عندما أنشئ مجلس فؤاد للبحوث العلمية سنة ١٩٤٥ (المركز القومى للبحوث الآن) اختارونى أول مدير له . ومن المجلس دعيت لمنصب وزير الشئون الاجتماعية فى حكومة برئاسة حسين سرى . كان هذا قبل الثورة . وعندما تركت الوزارة عدت للعمل سكرتيراً عاماً لمجلس فؤاد للبحوث العلمية ، الذى تغير اسمه ، إلى أن استقلت فى سنة ١٩٥٣ . وبعد استقالتى بأسبوع عينت مديراً لجامعة القاهرة .

- ولكنك لم تعمل مديراً للجامعة إلا سنة واحدة . .

— نعم .

— هل تعتقد أنك نفذت أفكارك فى الجامعة ؟

— لا . .

— لماذا ؟

— لم يكن الجو علمياً .

— ماذا تقصد بذلك ؟

ـ أقصد أن الناس عندما تشغل نفسها بالبحث عن المناصب ، والسعى إلى الوظائف . . يصبح الجو العلمى مسمماً ، ويصبح التفكير العلمى مستحيلا . .

ـ وما الغريب فى ذلك ، إذا كان هذا يحدث فى المجتمع كله ؟

ـ ليس هذا غريباً ، ولكن الجامعة يجب أن تكون جامعة . . فقط . . إذا ضاعت الأخلاق والمبادئ من الجامعة . . ضاع كل شيء !

* * *

لحظات من الصمت !

الحزن . . والصمت . الأسف . . والصمت . التفكير . . والصمت . إن الواقع كله يقول ذلك . يقول إن المناخ العام للثقافة والعلم فى أى مجتمع ، تقرره تلك المجموعة الأكثر قوة فيه . إن هذا يرجع جزئياً إلى أن هذه المجموعات تملك السلطة اللازمة للسيطرة على نظام التعليم ، ومؤسسات التعليم ، ومؤسسات الدين والصحافة والمسرح والثقافة . إن القيم التى تدعو إليها هذه الأجهزة ، هى فى النهاية قيم تحكم المجتمع كله ، لأنها تمثل نجوماً تسعى الطبقات إليها . وحينما لا تكون الجامعة مرآة لهذه القيم التى تشد انتباه الناس إلى مستقبلهم . . فإن المجتمع كله يصبح بلا مستقبل ، والناس تصبح بلا قيم . إن الحضارات العظيمة ، والمجتمعات العظيمة ، لا تموت من الخارج أبداً . . إنها لا تموت إلا حينما تبدأ فى الانهيار من الداخل . إن السفينة لا تغرقها الأمواج المتلاطمة وسط المحيط إلا عندما تتسرب المياه من الثقوب فى داخلها . بغير ذلك

لا نهاية ولا موت ولا غرق ولا مرض :

أقول لأحمد زكى : كيف تفسر المرض الذى أصاب مجتمعنا فى العصر الحديث ؟

ـ أفسره بأنه مرض نحن الذين نسعى لعدم علاجه . .

ـ وكيف تفسر هزيمتنا أمام إسرائيل سنة ١٩٦٧ ؟

ـ أفسرها بشىء أساسى : إن إسرائيل هى عرض واحد لمرض أصيبت به أمة بأكملها . أمة تفتت جسمها وانهارت قيمها وأصبح النفاق فيها وسيلة ، والرأى عصيان ، والصمت حكمة ، والطريق المعوجة هى طريق الناس للرقى والتقدم .

* * *

كانت هذه كلماته الأخيرة قبل أن أودعه مسرعاً إلى مطار الكويت لألحق بطائرتى عائداً إلى القاهرة . وفى المطار كانت هناك بضع كلمات ما زالت تلح على عقلى . كلمات كان صداها فى أذنى أقوى من كل شىء حولى ، أقوى حتى من أزيز الطائرة البوينج الضخمة التى تستعد للانطلاق . كلمات تقول : « إن الخطأ ليس فى النجوم التى تسيطر على حظوظنا ، بل هو فى داخل نفوسنا » :

كلمات قالها شيكسبير على لسان كاسيوس فى رواية يوليوس قيصر . !

الآن أقلعت الطائرة . الآن . . سقط القيصر ! : :

اقتصاد الكراسي الموسيقية



- آخرساعة . . عدد ١٦ أبريل سنة ١٩٦٩ .

فلا مجد فى الدنيا لمن قل مــاله   ولا مال فى الدنيا لمن قــل مجده

هكذا قال الشاعر العربى المشهور أبو الطيب المتنبي منذ أكثر من عشرة قرون .

أما قبله بعشرة قرون فقد قال الشاعر الرومانى هوارس : المال سلطان يمنح القوة :

وبعد المتنبي بعشرة قرون أخرى قال الشاعر المصرى حافظ إبراهيم: كل شىء إذا ضرب هان . . إلا الذهب .

هذا عن الشعر .

أما فى الدين فالقرآن يقول: « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . . : والإنجيل يقول : إن حب المال هو سبب كل الشرور .

وفى الأدب قال الأديب الروسى تولستوى : إن النقود هى شكل جديد من أشكال العبودية .

من الفلسفة قال الفيلسوف الإغريقى القديم سقراط : إن النقود لا تصنع الفضيلة . . ولكن الفضيلة تصنع النقود .

وفى التراث الشعبي يقول الروس : « عندما تتكلم النقود .. تصمت الحقيقة » .

ويقول البولنديون : « عندما يكون معى نقود . . يسمينى كل شخص صديقه » ! .

إن هذه الأقوال الحكيمة كلها – وغيرها من الأقوال نصف الحكيمة – تعطينا آراء مختلفة فى المال ، أو فى النقود . إنها وجهات نظر مختلفة تعبر عن مواقف مختلفة للدين والأدب والشعر والفلسفة من هذه الكلمة الغامضة : النقود .

ولكن النقود هى – فى الواقع – شىء أبسط من هذا كله . النقود مقياس لتسجيل ما حققه شخص – أو ما حققته دولة – من مجهود . هذا الشخص يملك جنيهاً ، إذن هو قد تعب بما يساوى جنيهاً. هذه الدولة تملك مليوناً ، إذن هى قد عملت بما يساوى مليوناً من الجنيهات . النقود إذن هى مقياس معترف به – حتى الآن على الأقل – لقياس كفاءة الأشخاص وكفاءة الدول . مقياس عاجز أحياناً ، مضلل أحياناً . . هذا صحيح . . ولكنه مقياس على أى حال .. إنها مشكلة يواجهها أى مجتمع ، وهى أيضاً الحل الذى يريده أى مجتمع . النقود هى المشكلة ، وهى الحل . هى المتهم ، وهى القاضى . كانت النقود هكذا منذ مدة طويلة سابقة ، وسوف تظل كذلك لمدة طويلة قادمة .

كانت النقود كذلك منذ قام إنسان العصر الحجرى باستخدام بعض أنواع السمك المجفف والأحجار نقوداً ، إلى أن انتقل بعد قرون طويلة إلى استخدام المعادن – ثم الورق – كنقود يشترى ويبيع بها .

ومنذ فجر التاريخ الحضارى للإنسان ، كانت النقود دائماً أحدا الأسباب الرئيسية فى ارتفاع وسقوط الحضارات والدول والأفراد .

إن قراءة التاريخ تقول إن كل حضارة متفوقة لم تصل إلى القمة إلا بعد

أن امتلكت أشياء كثيرة فى مقدمتها خلق — والاحتفاظ بـ — عملة متينة ثابتة . إن هذا صحيح ، حتى بالنسبة للحضارة الإغريقية . إن اليونان القديمة تدين بكثير من مجدها وعظمتها للنقود . فبعد أن أجرى الإمبراطور اليونانى «صولون» تخفيضاً ضخماً فى قيمة الدراخما سنة ٥٩٤ قبل الميلاد ، أصبحت العملة الإغريقية هى الوسيط الرئيسى للتجارة فى حوض البحر الأبيض المتوسط . بعدها حملت النقود التجارة اليونانية — والثقافة اليونانية — إلى آسيا . .

وعلى الطرف الآخر نجد أن سقوط الإمبراطورية الرومانية جاء عقب انخفاض قيمة نقودها (عملتها) . فحينما بدأ الناس يقترضون بأسراف كانت النتيجة الحتمية هى انخفاض قيمة العملة ثم الكساد . ثم السقوط مرة أخرى . . كانت القسطنطينية قادرة على السيطرة على العالم لقرون طويلة . . وكان أحد الأسباب الرئيسية لذلك هو أنها امتلكت عملة متينة قوية . وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر تمتعت أسبانيا بعصرها الذهبى لأن المكتشفين جاءوا إليها بالذهب والفضة من الدنيا الجديدة (الأمريكتين) . وبإستخدام هذه الثروة كانت أسبانيا قادرة على تمويل ثقافة وفن ما زالت دلائلهما موجودة إلى اليوم .

إن التاريخ إذن يكرر لنا هذا الدرس الكبير والخطير : إن النقود كانت دائماً سبباً رئيسياً فى ارتفاع وانهيار الحضارات . . والإمبراطوريات . . والدول . إن وجود عملة متينة مستقلة هو دائماً المشكلة وهو الحل . إن المجتمعات الإنسانية المختلفة — ابتداء من فينيقيا القديمة إلى سويسرا

المعاصرة — قد أثبتت أنها تستطيع أن تزدهر برغم افتقارها غالباً إلى الموارد الطبيعية . تستطيع أن تزدهر لأنها تفوقت فى معرفة أسرار التجارة وأعمال البنوك والوسائل الأخرى فى التعامل بالنقود .

وعندما نتكلم عن النقود فإننا نتكلم فى الواقع عن الاقتصاد . فالنقود — مع قليل من التجاوز — هى الاقتصاد . ومناقشة مشكلة النقود هى فى الواقع مناقشة لمشكلة أكبر : المشكلة الاقتصادية .

عند هذه النقطة بالضبط يصح أن نستمع إلى حسن عباس زكى وزير الاقتصاد ، وهو يقول :

« . . إن المشكلة الاقتصادية هى كيفية استخدام موارد المجتمع المحدودة لإشباع حاجات أفراده غير المحدودة . فى أى مجتمع رأسمالى أو اشتراكى رجعى أو تقدمى ، يمينى أو يسارى — هناك موارد محدودة . ومقابل ذلك هناك رغبات غير محدودة لكل فرد من أفراده . إن الموارد لاتسمح بإشباع هذه الرغبات غير المحدودة . إذن . . لا بد من الاختيار . لا بد من إعطاء أولويات . ما هى هذه الأولويات ؟ كيف توضع .؟ كيف تنظم .؟ هذه هى المشكلة الاقتصادية . . معنى ذلك أن علم الاقتصاد هو — بالتعريف — علم يتناول مشكلات استخدام موارد محدودة لإشباع رغبات غير محدودة .

« . . المسألة ببساطة هى كلعبة الكراسى الموسيقية . لدينا عشرة كراسى ، ولدينا مائة شخص يريدون الجلوس على هذه الكراسى . مشكلة . من الذى سيجلس ، ومن الذى لا يجلس؟ بالطبع لا بد من إجلاس أكبر

عدد ممكن من الأشخاص على هذه الكراسى . كيف ؟ إن هذا يصور تماماً المشكلة الاقتصادية . الكراسى الموسيقية هى الموارد . المائة شخص هم أفراد المجتمع .

« . . وكل منا – بدرجة أو بأخرى – هو خبير اقتصادى . مثلا : أنت تريد أشياء كثيرة . تريد أن تأكل . . أن تسكن . . أن تلبس . . أن تركب سيارة . . . إلخ . هذه هى مطالبك ، وهى عادة غير محدودة .

« وفى مقابل ذلك فأنت تملك مرتبك . . وهو عادة محدود جـداً . إن مرتبك هو مورد ثروتك ، وأنت مضطر فى النهـاية إلى أن تختار جزءاً من رغباتك لتحققه بثروتك . الجزء الآخر ستظل تسعى إليه ، أو تحلم به ، حسب الأحوال .

« . . . ولو ضربت هذا المثال فى ٣٥ مليوناً ، فسوف يظهر أمامك فوراً حجم المشكلة التى يواجهها المجتمع كله ، رغبات غير محدودة . . وموارد محدودة . وعلى المجتمع أن يضع الأولويات وأن يختار : ما هو العاجل . . وما هو القابل للتأجيل . . . وفى النهاية فأنت ترى قرار المجتمع مطبقاً فى السوق . كل سلعة لها ثمن . هذا الثمن هو المجهود الذى يطلبه منك المجتمع مقابل الحصول على هذه السلعة .

« . . والثمن هو أيضاً تعبير عن توافر السلعة أو ندرتها . الهواء وضوء الشمس مثلا بغير ثمن . . لأنهما متوافران بكثرة . الذهب له أغلى ثمن . . لأنه أكثر ندرة . إن النقود التى تدفعها كل يوم هى إذن مقياس لقيمة هذه السلعة أو تلك . ومن ناحية أخرى فإن النقود التى تكسبها الدولة فى تعاملها مع الدول الأخرى هى أيضاً مقياس لمقدار العمل الذى بذلته .

« . . على أنني أختلف معك في رأيك أن النقود — أو الأموال — لها وحدها الكلمة الأخيرة والحاسمة في ارتفاع أو سقوط الدول ، والحضارات . . إنها طبعاً مقياس . ولكن ، هل تستطيع مثلا أن تفسر انتشار الإسلام في قرنه الأول بناء على عوامل اقتصادية !! . »

ما هذا . . ؟

لقد بدأ حسن عباس زكي في التحدث عن الاقتصاد ، ولكنه انتهى بالتحدث عن الدين . وحتى لا تهتز المناقشة فلابد أن نختار موضوعاً واحداً فقط منهما ثم ننتقل إلى الآخر . أو — وهذا حل وسط — لنترك كلا الموضوعين ونبدأ بالرجل نفسه !

إن حسن عباس زكي ولد في سنة ١٩١٧ . ولد أصلا في بورسعيد . ولكن شخصيته هي خليط مشترك من حرارة أسوان وبرد الإسكندرية . خليط من حماس شاب وحذر عجوز . خليط من تفاؤل المتصوف وحزن المثقف .

وفي قلب هذا الرجل يسير القرن السابع والقرن العشرون جنباً إلى جنب ، يداً بيد ، قدماً بقدم ، خطوة بخطوة . . القرن السابع : قمة الحضارة العربية . والقرن العشرون : قمة التحدي الذي تواجهه الحضارة العربية . ماض يتخلى عنا بغير أسف . . ومستقبل ينظر إلينا بحذر . ذكرى تغرق بعظمة . . ومجد يولد بصعوبة .

وعقل هذا الرجل يقع دائماً بين طرفي المقص . أكثر من مقص . إنه متفائل دائماً . . مع أن في حياته مأساة كبرى .

إنه منتخب شعبيًّا ، ومع ذلك فهو وزير . مقص آخر .

إنه متدين ، ومع ذلك فهو اقتصادى . مقص ثالث .

وجسم هذا الرجل ليس عملاقاً ، ليس قصيراً ، لكنه جسم متحرك . أما وجهه فأكثر تحديداً كلما اقتربت منه . الشعر أسود مثلث فى المقدمة .. مائل للبياض كلما نظرنا إلى جانبي رأسه . . الجبهة عريضة . العينان رماديتان . الحاجبان كثيفان . إنه يتحدث بسرعة ، وبثقة ، وبمتعة .

ونحن نجلس فى صالون منزله . صالون واسع . سورة يس فوق رأسك . منضدة منخفضة أمامك . باب الشقة على يمينك . مائدة الطعام على يسارك . تستطيع إذن أن تختار ما يعجبك : تخرج فوراً ، أو تجلس ضيفاً !

إن حسن عباس زكى يجلس الآن بجانبي . قدم فوق قدم . فانلة صوف فوق بنطلون بنى ، يد تداعب المسبحة بلطف ، مسبحة خضراء ، ويد أخرى تمسك بالمسبحة أحياناً . . وتنفصل عنها أحياناً أخرى .

أقول لحسن عباس زكى : متى تشعر بالسعادة ؟

وهو يرد : عندما أكون على وفاق مع نفسى .

— ومتى تكون على وفاق مع نفسك ؟

— عندما أفهم سر السعادة .

— حسناً . . ما هو سر السعادة ؟

— الإنسان لا يكون سعيداً إلا إذا انبثقت أسباب سعادته من داخله . الدنيا وما فيها لا تساوى جناح بعوضة إذا لم يكن الإنسان على وفاق مع

نفسه ومع ربه . عندما يكون قلبي دائماً مع الله ، وأملي دائماً فى الله ، واعتمادى دائماً على الله ، ورجائى دائماً لله ، وخوفى دائماً من الله . . فإننى أكون سعيداً. ساعتها تهون كل خسارة ، خسارة المال ، خسارة الوظيفة. ساعتها لن أكون عبداً لأحد سوى الله . ساعتها لن أكون عبداً لرغبة إلا رغبتى فى إرضاء الله . ساعتها سأركز حياتى فى القيام بواجبى وإرضاء ضميرى ، وما يحدث لى بعد ذلك فهو نصيبى من الله .

ــ ما هى أكبر الكتب التى تأثرت بها فى حياتك ؟

ــ القرآن .

ــ ماذا أيضًا . . ؟

ــ السيرة النبوية .

ــ هل ترى أن تمسك الناس بالدين قد أصبح أقوى عندهم بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ؟

ــ ليس بالضبط . فالإيمان الدينى عند الشعب العربى بصفة عامة كان موجوداً دائماً ، ربما لا تظهر قوته الحقيقية إلا عند الأزمات ، ولكنه موجوداً دائماً . وفى حالات التحدى . . يكون الإيمان الدينى ــ هذا الشعاع الهابط من السماء ــ عاملا أكبر فى تقوية هذه الأمة ونصرها . إن هذا الإيمان جعل الشعب العربى يقف ضد الصليبيين فى القرن الثالث عشر ويأسر لويس التاسع فى موقعة المنصورة. وهذا الإيمان نفسه هو الذى وحد الشعب ضد سلالات المغول فى القرن السادس عشر ، وضد جيوش جيوش نابليون فى أواخر القرن الثامن عشر. كما أنه أرغم جيوش العثمانيين

على الخضوع لرأى الشعب فى أوائل القرن التاسع عشر ، وجعل رشيد تمزق جيوش بريطانيا أشلاء . لقد عرف الشعب قوة الإيمان خلال هذه المعارك كلها ، وعرفه أيضاً فى الكفاح ضد الاحتلال البريطانى سنة ١٨٨٢ ، وضد جنود الاحتلال سنة ١٩٣٥ ، وسنة ١٩٥١ . إن التاريخ يثبت لنا أن الإيمان بالله — والتمسك بالله — قد جلب لنا النصر دائماً . فى الماضى وفى المستقبل .

قلت لحسن عباس زكى : سيدى ، إننى أتفق معك من حيث الواقع التاريخى ، ولكنى أختلف معك بشدة فى نقطة أخرى . هذه هى : أننى أرى أن المشكلة ليست فى أن نؤمن بالله أو لا نؤمن .. يزيد إيماننا أو ينقص . . ولكن المشكلة هى أننا نتطلع إلى الله كثيراً ليقوم عنا بأداء واجباتنا ، وحينما نهزم فليس هذا بالضرورة لأن إيماننا قد أصبح أقل ، ولكن لأننا فى الواقع أسوأ أعداء لأنفسنا . إننا فى الواقع نحن الذين كنا نهزم أنفسنا بأكثر مما هزمنا الآخرون . هذه هى المشكلة كما أراها ياسيدى . قائمة طويلة بالواجبات نعفى أنفسنا منها وننسبها إلى الله . ما ظلمنا الله بذلك ولكننا ظلمنا أنفسنا .

فكر حسن عباس زكى لحظات ثم بدأ يرد : إن هذا ليس بديلا لذلك . الإيمان بالله ليس بديلا عنه القيام بواجبنا : بل إن قيامنا بواجبنا هو جزء من إيماننا بالله . أليس كذلك ؟

قلت : ليس كذلك . أو — على الأقل — ليس هذا ما نفعله . فنحن دائماً فى واحد من الطرفين ، منتهى الإيمان ، أو منتهى الكفر .

وعموماً فهو موضوع واسع ، أعتقد أنني أختلف معك فيه .. هل تسمح لى الآن بأن أغير الموضوع ؟ حسناً . . لنستمر فى الدين قليلا . . من هى الشخصية الدينية التى تأثرت بها واحترمتها أكثر من غيرها ؟

ويرد حسن عباس زكى : الإمام الغزالى .

ـــ لماذا ؟

ـــ كان الغزالى فقيهاً ومتكلماً ومصلحاً دينيًّا واجتماعيًّا وصاحب رسالة روحية كان لها أثر كبير فى الحياة الإسلامية . ومن أهم كتبه التى أعتز بها كتابه (المنقذ من الضلال) . . وهو يعرض فيه تجربته الروحية ونتائج تقييمه لها . لقد كان الإمام الغزالى يرى أن الإنسان تحكمه ثلاث دوائر . . دائرة المادة وهى التى تتحكم فيها حواسه ، ودائرة العقل .. ودائرة القلب . إن معظم الناس يعيشون فى الدائرتين الأوليين : ما بين حواسهم وعقولهم ، وهذا خطأ . ولكن لو أعطى الإنسان لقلبه منزلة أعلى من عقله وحواسه لأصبح أكثر اكتمالا . فالقلب هو الذى يتأثر بالعقيدة والمثل العليا ، وهو الذى يمنع العقل من الانحراف . بمعنى آخر أستطيع أن أقول لك . . إن ضمير الإنسان يجب أن يسيطر على عقله وحواسه ، ما لم نفعل ذلك فسيظل ضميرنا فى أزمة ، لأن العقول والحواس تستطيع أن تنتهى فى تسابقها إلى الشر .

قلت : ولكن الإمام الغزالى ـــ وهو رجل عاش حياته فى القرن الحادى عشر الميلادى ـــ قد نادى بطريقة فى التصرف لا تساعد بطبيعتها على

البحث العلمى والدراسة المنظمة . إنها طريقة الشطحات العقلية والتفكير الغيبى و . . . »

— إن الإمام الغزالى نفسه حذر من هذه الاتجاهات. ومن ثم فهو ليس مسئولاً عن التطبيق السيئ لأفكاره ، لأن أفكاره هو لا تتضمن شيئاً من ذلك.

ومرت بى لحظات صمت قبل أن أقول : دعنا ننتقل إلى القرن العشرين . . كيف ترى مكان الدين فى القرن العشرين ؟

ويرد حسن عباس زكى : لقد كان القرن التاسع عشر — فى العالم كله — هو عصر الشك فى الإيمان والدين — عصر الإلحاد . ولكن القرن العشرين — فى رأيى — هو عصر الشك فى الإلحاد . . إن الدين سوف يصبح أقوى ، وهذه مسألة حتمية .

* * *

ولنغير الموضوع !

للمرة الثانية سوف أفعل ذلك حتى أتعامل مع الجانب الآخر فى عقل حسن عباس زكى . إنه يتحدث فى لحظة كصوفى ، وفى اللحظة التالية ، كاقتصادى . مرة كخيالى ، ومرة كواقعى ، مرة كمفكر ، ومرة كمنفذ . ولقد سمعت من حسن عباس زكى آراء كثيرة — بعضها اتفق معه وبعضها اختلف عليه ، ولكنى لا أملك فى النهاية سوى أن أحبه . هذه هى النقطة . تستطيع أن تتفق مع — أو تختلف على — آراء يقولها هذا الرجل . ولكنك لا تملك فى النهاية سوى أن تحس أنه صديقك ، صديقه ، صديق لكل الناس ، إنه فى الواقع ينظم لنفسه شخصية كقائد أوركسترا .. بحيث تخرج

فى النهاية بشخصية متكاملة متزنة . عندما يصلى فهو مؤمن كما لم يكن مؤمناً .. وعندما يدرس فهو اقتصادى كما لم يكن اقتصادياً .. ولقد سمعت عدداً من وزراء الاقتصاد العرب يعتبرون حسن عباس زكى خبيراً وأستاذاً وكانوا يتسابقون فى ضرب الأمثلة .

وشاهدت حسن عباس زكى بنفسى عندما حضرت الاجتماعات المشتركة لصندوق النقد الدولى والبنك الدولى بمدينة واشنطن عاصمة الولايات المتحدة الأمريكية . كان بسيطاً ، وكان مقنعاً . وكان رؤساء وفود الدول الأعضاء — وكلهم وزراء اقتصاد ومالية — يحبون للاجتماع به وتبادل الرأى معه ، لم تكن تراه وحده إلا نادراً . كان دائماً مع هذا الوزير ، مع هذا الوفد ، مع روبرت ماكنمارا رئيس البنك الدولى . وفى أحيان كثيرة كنا نتزل معاً — هو وأنا — نتجول وحدنا فى شوارع واشنطن ومكتبات واشنطن نبحث عن كتب جديدة نشتريها .

وكان ماكنمارا يعرف القضية الرئيسية التى تشغل بال الوفود كلها . . لقد لخصها وقتها — بكلمات قليلة . هذه هى : « إن معدل النمو السنوى للدخل الفرد فى أمريكا اللاتينية هو أقل من ٢٪ ، فى شرق أفريقيا بجرد ٢٪ ، وفى أفريقيا عموماً مجرد واحد فى المائة ، فى جنوب آسيا مجرد نصف فى المائة . هذا معناه أنه لو استمرت هذه المعدلات فإن مضاعفة الدخل الفردى فى شرق أفريقيا سوف يستغرق ٣٥ سنة ، فى أمريكا اللاتينية أكثر من ٤٠ سنة ، فى أفريقيا حوالى سبعين سنة ، وفى جنوب آسيا مائة وخمسين سنة !! .. إن مثل هذا الموقف يستدعى مجهوداً ملحاً وعاجلاً من

الدول الغنية لمساعدة النمو الاقتصادى فى الدول الفقيرة . إنها قادرة على ذلك. فخلال السنوات التسع الماضية ، زاد الدخل السنوى الفعلى للدول الغنية بمقدار ٤٠٠ بليون دولار . . زيادة هى فى حد ذاتها أكبر من مجموع الدخل السنوى لكل الدول النامية فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية !!!

تلك الأرقام التى سمعناها من ماكنمارا كانت تمثل حقيقة مفجعة حقيقة عسرة الهضم . . وعسرة الكتابة أيضاً .

وأسأل حسن عباس زكى : إلى أى درجة يمكن للعمل المشترك بين الدول النامية أن يخلق مناخاً ملائماً لانتصارها فى معركتها القاسية ضد الفقر ؟

ويرد وزير الاقتصاد : إن الدول النامية — ونحن من بينها — تواجه كثيراً من المشاكل — كالتمويل وغيره — فى مشروعات التنمية . ولكن هذه المشاكل ليس معناها أن تعقد الدول النامية هدنة مع الفقر الذى ورثته . بالعكس . لا هدنة مع الفقر ، وإلا أدت إلى مزيد من الفقر .. فكل تأخر فى التنمية الاقتصادية تدفع الدول النامية ثمنه مضاعفاً . ولكننى أتصور أن محاربة الفقر فى عالمنا المعاصر لم تعد مجرد مشكلة اقتصادية فحسب ، بل أصبح لها أيضاً وجهها السياسى . وإذا كان الجهد الخاص لكل دولة نامية داخل حدودها كفيلا بأن يحل الجانب الاقتصادى للمشكلة . . فإن الجهد المشترك بين الدول النامية عموماً هو الذى يكفل حل الجانب السياسى . إن الدول النامية — عندما تنزل بمنتجاتها إلى الأسواق الدولية — تجد نفسها وحيدة بين طرفى هذه النتيجة : قروض أقل وأقل . . تكلفها أكثر فأكثر — ثم إنتاج أكثر فأكثر يحقق

لها إيراداً أقل فأقل !

قلت : هذا مقص تقف الدول النامية بين طرفيه . . .

ــ نعم . وحتى بدون ارتفاع فوائد القروض وانخفاض أثمان الصادرات ، فإن الحقائق ما تزال مفجعة . إن ثلثى سكان الدول النامية مثلا يعملون فى الزراعة ، ومع ذلك فإن الدول النامية تجد أنفسها مضطرة سنوياً لاستيراد طعام من الدول الصناعية قيمته أربعة آلاف مليون دولار . . تصور ؟

قلت : إننى متصور طبعاً . وأتصـــور أن المشكلة فيها أيضاً ، جانبها السياسى كما تقول أنت ــ فى قمة العصر الاستعمارى مثلا كان سدس العالم غنياً وقوياً .. وكانت خمسة أسداسه الباقية ضعيفة ، وفقيرة . إن الحال لم يعد كذلك اليوم . إن السدس الغنى ما زال على غناه هذا صحيح ــ ولكنه أصبح يقف موقف الدفاع من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ولا تزال بقية دول العالم على فقرها ، ولكنها تلتزم موقف الهجوم فى غضب .

قال حسن عباس زكى : « حتى الغضب أصبح له ثمن مرتفع ! إن التنمية هى أحد الوجوه الإيجابية لغضب الدول النامية من ماضيها وفقرها . ومع ذلك فإن الدول النامية ــ فى النصف الثانى من القرن ، العشرين ــ تجد نفسها مضطرة لأن تدفع ثمناً للتنمية أغلى بكثير جداً من الثمن الذى دفعته الدول المتقدمة التى أنجزت عملية التنمية فى القرن التاسع عشر ، أو أوائل القرن العشرين .

فأولاً : أن عملية التصنيع فى الدول النامية عموماً .. تحمل الآن مسئوليات

اجتماعية فوق مسئولياتها الاقتصادية التقليدية . إن الرأسمالى الذى كان يبنى مصنعاً منذ ١٥٠ أو ١٠٠ سنة كان لا يدفع للعامل مثلا إلا ما يكفى لسد رمقه . لم تكن هناك تأمينات اجتماعية ولم يكن هناك حد أدنى للأجر ولم يكن هناك حد أقصى لساعات العمل . . إلخ . . أما الدول النامية التى تقوم الآن بعملية التصنيع الذاتى ، فإنها تحمل فوق كتفيها مقدماً مسئوليات اجتماعية للوفاء بحاجة الجماهير إلى العدالة . فالمشكلة الاقتصادية هنا تجد نفسها مكلفة بحل مشكلة أخرى اجتماعية وسياسية .

ثانياً : أن عمليات التوسع الاستعمارى أو الضغط الشديد على القوى العاملة أو كليهما . . قد كفلا مصدراً خصباً أمام الدول الأوربية فى الماضى فى تكوين احتياطى متراكم من رأس المال يستخدم من جديد فى مزيد من التنمية .

وثالثاً : أن التنمية الاقتصادية الآن تواجه مقدماً توقعات كثيرة من الجماهير — كان الاقتصاد معفى منها فى القرن الماضى .

والخلاصة . . أن المشكلة الاقتصادية هنا قد حملت فوق أكتافها مقدماً مشكلة أخرى اجتماعية وسياسية » .

* * *

المشكلة الاقتصادية . . نعم !

إنها مشكلة قديمة تطل علينا بوجه جديد . مشكلة تضاربت الاتجاهات فى حلها واختلفت الجهود فى محاولة التغلب عليها . إنها سبب لكل حرب ونهاية لكل سلام . إن الإقطاع والرأسمالية والاشتراكية

والشيوعية، هي مجرد وجهات نظر لحل هذه المشكلة . الأديان والتقاليد ، ونظم الحكم كانت تجد نفسها أيضاً أمام ضرورة اتخاذ موقف من أسلوب حل هذه المشكلة .

ففي مصر الفرعونية مثلا كان الدين يفرض على كل شخص أن يزاول مهنة أبيه ، وإذا احترف غيرها فإنه كان يعتبر « مرتكباً لأبشع تدنيس لحرمة المعتقدات » .

وفي الهند حتى وقت قريب كانت التقاليد تفرض على الأفراد أعمالاً معينة تتفق والطبقة التي ينتمون إليها . فالفرد هنا تولد معه الحرفة التي يجب عليه أن يمارسها في المستقبل .

وإلى جانب الدين والتقاليد كان المجتمع يلجأ إلى وسيلة أخرى ، لتنفيذ وجهة نظره في حل المشكلة الاقتصادية . هذه الوسيلة هي السلطة المركزية التي تحدد للناس الأعمال التي تراها لازمة للمجتمع لكي يستمر اقتصادياً . إن أهرامات الجيزة مثلاً، لم يتم بناؤها لأن مقاولا جريئاً فكر في ذلك . كما أن مشروعات السنوات الخمس في الاتحاد السوفييتي لم تنفذ لأنه تصادف أنهـا تتمشى مع عادات الأفراد . إن . الوسيلة هنا هي سلطة واحدة تتخذ قرارات معينة يقوم المجتمع بتنفيذها . قرارات — هي من وجهة نظر من يتخذها — كفيلة بحل المشكلة الاقتصادية ؟

وفي عالمنا المعاصر فإن المجتمع — كل مجتمع رأسمالي أو اشتراكي . . رجعي أو تقدمي — يضع فوق كتف الخبير الاقتصادي مسئولية تنفيذ الحل الذي يراه للمشكلة الاقتصادية .

من هو الخبير الاقتصادى ؟ إنه — ببساطة — الشخص الذى يعرف عن النقود أكثر مما يعرفه الشخص الذى يملك هذه النقود !

والاقتصادى الممتاز يجب — فى الواقع — أن يملك مزيجاً نادراً من المواهب. يجب مثلا أن يكون رياضياً إلى حد ما . يجب أن يحمل أيضاً شيئاً من صفات المؤرخ ، والسياسى ، والفيلسوف . يجب أن يدرس الحاضر على ضوء الماضى لفائدة المستقبل . الاقتصادى يجب عليه — كالسياسى — أن يكون أحياناً قريباً من الأرض . . ولكنه عليه — كالفنان — أن يكون قريباً من السماء . ثم عليه دائماً أن يكون دقيقاً كالعالم .

وأعود إلى سؤال حسن عباس زكى : لماذا اخترت لنفسك من البداية دراسة الاقتصاد والتخصص فيه وخصوصاً أنك التحقت بكلية التجارة فى سن مبكرة — ١٧ سنة — وتخرجت فيها فى سن مبكرة أيضاً — ١٩٣٨ ؟

وهو يرد : « المسألة أننى فى شبابى — كأى شاب فى أى وقت — كانت تراودنى أمنيـــة فى قرارة نفسى : أن أشترك فى عمل أو مجهود لإصلاح هذا المجتمع . أن أشارك فى خلق المواطن المتوازن نفسياً واجتماعياً إن الدين يعطينا المفتاح للتوازن النفسى . والاقتصاد يعطينا المفتاح الآخر للتوازن الاجتماعى . هذه هى المسألة التى شغلتنى دون أن تقترن فى عقلى بوظيفة أو بمركز » .

نعم فى هذا الجانب كان حسن عباس زكى نموذجاً لشاب بدأ ، السلم من أول درجة فيه . لقد بدأ حياته العملية — بعد تخرجه فى الجامعة

بالعمل في بنك التسليف الزراعى . موظف حسابات . مساعد مراجع . سنة وسنة . إلى أن انتقل إلى بنك مصر ، ثم إلى بنك التسليف مرة أخرى ثم وزارة التموين سنة ١٩٤٣ إلى أن أصبح فى الوزارة مشرفاً على مراقبة الغزل والمنسوجات .. بعدها انتقل الموظف — ما زال صغيراً — إلى وزارة الاقتصاد . انتقل موظفاً فى قسم التجارة الخارجية ، ثم إلى وزارة المالية . . فستشاراً تجارياً ، لسفارتنا بواشنطن فى الولايات المتحدة . عن هذه الوظيفة يقول حسن عباس زكى .. « إنها كانت نقطة تحول فى حياتى ، لقد وجدت نفسي وسط مجتمع مختلف ، وحضارة مختلفة . وجدت نفسى أتعامل من مستويات دولية مختلفة . . ولقد خرجت فى النهاية بأن الدول المتقدمة ليست أكثر منا ذكاء . ولكنها أكثر تنظيماً ، وأكثر إيماناً بعلم الإدارة » . .

بعد عمله فى وشنطن عاد حسن عباس زكى ليصبح وكيلا لمصلحة القطن . فى تلك الأيام . . « كنت قد بدأت أهتم بدراسة أعمال البورصة والبحوث التسويقية عموماً » . ثم أصبح مندوباً للحكومة فى بورصة القطن بالإسكندرية . فمدير عاماً للنقد . إنها . . فترة أعتز بها فى حياتى . فترة صعبة . إنها الفترة التى جمدت فيها أرصدتنا من العملات الأجنبية الغربية بعد تأميم قناة السويس . كانت فترة تحد لكل مواطن فى موقعه . . وكنا نحس — مع صعوبة المهمة — بضرورة عدم السماح بألا تهزم بلدنا اقتصادياً . » بعدها بسنوات أصبح حسن عباس زكى وزيراً للخزانة ، فوزيراً للاقتصاد ، فالتموين مع الاقتصاد ، فرئيساً لشركة ،

فرئيساً منتخباً للجنة الخطة والميزانية بمجلس الأمة ، ثم رئيساً لمؤسسة التأمين . . . إلى أن عاد من جديد وزيراً للاقتصاد .

وحسن عباس زكى متزوج . وله ولد (٢١ سنة) وثلاث بنات ، (أكبرهن سوسن — ٢٠ سنة ، طالبة بالجامعة الأمريكية) .

وحسن عباس زكى من الذين يستيقظون مبكراً . الخامسة صباحاً . لصلاة الفجر ويقرأ فى مكتبه من الثامنة والنصف ، وأحياناً من الثامنة . عمل حتى الثالثة والنصف ظهراً . الغذاء . ساعتان لاستكمال أعمال الوزارة فى المنزل. قراءة . النوم فى الحادية عشرة مساء ينام خمس ساعات .

ومن النادر أن يشاهد حسن عباس زكى أفلام السينما . آخر مرة منذ ست سنوات . المسرح أكثر من ذلك . آخر مسرحية شاهدها هى السلطان الحائر لتوفيق الحكيم .

ومكتبة حسن عباس زكى فى منزله ضخمة ومتنوعة : تتراوح كتبها من الدين إلى الفلسفة والاجتماع والفلك والأدب إلى الدين مرة أخرى . إن الدين والتصوف مسألة وراثية عند حسن عباس زكى . خاله كان شيخاً للصوفية ونقيباً للأشراف بمدينة بورسعيد . جده كان إماماً دينياً. عندما بدأ يقرأ كان يريد إجابة على سؤال محدد : لماذا تدهور حال المسلمين ؟ هل هذا يرجع لعيب فى دينهم ، أو لعيب فى أنفسهم ؟ . . ثم « لكى أجد إجابة على هذا السؤال وجدت نفسى أقرأ فى التاريخ والطب وعلم الاجتماع والفلسفة والسياسة .. إلخ ..

وأسأله : هل وجدت الإجابة ؟

وهو يرد ردوداً كعناوين موضوعات . يقول :

« إن صلاح الفرد هو بداية صلاح المجتمع كله . إن بداية الإصلاح يجب أن تكون بالفرد نفسه .

« إن الحقيقة الأصيلة التي لا نزاع في تقديرها أن عللنا الوبيلة كامنة في نفوسنا . . هذه العلل هي ضعف المعاني الروحية وعدم الشعور بالمسئولية المشتركة .

« إن الإنسان حينما يصبح قوة روحية إنما يصبح في الواقع قوة لا تقف أمامها أية قوة ، وهذا هو سر تفوقه ، وسر بقائه » .

و . . . . . .

مرة أخرى : ربما أختلف مع حسن عباس زكي في الرأي أحياناً وربما اتفق أحياناً ، ولكنه في النهاية يظل هو هو : صديقي ، صديقك صديقنا جميعاً .

* * *

توفيق الحكيم تحت الفحص



- آخر ساعة . . . عدد ١٥ مارس ١٩٦٩ .

تنبيه ضروري . . جداً ، قبل أن ندخل فى الموضوع .

بدأت مرة فى إعداد دراسة لشخصية فنان مشهور فى بلدنا . فنان كبير . وعندما بدأت أستعرض معه الشكل النهائى للدراسة فوجئت به يعترض قائلا : أرجوك . . لا داعى لهذا السؤال . . لهذه الجملة . . لهذا الإحراج . . لهذا النقد . .

واعترضته قائلا : لا داعى للدراسة كلها . . !

أنت يا سيدى رجل عظيم . ربما أكثر . ولكن المشكلة هى أننى — ومعى فى ذلك جيل جديد كامل فى بلدنا — قد أسقطنا كل الأصنام من حياتنا ، المشكلة ياسيدى هى أننا — منذ وقت طويل مضى — قد اتخذنا قراراً بألا نعفى أحداً من النقد . . والمراجعة . . والفحص .

المشكلة يا سيدى هى أننا نرى أن الرجل العظيم لا يكون عظيما قبل أن يتعرض للنقد . . ويحرض عليه .

هذه يا سيدى هى شروطنا قبل أن نعطيك أذناً تسمعك . . أو عينا تقرأك . .

و . . .

لم يقتنع الفنان المشهور . إنه يريد التصفيق . . ونحن نريد المناقشة . صدام أجيال .

إنه لم يفهم . . .

إنه — حتى — لا يريد أن يفهم . . ماذا جرى . . ولا متى جرى ! !

و . . الكلام لك ياجارة !

سألت توفيق الحكيم : لماذا تكتب ؟

أجاب : إننى منذ مدة طويلة . . لم أكتب . .

قلت : إذن . . حينما تكتب . . فلماذا ؟

أجاب : لأن الفنان لا بد أن تكون له وجهة نظر فى الحياة وفى الناس ، وفى الأفكار . الفنان ليس مجرد متفرج . إنه متفرج وصانع لمجتمعه فى وقت واحد . وأنا . . أعشق الفن .

قلت : لماذا لم تتجه إلى فرع آخر من فروع الأدب . . . لتقل الشعر مثلا ؟

توفيق الحكيم : « طبعاً أنت ترجع بى الآن إلى أيام شبابى. لأن فترة الشباب هى فترة الاختيار . اختيار المواقف .. واختيار الأفكار .. واختيار المستقبل . والواقع أن الشاب عندما يختار الشعر مثلا .. فإنه يلجأ إليه تلبية لنداء الفن فى أعماقه، فبعض النفوس التى يستيقظ فيها شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجاً وثياباً . والشعر أقرب تلك الأثواب تناولا للشاب . فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء ، وما عليه إلا أن يسير على الدرب . هذا إذا لم يكن هناك ثوب آخر كالموسيقى أو الرسم أو التمثيل قد حل فيها الشيطان من قبل . . وتلك كانت حالتى حينما كنت أعيش فترة الاختيار — أقصد فترة شبابى . كان شيطان الفن عندى قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن يلتفت إلى ثوب القصيدة الشعرية . وحتى عندما اتجهت فيما بعد إلى كتابة الرواية والقصة ونحوهما ، فلقد فعلت ذلك بدافع العقل الواعى والحاجة الماسة . حاجتى إلى التعبير عن حماسى لبلادى ورؤيتى

لتطور مجتمعى . وحاجة الأدب وقتئذ إلى إقرار هذه القوالب الجديدة على نحو جاد . . لتحمل موضوعات جديدة .. ما كان يمكن أن تحملها غير الرواية والقصة . أيضاً لم تكن فى شبابى فروع معترف بها بعد من الأدب العربى . إنهما كانتا كمهنة التمثيل والموسيقى والتصوير والنحت .. أشياء لا يقربها إلا المغامرون » .

باختصار .. يريد الحكيم أن يقول إنه كان جريئاً .

إن الموقف يتطلب منه جرأة .. لكى يتجه إلى الكتابة المسرحية أولا .. ثم إلى القصة والرواية فى فجر حياته . فالمجتمع — وهذا صحيح — لم يكن قد اعترف بعد بهذه الوسائل كفروع من الأدب . ولكن المجتمع هو هو دائماً . يعارض دائماً تلك الأقلية التى تبرز من بين أعضائه لكى تنبهه .. إلى أن تهزمها الأقلية المصممة .. وتنتصر عليها . هكذا عارض المجتمع قاسم أمين حينما كتب عن ضرورة تحرير المرأة ، وعارض طه حسين حينما أعاد النظر فى الأدب العربى . . وعارض الدكتور محمد حسين هيكل — رحمه الله — حينما كتب فى سنة ١٩١١ روايته (زينب) — فجر الرواية المصرية . بل إن هيكل لم يجرؤ على أن يضع اسمه على قصته عندما طبعها لأول مرة .. خوفاً من غابة كبيرة اسمها .. المجتمع المصرى !

ولماذا نذهب بعيداً .. ؟

إن توفيق الحكيم نفسه تردد سنوات طويلة قبل أن ينشر أول رواية له — رواية عودة الروح . لقد ألفها سنة ١٩٢٧ ، ولكنه لم يطبعها إلا فى

سنة ١٩٣٣ .. رواية أعطت مصر أملا بعد أن شطب المجتمع المصرى كلمة « أمل » من قاموسه . يكفى مثلا أن توفيق الحكيم استمد شعار الجزء الثانى من (عودة الروح) من الكتاب الفرعونى (الموتى) . شعاراً يقول :

« انهض .. انهض يا أوزوريس . أنا ولدك حورس . جئت أعيد إليك الحياة . لم يزل لك قلبك الحقيقى . قلبك الماضى » .

إنها إذن مصر .. إنه إذن مستقبل مصر .. هو الذى كان يشغل بال توفيق الحكيم عندما كتب روايته (عودة الروح) . إنه الأديب إذن — الحكيم فى حالتنا هذه — الذى تنبأ بالمستقبل قبل حدوثه . تنبأ بعودة الحياة لمجتمع تصور أن الموت قدره .

وأسأل توفيق الحكيم : هل تعتقد أن الأدب — والفن عموماً — قد أصبح عاجزاً عن التنبؤ بالمستقبل ؟ أنت مثلا قرأت مبكراً جداً — حينما كنت تلميذاً فى السنة الثانية الثانوية — للكاتب الإنجليزى هـ. ج. ويلز . قرأت له بالتحديد كتاباً عن السفر إلى القمر . وكان ذلك قبل أن يتقدم العلم ويقتحم طريق السفر إلى القمر . إنك شخصياً سبقت الزمن — ربما — فى التنبؤ لمصر بمستقبلها . وويلز هو نموذج آخر للأديب الذى سبق العلم فى زمانه إلى التنبؤ بالمستقبل والتنبيه له ومحاولة تصويره . ولكننا نرى اليوم أن الأدب قد تقطعت أنفاسه .. وهو يحاول اللحاق بالعلم ، بعد أن كان يسبقه .. كان العلم يتقدم نحو هدف ، فيجد أن الأدب قد سبقه إلى هناك ووقف ينتظره . ونحن لا نرى ذلك الآن . فما هو تفسيرك ؟

فكر توفيق الحكيم لحظات قليلة . تراجع بظهره إلى مؤخرة كرسيه المتحرك — كرسى ضيق داخل حجرة واسعة .

أخيراً يرد الحكيم : فى الواقع أن مبادرة العلم اليوم فى الكشف عن إمكانيات المستقبل وإعطاء صورة عنه قد جعل الفن والأدب يفقدان فى هذا المجال الكثير من مبادراتهما فى تصور الغد وقيادة الناس إليه . ولذلك فنحن الآن فى حالة تخبط فى العالم كله . حالة تشاهدها فى البلاد المتحضرة بأوضح مما تشاهدها فى بلادنا . كل هذا أصبح نتيجة لأن الفن والأدب يجدان أنهما قد فقدا زمام المبادرة للعلم ، بمعنى أن العــلم عندما يعطى الآن صورة للمستقبل فإنه لم يعد يجد الأدب فى انتظاره هناك كما تقول أنت . لا يجد أن الأدب قد سبقه إلى تجسيم صوت المستقبل . . إما فى خيال مستغرق كما فى الروايات الخيالية العلمية التى اتخذت مكان الرواية البوليسية فى إثارة الجماهير ، وإما فى وصف الهزة النفسية التى نتجت من زلزلة العلم لكثير من التقاليد والمعتقدات .

— إذن .. هل ترى أن الفن والأدب يكتفيان الآن بدور المفسر لما حدث .. دون أن يحاولا التنبؤ بما سيحدث ؟

رد الحكيم بسرعة ولكن بهدوء : شوف .. لقد تراجع الفن والأدب عن دور التنبؤ بالمستقبل لأنه لم يعد فى إمكانه أن يتحكم فى الحياة .. التى تتغير باستمرار بتغير النظرة العلمية . لقد أدت هذه النتيجة إلى أن يكون الفن معبراً عن هذه الزلزلة النفسية .. فاتجه أحياناً إلى زلزلة الأساليب الفنية التى يمتلكها ، وأصبح يهيم باحثاً عن وسائل جديدة للتعبير .. مثلما استطاع

العلم أن يغير التفكير العلمي . وأحياناً يلجأ الفن والأدب إلى إبراز هذا الاضطراب الداخلي الذى نجم عنه زلزلة العلم لكثير من المعتقدات . ومن هنا نشأ الأدب والفن الكئيب أو الأسود ، أو المتشائم مثلا . وحتى الآن فإن الفن ما زال يبحث عن طريقه وسط هذه الأنقاض .

— إذن .. ما هو الأمل ؟ إن الشعر مثلا كان يمسك فى الماضى بزمام القيادة الأدبية والفنية ، ولكنه عندما فقد الزمام لم يستعده بعد ذلك مطلقاً فهل ترى أن هناك أملا حالياً فى أن يعود زمام القيادة نحو المستقبل .. إلى الفن والأدب ؟

توفيق الحكيم يقطب جبينه . إنه يغرز يده اليمنى فى خده الأيمن متكئاً بذراعه على مسند كرسيه ، متراجعاً بجسمه مرة أخرى إلى الخلف ، ناظراً بعينه إلى بعيد .. إلى فراغ . ويرد توفيق الحكيم : « فى الواقع أنا لا أستطيع أن أحدد الآن ما هو الأمل. إن الفن والأدب يتعاملان مع النفس البشرية والمجتمعات الإنسانية . هذا فى حد ذاته يجعل مهمة الفن والأدب أكثر صعوبة فى مثل هذا العالم المضطرب اللاهث خلف الاكتشافات العلمية السريعة والمثيرة . إن النفس البشرية بطيئة التغيير بالنسبة للتغييرات العلمية المحيطة بها . إن معتقدات الإنسان ومشاعره ما زالت هى نفسها التى وجدت حينما اعتقد أن الطيران هو آخر اختراعاته . ولكن ، عندما خرجت سفن الفضاء إلى القمر والكواكب الأخرى .. فإن الإنسان فوجئ بوضع جديد لم تتكيف معه بعد أوضاعه النفسية أو الاجتماعية أو الشعرية . من هنا أصبح الفن المعبر عن النفس البشرية واقعاً فى حيرة . إنه — من

ناحية — يتناول الإنسان بتكوينه القديم.. أما العلم — من ناحية أخرى — فقد جعل الإنسان شيئاً عجيباً وفى وضع جديد .. يستطيع معه أن ينظر إلى الكرة الأرضية من بعيد كأنها كرة معلقة فى الفضاء متدثرة بغمام أبيض. أصبح الإنسان يستطيع أن ينظر إلى أرضه من بعيد فى هذا الشكل، كذبابة تنظر إلى طبق غطيت محتوياته بالزبد الأبيض . فمن بعيد ، من الفضاء ، تبدو الأرض بلا حدود ولا فواصل .. مجرد كرة مرشوش عليها مسحوق أبيض اللون . .

« . . إن مثل هذا الإنسان .. الذى يرى أرضه وعالمه بهذا الشكل . . ما هى مشاعره الجديدة ؟ إنها لم تختلف فى نوعها عن مشاعره القديمة ، وإن كان من الجائز أن تختلف فى درجتها . ثم .. هذه الأرض التى تداخلت فيها القارات.. ما هى سياستها الجديدة ؟ إنها هى نفسها التى كانت موجودة منذ عهد نيوتن .. حينما كان العلم ما زال طفلاً يحبو .

« . . إن هذا التناقض بين السياسة والمجتمع ، هذا التنافس على حكم الإنسان للإنسان ، هذا التنازع بين الدول وبعضها ، بين بعض التقاليد وبعضها الآخر ، بين بعض الأفراد وبعضها أيضاً .. كان حتى الآن يجرى تحت سماء لا نعرف عنها سوى أنها غطاء محكم علينا لا سبيل أمامنا إلى اجتيازه .

« . . ثم جاء العلم وغير بعض هذا كله . لقد رفع العلم الغطاء من فوقنا ، ولكنه لم يغير شيئاً — لا فى المجتمع ولا فى الأفراد — فكيف يستطيع الأدب والفن إذن أن تكون لهما القيادة فى هذا المضمار ؟ إن العلم غير

البيئة التى تحيط بالإنسان ، ولكنه لم يغير بعد الإنسان نفسه . ما زالت عواطف الإنسان وأفكاره هى هى ، أنانيته هى هى ، حبه للسيطرة وتمسكه بالتقاليد التافهة التى كانت سائدة منذ قرون مضت فى السياسة والاجتماع والاقتصاد .. كل هذا ما زال على ما كان عليه ... » .

هنا قاطعت توفيق الحكيم قائلا : إنها إذن أزمة يجتازها الفن والأدب.. ولا أريد أن أقول إنها عقدة نفسية بدأت تصيب الفن والأدب .. من العلم .

واصل توفيق الحكيم رده قائلا : نعم . أزمة . هذه هى الأزمة التى يعيش فيها الفن والأدب الآن . إن الفن مستمر فى تعقده من العلم الذى أخذ منه بالفعل زمام القيادة .

قلت : ولكنك ذكرت منذ لحظة أن العلم يغير البيئة ، ولكنه لم يغير بعد الإنسان نفسه . فهل تقع هذه التهمة يا ترى على العلم . . أو على الفن والأدب ؟

أجاب توفيق الحكيم : « هذا هو السؤال فعلا . السؤال هو .. هل يستطيع الإنسان أن يتغير ، ويغير ما بنفسه ، حتى يستطيع الفن أن يتغير هو أيضاً ؟ أو أن على الفن أن يسبق ويتغير .. لكى يمهد الطريق أمام الإنسان نفسه .. فى محاولته التكيف مع الظروف الجديدة ؟ السؤال هو من الذى يقع عليه زمام المبادرة : الإنسان .. أم الفن والأدب ؟

« . . وفيما يبدو لى ، فإن الفن والأدب قد تنبها إلى الأزمة المعاصرة فى حدودها هذه . لقد تنبه الفن إلى أنه هو الذى يتحمل مهمة تغيير

الإنسان فى هذه المرحلة . ولكن .. يغيره إلى أى صورة ؟ ما زال هذا سؤالا آخر ينبغى التنبيه إليه ، هل يقوم الفن والأدب بخلق قيم جديدة للإنسانية تتمشى مع الظروف الجديدة .. أو يكتفيا بمجرد تصحيح القيم القديمة ؟ إذا حسم الفنانون والأدباء هذه النقطة فربما يستعيد الأدب والفن زمام القيادة والخروج من هذه الأزمة . إن ما يزيد الأزمة صعوبة هو أن الصراع فيها يجرى بين عوامل كثيرة . . وأطراف كثيرة .

* * *

صراع . . ؟

هل ذكر توفيق الحكيم كلمة صراع حالا ؟

إذا كان قد فعل فإن هذه الكلمة نفسها هى فى الواقع المفتاح الرئيسى لفهم شخصيته هو . فالواقع أن شخصية توفيق الحكيم هى حصيلة صراع طويل جرى بينه من جهة ، وبين بيئته من جهة أخرى. صراع فى عقله بين الماضى والمستقبل ، وصراع فى حياته بين الأب والأم .

ففى طفولة توفيق الحكيم صراع طويل بين الحياة والموت .لقد أصيب فى طفولته بأمراض متوالية . هو نفسه يقول عن ذلك : « . . كانت فترات الشفاء أندر من فترات المرض » . وبعد سنوات طويلة شفى الطفل توفيق الحكيم من الحمى التى لازمته . ولكن . . « .. داء آخر بدأ ينمو داخل عقلى : إنه القلق . لم أستطع منه فكاكاً طول عمرى . إنى فى حالة قلق دائم طول حياتى .. حتى عندما لا أجد مبرراً لأى قلق» .

وفى عقل توفيق الحكيم صراع بين الماضى والمستقبل . إن توفيق الحكيم

يحاول دائماً أن يكون فى انتظارنا هناك.. فى المستقبل . وعندما ينجح عمل من أعماله الأدبية فإنه لا يكرره .. لا .. الحكيم ليس من هذا النوع . إنه يترك نجاح الماضى .. ليقتحم مخاطر المستقبل . لقد حققت له رواية « الرباط المقدس » نجاحاً كبيراً .. ولكنه لم يكررها .. لقد نجحت أيضاً مسرحية « السلطان الحائر » .. ولكنه لم يكررها .. إنه يعلم بالضبط ماذا تريده الجماهير.. ولكنه لا يستسلم للجماهير . إنه بالطبع يكون سعيداً عندما يتذكر نجاح الماضى .. ولكنه يكون سعيداً أكثر حينما يحاول أن يكتشف المستقبل . فنان .

وفى شخصية توفيق الحكيم صراع آخر بين أمه وأبيه . صراع طبقى . أمه كانت غنية ، وأبوه فقيراً . كان وكيل نيابة — هذا صحيح — ولكنه كان أيضاً موظفاً بمرتب عشرة جنيهات شهرياً . وعندما تم الزواج بين والد توفيق الحكيم ووالدته فإنه كان زواجاً نموذجياً بين الطبقة المتوسطة ، التى تريد أن تكون ثرية .. والطبقة الثرية ، التى تقاوم السقوط إلى الطبقة المتوسطة !

إن أم توفيق الحكيم كانت من أسرة تعمل بالبحر ، من الذين يسمون « البوغازية » . إن سحنة أمه وزرقة عينيها من بين دلائل أصلها التركى . ولم يرث توفيق الحكيم عنها زرقة العينين لأن « . . سحنة والدى الفلاح القح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بأكمله » ! كانت أمه ذات طبيعة متناقضة : « . . فيها جرأة وفيها خوف فى الوقت نفسه . جرأة على الناس وخوف على نفسها » . وأبوه كان ذا طبيعة متناقضة أيضاً : « . . كان

يستكثر ثمن فنجان قهوة فى غير ضرورة .. وينفق بتهور على البنائين والسماسرة لمشروع خيالى اقتنع به » !

إنه إذن صراع بين شخصيتين ، ونقطتى بداية مختلفتين . صراع يقول عنه توفيق الحكيم : « .. إنى سجين أشياء كثيرة أورثنى والدى إياها ، فيها الطيب وفيها الردىء . كما ورثت عن والدتى خيرها وشرها . فهى طيبة القلب ولكن فيها روح شر ... غير أنها لا تعرف الخبث إطلاقاً ، فهى صريحة — صراحة متحدية أحياناً . ولا تطيق أن تخفى فى صدرها شيئاً . أما والدى فهو طيب نادر الشر ، لكنه كثير الخبث ، وقليل الصراحة .. وقد ورثت أنا من كل هذا بنسب متفاوتة » .

بل إن الكاتب العظيم عباس العقاد — رحمه الله — كتب مرة عن والد توفيق الحكيم .. نقلا عن المرحوم عبد العزيز فهمى .. يقول : « إن إسماعيل الحكيم كان يحب أن يبتدع له فى كل شىء .. حتى فى التدخين » !

* * *

وأسأل توفيق الحكيم : ما هى وظيفة الفن ؟

ويرد : الفن هو أداة الإنسانية لتأمل ملامحها ومعرفة نفسها .

أقول للحكيم : لو فحصنا تاريخ الأدب والفن .. لوجدنا نوعين من الأعمال والمؤلفين . ففى بعض الحالات مثلا تكون حياة المؤلف أهم من أعماله الأدبية والفنية . إن « اعترافات جان جاك روسو » مثلا نموذج لذلك . إن حياته هو نفسه أصبحت أهم وأبقى عندنا من أعماله الأخرى .

وفى مقابل ذلك نجد أعمالا أخرى يختفى فيها المؤلف ، على حين تبقى أعماله . شكسبير مثلا . نحن لا نعرف من كان شكسبير .. ولا من كان هومر . لقد اختفى الفنان هنا داخل عمله ، وتراجعت حياته وشخصيته إلى الخلف تماماً . من هنا أريد أن أسألك .. أيهما تحرص على إعطائه أهمية أكثر : حياتك كعمل فنى ، أم أعمالك الفنية كانعكاس لحياتك ؟ إننى أنبهك هنا إلى أننى فى الواقع أستمتع تماماً بقراءة « يوميات نائب فى الأرياف » و « سجن العمر » .. مثلما أستمتع بقراءة « السلطان الحائر » و « عودة الروح » و « يا طالع الشجرة » . كلا النوعين من الأعمال يعطينى إحساساً بالفنان الذى أنتجهما .

لحظات صمت ثم يرد توفيق الحكيم : فى الواقع أننى كنت حريصاً فى الدرجة الأولى على إبراز الأعمال الفنية فقط دون محاولة التأثير على القارئ . لقد حرصت مثلا على أن تكون كل كتبى الأولى بغير مقدمات توضح مراميها ، مع أنها كانت فى أشد الحاجة إلى مقدمات تشرح اتجاهاتها . إننى لم أفعل ذلك لأننى كنت أريد من العمل الفنى أن يقدم نفسه . ولقد استمر هذا هو أسلوبى إلى أن جاء الوقت الذى فوجئت فيه بأن هناك دراسات أدبية يقوم بها باحثون بدون أن يتتبعوا الحياة الشخصية والظروف الذاتية للفنان أو المؤلف . . باعتبار أن هذا يساعدهم على فهم العمل الفنى نفسه . ونظراً لغياب مثل هذا المصدر بالنسبة لى . فقد بدأ بعض الدارسين يؤلف سيرة حياتى على حسب ما يتراءى لهم .. مجتهدين فى استنباط هذه السيرة الذاتية من مؤلفاتى القصصية وغيرها ، وخلطوا فى ذلك

بين الشخصية الروائية فى بعض الأعمال وبين حقيقة حياتى وظروفى كمؤلف .

عندئذ وجدت أنه لا مفر من أن أكتب بنفسى بعض جوانب حياتى توفيراً لجهد الباحثين وتوضيحاً دقيقاً لبعض مراحل حياتى التى تتصل مباشرة بأعمالى الأدبية أو الفنية . من هنا أصدرت كتاب « زهرة العمر » .

وعندما دخلت مرحلة الكهولة ، أردت أن أبحث فى طبيعة نفسى ، ومسئولية هذه الطبيعة عن توجيهى الأدبى والفنى ، باعتبار أن الطبع نفسه له دور أساسى فى توجيه الحياة وتكييف شكلها . من هنا أصدرت كتاباً آخر فى هذا الاتجاه هو « سجن العمر » .

هذان هما الكتابان اللذان يمسان حياتى الشخصية بشكل مباشر . إن كتابتى لهما كان عملا اضطرارياً . ولو لم يكن هناك من يبحث فى الحياة الشخصية للمؤلف كعامل من عوامل الدراسة الأدبية .. لما فكرت فى الاهتمام بمثل هذا الجانب أو الكتابة فيه .

ومن ناحية أخرى فإننى وجدت أنه من الأسهل بالنسبة لمؤلفاتى الأدبية التالية أن من المفيد أن أساعد القارئ والباحث فى تلمس الاتجاهات الأدبية فى العمل الفنى ، ومن ثم رأيت أن أصدر مع هذه المؤلفات تعقيبات سريعة قد تكون مفيدة فى توضيح بعض خطوطها . إننى لم أجد هنا الحرج الذى كنت أتجنبه فى أعمالى الأدبية الأولى . لأننى فى الأعمال الأولى كنت حريصاً على أن يكون العمل الفنى نفسه هو الذى يكشف عن اتجاهى . أما وقد أصبح اتجاهى معروفاً ومألوفاً لكثير من القراء والباحثين ، فلم يعد

هناك سبب يمنعنى من تقديم إيضاحات لهذه الأعمال .

قلت : وهل ترى هذه الكتابة المباشرة — سواء كتابتى سجن العمر أو زهرة العمر أو توضيحاتك فى بعض أعمالك الفنية .. هل تراها مفيدة ؟

— لا أدرى . إن هذا متروك لغيرى .

قلت : طيب .. بصفة عامة ، هل معرفة الحياة الشخصية للفنان تساعد على تفهم أعماله الفنية ؟

— أنا شخصياً عندما أقرأ للآخرين فإننى أحاول دائماً أن أركز اهتمامى فى العمل الفنى ذاته ، لأنه هو المعول عليه فى معرفة القيمة الحقيقية للفنان ولم يحدث فى قراءاتى الفنية أن قرأت حياة كاتب أو فنان قبل أن أقرأ أعماله . العكس هو الصحيح . إن معرفتى لشكسبير أو موليير أو بيتهوفن أو الجاحظ مثلا كانت تبدأ دائماً بمعرفة أعمالهم وتذوقها ودراسة وسائل عبقريتهم فيها . ولم أتجه إلى معرفة شيء عن حياتهم الشخصية إلا فيما بعد ، عندما اجتزت مرحلة الاتصال بأعمالهم الفنية . إلى الاهتمام بحياتهم الشخصية .

— حسناً .. عندما بدأت تهتم بحياتهم الشخصية .. هل وجدت معرفتك لها تساعدك فى فهمك لهم ؟

— بالنسبة لى كانت المسألة حب استطلاع ومتعة شخصية ، ولكن الذى أفادنى حقاً وكان محل اهتمامى الرئيسى هو التأمل الطويل لأسلوب عملهم الفنى . لأن دراستى لهذه الأساليب هى التى تعطينى بعض أسرار المهنة . . التى أتطلع إلى معرفتها . والواقع أن الفنان — أى فنان — له أسلوبه فى خلق العمل الفنى . إن تأمل الكيفية التى يجمع بها الفنان عناصر

متعددة يخلق منها عملا واحداً متناسقاً حيًّا نابضاً يشع بالفكر والجمال ، هو بذاته مجهود يجب أن يحرص عليه كل من اختار لنفسه السير فى طريق الفن . . سواء كان فناناً ناضجاً .. أو مجرد مبتدئ .

وأسأل توفيق الحكيم : بمناسبة المبتدئين ، أريد أن أبدأ معك من البداية ، مثلا – كيف بدأت تكتب ؟ وهل كانت الكتابة عملية سهلة بالنسبة لك ؟

أجاب الفنان الحكيم : لا . لم تكن عملية سهلة مطلقاً . لقد مزقت كثيراً من الأوراق وكتبت العمل الواحد بكثير من الأشكال قبل أن أصل إلى أسلوب فنى يرضينى . إن هذا الجهد الطويل الذى بذلته بحثاً عن أسلوب فنى أصابنى أحياناً كثيرة باليأس من إمكانية الوصول إلى نتيجة . ولكن ، عندما كاد هذا اليأس أن يصل إلى نهايته ، تفجر أمامى فجأة بصيص أمل تمثل فى فكرة واحدة هى : يجب أن أترك البحث عن أسلوب خاص كهدف . يجب أن أترك نفسى على طبيعتها . يجب أن أكتب مثلما أسير ، مثلما أمشى ، فى تلك اللحظة تذكرت أننا نتعلم المشى بالطريقة نفسها . إننا نتعثر دائماً فى أول الطريق . إننا نظل نحبو فى طفولتنا مدة طويلة ، ثم نحاول أن نقلد آباءنا ، نحاول أن نمشى بمفردنا . وإذا لم نستطع ، فإننا نستند إلى كرسى أو إلى حائط . خطوة وخطوتين ثم نقع . وعندما نقع فإننا ننهض لنحاول المشى من جديد .

إننا . . كأطفال . . عندما كنا نصل إلى هذا الدرجة فإن هذا فى حد ذاته كان يسبب لنا فرحة كبرى . يمكنك أن تلاحظ هذه الفرحة

عند أى طفل لحظة نجاحه فى السير بمفرده على قدميه . إنه فى البداية لا يكاد يصدق أنه يستطيع السير بمفرده ، ومن ثم فإنه يصبح كالعفريت لا يكف عن السير فى كل مكان . هكذا تبدأ المسألة إلى أن يصبح المشى بعد ذلك شيئاً عادياً طبعياً . . هل أنت تفكر الآن فى الطريقة التى تمشى بها ؟

قلت : أنا أستمع إليك . . .

ـ « إن ما أريد أن أقوله هو أن أسلوب الكاتب أو الفنان يماثل طريقته فى المشى . لا أحد منا يلاحظ كيف وصل إلى طريقته الحالية فى المشى على قدميه . ذلك لأن لكل إنسان طريقة خاصة فى المشى لم يكن يستطيع أن يفكر فيها سلفاً أو يخطط لها مقدماً . المسألة نفسها فى الأسلوب الفنى . كل فنان يبدأ بالتعثر والسقوط والمحاولة إلى حد اليأس ، ولكنه عندما يجتاز هذه المرحلة فإن أسلوبه الفنى يصبح كطريقة مشيته : شىء يأتى من تلقاء نفسه وبغير تفكير سابق فيه . ويصبح الفنان فيما بعد متميزاً بأسلوبه الفنى مثلما هو متميز كإنسان بطريقة مشيه .

وعلى العكس من ذلك ، عندما يحاول الإنسان أن يقلد إنساناً غيره فى طريقة مشيته فإنه سيصبح مثيراً للسخرية . وعندما يحاول فنان أن يقلد غيره فى أسلوبه فإنه سيصبح أيضاً مثيراً للسخرية ، مع أن كلا من المشى والأسلوب يكون التقليد هو بدايتهما الطبيعية . الطفل يبدأ بتأمل والديه : كيف يمشيان . ثم يحاول أن يقلدهما . أخفق مرة ونجح مرة . هذا طبيعى . بعد مرات من المحاولة نجح فى أن يمشى وحده . عندما مشى أصبح

بطريقة خاصة لا يقلد فيها أبويه . هكذا الفنان . يبدأ يتأمل الأسلوب الفنى للآخرين . محاولة للتقليد فى البداية . مرة يخفق ومرة ينجح . بعد أن يصيبه اليأس يصل إلى أسلوب خاص يميزه . أما إذا لم يتجاوز مرحلة التقليد فإنه لن يكون فناناً على الإطلاق » .

* * *

كلام معقول .

إن توفيق الحكيم لخص فى السطور السابقة المشكلة الأساسية التى يواجهها كل فنان مبتدئ . مشكلة الأسلوب . إن الكاتب الفرنسى « فرانسوا مورياك » الحائز على جائزة نوبل كان يقول دائماً : « كل روائى يجب عليه أن يخترع أسلوبه الخاص وتكنيكه الخاص . إن كل رواية هى مثل كوكب آخر . . له قوانينه الخاصة مثلما له نباتاته وحيواناته الخاصة » .

وأسأل توفيق الحكيم : إلى متى ظلت تواجهك مشكلة البحث عن أسلوب خاص ؟

وهو يرد : ظلت المشكلة تواجهنى إلى ما قبل نشر أعمالى الأولى

قلت : تقصد قبل كتابتك لمسرحية « الضيف الثقيل » ؟ لقد كانت « الضيف الثقيل » أول مسرحية لك ، بأعتبار أنك كتبتها سنة ١٩١٩ ، وأنها كانت تدور حول الاحتلال البريطانى لمصر فى ذلك الوقت . . ولكننى لا أعتقد أنك تعتبر هذه المسرحية بداية حقيقية لأعمالك الفنية والأدبية . . .

ـ نعم .. لا أعتبرها بداية حقيقية لى. لقد فقدت نص هذه التمثيلية منذ وقت طويل مضى ، وأتذكر أنها كانت ترمز إلى إقامة ذلك الضيف الثقيل فى بلادنا بدون دعوة منا ، وبدون رغبة منه فى الانصراف عنا . وهو الاحتلال الأجنبى . .

وبصفة عامة فإن تلك التمثيلية كانت تمثل مرحلة من مراحل حياتى الفنية . مرحلة كان الهدف فيها هو إجادة العرض المسرحى من حيث هو فن قائم بذاته . . . بصرف النظر عن الأفكار التى يتضمنها . وكانت تلك المرحلة متسمة بنوع المسرح الموجود وقتئذ .. وبمراعاة إمكانية العرض الناجح من حيث تقبل الجمهور لها . مرحلة كان كل انتباهى فيها موجهاً نحو معرفة أسرار العرض المسرحى ومحاولة إجادته .

إن تلك المرحلة انتهت فى سنة ١٩٢٥ ، بعد أن كتبت عدة مسرحيات مثلت على مسرح عكاشة ، منها « العريس » و« خاتم سليمان » و « المرأة الجديدة » وأوبريت « على بابا » .

بعد ذلك سافرت إلى أوربا لأدرس فى فرنسا . وهناك بدأ ينمو اتصالى بالحضارة الغربية فى مختلف نواحيها . ومن هناك أصبح الفن فى نظرى وعاء كبيراً يجب أن نصب فيه خلاصة الحضارة من أفكار أدبية وفنية . أصبحت أومن بأن الفن له مهمة أكبر من مهمة العرض المسرحى . . . أى أن الفن يجب أن يعكس النشاط العقلى الإنسانى فى تطوراته الحضارية .

ولقد دخلت بذلك مرحلة ثانية فى حياتى الفنية . مرحلة صعبة

اقتضت دراسات واسعة للمنابع الحضارية المختلفة التى عرفتها الإنسانية .
مرحلة تمثل إنتاجى الروائى فيها بقصة « عودة الروح » ، وإنتاجى المسرحى بمسرحيتى « أهل الكهف » و « شهر زاد » .

قلت لتوفيق الحكيم : لنقف الآن عند هذه المرحلة . . . فلدى سؤال معين يهمنى هنا . هذا هو : هل كنت تنشر كل ما تكتبه خلال السنوات العشر الأولى من حياتك الفنية ؟

ــ لا . . !

ــ كم بالتقريب كانت نسبة ما تنشره من كتاباتك ؟

ــ لم يكن ينشر لى أكثر من ٤٠ ٪ مما أكتبه .

ــ . . . والباقى ؟

ــ كنت أعتبره محاولات فاشلة . كنت حريصاً على أن أكون أنا . . الرقيب الأول على نفسى وإنتاجى . ومن ثم كنت حريصاً على تقييم إنتاجى دائماً ، الناجح فيه والفاشل .

* * *

ها هو ذا توفيق الحكيم يقودنى بيده إلى الإخفاق فى حياته . فالواقع أن الفارق بسيط للغاية بين إنسان وآخر . كلاهما يخفق ولكن الإخفاق بالنسبة للأول يصبح حافزاً لليأس ، وبالنسبة للثانى يصبح حافزاً على المحاولة من جديد . وتوفيق الحكيم فنان . بل ربما كان هو من طلائع الذين اكتسبوا لكلمتى فنان وأديب ــ احتراماً فى مجتمعنا الحديث .

مع ذلك ، فإن توفيق الحكيم لم يصل إلى ما وصل إليه بخبطة حظ .

لقد ذاق مرارة الإخفاق كثيراً فى حياته، بل إن صدمة الإخفاق واجهت توفيق الحكيم فى سن مبكرة من حياته .

مثلا . . توفيق الحكيم أخفق فى حياته الدراسية أربع مرات . مرة عندما رسب فى السنة الأولى الابتدائية . ورسب أيضاً فى امتحان النقل إلى السنة الثانية الثانوية . رسوب قبيح — هذا تعبيره هو . ثم رسب مرة ثالثة فى امتحان النقل إلى السنة الثانية بمدرسة الحقوق . وكان رسوبه فى مواد عديدة من بينها اللغة الفرنسية . وأخفق توفيق الحكيم مرة رابعة عندما ذهب إلى فرنسا بغية الحصول على الدكتوراه وعاد بغيرها . .

نحن إذن خسرنا تلميذاً ناجحاً ، وكسبنا فناناً كبيراً . ولكن وضع المسألة بهذا الشكل يكون مضللا للغاية . فتوفيق الحكيم لديه قدرة على تعويض كل فشل يصيبه ، بمضاعفة مجهوده فى المرة الثانية . ومع أن شغفه بالفن بدأ فى فترة مبكرة من حياته ، إلا أنه لم يستخدمه عذراً لمزيد من الفشل .

وأسأل توفيق الحكيم : هل تستطيع أن تذكر لى بالضبط . . متى وكيف حدث أول انفعال لك بالجمال الفنى ؟

وهو يرد : ربما لا أستطيع أن أذكر هذا تماماً . لعل أول مظهر من مظاهر انفعالى بالجمال الفنى اتخذ صورة تذوق التلاوة القرآنية الجميلة والاستمتاع بها من شيخ يجيدها يوم كنت تلميذاً بالكتاب .

ثم شعرت بالفن فى صورة أخرى بعد ذلك . مولد سيدى إبراهيم الدسوقى . . حيث عمل والدى فى دسوق فترة . انفعلت بالذات بالموكب

الذى كان يمر من تحت نوافذنا بمناسبة المولد . كان نوعاً من الكرنفال الساذج .. ولكن تأثيره على نفسى فى تلك السن كان عجيباً .

على أن اهتمامى الحقيقى بالفن — فى صورته المباشرة — حدث من شيئين . فأولا يوم جاءت إلى مدينة دسوق وقتئذ جوقة الشيخ سلامه حجازى ، أو لعلها كانت إحدى الفرق التى كانت تقلده وتطوف برواياته وتتخذ اسمه فى تنقلاتها بالأقاليم . يومها نصبوا لتلك الفرقة مسرحاً من الخشب فى إحدى رحبات البلد وارتدى أفراد الجوقة ملابس « شعراء الغرام » أى روميو وجولييت لشيكسبير . طبعاً كانت التمثيلية مطعمة بالقصائد والألحان التى لا تخطر لشيكسبير على بال !!

والشىء الثانى الذى أثار اهتمامى بالفن حقيقة هو « الأسطى حميدة » . كانت أسرتى قد عرفت جماعة من . «عوالم » الأفراح بمناسبة زفاف أحد أقربائنا . وبعد الفرح عقدت أواصر المعرفة بين والدتى وجدتى وبين الأسطى حميدة العوادة المطربة رئيسة العوالم . بعدها كانت الأسطى حميدة تتردد كثيراً على منزلنا — وأحياناً تبيت عندنا . كان صوتها يشجينى وحفظت كثيراً من الأغانى التى كانت تغنيها . . .

— هل تتذكر كيف بدأ اهتمامك بقراءة الأدب العربى ؟

— نعم إن الفضل فى هذا يرجع إلى مدرس للغة العربية عندما كنت طالباً فى السنة الأولى الثانوية . كان معمماً ، ولكنه كان أيضاً عصرى التفكير . لقد حبب هذا الأستاذ الأدب العربى إلينا وشجعنا على أن نكتب على طبيعتنا . كان يقول : إن خير البيان ما لا يتكلف فيه البيان .

— هل تؤمن بذلك الآن؟

— نعم . إننى أؤمن بأن أحسن أسلوب فنى هو الذى يكون طبيعياً. الشعار عندى « كن طبيعياً . . تجد نفسك » .

قلت لتوفيق الحكيم : هل وجدت نفسك عندما بدأت تكتب مسرحيات اللامعقول؟ أقصد مرحلتك الفنية الثالثة التى بدأتها بكتابة « ياطالع الشجرة »؟

وضحك توفيق الحكيم لحظات قصيرة . إنه يضحك بالفصحى ! لحظة وأخرى ثم يقول : عندما فكرت فى كتابة « ياطالع الشجرة » منذ سنوات قليلة كان العالم قد بدأ ينشغل بالبحث عن أساليب جديدة — خصوصاً فى أوربا . لقد أصبحت الحضارة هناك معقدة ومتشعبة ، وأصابها نوع من الملل . . جعل الفنانين والأدباء يعيشون فى دوامة البحث عن أساليب وقوالب جديدة لفنهم . وقد رأيت فى بادئ الأمر أن مثل هذه الحمى فى البحث عن أسلوب جديد هو نوع من المرض العابر نتج عن فوران المجتمع الحضارى بالمشاكل الاجتماعيـــة والعلمية . . خصوصاً بعد القفزات الهائلة التى قام بها العلم الحديث ومحاولة خروجه إلى الفضاء الخارجى . لقد أصيب الفن والأدب بعدها بحالة عدم . حالة جعلت الفن والأدب يصابان — كما قلت لك — بحمى البحث عن أشكال جديدة وأساليب جديدة للتعبير الفنى .

لكل ذلك رأيت وقتئذ أن أبحث فى إمكان استخراج جديد من بعض تراثنا الشعبى أو تفكيرنا الذاتى مما يمكن أن أكيفه ليلائم أسلوباً من تلك الأساليب التى تتجه إلى الجديد . . كل هذا بشرط أن يكون فى

حدود كسر الجمود الفنى ، وليس الرغبة فى الدوران فى دوامة الحمى التجديدية الأوربية. المسألة الأساسية أننا نريد أن نتقن الأسلوب التقليدي ونصل فيه إلى درجة كبرى من الإتقان بأعتباره الأسلوب الطبيعى الذى نصب فيه أفكارنا وأتجاهاتنا وحياتنا . ولكن — إلى جانب ذلك — يجب أن نضع فى اعتبارنا أيضاً أن الجمود مكروه هو الآخر . هناك إذا عملية ملاءمة يجب أن تحدث بين الاستقرار فى الأسلوب الطبيعى ، وبين منع هذا الاستقرار من أن يتحول إلى جمود . هذه الملاءمة هى ما ينبغى أن نفكر فيه وأن نلاحظه وأن نحاول أن نصل به إلى الوضع الصحى فى إنتاجنا الفنى والأدبى .

إن « ياطالع الشجرة » كانت بداية المرحلة الثالثة التى مررت بها فنياً ، والتى أصدرت منها بعدها « طعام لكل فم » و « رحلة سير » و « رحلة قطار » .

— لماذا إذن لم تستمر فى هذا الاتجاه ؟

— « لقد وقفت عند هذا الحد لأنى لم أرغب فى التشجيع على التوغل فى الالتفات إلى موضات الأسلوب وبدع التجديد لمجرد التجديد ، حتى لاينتهى بنا الأمر إلى تلك الحمى التى تعانيها أوربا اليوم فى الفنون ، والتى أخذت تنحسر بدورها وتتراجع ، حتى فى أوربا نفسها . لقد بدأ الفنانون هناك يلتقطون أنفاسهم ، ويعودون إلى الإنتاج الطبيعى ، مع الاحتفاظ ببعض مكتسبات حالة الحمى . . لأن كل حمى لها أيضاً نواحيها المفيدة فى تحريك الجسم » .

الحمى . . ؟

لا شك أن هذه الكلمة لها مدلول سيئ للغاية فى نفس توفيق الحكيم . إن الحمى لازمت الحكيم فى طفولته سنوات عديدة سببت له متاعب صحية عديدة فى تلك السنوات المبكرة من طفولته .

ولكنه عندما يتكلم عن الحمى فى الأدب فإنه يتكلم فى الواقع نوع من «تجاريب المعمل» التى أجراها الأدباء والفنانون فى السنوات الأخيرة .

إن توفيق الحكيم عندما يتكلم فإنه يستخدم أشياء كثيرة فى توضيح آرائه . عيناه تنظران إلى قلمى ، وصوته يكرر المعنى لأذنى ، ويده تؤكد الحديث !

هذا إذن هو توفيق الحكيم : الشارب الأبيض فى وجهه . . البيريه الأزرق فوق رأسه . العصا بجانبه . ديكور . عندما يتحدث فإن كرسيه يتراجع به إلى الخلف . . وأصابع يده اليمنى تأخذ مكانها على خده الأيمن مرتكزاً بساعده على مسند الكرسى متطلعاً بعينيه إلى الأمام أحياناً . العين اليسرى قوية على غير العادة . اليمنى ضعيفة . آثار مرض من أيام الطفولة .

وتوفيق الحكيم لايدخن ، لايسكر ، لا يسهر . . يأكل دون إفراط يمشى أحياناً . كل شىء لديه يتم فى حدود . عادات ورثها عن أبيه .

وهو لا يحمل ساعة فى يده . فى الواقع لم يحمل ساعة مطلقاً طوال حياته . هذه واحدة من عادات قليلة لم يرثها عن أبيه . كان أبوه يحمل فى جيبه ساعة معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائماً عشر دقائق . فإذا

سئل عن الحكمة في ذلك قال : لكي يكون عندى دائماً عشر دقائق مدخرة للطوارئ !!

ومكتب توفيق الحكيم نظيف تماماً . لا توجد عليه سوى نسخة من آخر مؤلفات نجيب محفوظ كتب عليها المؤلف « إلى العبقرى الفنان توفيق الحكيم أهدى هذا الكتاب » . خلف المكتب بمتر واحد يوجد دولاب مقفول يحتفظ فيه الحكيم بمجموعة كتبه. لاحظ أن الدولاب مقفول ! ووجه توفيق الحكيم يبدو أكثر نحافة مما هو في معظم الصور المطبوعة . إنه في الواقع وجه معبر وصادق .

والمناقشة مع توفيق الحكيم هي أمر ممتع حقاً . بشرط ألا تكون المناقشة للنشر . فعلى الرغم من أنه رجل ودود وصديق في أسلوبه . . فإن توفيق الحكيم لديه أسلوب في تقييمك ومناقشتك خلال المقابلات الأولى . . بحيث تحس أنك إذا لم تكتب ما يعجبه هو فإنه سيطرحك أرضاً !!

وعلى الرغم من أنه متسامح جداً ، وديمقراطى للغاية مع أبطال قصصه ورواياته حينما يتحاورون معاً على صفحات الكتب .. فإنه كثيراً ما سحب هذه الديمقراطية كحق أدنى من حقوق محدثه . . خصوصاً إذا كان صحفياً !

* * *

وأسأل توفيق الحكيم : هل تؤمن بالديمقراطية ؟ إن من يقرأ كتبك السياسية يجد أنك توجه إليها لوماً ونقداً عنيفين . أليس كذلك ؟

ويرد الحكيم : أنت طبعاً تقصد آرائى التى أذعتها سنة ١٩٣٨ ونشرتها في كتاب « شجرة الحكم » . . هيه . . المسألة أننى كنت أرى

أن النظام البرلمانى فى مصر هو الأداة الصالحة لتخريج الحكام الصالحين ، ليس هذا إذن نقداً للديمقراطية ، إنه نقد للطريقة التى طبقت بها فى مصر فى تلك الفترة. والدليل على ذلك قولى فى مقدمة « شجرة الحكم » : إن الانتخاب على عيوبه هو الوسيلة التى لابد منها ما دام أفراد الشعب هم أصحاب الرأى فى تنصيب حكامهم .

سألت توفيق الحكيم : ما هى الحرية ؟

ـ هى حق الاختيار .

ـ لماذا اخترت لنفسك ألا تنضم لحزب أو جماعة سياسية طوال حياتك . . . ؟

ـ المسألة بسيطة للغاية .. إن تكوين الأحزاب فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ على ذلك النحو الذى حدث لم يسمح للمفكرين والمثقفين الحقيقيين إلا بالمراكز الثانوية التى ليس لها حق التوجيه .. من هنا ضعف الدور الفكرى والاجتماعى لتلك الأحزاب ، واقتصر نشاطها على الجانب السياسى . كان الكاتب المفكر المثقف فى نظر كل حزب هو فى الأغلب مجرد قلم يستأجره الحزب للدفاع عن وجهة نظره ، والهجوم على خصومه . وكان هذا ما نفرنى وأبعدنى عن تلك الأحزاب ، وما جعلنى أقف ضدها جميعاً . كان هذا هو موقفى . . ما رأيك ؟

ـ رأيى أن الكاتب أو الفنان عندما يضطر إلى توقيع المدنة مع واقع مريض لا يؤمن به .. عندما يتم استئجاره للتعبير عن وجهة نظر فإنه نوعاً آخر من البغاء والدعارة . بغاء متنكر فى ثوب أدب ، ودعارة مستترة أكثر

خطورة من الدعارة الصريحة .. ولكن هذا شيء، وموقفك أنت شيء آخر !

– حسناً . . كان هذا هو الوضع فى تلك الفترة التى أصدرت عنها كتابى «شجرة الحكم» و «حمارى قال لى» . إن معظم الكتاب كانوا ملحقين بالصحف الحزبية . . وكان من المسائل المثيرة للمتاعب أن تحاول الاستقلال برأيك . .

قلت لتوفيق الحكيم :

. . ولكننى أختلف معك من البداية بالنسبة لحكاية «معظم الكتاب» هذه . . . وبالنسبة لهذا الحكم العام الذى تطلقه . . لأن الكاتب والفنان يجب ألا يتلمس لنفسه الأعذار من أجل عدم اتخاذ موقف . على أى حال . . . فلنغير الموضوع لأننى أريد أن أسألك : ما هى شروط العمل الفنى ؟

– شرطان : التعبير . . والتفسير . .

– ما هو التعبير ؟

– هو الخلق .

– . . والتفسير ؟

– هو معنى الخلق .

– لابد من الشرطين ؟

– طبعاً . فالفنان عندما يخلق .. إنما يعبر عن موهبة الخلق الكامنة فيه . وهذا هو ما يجعله فناناً . ولكنه أحياناً يريد أن يضيف شيئاً آخر إلى الخلق الفنى .. هو أن يجيء هذا الخلق مفسراً لمعنى من معانى الحقيقة

أو أن يدل على موقف معين من الحياة والمجتمع .

ــ ماذا أردت أن تعبر عنه فى رواية « عودة الروح » مثلا ؟

ــ لقد أردت أن تكون « عودة الروح » وثيقة لشعور بأكثر مما أردت أن أجعلها سجلا لتاريخ . شعور شاب صغير فى وسط مرحلة خطيرة لبــلاده . ذلك أن رأيى فى الفن هو أن يترك تسجيل التاريخ للمؤرخين . . لأن هناك شيئاً آخر لا يستطيعه غير الفن . . هو بعث الانطباع وإبراز الشعور .

ــ أنت تذكرنى بكلمات قالها الكاتب الأمريكى هنرى بيلو حينما قال إن الكاتب هو إنسان بشراع .. يعرف كيف يلتقط تيارات الهواء . وسؤالى هو : هل كنت تحس حينما كتبت « عودة الروح » أنك تتنبأ بالمستقبل ؟

ــ كنت أحاول . .

ــ هل تعلم أن هذه القصة تركت بصمات لا تنسى على تفكير أكثر من جيل شاب فى مصر . . الأمر الذى يكفيك أنك حققته كفنان .

ــ أشكرك .

ــ ما هى عوامل نجاحك كفنان ؟

ــ لا أعتقد أننى نجحت فى شىء ، لا أعتقد أننى رجل ناجح . أعتقد فقط أننى رجل محاول .

ــ هذا فى حد ذاته سبب من أسباب النجاح . ما هى الأسباب الأخرى ؟

— . . . .

— دعنى أغير السؤال : ما هى أسباب نجاح أى فنان ؟

— الإخلاص والصدق والإصرار . إن الإخلاص معناه أن يكون الفنان جاداً فى التحضير والإعداد والدراسة اللازمة لإتقان فنه . الصدق هو أن يكون صادقاً فى تحديد مقدرته ومقدرة غيره ، ألا يحاول التدليس على نفسه وعلى غيره والظهور بغير حقيقة فنه . الإصرار هو ألا تقف أى عقبة فى سبيل استمرار كفاحه من أجل فنه .

ومن المفهوم أن هذا كله يتم بغير الالتفات إلى إغراء جانبى غير الفن ، إغراء مادى أو معنوى مثلا . أنا مثلا لم أهتم مطلقاً بكم ليلة تستمر هذه المسرحية على المسرح وكم من الناس سيصفقون لها . .

— وماذا يفيد فى ذلك . . ألست تكتب للناس فى النهاية ؟

— طبعاً . ولكن أقصد أن الفنان ساعة الخلق لا يجب أن يضع فى اعتباره أى شىء آخر غير الفن . أما بعد أن ينتهى العمل الفنى فله أن يهتم بالنتيجة . أليس من الطبيعى أن يسعد كل إنسان بالنجاح ويتكدر بالإخفاق ؟ هذا طبيعى . ولكن النجاح الجماهيرى مثلا — على الأقل من وجهة نظرى — ليس واحداً من مواصفات المسرحية الناجحة . .

— إذن . . ما هى مواصفات المسرحية الناجحة ؟

— هذه هى مشكلة المشاكل — ليس فى مصر وحدها ، ولكن فى العالم كله . لقد شكا مديرو المسارح فى العالم كله كثيراً من عدم استطاعتهم التحكم فى نجاح المسرحية أو إخفاقها . فكثيراً ما يحدث أن تستوفى

مسرحية كل الشروط الشكلية للنجاح . . ومع ذلك لا تنجح . والعكس . خذ مثلا مسرحية « فى انتظار جودو » لبيكيت . لقد ظلت ترفض من جميع المسارح ست سنوات ، إلى أن غامر مخرج فنان بإخراجها . فتلقت المسرحية لعنات المشاهدين وانصرافهم فى شهورها الأولى ثم نجاحاً ساحقاً فى شهورها الثانية .

وعلى عكس ذلك أذكر مسرحية أخرى اعتقد مديرو المسارح أنها مستوفية بجميع عناصر النجاح الواسع ، فإذا بها لا تمكث أكثر من أيام . . هذه المسرحية اسمها . . . . آه دعنى أتذكر . . . . أسمها . .

– لا يهم . . إن نسيانك لاسمها هو علامة أخرى من علامات إخفاقها !

– المهم . . أن مواصفات والنجاح الإخفاق فى المسرح لا يمكن التنبؤ بها . ولكن هناك علامات متعارف عليها فى الرواية الناجحة ، وهى أن يكون فيها ما يثير الجماهير سواء من حيث موضوعها أو من حيث مواقفها . وهناك من المؤلفين من تخصص فى دراسة هذه المواقف المثيرة التى تجذب الجماهير . ولكن الخطورة هنا أن المؤلف كثيراً ما يكون عبداً لمواصفات النجاح ، مما يقيده ويجعله أسير نجاحه ، فلا يخرج منه ولا ينطلق إلى محيط الابتكار والخلق الجديد . لأن الابتكار هو فى حد ذاته مغامرة ومخاطرة كمن يركب البحار المجهولة . . . لا يدرى فى أى شاطىء سيرسو . فإما أن يضيع ويتوه . . . وإما أن يكتشف قارة جديدة مجهولة . .

ـ أعتقد أنك واحد من القلائل الذين حرصوا دائماً على التجديد والتطور المستمر . إنني أحياناً أتصورك أكثر شباباً من أى شاب . وأعتقد أيضاً أن هذا سر نجاحك الفنى .

ـ ما زلت أقول إننى رجل محاول . . ولست رجلا ناجحاً . . !

ـ هل صادفتك أية مشكلة فنية فى إحدى رواياتك أو مسرحياتك ؟

ـ دائماً ، هناك مشكلة فنية تواجهنى فى كل رواية أو مسرحية . السبب هو أننى أحاول دائماً ألا أكرر ما أفعل . إن ما يشغلنى دائماً ليس الموضوع . . . ولكن ما يتعبنى هو كيف يكتب الموضوع . فى كثير من الأحيان أكف عن كتابة موضوع جديد لم أتمكن بعد من الاهتداء إلى طريقة جديدة فى إبرازه . فالمشكلة عندى إذن هى فى الشكل الذى أضع فيه المضمون . هذه هى مشكلة الفن . إن المضمون لم يكن أبداً مشكلة فنية لأنه ملك لجميع الأدوات من المقالة إلى الكتاب . ولكن هذا المضمون إذا انتقل إلى الفنان فإن مشكلته هى الشكل الفنى . ولا يكفى أن نقول قالب الرواية أو قالب المسرحية . هناك أسئلة أخرى كثيرة تصادفنى وهى أنه بعد أن تختار القالب فهناك أيضاً مائة أسلوب تنتمى إلى هذا القالب . ما هو إذن الأسلوب المناسب للموضوع المناسب . . تلك هى المشكلة . إنها مشكلتى فى كل مرة .

ـ هل حدث لك مرة أن وصفت موقفاً لم تكن لك أية خبرة شخصية به . . وبمعنى آخر .. هل يحتاج الفنان إلى الخبرة الشخصية لكى يكون صادقاً فيما يكتبه ؟

– ليس ضرورياً. يكفى أن تكون المشاعر حقيقية وصادقة ويمكن تجسيدها . فعند تلاقى شخصيتين مثلا تصطدم بينهما مشاعر معينة . لابد للفنان هنا من أن يكون على وعى تام ومعرفة أكيدة بهذه المشاعر . عليه أن يستخرج من مخزن عاطفته وتجاربه الشعورية ما يناسب هذه المواقف . وفى أحيان كثيرة يستطيع الفنان أن يشاهد أو يعيش تجربة – ولتكن صغيرة جداً – ولكنها كافية لأن تكون ركيزة لعمل فنى .

مثلا . . مسرحية « مصير صرصار » . . إننى نشرتها منذ وقت طويل . . . كنت قبلها قد رأيت بنفسى صرصاراً حياً ملقى فى بانيو الحمام يحاول الخروج منه ولا يستطيع لملاسة الجدران . ومكثت أكثر من نصف ساعة أراقب جهاده وكفاحه المضنى والمميت فى سبيل الخروج من البانيو . ولقد تعبت أنا من مراقبته . . ولكنه هو لم يتعب من الأمل فى الخروج . وكان أن اتخذت من ذلك ركيزة لمسرحية .

كذلك السحلية فى « ياطالع الشجرة » واختفاءها وعودتها . . لاحظتها بنفسى فى حديقة مكتبى بالمجلس الأعلى للفنون والآداب . . وبنيت على ذلك موقفاً فنياً . . . وكثيراً جداً من مثل هذه المواقف كانت أساساً لأعمال مسرحية أو قصصية . فأنا لست واسع الخيال بالحد الذى تتصوره . . لكننى أحتاج دائماً إلى ركيزة من الواقع ، أو التجربة الحية ، أبنى عليها شيئاً . فالعمل الفنى هو عندى خيال إذا استطعت أن تقول ، ولكن لابد له من خبرة من الواقع تستطيع أن تجسده .

* * *

فرصة لالتقاط الأنفاس . . !

إن ضيفاً دخل الحجرة فى هذه اللحظة . قليل من الحوار ووعد يتحدد ثم يجلس الضيف مشاركاً فى متعة الاستماع إلى توفيق الحكيم . فى الواقع كان الضيف هو الفنان صلاح طاهر . صديق حميم لتوفيق الحكيم .

وأقول لتوفيق الحكيم : إننى أتذكر الآن رأياً سجله عنك العقاد — رحمه الله — قال عباس العقاد : « إن أدب توفيق الحكيم هو أدب البرج العاجى . هو أدب فكرى . أدب واحد بعيد يتأمل . لذلك نجد أفكاره على هيئة حوار عقلى . ولا ترى بين المتحاورين شخصيات مرسومة بوضوح . ولكن الحكيم عنده أيضاً موضوعات تتعلق بالحياة الاجتماعية مثل يوميات نائب فى الأرياف وعودة الروح » .

هذا ما كتبه العقاد . وبصفة عامة . . فإن العقاد والنقاد أجمعوا على أنك من أبرع الفنانين الذين يمتازون فى إجراء الحوار بين شخصياتهم حوار ممتع ، ولكنه عقلى ، ما هو تفسيرك لذلك ؟

ويجيب توفيق الحكيم : لا أعتقد أننى أمتاز بالحوار أكثر من غيرى . إن مسألة الحوار هذه مرجعها ولا شك إلى نوع المسرحية الذى الذى بدأت أكتبه فى المرحلة الثانية من حياتى الفنية . هذه المرحلة كانت سمتها الأساسية هى البعد عن افتعال مواقف مسرحية مثيرة تشد الجمهور بحركتها الظاهرية والخارجية كما كنت أفعل فى المرحلة الأولى . لقد تغير أسلوب المسرحية إلى وضع جديد هو اعتمادها على رسم أشخاص يشعرون ويفكرون . فالوسيلة هنا إذن لإبراز هذه المشاعر والمواقف

هى حديثهم بعضهم مع بعض - أى الحوار - الذى يحل هنا محل الموقف المثير . من هنا كان للحوار كأداة الأهمية الأولى فى إبراز الحركة الداخلية لما يعتمل فى نفوس الأشخاص . لذلك برزت وظيفة الحوار بروزاً لم يكن مألوفاً فى حياتنا المسرحية قبل ذلك . من هنا ألصق بى تعبير موهبة الحوار ونحو ذلك من الصفات . فى حين أن الحوار فى ذاته لم يكن عندى شيئاً واقفاً بمفرده فى الفراغ . . ولكنه متصل بأشخاص لديهم أفكار داخل مسرحية .

- بالمناسبة . . ما أهم ما تجاهله النقاد من أفكارك ؟

- اسأل النقاد . . !

- وهل يفعل أحد ذلك مع نقاد هذه الأيام . . ؟ ! على أية حال . . أرجو أن نستدير الآن إلى جانب آخر : ما هو تصورك لدور الأديب فى المجتمع ؟

لحظة وأخرى قبل أن يرد الحكيم : فى الواقع أن دور الأديب حسب مفهومى الذى ذكرته فى كتاب « التعادلية » هو أنه معبر ومفسر للحياة والمجتمع . إنه معبر بمعنى أنه يعكس الصورة التى تتراءى له شخصياً من الأحداث المحيطة به والمكونة لما نسميه الحياة . . التى يضطرب فيها هو شخصياً فى مرحلة وجوده كما يضطرب فيها المجتمع فى لحظة من اللحظات . وهذا التعبير قد لا تكون له علاقة بالتفسير . . كمن يعبر مثلا عن إحساسه بوردة أو بشعور عاطفى . فطريقة التعبير هنا عن جمال الشعور أو عطر الزهرة هى فى ذاتها عملية خلق أدبى .

أما التفسير بعد ذلك فهو وجهة نظر الفنان فى وجود هذه الوردة أو العاطفة من حيث هى عامل إيجابى فى إطار أكبر : للفنان طريقته الخاصة فى النظر إليه . أن الأدب أو الفن يكتمل فى نظرى إذن عندما يكون معبراً أو مفسراً فى وقت واحد . . فإذا طغى التعبير على التفسير أو العكس فإن هذا العمل الفنى — فى نظرى — يكون قد أخذ معنى آخر .

* * *

صدام أجيال . . !

أنا الآن على وشك أن أصطدم فى الرأى بعد لحظات مع توفيق الحكيم ! إننى أرى أن الحكيم واحد من الذين لخصوا مصر وعبروا عنها وقلقوا عليها . والفنان الأصيل هو الذى يجيد التعبير عن عصره وقد فعل توفيق الحكيم . .

ولكن هذا لا يمنع بأى حال من الاختلاف مع توفيق الحكيم . هأنذا أستعد لأفعل .

أقول لتوفيق الحكيم : أنت ذكرت فى إجابتك بين سطور كتابك الذى أصدرته بعنوان « التعادلية » . أن الهدف من الكتاب كان توضيح مذهبك فى الحياة . . وكما يتضح من عنوان كتابك نرى أن الحياة هى دائماً تعادل بين شيئين . تعادل بين الحرب والسلم . . بين الشبع والجوع بين الإيمان والعقل . . بين الشتاء والصيف . . بين الحب والكراهية . . الخ .

وفى الصفحة السابعة عشرة من الكتاب تقول إن الأرض « كرة ،

تعيش بالتوازن والتعادل بينها وبين كرة أضخم هى الشمس . . فإذا أختل هذا التعادل ابتلعتها الشمس وضاعت فى الفضاء . . التعادل إذن هو الحقيقة الأولى لحياة-الأرض» . بعد ذلك يستطرد الكتاب ليقرر أن التعادل هو أيضاً الحقيقة الأولى فى حياة الإنسان .

ووجة خلافى معك هو : أن هذه — وغيرها — من وجهات النظر المماثلة — ترى أن الوضع الطبيعى للأشياء هو أن توازن نفسها بنفسها . الضعيف سيصبح قوياً . . لأنه لا بد من تعادل القوى والضعيف . . الفقير سيصبح غنياً . . لأنه لا بد من تعادل الفقر والغنى . . إلخ . كل هذا لأن الحياة تميل إلى تصحيح نفسها بنفسها . ... هذا غير صحيح ، مطلقاً يا سيدى . بل إننى أخشى أن أقول إنه تبرير لموقف سلبى شديد السلبية من الحياة نفسها .

إن وجود توازن فى لحظة من اللحظات ليس معناه أنه توازن مستمر من ناحية ، ولا أنه يتمشى مع طبيعة الأشياء من ناحية أخرى . لا . . . هذه مسألة أختلف معك فيها بشدة . . بالضبط مثلما تعجبنى كتب أخرى لك بشدة . . !

لحظات صمت — طويلة هذه المرة — ثم يقول توفيق الحكيم : اسمع أنا أرفض الدفاع عن نفسى !

قلت : ربما . ولكنك لا تستطيع أن ترفض تفسير نفسك . إن بعض آرائك فى هذه اللحظة . . هى محل مناقشة . . هذا هو الموضوع .

هنا بدأ توفيق الحكيم يرد بأقتناع : إن التعادلية — كما قصدتها — معناها أن كل شيء فى الكون وفى الإنسان يقوم على جانبين فى وقت واحد . . وهما القوة والضعف ، وإلا ما قام واحد منهما . التعادلية تقول إن الضعف لا يمكن أن يكون شيئاً مستمراً ، ولكنه يظل يتطلع إلى أن يخفض من سيطرة القوة حتى لا يتلاشى . . لأنه لا يوجد فناء تام فى الوجود ؛ ولكن توجد عمليات تحول مختلفة . فعمليات التحول هذه تقضى بأن الضعف لا يظل ضعفاً والقوة لا تظل قوة .

والقيمة العملية لهذا المبدأ عندى ، وخاصة لبلادنا الضعيفة ، هى أن تشعر بأن هذا الضعف ليس صفة دائمة . . وإنما هو يتحرك تحركاً حتمياً فى سبيل أن يعادل القوة التى أمامه ولا يجعلها تسيطر عليه إلى حد إفنائه .

قلت لتوفيق الحكيم معترضاً : لا . . لا يا سيدى . إن الوضع الطبيعى للأشياء هو القوة . إن الضعيف سوف يزداد ضعفاً ، والقوى سوف يزداد قوة . . إذا تركنا المسألة لطبيعة الأشياء . ولكى يحدث تحول لا بد أن يبذل الضعيف مجهوداً مضاعفاً : مرة لمنع الفجوة من الاتساع ومرة لسد هذه الفجوة . وعندما يصبح الضعيف قوياً فى نهاية الأمر فليس هذا لأنه ظل هناك جالساً ينتظر . . بل لأنه سعى بإيجابية مطلقة — وليس بسلبية شديدة — إلى تحسين مركزه ، هذا ما أراده على أى حال .

توفيق الحكيم يرد : « لا يوجد فى التاريخ إنسان يتخذ لنفسه موقف المتفرج السلبى . لم يحدث هذا مطلقاً فى أى مرحلة من مراحل الإنسانية

لأن هذا مخالف لطبيعة الإنسان الحى . فالسلبية التى تتحدث عنها هى دائماً صفة مؤقتة ظاهرية للحظة من لحظات الزمن . إن الميت نفسه ليس سلبياً ، والموت ليس سلبياً .

إن الجسم فى حالة المرض يفرز تلقائياً العناصر المقاومة لمرضه ولو لم تكن هناك أدوية مساعدة من بعض الأجسام فإن الإنسان فى حالاته المعنوية لا بد أن يفرز مصادر علاج ضعفه » .

* * *

لحظات ، ثم فضلت أن أغير الموضوع !

إننى أفكر فى العودة إلى سؤال توفيق الحكيم عن المسرح . أقول : عندما تشرع فى كتابة رواية أو مسرحية مثلا . . هل تخطط لها مقدماً ، محدداً أبعاد شخصياتها سلفاً ، أو أنك من نوع آخر – لنقل تشارلز ديكنز مثلا – الذى كان يترك نفسه يتحرك ، بل حتى يتشتت بما يكتبه ؟

يجيب توفيق الحكيم : طبعاً لا بد أن تكون لدى فكرة مقدماً عن حدود كل شخصية وعن الهيكل العام للمسرحية. إلى جانب ذلك فلا بد للعمل الفنى – خصوصاً المسرحية – من بناء متين . ومتانة البناء ترجع إلى إتقان الصنعة . والصنعة هى الجانب الواعى من عمل الفنان . ولكن إلى جانب ذلك هناك جانب اللاوعى . أى المخزن الذى تتكدس فيه الصور المختلفة من خبرات الفنان وتجاربه فى الحياة . هذا الجانب هو الذى تتولد منه الخلايا اللازمة لتخليق الشخصيات . هذه الشخصيات لا يتحكم فيها الفنان فى مبدأ الأمر ويتركها تعيش فى داخله فترة .

فالمعايشة الطويلة مع العمل الفنى تسبق دائماً عملية البناء . وبالنسبة لكثير من الفنانين . فإن عملية البناء أو التنفيذ الواعى هى أسهل المراحل . . خصوصاً عندما يصلون إلى درجة الخبرة والتمكن والإمساك بناصية الفن . هذه المرحلة الأخيرة لا تستغرق منهم عادة الوقت الطويل الذى تستغرقه المعايشة مع مكونات الخلايا الأولى .

وعندما أقول إن الشخصيات أحياناً ما تقود الفنان فى مبدأ الأمر إلى مصائر تتمشى مع منطقها الذى لم يتراءى بعد للفنان بشكل نهائى . فإنما أقصد بذلك المرحلة التى لم تخضع بعد إلى سيطرة البناء الفنى النهائى .

قلت : سؤال أخير — لماذا اتجهت من البداية إلى الكتابة للمسرح ؟

ويضحك توفيق الحكيم حينما يرد : إن المسرحية هى فن اقتصادى بخيل . . الكلمات فيها محسوبة بدقة . . والوقت فيها مقيد . والحيز فيها محدد . . لا محل فيها للاسراف والانفلات . . !

* * *

و . . . .

برغم أن البخل صفة مشهورة عن توفيق الحكيم — حقيقة أو وهماً — فإن جلساتى معه كلفته سبع ساعات — وأهم من ذلك — ثلاثة فناجيل قهوة . تصور . ؟ . صحيح أنه لم يعد يدعونى إلى القهوة ابتداء من الجلسة الرابعة ، ولكن ثلاثة فناجيل قهوة ليست أمراً يسهل الحصول عليه فى مكتب توفيق الحكيم . . !

على أن القهوة الحقيقية التى شربتها كانت إجابات توفيق الحكيم

نفسه . فى بعض اللحظات أعطانى توفيق الحكيم إحساساً بأن الفنان مثل جبل الثلج . . . تسعة أعشاره تحت الماء . تسعة أعشاره لم تنشر بعد . وفى لحظات أخرى أعطانى إحساساً مضاداً بأن أكثر من تسعة أعشاره فى كتبه . . ورواياته . . ومسرحياته .

و . . .

كم هو فنان . . !

١٤ قرآناً للعرب !



- أخبار اليوم .. عدد ٢٢ أبريل ١٩٦٨ .

« . . إنى لا أدخل أبداً فى قرار ولا فى محاولة مع أحد من الدول سوى الدولة البهية الإنكليس بغير رضاء الدولة البهية الإنكليس . لا أقبل أن يسكن فى حوزة ملكى وكيل من دولة غير الدولة البهية الإنكليس . أبداً لا أسلم ولا أبيع ولا أرضى ولا أعطى للتصرف بنوع ما شيئاً من ممالكى إلا للدولة البهية الإنكليس » .

هذا هو نص التعهد الذى انتهت بريطانيا فى سنة ١٨٩٢ من الحصول عليه من كل حكام إمارات وسلطنات الخليج العربى . ومن بينها الكويت والبحرين وقطر ومسقط وعمان والشارقة . . إلخ .

ولو تركنا سنة ١٨٩٢ متقدمين إلى الأمام ست سنوات . . سنجد العالم العربى فى هذه الصورة : الاحتلال البريطانى فى عدن منذ ٥٩ سنة . فى مصر منذ ١٦ سنة . الاحتلال الفرنسى فى الجزائر منذ ٦٨ سنة . فى تونس منذ ١٧ سنة . وسنجد أن الشام — وتضم سوريا ولبنان وفلسطين — تابعة للخلافة التركية . وسنجد أن إنجلترا فى طريقها لاحتلال السودان بجيش يقوده كتشنر .

ومقابل هذا سنجد أنه قد مرت سنتان على صدور كتاب غريب فى أوروبا عنوانه « الدولة اليهودية » . كتاب صغير . إن مؤلفه صحفى يهودى يراسل جريدة نمساوية من باريس ، واسمه تيودور هرتزل . فى تلك السنة — ١٨٩٨ — يقوم هرتزل بمقابلة قيصر ألمانيا فى أثناء زيارته للقدس ، فى محاولة للحصول على تأييده لإقامة الدولة

اليهودية فى فلسطين. وقد سبقتها محاولة فاشلة — منذ سنة — مع السلطان التركى ، وسجلها هرتزل فى مذكراته بقوله : « . . . السلطان التركى يقول : لا أستطيع أن أبيع (لليهود) شبراً واحداً من فلسطين . لأنها ليست ملكي ، إنما هى ملك شعبي . لقد كسبها بالدم . وسيرويها بالدم مرة أخرى قبل أن أسمح باقتطاعها منا » .

نحن إذن فى سنة ١٨٩٨ .

وكل شيء فى مصر عادى فى تلك السنة . بما فى ذلك ولادة طفل جديد بقرية نواى (محافظة أسيوط) سجلوه باسم : عبد الخالق حسونة النواوى .

ثم نقفز سبعون سنة للأمام .

اليوم نحن فى سنة ١٩٦٨ . الطفل أصبح رجلا . والرجل أصبح أميناً عامًّا للجامعة العربية . والجامعة العربية أصبحت تضم ١٤ دولة عربية مستقلة . وعن الجامعة العربية وأعضائها يدور الحديث مع الرجل .

يقول عبد الخالق حسونة :

« لقد كان المفروض أن تكون الجامعة العربية هى المرحلة الأولى فى رأيى على الأقل — نحو توحيد الأمة العربية ولكن هذه المرحلة طالت أكثر مما يجب . مضت ٢٣ سنة دون أن تنتقل إلى المرحلة التالية . هذه الظاهرة لها أسباب. بعض الأسباب يتعلق بالظروف التى عاشتها الأمة العربية . وبعضها الآخر يتعلق بالحكومات العربية . وفى النهاية يصب هذا وذاك فى الجامعة نفسها .

« الظروف التي عاشتها الأمة العربية كانت ظروفاً صعبة وقاسية . عند إنشاء الجامعة العربية لم يكن هناك غير سبع دول مستقلة . كان أكثر من نصف العالم العربي محتلا بجيوش عسكرية أجنبية ، وحتى النصف المستقل . . مربوط بأحلاف ومناطق نفوذ أجنبية .

«أما عن الحكومات العربية فهي أيضاً تتحمل الجزء الثاني — بل الأكثر — من أسباب عجز الجامعة العربية وطولها كمرحلة أولى . إن الجامعة هي في النهاية ما تريده لها حكومات الدول الأعضاء . إن أرادوها قوية . . ستصبح كذلك بعد ٢٤ ساعة . إن أرادوها عاجزة . . ستظل كذلك ٢٤ سنة لقد كانت الفترة السابقة هي سنوات التنافس بين الحكومات العربية ، بل لقد تحولت أحياناً إلى سنوات للتصادم . إنه تصادم بين الحكومات فقط . فلا تصادم بين أجزاء الشعب العربي . . لأن الشعب العربي يعرف مصلحته الحقيقية .

« وأخيراً . . فإن هذا كله كان يصب في الجامعة نفسها . هل تعلم مثلا أنه بحسب ميثاقها . . يمكن أن يجتمع مجلس الجامعة على مستوى ملحقين في السفارات ؟ هل تعلم أنه قد مرت على الجامعة أزمة في سنة ١٩٦٢ كادت تهدمها من جذورها ؟ ثم — بعدها بسنتين — تحققت للجامعة فرصة خلق وتدعيم العمل الموحد ؟ ولكن الجامعة بقيت في الحالتين كما هي : لم تنهدم في الأزمة الأولى ، ولم تتدعم في الفرصة الثانية .

« ولو قلنا الآن . . عفا الله عما سلف — ونحن مضطرون إلى ذلك على

أى حال — فيجب أن نقول فوراً : إن المرحلة لم تعد تتحمل أنصاف الحلول . لقد أدت الجامعة العربية دورها برغم كل العواصف وتحت أقسى الظروف . منذ سنة ١٩٥٣ وأنا أحاول مثلا تحقيق الوحدة الاقتصادية العربية . والنتيجة بعد ١٥ سنة هى أن أقل من نصف الأعضاء يوافقون .. وأكثر من النصف يتفرجون ، وبين الفريقين تتحول الجامعة أمام الرأى العام إلى كبش فداء .

« إن الجامعة العربية أدت دورها فى تقوية الصف العربى ومنعه مراراً من التمزق» . وأنا آسف حينما أقول هذا بعد نكسة عسكرية ما زلنا نعيشها :

« المهم . . أن الجامعة يجب أن تنتقل الآن إلى مرحلة جديدة . يجب أن تتحول إلى منظمة «اتحادية . أقول إن هذا يجب أن يتم الآن وإلا . . فأبداً » . . .

* * *

نحن إذن مع عبد الخالق حسونة الأمين العام للجامعة العربية . إن مكتبة بميدان التحرير فى قلب القاهرة . ومع ذلك ، فعندما تدخل مكتبه ، تحس أنك انتقلت فجأة من عالم صاخب ملىء بالضجيج . . إلى حجرة مفرغة من الهواء . . مشحونة بالهدوء . ويبدو العالم العربى مختلفاً تماماً من داخل مكتب حسونة . بل إن الرجل نفسه يبدو مختلفاً تماماً عما تتصوره رجل رزين . فوق وجهه حاجز يفصله عن الناس . حاجز شفاف . إنه نظارة طبية لها وظيفة مزدوجة فوق عينيه . فهى أولاً تضاعف قدرته

على رؤية الناس بوضوح . وهى ثانياً – كمعظم النظارات الطبية – تجعل عينيه أكبر حجماً وحياة . عينان زرقاوان . تقولان للضيف : أهلا . . بتحفظات كثيرة .

ولكن ابتسامته سرعان ما تزيل هذه التحفظات . الابتسامة دائماً تأخذ مكانها على وجهه من العاشرة صباحاً إلى الواحدة ظهراً . . ثم تنصرف . إلا إذا عادت لعمل أضافى بعد الظهر .

وعبد الخالق حسونة يستفيد تماماً من أذنيه – رجل صامت . إن أذنيه – مضافاً إليهما عيناه وإبتسامته – تذكرك بأنك تواجه واحداً من أكثر الشخصيات صمتا . وهو شخص من الصعب تماماً أن تحاصره بأسئلة . . إنه يفضل أن يستمع إليها مرة واحدة ثم يجيب عليها فى النهاية مرة واحدة . إننى سأجرب معه أسلوباً عكسياً : الأسئلة بالتقسيط والإجابة مرة واحدة .

* * *

أقول لعبد الخالق حسونة : هل تعتقد أن ضعف الجامعة يرجع أساساً إلى ميثاقها ؟

أجاب الرجل : طبعاً . . فالميثاق أقل تواضعاً بكثير جداً مما يحتاجه العمل العربى . ولكن – حتى فى حدود الميثاق الحالى – فليته كان من الممكن تنفيذه فى كل الأوقات .

قلت : إذن . . هل لو أقيمت الجامعة من الأصل كمنظمة اتحادية – هل كان هذا يحقق للجامعة الآن وضعاً أفضل ؟

أجاب : لا أعتقد ذلك . لأن الميثاق كان نقطة بداية طبيعية تتفق مع الظروف التى كان يعيشها العالم العربى سنة ١٩٤٥ . ثم . . لماذا نذهب بعيداً ؟ إن أمامنا منظمة الوحدة الأفريقية كمثال . لقد أنشئت منذ البداية باعتبارها منظمة وحدوية ، هدفها تحقيق الوحدة الأفريقية . ماهو موقفها الآن بعد سنوات من إنشائها ؟ لقد تعثرت بدلا من أن تتدعم . تعثرت لأنها سبقت مرحلتها ، ولذلك ولدت وهى تعانى من مرض داخلى . إن المنظمات السياسية كالجسم البشرى . يجب أن تعانى أولاً من أمراض الطفولة وتتحصن ضدها . . قبل أن تصل إلى سن الشباب والرجولة .

وسألت من جديد : أنت تقول . . إنه حتى فى حدود الميثاق الحالى للجامعة ، فإن الحكومات لم تنفذه . لماذا ؟

أجاب الرجل : لأسباب كثيرة ذكرت لك بعضها . وأضيف إلى ما ذكرت أسباباً أخرى . إن العالم العربى – فيما يتصل مباشرة بالجامعة – قد مر بمراحل كثيرة . المرحلة الأولى من سنة ١٩٤٥ إلى سنة ١٩٥٦ . فى بداية تلك المرحلة كانت الدول العربية الأعضاء تعانى من النفوذ الأجنبى ، سواء فى شكل احتلال عسكرى مسلح كالاحتلال البريطانى لمصر ، أواحتلال جزئى كالوجود العسكرى البريطانى فى قاعدة الحبانية بالعراق . أو نفوذ مقنع فى معظم الدول الأخرى . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى كان أكثر من نصف الدول العربية لم يحصل بعد على أستقلاله أصلا . . كالجزائر وتونس والمغرب والسودان .

ثم حدث — فى المرحلة نفسها أن قامت الثورة فى مصر ووقعت اتفاقية جلاء الإنجليز (١٩٥٤) وتحررت ليبيا وانضمت للجامعة (١٩٥٢) ثم انضم السودان كذلك (١٩٥٦) .

والمرحلة الثانية تبدأ بحرب السويس سنة ١٩٥٦ وتستمر إلى سنة ١٩٦٢: حرب السويس قضت تماماً على النفوذ الاستعمارى فى أجزاء كثيرة من العالم العربى . ثم استقلت تونس والمغرب وانضمت للجامعة (١٩٥٨) ثم ثورة العراق والوحدة المصرية السورية فى السنة نفسها إلى أن حدث الانفصال فى سنة ١٩٦١ .

وأول ما نلاحظه على هذه المراحل هو أنها كانت متداخلة بعضها فى بعض أولاً . وكانت ثانياً متناقضة التأثير على وضع الجامعة العربية والعمل العربى عموماً . فبعض الأحداث كان إيجابياً ، وبعضها كان سلبياً . وبعضها مدعم للعمل العربى وبعضها هادم له .

فى هذه المرحلة كادت الأحداث السلبية تهدم الجامعة العربية . فبعد مؤتمر شتورة سنة ١٩٦٢ كادت مصر تنسحب نهائياً من الجامعة إزاء الهجوم الموجه ضدها . ولو كان ذلك قد حدث لانهدمت الجامعة من أساسها . ولكن مصر لم تنسحب . والجامعة احتوت هذه الأحداث السلبية :

وباستمرار الأحداث نلاحظ أنه فى السنوات التالية استقلت الكويت والجزائر . هذا عامل إيجابى لتقوية الجامعة العربية . ولكن فى هذه السنوات وصلت التناقضات بين الحكومات العربية إلى درجة لم

تبلغ مثلها مطلقاً فى أى فترة سابقة . إنها تناقضات تحولت أحياناً إلى حد التصادم . فى مثل هذا المناخ كان العمل الجماعى داخل الجامعة يواجه كل المعوقات التى تتصورها أو لا تتصورها .

قلت : هذا طبيعى ، ولكن . . تلك الفترة لم تستمر طويلا . ألم يجتمع الملوك والرؤساء العرب فى مؤتمر القمة الأول سنة ١٩٦٤ ؟

رد عبد الخالق حسونة : نعم . هذا المؤتمر — فى رأيى — كان يصح أن يتحول إلى نقطة بداية حقيقية لتطوير الجامعة العربية جذرياً . لقد علقت عليه آمالا كبيرة . تصورته بداية للعمل الجاد الموحد . وقد حدث ذلك فعلا . . شهراً أو شهرين أو أكثر قليلا . ولكنى الآن عندما أنظر إلى السنوات الثلاث السابقة على يونيو ١٩٦٧ . . أجد أن الجامعة العربية قد تحملت خلالها عذاباً كثيراً . يكفى أن تتذكر الشقاق بين القاهرة والرياض مثلا وتأثيره على العمل العربى فى تلك الفترة .

قلت : بصرف النظر عن التفاصيل . . فى أى الميادين سجل العمل العربى أكبر خسارته . . فى سنوات التناقض هذه ؟

أجاب الرجل بحسم : فى ميدان رئيسى بالتأكيد ، هو ميدان العمل من أجل فلسطين . هنا بالذات واجه العمل العربى أكبر تحدياته المعاصرة . وهنا أيضاً واجه أكبر متاعبة . وعندما نحاسب السياسة العربية خلال الفترة الماضية . نجد أنها ، فى تصادمها بعضها ببعض ، لم تسمح الناس بأن يفكروا فيما هو أبعد من الظروف العاجلة التى يعيشون فيها .

قلت : بالمناسبة . . ماهى — فى رأيك — أكبر أخطاء السياسة العربية من ناحية الأسلوب . . خلال السنوات الماضية ؟

أجاب الرجل بكلمات بطيئة تتقدم نحو السرعة : « أكبر خطأ أنها لم تكن واقعية . بمعنى أنها كانت تعبد الشعارات النظرية . لأن الحل الواقعى لا يتحقق إلا بالعمل الموحد فقط » .

* * *

والمسألة أصبحت تحتاج إلى تهدئة ، والتهدئة نجدها فى حياة حسونة نفسه . إن عبد الخالق حسونة هو الأكبر بين إخوة أربعة . الثانى هو محرم حسونة (رئيس مجلس إدارة شركة بسكو مصر) . الثالث عبد الحى حسونة (٤٥ سنة)

والإخوة الأربعة تربط بينهم صفات عائلية كثيرة فالأربعة متدينون لا يدخنون . لا يسهرون كثيراً . منظمون فى حياتهم العائلية . . متشابهون فى أصواتهم ، وحينما لا تدقق السمع لا تستطيع أن تميز بين أصواتهم . الأربعة لهم رياضة مشتركة هى المشى . وفى حالة عبد الخالق حسونة فإن رياضته السابقة كانت لعبة التنس . أصبحت الآن مجرد السير ساعة كل يوم . حكم السن .

وعبد الخالق حسونة يشاهد السينما بانتظام ، مرة كل أسبوع . وهو يحب المسرح . يتذوق الموسيقى . يعشق الأوبرا والباليه . آخر مرة خرج فيها كانت لمشاهدة فرقة الباليه الروسية .

وبالمناسبة : حسونة تكون سهراته دائماً عندما يذهب إلى المسرح

أو السينما . أولاده خمسة . أكبرهم مدير شركة . أصغرهم طالب فى الثانوية العامة . وهو دائماً يشرك أولاده معه فى الرأى وخصوصاً فى المسائل العائلية . سمها ديمقراطية ، أو شورى أو مجرد إلمام حقيقى بوظيفة الأب .

وعندما سألته عن أسلوبه فى تربية أولاده أجاب : « . . إننى أومن دائماً بأن المنزل وظيفته أهم من المدرسة فى تكوين شخصية الطفل ومساعدته على التقدم فى الحياة بعد ذلك . ولقد كنت حريصاً على أن يؤدى المنزل دائماً هذه المهمة بالنسبة لأولادى »

ثم سألته ، هل يسمح لأولاده بمعارضته . . أو حتى بالاختلاف معه فى الرأى ؟ ولكن السؤال أدهشه . لقد رد على بأن هذا يحدث فعلا . يحدث أن « . . أحد أبنائى يعارضنى فى رأى أقوله . حينئذ أطلب منه أن يقدم الدليل على عدم صحة رأيى . وحينما يشرع ابنى فى إقناعى بصواب رأيه هو وخطأ رأيى أنا . . أكون بالفعل فخوراً به . لأننى ساعتها أحس بأنه قد أصبح رجلا يعتمد عليه . أحس أنه قد أصبح مستقل الرأى والعقل ، وهذا ما أتمناه له » .

ولا شك أن عبد الخالق حسونة نوع نادر من الآباء فى هذه الأيام لكن . . ما علينا . إنه لا يرى ذلك . بل إنه يعتبر أن الأب الحقيقى هو الذى يشجع إبنه على أن يكون ناقداً لحياته أولا . . ثم لحياة الآخرين .

المهم — أن عبد الخالق حسونة يقرأ كثيراً . إن معظم قراءته تشمل التاريخ والاقتصاد والأدب . ولكن ، فى الفترة الأخيرة تتركز قراءته

فى الكتب الأجنبية التى صدرت بالخارج عن حرب يونيو .

* * *

..ها نحن عدنا للسياسة من جديد .!

ولم أكن أريد ذلك إلا لسؤال ملح : يقولون إن الجامعة تتحمل الجزء الأكبر من مسئولية إخفاق العمل العربى فى الخارج . يقولون أيضاً إن مكاتب الإعلام التابعة للجامعة فى الخارج هى مثل واضح لذلك . . فما رأيك ؟

وللمرة العاشرة تختفى ابتسامة الرجل وهو يرد : شوف . . بعض الناس وصل فى نقده لمكاتب الإعلام إلى حد القول بأنها أصبحت أضحوكة غفر الله لمن قال هذه الكلمة . ولكنى أحب أن أقول إن النقد عندما يصبح بهذا الشكل يتحول إلى تشهير وليس مجرد نقد . يتحول إلى هدم تكسب منه إسرائيل ونخسر منه نحن .

وقاطعته قائلاً : أرجو ألا تقع الآن فى الخطأ نفسه .. لقد حولنا إسرائيل طوال ٢٩ سنة إلى عذر لإعفاء أنفسنا من النقد وأعفاء حياتنا من المراجعة .

قال حسونة : لا . أنا لا أقول ذلك هرباً من النقد . ولكنك تعلم أن بابى مفتوح فى كل وقت — وكذلك أبواب العاملين معى — أمام أى شخص يريد أن يناقش موضوعياً الأعمال التى أدتها مكاتب الجامعة فى الخارج . لقد قامت بأعمال أكبر من طاقتها وإمكانياتها . يا أخى عد بذكرتك إلى الوراء قليلا . حاول أن تتذكر مدى الإمكانيات

الضعيفة جدا التى حصلت عليها مكاتب الإعـلام من الحكومات العربية . حاول أيضاً أن تتذكر – مقابل ذلك – ضخامة الأموال التى أنفقتها معظم الحكومات لهجوم بعضها على بعض فى الإذاعات ، والصحف ، والتليفزيون . تذكر أننا – بعد ٢٣ سنة من توقيع ميثاق الجامعة – ليس لدينا وكالة أنباء أو جريدة واحدة . . على مستوى العالم العربى . ومقابل ذلك هناك المئات من الصحف والعشرات من وكالات الأنباء . . الموجودة داخل هذه الدولة أو تلك . . للهجوم على هذه الدولة أو تلك .

* * *

مرة أخرى : أصبح الحديث ساخناً أكثر مما يجب ، ولا يبدو هذا دليلا على انفعال عبد الخالق حسونة فهدوؤه أكبر من صمته . ولكن يبدو أنه دليل على حساسيته للنقد فى أغلب الأحوال ، بحيث لم تعد دبلوماسية حسونة دفاعاً مناسباً .

إن عبد الخالق حسونة محام بحكم تعليمه ، دبلوماسى بحكم عمله ، لقد تخرج فى كلية الحقوق سنة ١٩٢١ . وظل يعمل محامياً لمدة سنتين وفى سنة ١٩٢٢ التحق بجامعة كمبردج بإنجلترا وحصل على درجة الأستاذية فى العلوم السياسية والاقتصادية بمرتبة الشرف الأولى إنها السنة التى سافر فيها فى أول بعثة أرسلتها وزارة الخارجية المصرية لإعداد أول مجموعة من الدبلوماسيين المصريين : مفروضة على أن حياته الوظيفية بدأت وانتهت بالعمل الدبلوماسى تكوين

دراسته في كمبردج عين بالسلك السياسي المصري . وبعد وظائف عديدة في الخارج أصبح سكرتيراً عاماً لوزارة الخارجية . ثم وكيلا لوزارة الشئون الاجتماعية (١٩٣٩) فمحافظاً للإسكندرية (١٩٤٢) . فوكيلا للخارجية (١٩٤٨) . فوزيراً للشئون الاجتماعية (١٩٤٩) . فوزيراً للتربية والتعليم ثم وزيراً للخارجية في سنة واحدة (١٩٥٢) .

وقد حدث في سنة ١٩٣٩ أن صحفياً بعيد النظر تنبأ لعبد الخالق حسونة بأنه سوف يصبح في المستقبل « رجل مصر الدبلوماسي » . . وقد أصبح حسونة هذا الرجل فعلا . . على مستوى العالم العربي .

وأسأل حسونة : بعد خبرتك الدبلوماسية ، ما هي مواصفات الدبلوماسي الناجح ؟

أجاب الرجل : كلمة « مواصفات » هي تعبير عن شيء ثابت . فمن الصعب أن نطلقها على مجهود إنساني متحرك كالعمل الدبلوماسي

قلت : هذه إجابة دبلوماسية يا سيدي . في الواقع أنت تفاديت الإجابة أصلا . ولذلك دعني أغير السؤال فأجعله كما يلي : ما هي الصفات التي تكفل النجاح للدبلوماسي ؟

سكت حسونة بضع لحظات ثم أجاب : أولاً أن يكون على خلق هذه مسألة أكثر أهمية مما تتصور . فالانتهازي لايصلح للعمل الدبلوماسي انتهازي فقط . ثانياً . . يجب أن يكون للرجل الدبلوماسي شخصية في جذابة . وثالثاً : الاستعداد العلمي . خصوصاً في عصرنا هذا . عد بدقليل يضيف حسونة : إن اختفاء أي واحد من هذه العناصر

الثلاثة يؤدى إلى إخفاق الدبلوماسى . ولا ينعكس هذا الإخفاق على شخصه فقط ، بل على أى مهمة يقوم بها أيضاً .

قلت : إذن . . أيهما أصلح للعمل الدبلوماسى فى رأيك ، المحترفون أم الهواة ؟ .

أجاب الرجل : إن الدبلوماسية هى مهنة كأى مهنة أخرى . ومن ثم فمن الممكن — نظرياً — أن نعثر فيها على هاو ناجح . ولكن — عملياً — هذا استثناء . أما القاعدة فهى أن المحترفين أولاً . . هم الذين ينجحون فى العمل الدبلوماسى .

وأسأل من جديد : أنت عاصرت الدبلوماسية المصرية منذ نشأتها الحديثة فى هذا القرن . . فهل استطاعت حتى الآن أن تكون لنفسها ملامح مميزة ؟

ويعود بذاكرته خلفاً حينما يقول : من الظلم أن نطلب للدبلوماسية المصرية ملامح مميزة خلال الفترة القصيرة التى مرت من عمرها . إنك تعلم أن مصر لم يصبح لها الحق فى التمثيل الدبلوماسى إلا سنة ١٩٢٢ فقط . فبعد تصريح ٢٨ فبراير فى تلك السنة ، سمحت بريطانيا لمصر بأن يكون لها تمثيل دبلوماسى فى الخارج ، ولقد استمر الاحتلال البريطانى لمصر قائماً إلى أن وقعت اتفاقية الجلاء سنة ١٩٥٤ . ومن الثابت أنه فى ظل احتلال مسلح بهذا الشكل يصبح عبء الجهاز الدبلوماسى أكبر ، وفى نفس الوقت تصبح مهمته أصعب . فطوال وجود الاحتلال ، كانت القيود مفروضة على الجيش المصرى . بالإضافة إلى سيطرة الخبراء الإنجليز على تكوين

الجيش وتسليحه . فى مثل هذا الوضع تكون الإرادة الفعلية للدولة مشلولة تماماً . فإذا ما أضفنا إلى ذلك فساد نظام الحكم الملكى الذى كان قائماً حينئذ . . نجد فى النهاية أن المجال الذى كان مفتوحاً للعمل الدبلوماسى كان محدوداً : وفى الوقت نفسه كان هو المجال الوحيد . بمعنى أنه إلى سنة ١٩٥٢ كان العمل الدبلوماسى يتحمل وحده عبء شرح قضايانا للرأى العام الدولى . ويواجه وحده فى الخارج المناورات المضادة من جانب الدولة المحتلة ، ولم تكن الدبلوماسية المصرية تعمل على المستوى الدبلوماسى فقط : بل كان عليها أيضاً أن تعمل على المستوى الصناعى والاقتصادى للتخفيف من قيود الاستثمارات الأجنبية فى مصر ، وعلى المستوى الاجتماعى ، لكسب تأييد المنظمات الشعبية الدولية للقضية المصرية .

قلت : من خلال خبرتك هذه . . ما هو مقياس نجاح الرجل الدبلوماسى فى رأيك ؟

أجاب عبد الخالق حسونة : المقياس هو أن يخلق رأياً هاماً يلائم قضايا بلده . وهنا يجب أن يكون الدبلوماسى ملماً تماماً بكل ظروف وثقافة البلد الذى يعيش فيه . ليس هذا فقط ، بل عليه أن يعيش بحيوية داخل المجتمع نفسه . لقد انتهت دبلوماسية المكاتب . وانتهت منذ زمن طويل . إننى أذكر مثلا أننى كنت فى سنة ١٩٢٨ قائماً بالأعمال فى سفارتنا بتشيكوسلوفاكيا . ولم يكن معى فى السفارة غير موظف واحد يعمل أميناً للمحفوظات . كنت أقضى ثلاثة أيام من الأسبوع فى مكتب

السفارة لتدريب أمين المحفوظات على العمل الدبلوماسى . أما باقى الأسبوع فلقد كنت أزور فيه كل مراكز الصناعة والزراعة خارج براغ العاصمة ولقد دعيت لزيارة تشيكوسلوفاكيا منذ ثلاث سنوات . ومع أنها تغيرت تماماً خلال تلك المدة . . إلا أننى كنت أحس أننى أعرفها شبراً شبراً بعد مرور ٣٧ سنة .

* * *

. . نعود للجامعة العربية .

الكلمات موجهة لعبد الخالق حسونة : إذا تركنا الماضى للتاريخ يحكم عليه . . ونظرنا إلى المستقبل ، فكيف ترى السبيل لتصحيح الأخطاء الماضية فى العمل العربى ؟

أجاب الرجل بوضوح : العمل الموحد . إنه وحده الذى يستطيع أن يعوض أخطاء الماضى . والعمل الموحد بهذا المفهوم يجب أن يكون شاملا . فالجامعة نفسها يجب أن تتحول إلى منظمة اتحادية . والقيادة العسكرية الموحدة التى بدأت سنة ١٩٦٤ ، يجب أن تتحول إلى جهاز عسكرى موحد فعلا . إن كل الدلائل الحالية تشير إلى إخفاق الحل السياسى فى إزالة آثار العدوان أمام تشدد إسرائيل . إذن لا يبقى سوى الحل العسكرى طيب . . ألا يستدعى الحل العسكرى بحثاً ودراسة وتخطيطاً وتنظيماً ؟ ألا يستدعى هذا بدوره تنظيماً للموارد والإمكانيات والقدرات على مستوى العالم العربى كله ؟ هل هذا التنظيم سيأتى لنا من السماء ؟ إن المسألة لم تعد تتحمل الاجتهادات .

ولو اقتصر كلامى عند هذا الحد فلن يختلف معى أحد . ففى النهاية نجد أن الحكومات العربية كلها متفقة ـــ نظرياً ـــ على هذه الحقائق ولكنها متفقة عليها باعتبارها شعارات فقط . أنا آسف لأننى أقول ذلك . ولكن الشعارات لا تزيل نكسة ، الأعمال وحدها هى التى تفعل ذلك .

قلت : هل أفهم من هذا أنك متشائم ؟

أجاب الرجل : لا . لا تفهم ذلك ، ولكننى أقولها بصراحة : الآن ، وإلا . . فأبدا !

وتمر لحظات صمت قبل أن أعيد سؤال عبد الخالق حسونة : بعد الأزمات المتواصلة التى شهدتها فى الجامعة طوال السنوات الماضية . . ما هو شعورك بالضبط نحو وظيفتك كأمين عام للجامعة ؟

ويضحك حسونة حينما يقول : شوف . . عندما عرض على هذا المنصب فى ٧ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، اعتذرت عن عدم قبوله شاكراً . ولكن إصرار المسئولين فى بلدى حينئذ ، وإصرار مجلس الجامعة العربية ، على أن أقبل المنصب . . لم يترك لى مجالا للتردد . وبعد أسبوع من التفكير المستمر قبلت المنصب ، فى ١٤ سبتمبر ١٩٥٢ . قبلته لأنه تكليف وطنى . لأنه رسالة أحملها وأدافع عنها ما بقيت فيه ، بل ما حييت من عمرى . ولقد مرت على ١٦ سنة تقريباً وأنا أحمل المنصب فوق كتفى . ولم أكن طوال تلك المدة حريصاً على الوظيفة . وبالعكس كنت حريصاً على الرسالة من أن تتأثر بالوظيفة . لقد عملت فى هذا المنصب كعربى أولاً وأخيراً . فمن اللحظة التى دخلت فيها الجامعة تركت

على بابها جنسيتى المصرية ، وطلبت من كل العاملين معى أن يفعلوا الشيء نفسه .

قلت : لوعدنا إلى سنة ١٩٥٢ من جديد . . هل كنت تقبل المنصب أيضاً ؟

أجاب الرجل بعد تفكير : نعم . ربما أتردد مدة أطول . ولكننى فى النهاية أقبل . لقد قضيت سنوات عديدة فى خدمة بلدى. وأعتقد أن أن خير ما جازانى الله به عن خدمتى الطويلة هو ما ختمه بها من إسناد هذا المنصب إلى . أننى الآن شاكر لله ، معترف له بكل ما قد أكون قد قصرت فى أدائه ، راجياً لمن يخلفنى بتوفيق يزيد عما لازمنى خلال تلك المدة .

قلت : هل أنت متفائل من المستقبل العربى ؟

أجاب : نعم . .

قلت : لماذا ؟

أجاب : لأننى متفائل بطبعى.

قلت : هذه أجابة غير علمية يا سيدى ؟

رد حسونة : إن التفاؤل هو الأمل .

قلت : الأمل . . فى ماذا ؟

رد بسرعة : الأمل فى جيل جديد تنبته الأرض العربية . جيل قومى فى عقيدته . عربى فى أصالته . جيل يفعل ما يقوله ويؤمن بما يفعله . هذا الجيل هو الذى سيحسم أمر أمته . ألست معى فى ذلك ؟

قلت : إن الحق معك ، ولكننى أضيف : أن لدينا فى الدين قرآناً واحداً لكل العرب . هذا صحيح . ولكن فى السياسة . . عندنا ١٤ قرآناً !

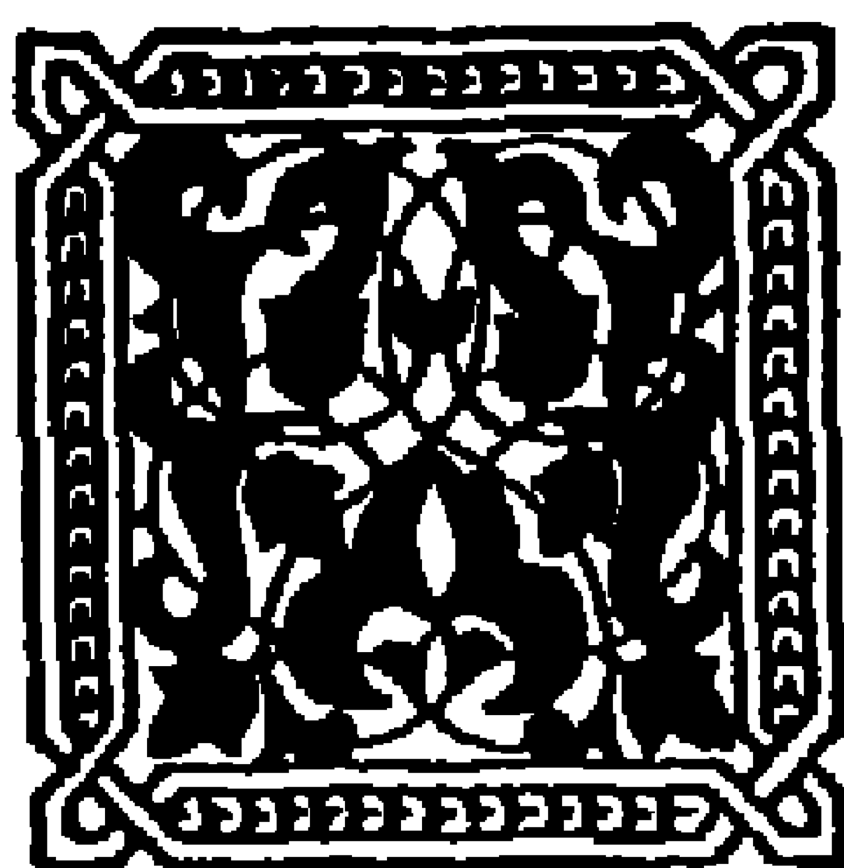
* * *

قلت ذلك . ولكن هناك إجابة أخرى سجلها المفكر الكبير ساطع الحصرى منذ ١٨ سنة عندما كتب : « لا يجوز أن يقال إن العرب خسروا معركة فلسطين (١٩٤٨) مع أنهم كانوا سبع دول . بل . . لأنهم كانوا سبع دول » ! .

الآن . . مرت ١٨ سنة على إجابة ساطع الحصرى ، أصبحنا خلالها ١٤ دولة ، لا مجرد سبعة . و . . .

ما زالت إسرائيل ترفع شعار زعيمها الحزبى السابق مناحم بيجن . . عندما قال من ١٨ سنة أيضاً : كن أخى ، وإلا . . سأقتلك . . .

عبد الوهاب التاسع عشر !



— آخر ساعة . . عدد ١٢ مايو ١٩٧١ .

دق التليفون فى منزل محمد عبد الوهاب ، كان المتحدث على الطرف الآخر هو يوسف وهبى. تحيات وسلامات وأشواق وأحضان تليفونية ، ثم . . .

— صندى عناب جاس نوح صعدين بوغاشا صلمنى كرفس .

هكذا قال عبد الوهاب ليوسف وهبى . بعدها — فوراً — انتهت المكالمة !

ماذا قال عبد الوهاب بالضبط؟ ماذا يقصد ؟ بأى لغة تكلم ؟ كيف فهمه يوسف وهبى؟ كانت هذه أسئلة سريعة تلاحقت فى داخلى ، ولم أستطع أن أوجهها لعبد الوهاب . الوقت غير مناسب . ربما أسأله عنها فيما بعد . . بعد ساعة . . بعد ساعتين . . ربما . . ولكن ليس الآن

إن عبد الوهاب مشغول الآن . إننى — وحدى — أجلس معه . أجلس فى صالونه الداخلى . ولكن عبد الوهاب معى بجسه فقط . . أما عقله فهو مشغول بإنتاجه السنوى : أغنية أم كلثوم .

إن الأغنية — هكذا يحكى عبد الوهاب فيما بعد — هى قصة بدأت بتليفون من أم كلثوم .

— إيه رأيك فى القصيدة دى ؟ . . تحب تسمعها ؟

ورد عبد الوهاب على أم كلثوم متسائلاً : قصيدة ؟ مين كتبها ؟

— لن أقول لك الآن . . اسمع الكلمات أولاً . . وقل لى رأيك . .

ثم انطلقت أم كلثوم على الجانب الآخر من خط التليفون تقرأ كلمات الأغنية .

أغداً ألقاك يا خوف فؤادى من غد
يا لشوق واحتراق فى انتظار الموعد
آه كم أخشى غدى هذا وأرجوه اقترابا
كنت أستدنيه لكن هبته لما أهابا

ولم ينتظر عبد الوهاب . لقد قاطع أم كلثوم معلناً ابتهاجه : الله . . دى كلمات هايله . . والنبى . . مين بقى مؤلفها ؟

— واحد ما تعرفوش . شاعر سودانى اسمه الهادى آدم . .

— إنما دى معانى حلوه بصحيح . . حلوة وجديدة . .

— يعنى موافق على تلحينها ؟

— جداً . . جداً . . سمعينى كده الباقى . .

ويومها استأنفت أم كلثوم قراءة الكلمات القادمة من السودان ، قبل أن ترسلها إلى عبد الوهاب فى منزله . بعدها — من يومها — بدأ عبد الوهاب يترجم كلمات القصيدة إلى معان موسيقية يسمعها الناس .

* * *

بعد شهر . الصيف والشمس والدفء والصفا والهواء والهدوء والكورنيش وبحر إسكندرية . هنا وضع عبد الوهاب أولى لمساته الموسيقية فى كلمات القصيدة . من هذا المنزل — منزله بالإسكندرية ، انطلق أول خاطر موسيقى

من عقل عبد الوهاب إلى فمه إلى جهاز التسجيل الصغير الذى يصحبه معه دائماً إلى أى مكان يذهب إليه. من الآن، من هذه اللحظة بالضبط، بدأ عبد الوهاب يدخل طرفاً ثانياً فى القصيدة بعد الشاعر الذى كتبها وقبل أم كلثوم التى ستغنيها . من هذه اللحظة سوف يبدأ الأطراف الثلاثة مشاوراتهم فى كل معنى ، وكل بيت ، وكل كلمة فى القصيدة . هل هذه الكلمة مناسبة ؟ هل تعطى المعنى ؟ هل نبقى عليها ؟ لماذا لا نعدلها ؟ لماذا لا نجرب؟ لماذا لا نتشاور مع صاحب الأمر ؟ لماذا لا نستدعى الهادى آدم من السودان ؟

وفعلا . . جاء الشاعر من السودان فى رحلة للاشتراك فى الأعمال التحضيرية لهذا العمل الغنائى الجديد . رحلة مفاوضات .

ـ هل المعانى هكذا أفضل ؟ هل هى أكثر تناسقاً ؟ أكثر اختصاراً؟ أكثر جمالا ؟

نعم . نجحت المفاوضات بين الشعر والغناء والموسيقى .

بدأت الموسيقى .

* * *

بعد ستة أشهر . عبد الوهاب فى منزله . أنا معه وحدى فى الصالون . الشاى والنعناع والتليفونات ونهلة القدسى والعود .

ـ سعاد . . هاتى جهاز التسجيل لو سمحت !

جاء الجهاز . بدأ التسجيل .

ـ ما هذا ؟

ـ دندنة . .

ـــ نعم . ولكن ما هى المناسبة ؟

ـــ القصيدة الجديدة .

ماذا تقول ؟

ـــ تقول . . .

* * *

لأول وهلة خلقت كلمات الشاعر السودانى تناقضات كثيرة فى عقلى .
ما هذا الذى أسمعه ؟ كلمات ؟ نعم .

ولكن . . أى كلمات ؟ أى معان ؟ أى عواطف ؟ أى بساطة فى العواطف ؟

إننا نعيش فى مجتمع ينافق بعضه بعضاً . إننا نحس بعواطف تطارد بعضها بعضاً . إننا نحس بالحب فى حياتنا . . ولكننا لا نعلنه . إننا لا نحس بالخلاعة فى حياتنا . . ولكننا نعلنها . إن هذه الكلمات ، تعيدنى من جديد إلى النور . . تعيدنى إلى النور وضوء النهار . إن الحب ليس عيباً . إن بساطتنا فى التعبير عنه ليست عيباً . إن الشوق واللهفة والتفاؤل والبهجة . . ليست عيباً . إن الحياة . . ليست عيباً .

إن عبد الوهاب يعيدنى إلى الحياة وهو يقرأ الشعر . إن الناس تعرف فى عبد الوهاب صفات كثيرة ، ولكن ليس من بينها أنه يقرأ الشعر . حينما يقرأ عبد الوهاب شعراً فأنت لست أمام قارئ ، ولا شاعر ، ولا ملحن . أنت أمام شخص طرف فى الأمر . أنت أمام صاحب المشكلة . أنت أمام شخص يتعذب . . إذا كان الشعر عذاباً . أنت أمام عاشق :.

إذا كان الشعر عشقاً . وأمام ثائر . . إذا كان الشعر ثورة . وأمام حالم . . إذا كان الشعر حلماً .

وهذا الشعر . . كان حلماً .

بهذا الشكل الذى أسمعه من عبد الوهاب . . فأنا أمام الحلم . أمام البساطة . أمام الجمال . إن عبد الوهاب يذكرنى بأن الجمال موجود فى الكلمات من الأصل من السودان . إن الهادى آدم شاعر من السودان. حالم من السودان. إنه مثل كل الحالمين . . ومثل كل السودانيين . . لديه تلك البساطة فى التعبير عن العواطف شعراً . بساطة لا تعرف الصخب ، ولا التعقيد ، ولا الفلسفة ، ولا النفاق ولا التقعر ولا الفساد ، ولا لابتذال ولا الخلاعة ، ولا الملل ، ولا اللف والدوران ، ولا التكرار . إن الإحساس صادق فى قلب الشاعر ، والمعنى واضح فى عقله ، والكلمة عالية على لسانه . أنا أحب . أحترق . أخاف . أخشى . أنتظر . أحتمل . أنعم . أتعذب .

إنه عذاب من نوع جديد . عذاب صادق ، بسيط ، طبيعى . عذاب اللهفة والشوق والأمل . . وليس عذاب اللوعة والفراق والهجر والصد والحرمان والشقاء . لقد اعتدنا على العذاب — كثيراً من العذاب — فى أغانينا . ولكن الذى اعتدناه أكثر هو دائماً عزول أو حاسد يدخل بين كل عاشقين كطرف ثالث يفرق بينهما أو يطاردهما أو يراقبهما أو يطلق عليهما الإشاعات . إن الحب فى أغانينا لا يعتبر حباً إلا من اللحظة التى يدخل فيها هذا « العزول » طرفاً ثالثاً . قبل « العزول »

لا يوجد حب . بعد « العزول » يوجد الحب . ولكن يوجد معه أيضاً ، العذاب والبكاء والأنين والجراح والفراق والشكوى والهجر والخوف والصد والتمنع والدموع . .

فى هذه القصيدة الجديدة القادمة من السودان . لا دموع .

فى هذه القصيدة الجديدة حب وشوق ولهفة وحنين ودعاء ورجاء وظنون وخوف ونداء ، ولكن : لا دموع .

* * *

منذ شهرين . الظهر . نادى الجزيرة . المجموعة . الغداء . الأكل . السلاطة .

الناس على مائدتنا هذه المرة سلاطة ! هذه جلستنا الأسبوعية التى نتبادل فيها هموم الأسبوع وأشواقه ونغسل نفوسنا من متاعبه . متاعب هذا الأسبوع – كما هى دائماً فى كل أسبوع – هى الأفلاس ! إن أكثرنا إفلاساً هذه المرة هو صديقنا الفنان الساخر أحمد رجب . إنه أكثرنا إفلاساً ، مع أن المظاهر كلها توحى بعكس ذلك تماماً . إنه صاحب دعوتنا اليوم . إنه الضحية . . التى يحتفل كل هؤلاء اليوم بها . . ويتناولون الغداء حتى آخر مليم فى جيبها . إن « الكل » هذه المرة هم : يوسف وهبى . . إبراهيم الوردانى . . كمال الملاخ . . جميل أبو المجد . . و . . و . . وأنا !

صمت تام . يوسف وهبى يتكلم : عبد الوهاب هو أذكى فنان عرفته فى حياتى . إن الفن هو عمره . . والموسيقى هى شاغله . . وإرضاء الجمهور هو مزاجه .

كمال الملاخ يعلق : هذا صحيح . . إنه قدوة لكل من يريد أن يبني مستقبله من الصفر .

أحمد رجب يتدخل : عبد الوهاب ده . . أستاذ . . أسطى . . معلم . الموسيقى عنده علم وصناعة وحرفة وإخلاص . . وحب .

* * *

إلى الحب . بيت عبد الوهاب من جديد . الصباح . الموسيقى . البروفة الأولى .

دخلت إلى بيت عبد الوهاب لأجد كل شيء فيه قد تغير . هذا بيت شخص آخر لا أعرفه . أين الصالون ؟ أين الكراسي ؟ أين الهدوء ؟ أين الصمت ؟ . .

لا شيء .

لا شيء أمامي سوى كراسي خشبية تبدو غريبة على هذا البيت . . كراسي تجلس عليها فرقة الموسيقى كاملة . . بمعداتها وآلاتها . . وبعبد الوهاب أمامها .

إن عبد الوهاب — كما أراه متلصصاً من بعيد — ليس هنا . ليس معي ولا مع أي أحد ولا أي شخص سوى نفسه وموسيقاه ولحنه . . والفرقة التي يدربها أمامه . إن عبد الوهاب لا يراني — وسوف تكون جريمة كبرى لو رآني — وأنا أختلس كرسياً في صمت وأنزوي في ركن من المدخل لأستمع في هدوء وأذوب في صمت .

عبد الوهاب يغني .

غداً تأتلق الجنة أنهاراً وظلا
وغداً ننسى فلا نأسى على ماضٍ تولى
وغداً نسمو فلا نعرف للغيب محلا
وغداً للحاضر الزاهر نحيا .. ليس إلا

ما هذا ؟ موسيقى ؟ نعم . ولكن ما هذه الرقة . : هذا التصوير ؟ : هذا الأمل . . هذا التفاؤل . . هذا الرفض ؟

ما هذا يا عبد الوهاب ؟ هذا سحر . متعة . روعة : عظمة . لحظات من الصمت .

إنه صمت داخلى . إن الموسيقى تنساب من عود عبد الوهاب . . إلى آلات فرقته . . إلى أذنى . . إلى قلبى . إنها تحرك فى داخلى أشياء لا أستطيع لأول وهلة أن أحددها بدقة .

إن هناك لحظات نادرة فى الحياة . . يحس فيها الإنسان أنه خرج من جلده . ذاب داخل جلده . لحظات تحس فيها أن كل شىء داخلك خرج من مكانه . . وسقط فى غير مكانه . . ثم ارتفع من جديد إلى آفاق لم تكن تعلم من قبل أنها موجـــودة . هناك لحظات نادرة فى الحياة . . تحس فيها أنك استمعت لشىء ، فى حالتى هذه استمعت لعبد الوهاب ، ثم أضاءت البطارية فى رأسى فجأة . أضاءت الجوانب المظلمة فى رأسى وكشفت المناطق المجهولة فى خيالى . . وحركت الآمال الناقصة فى قلبى .

هناك لحظات نادرة فى الحياة — والآن واحدة منها — تحس فيها

أنك أصبحت سائلا : . أصبحت شيئاً ذائباً : أنا الآن أذوب . : أتفاءل . . أحب . إن موسيقى عبد الوهاب تنقلنى إلى آفاق جديدة لم أكن أعلم من قبل أننى سأصل إليها . إننى الآن — قبل موسيقى عبد الوهاب — أحس أننى كنت أهيم فى صحراء . . فى رمال وفضاء وفراغ وسراب وضياع وأوهام وملل وخوف وقلق ومجهول ومساحات واسعة من لا شيء .

إننى الآن — بعد هذه الموسيقى من عبد الوهاب — أحس أن بندول الساعة قد انتقل فى قلبي فجأة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار : الآن لم يعد الحب جريمة ، الآن أستطيع أن أنزل إلى الشارع وأهتف بأعلى صوت ممكن :

أنا أحب . أنا أعشق . . أنا أذوب . . إن حبى ليس جريمة : . إن عذابى ليس ضرورة . . إن حلمى ليس مستحيلا . أنا أحب ، إذن فأنا ما زلت حياً . . ما زلت شاباً . أحب عينيها ، شفتيها ، همستها ، أحب الدفء فى صوتها . والحرارة فى كلماتها . . والصدق فى انفعالاتها إننى أحب . إننى — حتى — أحب خوفها . أحب خوفها من الرقيب : : أحب إقبالها على الحياة . إننى أحب . إننى أحب اللحظة التى مرت منذ خمس دقائق . . وأنتظر اللحظة التى ستأتى بعد خمس دقائق . إن لحن عبدالوهاب — بكلماته هذه — يضيف إلى حياتى شيئاً جديداً أحبه . يضيف إلى : المستقبل . يضيف إلى : غداً . إن غداً لم يعد بالنسبة لى شيئاً مجهولا قد يأتى وقد لا يأتى . لم يعد غداً مخيفا . لم يعد قدراً أحمل همومه مقدماً .

إن غداً، بهذا الشكل الذى يغنى له عبد الوهاب ، هو سعادة قادمة فى الطريق . هو جنة تتألق . هو أنهار وظلال . هو حب واشتياق .. هو أحلام اللقاء .

أغداً ألقاك ؟

نعم ، بالتأكيد سوف ألقاك . بعد أن أخذ قلبي هذه الشحنة العاطفية الضخمة من عبد الوهاب . . فإننى سوف ألقاك . غداً سوف نسمو « غداً لن نعرف للغيب محلا ، غداً للحاضر الزاهر نحيا ليس إلا » غداً سوف أحب وأحلق وأسمو وأعشق وأنعم وأتذكر. غداً سوف يهتز قلبي ويضيء عقلى ويشتعل إحساسى وتتزاحم انفعالاتى . غداً سوف يرتفع رأسى وتسقط مخاوفى وتختفى أوهامى وتذوب مشاعرى وتزيد رقتى وتتحقق أحلامى .

غداً سوف يحدث كل هذا . . ليس إلا . ليس إلا .

* * *

بعد أسبوع . الأربعاء . باقى من الزمن ٢٤ساعة . إن الزمن فى هذه المرة يمر دقيقة بدقيقة . ثانية بثانية. إن أعصاب عبد الوهاب متوترة وقلقه يتضاعف . لا أحد فى البيت يتحدث معه طويلا . كلمة ورد غطاها . لو حدث أكثر من هذا فسوف يثور عبد الوهاب . هذه عادته قبل إذاعة كل لحن جديد لأم كلثوم . قبل كل امتحان . أم كلثوم امتحان . والجمهور هو المصحح فى هذا الامتحان. إن الجمهور بالنسبة لعبد الوهاب هو الوحيد الذى يملك حق « الفيتو» على العمل الفنى . إن عبد الوهاب

ـ مثل كل فنان عظيم ـ عمل طوال حياته بالتحالف مع الجمهور . . خادماً له . . حليفاً معه . . سيداً عليه. لقد أعطى للجمهور ما يشعر به .. لقد أعطاه ما يريده .. ومن وقت لآخر .. أعطاه أكثر مما يتوقعه .هذه نقطة لابد أن تكون واضحة بالنسبة لكل من يدرس شخصية عبد الوهاب. إن عبد الوهاب لا يضع ألحانه لإرضاء النقاد ، ولا لإرضاء أسرته ، ولا أصدقائه ، ولا حتى الأجيال القادمة من بعده . إنه يلحن من أجل مستمعيه . من أجلنا نحن . إن مستمعيه يعرفون ذلك. إنهم متأكدون مقدماً من شيء واحد : أن عبد الوهاب لن يخيب ظنهم .. فى عبد الوهاب .

* * *

الليل . منتصف الليل . سلامات وأشواق وحرارة وقلق وطمأنة من القلق و . . . حديث بالتليفون مع عبد الوهاب عن الموسيقى . إننى قلت لعبد الوهاب ـ فى تلك المكالمة التليفونية قبل الحفل بساعات ـ أشياء قليلة ، ولكننى لم أقل له شيئاً واحداً : إنه فعل الكثير للموسيقى الشرقية . إن عبد الوهاب ولد فى عصر كان كل شيء فيه يفتقر إلى البساطة . كانت هناك المطولات فى الصحف ، والسجع فى الأسلوب ، والزخرفة فى المبانى .. والتكرار فى الكلمات . إن ما فعله عبد الوهاب كان بسيطاً وضخماً فى قت واحد : لقد وضع نهاية لعصر السجع والزخرفة فى الموسيقى والغناء . إن الآخرين فعلوا ذلك فى الصحافة والعمارة والأدب والشعر . . ولكن عبـــد الوهاب كان هو الذى فعلها فى الموسيقى . لقد أدخلنا عبد الوهاب عصر السرعة والبساطة والاختصار . البلاغة هى الاختصار .

إننى أسأله وهو يرد على باختصار :

ـ ما هى أهم صفة ؟

ـ فى إيه . .

ـ فى الحب ؟

ـ التضحية . .

ـ فى المرأة ؟

ـ الحنان . .

ـ فى الرجل ؟

ـ الفهم . .

ـ ما هو أكبر مقلب ؟

ـ القمر . .

ـ أخطر امرأة ؟

ـ الكاذبة . .

ـ أصدق شخص ؟

ـ الطفل . .

ـ أضخم مشكلة ؟

ـ السعادة . .

ـ أعظم أمنية ؟

ـ السعادة أيضاً . .

ـ أحلى ساعة ؟

ــ الآن . .

ــ أحسن يوم ؟

ــ غداً .

* * *

غداً البروفة الأخيرة . نحن فى الليلة الكبيرة . اليوم هو الخميس . اليوم هو الامتحان . اليوم يقول الطرف الرابع كلمته . الجمهور .

إن اللحن الذى وضعه عبد الوهاب أصبح اليوم مكتملا تماماً . كل شىء فى مكانه ، كل فرد فى كرسيه ، كل عاطفة فى محلها . إن اللحن أصبح الآن مكتملا ــ فى عقل عبد الوهاب ــ وعلى أوتار الفرقة الموسيقية . إن الأغنية سوف تبدأ بمقدمةموسيقية بحتة اعتادها الجمهور من عبدالوهاب إن المقدمة فى هذه المرة « وهابية » مائة فى المائة . إن الآلات تتبادل « الحوار » فى المقدمة ، بصوت عال فى لحظة ، وبهمسات منخفضة فى اللحظة التالية . لقد سئل عازف مرة : ما هى الموسيقى ؟ فأجاب قائلاً : هى القوة والضعف .

وفى المقدمة الجديدة يطبق عبد الوهاب هذه القاعدة بأمانة : القوة والضعف . الارتفاع والانخفاض . العذاب والمتعة ، التردد والأمل ، النار والجنة .

وطوال الأغنية تحس أن شحنة التفاؤل تتزايد فى اللحن شيئاً فشيئاً ، إلى أن تصل إلى قمتها ، فتقترب من الرقص ، فى الكوبليه الأخير ، الذى ينتهى كما هو فى كل مرة بسؤال يتزاحم فيه الأمل والرجاء: أغداً ألقاك؟

إن عبد الوهاب فى هذا اللحن هو عبد الوهاب التاسع عشر . إن هذا هو لحنه التاسع لأم كلثوم ، ولكن عبد الوهاب نفسه هو تاسع عشر . هو الجلالة . هو الملك . هو الإمبراطور .

ولأننى أشفق على أعصاب عبد الوهاب من ليلته مع الجمهور ، فقد سألته : أغداً ألقاك ؟

ورد عبد الوهاب وهو يستعد للتوجه إلى الحفل : نعم .

قلت : ولكن فى رأسى الآن سؤالا مخزوناً منذ عدة أشهر : ماذا كنت تقول ليوسف وهبى ؟

— متى ؟

— عندما قلت له : صندى عناب جاس . . . . .

قال عبد الوهاب ضاحكاً : آه . . دى الشفرة السرية بينى وبين يوسف وهبى . معناها . . عندى ناس ! إنها لغة خاصة نتفاهم بها — هو وأنا — عندما لا أريد لأحد معى أن يتابع حديثى معه . .

وقلت لعبد الوهاب : أتمنى لك التوفيق . . مع تحياتى . .

ورد عبد الوهاب : صعدين بوغاشا سلمنى كرفس . . الترجمة : بعدين كلمنى . . !

الدنيا ..
التى كانت أم كلثوم!



– أخبار اليوم .. عدد أول فبراير ١٩٧٥

خلق الإنسان ضعيفاً

* * *

لم أكن أنظر إلى أم كلثوم أبداً كإنسانة ضعيفة . رأيتها دائماً كإنسانة عاشت خمسين سنة من حياتها على الصفحة الأولى . فمن يومها الأول فى القاهرة وهى تعلم جيداً مهمتها فى الحياة . كانت مهمتها هى أن تذهب مع الحياة إلى أعلى تماماً .. أو إلى أسفل جداً . نعم . فى حياة أم كلثوم لحظات كثيرة خفية تعرضت فيها من الحياة إلى خطر الهزيمة النهائية .

مع ذلك كانت المهمة أمامها واضحة : مع الحياة . . إلى أعلى ، أو إلى أسفل . . لا شيء فى الوسط . أم كلثوم لم تكن وسطاً فى أى شيء . فى البداية فقيرة جداً ، ثم بعدها : فى العشرينات : مطربة . فى الثلاثينات : نجمة ، فى الأربعينات : معجزة . فى الخمسينات : كوكب الشرق . فى الستينات : أسطورة . فى السبعينات : عنيدة وجريحة أيضاً .

آه . . نسيت أن أقول شيئاً فى كل كلمة سابقة . هناك دائماً كلمة «جداً» . إن أم كلثوم فى حياتها كانت أى شيء وكل شيء ، ولكن : جداً ، جداً ، جداً

فى حياة أم كلثوم لم يكن هناك شيء مؤجل سوى الفقر . إننى لا أتذكر من الذى قال : إنك إذا ذقت الفقر مرة . . فإنك لن تكون غنياً مطلقاً .

أم كلثوم لم تكن تحس أنها غنية مطلقاً .

معها نقود الأغنياء ، ولكن ليس معها غطرستهم . مجرد تناقض واحد

من مائة تناقض فى حياتها . إن فى شخصيتها مزيجاً من النار والهواء . فى صوتها المطر والشمس . فى عمرها الطول والقصر . فى حياتها البساطة والانغلاق . فى منزلها الصمت والضجة . . العزلة والزحام . . الفقر والغنى ، معاً . .

* * *

منزل أم كلثوم فى هذه الأيام تحول إلى مجرد « سويتش » . إنه سؤال واحد يحمله التليفون : كيف حال الست ؟

إن الست بخير . هكذا يرددون الكليشيه منذ أيام . بالطبع ليست هذه هى الحقيقة مطلقاً ، ولكن ، إذا سألت عن الحقيقة . . . فالقصة بداية أخرى . هل تتذكر ذلك اليوم من شهر مايو سنة ١٩٧٢ ؟ نعم ، بالضبط . من هناك تبدأ رحلة أم كلثوم مع العذاب .

* * *

مدينة لندن :

السياح والزحام والشمس والشراء والضجة و ــ جسنا ، إنها لندن فى الصيف. هيلتون لندن. الدكتور حسن الحفناوى عاد لتوه من المستشفى مع زوجته أم كلثوم . عاد الاثنان ، فرحين متفائلين . الآن تمت كل الإجراءات ، ووصلت التحليلات ، وجاءت كل الأدوية ، واستقرت كل الطمأنينة . الآن يدخل الزوجان إلى الفندق ، إلى الأسانسير ــ إلى . .

لقد سقطت أم كلثوم مغشياً عليها .

صرخ الدكتور حسن : الحقونى من فضلكم . . الحقونى بملح ، ملح ملح . . .

لقد دفع الزوج الطبيب بالملح إلى فمها بيديه . بعد قليل بدأت أم كلثوم تسترد وعيها . قليلا قليلا قليلا ، ثم : عادت أم كلثوم إلى الحياة .

عادت ، ولكن . . . بإيقاع بدأ يصبح بطيئاً ، بقدم إلى الأمام وقدم إلى الخلف ، بالطلقة الأولى فى صراعها مع الحياة والمرض . لقد بدأ شد الحبل .

كان يوم الثلاثاء . هل تتذكره ؟ نعم أتذكره — ١٧ مايو ١٩٧٢ . من يومها بدأ العد التنازلى .

* * *

التليفون .

— ياصديقى أم كلثوم تريدك غداً فى استوديو ٤٧ بمبنى التليفزيون .

قلت للموسيقار بليغ حمدى : خير ؟

ضحك صديقى بليغ فى التليفون قائلا : تسمع تسجيلها للأغنية الجديدة التى قمت أنا بتلحينها .

— ولكن أم كلثوم لا تحب أن يشاهدها أحد وهى تسجل . .

قال بليغ : ما على الرسول إلا البلاغ . .

قلت : معك الحق ، أنت أبلغتنى . . وأنا لن أذهب !

* * *

ستوديو ٤٧ — بعد أسبوع .

ابتسامتها تملأ الاستوديو . الموسيقيون يتزاحمون خلفها . المهندس زكريا يراقب . بليغ قلق . أنا مضطر لاقتسام القلق معه ، فلا يوجد غيرنا .

أم كلثوم تخرج .

إنها جاءت لتستريح . أهلا ، أهلا ، أهلا ، و . . .

– لازم ما تجيش إلا إذا كلمتك أنا ؟

قلت لها : إنك صاحبة الحق فى ذلك .

شىء ما ، كان يقلقنى ، لا يمكن أن تستدعينى أم كلثوم بهدف سماع بروفة . لا هى عادتها ولا أنا أريد . إذن . . ماذا ؟

قالت أم كلثوم بطريقة عابرة : مش تقول مبروك لمدحت ؟

قلت : نحن لسنا أصدقاء تماماً ، ولكن باعتباره ابن ابن شقيقتك . أقول له مبروك . . إنما ، على إيه ؟

قالت أم كلثوم بشعور من الفخر والاعتزاز : خطبت له بنت ناس كويسين أوى . .

– عظيم .

صمت .

ثم قالت أم كلثوم : انت هاتتجوز امتى ؟

قلت : مش عارف . .

قالت : على فكرة أنا فيه حاجة محيرانى فيكم انتم ولاد اليومين دول . . انتم ما بتتجوزوش ليه ؟

ـ مش عارف . . أنا لم أفكر . .

ـ أمال بتفكر فى إيه ؟

بعدها حاولت أن أثرثر فى أشياء كثيرة بلا معنى . إنها « الأم » . . أم كلثوم . الرقيقة ، أم كلثوم . إنها تتكلم عن بنت الناس وبنت الأصول ومدحت واهتمامها بمدحت و . . بدأ التسجيل .

* * *

بليغ حمدى يروح ويجىء ويجلس ، ويروح ويجىء ويجلس ، و . . .

ـ ما تقعد يا بليغ بلاش نظام القلق ده . .

سألنى بليغ : انت مش حاسس بحاجة ؟ أم كلثوم تعبانة جداً . . أول مرة صوتها يتقطع .

فى الواقع إن التسجيل نفسه تقطع .

إنها خرجت لاهثة وضعيفة ومتهالكة و : ألقت بنفسها فوق الكرسى .

ـ خير . . مالك ؟

ـ لا مفيش . مجرد دوخة . فين اليانسون ؟

جاء الينسون . إنها تنفست بعمق ، وارتشفت بحرارة ، وقررت بحسم : فلينصرف الموسيقيون .

إننا جلسنا فى ارتباك : بليغ وأنا . ارتباك وقلق .

بعد قليل بدأت هى تتحدث . الوجنتان تهتزان . الحاجبان يصعدان ويهبطان . الجبهة تبدو متوترة قليلا . ومع ذلك فالشفتان تشعان ابتسامة

مضيئة . إن الكلمات حنونة والابتسامة مستمرة ، ولكن . . هناك شرخ فى هذه الابتسامة . خير .

قالت أم كلثوم : هيه يا بليغ . . نكمل التسجيل بكرة . . إذا طلع كويس ، عندى لك مفاجأة كويسة .

قال بليغ ضاحكاً : تدينى الساعة ؟

تطلعت أم كلثوم إلى ساعتها الفضية الأنيقة : بس دى ساعة حريمى ياولد انت . . وبعدين أنا ما قدرش أقول لك لأ . . انت عارف . . إنما ممكن واحدة تضحك عليك وتاخدها . .

بليغ يضحك ويندهش ويتساءل : معقول يا ثومة ؟

قالت ثومة : والله يا خويا كل حاجة معقولة معاكم . . أنا عارفة إيه اللى جرى لكم ؟ !

* * *

ـ جرى إيه ياست . . ؟

وجهت إليها السؤال ونحن فى السيارة متجهين إلى منزلها . سؤال خرج من فى ، مشحوناً بالتردد والتلعثم بقدر مافيه من القلق .

قالت أم كلثوم ضاحكة : عايز تقول إيه ؟

فعلا أريد أن أقول . كلنا نريد أن نقول . ولكن . . كيف ؟ لقد ترددت قبل أن أفرغ بسرعة ما أريد أن أقوله وأستريح .

ردت أم كلثوم : أعتزل الغناء ؟ سهل جداً ، سهل ومريح . إننى حتى أستطيع أن أجد عذراً مناسباً لذلك . مع هذا فإننى أعرف فى داخلى

إننى لوقررت الاعتزال . . فهذا معناه نهايتى ، لا أستطيع . . لا أستطيع.
إننى أحسب عمرى بعدد مرات وقوفى على المسرح .

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا . السيارات والشوارع والإشارات ، وصدق فظيع فى كلماتها . إن كلماتها الأخيرة وقتها كانت : هيه ؟ هاتيجى التسجيل بكره .

إننى لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائى الأخير ، لهذا قلت : أكيد ، لكن هل أنت بخير؟

نعم كانت بخير.

أو — لم تكن ؟

* * *

المستشفى :

هذا أول مستشفى أدخله فى حياتى.. عندما وصلت كنت قد أصبحت أنا نفسى مريضاً . كل شىء أصبح مريضاً . الصمت والهدوء والقلق والتوتر وغرفة الإنعاش . يسمونها هنا علمياً : وحدة العناية الفائقة بمرضى القلب . إننى لم أجرؤ على الدخول . أو حتى مجرد النظر . إذن . . فلأذهب إلى الغرفة ٥٠١ . . فربما يوجد شىء مطمئن .

* * *

الأربعاء : المغرب . الخامسة إلا الربع .

إنهم أطباء الكونسلتو . الكشف والتحليل فى الطابق الثانى . منزل أم كلثوم . الزمالك . المناقشة فى الدور الأول .

التحية هى : الحمد لله .

أحد الأطباء يقول : ولكن التقارير تؤكد . . .

زكريا الباز ، بشعره المتزاحم بياضاً وسواداً ، يقول : نعم ، ولكن شفت حالتها ؟ إنها لم تكن فى أى وقت مرتفعة المعنويات بقدر ما هى الآن . .

— طيب والعمل ؟

— لازم تفوضنى . . بالذات الدكتور حسن . . لازم توافقونى على أنى أقول لها . . .

* * *

الأربعاء . غرفة أم كلثوم. إنها على الكرسى . سعدية — بنت أختها — على السرير . الدكتور زكريا يتكلم . الدكتور حسن يراقب . أم كلثوم تستمع . إنها تبتسم وتضحك وتبتسم . . أخيراً تكلمت .

— طيب وبيقعدوا أد إيه فى جناح الكلى ده ؟

— من يوم حرب أكتوبر . المريض لا يحتاج إلى أى مجهود .

— على فكرة يا زكريا ، أنتم كنتم أبطال فى حرب أكتوبر . كان مستشفى المعادى فخراً لنا جمعاً . . أنا سمعت عن معجزات أنتم عملتوها .

— يافندم حضرتك مساهمة فى كل جهاز احنا بنشتغل بيه . . كان فى حرب ١٩٦٧ جهاز واحد عندنا للكلية الصناعية . دلوقت عندنا ستة . .

— هيه . . يعنى انت عاوزنى آجى عندكم . ؟ أنا موافقة . .

قال الدكتور زكريا كاتماً الخبر المؤلم : دى مجرد زيارة يافندم ، وكشف روتينى .

ردت أم كلثوم ضاحكة : أنت بترن كتير ليه ؟ قلت لك موافقة ياسيدى ، عايزنى إمتى ؟

تشجع الدكتور زكريا واستجمع كل دبلوماسيته : احنا مش مستعجلين . . يعنى كده على يوم السبت ، نكون بس عملنا شوية استعدادات . . .

قاطعته بقلق : استعدادات ؟

ـ طبعاً يافندم . . مش لازم ندهن الجناح كله بوية جديدة ؟ أنا اخترت لك اللون البمبى . .

ـ والله أنا كنت عايزة أقول لك . .

ثم : سكتت . لقد دخل بعض الأقرباء إلى الحجرة . الكل يطمئن . الكل ينشرح ، سؤال واحد يوجهه الجميع للطبيب .

إن الطبيب يطمئنهم : الحمد لله . . الحمد لله . . حتى قومى كده ياست وافردى ايديكى واتمشى . . .

قامت الست وتمشت . إنها تفرد يديها إلى الأمام . عظيم . اليدان ثابتتان . إنها تتمشى أمام الجميع . . مازالت اليدان ثابتين . فجأة ، وقبل أن تبدأ اليدان فى الارتعاش ، أمسك بهما الدكتور حسن الحفناوى . . هابطاً بهما إلى جنبيها . . ضاحكاً ومؤكداً فى ثقة وتفاؤل : هايل ياثومة . . الحمد لله ، الحمد لله . .

ثم : جلس الجميع . .

• • •

مازال اليوم هو الأربعاء .

الثامنة . التليفون .

قالت أم كلثوم : مين ياسعدية ؟

ردت ابنة أختها ، الملازمة لها دائماً : ده الأمير عبد الله الفيصل ياست . . طالبك من جده .

ــ أيوه . . أيوه . . هاتى السماعة .

قالت أم كلثوم : الحمد لله . . الحمد لله . . انت مش سامع . . قل لى . . ازى جوهرة « زوجته السابقة » ؟

ــ فى لندن . . كويسة

ــ وازى سلوى « زوجته الحالية » ؟

ــ كويسة . . كانت قلقانة كتير عليكى . . انت ازى صحتك ياست الكل ؟

ــ قل لها الحمد لله ، هو بس شوية ضعف بسيط . . ودلوقت حاتعشى . . أول مرة أحس أنى جعانة

ــ ابعت لك طيارة فيها خروف . .

ــ (ضاحكة) لا ، ابعت لى الأميرة سلطانة (طفلته الصغيرة) . . هى لسه عفريتة ؟

ــ طول النهار شقاوة ولعب . .

— (ضاحكة) ياخويا طالعة لابوها . . أنت ما بتشتغلش ليه اليومين دول ؟

— اشتغلت ، عملت ديوان جديد حاهديهولك . .

— استنى على بس شوية . . أنا عايزة الأول أعمل لك الحتة اللى كانت عاجبانى ولازم أعملها . .

— آه ، اللى اسمها . .

— أسمها « فرحة حب » . . انت ناسى ولا إيه . . بقالها عندى سنة . . أنا حاكلم رياض بكره ، يبتدى يشتغل فيها . .

— رياض السنباطى ؟ عظيم . . ما بتريدك تفكرى فى الغنا هلا . . دلوقت المهم صحتك . .

— صحتى ياخويا حديد . .

ثم : انتهت المكالمة .

* * *

إنه طعام شهى . طعام ومساء وجو شهى . النيل من النافذة . الصحف على السرير. أطباق الطعام فارغة على المائدة . مدحت ومحمد ودسوقى والدكتورزكريا حولها .

قالت أم كلثوم : المرة الجاية ياسعدية عايزة آكل مسقعة .

قال أحدهم : والله زمان . . المسقعة

ردت أم كلثوم : زمان ليه ؟ ما احنا فيها . . الخير كتير والحمد لله . .

— بس الأسعار . . الأسعار . .

قالت أم كلثوم : آه صحيح ، بس طول البلد ما هى . .

قال محمد : زمان كانت العشرة صاغ تكفى الواحد يعيش منها ويأكل فاكهته وتكفى كمان يشرب . .

تساءلت أم كلثوم : يشرب إيه يامحمد ويسخم إيه ؟ أنت مابتشربش حاجة . .

ـــ مش أنا . . كان فيه ناس معانا همها الشرب . . يعنى مثلا كان فيه واحد صاحبي غاوى يشرب سبرتو أحمر . .

قاطعته أم كلثوم : لا ، وانت الصادق . . دول كانوا بيشربوا طافية !

ـــ وحشتنا قفشاتك ياست . . انتى كمان فاكرة الحاجات دى ؟

ـــ أمال . . وفاكرة كمان إن البيضة كانت بمليم . . هى دلوقت بكام ؟

ـــ بقرشين ، وساعات بثلاثة كمان . .

ـــ يعنى العشرة صاغ بتاعتك كانت بتجيب كام بيضة ؟

ـــ مايه . .

ـــ ياه .. ! يعنى العشرة صاغ زمان كانت تساوى أربعة جنيهات دلوقتى ؟ لا . . كتير صحيح . .

سعدية تتدخل فى الحديث .

قالت سعدية ضاحكة ومتفائلة : أظن كفاية كده ياثومة . . مش كده ياحبيبتى ؟

ثم : صفقت بيديها مستبشرة ومتفائلة وآمرة . إنها ليلة الصحة والأمل والدعاء والحمد والتفاؤل .

* * *

١٠ : ٤٥

دخل الدكتور حسن . . إنه قادم من المستشفى . خير ، خير ، خير . .

ــ ازيك ياثومة . .

ــ الحمد لله ياحسن . . حاسه إنى حديد زى ما انت شايف

ــ ربنا يخليكي لينا ياثومة . . حتنامى ؟

ــ آه ، حانام على طول . حاسة إنى عايزة أنام على طول . .

ــ طيب ياحبيبتى استريحى . أنا جنبك .

ثم انصرف الدكتور حسن إلى حجرته المجاورة . الحجرتان يفصلهما تواليت وباب . إنه أغلق التواليت ، وفتح الباب . سعدية رفعت فيشة التليفون وأطفأت النور . تصبحى على خير .

* * *

يارب :

* * *

غرفة أم كلثوم .

الثالثة فجراً .

انشقت الأرض فجأة عن صرخة فزع . سعدية فى حالة فزع : إيه

ياثومة ؟ إيه ياحبيبتى ؟ مالك ياروحى ؟ . أنتى صحيتى ؟

قالت أم كلثوم : دماغى . . دماغى

تساءلت سعدية فى فزع : مالك ياحبيبتى ؟ سلامتك يانورعينى . .

قالت أم كلثوم فى صوت مكتوم وألم بالغ : صداع . . عندى صداع ياسعدية . .

أحاطت سعدية رأس أم كلثوم ووجهها بيديها . . فجأة أحست بيديها مبلولتين : خير ياثومة . . . انتى عرقانة ياحبيبتى . . ؟ الدنيا حر ؟ انتى . . .

ثم : إنه ليس عرقاً . إنها دموع أم كلثوم . أول دموع من أم كلثوم .

قالت أم كلثوم : الحبوب. دماغى . . صداع . . دماغى . .

ارتبكت سعدية وأخذت تبحث عن حبوب الصداع . يداها عصبيتان قلبها يرتجف . . إنها فى حالة ارتباك تام . . يارب . . كانت أمامها حبات الأسبرين حالا . . ولكنها لا تراها .

نعم . . الإسبرين ما زال أمامها ولكنها لا تراه . . لا تراه . . لا تراه

ثم : رأت الإسبرين . .

قرص و قرصان وكوب مياه . . ثم أعادت أم كلثوم رأسها إلى الوسادة . أعادتها ولم تتحرك .

* * *

التليفون . الحرارة . النجدة . الأطباء . الدكتور حسن يوقظ الجميع . إنه الدكتور زكريا الباز . حالا حالا . من الدقى إلى الزمالك فى خمس

دقائق . حالة غيبوبة . هبوط . صدمة . الضغط . النبض . التنفس . دكتور رشاد برسوم . السيارة . محمد الدسوقى يبحث عن سيارته . إنها فى آخر الجراج . لا ، لا . لن ينتظر السيارة. إنه يجرى فى الشارع ، بالروب والبيجاما والشبشب . يجرى . خير . خير . دكتور يحيى طاهر . أدوية تحاليل أدوية . الخامسة. المستشار وجدان طاهر . عايزين حقن كورامين . سعدية تستغيث بزوجها المستشار وجدان : اسمع ، روح عندنا فى البيت . . أيوه ، فى الدولاب ، ثانى رف على اليمين . مظبوط . ثلاث حقن كورامين . بسرعة يا وجدان .

السيارات . أدوية. تحاليل. أدوية . وصل الكورامين. أدوية. تحاليل. أدوية . الإغماء مستمر . عاد التوتر . عاد الخوف . يارب . عايزين حقن كالسيوم . مدحت يجرى إلى السيارة . إنها السادسة صباحاً . لا ، لا ، مش كفاية .. الدكتور يحرر نسخة أخرى من الروشتة. ممدوح يجرى . سيارة أخرى. الشارع . السرعة . نعم . نعم، هذه الصيدلية مفتوحة . هنا . بجوار عمارة ليبون .

أدوية . تحاليل . أدوية .

وصل مدحت .. صيدلية الجمهورية .. وصل ممدوح .. صيدلية الزمالك . أدوية . الضغط . النبض . التنفس . لازم نقيس التنفس . . التليفون . سيارة قلب حالا . أوكسيجين . إنها الثامنة والنصف. الإغماء . شخص آخر من الأسرة أصيب بإغماء . الأطباء أصبحوا مرضى . . والمرضى أصبحوا فى حالة إغماء . هدوء . هدوء . لا بلاش عصبية .

بلاش عصبية من فضلكم . قالها الدكتور بعصبية .

الإسعاف . الدموع . المستشفى. لا سيدات من فضلكم . سعدية فقط . القافلة . . المعادى . حجرة الإنعاش إنها الحجرة ٣٣٤ . الكشف . قناع الأوكسجين . التحليل . الخطر . إنها العاشرة إلا الربع من صباح الأربعاء لحظة لا تنسى مطلقاً . قبل تلك اللحظات كانت أم كلثوم فى رعاية الأطباء .

من الآن فصاعداً . . أم كلثوم فى رعاية الله .

* * *

يارب .

* * *

الطوارىء . التليفونات . القلق . رئاسة الجمهورية على التليفون . الغرفة ٥٠١. أنور السادات . مزيد من القلق . القصر الملكى من الرياض . دمشق على التليفون . بيروت . الخرطوم. تونس. السؤال والإجابة والقلق بينهما . القلق والوحدة .

* * *

أن تكون قريباً من أم كلثوم . معناه أن تعيش فى دنيا أم كلثوم . دنيا أم كلثوم هى الغناء . إن الغناء كان هو فكرتها الأولى عن الحياة . إن اللغة داخل منزلها كانت هى دائماً : ما هو موعد الحفلة ؟ موعد التسجيل ؟ موعد البروفة ؟

حينما تغنى ، أو حتى تستعد لكى تغنى ، فإنها كانت تطير فى

الهواء . حتى وهى فوق كرسى . إنها تسبح فوق المسرح كما لو كانت لها أجنحة خفيفة غير مرئية . لحظتها تذوب الإنسانة فى صوتها . لحظتها يمتصها صوتها بحيث لا يبقى منها أى شىء آخر . إنها تغنى عن الحب . . عن دموع . . عن رقة تموت . . أو دفء يبدأ . . عن عاشقة وحيدة . . عن ذكريات . . عن هزيمة عاطفية . . عن سؤال توجهه . . عن ألف ليلة وليلة . . عن رقة الحب . . عن دنيا جديدة كاملة من الأمل والألم .

دنيا أم كلثوم الآن مليئة بالألم . إنه الألم والوحدة . لقد حققت لنفسها الحب ، والشهرة ، والمركز ، والصيت ، والنفوذ ، والثروة . لقد غنت ونجحت واستمرت .. بحيث بدا الزمن وكأنه محايد معها . . بل وحليف لها فى أحيان كثيرة !

ولكن الفنان ينسى أنه فى اللحظة التى يصنع فيها مجده . . فإنه فى الواقع يصنع فيها أيضاً سجنه. ان الفنان الذى يجعله جمهوره نجماً لامعاً . . يصبح فى نهاية المطاف وحيداً ، وحزيناً . وحيداً مع شهرته الواسعة . . وحزيناً على إنسانيته المتراجعة .

إنه — إذا كان رجلا — فربما تجعله النقود أكثر رخاء . وإذا كانت امرأة ، فإن الوحدة فى حياتها تصبح أكبر من أى شىء آخر . إنها — حتماً تأتى أسرع . إن الزمن هو دائماً عدو المرأة . . حتى بالنسبة لأسطورة كأم كلثوم .

إن معظم النجوم غيرها ، يقضون السنوات العشر الأخيرة من حياتهم فى صحبة الأقراص المنومة ، أو الخمر ، أو أى شىء آخر يساعدهم على

التخلص من ليل طويل.. موحش وحزين . ليل من الوحدة .. والانتظار.. والأمل فى صباح مزدحم . إن الزحام يتراجع دائماً مع الظلام . الآن ينتهى الفنان . . ويبدأ الإنسان . هنا يبدأ الليل .

فى ظلام الليل تأتى الوحدة القاتلة . الوحدة مع ألبوم صور قديمة .. أو خطابات أيام مضت . . أو تسجيلات يوم بعيد . . أو حتى مجرد الوحدة مع إعلانات التليفزيون .

ولكن أم كلثوم بدت دائماً بغير زمن . بغير عصر . إنها عاشت دائماً فى القمة . وعندما انتهى الغناء راحت القمة ، وراحت معها علامات الحياة ذاتها .

وفى حياتها كانت الصفة المدهشة فى أم كلثوم هى أنها تجعلك تشعر فوراً بأنك فى بيتك وبين أسرتك . إنها تعطيك دائماً انطباعاً بأنك أهم إنسان فى حياتها . لقد قابلت فى حياتى ثلاث شخصيات فقط لديهم هذه القدرة ، كانت أم كلثوم على رأسهم .

ربما كان هذا هو الذى يجعلها ترقد الآن على سرير الإنعاش وسط بحر من الوجوه الصديقة التى ظهرت فجأة . إنها الآن تغنى أصعب ألحانها . تغنى أغنيتها الشخصية . إن لدى رغبة جارفة فى أن أراها من زجاج الغرفة، ولكن فى داخلى أيضاً خوف مطلق من أننى لن أستطيع .

* * *

الغرفة ٣٣٤ :

لا يمكن . هذه ليست أم كلثوم . هذا مجرد كاريكاتير . إنه

كاريكاتير أم كلثوم . إن حجرة الإنعاش هذه . . هى آخر حصن نحتمى به ، وآخر احتياطى تنفق منه ، وآخر سور نتراجع إليه ، وآخر نقطة تنكمش فيها . إن الحياة هنا تمضغها ، والمرض يمضغها والصراع مع المرض يمضغها . لقد أصبحت الآن نموذجاً لضعف الإنسان قبل أن تكون دليلا على عظمته .

إننى لا أصدق . لماذا أصبح قلبها بهذا الصمت . . وشفتاها بهذا السكون . . ونومها بهذا الطول . . ؟ لماذا تبدو الغرفة باردة هكذا ؟ إن سعدية ترتجف داخل الشال الأحمر الذى أحاطت به نفسها . لا شىء تفعله سوى أنها تبكى وتتطلع إلى أم كلثوم .

إنها ترقد فى السرير ، بحزمة تجاعيد حول ركبتيها ، سعدية تتألم فى صمت إلى جوارها . منذ ٤٨ ساعة وهى متيقظة حولها . إن زوجها المستشار يكلمها. حرام عليكى يا سعدية حرام عليكى نفسك. سامعانى ؟ استريحى شوية . . استريحى يا سعدية . . إننى أغوص ، أتلوى . إننى . حسناً قلت لك استريحى شوية يا سعدية .

* * *

الغرفة ٥٠١

دكتور حسن . محمد . مدحت. ممدوح . دسوقى . الجميع فى حجرة واحدة ولكن لا يجمعهم سوى دخان السجائر. إن أم كلثوم الفنانة جعلت الحياة بالنسبة لنا أكثر احتمالا ، ولكن أم كلثوم الإنسانة تجعلنا الآن أكثر ضعفاً . إننا نتفادى النظر إلى بعضنا وفجأة تتسمر عيوننا على وجوه بعضنا

البعض . لقد أطبقت علينا جدران الحجرة ودخانها . سجاير . سجاير سجاير . كان الطبيب بيننا هو العلاقة الوحيدة لنا فى العالم الخارجى . . وعندما خرج بدت المسألة كما لو أنه قد سحب معه من الحجرة كل الأوكسجين الذى يجب أن نتنفسه .

إننا نثرثر بكلمات لا معنى لها . كلمات تدور عن كل شىء إلا عن الموضوع الرئيسى الذى تجمعنا بسببه . لقد قررنا ألا نتكلم فى صحة أم كلثوم . ولكن الأمر بدا كما لو أننى قلت لنفسى فى الدقيقتين التاليتين لن أفكر فى صحتها . . صحتها . . صحتها . . صحتها . .

ماتت أم كلثوم .

* * *

خلق الإنسان ضعيفاً .

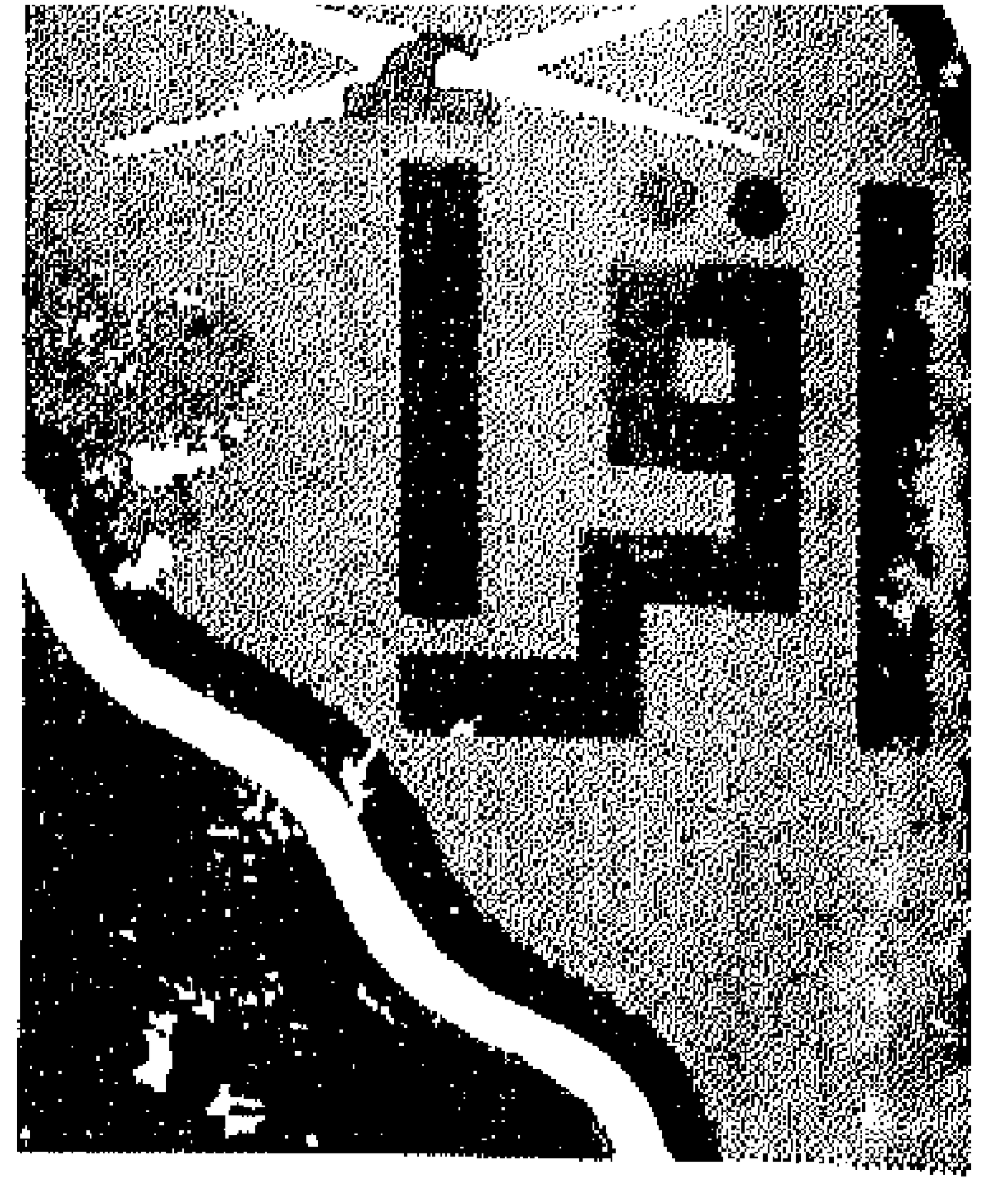
الفهرس

	الصفحة
إهداء	٥
مقدمة	٧
هذا المشاغب طه حسين	١٣
اعتذار إلى الله	٣٥
رجل بنصف صوت	٥٣
الرجل الذى كان أبى	٦٩
الإنسان كما يتصوره عالِم	٩١
اقتصاد الكراسى الموسيقية	١١٧
توفيق الحكيم تحت الفحص	١٣٩
١٤ قرآناً للعرب	١٨١
عبد الوهاب التاسع عشر	٢٠١
الدنيا التى كانت أم كلثوم	٢١٧

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٤٥٠
الترقيم الدولى ٧ — ٢٩٠ — ٢٤٦ — ٩٧٧	ISBN

ص
٢٠





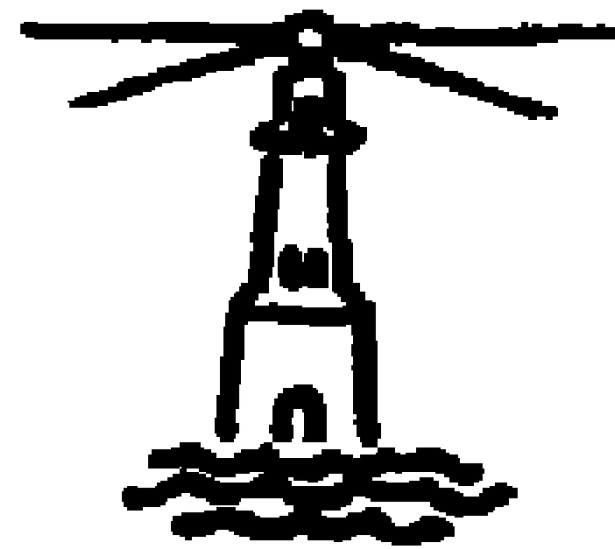
أنور أحمد

محامون صنعوا التاريخ



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : أنيس منصور



دار المعارف بمصر



أنـــور أحـــمـد

عظماء صنعوا التاريخ

اقرأ ٤١٣

دار المعارف بمصر

(اقرأ - ٤١٣)

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء

إلى روح الزعيم الخطيب « مصطفى كامل » الذى أيقظت خطبه روح أمته فانطلقت تكافح لصنع تاريخها الحديث .

المؤلف

هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب ترجمة لحياة هؤلاء الخطباء بالمعنى المألوف للتراجم ، ولكنه محاولة لدراسة فنهم الخطابى وإلقاء الضوء على الشخصية الخطابية لكل منهم ، وبيان ملامح هذه الشخصية والعوامل التى ساعدت على تكوينها وتحديدها . فهو بهذا لا يعتبر من كتب التراجم ، لأنه لا يسرد تاريخ حياة الخطيب ويتتبع أحداثها إلا بالقدر الذى يتصل بحياته الخطابية ويساعد على جلائها وتوضيحها .

وقد اخترت طائفة من الخطباء الذين كانت العبقرية الخطابية أبرز صفاتهم أو من أبرزها ، وكانت وسيلة معظمهم للوصول إلى الحكم والسلطة أو مراكز القوة التى تمكنوا من خلالها أن يسيطروا على الأحداث ويسهموا بذلك فى صنع التاريخ .

ولم أتقيد فى هذا الاختيار بعصر محدد أو بيئة معينة ، وإنما اخترت من كل بيئة وعصر أعظم شخصية خطابية فرضت نفسها على الأحداث وأصبحت جزءاً من تاريخ عصرها .

وأبادر إلى القول إن هذا الكتاب لم يستوعب كل العباقرة من خطباء التاريخ الذين أسهموا فى صنعه ، فهذا جهد يحتاج إلى موسوعة ضخمة ، وإنما اخترت بعض النماذج الفريدة ، ليس من بينها أحد من المعاصرين .

والواقع أن فكرة هذا الكتاب كانت تراودنى وتلح علىّ منذ زمن طويل . ذلك أنه برغم ما للخطابة من جليل الأثر وعظيم الخطر فى حياة الأمم ،

فقد لاحظت أن المكتبة العربية تكاد تخلو من الدراسات والبحوث الخاصة بالخطباء ، على كثرة ما تقذف المطابع كل يوم إلى سوق الأدب .

ولست أزعم أن هذا الكتاب الصغير سوف يسد هذا الفراغ ، ولكنى أرجو أن يلفت أنظار الكتاب إلى هذا المجال البكر ، فتظفر المكتبة العربية منهم بما يشفي الغليل بعد أن أسهمت فيه بجهد المقل .

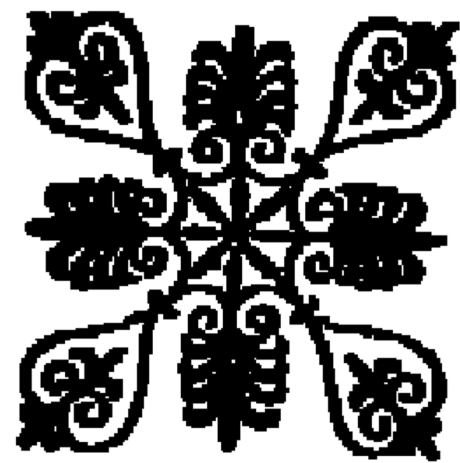
القاهرة يوليو ١٩٦٩

المؤلف

ديموستين

« إننا عندما نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يُبرق و يرعد وهو سيلٌ يجرف كل ما يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننقده أو نُعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا » .

المؤرخ فنيلون



ديموستين

تعتبر حياة « ديموستين » نموذجاً فريداً للخطيب العبقرى فى كل زمان ومكان . كانت حياته أسطورة تشبه الأساطير الإغريقية القديمة ، وكانت عبقريته الخطابية أبرز معالم شخصيته ، فكانت خطبه موضوعا لدراسة الخطباء فى الأجيال التى تعاقبت بعده ، حتى لقد قال « كونتيليان » إن طلاب البلاغة يجب عليهم ألا يدرسوا خطبه فحسب ، بل أن يحفظوها عن ظهر قلب .

ولد « ديموستين » فى أثينا عام ٣٨٤ قبل الميلاد ، وتوفى أبوه وهو فى السابعة من عمره ، وترك له ثروة كبيرة ومصنعين أحدهما لصنع الأسلحة . ولكن أوصياءه الثلاثة بددوا ثروته ، فلما بلغ الثامنة عشرة من عمره طالب برفع الوصاية عنه ، كما طالب الأوصياء بحساب عن الثروة ، ودخل معهم فى نزاع قضائى دام ثلاثة أعوام .

وإذا كان « ديموستين » لم يكسب من هذا النزاع مالا كثيراً ، فقد اكتسب معرفة بالقانون وإجراءات القضاء ، وامتلأت نفسه بغضاً لكل ظلم واعتداء . أراد أن يدرس القانون لكى يتمكن من مخاصمة أوصيائه ومناقشتهم ، فتتلمذ على « إسايس » الذى كان من علماء القانون اشتهر بالفصاحة والأسلوب الأنيق .

ولاحظ فى أثناء مرافعاته الأولى فى قضيته عجزه واضطرابه وخفوت صوته وتلعثمه فى الكلام ، فصمم على أن يستكمل ما ينقصه ليكون خطيباً

قادراً على الكلام والمرافعة . لقد أدخلته أمه المدرسة فى طفولته فنال حظاً من التعليم ، ثم قرأ كتب التاريخ والأدب ، وأعجبته فصاحة الخطباء ، وفتنه ما يحظون به من تصفيق الناس وإعجابهم ، فتاقت نفسه أن يكون خطيباً . وكانت بلاد اليونان مقسمة فى ذلك التاريخ إلى ولايات ومدن مستقلة ، وكانت أثينا أعظمها حضارة ومدنية ، كما كانت تتمتع بنظام ديمقراطى ساذج ، فكان لها مجلس للشورى أو « جمعية وطنية » تتألف من خمسمائة عضو من أفراد الشعب ، يرجع إليهم الأمر فى شئون الحكم . وكان النظام القضائى يبيح لأى شخص أن يطلب إلى القضاء محاكمة من يرى أنه ارتكب أمراً يستحق عليه العقاب ، ويقوم الطالب فى هذه الحالة بمهمة المدعى العام .

وفى ظل هذا النظام تزكو الخطابة ، ويستطيع الخطيب النابغ أن يكون ذا شأن كبير ، وإنه ليطمح إلى أن يكون خطيباً يشترك بفصاحته فى إدارة شئون الحكم والسياسة ، ولكنه يرى أن محاولاته الأولى لا تبشر بخير ، فهو ضعيف الصوت ، قصير النفس ، مرتبك فى إشارته ، وبلسانه لثغة تزيد فى ارتباكه عند الكلام . وفى غمرة يأسه وحيرته صادفه « ساتيروس » الممثل الشهير الذى استكشف ما يتمتع به « ديموستين » من عقل يتوقد ذكاء ، وقلب يشتعل حماسة ، ونفس تضطرم بالطموح ، فشجعه ونفخ فيه من روحه وأعاد إليه الثقة بنفسه ، وأقنعه أن لديه مواهب الخطيب ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق ، وهو شىء يكسب بالمران .

ويتحدث الرواة عن الجهود المضنية التى بذلها « ديموستين » فى تذليل ما اعترضه من صعاب ، فقد شعر بأن الطبيعة وهبته نفساً طموحاً إلى التحليق

ولكنها قصت من جناحيه ، فصمم على أن يناضل حتى يصل إلى القمة التي يريدها ، وبدأ رياضة شاقة بعزيمة لا تعرف اليأس .

ويروى المؤرخ « پلوتارك » أن « ديموستين » شيد لنفسه حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة ، وكان يقف أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء ، وكان يضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو ينشد أبياتاً من الشعر بصوت مرتفع ، أو يقف على ساحل البحر ويرفع صوته بالكلام حتى يطغى على هدير الأمواج ، وكان يحلق نصف رأسه ليرغم نفسه على ملازمة حجرته الشهر والشهرين لا يرى الناس منقطعاً إلى دراسته وتمرينه .

وبعد سنوات من هذه الرياضة الشاقة تكلل جهاده بالنجاح ، ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب ، ولم يلبث أن أصبح خطيب الجمعية الوطنية ، بل خطيب أثينا الأعظم .

ومن عجب أن هذا اللسان الذى كان يثقل فى فمه ، أصبح لسان أثينا الذى ينفث السحر ويلهب الحماسة ، حتى قال عنه « فنيلون » المؤرخ الكبير :

« إننا إذ نسمع ديموستين لا نفكر فى كلماته ، فهو يبرق ويرعد ، وهو سيل يجرف كل شىء يعترض سبيله ، فلا نستطيع أن ننتقده أو نعجب به ، لأننا نكون قد فقدنا السيطرة على مشاعرنا . . »

والواقع أن من يقرأ خطب « ديموستين » اليوم يشعر فيها بصدق اللهجة والإخلاص الذى يوحى إليه الثقة فى الخطيب ، ويروعه منها التدفق

وغزارة المادة والمنطلق السليم ، ويجدها مزاجاً رائعاً من الموضوعية التى تقنع العقل والحماسة التى تثير الشعور. وكانت هذه أخص خصائص أسلوبه الخطابى .

وكانت عبقرية ديموستين متشعبة متعددة الجوانب ، مما جعله فريداً فى العالم القديم ، فقد جمع فى شخصه بين الوطنى المتحمس والسياسى البعيد النظر ، والفنان النابغ الذى لا يشق له غبار .

وقد خصص « دايونيسياس » Dionysius بحثاً عنه فقال إنه سما بالنثر اليونانى إلى حد الكمال بما قام به من مزج رائع بين عناصر كانت لا تزال متفرقة فى ذلك الوقت بل لقد فاق المتخصصين فى كثير من الفنون . فاق مدرسة « أنتيفون » Antiphon فى الوضوح والصفاء ، ومدرسة « ليسياس » Lysias فى الحماسة ، ومدرسة « إيزوكرات » Isocrates فى التنوع والقوة والشعور العميق .

هذا هو « ديموستين » وقد نضجت عبقريته ، واكتملت قوته ، فما هو ذا الدور الذى هيأه له القدر ليلعبه على مسرح الحياة ؟

لقد سخر مواهبه وعبقريته لخدمة وطنه ، وقضى حياته كلها مجاهداً فى سبيل مثل أعلى فى السياسة وحكم الشعوب ، ومات فى سبيل ذلك كما يموت الأبطال والشهداء .

* * *

عندما درس « ديموستين » القانون كان يهدف إلى الانتفاع بذلك فى مباشرة قضيته وشئونه الخاصة ، ولكنه لم يلبث أن اتخذه مهنة يتكسب

بها ، واحترف كتابة الخطب والمرافعات لمن يطلبها لإلقائها فى المحافل أو أمام المحاكم ، ثم نال إجازة رسمية فى الحقوق ، وطفق يترافع بنفسه فى مجالس القضاء ، وجمع ثروة كبيرة .

وأخذ « ديموستين » يهتم بالسياسة ، وكانت مناقشات المجلس الأثينى العام ، – وهو البرلمان الشعبى الذى يعقد فى سوق المدينة ويشترك فى مناقشاته كل مواطن حر متمتع بحقوقه المدنية – ودراسته لتاريخ أثينا الحافل بالأمجاد ، تدفعه إلى الاهتمام بشئون السياسة والمشاركة فى مناقشة قضايا وطنه .

وكانت المرحلة الأولى لكفاحه السياسى موجهة إلى النهوض بروح الشعب الأثينى الذى كان قد نبذ تقاليده ، وخمدت حميته وانغمس فى اللهو . كان يرى أن أثينا هى الزعيمة الطبيعية لمدن اليونان التى يجب أن تعيش فى تعاون فلا تعتدى إحداها على الأخرى . ولكى تضطلع أثينا بهذا الدور يجب أولاً أن تكون جديرة به ، ولهذا قدم ديموستين برنامجاً عملياً لإصلاح الأنظمة السائدة بصورة تعزز الديمقراطية ، وتزيد فى ثروة الدولة ، وتضاعف قوتها العسكرية . وأخذ يطالب بإصلاح القوانين وإجراءات التقاضى ، ويهاجم محترفى السياسة والمتطفلين على التشريع ، وينادى بأن تنتصر أثينا لكل مدينة يعتدى عليها حتى تسود العدالة السياسية ويزول الظلم والطغيان . ومن كلماته قوله « إن الظلم والخداع ونقض العهود لا يمكن أبداً أن يؤدى إلى قوة حقيقية . إنها قد تؤدى إلى سيادة وقتية ، ولكن الزمن لا يلبث أن يعصف بما شيدته من أحلام . وكما أن الطبقات السفلى للمنزل يجب أن تكون قوية متينة ، كذلك يجب أن

تقوم كل سياسة على دعائم من الصدق والشرف . . » .

ولكن جهاد « ديموستين » الأكبر الذى وقف عليه حياته ، ومات فى سبيله ، كان فى تنبيه الأثينيين إلى خطر « فيليب » ملك مقدونيا ، وحثهم على الاستعداد للقائه ثم تحريضهم بعد ذلك على مقاتلته .

وكان « فيليب » والد الإسكندر الأكبر ملكاً لمقاطعة مقدونيا فى شمال بلاد اليونان ، وكان يريد أن يبسط نفوذه على بلاد اليونان كلها ، فهب ديموستين واتخذ من فصاحته سلاحاً شهره فى وجه فيليب ليصده عن سلب الإغريق حريتهم واستقلالهم ، وقضى بقية حياته يستنفر شعب أثينا للقتال ، ويحث شعب الإغريق على الثبات والنضال . وقد اشتهرت هذه الخطب باسم الخطب الفيلبية أو الفيليبيات Philipics.

فلنستمع إليه فى الخطبة الفيلبية الأولى يحاول أن يشعل الحماسة الوطنية فى شعب أثينا فيقول :

أيها الأثينيون . حتى متى سكونكم وإخلادكم إلى التوانى ؟ متى تدب الحياة فى عروقكم ، ويسرى الشعور بالواجب فى أعصابكم ؟ ماذا تنتظرون ؟هل تنتظرون معجزة تهبط عليكم من السماء ؟ ! أى دافع للنفوس الأبية لعمل الواجب أقوى من تهديد مجدها بالزوال وشرفها بالتمزق وكلمتها بالتفرق ؟ إنه لعار لن يفارقكم ولن يمحوه الموت يوم يواريكم فى قبوركم .

هل الوطنية أن تكتفوا بالذهاب هنا وهناك يسأل بعضكم بعضاً عما جاءه من أنباء فيليب ، فيقول واحد إنه مات ، ويقول الآخر بل هو مريض ! ! ياعجباً . . ! ! عجباً يمزق القلب . أى نبأ هناك غير أن مقدونياً يسعى لقهر أثينا وسحق مجدها واستعباد اليونانيين جميعاً . ماذا

عسى أن تصيبوا من المغانم لو مرض فيليب أو مات أو انقضت على رأسه مصيبة من السماء ؟ وحق الآلهة لئن لم تهبوا من رقادكم ليسلطن عليكم فيليب آخر ليس دون هذا فى الشدة عليكم . فإن فيليب ما قوى اليوم إلا بضعفكم ولا تحرك إلا بسكونكم .

ثم يستنكر ديموستين فكرة الاعتماد على الجنود المرتزقة المأجورين فيقول :

– لا تقولوا المرتزقة . نريد رجالاً أحراراً أنبتهم تربة أثينا يرون سعادتهم فى عزها وشقاءهم فى ذلها ، من أرضها كانت بدايتهم ، وفى أرضها نهايتهم ، منها خلقوا وإليها يعودون كرة أخرى . أولئك هم أباة الضيم الذين يبذلون دماءهم لتخليص شرفها من الأذى » .

ثم يحذرهم من الحرب المباغتة ويدعو إلى الاستعداد لها قبل وقوعها ويقول :

– إن الحروب لا ضابط لها ولا قانون . فهل تريدون الانتظار حتى يأتيكم نبأ الإغارة المفاجئة فيضيع الوقت فى المشاورة وحشد الجيوش وتدبير نفقاتها حتى تفوت الفرصة . وتسقط المواقع التى نريد الدفاع عنها فى يد أعدائنا قبل أن نخف لنجدتها . إذا كنا فعلنا ذلك فيما مضى فلأنه لم تكن لنا تجارب ولم نكن قد ابتلينا بمثله . أما الآن وقد عظم الخطب ، وتفاقم الأمر ، وأصبح فيليب على أبوابنا ، فقد وجبت علينا المبادرة إلى تغيير هذه الخطة الخرقاء . » .

وقد كانت هذه الخطبة . وتهيؤ فيليب للاستيلاء على حصن للأثينيين بالقرب من بيزنطة ، باعثاً لهمة أثينا ، فأصدرت قراراً بتجهيز عدة أساطيل

لحماية ذلك الحصن ، فعدل فيليب عن عزمه ، ولكنه هاجم بعد ذلك « أولنتوس » وهى المدينة الوحيدة من مدن بحر إيجه التى بقى فى وسعها أن توقف زحفه ، فاستنجدت بأثينا ، فأسرع ديموستين إلى المنبر يدعو إلى نجدتها ، ويصف سياسة فيليب ويرميه بالنفاق ، ويؤكد لأهل أثينا أن مصلحتهم تقضى عليهم بمقاومة طغيان فيليب ويقول :

– إنكم لا يمكن أن تكونوا أخطأتم أيها الأثينيون إذا أخذتم على عاتقكم عبءالقتال من أجل الحرية والسلامة للجميع . لا وحق آبائنا الأولين الذين قابلو العدو عند « ماراثون » ، لا وحق بحارة « سالاميس » ، لا وحق أولئك الأبطال من الرجال الشجعان الذين ترقد عظامهم فى أرض الوطن ، والذين كللوا هاماتنا بالمجد . أقسم بهم جميعاً ، وبكل من مات فى سبيل البلاد . . »

وقد استجابت أثينا لندائه ، وأرسلت حملة عسكرية تضم ثلاثين سفينة وألفين من الجنود المرتزقة ، غير أن سلوك القواد أضاع فائدة هذا المدد ، وبذل « فيليب » الأموال لقضاة « أولنثوس » ففتحوا له أبوابها وسلموه المدينة ، فأباحها للنهب والسلب ، وباع أهلها بيع السلع ، وأقام حفلات فخمة حضرها كثيرون من أنحاء اليونان ، فأحسن لقاءهم وملك قلوبهم بالمال والعطاء ، وعادوا إلى بلادهم فكانوا دعاة للهزيمة وأعواناً لفيليب .

وبسقوط أولنثـوس وإخفاق أثينا فى إنقاذها ، قوى فى أثينا الحزب الذى يدعو إلى مسالمة فيليب ، والذى يضم خليطاً من الزعماء ، منهم المخلص ، ومنهم المنافق ومنهم الخائن مثل « ديمادس » الذى كان صنيعة فيليب .

وكان ديموستين قد انتخب عضواً فى مجلس الخمسمائة ، وأخذ يعلن فيه آراءه السياسية التى فرضتها عليه الأوضاع الجديدة ، واضطر إلى مسايرة دعاة السلم ، فأرسلت أثينا وفداً للصلح مع فيليب ، وقد نص اتفاق الصلح على أن يكف الطرفان عن الحرب مع احتفاظ كل منهما بما تحت يده من البلاد .

ولكن هذا الصلح ما كان ليدوم مادم فيليب لا يعدل عن أطماعه ، فقد أخذ يعمل لعزل أثينا عن باقى المدن الإغريقية ، وعاد ديموستين يجوب أنحاء اليونان ليكشف عن نيات فيليب ، ويحث المدن اليونانية على التحالف مع أثينا ويحرض الأثينيين على الاستعداد والتأهيب للقتال ، ويقول لهم :

– إن الصداقة التى تعقد بين الجمهوريات وبين الطغاة ليست بالصداقة الوثيقة التى يركن إليها . ماذا تريدون ؟ الحرية ؟ ألا ترون إذن أن ألقاب فيليب نفسها هى إنكار لهذه الحرية التى تنشدونها ؟ إن كل حاكم مستبد هو عدو للحرية وعدو للقانون . إنكم تحاولون تجنب الحرب ، ولكننى أخشى أن تقودكم هذه المحاولة إلى الوقوع تحت نير الاستعباد . . » .

ومضى « ديموستين » يخطب ويخطب ، ومهما حاولنا نقل بعض ما جاء فى خطبه فستظل كلماتها رماداً متخلفاً عن نار الحياة وحرارتها بعد أن قام بينها وبين العالم ستار الموت والخلود ، وسيظل الحجاب قائماً بيننا وبين الخطيب ومنصة ، والجمهور وحماسته ، والزعيم وحرارته .

هذا هو ديموستين يرسم لأهل أثينا سياسة عملية فيقول فى خطبة له فى المجلس :

– إن منكم ياأهل أثينا من يعتقد أنه يحرج الخطيب إذا سأل : فماذا نفعل ؟ ولكنى أتلقف هذا السؤال وأجيب عليه فأقول لكم لا تفعلوا شيئاً مما تفعلونه الآن وافعلوا كل شيء لم تفعلوه ! وإنه لجواب حق وصدق . ولكنى سأزيد لكم الأمر إيضاحاً ، ولعل أولئك الذين سارعوا إلى السؤال يسارعون أيضاً إلى العمل . اذكروا أولاً أن فيليب قد نقض عهدكم ، وهذه حقيقة لامراء فيها ولا محل للخلاف عليها . ثم اذكروا أيضاً أنه عدو أثينا الألد ، عدوها الذى يكره أرضها وأسوارها ، بل يكره أولئك الذين يظنون منكم أنهم نالوا حظوة لديه . إن أعظم ما يخشاه فيليب ويمقته هو حريتنا ونظامنا الديمقراطى ، وإنه ليهيىء أشراكه لكى يقضى على هذه الحرية وهذا النظام ، لأنه يعلم جيداً أنه لو أخضع جميع بلاد الإغريق فسوف يظل غير آمن مادامت ديمقراطيتكم سليمة لم تمس . وهو يعلم أنه لو أصابته الأقدار بهزيمة فإن جميع هذه البلاد التى قهرها سوف تسارع إلى الانضمام إليكم لاستعادة حريتها . إن فيليب لا يطيق الصبر على هذه الحرية الأثينية التى تقف موقف الجاسوس يرقب شروره وآثامه ، فهو يعبىء جيوشه وينصب أشراكه لقتالنا .

والآن ماذا يجب عليكم أن تفعلوا ؟ يجب أن يسارع كل منكم إلى التبرع بنسبة ما يملك ، ثم انهضوا بالجيش واحتفظوا بقوات مسلحة قوية حتى إذا تهيأ فيليب لغزو الإغريق وجدتم الجيش اللازم لصده وإمداد حلفائكم . لا تحدثونى عما يحتاج إليه هذا العمل من نفقات ومتاعب ، فإنى لست أنكرها ولكنها تهون كلها إذا نظرنا إلى الخطر الذى يتهددنا .

هل تظنون أن فيليب لن ينالكم بأذى إذا ظللتم وادعين لا تحفلون بما

يعمل ؟ لو أكد لكم ذلك أحد الآلهة فإنى لا أشير به عليكم ! أجل . . إنه لخير لى أن أهلك من أن أشير عليكم بهذا ، فليشر به من يشاء غيرى ، واستمعوا لأقواله إذا أردتم . أما إذا كنتم تشعرون بما أشعر به ، وترون معى أنه كلما امتدت فتوحات فيليب كان فى ذلك تقوية له وسند يشد أزره علينا حين نضطر إلى مكافحته . . إذا كنتم ترون ذلك فلم ترددون ؟ وماذا تنتظرون ؟ هل تنتظرون حتى تقع الواقعة ويضيع الشرف ؟ هل تنتظرون حتى تشاهدوا رجال فيليب فى طرقات أثينا يلقونكم بالصفع والجلد ؟ ألا لا قدرت الآلهة . . فإن مجرد النطق بهذه الكلمات ذل ومهانة . . »

بهذه الكلمات التى تتقد حماسة وإخلاصاً كان ديموستين يدعو الأثينيين إلى القتال ، ولم تكن هذه الخطب مجرد عبارات حماسية تستهوى السامعين . ولكنها كانت تحوى من أدلة الإقناع ما جعل فيليب نفسه يقول عن ديموستين : « إنى لأعطيه صوتى ليعلن الحرب على بلادى وأسلمه قيادة الجيوش . . »

وما أعظم هذه الشهادة من عدوه الذى كان هدفاً لسهام بلاغته ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

* * *

ولا يتسع المجال هنا لتفصيل ما كان من نزاع وحروب بين مقدونيا وأثينا وحسبنا أن نذكر أن الحوادث كانت تجد ديموستين دائماً فى انتظارها ، وأن الخطوب كانت تلقاه مترصداً لها يلقاها أقوى ما يكون إيماناً ، وأثبت جناناً ، وأفصح لساناً ، لا يخشى العدو الظافر الذى كان يكتسح البلاد من حوله ، بل كان ذلك يزيده إيماناً بصحة فكرته ، وصدق دعوته . وعبثاً حاول « فيليب » أن يشتريه بالمال كما اشترى غيره من زعماء أثينا وخطبائها .

وقد جرد فيليب الحملات على تراقيا واحتل كثيراً من مدنها ، ولما رأت بلاد الفرس تقدم « فيليب » وتوغله عملت على محاربته ، فقام ديموستين يحث أثينا فى الخطبة الفيلبية الأخيرة على انتهاز الفرصة وتخليص بيرنثوس وبيزنطة من فيليب ، فسيرت أثينا إليها أسطولا ضخماً ، تبرع ديموستين بشراء وتجهيز إحدى سفنه من ماله الخاص ، فلم ينجح فيليب فى الاستيلاء على بيزنطة واضطر إلى رفع الحصار عنها والعودة خائباً . وارتفعت مكانة ديموستين فى أعين أهل أثينا ، فأهدوه تاجاً من الذهب اعترافاً بفضله وتقديراً لجهاده .

ولكن فيليب عاد فاستولى على بعض المدن التى تفتح أمامه الطريق لجنوب اليونان ، وهدد بذلك أثينا ، فدعا ديموستين إلى الحرب ، وسافر إلى بيوثيا ، وحملها بسحره على التحالف مع أثينا ، والتقى الجيشان ، ولكن فيليب هزمهما هزيمة نكراء ، وإن كان قد قتل بيد أحد ضباطه وهو يحتفل بانتصاره وخلفه ابنه الإسكندر الأكبر .

وعندما ذاع خبر قتل « فيليب » عمت الفرحة بلاد اليونان ، وحمل أهل أثينا ديموستين على الأعناق وأدخلوه إلى المجلس العام وعلى رأسه إكليل من الزهر ، فهاجم سياسة مقدونيا ، ودعا مواطنيه إلى الثورة على الإسكندر . وأرسلت أثينا بناء على نصيحة ديموستين سفراءها إلى البلاد اليونانية تدعوها إلى مقاومة خليفة « فيليب » والثورة عليه ، فتمردت مدينة « ثيبا » وأعلنت العصيان .

ولكن الإسكندر أسرع بالعودة من آسيا الصغرى لإخماد حركات التمرد ، وزحف على « ثيبا » وسحق ثورتها ، ونكل بأهلها ، ودمر جميع

منازلها ولم يبق منها غير منزل واحد هو منزل الشاعر « بيندار » .

وبدأت « أثينا » تستعد للحصار وقد عصف بها الرعب ، ولكن الإسكندر لم يزحف عليها ، واكتفى بإرسال وفد يطلب باسمه تسليم عدد من الزعماء والقواد اعتبرهم مسئولين عن الحركات المعادية له ، وكان فى طليعتهم ديموستين .

واستولت الحيرة على أثينا بشأن هذا الطلب ، وتناقش فيه مجلسها ، واشترك ديموستين فى المناقشة ، وروى قصة قال فيها إن الذئاب عاهدت الرعاة مرة على ألا تهاجم القطيع إذا سلموها كلاب الحراسة ، فقبل الرعاة ، ولكن الذئاب عندما رأت الحظيرة بعد ذلك خالية من كلاب الحراسة هاجمت القطيع وفتكت به .

ورفض المجلس طلب تسليم الزعماء والقواد ، وأرسل إلى الإسكندر وفداً يلتمس منه العفو عن خصومه ، فنجح الوفد فى مسعاه ، وتم الصلح بين أثينا والإسكندر المقدونى .

واندفع الإسكندر يتابع سياسة أبيه ، وحقق انتصارات كبيرة فى كل مكان ، ثم انحدر بجيشه الظافر حتى بلغ الهند .

وكان « ديموستين » فى خلال ذلك يتبع سياسة الحذر حتى لا يعرض أثينا لما تعرضت له « ثيبا » من دمار . وامتزجت حياة ديموستين فى هذه الفترة بقصة غريبة . ذلك أن « هاربال » الذى كان وزيراً لمالية الإسكندر تمرد عليه ، وانتهز فرصة انشغاله بالحرب فى آسيا فاستولى على مبلغ طائل من أمواله ، وجهز أسطولاً من ثلاثين سفينة ، وجيشاً من المرتزقة ، وهرب إلى شاطئ أثينا ليشعل الثورة على الإسكندر . ولكن أثينا رفضت قبوله

بنصيحة ديموستين ، فذهب « هاربال » بمفرده إلى « أثينا » وأعلن فى مجلسها العام أنه يضع نفسه وأمواله وجنوده ومراكبه تحت تصرفها ، موهماً إياها أن قواد الإسكندر يتحفزون للتمرد عليه . وانقسم أهل أثينا إلى فريقين ، فكان فريق يرى التعاون مع « هاربال وإعلان الحرب على الإسكندر الذى كان مشغولاً بحربه فى آسيا ، ورأى فريق آخر على رأسه ديموستين إبعاد « هاربال » وعدم الزج بأثينا فى حرب لا تملك فيها من القوى ما يؤهلها لمواجهة قوى الإسكندر التى بلغ من تعاظمها أنها أطمعت صاحبها فى غزو العالم كله . وفى غمرة هذه الحيرة أرسلت أم الإسكندر والقائد المقدونى « أنتيباتر » الوصيين على مقدونيا ، وفداً إلى المجلس الأثينى العام يطلبان منه تسليم « هاربال » والمال الذى فى حوزته . واقترح « ديموستين » القبض على « هاربال » وحراسته حتى يعود الإسكندر وحفظ المال الذى معه فى الأكربول . فوافق المجلس على الاقتراح . ولكن « هاربال » هرب بعد ذلك من المعتقل ، وتبين أن نصف المال الذى كان مودعاً فى الأكروبول قد اختفى . ولما كان هذا المال محفوظاً تحت إشراف لجنة يرأسها ديموستين ، فقد اتهمه خصومه بالإهمال الجسيم فى مراقبة الحراس ، وأثاروا الشك حوله ، فطلب ديموستين من المجلس تكليف لجنة لتحقيق الموضوع وأعلن أنه يقبل حكم الموت إذا تبين أنه أخذ شيئاً من هذا المال . وانتهى التحقيق بإدانة ديموستين ، دون تقديم دليل مادى على هذه الإدانة ، فحكم عليه بأن يدفع غرامة قدرها خمسون وزنة .

ولكن ديموستين هرب إلى إحدى الجزر حيث أقام فى منفاه بعيداً عن أثينا .

ولم تمض شهور على مغادرة ديموستين وطنه ، حتى توفى الإسكندر فى مدينة بابل عام ٣٢٣ ق . م بتأثير الحمى . وهبت أثينا مرة أخرى للتخلص من النفوذ المقدونى ، وانهارت مكانة صنائع مقدونيا ، وأصدر المجلس العام قراراً بدعوة ديموستين للعودة إلى بلاده ، فعاد إلى أثينا كما يعود الأبطال الظافرون ، وخرج لاستقباله الأهالى يتقدمهم القضاة والحكام والكهان .

وبهذا الاستقبال سقطت عن ديموستين العقوبة المعنوية . ولجأ المجلس العام إلى نوع من الحيلة لإعفائه من الغرامة الضخمة التى حكم بها عليه والتى لم يكن يجيز القانون إلغاءها . فقد كان من المعتاد أن يمنح الرجل الذى يقدم الضحية لمذبح الإله « زيوس » مبلغاً من المال ، فعهد المجلس إلى ديموستين القيام بهذه المهمة فى مقابل « خمسين وزنة » وهى قيمة الغرامة .

وكانت الحرب قد اشتعلت بين أنتيباتر Antipater الذى خلف الإسكندر على حكم مقدونيا واليونان ، وبين البلاد الإغريقية الثائرة على حكمه وعلى رأسها أثينا ، وحققت البلاد الثائرة بعض الانتصارات اللامعة فى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن هزمت فى موقعت كرانون Crannon سنة ٣٢٢ ق . م ، واقتربت الجيوش المنتصرة من أثينا .

وبدأت البلاد المحاربة ترسل وفودها إلى القائد المقدونى لمفاوضته فى الصلح ، واستعاد الحزب الموالى لمقدونيا فى أثينا نفوذه القديم فأرسلت أثينا تطلب الهدنة من أنتيباتر .

وأعلن انتيباتر استعداده للتوقف عن مهاجمة أثينا بشرط أن تخضع لمطالبه ومنها تسليم عدد من الزعماء الوطنيين فى مقدمتهم ديموستين .

واستطاع « ديمادس » أكبر خصوم ديموستين أن يحمل المجلس على قبول شروط القائد المنتصر .

وأدرك الخطيب العظيم أنها النهاية . فهرب إلى جزيرة كالوريا ، ولجأ إلى معبد الإله « بوسيدن » الذى كان حرماً يقدسه أهل اليونان .

وكان « أنتيباتر » قد أرسل عملاقاً من أتباعه يدعى « أركياس » الذى بدأ حياته ممثلاً للقبض على ديموستين ، فحاصر المعبد مع فرقة من فرسان تراقيا ، وحاول أن يحمل ديموستين على الخروج من المعبد المقدس ، فأخذ يؤكد له أن القائد المقدونى سيعفو عنه لو سلم نفسه .

وجلس ديموستين صامتاً يحدق فى الأرض وكأنما كان يدبر فى رأسه أمراً ثم نظر إلى أركياس وقال له متهكماً :

– إنك يا أركياس لم تستطع يوماً أن تؤثر فى بتمثيلك ، ولن تستطيع اليوم أن تؤثر فى بوعودك .!

فغضب أركياس ، وبدأ يهدد ويتوعد ، فقال له ديموستين :

– إنك تتكلم الآن كمقدونى ، أما قبل ذلك فقد كنت ممثلاً زائفاً .

ولمعت عينا ديموستين بعزم رهيب ، فقال لرسول أنتيباتر :

– انتظر حتى أكتب لأصدقائى .

ثم انسحب إلى داخل المعبد ، ولكنه كان ظاهراً لمن فى الخارج ، وتناول قصاصة ورق ، ثم جلس أمام منضدة فى الهيكل كأنه يريد الكتابة ، ووضع القلم فى فمه وعض عليه بأسنانه كما كانت عادته عند الكتابة ، ثم تقلصت عضلات وجهه فمال برأسه إلى الخلف ، وسحب عباءته فغطى بها وجهه . ورأى ذلك الواقفون بباب المعبد ، فظنوا أن الخوف قد

استولى على الخطيب العظيم ، ودخل إليه أركياس يريد أن يشجعه على النهوض ويكرر وعوده ومساوماته .

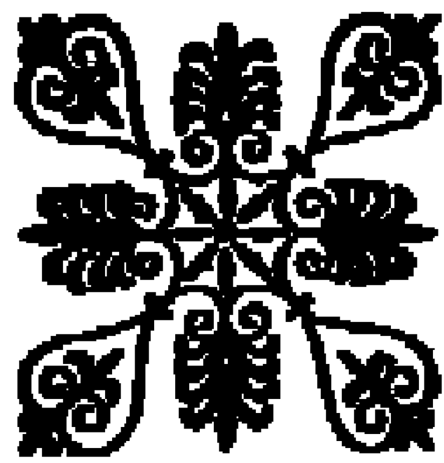
وكان ديموستين قد شعر بأن السم الذى امتصه من القلم بدأ يسرى فى أوصاله ، فأزاح العباءة عن وجهه وقال لأركياس :

— يمكنك الآن أن تلعب فى المأساة دور « كريون » كما تشتهى ، ويستطيع أعداء أثينا أن يطرحوا جثتى للجوارح بغير اكتراث ؛ ولكننى أيها الإله الكريم « بوسيدن » أترك معبدك ومازلت حياً كى لا أسمح لأنتيباتر ورجاله أن يدنسوا قداسته .

وتحرك ديموستين نحو الباب وهو يناديهم ويطلب إليهم أن يساعدوا خطواته المترنحة . ولم يكد يتخطى عتبة معبد الإله حتى انهارت قواه فسقط ، وفى صيحة أخيرة أسلم الروح .

الإمام علىّ

« لا يفتينّ أحد فى المسجد « وعلىٌّ » حاضر »
عمر بن الخطاب



الإمام على

كان « على بن أبى طالب » إمام الفصحاء ، وسيد البلغاء ، وكان كلامه أبلغ كلام بعد القرآن والحديث . وقد فاضت كتب التاريخ العربى بالكثير المأثور عن فصاحته ومنزلته العلمية ، ومقدرته الخطابية :

قال « عبد الحميد بن يحيى » :

– حفظت سبعين خطبة من خطب الأصلع ، ففاضت ثم فاضت . .

وقال ابن نباتة :

– حفظت من الخطابة كنزاً لا يزيده الإنفاق إلا سعة وكثرة . حفظت مائة فصل من مواعظ على بن أبى طالب .

وكان الإمام على رضى الله عنه واسع المعرفة ، فما سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه ، فكان أبرع الصحابة فى علوم الدين ، إماماً فى الفقه والتفسير ، حجة فى الفتيا . وكان عمر ابن الخطاب يرجع إليه فى كثير مما يشكل عليه من المسائل ، وروى عنه أنه كان يقول : « لولا علىّ لهلك عمر » ، ويقول « لا بقيت لمعضلة ليس لها أبو الحسن » . كما روى عنه أنه قال « لا يفتين أحد فى المسجد وعلىّ حاضر » .

وكان النبى عليه الصلاة والسلام يقول « أقضاكم علىّ » ، وكان النبى قد دعا له عندما بعثه قاضياً إلى اليمن فقال « اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

والإمام على هو الذى ابتدع علم النحو . وأملى أصوله الأولى على أبى الأسود الدؤلى ، وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد ، كما اتصلت بينه وبين علماء الفقه والشريعة ، وعلماء الأدب والبلاغة ، فهو أستاذ هؤلاء جميعاً ، وكان لذلك أحق الأئمة بلقب الإمام .

سئل عبد الله بن عباس ، وكان من أعلم الصحابة فى الفقه والدين والتفسير: « أين علمك من علم ابن عمك ؟ » فقال « كنسبة قطرة المطر إلى البحر المحيط . . » .

وكانت هذه الثقافة الواسعة ، والإحاطة الشاملة مادة خصبة تغذى خطبه وأحاديثه فتضفى عليها الجد والرصانة ، وتهيئ له الحكمة وفصل الخطاب .

وكان رضى الله عنه يعتز بعلمه ، ويؤثر عنه أنه كان يقول : « اسألونى قبل أن تفقدونى ، فو الذى نفسى بيده ، لا تسألونى فى شىء فيما بينكم وبين الساعة ، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة ، إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها ومناخ ركابها ومحط رحالها . . » .

أما أسلوبه فى الكتابة فكان أسلوب الأديب الذى سبق غيره إلى التفنن والتجويد ، وأضفى على الكتابة صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب .

وقد نسب إليه ديوان من الشعر يحوى ألفاً وأربعمائة بيت أكثرها فى الحكمة والزهد والابتهال ، غير أن هذا الشعر مشكوك فى صحة نسبه إليه . أما النثر فقد وصل إلى أيدينا الكثير مما جمعه الرواة ، وهو يشمل خطبه وكلماته فى الحكم والمواعظ والأمثال وغير ذلك . وأشهر هذه الكتب « نهج البلاغة » وهو ما جمعه الشريف الرضى من خطب الإمام

ورسائله وكلماته ، وإن كان يشتمل بدوره على جزء مشكوك فيه ، مما أقحمه الرواة على كلام الإمام .

هذا هو الإمام العالم الفقيه الأديب ، ومن هذه العناصر يبرز الإمام الخطيب . فإذا قرأنا خطبه ، تمثل لنا الأمام خطيباً نادر المثال . عقل ذكى ، واسع الأفق ، يلم بشتى العلوم ، ومعرفة دقيقة بطبائع الأشخاص وخصائص الأشياء ، وأسلوب يمتاز بالجزالة والفحولة ، يتدفق بالقول البليغ المقنع ، يخاطب العقول والقلوب .

وكانت له من الصفات ما يلزم الخطيب فى مثل عصره والمجتمع الذى عاش فيه . فكان شجاعاً تضرب الأمثال بشجاعته ، ويروى عنها ما يشبه الأساطير . فكان الخطيب الصريح الجرىء الذى يجهر بما يعتقده حقًّا لا يعرف نفاقاً أو رياء ، يجبه الناس برأيه واضحاً صريحاً . ويخاطبهم وقد تثاقلوا عن نصرته وحرب أعدائه فيقول لهم : « يا أشباه الرجال ولا رجال ، وياطغام الأحلام ، وياعقول ربات الحجال . . ! »

ويقول لهم من خطبة فى غارة الضحاك بن قيس على الحيرة :

– أيها الناس المجتمعة أبدانهم ، المختلفة أهواؤهم . كلامكم يوهى الصم الصلاب ، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء . ما عزت دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم . أعاليل بأضاليل ! أى دار بعد داركم تمنعون ! ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟

المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب . أصبحت لا أصدق قولكم ، ولا أطمع فى نصركم ، ولا أوعد العدو بكم . ما بالكم ؟ ما دواؤكم ؟ ما طبكم ؟ القوم رجال أمثالكم .

أقولا بغير علم ، وغفلة عن غير ورع ، وطمعاً فى غير حق . . ؟ »

وكان حاضر البديهة ، سريع الجواب ، يسعفه علمه الواسع بالرد المطلوب .

كان يخطب على المنبر فى الكوفة ، فسأله رجل عن نصيب الزوجة فى ميراث ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين ، فأجابه على الفور « صار ثمنها تسعاً . » . ومضى فى خطبته .

وقد اشتهر عليه السلام بسماحة الخلق ، وطلاقة الوجه ، وكثرة الابتسام ، وهى صفات محبوبة فى الخطيب . وقد روى عن عمر بن الخطاب أنه كان يقول له : « لله أبوك لولا دعابة فيك » . !

وقد حاول عمرو بن العاص استغلال هذا الأمر فى محاربة على ، فأخذ يردد بين أهل الشام أن علياً ذو دعابة شديدة ، ليقدح بذلك فى صلاحيته للخلافة ، حتى اضطر الإمام إلى الرد عليه ، فقال فى إحدى خطبه :

— « عجباً لابن النابغة ، يزعم لأهل الشام أن فىّ دعابة ، وأنى امرؤ تلعابه[١] . لقد قال باطلا ، ونطق آثماً . إنه ليقول فيكذب ، ويعد فيخلف ويسأل فيلحف ، ويُسأل فيبخل ، ويخون العهد ، ويقطع الآل . . إلخ »

ولكن هذه الدعابة المنسوبة إليه إن صحت ، كانت تقربه إلى القلوب ولا تنتقص من هيبته .

قال معاوية لقيس بن سعد :

— رحم الله أبا الحسن ، لقد كان هاشاً بشاً ذا فكاهة .

---

(١) كثير اللعب والمزاح

فقال قيس :

– أما والله لقد كان مع تلك الفكاهة والطلاقة أهيب من ذى لبدتين(١) قد مسّه الطوى(٢) .

وقال « ضرار » من كلام له فى وصفه رضى الله عنه ، عندما ألح عليه معاوية أن يصفه ، قال :

– كان يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ونحن مع تقريبه إيانا وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته .

هذه بعض صفات الإمام الخطيب ، وملامح نفسه التى تشترك فى تكوين شخصيته كخطيب .

أما ملامح جسمه فقد ذكر من وصفوه أنه كان ربعة فى الرجال ، أسمر اللون ، أصلع الرأس ، طويل اللحية ، له عينان دعجاوان واسعتان ، حسن الوجه ، واضح البشاشة ، عريض المنكبين ، قوى العضل ، يميل إلى السمنة فى غير إفراط ، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى صلى الله عليه وسلم وكان رائع الصوت قويه ، يصيح الصيحة فى الحرب فتنخلع لها قلوب الشجعان .

هذا هو علىّ ، الفارس الشجاع ، والفقيه العالم ، والخطيب البليغ ، تمتزج هذه الصفات كلها بنفسه ، لتكمل لنا ملامح الخطيب ، فإذا

(١) كناية عن الأسد.

(٢) الجوع

هو سيد المنابر فى عصره ، ونموذج رائع للخطيب العظيم فى كل العصور .

فما هى العوامل التى هيأت له هذه المنزلة الرفيعة فى عالم البلاغة والخطابة ؟

هذا سؤال يسهل الجواب عليه لمن ينظر فى نشأة الإمام وتاريخه .

فالإمام عليه السلام كان من البيت الهاشمى ، أكرم عناصر قريش ، وأفصح العرب لساناً ، وكان جده « كعب بن لؤى » وهو الجد السابع له وللنبي ، من أقدم خطباء العرب ، ولما مات أكبروا موته وأرخوا به حتى كان عام الفيل . وكان أجداده قصى وهاشم وعبد المطلب ، وأبوه أبو طالب ، كلهم من خطباء العرب المعدودين .

ولما بلغ « على » السادسة من عمره أصابت قريشاً أزمة وقحط . فأشار النبى على عميه حمزة والعباس أن يعاونوا أبا طالب فى تربية أولاده ، فكان « على » من نصيب النبي عليه الصلاة والسلام . وهكذا نشأ « على » فى بيت النبوة ، ينعم برعاية ابن عمه العظيم ، حتى إذا أظهر الرسول دعوته ، كان (على) أول من آمن به من الصبيان ، وكرم الله وجهه عن السجود للأوثان .

شب على فى حجر النبي ، أفصح الناس وأبلغهم ، فكان النبي أستاذه الأول ، ثم تعلم الكتابة وهو صغير ، ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق . ولما نزل القرآن كان من كتاب وحى النبى ، وكان أول من حفظ القرآن كله ، واشتغل بجمعه وتدوينه ، فتتلمذ بعد الرسول على القرآن ، أبلغ كلام عربى عرفه الناس ، وجعله موضوعاً للدرس والتفكير ، ومصدراً للاقتباس والإلهام .

ولقد ساعده على ذلك أنه بقى نحو ثلاثين سنة بعيداً عن مشاغل الحكم والسياسة ، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة ، ثم بويع بالخلافة بعد فتنة من أروع الفتن الدامية فى تاريخ الإسلام ، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان . ومنذ اليوم الأول لخلافته لم تهدأ الفتن ، بل زادت واستفحل أمرها ، وثارت فى وجهه عناصر مختلفة الأغراض والأهداف ، ولكنها كلها تجتمع على مقاومته وحربه ، وهكذا قضى أيام خلافته كلها يجاهد العناصر الثائرة ، ففجرت هذه الأحداث والخطوب فى قلبه ينابيع البلاغة ، وجرت على لسانه الخطب الخالدة فيما اقتضته تلك الظروف العصيبة من أغراض ، واتسع المجال أمام فصاحته للظهور .

* * *

هذه لمحة عن العوامل التى هيأت للإمام « على » الوصول إلى تلك المنزلة الرفيعة من البلاغة بحيث كان أفقه العلماء ، وأبلغ الخطباء فى زمانه . فما هى الأغراض التى كانت تدفع به إلى المنبر ، ليلقى فى سمع التاريخ تلك الكلمات البليغة الخالدة ؟

كانت الأغراض التى تناولها الإمام فى خطبه مختلفة منوعة . وإن من يطالع مجموع هذه الخطب ليأخذه العجب من تنوع أغراضها ، وتعدد نواحيها ودواعيها . وقد سبق غيره إلى الكلام فى موضوعات لم يطرقها الخطباء ، ولم يدون لأحد من الخلفاء والصحابة مثل مادون له من خطب كثيرة تدل على اتساع أفق تفكيره ، وشمول ثقافته . كما أن الأحداث العصيبة التى واجهها فى سنوات خلافته ، فتحت أمامه أبواباً جديدة للخطابة ، فكان « نهج البلاغة » كما قال الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده :

« حاوياً جميع ما يمكن أن يعرض للكاتب والخطيب من أغراض الكلام فقد تعرض للمدح والذم الأدبى ، وللترغيب فى الفضائل ، والتنفير من الرذائل وللمحاورات السياسية ، والمخاصمات الجدلية ، ولبيان حقوق الراعى على الرعية وحقوق الرعية على الراعى ، وأتى على الكلام فى أصول المدنية ، وقواعد العدالة ، وفى النصائح الشخصية والمواعظ العمومية . . . »

ولقد جاء الإسلام ففرض على الناس صلاة الجمعة ، ومن أركانها خطبة يلقيها الإمام قبل أن يصلى بالناس . والغرض من هذه الخطب وعظ الناس وإرشادهم إلى ما ينفعهم فى أمور دينهم ودنياهم . وإننا حين نقرأ خطب الإمام فى هذا الغرض نجده قد طبعها بطابعه ، وأفاض عليها من علمه وتفكيره . فهو يتحدث فيها عن الله سبحانه وتعالى حديث المفكر المتأمل ، يستدل على وجوده تعالى ببدائع صنعه ، وعجائب مخلوقاته ، فتراه يصف لسامعيه فى بعض خطبه الطاووس والخفاش والنملة وصفاً هو آية فى الدقة والبلاغة ، ليبين لهم حكمة الله ومقدرته ، ويذكر فى بعض هذه الخطب من صفات الله ما كان فى الواقع أساساً لعلم التوحيد وهو يعظ السامعين ليزهدهم فى التكالب على الدنيا ، ويحبّب إليهم التزود للآخرة بالعمل الصالح ، والجهاد فى سبيل الله . ويصف لهم الأنبياء السابقين ، والقرون الماضية ، والعهود الخالية ، ويستخلص من ذلك العبرة والموعظة الحسنة .

ولهذا كانت خطب الإمام فى الوعظ فريدة فى بابها . كانت مزيجاً من حرارة إيمانه ، وغزير علمه ، وعمق تفكيره . وكان يلقى ذلك كله على الناس فى أسلوب جزل بليغ .

فمن كلامه فى خطبة طويلة سميت بالخطبة الغرّاء يعظ الناس ويحذرهم وسوسة الشيطان :

– أوصيكم بتقوى الله الذى أعذر بما أنذر ، وحذركم عدواً نفذ فى الصدور خفياً ، ونفث فى الآذان نجيًّا ، فأضل وأردى ، ووعد فمنى ، وزين سيئات الجرائم ، وهوّن موبقات العظائم ، حتى إذا استدرج قرينته ، واستغلق رهينته أنكر مازين ، واستعظم ما هوّن .

ومنها يصف خلق الإنسان :

« أم هذا الذى أنشأه فى ظلمات الأرحام ، نطفة دهاقاً ، وعلقة محاقاً ، وجنيناً وراضعاً ، ووليداً ويافعاً ، ثم منحه قلباً حافظاً ، ولساناً لافظاً ، حتى إذا قام اعتداله ، واستوى مثاله ، نفر مستكبراً ، وخبط سادراً ، ماتحا فى غرب هواه(١) ، كادحاً سعياً لدنياه . . »

ثم يصف لهم سكرة الموت ، ووحشة القبر ، وعذاب الآخرة ، حتى قيل فى خبر هذه الخطبة ، إنه لما خطبها اقشعرت الجلود ، وبكت العيون ، ورجفت القلوب .

ومن خطبة له فى وصف الله سبحانه وتعالى :

– لا يشغله شان ، ولا يغيره زمان ، ولا يحويه مكان ، ولا يصفه لسان . لا يغرب عنه عدد قطر الماء ، ولا نجوم السماء ، ولا سوافى الريح فى الهواء ، ولا دبيب النمل على الصفا ، ولا مقيل الذر(٢) فى الليلة الظلماء ، يعلم مساقط الأوراق ، وخفىّ طرف الأحداق . . إلخ .

---

(١) متح الماء نزعه ، والغرب هو الدلو ، أى لا يستقى إلا من هواه .

(٢) الذر صغار النمل .

ومن كلام له يذكر فيه حكاية أخيه « عقيل » عندما جاءه يطلب منه أن يعطيه من بيت المال ما يستعين به على إطعام أولاده . وكان عقيل قد كبر وكف بصره ، فأحمى الإمام حديدة وقدمها إليه ، فظنها عقيل صرة مال ، فأهوى إليها بيده فأحرقتها ، قال :

– والله لقد رأيت عقيلاً وقد أملق حتى استماحنى من بُركم[١] صاعاً ، ورأيت صبيانه شعث الشعور ، غبر الألوان من فقرهم ، وعاودنى مؤكداً ، وكرر على القول مردداً ، فأصغيت إليه سمعى ، فظن أنى أبيعه دينى وأتبع قياده مفارقاً طريقتى . فأحميت له حديدة ثم أدنيتها من جسمه ليعتبر بها ، فضج ضجيج ذى دَنَف[٢] من ألمها ، وكاد أن يحترق من ميسَمها[٣] . فقلت له ثكلتك الثواكل يا عقيل ، أتئن من حديدة أحماها إنسانها للعبه ، وتجرنى إلى نار سجرها[٤] جبارها لغضبه ، أتئن من الأذى ولا أئن من اللظى ؟

والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أعصى الله فى نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت . وإن دنياكم عندى لأهون من ورقة فى فم جرادة تقضمها . ما لعلى ولنعيم يفنى ، ولذة لا تبقى ؟ ! نعوذ بالله من سبات العقل ، وقبح الزلل ، وبه نستعين » .

---

(١) البر بضم الباء القمح .
(٢) المرض الشديد .
(٣) الميسم المكواة .
(٤) أحماها .

وقال فى خطبة له يصف بها المتقين ، وكان صاحب له يدعى « همام » قد ألح عليه أن يصف له المتقين حتى كأنه ينظر إليهم ، فقال :

« المتقون هم اهل الفضائل ، منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، عرضت لهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها . . » إلى أن قال :

— ومن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزماً فى لين ، وإيماناً فى يقين ، وحرصاً فى علم ، وعلماً فى حلم ، وقصداً فى غنى ، وخشوعاً فى عبادة ، وتجملاً فى فاقة ، وصبراً فى شدة ، وطلباً فى حلال ، ونشاطاً فى هدى ، وتحرجاً عن طمع ، يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه . نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته وأراح الناس من نفسه . إلخ »

بمثل هذه الكلمات البليغة القوية كان يعظ الناس . وعندما بويع بالخلافة فى المدينة ، خطب الناس ، فكان مما قاله فى خطبته :

— ذمتى بما أقول رهينة ، وأنا به زعيم . إن من صرّحت له العبر عما بين يديه من المثلات ، حجزته التقوى عن تقحم الشبهات . ألا وإن بليّتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيكم صلى الله عليه وآله . والذى بعثه بالحق ، لتبلبلن بلبلة ، ولتغربلن غربلة ، ولتساطن سوط القدر ، حتى يعود أسفلكم أعلاكم ، وأعلاكم أسفلكم . ألا وإن الخطايا خيل شُمْس ، حُمل عليها أهلها ، وخلعت لجمها ، فتقحمت بهم النار . ألا وإن التقوى مطايا ذُلُل حُمل عليها أهلها ، وأعطوا أزمّتها فأوردتهم الجنة .

* * *

لم تكن خطب الإمام « على » وعظاً وإرشاداً فحسب ، فإن أروع خطبه تلك التى تتصل بالفتن التى امتزجت بسنوات خلافته . ذلك أنه لم يكد يبايع بالخلافة حتى بدأت متاعبه ، فتجلت فى الخطابة مواهبه . فقد نقض طلحة والزبير البيعة ، وانضمت إليهما السيدة عائشة ، وخرج عليه معاوية بالشام ، ثم انقسم أتباعه بعد موقعة « صِفِّين » وعصته فئة سميت بالخوارج . ووقف الإمام وسط هذه العواصف الهوج يكافح ويناضل ، ويجاهد بيده ولسانه ، ورويت عنه فى هذا الكفاح أروع خطبه .

فعندما أحاط الثائرون بالخليفة الشهيد عثمان بن عفان وقتلوه ، اتجه الناس إلى على بن أبى طالب ليبايعوه بالخلافة ، فتردد الإمام فى قبول الخلافة ، وخطب فيهم قائلاً :

— دعونى والتمسوا غيرى ، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول . إن الآفاق قد أغامت ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب . وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم . وأنا لكم وزيراً ، خير لكم منى أميراً . . . »

كانت هذه كلمات الإمام لمن أرادوه على البيعة . رأى الأفق يضطرب بالأحداث فزهد فى الخلافة بعد أن كان يرى أنه أحق الناس بها بعد وفاة النبى .

إن الآفاق قد أغامت . . ! هكذا قال لهم الإمام . وقد أغامت الآفاق حقاً ، وبدأت متاعبه منذ اليوم الأول لخلافته ، وقضى عليه أن يقضى سنوات خلافته القصيرة فى نضال متصل مع خصومه والخارجين عليه ،

وفاضت بلاغته فى هذه الفترة بأروع خطبه الخالدة .

عندما نقض طلحة والزبير بيعتهما وخرجا من المدينة إلى البصرة حيث انضم إليهما خلق كثير ، أسرع إليهم الإمام بجيشه ، وظفر بهم فى الموقعة المعروفة بموقعة الجمل .

وكان معاوية والياً على الشام ، فلما بويع لعلى بالخلافة أيقن أنه سيعزله ، فامتنع عن مبايعته ، واتهمه بالاشتراك فى قتل عثمان . وخرج « على » لحربه ، والتقى بجيش معاوية فى سهل « صفين » . فلنستمع إليه يخطب جنوده ويأمرهم بما يتفق مع المبادئ الإنسانية ، وآداب الفروسية فيقول :

— « لا تقاتلوا القوم حتى يبدءوكم ، فأنتم بحمد الله على حجة ، وترككم إياهم حتى يبدءوكم حجة أخرى لكم . فإذا قاتلتموهم فهزمتموهم فلا تقتلوا مُدبراً ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل . فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ، ولا تدخلوا داراً إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم ، فإنهن ضعاف القوى والأنفس . . »

وبعد مناوشات طويلة اشتد القتال بين الجيشين . وكان « على » يخرج كل يوم فيقف بين الصفين ثم ينادى :

— يا معاوية . . . علام يقتل الناس ؟ ابرز إلى وأبرز إليك ، فيكون الأمر لمن غلب .

ولكن معاوية لم يخرج إليه ، ورجحت كفة جيش الإمام ، وكاد أن

يكسب المعركة ، لولا الحيلة المشهورة التى أشار بها « عمرو بن العاص » على صاحبه « معاوية » فرفع جيشه المصاحف على أطراف الرماح ، ونادوا بتحكيم كتاب الله . فلما رآها أصحاب « على » اختلفوا ، ورأى فريق كبير منهم قبول التحكيم ، فخطب فيهم « على » قائلا :

– عباد الله . . امضوا على حقكم وصدقكم وقتال عدوكم ، فإن معاوية وعَمراً وأصحابهما ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن . أنا أعرف بهم منكم ، فقد صحبتهم أطفالاً ، وصحبتهم رجالاً ، فكانوا شر أطفال وشر رجال . ويحكم . إنهم ما رفعوا المصاحف إلا خديعة ومكيدة . . ! »

ولكن هذه الصيحات ذهبت أدراج الرياح ، واضطره أصحابه إلى الكف عن القتال وقبول التحكيم . وكان بعد ذلك ما هو معروف من اختيار الحكمين ، وكتابة العهد بينهما ، واتفاقهما على الاجتماع بدومة الجندل فى شهر رمضان ليحكما بين الفريقين . ورجع « على » إلى الكوفة التى اتخذها مقراً لخلافته ، وجيشه فى شقاق واختلاف . ولم يلبث أن انشق عليه من أصحابه جماعة الخوارج ، رموه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم ، وزعموه قبولاً للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين ! وقام « على » يخطب الناس ويقول :

– الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدث الجلل . أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحيرة ، وتعقب الندامة . وقد كنت أمرتكم فى هذه الحكومة أمرى ، ونخلت لكم مخزون رأيى ، لو كان يطاع لقصير أمر ، فأبيتم على إباء المخالفين الجفاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضنّ الزند بقدْحه ، فكنت

وإياكم . كما قال أخو هوازن :

أمرتكم أمرى بمنعـــرج اللـــوى فلم تستبينوا الرشد إلاضحى الغد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

ولما يئس « على » من توبة الخوارج خرج إليهم بجيشه فسحقهم .

أما التحكيم فقد أخفق عندما اجتمع الحكمان ، وانتهى بمهزلة محزنة ، فأراد « على » أن يتوجه لحرب « معاوية » بعد أن قضى على الخوارج ؛ ولكن أصحابه تثاقلوا عن الحرب ، وانتحلوا المعاذير لعودتهم ؛ وطلبوا تأجيل الحرب فترة يستعدون فيها ، ولكنهم لم يخرجوا بعد ذلك أبداً .

ورأى « معاوية » ضعفهم فكان يرسل جيوشه إلى أطراف الأقاليم التابعة لعلى فتغير عليها وتقتل من فيها من الجند وتنهب الأموال . وقضى « على » هذه السنوات يحرض أصحابه على القتال ، وهم يتثاقلون ويسوفون . وقد روى عن الإمام فى هذه الفترة أروع خطبه التى تنضح بالمرارة ، وتنم عن ضيقه بأصحابه ويأسه منهم ، وتفيض باللوم والتأنيب والتقريع .

هذا هو الإمام يقارن فى إحدى خطبه بين أصحابه وأصحاب معاوية فيقول :

– أما والذى نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم ، ليس لأنهم أولى بالحق منكم ، ولكن لإسراعهم إلى باطل صاحبهم ، وإبطائكم عن حق . ولقد أصبحت الأمم تخاف ظلم رعاتها ، وأصبحت أخاف ظلم عيتى . استنفرتكم للجهاد فلم تنفروا ، وأسمعتكم فلم تسمعوا ، ودعوتكم سراً وجهراً فلم تستجيبوا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا . أشهود كغياب ؟ عبيد كأرباب ؟ أتلو عليكم الحكم فتنفرون منها ، وأحثكم على جهاد

أهل البغى فما آتى على آخر القول حتى أراكم متفرقين أيدى سبا . أيها الشاهدة أبدانهم ، الغائبة عقولهم ، المختلفة أهواؤهم ، المبتلى بهم أمراؤهم ، صاحبكم يطيع الله وأنتم تعصونه ، وصاحب أهل الشام يعصى الله وهم يطيعونه . لوددت والله أن معاوية صارفنى بكم صرف الدينار بالدرهم ، فأخذ منى عشرة منكم وأعطانى رجلا منهم . يا أهل الكوفة . . منيتُ منكم بثلاث واثنتين ، صُم ذوو أسماع ، وبُكم ذوو كلام ، وعمى ذوو أبصار . لا أحرار صدق عند اللقاء ، ولا إخوان ثقة عند البلاء . يا أشباه الإبل غاب عنها رعاتها ، كلما جمعت من جانب تفرقت من جانب آخر » .

وجاءته الأنباء يوماً بأن خيلا لمعاوية أغارت على « الأنبار » ، وأن المغيرين قتلوا عاملا له ، فخرج الإمام مغضباً يجر ثوبه حتى أتى النخيلة ، وتبعه الناس ، فرقى رباوة من الأرض وارتجل هذه الخطبة الخالدة .

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

— « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ودُيِّث(١) بالصغار وقد دعوتكم إلى حرب هؤلاء القوم ليلا ونهاراً ، وسراً وإعلاناً ، وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم فو الذى نفسى بيده ما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتخاذلتم وتواكلتم وثقل عليكم قولى ، حتى شنت عليكم الغارات » . .

وبعد أن وصف لهم الحادث كما بلغه قال :

— يا عجباً كل العجب ! عجب يميت القلب ، ويشغل الفهم ،

---

(١) ديث بمعنى ذلل .

ويكثر الأحزان ، من تضافر هؤلاء القوم على باطلهم ، وفشلكم عن حقكم . فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً ترمون ولا ترمون ، ويُغار عليكم ولا تغيرون ، ويعصى الله وترضون . إذا قلت لكم اغزوهم فى الشتاء ، قلتم هذه صبارة القر(١) ، أنظرنا حتى ينصرم القر عنا . وإذا قلت لكم اغزوهم فى الصيف ، قلتم هذه حمارّة القيظ(٢) ، أنظرنا حتى ينصرم الحر عنا . فإذا كنتم من الحر والبرد تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر . يا أشباه الرجال ولا رجال ، وياطغام الأحلام ، وياعقول ربات الحجال . وددت أن الله قد أخرجنى من بين ظهرانيكم ، وقبضنى إلى رحمته من بينكم . والله لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة جرّت ندماً وملأت صدرى غيظاً . لقد أفسدتم علىّ رأيى بالعصيان ، حتى قالت قريش إن ابن أبى طالب شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم . . ومن ذا يكون أعلم بها منى أو أشد لها مراساً ؟ لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين ، ولقد نيفت اليوم على الستين . ولكن لا رأى لمن لا يطاع » .

* * *

هذه أمثلة من خطب الإمام فى الحث على الجهاد ، وهى كثيرة يمكن . الرجوع إليها فى « نهج البلاغة » لمن يريد المزيد .

ولقد ظل الإمام يهدر بالقول البليغ محاولاً استنهاض الهمم لحرب معاوية الذى استقل بالشام ، حتى قرر أخيراً أن يخرج لحسم هذا الأمر الذى طال . وأعلن عزمه هذا فى آخر خطبة رويت عنه قبل مقتله . فقد

---

(١) شدة البرد .

(٢) شدة الحر .

روى عن « نوف البكالى » أنه قال :

« خطبنا هذه الخطبة أمير المؤمنين بالكوفة ، وهو قائم على حجارة نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومى ، وعليه مدرعة من صوف ، وحمائل سيفه ليف ، وفى رجليه نعلان من ليف . وقد بدأ الإمام بذكر الله وأفاض فى صفاته ، وحدثهم عن الحياة والموت حديثاً بليغاً ، ثم ختم كلامه قائلاً :

— أيها الناس . . إنى قد ثبتت لكم المواعظ ، وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا ، وحَدَوْتكم بالزواجر فلم تستوسقوا ، لله أنتم ! أتتوقعون إماماً غيرى يطأبكم الطريق ويرشدكم السبيل ؟ ! ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى ، بكثير من الآخرة لا يفنى .

ثم نادى بأعلى صوته :

— الجهاد الجهاد عباد الله . ألا وإني معسكر فى يومى هذا ، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج .

قال « نوف البكالى » :

— وجهز الإمام جيشه ، فعقد للحسين فى عشرة آلاف ، ولقيس بن سعد فى عشرة آلاف ، ولأبى أيوب فى عشرة آلاف ، ولغيرهم على أعداد أخر ، وهو يريد الرجعة إلى « صفين » . فما دارت الجمعة حتى ضربه « ابن ملجم » ، فتراجعت العساكر . فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان .

* * *

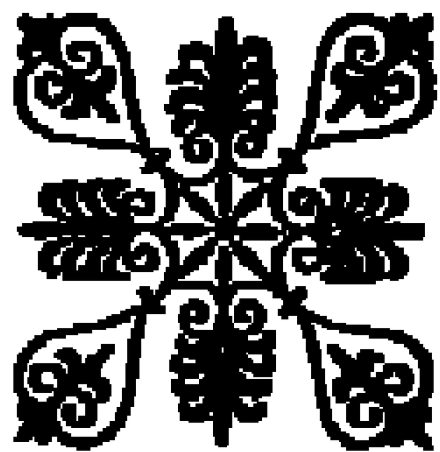
ونختم الحديث عن الإمام الخطيب . بالخطبة القصيرة المؤثرة التى

ألقاها عند دفن زوجته السيدة فاطمة ، بنت النبي صلى الله عليه وسلم . لقد تزوجها الإمام وعاش معها لا يقرن بها زوجة أخرى ، حتى ماتت بعد موت النبي بستة أشهر ، ولم تبلغ الثلاثين من عمرها ، فدفنها إلى جوار أبيها العظيم . وألقى عند دفنها هذه الكلمات التي تصور حزن الرجل القوى المؤمن ، وكيف يثبت للمصائب الكبار ، فلا يخرجه الحزن عما يجمل به من وقار : قال :

— السلام عليك يارسول الله عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة اللحاق بك . قلَّ يا رسول الله عن صفيتك صبرى ورقَّ عنها تجلدى . إلا أن لى فى التأسى بعظيم فُرقتك ، وفادح مصيبتك موضع تعزّ . فلقد وسَّدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحرى وصدرى نفسك . إنا لله وإنا إليه راجعون ، فلقد استرجعت الوديعة ، وأخذت الرهينة . أما حزنى فسرمد ، وأما ليلى فمسهد ، إلى أن يختار الله لى دارك التى أنت بها مقيم . وستنبئك ابنتك بتضافر أمتك على هضمها ، فاصفها السؤال ، واستخبرها الحال . هذا ولم يطل العهد ، ولم يخل منك الذكر ، والسلام عليكما سلام مودع لا قالٍ ولا سئم . فإن أنصرف فلا عن ملالة ، وإن أقم فلا عن سوء ظن بما وعد الله الصابرين .

زياد بن أبيه

« ما سمعتُ متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن »
« إلا أحببتُ أن يسكت خوفاً أن يسىء إلا »
« زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً »
الشعبى



زياد ابن أبيه

خطيب من دهاة العرب وساستها ، اشتهر بالذكاء والشجاعة ، كما اشتهر بالفصاحة والبلاغة ، حتى لقد روى عن « الشعبى » أنه قال : « ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت . خوفاً أن يسيء ، إلا زياداً ، فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً » .

ذلك هو زياد بن عبيد ، أو زياد بن أبى سفيان ، كما سمى نفسه عندما ألحق معاوية نسبه بوالده أبي سفيان ، أو زياد ابن أبيه كما يسميه المتورعون ، وهو الاسم الذى اشتهر به فى التاريخ .

كان للحارث بن كلدة ، الطبيب الثقفى ، جارية تدعى « سمية » فزوجها من عبد رومى له يدعى « عبيداً ». فولدت له زياداً هذا فى السنة الأولى من الهجرة ، وقد نشأ هذا الغلام شجاعاً قارئاً كاتباً ، واشتهر بالذكاء والفصاحة ، وعرف ذلك عنه ، فاستعمله « المغيرة بن شعبة » كاتباً له ، ثم كتب لأبى موسى الأشعرى عندما ولاه عمر بن الخطاب البصرة ، فأظهر ذكاء نادراً كان محسوباً عليه ، إذ عزله ابن الخطاب من عمله وهو يقول : « إننى لم أعزله لعجز أو خيانة ، وإنما كرهت أن يحمل على الناس فضل عقله » .

ومع ذلك فقد ظل عمر بن الخطاب يكلفه ببعض المهام فيقوم بها خير قيام ، وحدث أن استكفاه أمراً فقام فيه مقاماً مرضياً ، وعاد إلى

الخليفة وعنده المهاجرون والأنصار ، فأمره « عمر » أن يخطب الناس على المنبر بما لديه من أنباء ، فخطب خطبة رائعة حتى قال عمرو بن العاص :

– لله هذا الغلام . . . ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه .

وكان بين الحاضرين أبو سفيان بن حرب يجلس إلى جوار على بن أبي طالب ، فهمس أبو سفيان فى أذن الإمام على بأنه يعرف أباه الحقيقى ، فسأله الإمام على :

– من هو ؟

قال أبو سفيان :

– أنا أبوه .

وروى أبو سفيان كيف اشتملت عليه أمه « سمية » منه وهو مشرك فى رحلة له بالطائف ، فقال له الإمام على :

– فما يمنعك أن تدعيه ؟

قال أبو سفيان :

– أخشى هذا الجالس أن يخرق علىّ إهابى .

يقصد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ولما بويع لعلى بن أبي طالب بالخلافة ، وعُيِّن « ابن عباس » والياً على البصرة أرسل معه زياداً ، وعيَّنه على الخراج وبيت المال ، وأمر « ابن عباس » أن يسمع منه ويستشيره .

وعندما قتل عامل الإمام على بلاد فارس ، واضطرب عليه أهلها وطمعوا فى التخلص من الخراج وثاروا بعماله ، استشار الإمام على أصحابه فيمن يوليه فارس ، فقال له « جارية بن قدامة » :

– ألا أدلك يا أمير المؤمنين على رجل صلب الرأى ، عالم بالسياسة ، كاف لما وُلِّىَ ؟

قال الإمام :

– من هو ؟

قال قدامة :

– زياد .

فأمره الإمام بالمسير إليها ، وهناك تمكن زياد بدهائه من إيقاع النفور بين زعماء المشاغبين ، وأخذ يضرب بعضهم ببعض ، حتى قضى عليهم بأيديهم ، واستتب له الأمر بغير حرب ، وهكذا أخضع بلاد الفرس بذكائه ودهائه لعلى بن أبى طالب ، حتى قال أهل فارس « ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنو شروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمداراة والعلم بما يأتى » .

ولقد ساء ذلك « معاوية » الذى كان قد خرج على الإمام على ، وأسس الدولة الأموية بالشام ، فكتب إلى زياد يهدده ويغريه بالانضمام إليه . فلما رأى زياد كتاب معاوية قام فى الناس خطيباً فقال :

يا عجباً كل العجب من ابن آكلة الأكباد ورأس النفاق . . . ! يتهددنى ويخوفنى بقصده إياى ، وبينى وبينه ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سبعين ألفاً من المهاجرين والأنصار يحملون سيوفهم على عواتقهم ، أما والله لئن خلص إلى ليجدنى أحمر مَخْشياً ضرّاباً بالسيف . . »

ولكن الأحداث تتابع مسرعة ، ويقتل الإمام على ، ويستتب أمر الخلافة لمعاوية ، ويلقى ببصره إلى فارس فيهمه أمر زياد ويخيفه . ويصبح

« معاوية » فيكاشف المغيرة بن شعبة بمخاوفه ويقول له :

– إنى ذكرت زياداً واعتصامه بفارس فلم أنم ليلتى ، وإنه لداهية العرب ، معه أموال فارس يدبر الحيل ! ما يؤمننى أن يبايع لرجل من أهل هذا البيت فإذا هو قد أعاد الحرب جَذَعة(١) .

فعرض عليه المغيرة أن يكون رسوله إلى زياد ، ويفد عليه فيتلطف له ، وينصح له بالشخوص إلى الخليفة الذى يكتب له بأمانه .

ووفد زياد على معاوية فأحسن لقاءه ، وثبته على فارس .

وأراد معاوية أن يوثق صلته بزياد ويستميله ويظفر برضاه ، فادعاه أخاً له وألحقه بنسب أبيه ، وبعث القصة القديمة وأشهد عليها الشهود فأصبح زياد يسمى بزياد بن أبى سفيان .

وقد ولاه معاوية بعد ذلك البصرة وخراسان وسجستان ، ثم جمع له السند والبحرين وعمان ، ثم ضم إليه الكوفة ، فأصبح والياً على العراقين وهو أول من جمع له بينهما .

* * *

عندما ولى زياد البصرة ، كانت قد فشت فيها المنكرات واستيقظت الفتن ، فاستعمل فى حكمها شدة لم يألفها العرب ، وقسوة لم يعهدوها ، حتى خافه الناس خوفاً شديداً . وزاد فى شرطته فجعلها أربعة آلاف رجل ، وكان يأخذ بالشبهة ويعاقب بالظنة ، حتى استتب الامن ! فكان الشيء يسقط من يد الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتى صاحبه فيأخذه .

(١) أى أعادها جديدة كما بدأت .

وكان يقول : « لو ضاع حبل بيني وبين خراسان لعرفت آخذه . . » .

وكان يعلق فى مجلسه عنوان سياسته مجملة فى هذه العبارة « شدة فى غير عنف ، ولين فى غير ضعف ، المحسن يجازى بإحسانه ، والمسيء يعاقب بإساءته » .

ولا شك فى أن زياداً قد أسرف على الناس ، وقد قيل بعد ذلك فى رواية عن أبى الحسن المدائنى « تشبه زياد بعمر فأفرط ، وتشبه الحجاج بزياد فأهلك الناس » .

ولقد اشتهر زياد منذ حداثته بالفصاحة ، وكان خطيباً بليغاً ، إذا وقف للكلام تدفق بالقول تدفق السيل . وكان طويل النفس ، كلما أطال كان أجود كلاماً .

ولم يحفظ لنا التاريخ كثيراً من خطبه ، ولكن القليل الذى وصل إلينا يكفى للدلالة عليه .

عندما قدم البصرة والياً لمعاوية ، ارتقى المنبر ، وخطب خطبة لم يبدأ كلامه فيها بحمد الله على عادة الخطباء فسميت خطبته الخطبة البتراء . وقد يصح أن نذكر بتعبيرنا الحديث أنه أعلن فى هذه الخطبة الأحكام العرفية ، وفرض « حظر التجول » ليلا ، واصطنع سياسة لم يسبقه إليها حاكم فى الإسلام . ولكن الخطبة البتراء نموذج فريد من الفصاحة والبلاغة ، تدل على عبقرية زياد كحاكم وخطيب .

إنه يبدأ باستعراض الفساد الذى ساد واستشرى فيقول :

— إن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغى الموفى بأهله على النار ، ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلماؤكم ، من الأمور العظام ،

ينبت فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته في الزمن السرمدى الذى لا يزول . . !

إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحدث الذى لم تسبقوا اليه .

ما هذه المواخير المنصوبة ، والضعيفة المسلوبة فى النهار المبصر والعدد غير قليل . . ؟ ! ألم يكن منكم نهاة تمنع الغواة عن دلج الليل وغارة النهار ؟

حرام علىّ الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً . ثم يمضى زياد موضحاً سياسته الرهيبة لمحاربة الفساد والقضاء عليه فيقول :

إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بماصلح به أوله : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف . وإني أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والمطيع بالعاصى ، والصحيح منكم فى نفسه بالسقيم ، حتى يلقى الرجل منكم أخاه فيقول « أنج سعد فقد هلك سعيد » أو تستقيم لى قناتكم . !

إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلت لكم معصيتى . من نقب منكم عليه فأنا ضامن لما ذهب منه . فإياى ودلج(١) الليل ، فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه . وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه .

---

(١) السير بالليل .

وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرّق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نقب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفناه حيًا فيه . فكفوا عنى أيديكم وألسنتكم أكفف عنكم يدى ولساني .

ولا يتركهم زياد قبل أن يؤكد لهم أن عواطفه الشخصية لن يكون لها تأثير فى أحكامه أو تقديره للأمور ، فيقول هذه العبارات الرائعة :

وقد كانت بيني وبين أقوام إحن[١] . فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمي إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى صفحته ، فإن فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم ، وأعينوا على أنفسكم ، فرب مبتئس بقدومنا سيسر ، ومسرور بقدومنا سيبتئس .

أيها الناس :

إنا أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ونذود عنكم بفىء الله الذى خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا . فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بمناصحتكم لنا . واعلموا أني مهما قصرت فلن أقصر عن ثلاث : لست محتجباً عن طالب حاجة منكم ولو أتانى طارقاً بليل ، ولا حابساً عطاء ولا رزقاً عن إبانه[٢] ، ولا مجمراً[٣] لكم بعثاً .

---

(١) جمع إحنة أى أحقاد وضغائن .

(٢) أوانه .

(٣) لا أحبس جيشاً عن العودة أكثر من الوقت الضرورى .

ثم ختم زياد خطبته بهذه الجملة .

– وأيم الله إن لى فيكم لصرعى كثيرة . . فليحذر كل امرئ منكم أن يكون من صرعاى . . !

ويروى أنه عندما انتهى من خطابه قام إليه رجل فقال :

– أشهد أيها الأمير أنك قد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب . فقال له زياد :

– كذبت . . ذاك نبي الله ، داود عليه السلام .

فقام الأحنف بن قيس فقال :

– إنما الثناء بعد البلاء ، والحمد بعد العطاء ، وإنا لن نثنى حتى نبتلى .

فقال له زياد :

صدقت

وقام رجل من الخوارج وهو يهمس :

– انبأنا الله بغير ما قلت . قال الله عز وجل « وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » . وأنت تزعم أنك تأخذ البرىء بالسقيم ، والمطيع بالعاصى ، والمقبل بالمدبر !

فسمع زياد قوله فقال له :

– إنا لن نبلغ ما نريد فيك وفى أصحابك حتى نخوض إليكم الباطل خوضاً .

وخطب زياد مرة فقال :

– استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف ، والعالم ، والشيخ . فوالله

لايأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا يأتيني عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه .

وعندما وصل زياد إلى الكوفة والياً عليها خطب الناس ، فحصبه بعضهم وهو على المنبر ، فدعا خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ، وجلس على كرسي بالباب ، ثم دعا الناس أربعة أربعة يحلفون « مامنا من حصبك » ، فمن حلف أطلقه ، ومن لم يحلف حبسه ، حتى حبس ثلاثين ، وقيل ثمانين ، فقطع أيديهم جميعاً .

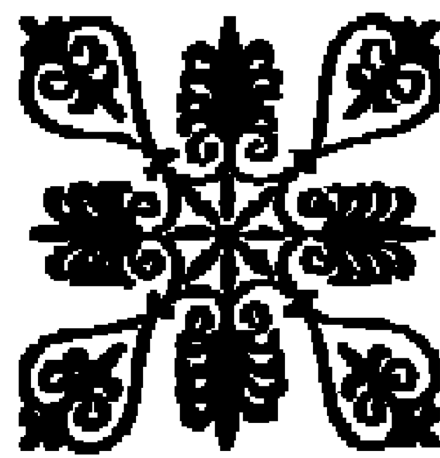
وحكم زياد ثمانية أعوام ، وتوفى بالكوفة ، وروى أنه أصيب بالطاعون فى يده ، وأشير عليه بقطعها ، فأبى ومات سنه ٥٣ هجرية . وكان زياد فيه حمرة فى وجهه ، وفى عينه اليمنى انكسار ، أبيض اللحية مخروطها ، عليه قميص ربما رقعه ، وهو أول من لبس الخفاف الساذجة ، وثياب الكتان .

روى ابن عبد ربه فى « العقد الفريد » :

– قالوا إن الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل صغيرة وكبيرة .

الحجّـــاج

« إن أمير المؤمنين نثر كنانته بين يديه ، وعجم »
« عيدانها فوجدنى أمرّها عوداً وأصلبها مكسراً »
الحجاج



الحجاج

خطيب من جبابرة العرب ، لم يرث ملكاً ولا حكماً ، ولكنه وصل بمواهبه إلى الحكم والإمارة ، وكانت الفصاحة إحدى وسائله الكبرى. ذلك هو أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي .

ولد الحجاج بالطائف سنة إحدى وأربعين للهجرة ، أى فى السنة التى أسس فيها معاوية الدولة الأموية . وكان أبوه « يوسف بن الحكم » من مشايخ ثقيف ورُوى أنه كان معلم صبيان ، كما روى أن الحجاج كان فى أول أمره يعلم الصبيان مع أبيه ، ثم صار دباغاً ، وقيل إنه كان يبيع الزبيب بالطائف . ولكن أخبار الرواة قد اضطربت بشأن هذا الشطر من حياة الحجاج الأولى بالطائف والحجاز ، بحيث لا نستطيع أن نستخلص منها صورة صحيحة نطمئن إليها .

والواقع أن الرواة قد نسجوا كثيراً من الأساطير حول الحجاج ، ومن ذلك مثلا ما رواه المسعودى فى « مروج الذهب » حول ولادته ، قال :

– كانت أم الحجاج عند الحارث بن كلدة ، فدخل عليها فى السحر فوجدها تتخلل فبعث إليها بطلاقها فسألته عن السبب فقال « دخلت عليك فى السحر وأنت تتخللين ، فإن كنت بادرت الغداء فأنت شرهة ، وإن كنت بت والطعام بين أسنانك فأنت قذرة » فقالت كل ذلك لم يكن

ولكن تخللت من شظايا السواك . ثم تزوجها من بعده يوسف الثقفى فولدت له الحجاج مشوهاً لا دبر له ، فثقب عن دبره . وأبى أن يقبل ثدى أمه وغيرها فأعياهم أمره ، فيقال إن الشيطان ظهر لهم فى صورة الحارث بن كلدة ، وقال لهم « اذبحوا جدياً أسود وأولغوه دمه ، فإذا كان اليوم الثانى فافعلوا به كذلك ، فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولغوه دمه ، ثم اذبحوا له أسود سالخاً فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع . ففعلوا به ذلك فكان بعد لا يصبر على سفك الدماء . . !

ومن الواضح أن هذه الحكاية وأمثالها إنما قصد بها الرواة تفسير قسوة الحجاج وبطشه وإسرافه فى سفك الدماء .

مهما يكن من الأمر فالمعروف أن الحجاج حفظ القرآن فى صباه ، وروى الأحاديث وأشعار العرب . ولما كانت الطائف وسط بيئة عربية تحوطها البادية فقد نشأ الحجاج على فصاحة البدو وجفوة طباعهم .

ولقد نشأ فى عصر فتن وشغب وحروب اتصلت منذ مقتل الخليفة عثمان . وعندما توفى معاوية وقام من بعده ابنه يزيد . تحدث الناس بسوء سيرته فى الحجاز والعراق ، وامتنع عن البيعة له الحسين بن على وعبد الله بن الزبير ، وخرج الحسين إلى الكوفة حيث قتل فى الطريق . فبايع الناس فى مكة عبد الله بن الزبير . وأرسل يزيد جيوشه فحاصرت مكة ، ثم جاءت الأخبار بموت يزيد ، فرجع عنها الجيش ، وبايع أهل الحجاز والعراق عبد الله بن الزبير ، فولى أخاه « مصعب » العراق ، وبقى هو فى مكة . أما فى الشام فقد بايع الناس « معاوية بن يزيد » الذى تنازل عن الخلافة ، فبايع الأمويون « مروان بن الحكم » الذى لم تطل خلافته

غير شهور ثم مات ، فقام من بعده عبد الملك بن مروان .

وكان الحجاج قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما قام عبد الملك بن مروان بالخلافة . ويروى المؤرخون أن أباه خرج بـه إلى الشام حيث وفد على أمير المؤمنين وكان الحجاج قد سمع الكثير عن سير الولاة والقواد . وفتنته بوجه خاص سيرة « زياد بن أبيــه » فطمحت نفسه إلى التشبه بهم والسير على نهجهم ، فاتصل بروح بن زنباع الجذامى ، وزير عبد الملك ، والتحق بشرطته .

وهنا يبدأ التاريخ السياسى للحجاج ، فقد أظهر من الذكاء والجرأة والحزم ما لفت إليه أنظار الخليفة واستثار إعجابه .

وروى المؤرخون أن « عبد الله بن مروان » أراد أن يخرج لقتال « زفر ابن الحارث » الذى كان قد تمرد على حكم بنى أمية ، فلما مضى بجيشه فى الطريق لاحظ من عساكره تخاذلاً وعصياناً . إذ كانوا لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله . وشكا الخليفة ذلك إلى « روح بن زنباع » فقال له :

– يا أمير المؤمنين . . إن فى شرطتى رجلا يقال له الحجاج بن يوسف لو ولاه أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله وأنزلهم بنزوله .

ففعل « عبد الملك بن مروان » . فكان لا يقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أتباع « روح بن زنباع » . فوقف الحجاج عليهم يوماً وقد رحل الناس . وهم على طعام يأكلون . فقال لهم « ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ » فقالوا « انزل فكل معنا يا بن اللخناء . . ! » .

فقال الحجاج « هيهات . . ذهب ما هنالك » ثم أمر بهم فجلدوا بالسياط وطوفهم فى العسكر . وأمر بخيامهم فأحرقت : فدخل روح -

ابن زنباع على عبد الملك باكياً شاكياً يقول :

– إن الحجاج بن يوسف . الذى كان فى عديد شرطتى . ضرب عبيدى . وأحرق فساطيطى .

فاستدعى الخليفة الحجاج وسأله عما فعل فقال الحجاج :

– ما أنا فعلته يا أمير المؤمنين .

قال الخليفة .

– ومن فعله ؟

قال الحجاج :

– أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك . وسوطى سوطك وما على أمير المؤمنين أن يُخلف على روح بن زنباع للفسطاط فسطاطين . والغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له .

وقد أعجبت هذه الجرأة « عبد الملك بن مروان » : فعوض وزيره عن خسائره . وزاد تقديره للحجاج . فلما أراد الخروج إلى العراق لمحاربة « مصعب بن الزبير » جعل يستنصر أهل الشام فيتثاقلون عن الخروج للحرب : فقال له الحجاج :

– سلطنى عليهم فوالله لأخرجنهم معك . .

فسلطه عليهم . فكان الحجاج لا يمر على باب رجل قد تخلف عن الخروج إلا أحرق عليه داره . فلما رأى ذلك أهل الشام خرجوا . وساربهم « عبد الملك » بعد أن ولى الحجاج قيادة قسم من الجيش : وأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير .

ثم بعث الحجاج لمحاربة عبد الله بن الزبير ، فزحف الحجاج إلى

مكة ، وحاصرها خمسين ليلة ، وضربها بالمجانيق ، وهزم عبد الله بن الزبير وقتله وصلبه ؛ فأرسل إليه عبد الملك يعينه والياً على الحجاز واليمن واليمامة ، فبقى بها ثلاثة أعوام أخضع فيها أهل الحجاز واشتد عليهم .

ويُروى أنه كتب بعد ذلك إلى عبد الملك يقول : « إنى حُزت الحجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة » ، وكان قد توفى والى العراق بشر بن مروان ، فبعث عبد الملك عهده إلى الحجاج يوليه العراق أيضاً .

ولم تكن السنوات الأولى من حكم الحجاج بالعراق هادئة مستقرة ، فقد ثارت الفتن فى أطراف العراق ، واتصلت الحروب . ولكن الحجاج بذل جهداً عظيماً فى إخضاع الخارجين عليه وعلى ملك بنى أمية ، فوجه « المهلب » لقتال الأزارقة ، ثم نهض بنفسه لقتال ابن الأشعث ، وكانت بينه وبين الخارجين من أهل الكوفة والبصرة حروب طويلة ، انتهت بموقعة « دير الجماجم » التى استمرت مائة يوم ، وانتهت بانتصار الحجاج .

وهكذا أنقذ الحجاج ملك بنى أمية مما كان يتهدده من أخطار ، وأخمد الثورات فى الحجاز والعراق وفارس والأهواز ، ومد حدود الدولة الإسلامية إلى نهر السند ، وفتح إقليم ما وراء النهر حتى بخارى وسمر قند . ولهذا كان عبد الملك بن مروان يقول : « إن الحجاج جلدة ما بين عينى » . . ولما مات عبد الملك وخلفه « الوليد » أقر الحجاج على ما بيده وظل الحجاج عشرين عاماً والياً على العراق ، حتى توفى سنة ٩٥ للهجرة وله من العمر أربع وخمسون سنة .

* * *

هذه لمحات سريعة عن حياة الحجاج ، والظروف التى عاش فيها ،

فأين من هذا كله الحجاج الخطيب ؟

الواقع أن الحجاج كان أخطب الناس فى زمانه ، قديراً على ارتجال الكلام ، مبتكراً للمعانى يستلهمها من طبعه الفياض ، وبديهته الحاضرة . إلى جانب حفظه القرآن ، وعلمه بالسنة ، وروايته للأدب ، وخبرته بنفوس الجماهير ، فكان يعرف كيف يستشهد بما يؤيد عمله ويبرر سياسته .

وكان أسلوبه يمتاز بالجزالة والفحولة ، فكان أشبه بأساليب البدو فى قوته وتأثيره فى النفوس .

ومما زاد فى قوة أسلوبه الخطابى الأغراض التى كانت تدفعه إلى الخطابة ، ذلك أن سياسة الحجاج كانت تقوم فى جملتها على البطش والقمع ، وكان يقول : « إنى والله ما أرى أن أرد بنى اللكيعة إلى طاعتى إلا بالسيف » . وهكذا مثل دور الطاغية ، واتخذ أسلوب الدكتاتور ، وكانت معظم خطبه . سلسلة متصلة من الوعيد يرهب بها الناس ، ويصبها عليهم قذائف حاصدة ، وحمماً ملتهبة ، ويرسل النذر فى كلمات لها بريق السيوف ، ودوى القنابل .

أجل . . كان يحكم الناس بسيفه ولسانه .

ومن عجب أن هذا الطاغية الجبار كان يعنى بهيئته وملبسه .

روى صاحب العقد الفريد عن الرياشى ، عن العتبى عن أبيه قال « ما رأيت مثل الحجاج . كان زيه زى شاطر ، وكلامه كلام خارجى ، وصولته صولة جبار فسألته عن زيه فقال كان يرجل شعره ويخضب أطرافه » وروى أنه حينما وفدت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك وسألهم عن الحجاج قالوا : « يا أمير المؤمنين ، إنا نخبرك عن عدو الله بعلم ، كان يتزين تزين المومسة ، ويصعد المنبر فيتكلم بكلام الأخيار ، فإذا نزل عمل عمل الفراعنة » .

وقال ابن عبد ربه : « كان الحجاج إذا صعد المنبر تلفع بمطرفه ، ثم تكلم رويداً فلا يكاد يسمع ، حتى يتزايد فى الكلام ، فيخرج يده من مطرفه ، ثم يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد . ! » .

إن هذه الصورة التى نقلها صاحب العقد الفريد تدل على أن الحجاج كان أستاذاً ماهراً يعرف كيف يلعب بأعصاب المستمعين .

وهذه خطبته الشهيرة : عندما ذهب والياً على العراق تصور أسلوبه وخصائصه وطابعه الفنى . فهو يبدأ أول خطبة له بأسلوب تمثيلى يستدرج به أهل العراق ويسترعى انتباههم ، ثم يستشهد بالشعر والقرآن ، ويقذف وجوههم بعبارات خشنة كأنها قطع الصخر . ومن الواضح أنه كان متأثراً كما قلنا بزياد بن أبيه ، وكأنى به قد استحضر فى خياله خطبته البتراء التى استهل بها ولايته على البصرة .

انظر إليه وقد خرج إلى الكوفة فى اثنى عشر راكباً على النجائب ، ثم دخلها فجأة حين انتشر النهار ، وبدأ بالمسجد فدخله وقال « علىّ بالناس » . وصعد المنبر وقد تلثم بعمامة خز حمراء غطّى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً ، وجلس ساعة لا يتكلم حتى قال الناس بعضهم لبعض : « قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق » وقال « عمير بن ضابئ البرجمى » :

ألا أحصبه لكم ؟

فقال له الناس « أمهل حتى ننظر » .

فلما رأى الحجاج أن عيون الناس إليه ، قام فكشف عن وجهه وقال :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

يا أهل الكوفة :

إني لأرى أبصاراً طامحة ، وأعناقاً متطاولة ، ورءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإني لصاحبها . وكأني أنظر إلى الدماء تترقرق بين العمائم واللحى .

ثم أنشد :

هذا أوان الشد فاشتدى زيم(١) قد لفها الليل بسواق حُطم(٢)
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزار على ظهر وضم(٣)

* * *

قد لفها الليل بعصلبي(٤) أروع(٥) خراج من الدوى(٦)
مهاجر ليس بأعرابي

* * *

قد شمرت عن ساقها فشدوا وجدّت الحرب بكم فجدوا
والقوس فيها وتر عُرُدّ(٧) مثل ذراع البكر أو أشد
لا بد مما ليس منه بد

(١) اسم فرسه أو ناقته .

(٢) السواق الحطم أى الشديد القاسى الذى يسوقها بعنف فتتدافع فيحطم بعضها بعضاً .

(٣) الوضم خشبة الجزار التى يقطع عليها اللحم .

(٤) العصلبي هو الشديد القوى .

(٥) ذكى .

(٦) الدوى والدوية الفلاة المتسعة التى يسمع لها دوى بالليل، والمعنى أنه شديد ذكى يخرج من كل شدة .

(٧) شديد .

إنى والله يا أهل العراق ما يقعقع لى بالشنان [١] ، ولا يغمز جانبي كتغماز التين [٢] ، ولقد فررت عن ذكاء ، وفتشت عن تجربة ؟ وإن أمير المؤمنين – أطال الله بقاءه – نثر كنانته [٣] بين يديه ، فعجم [٤] عيدانها ، فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مكسراً ، فرماكم بى ، لأنكم طالما أوضعتم [٥] فى الفتنة ، واضطجعتم فى مراقد الضلال . والله لأحزمنكم حزم السلمة [٦] ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل [٧] ، فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون .

إنى والله لا أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ، ولا أخلق إلا فريت [٨] . فإياى وهذه الجماعات . أما والله لتستقيمن على طريق الحق ، أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده .

ثم أنهى خطبته بأول أمر له فى الكوفة قال :

---

(١) جمع شن وشنة وهى القربة اليابسة يضرب عليها فيسمع لها صوت كالطبل فتخاف الإبل .

(٢) أى لست لين المغمز .

(٣) الكنانة وعاء السهام .

(٤) عضها بأسنانه ليختبر صلابتها .

(٥) أسرعتم .

(٦) السلمة شجرة كثيرة الشوك .

(٧) الإبل الغريبة عن المرعى .

(٨) قطعت، والمعنى لا أعزم على أمر إلا أتممته .

— إن أمير المؤمنين أمرنى أن أعطيكم أعطياتكم ، وأن أوجهكم لمحاربة العدو مع « المهلب بن أبى صفرة » ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه . . »

قال ابن نباتة : « فلما سمع أهل الكوفة هذه الخطبة تساقط الحصى من أيديهم حزناً ورعباً ، وثبتت مهابته فى قلوبهم ، وتحكم حينئذ فى رقابهم » وأراد الحجاج أن يخرج للحج فخطب فى الناس قائلا :

— أيها الناس . إنى أريد الحج ، وقد استخلفت عليكم ابنى هذا ، وأوصيته بخلاف ما أوصى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأنصار . إن رسول الله أوصى أن يقبل من محسنهم ، وأن يتجاوز عن مسيئهم . وإنى أمرته ألا يقبل من محسنكم ولا يتجاوز عن مسيئكم ! !

ألا وإنكم ستقولون بعدى مقالة ما يمنعكم من إظهارها إلا مخافتى ، ألا وإنكم ستقولون بعدى : « لا أحسن الله له الصحابة » . ألا وإنى معجل لكم الإجابة « لا أحسن الله الخلافة عليكم . . »

ثم نزل دون أن يجرؤ أحد على توجيه كلمة إليه .

ورجف الناس يوماً بموت الحجاج ، وبلغته الإشاعة ، فخرج إلى المسجد وخطب قائلاً :

— إن طائفة من أهل الشقاق والنفاق ، ومساوئ الأخلاق ، نزغ الشيطان بينهم فقالوا مات الحجاج ومات الحجاج . فَمه . . ؟ ! وهل يرجو الحجاج الخير إلا بعد الموت ؟ والله ما يسرنى ألا أموت وإن لى الدنيا وما فيها ، وما رأيت الله رضى بالتخليد إلا لإبليس أهون خلقه عليه . ولقد دعا الله العبد الصالح فقال : « رب اغفر لى وهب لى ملكاً لا ينبغى

لأحد من بعدى » فأعطاه ذلك إلا البقاء

وبعد انتصاه فى دير الجماجم خطب فى أهل العراق خطبة كانت آية فى البلاغة والإبداع الفنى قال :

– ياأهل العراق

إن الشيطان قد استبطنكم [١] فخالط اللحم والدم والعصب والمسامع والأطراف والأعضاء والشغاف [٢] ، ثم أفضى إلى المخاخ والأصماخ [٣] ، ثم ارتفع فعشش ، ثم باض وفرخ ، فحشاكم شقاقاً ونفاقاً . اتخذتموه دليلا تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤامراً تستشيرونه ، فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقعة ، أو ينفعكم بيان ؟

ثم أخذ يذكرهم بمواقفهم فى الحرب والمواقع فيقول :

– ألستم أصحابى بالأهواز حيث رمتم المكر ، وسعيتم بالغدر ، واستجمعتم للكفر . وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ؟ وأنا أرميكم بطرفى وأنتم تنسلون لواذاً ، وتنهزمون سراعاً ؟

ثم يوم الزاوية وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتخاذلكم وبراءة الله منكم ، إذ وليتم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى [٤] أعطانها ، لا يسأل المرء عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتكم الرماح .

---

(١) نفذ إلى باطنكم .

(٢) غلاف القلب .

(٣) فتحات الأذن الداخلية .

(٤) مبارك الإبل .

ثم يوم دير الجماجم وما يوم دير الجماجم ! بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، ويذهل الخليل عن خليله !

يا أهل العراق

هل استخفكم ناكث ، أو استغواكم غاو ، أو استنصركم ظالم ، أو استعضدكم خالع ، إلا تبعتموه ونصرتموه ؟

هل شغب شاغب ، أو نعب ناعب ، أو زفر زافر ، إلا كنتم أتباعه وأنصاره ؟

ثم التفت إلى أهل الشام وهم حول المنبر ، وقال يمدح موقفهم :

يا أهل الشام

إنما أنا لكم كالظليم[١] الرامح عند فراخه ، ينفي عنها المدر[٢] ويباعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر ، ويحميها من الضباب[٣]، ويحرسها من الذئاب .

يا أهل الشام

أنتم الجنة(٤) والرداء ، والعدة والحذاء[٥] .

وهذا هو الحجاج يذهب إلى البصرة ، فيخطب فى أهلها خطبة

---

(١) ذكر النعام ويضرب به المثل فى الدفاع عن صغاره فيرمح من يقترب منها أى يرفسه .

(٢) الطين اليابس .

(٣) جمع ضب .

(٤) الوقاية .

(٥) من حاذى بمعنى ساعد وآزر .

تذكرهم بخطبة زياد فيقول :

– « أيها الناس

من أعياه داؤه فعندى دواؤه . ومن استطال أجله فعلىّ أن أعجله ، ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله . ومن استطال ماضى عمره قصرت عليه باقيه .

إن للشيطان طيفاً . وللسلطان سيفاً ، فمن سقمت سريرته صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صلبه ، ومن لم تسعه العافية لم تضق عنه الهلكة ، ومن سبقته بادرة فمه سبق بدنه بسفك دمه . إنى أنذر ثم لا أنظر ، وأحذر ثم لا أعذر وأتوعد ثم لا أعفو ، إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ، ومن استرخى لببه ساء أدبه إن الحزم والعزم سلبانى سوطى وأبدلانى به سيفى ، فقائمه فى يدى ، ونجاده فى عنقى ، وذبابه قلادة لمن عصانى . والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد ، فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربت عنقه ! .. » .

* * *

هذه بعض خطب الحجاج تدل عليه وعلى سياسة حكمه ، وبهذه السياسة القائمة على البطش والشدة وطد ملك بنى أمية ، وحفظه من الفتن .

ولكن خطب الحجاج لم تكن كلها وعيداً وصواعق يصبها على رءوس السامعين .

فقد كان من واجباته أن يؤم الناس فى صلاة الجمعة وأن يخطبهم فكانت له خطب دينية تختلف عن خطبه السياسية . وقد ضاعت أكثر خطبه لأن عصره لم يكن عصر تدوين للخطب ، بل كان عصر حفظ ورواية ، وحفظ

النثر وروايته أصعب من حفظ الشعر .

ومن خطبه التي تدل على ذكائه ولباقته هذه الخطبة القصيرة التي ألقاها على الناس فى مكة بعد مقتل عبد الله بن الزبير ، فقد ارتجت مكة بالبكاء ، فخطب الناس قائلا :

— ألا إن عبد الله بن الزبير كان من أحبار هذه الأمة حتى رغب فى الخلافة ونازع فيها ، وخلع طاعة الله ، واستكن بحرم الله . ولو كان شيء مانعاً للعصاة لمنع آدم حرمة الجنة . لأن الله تعالى خلقه بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأباحه جنته ، فلما عصاه أخرجه منها بخطيئته . وآدم أكرم على الله من ابن الزبير ، والجنة أعظم حرمة من الكعبة . . ! » .

ومن كلامه فى خطبه الدينية قوله فى خطبة الجمعة :

— نِعم امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ راقب ربه ، امرؤ زود عمله ، امرؤ فكر فيما يقرؤه غداً فى صحيفته ويراه فى ميزانه ، امرؤ كان عند همه آمراً ، وعند هواه زاجراً ، امرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الرجل بخطام جمله ، فإن قاده إلى حق تبعه ، وإن قاده إلى معصية الله كفه . إننا والله ما خلقنا للفناء وإنما خلقنا للبقاء ، وإنما ننتقل من دار إلى دار .

وقوله فى خطبة أخرى .

— أيها الناس .

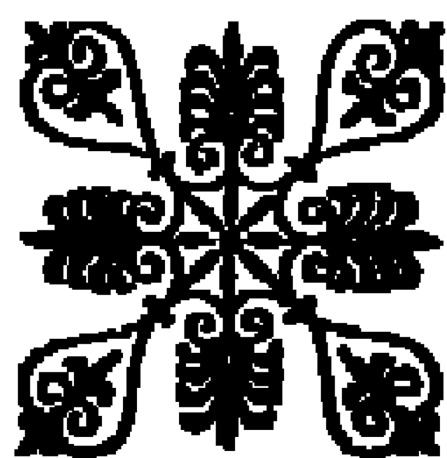
قد أصبحتم فى أجل منقوص ، وعمل محفوظ . رب ساع لغيره ، فالموت فى أعناقكم ، والنار بين أيديكم ، والجنة أمامكم . خذوا من أنفسكم لأنفسكم ، ومن غناكم لفقركم ، ومما فى أيديكم لما بين أيديكم ، فكأن ما قد مضى من الدنيا لم يكن ، وكأن الأموات لم يكونوا أحياء ، وكل

ما ترونه فإنه ذاهب . هذه شمس عاد وثمود ، هذه الشمس التى طلعت على الأكاسرة وخزائنهم السائرة بين أيديهم وقصورهم المشيدة ، ثم طلعت على قبورهم ! أين الملوك الأولون؟ أين الجبابرة المتكبرون؟ المحاسب الله . والصراط منصوب وجهنم تزفر وتتوقد ، وأهل الجنة فى روضة ينعمون . جعلنا الله وإياكم من الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً » .

ويروى أنه عندما حضرته الوفاة كتب إلى الوليد بن عبد الملك يقول : « أما بعد ، فقد كنت أرعى غنمك ، أحوطها حياط الناصح الشفيق برعية مولاه ، فجاء الأسد فبطش بالراعى ومزق المرعى كل ممزق ، وقد نزل بمولاك ما نزل بأيوب الصابر ، وأرجو أن يكون الجبار أراد بعبده غفراناً لخطاياه . وتكفيراً لما حمل من ذنوبه » . .

عبدُ اللهِ بنُ الزّبير

« إنّا واللّه ما نموت على مضاجعنا ، ولكن »
« قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف »
ابن الزبير



عبد الله بن الزبير

إن سيرة هذا الفارس الخطيب تعرض لنا صورة رائعة لحياة حافلة بالشجاعة والطموح ، زاخرة بأعمال البطولة الجريئة ، حتى لتكاد تشبه أساطير المغامرين . كان أبوه الزبير بن العوام ، حوارىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وابن عمته . وأمه أسماء بنت أبى بكر ، ذات النطاقين . وقد ولد فى السنة الثانية للهجرة ، وكان أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، ففرح المسلمون بولادته وكبروا ، لأن اليهود كانوا يزعمون أنهم قد سحروهم فلن يولد لهم . . ! وقيل إن النبى حنكه بتمرة لا كها بفمه ، وسماه عبد الله .

ونشأ عبد الله فى رعاية أبويه العظيمين ، فصيحاً ، جريئاً .

قال هشام بن عروة « كان أول ما أفصح به عمى عبد الله بن الزبير وهو صغير ، السيف ، فكان لا يضعه من يده ، فكان الزبير يقول : والله ليكونن لك منه يوم وأيام . . . ! »

وحدث فى صباه أنه كان يلعب مع الصبيان فى الطريق ، فمر بهم عمر بن الخطاب ، ففر الصبيان من وجه عمر ، وبقى هو ، فقال له عمر :

– مالك لم تفر معهم ؟

فأجابه الصبى الجرىء :

– لم أجرم فأخافك ، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك .

ولقد امتاز عبد الله بن الزبير بعد ذلك فى حياته بخصال ثلاث سيطرت

على حياته كلها ، وكانت مقومات شخصيته . أولها الشجاعة التى سنرى مظاهرها فى وقائع حياته ، وثانيها الفصاحة التى جعلت منه خطيباً ممتازاً ، وأخيراً إيمانه العميق ، وورعه وتدينه ، فقد كان صواماً قواماً . ورد فى تاريخ ابن الأثير أنه لم يكن باب من أبواب العبادة يعجز عنه الناس إلا تكلفه ابن الزبير ، وأنه حدث أن سيلا أحاط بالبيت الحرام ، فكان ابن الزبير يطوف بالبيت سباحة .

وعندما أمر عثمان بن عفان عامله على مصر بفتح شمال أفريقيا ، أمده بجيش يرأسه عبد الله بن الزبير ، فاشترك فى إدارة الموقعة الفاصلة بشجاعة وذكاء ومهارة ، وفاجأ « جريقوريوس » عامل الروم على طرابلس والمغرب وشتت جنوده وقتله بيده .

ورجع إلى الخليفة عثمان فقص عليه كيف كانت الموقعة ، فأعجب عثمان بما سمع ، وطلب إليه أن يروى للناس حديث الفتح الجديد وسأله :

— أتقوم بمثل هذا الكلام على الناس ؟

فقال عبد الله :

— يا أمير المؤمنين ، إنى أهيب لك ، منى لهم .

فقام عثمان خطيباً فى الناس وبشرهم بفتح أفريقيا وقال لهم إن ابن الزبير سوف يخبرهم خبرها . وكان ابن الزبير إلى جانب المنبر فقام خطيباً ، وكان أول من خطب إلى جانب المنبر ، فوصف للناس فى بلاغة وتدفق ما حدث من فتح ، حتى إذا انتهى نهض إليه أبوه الزبير ، فقبله بين عينيه وقال « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ، مازلت يابنى تنطق بلسان أبى بكر حتى صمت . . »

وكان عبد الله مع أبيه فى وقعة الجمل ، وجرح جراحاً كثيرة ، ولكنه نجا وشفى من جراحه . ولما استقرت الخلافة لمعاوية كان ابن الزبير من زعماء جنده ، واشترك فى غزوة القسطنطينية التى جهزها معاوية . وإن من يتتبع أخباره وأحاديثه مع معاوية يشعر بأنه كان ينفس على معاوية ما وصل إليه ، ويلمح أنه كان يطمح إلى الإمارة ، ويرى أنه جدير بها وكانت له فى مجالس معاوية مخاصمات ومناقشات أغلظ فيها القول لمعاوية وتفاخر عليه .

حدث يوما أن رد على معاوية فخاطب الحاضرين فى مجلسه قائلا :

— أسألكم بالله ، أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن أباه أبا سفيان حارب رسول الله ؟ وأن أمى أسماء بنت أبى بكر الصديق وأمه هند آكلة الأكباد ؟ وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر وعمتى خديجة ذات الخطر والحسب وعمته أم جميل حمالة الحطب . وجدتى صفية وجدته حمامة ؟ وزوج عمتى خير أبناء آدم محمد صلى الله عليه وسلم ، وزوج عمته شر بنى آدم أبو لهب ، سيصلى ناراً ذات لهب ؟ وخالتى عائشة أم المؤمنين وخالته أشقى الأشقين ؟ وأنا عبد الله وهو معاوية ! ؟ »

بهذه اللهجة كان يخاطب معاوية ، وبهذه الجرأة كان يتحداه على الملأ ، وكان معاوية يحسب حسابه ، ويخشى منه على ابنه وولى عهده يزيد ، فقال فى وصيته الأخيرة ليزيد يحذره من ابن الزبير :

— لست أخاف عليك غير « عبد الله بن عمر » ، « والحسين بن على » و« عبد الله بن الزبير » .

أما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذه[1] الورع ، وأما الحسين فإنى

(١) صرعه .

أرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه ، وأما ابن الزبير فإنه خبّ[1] ضب ، فإن ظفرت به فقطعه إرْباً إرْباً . . » .

وعندما أراد معاوية أن يروض الناس على البيعة لابنه يزيد قال لابن الزبير :

– ما ترى فى بيعة يزيد ؟

فقال له ابن الزبير :

– يا أمير المؤمنين . . . إنى أناديك ولا أناجيك . إن أخاك من صدقك ، فانظر قبل أن تتقدم ، وتفكر قبل أن تندم ، فإن النظر قبل التقدم ، والتفكر قبل التندم . . » .

فضحك معاوية وقال :

– ثعلبٌ روّاغ . . ! فى دون ما سجعت به على ابن أخيك ما يكفيك .

وعندما جمع معاوية الوفود ليحدثهم فى أمر البيعة ليزيد ، وتكلم الخطباء بين مؤيد ومعارض ، قام عبد الله بن الزبير فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه .

– أما بعد ، فإن هذه الخلافة لقريش خاصة ، تتناولها بمآثرها السنية ، وأفعالها المرضية ، مع شرف الآباء وكرم الأبناء . فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ، ابن عم رسول الله صلى عليه وسلم وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله ، وعلىّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما . فاتق الله يا مغاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » .

---

(١) الخب الخداع ، والضب الحقد الدفين ، ورجل خب ضب يعنى مراوغ .

هكذا كان شأن ابن الزبير مع معاوية ، فلما توفى سنة ستين هجرية وخلفه ابنه يزيد ، كان ابن الزبير ممن امتنع عن مبايعته ، وكان أشدهم عليه ، ولكنه لم يجاهر بطموحه إلى الخلافة لعلمه أن أعداء بنى أمية يؤثرون الحسين بن على . فلما قتل الحسين سنة إحدى وستين هجرية ، وجد الفرصة سانحة ، والثمرة ناضجة ، فثار بالحجاز ، وأخذ البيعة لنفسه ، وكاتب أهل العراق واليمن وخراسان ومصر فوافقه الجم الغفير منهم على خلع بنى أمية ، فأرسل العمال ، وولى الولاة . فلنستمع إليه الآن يخطب فى أهل مكة بعد مقتل الحسين ، يعظم مقتله ، ويلوم أهل العراق والكوفة خاصة ؟ ويحرك العواطف ضد بنى أمية فيقول :

– إن أهل العراق أهل غدر وشر إلا قليلا ، وإن أهل الكوفة شرار أهل العراق . لقد دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم ، فلما قدم عليهم ثاروا إليه فقالوا له إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد بن سمية سلماً ، فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب . فرأى والله – وأصحابه قليل بين كثير – أنه مقتول . ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة . فرحم الله الحسين وأخزى قاتله . لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ، ما كان فى مثله واعظ وناه عنهم . ولكنه ما حم نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع ، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ؟ أيمكن أن نصدق قولهم ونقبل لهم عهداً ؟ لا . . ولا نراهم لذلك أهلا . أما والله لقد قتلوه طويلاً بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم ، وأولى به فى الدين والفضل » .

ثم يختم خطابه معرضاً بيزيد فيقول :

– أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ، ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجالس فى حلق الذكر ، الركض فى تطلاب الصيد ، فسوف يلقون غياً . .

وكانت بين ابن الزبير ويزيد حروب كثيرة ، فلما توفى يزيد سنة ٦٤ هجرية اشتد أمر عبد الله بن الزبير ، ودانت له أكثر البلاد الإسلامية ، عدا بلاد الشام ، فقد بايع أهلها معاوية بن يزيد ، ثم مروان بن الحكم الذى سار إلى مصر ففتحها ، ثم توفى بعد شهور من خلافته وخلفه ابنه عبد الملك ابن مروان ، فاتصلت الحروب بينه وبين ابن الزبير الذى ثارت عليه فتن كثيرة ، ففارقه الخوارج ، وانتقض عليه أهل الكوفة ، واشتغل ابن الزبير بقتالهم جميعاً .

وكان ابن الزبير قد ولى أخاه مصعباً على العراق ، فخرج عبد الملك ابن مروان لقتاله بنفسه فى جيش كبير من أهل الشام فأخضع العراق وقتل مصعب بن الزبير .

وعندما وصل خبر مقتل مصعب إلى أخيه عبد الله سكت أياماً ثم صعد المنبر فجلس عليه ملياً لا يتكلم والكآبة على وجهه وجبينه يرشح عرقاً ، فقال رجل من قريش لجاره :

– ماله لا يتكلم ؟ أتراه يهاب المنطق ! فوالله إنه للبيب الخطباء .

ثم تكلم ابن الزبير فقال :

– الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء . ويعز من يشاء ويذل من يشاء ، ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق : بلد الغدر والشقاق ،

فساءنا وسرنا . أتانا أن مصعباً قتل رحمة الله عليه ومغفرته فأما الذى أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء . وأما الذى سرنا منه فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له . فقد أسلمه الطغام الصم الآذان إسلام النعم المخطمة(١) ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه فإن يقتل فمه(٢) . . ! ؟ لقد قتل أبوه وعمه وأخوه وكانوا الخيار الصالحين . إنا والله ما نموت على مضاجعنا ، ولكن قعصاً(٣) بالرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وليس كما يموت بنو مروان . والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام . ألا إنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه . فإن تقبل الدنيا علىّ ، لم آخذها أخذ الأشر البطر ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق المهين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . . . »

* * *

ولقد أدبرت عنه الدنيا ، إذ أرسل عبد الملك بن مروان الحجاج لقتاله ، فحاصر مكة طويلاً ، ورمى الكعبة بالمنجنيق . ولما طال الحصار واشتدت المجاعة تفرق الناس عنه وخرجوا إلى الحجاج بالأمان .

ودخل ابن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر فقال لها :

---

(١) الإبل المربوطة من أنوفها .

(٢) فماذا فى الأمر ؟ .

(٣) قعصه أى قتله وأجهز عليه ومات فلان قعصاً أى أصابته ضربة أو طعنة فمات مكانه .

– خذلني الناس حتى ولدى وأهلى ، فلم يبق عندى إلا اليسير ممن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا . . فما رأيك ؟

فأجابته أمه جوابها الخالد الجدير ببنت الصديق ، قالت :

– أنت والله يا بنى أعلم بنفسك . إن كنت تعلم أنك على حق وإليه تدعو فامض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكن من رقبتك يتلعب بها غلمان بنى أمية . وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت . أهلكت نفسك ومن معك . وإن قلت كنت على حق فلما وهن أصحابي ضعفت عزيمتى ، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين . كم خلودك فى الدنيا ؟ القتل أحسن ما ينزل بك يابن الزبير.

فوالله لضربة بالسيف فى عز أحب إلى من ضربة بالسوط فى ذل .

فقال لها :

– إنى أخاف إن قتلنى أهل الشام أن يمثلوا بى .

قالت :

يابنى . . إن الشاة لايضرها السلخ بعد ذبحها . . !

فدنا منها فقبل رأسها ، فعانقته فوقعت يدها على درع كان يلبسه .

فقالت له :

– ما هذا صنيع من يريد ما تريد .

قال :

– ما لبسته إلا لأشد متنك .

فقالت :

– فإنه لا يشد متني .

فنزع الدرع وانطلق فقاتل قتالا شديداً حتى أثخن بالجراح وقتل ، فأرسل الحجاج رأسه إلى عبد الملك ، وصلب جثته .

ومرت الأم العظيمة بابنها المصلوب فلم تزد على أن قالت :

– أما آن لهذا الفارس أن يترجل . . ؟ !

وكتب عبد الملك إلى الحجاج يلومه على صلبه ، فأمر بتسليم جثته إلى أمه فغسلته ودفنته ، وكان له من العمر اثنتان وسبعون سنة ، ودامت خلافته تسع سنين .

وقد لقي الحجاج بعد ذلك أمه فقال لها :

– كيف ترينني صنعت بابنك ؟

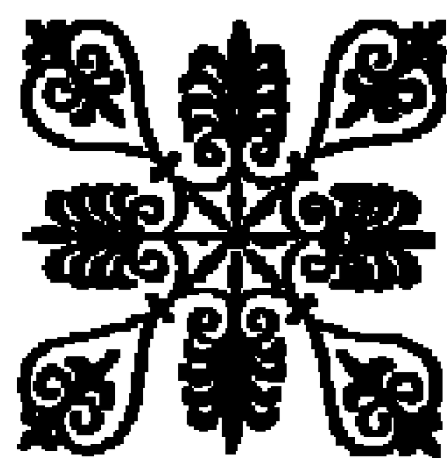
فأجابته قائلة :

– أفسدت عليه دنياه ، وأفسد عليك آخرتك .

ولحقت به بعد قليل .

ميرابو

« اذهب وقل لمولاك إننا هنا بإرادة الشعب »
« ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب »
ميرابو



ميرابو

لقد ترك « ميرابو » اسماً لامعاً كالمجد الأسطورى ، ولكن حظه كان أقل من نبوغه .

هكذا قال عنه « بارتو » الوزير الفرنسى الشهير الذى يعتبر خير مؤرخ لميرابو

والواقع أن هذه العبارة تلخص بدقة حياة هذا الخطيب العبقرى الذى عاصر الثورة الفرنسية فى مهدها ، وقاد خطواتها الأولى بشجاعة وحكمة واعتدال .

وفى عهود الثورات الشعبية العارمة يكون للخطابة شأن خطير فى توجيه الحوادث . فالخطباء هم الذين يقودون الجماهير ، ويثيرون حماستهم بكلماتهم النارية . وكل مطلع على تاريخ الثورة الفرنسية يعرف كيف سيطر الزعماء من خطباء الجماهير على مجرى الأمور ، ثم أمسكوا بأيديهم زمام الحوادث ، وقبضوا بعد ذلك على السلطة فى فرنسا زمنا ، وكيف كانوا يوجهون الجماهير لأغراضهم فيلهبون حماسهم بالخطب المعسولة ويحشدونهم لتنفيذ مآربهم وإرهاب خصومهم . وكم شهدت شوارع باريس وحدائقها والجمعية الوطنية الخطباء من أمثال ديمولان ، ودانتون ومارا ، وروبسبير يشبون بخطبهم نار الثورة ويذكون أوارها حتى اندلع لهبها وكأنها الجحيم قد فتح أبوابه وقذف

قذائفه . . ! ولقـد دفع هؤلاء الخطباء المتطرفون الثـورة فى طريق مظلم مخضب بالدماء ، وارتكبوا أفظع الجرائم باسم الحرية ، ونشروا على فرنسا ظلا كثيفاً من الرعب والإرهاب ، ثم انتهى الأمر بمعظمهم إلى المقصلة فسقطت رءوسهم تحت سكينها التى طالما تخضبت بدماء الأبرياء .

لقد دفعوا الشعب إلى الجنون ، فسكر من الدم ، ثم سقاهم من الكأس التى جرعوها الآلاف من ضحاياهم .

ولكن ميرابو لم تبتلعه الثورة المجنونة ، بل إنه سحرها ولم يخضع لسحرها ولم يجن مع الشعب بل ظل عاقلا ، وكان الوحيد بين زعماء الثورة الذى لم تسقط رأسه تحت سكين المقصلة ، بل ظلت مرتفعة فى خضم الحوادث ، يحميها بسحره الخطابى وشجاعته وجرأة بيانه ضد كل هجوم ، فلم تصل إليها يد حاقد حاسد ، ولم تتناولها سكين الجلاد .

ولد « أونوريه جابرييل ريكيتى كونت دى ميرابو » فى ٩ مارس عام ١٧٤٩ ، وعندما بلغ الخامسة من عمره عهد به أبوه إلى السيد « بواسون » الذى أخذ يلقنه مبادئ التاريخ والفلسفة ويعلمه اللاتينية واليونانية ، ثم أدخله مدرسة داخلية فى باريس حيث درس مختلف العلوم والفنون ، ثم ألحقه بعد ذلك بسلاح الفرسان . وسافر « ميرابو » مع فرقته إلى بلدة « سانت » ولكنه فى عام واحد دخل السجن خمسة أشهر . وذات مساء بعد أن خسر فى الميسر مبلغاً كبيراً ، هرب من وجه الدائنين تاركاً وراءه فتاة غرر بها بعد أن وعدها بالزواج . وأصدر وزير الحربية أمراً بنفيه فى قلعة بإحدى الجزر ، ولكنه استطاع قبل

أن يخرج من المنفى أن يحصل على رتبة ملازم ثان فى الجيش المسافر لقمع الثورة فى جزيرة « كورسيكا » . وهناك حارب بشجاعة وكتب يقول « إننى ولدت لأكون محارباً . فقد وهبتنى الطبيعة النظرة الفاحصة الخاطفة . وليس هناك كتاب فى فنون الحرب كتب بلغة حية أو ميتة لم يقع نظرى عليه . . » .

ومن مصادفات القدر أنه حينما كان « ميرابو » يحارب فى جزيرة كورسيكا عام ١٧٦٩ شهدت « أجاكسيو » عاصمة الجزيرة مولد نابليون بونابرت فى منزل متواضع ! . ولكن الأقدار كانت تدخر لهذا المحارب الشاب حياة أخرى . فكانت تلك الحملة هى المعركة الوحيدة التى اشترك فيها ميرابو ، ثم عاد إلى فرنسا ليعيش مع عمه الذى تنبأ له بمستقبل عظيم . وكان يقول عنه « سيكون هذا الفتى أهم مواطن فى أوربا . ومن المحتمل أن يصبح بابا أو وزيراً أو جنرالا أو مستشاراً . . ! » .

ولكن « ميرابو » خيب ظن عمه ، فقد اندفع إلى حياة حافلة بالمغامرات الغرامية والمشاجرات ولعب القمار ، وأسرف فى الاستدانة حتى بلغت ديونه أكثر من مائتى ألف من الجنيهات ، وأصبح الدائنون يطاردونه فى كل مكان .

وتدخل أبوه لإنقاذه ، فاستصدر من الملك أمراً بإبعاده ليكون بمأمن من الدائنين . ولكن ميرابو فر مع إحدى عشيقاته وهى المركيزة « دى مونييه » إلى هولندا . وهناك اضطر إلى احتراف الكتابة ، فنشر عدداً من الكتب والملازم والرسائل التى أذاعت صيته قبل الثورة .

وعندما اكتشف البوليس مكانه قبض عليه ، وأرسل ميرابو إلى قلعة

« فنسان » حيث ظل سجيناً نحو أربعة أعوام .

وفى هذا السجن بدأ « ميرابو » يكتشف نفسه ، وأخذت تتجلى مواهبه الخطابية . فقد عاد إلى الكتابة فوضع عدة كتب كان أشهرها كتاب « الذكريات » الذى قال عنه « سانت بوف » إن عباراته البليغة مليئة بالثورة والحركات اللاإرادية للخطيب . ومن سجنه وجه إلى أبيه وإلى عمه رسائل يشرح فيها موقفه ويدافع عن نفسه كانت بمثابة خطب ومرافعات رائعة وكأنها أرهاص بمولد الخطيب المنتظر .

وقد واجه الجمهور لأول مرة بعد إطلاق سراحه ، عندما وقف « ميرابو » يدافع عن نفسه فى ساحة المحكمة فى القضية التى رفعتها عليه زوجته تطلب الطلاق . وحولت القضية إلى البرلمان فكانت بلاغته موضع الدهشة والإعجاب ثم سافر « ميرابو » إلى إنجلترا ، وهناك شهد كيف تسير الديمقراطية الناشئة ، وكيف يستطيع أن يظفر بالحكم أكثر الناس جرأة وبلاغة ، وزار مجلس العموم ، وسمع الخطباء ، ورأى وزيراً فى الرابعة والعشرين من عمره يسيطر على أقدار بريطانيا العظمى فى ظل الديمقراطية . وعندما سمع « وليم بت » الصغير يخطب ، أدرك مقدار القوة التى يمكن أن يثيرها اسم شهير إذا وهب الفصاحة والقدرة الخطابية .

لقد عاش « ميرابو » اثنين وأربعين عاماً قضى معظمها بين نفى وسجن واغتراب ، بسبب مغامرات الشباب ، ولكنه كان حيث ذهب يدرس ويقرأ ويكتب ، وساعده على ذلك ذكاء حاد ، وذاكرة قوية جعلت أباه يقول عنه وهو فى السادسة من عمره « انه كالرمل يبتلع

كل شيء » وعندما بدأت أحداث الثورة كان فى الأربعين من عمره ، وقد استكمل عدته ليلعب دوره الكبير ، ولكنه كان يحمل على كتفيه أخطاء شبابه ونزوات صباه . وكان هذا الماضى يعرقل خطاه ، ويمنعه من إظهار قدراته كاملة ، فكان يقول فى أسف حزين : .

« أسفاه . . ! كم أساءت عثرات الشباب الى المصلحة العامة ، إذ حالت بينى وبين الكثير مما أصلح له . لو كانت لى السمعة الحسنة فكم من أقدار كنت سأضمنها لبلادى ، وكم من مجد كنت سأقرنه باسمى ! » .

* * *

عندما ساءت الحالة المالية لفرنسا ، واشتدت الضائقة المالية بالحكومة حتى أصبحت على شفا الإفلاس ، اضطر الملك لويس السادس عشر إلى دعوة مجلس الأمة ليعاونه على معالجة الأزمة المالية ، وينظر فى سياسية الإصلاح التى وضعها الوزير « نكر » .

وكان « ميرابو » فى « برلين » عام ١٧٨٨ عندما سمع بدعوة المجلس الذى لم تشهد فرنسا جلساته منذ عام ١٦١٤ ، وعلم بأن الاستعداد يجرى لانتخاب أعضائه . فأسرع عائدا إلى فرنسا .

كان « ميرابو » بطبيعة مولده أرستقراطياً من الأشراف ، فسعى للحصول على مقعد فى المجلس بين النبلاء ، ولكنهم أعرضوا عنه وأبوا عليه هذا الشرف ، فحقد عليهم واتخذهم هدفاً لحملاته منذ ذلك اليوم .

واتجه « ميرابو » إلى الشعب فألقى بنفسه بين أحضانه ، ورشح

نفسه عن العامة فى دائرتين ، وخاض غمار المعركة الانتخابية منادياً بحقوق الشعب ، منادياً بالإصلاح ، منددأ بالأشراف وامتيازاتهم وبالفساد المستشرى فى البلاد . وفتن الشعب بهذا النبيل الذى يدافع عن حقوقه ، وتحمس له ، فكان يقابله كما يستقبل الأبطال الظافرين ، حتى بلغ الأمر بالجمهور أنه كان يقبل مكان مرور عجلات عربته !

وكانت المعركة الانتخابية فرصته الكبرى ليمتحن قدرته على الخطابة ، وليكشف عن نبوغه وعبقريته فى التأثير على الجماهير . لقد استطاع أن يخلب الألباب بسحر بيانه ، وروعة بلاغته ، وأن يسيطر على الجماهير فيطويها وينشرها على هواه ، ويخضعها لسحره ، مما جعله يقول :

– هكذا يصبح الشعب عبداً . . !

ونجح فى الدائرتين فاختار النيابة عن « أكس » ، وعندما اجتمع « مجلس طبقات الأمة » فى ٥ مايو ١٧٨٩ خلع « ميرابو » ثياب الأشراف وذهب إلى المجلس مرتدياً ثياب نواب الشعب السوداء وجلس بين صفوفهم .

وكان المجلس مكوناً من ثلاث طبقات هى الأشراف ورجال الدين والعامة .

وكان عدد نواب العامة مساوياً لمجموع عدد نواب طبقتى الأشراف ورجال الدين . وعندما افتتح الملك المجلس أعلن أن الغرض الأساسى من الاجتماع هو معالجة الحالة المالية ، ولم يشر إلى موضوع الدستور الذى كان يطالب به الشعب . وفى اليوم التالى ذهب نواب العامة إلى المجلس فلم يجدوا الأشراف أو رجال الدين ، فقد اجتمعت كل

طبقة منهما فى قاعة منفردة . وأدرك نواب الشعب أن الهدف من ذلك هو حرمانهم من الانتفاع بميزة عددهم المضاعف عند أخذ الأصوات ، فيكون لهم صوت واحد ، ولكل من الطبقتين الأخريين صوت مماثل . وانقضى اليوم بغير عمل ، فقد وجد نواب الشعب المنتخبون أنفسهم وحدهم . حائرين بغير برنامج أو خطة عمل ، يتساءلون أين الحكومة وممثلوها . وقد استولى عليهم الخوف والحذر .

وكان « ميرابو » ينظر إليهم فيرى خمسمائة من النكرات المتشابهة قد انتخبهم الشعب ولكنهم لا يدرون ماذا يصنعون . إن لهم أهدافاً ولكنهم لا يعرفون وسيلة لتحقيقها . وأدرك أنهم فى حاجة إلى من يقودهم ، إلى العقل المفكر ، والرأس المدبر ، والقلب الذكى الشجاع ، واللسان الذى يصول ويجول . إنها اللحظة التى كان ينتظرها ، فها هى ذى المنصة ليس أمامه إلا أن يصعد درجاتها ، وهؤلاء هم نواب الشعب يتلفتون بحثاً عن الزعيم ، فلماذا لا يتقدم ولديه كل المزايا التى تؤهله لسد الفراغ ؟ وبعد أيام من الحيرة والتردد والمفاوضات العقيمة مع الطبقات الأخرى ، أعلن « ميرابو » أنه علم أن « سييس » نائب باريس لديه اقتراح عملى . وتقـدم « سييس » باقتراحه وهو أن تستقل طبقة العامة بالعمل وتطلق على نفسها « الجمعية الوطنية » وتبدأ على الفور بوضع دستور تصان فيه حقوق الشعب .

ووافق النواب بالإجماع ، وانضم إليهم عدد من النبلاء ورجال الدين ، وانتخبت الجمعية رئيساً مؤقتاً لها من نواب الشعب .

ولكنهم عندما توجهوا فى اليوم التالى إلى قاعة الاجتماع ، وجدوا الأبواب

مغلقة بحجة إعداد القاعة لجلسة مقبلة ، فاتجهوا إلى ملعب التنس المجاور ، وهناك أقسموا على أن « نواب فرنسا قد أقسموا على ألا يتفرقوا . وأن يجتمعوا فى كل وقت ، وفى كل مكان ، حتى يضعوا لفرنسا دستوراً على أساس متين » .

وفى يوم ٢٣ يونية دعيت الطبقات الثلاث للاجتماع فى القاعة العامة ، وحضر الملك وألقى خطاباً ضمنه إلغاء القرار الذى اتخذه نواب الشعب ، وحدد الإصلاحات التى رأى بحثها لإدخالها على نظام الحكومة . ثم أعلن قراره الأخير بوجوب انفصال طبقات المجلس عند المناقشة وأخذ الأصوات . ثم غادر القاعة ومن ورائه الأشراف ورجال الدين ظافرين بما كانوا يطلبون .

وبقى نواب الشعب وقد تولاهم الذهول ، وتنازعتهم عوامل السخط والتمرد والخوف .

ودخل رئيس التشريفات يذكرهم بأمر الملك ويطلب إليهم أن يتفرقوا ، ولكنهم جمدوا فى أماكنهم وقد خيم على القاعة صمت رهيب .

وأطل عليهم التاريخ يرقب ما يصنعون .

وفجأة برز « ميرابو » من بين الصفوف الواجمة ، وتقدم نحو رسول الملك وعيناه تقدحان بالشرر ، وصوته يدوى كالرعد وكأنه صوت القضاء المحتوم ، وهو يقول :

اذهب وقل لمولاك إننا هنا بإرادة الشعب ، ولن نبرح مكاننا إلا على أسنة الحراب . .

أرسل ميرابو هذه الكلمات فاختفى رئيس التشريفات . وتشجع النواب فظلوا فى أماكنهم وتجاهلوا أمر الملك وكأنه لم يكن ، وسلم « لويس » واستسلم للأمر الواقع ، وعرفت الجمعية الوطنية زعيمها وسيدها الآمر .

وتناقل الشعب عبارات « ميرابو » فأصبح رجل الدولة و رمز الثورة .

* * *

وكان « ميرابو » قد وضع لنفسه خطة سياسية واضحة . فهو يرى الإبقاء على الملكية مع إقامتها على نظام ديمقراطى كالنظام الإنجليزى ، فيكون للشعب مجلس نيابى منتخب يضع القوانين ويفرض الضرائب . وكان ينادى بوضع دستور يفصل بين السلطات ، ويحدد اختصاص كل منها فلا تطغى إحداها على الأخرى . ولكن الجمعية الوطنية لم تكد تبدأ عملها حتى بدأ الملك يتنكر للشعب ، فاستقدم الجيش إلى « فرساى » حيث أحاطت جنوده بالجمعية لإرهاب أعضائها .

ولما يئست الجمعية من استجابة الملك لطلبها أن يسرح الجنود ، صعد « ميرابو » إلى المنبر ، وألقى خطبة ملتهبة هاجم فيها علناً لأول مرة سياسة الملك ، وندد ببطانته ، وعاب على الملك خضوعه لزوجته « مارى أنطوانيت » ولبطانة السوء ، وقال :

– هل قرءوا فى تاريخ الشعوب كيف تبدأ الثورات وكيف تسير ؟ وهل أدركوا أن الحوادث فى تفاعلها واشتباكها قد تدفع بأشد الناس اعتدالا إلى أقصى حدود التطرف . . ؟

وأدهش « ميرابو » الجمعية مرة أخرى بشجاعته و بلاغته .

وعندما جاء الملك إلى الجمعية يعرض عليها أن تنتقل إلى مدينة أخرى بعيداً عن الجنود الذين يحيطون بقصر فرساى ، قال « ميرابو » ساخراً :

– إننا لم نطلب الهرب من الجنود ، وإنما نطلب إجلاء الجنود عن العاصمة !

ولكن الملك مضى فى تدبيره الرجعى ، فعزل « نكر » الذى كان الشعب يعلق عليه الآمال فى إصلاح الحالة المالية . وهاجت الخواطر بتأثير المتطرفين من أمثال « مارا وكاميل دى مولان » الذى أسرع بنقل الخبر إلى « باريس » ووقف على إحدى الموائد فى ميدان « الباليه رويال » يخطب الجماهير التى احتشدت حوله ويقول « لقد عدت الآن من فرساى ، وقد عزل الملك « نكر » ، وعزله إيذان بوقوع مذبحة يهلك فيها الوطنيون . لقد انطلقت جنود الجيش هذا المساء لتبطش بكم ، فبادروا إلى حمل السلاح ولا تضيعوا لحظة واحدة ، واحملوا شارات نتميز بها ، احملوا الشارة الخضراء رمزاً للأمل ، أيها الإخوان . . إننى أدعوكم إلى الحرية . . « ثم لوح بمسدسه وصاح » لن ينالنى أحد حياً ، فسوف أعرف كيف أموت بشجاعة . إن مصاباً واحداً هو الذى يمكن أن ينزل بى ، ذلك أن أرى فرنسا مستعبدة . . » ثم تناول شريطاً أخضر وضعه فى قبعته ، فحمله الناس ، وانطلقوا يطلبون السلاح ، ثم اقتحموا الإنفاليد ودار الصناعة واستولوا على ما فيها من سلاح .

ووثب الشعب فى ١٤ يولية على الباستيل فسوى جدرانه بالأرض ، وانطلقت الثورة من عقالها حيواناً مفترساً متعطشاً للدماء ، وهاجم الشعب فى الأقاليم قصور الأشراف ، وسادت الفوضى فى كل مكان .

وأزعج ذلك « ميرابو » فأخذ يعلن أن استمرار دكتاتورية الشعب سوف يعرض الحرية للدمار ، وأطلق نبوءته التى تحققت بعد عشرة أعوام عندما قال :

— إن الشعب إذا اعتاد الفوضى وسفك الدماء ، فإنه بدلا من تحقيق

الحـــرية . سوف يسقط فى هاوية العبودية ، وسوف يخرج من أعماق تلك الفوضى مستبد قاهر يتراءى للشعب فى ثياب المنقذ . .

وعندما ازدادت الفوضى فزع الملك من تمادى الشعب ، فاستدعى فرقة « الفلاندر » الموالية له لتكون بمثابة حرس خاص يدافع عنه فى فرساى . وانتهز المهيجون الفرصة لإثارة الشعب ضد الملك ، ولإرغامه على الإقامة فى باريس ليأمنوا جانبه ، فدبروا ثورة النساء للمطالبة بالخبز . واقتحم المتظاهرون قصر فرساى ، ولكن « لافايت » أسرع لنجدته على رأس الحرس الأهلى ، وحال بين الملك وبين الشعب الهائج على أن يعود الملك إلى باريس واضطر « لويس » إلى الاستسلام ، وعاد إلى قصر « التويلرى » بباريس وسط موكب النساء ، حاملاً على صدره شارة الثورة .

وهدأت الحالة فى فرنسا بعض الشىء وانتقلت الجمعية الوطنية إلى باريس وانصرفت إلى وضع الدستور الذى بدأته فى فرساى .

وفى هذه المرحلة تجلت عبقرية الخطيب العظيم ميرابو .

* * *

اشتركت عناصر عديدة فى تكوين شخصية الخطيب العبقرى ميرابو .

وهبته الطبيعة جسماً فريداً ، فكان طويل القامة ، عريض المنكبين ، له رأس ضخم يغطيه شعر كثيف يصففه ، وعينان تشعان بريقاً خاطفاً ، رآهما « شاتوبريان » فقال « رأيت فيهما الكبرياء والرذيلة والعبقرية ، وعندما تذبلان على طريقته الخاصة ، فحدث ما شئت عن السحر الذى لا يقاوم » .

إذا اعتلى المنبر طالعك منه وجه قبيح ، سلط الزمن عليه الجدرى فى

صباه فكساه طابع الجهامة ، فكان يبدو بشعره الهائل كمعرفة الأسد ، شيئاً مخيفاً لا يجرؤ أحد على مقاطعته . قال عنه أحد أعضاء الجمعية : « كان ميرابو وحشاً هائجاً مفترساً ، له وجه النمر ، لا تراه متكلماً إلا ثائراً منفعلا » . وكان هو يقول عن نفسه « إنهم لا يدركون ما لقبح وجهى من قوة . . ! » .

أما صوته فكان هبة الطبيعة الكبرى للخطيب . صوت موسيقى ذو جرس ورنين ، يعرف كيف ينوعه بمهارة ، تسمعه تارة عذباً رقيقاً ناعماً ، وتارة صاخباً هائجاً كقصف الرعد ، يقذف عباراته الغاضبة كالصواعق ترتج لها جنبات المجلس .

دخل المجلس فى سن الأربعين رجلا مكتمل النضج والتجربة ، مزوداً بذخيرة ضخمة من المعلومات ، قد اختلط بالفلاحين فى مقاطعته ودرس أحوالهم وتعامل مع المرابين ورجال المال فعرف أسرارهم ، وخاض غمار المحاكم فى قضاياه الخاصة فأدرك عيوب إجراءاتها ، كما عرف أسرار السياسة ودسائس البلاط وخفايا القصور ، وساعده على ذلك ذهن لماح ،وذكاء خارق ، وذاكرة واعية ، وبديهة حاضرة .

وكانت له كما قلنا خطة واضحة وسياسة مرسومة يؤمن بأنها تحقق الحرية للشعب وتعصم فرنسا من الفوضى . كان يقف بين الملك والشعب ينصب لهما الميزان ، ويمنع القوتين المتصارعتين من أن تشتط إحداهما أو تطغى على الأخرى .

وعندما لمع نجمه فى سماء الجمعية أحاطت به الأحقاد من كل جانب ، وتربص به خصوم أنكروا عليه كل فضيلة ، وأطلقوا الإشاعات والاتهامات ، ولكنه لم يعبأ بهم ، وظل فى مكانه شجاعاً جريئاً قوياً .

وكانت رباطة جأشه على المنبر تثير الدهشة ، إذ كانت له قدرة عجيبة على السيطرة على عواطفه فى أشد الأوقات وأحرجها . فكانت أمواج الحقد والغضب التى يثيرها خصومه تتحطم عند قدميه دون أن تثيره أو تحرك منه ساكناً .

كان يتكلم عن التسمية التى يقترحها للمجلس فى الدستور الجديد فقاطعه خصومه ، وانهالت عليه التهديدات والشتائم ، وظل ساكناً حتى هدأت الضجة ، وعندما ترك المنبر التفت نحو الرئيس وقال بصوت جهورى :

– لقد تركت على مكتبك ياسيدى الرئيس الجزء الذى أثار كثيراً من الهدير ، والذى أسئ فهمه . إننى أقبل أن أحاكم على أساس محتوياته على أيدى كل أصدقاء الحرية . .

وفى إحدى المرات قاطعه فريق من الأعضاء وأشبعوه سباً ، فتوقف عن الكلام ونظر إليهم فى هدوء ثم قال :

– إننى أنتظر يا سادتى حتى تنتهى تحيتكم الرقيقة . . !

ثم واصل حديثه من النقطة التى توقف عندها .

وكان وهو جالس فى مقعده يرسل العبارة الواحدة تحمل من المعانى مالا تحمل الخطبة الكاملة . قال مرة عن « روبسبير » :

– سيذهب هذا الرجل بعيداً لأنه يؤمن بكل ما يقول .

وقال عن « لا فاييت » قائد الجيش :

– إن لا فاييت له جيشه ، أما أنا فلى رأسى .

وصاح مرة موجهاً كلامه إلى فريق من الأعضاء المشاغبين :

– ليسكت الأعضاء ذو الثلاثين صوتاً .

ويقول « بارتو » إن « ميرابو » كان مزوداً بما يمكن أن نسميه بالخيال التاريخى ، وقد ساعده على ذلك اطلاعه الواسع على التاريخ ، فكان بارعاً فى بعث أحداث الماضى ليستشهد بها أو يدلل على صحة فكرته ، فيلتقط الحادثة التاريخية ويلقى بها نابضة بالحياة فى خضم المناقشة . فعندما تردد الملك فى الموافقة على « إعلان حقوق الإنسان » الذى وضعته الجمعية ، وقف « ميرابو » يحاول التوفيق بين السيادة الوطنية للجمعية وبين السلطة الملكية ، ويقول محذراً الملك .

– يبدو لى أنه فى الإمكان توجيه رد إلى الملك نكلمه فيه بتلك الصراحة التى خاطب بها مجنون يدعى « فيليب » نفسه قائلا « ماذا عساك تفعل يا فيليب إذا كان العالم كله يقول كلا ، عندما تقول أنت نعم ؟ »

وعندما طالب أحد الأعضاء من رجال الدين بإعـــلان المذهب الكاثوليكى ديناً رسمياً للدولة ، اختلفت الآراء واحتدمت المناقشة ، فلما قال أحد الأعضاء إن لويس الرابع عشر كان قد وعد بألا يسمح بقيام المذهب البروتستانتى وطالب بالوفاء بهذا الوعد ، نهض ميرابو ليحتج على هذا العمل الاستبدادى الذى يصادر حرية العبادة ولا يصلح نموذجاً لمثلى شعب حر وقال بلهجة رائعة :

– بما أنه قد ذكرت نصوص تاريخية فى الموضوع فإننى لن أذكر إلا نصاً واحـــداً . ألا فتعلموا أيها السادة أننى أرى من هنا ، ومن نفس هذا المنبر الذى أحدثكم منه ، شرفة القصر الملكى يطل منها المنحرفون الذين يمزجون مصالحهم الدنيوية بأكثر الأمور الدينية قدسية ، ويستخلصون من يد ملك ضعيف السلاح القاتل الذى أعطى الإشارة لبدء مذبحة سان بارتلمى . . !

واستولى الذهول على أعضاء المجلس . وخيم عليهم صمت عميق وكأنما صعقتهم المفاجأة ، وراحوا يحدقون فى الخطيب الذى كان ما يزال يشملهم بنظراته النارية وهو يرتعد من التأثر ، ثم اندفعوا يصفقون ويهتفون . وبعد بضعة أيام كان أحد الأعضاء يهنئه بانتصاره ويقول له ضاحكاً إنه كان مبالغاً فى تصوره ، لأنه لم يكن يستطيع أن يرى قصر اللوفر من مكانه فوق المنبر ، فرد عليه ميرابو :

– فى لحظة الإلهام هذه . كنت أرى كل ما أقوله .

والواقع أن « ميرابو » كانت تسعفه بديهة حاضرة ، ومخيلة تومض بما يشبه الإلهام فى ساعات الحرج . وقد قال يوماً لخصمه « بارناف » الخطيب الشهير :

– أتدرى ماذا ينقصك ؟ إنه لا يوجد لديك إلهام !

وكانت له سخريات لاذعة .

اتهمه خصومه بأنه شوهد يجول شاهراً حسامه بين صفوف الفرق العسكرية المرابطة فى فلاندر ، ولم يكن هذا صحيحاً ، فقد خلطوا بينه وبين « جاماش » الذى يشبهه فوقف يقول ساخراً :

–وهكذا ترون أن شهادة السيد الذى اتهمنى لن يكون فيها ما يكدر حقاً إلا بالنسبة للسيد « جاماش » الذى سيجد نفسه متهماً بشدة القبح والدمامة ، لا لشئ إلا لكونه يشبهنى . . !

وعندما كان يتكلم فى المناقشة التى أثيرت حول يمين الكنيسة ، انفجر هدير حزب اليمين ، فقال :

-أتوسل إلى الحزب الذى يقاطعنى فى المجلس أن يدرك جيداً أننى لا أطمع فى أسقفية .

ولقد خاض « ميرابو » أروع معاركه الخطابية عند وضع الدستور .

كانت الجمعية الوطنية تسيء الظن بالملك ، فأخذت تحرمه فى مشروع الدستور من كثير من الحقوق التى تعتبر عادة من اختصاص السلطة التنفيذية ، وثار الخلاف فى الجمعية حول حق إعلان الحرب ، فكان من رأى « ميرابو » أن يكون هذا الحق للملك ، وأخذ يدافع عن رأيه متسائلا كيف يستطيع سبعمائة من النواب أن يقطعوا برأى سليم فى موضوع إعلان الحرب . ألا يكون من أثر الحماس الملازم لكل مناقشة حول الكرامة الوطنية ، أن تندفع الجمعيات الشعبية دائماً إلى إعلان الحرب؟ أما إذا ترك الأمر للملك فإنه لن يعلن الحرب إلا بعد بحث هادئ يحيط بكل الظروف والاعتبارات . وقال :

ما الذى تخشونه من وضع هذه السلطة فى يد الملك ؟ لقد كانت روما جمهورية ومع ذلك قام فيها قيصر بحروبه ، وخرج هانيبال من صلب قرطاجنة ولم تكن ملكية ، وقد كانا من شياطين الحروب كما تعلمون . .

وصدمت الجمعية بهذه الآراء ، وأسرع زعماء نادى اليعاقبة يطلبون إلى « بارناف » أن يرد عليه ، باعتباره خطيباً شهيراً مجربا من أعضاء الجمعية ، وأشاعوا أن « ميرابو » قد خان الثورة وباع نفسه للملك ، ودعوا الشعب إلى سماع رد « بارناف » .

وألقى « برناف » خطبته فرد على ما قاله « ميرابو » وناقش أدلته وآراءه ، وهاجمه هجوماً عنيفاً ، ثم ختم خطابه فقال للتدليل على أن الملوك إذا

كانت لهم سلطة إعلان الحرب استخدموها فى غير صالح بلادهم :
– هل تعلمون أن « بركليس » عندما طالبته أثينا أن يقدم لها حساباً عن أموالها شغلها عن هذا الطلب بإعلان الحرب .

وغادر « بارناف » المنصة وسط عاصفة من التصفيق والهتاف وانتهت الجلسة وقد خيل إلى الجميع أن « ميرابو » قد انتهى .

وعلم زعماء اليعاقبة أن « ميرابو » سوف يرد فى اليوم التالى ، فحشدوا خمسين ألفاً من أهل باريس أحاطوا بالجمعية ليشهدوا خيانته للثورة ويشوشوا عليه . وعندما اعتلى « ميرابو » المنبر قوبل بالصياح والصفير ورفض النواب الاستماع إليه ، فظل مكانه محاولا أن يظفر منهم بالصمت ، ولما طال به الوقت صاح قائلاً :

– إن أصدقاء برناف إما أنهم يعتقدون أن خطبته من القوة والصدق بحيث لا يمكن الرد عليها وتفنيدها ، وإما أنهم يعتقدون أن من اليسير الرد عليها وهدمها . فإن كانت الأولى كان لى أن أتوقع من كرمهم ألا يخشوا ردى عليه ، أما إذا كانوا يعلمون أنها ليست فوق مستوى الرد فإن الواجب الوطنى يفرض عليهم بأن يفهموا الموضوع من جميع جوانبه حتى يكون قرارهم سليما .

وتهامس النواب وقد أحرجهم هذا التحدى ، ثم سمحوا له بالكلام . وبدأ كلامه هادئاً غير مكترث بما دبروه له ، فأخذ يقارن بين مظاهر التأييد المصطنعة التى أعدت لبرناف ، وبين ما دبر له من وسائل التهديد والتشهير قائلا :

– لقد أشاعوا أراجيف الرشوة والخيانة ، وتهددونى بانتقام الشعب ليقيموا دولة الآراء المستبدة . إن الذين احتفلوا بى منذ أيام وقدموا إلىّ

أكاليل المجد والفخار هم أنفسهم الذين ينادون اليوم فى الشوارع بخيانتى العظمى . . !

ثم تغير صوته وارتفع زئيره وصاح :

– أنا أعلم أن المسافة قريبة بين صخرة « تاربيان »[١] وبين الكابيتول ، بين المكان الذى رفعت لى منه راية المجد وبين الصخرة التى تنتظر الزعيم المتهم ، ولكن ذلك لن يخيفنى ، وسأخاطبكم كرجل لا يبالى بضربات الأيدى وتصفيقها ، ولا يعبأ بهمسات الألسن وإشاعاتها . إن ذلك كله لن يوقف تيار حياتى المتدفق ولن يعترض سبيلى .

ثم تناول موضوع المناقشة فقال متحدياً الجمعية :

– التزموا الصراحة وقولوا لا نريد ملكاً ، أما أن تقولوا نريد ملكاً ، ولكننا نريده عاجزاً غير نافع ، فهذا تناقض لا يمكن احتماله . هل لأن للملكية أخطاءها تريدون أن تمنعوا مزاياها عن الشعب ؟ أمن أجل أن النار قد تحرق فى بعض الأحيان تريدون أن تحرموا الناس من حرارتها وضوئها ؟ أجيبونى إن استطعتم ، ثم نادوا إن شئتم بعد ذلك بخيانتى وعارى . . !

ومضى « ميرابو » يستعرض خطاب « بارناف » ويرد على ما قاله فقرة فقرة ، وكلما انتهى من الرد على إحدى حججه قال :

أية قيمة لهذه الحجة ؟ أجيبونى . . إنكم لا تجيبون . . وإذن سأستمر . واستمر « ميرابو » يناقش خطاب « بارناف » ويمزقه إرباً بمنطق قوى وبلاغة رائعة ، وشجاعة لا تحفل بالخطر ، ثم أنهى خطابه قائلا :

---

(١) الصخرة التى كان يلقى الرومان من فوقها الخونة بينما يحتفلون فى الكابيتول بالقائد المنتصر .

–إن « بارناف » لم يتكلم فى الموضوع ولم يمسه ، ولكنه كان يستثير عواطفكم . لقد أراد أن يثبت لكم أن الحكومات قد تحاول أحياناً الحرب من المسئولية فيعلن ملوكها الحرب ليشغل بها الناس فضرب مثلا بالحرب التى أعلنها « بركليس » حتى لا يقدم حساباً طلب منه . ولقد خيل لكم وأنتم تستمعون إليه أن « بركليس » هذا كان ملكاً من الملوك الطغاة أو وزيراً مستبداً ، ونسى الجميع أن «بركليس» كان رجلا يعرف كيف يتملق عواطف الجمهور ويظفر بتصفيقه عندما يعتلى المنبر . وبهذا أمكنه أن يظفر بالتأييد لإعلان الحرب على البليبونيز . هل تعرفون تأييد من الذى كسبه لكى يعلن الحرب ؟

وتوقف « ميرابو » وتفرس فى الوجوه المرتفعة نحوه قبل أن يقول :

أتعرفون من الذى أيده ووافقه على إعلان الحرب ؟ إنها الجمعية الوطنية لأثينا . . . !

وهنا بلغ « ميرابو » ذروة التأثير وأحس الأعضاء بالوخزة التى وجهها الخطيب إلى الجمعية ، وفهموا من عبارته أن الجمعية قد تعلن الحرب يوماً بتأثير خطيب مثل بركليس . وخرج « ميرابو » ظافراً بثقة الجمعية وأصواتها . قال « بارتو » يصف هذه الخطبة فى كتابه عن ميرابو .

–إن ما قاله ميرابو لا يمكن تلخيصه . وإذا فتشنا فى تاريخنا الخطابى عن خطبة توازى خطب الفحول القدماء من رجال أثينا وروما بل تفوقها قوة إلقاء ، وروعة أداء ، وشرف استلهام ، وحسن توفيق فى اختيار العبارات والألفاظ بلغ حد الإعجاز ، فلن نجد سوى هذه الخطبة التى تعتبر نموذجاً للكمال ، ولا تزال كلماتها ومعانيها تنبض بالحياة .

* * *

ولقد طمع الملك لويس فى أن يجتذب « ميرابو » إلى صفه ، وقابلته الملكة مارى أنطوانيت ، ودفع القصر عنه ديونه ، وتراءى للناس فى صورة من باع نفسه للقصر ، ولكن « ميرابو » لم يكن ليفرط فى عقيدته بمال فكانت آراؤه فى الجمعية الوطنية صادرة عن اقتناع وإيمان عميق بما يقول ، فقد كان يتمنى أن يقوم فى فرنسا حكم ملكى ديمقراطى على غرار النظام الإنجليزى الذى شاهده عند زيارته لبريطانيا .

وقد شعرت الجمعية الوطنية بتقرب القصر إليه ، ولكن أحداً من أعضائها لم يجرؤ على مواجهته بذلك ، غير أنها أغلقت فى وجهه الطريق إلى الوزارة ، فقررت عند وضع الدستور أنه لا يجوز أن يتولى الوزارة أحد من أعضائها .

ولقد حاول « ميرابو » عبثاً أن يمنع وضع هذا النص فى الدستور حتى لا تحرم البلاد من الكفاءات التى تضمها الجمعية ، وقال :

— إنكم تريدون إذن أن يتخذ الملك وزراءه من حاشيته وبطانته ، بدلاً من أن يختارهم من نواب الشعب الحائزين لثقته ؟ !

وقال ساخراً :

— يكفيكم أيها السادة أن تجعلوا قراركم هذا مقصوراً على كونت ميرابو .

ومع ذلك فقد عرف الشعب له فضله وآمن بإخلاصه ، فرفعه إلى أعلى مقام لديه ، فاختاره فى أواخر عام ١٧٩٠ رئيساً لنادى اليعقوبيين .

ولعل أروع وصف لميرابو الخطيب هو ما كتبه شاعر فرنسا الكبير فيكتور هيجو ، قال :

—ميرابو يتكلم . . هذا هو الماء يجرى ويتدفق ، هذا هو الموج يرغى ويزبد ، بل تلك هى النار تقدح بالشرر . لا مائدة ولا أوراق ، ولا محبرة ولا أقلام ، ولكنه الرخام يهوى عليه بضرباته ، ودرجات المنصة يهرول عليها جارياً . المنصة . . ؟ ! لا . . بل قفص من أقفاص الوحوش الضارية يروح فيه ويغدو ، ويسير ويتحرك ، ويقف ويلهث ويزأر . يشبك ذراعيه ، ويضم قبضتيه يجمل الكلام بإشاراته الموقعة ، ويضيء أفكاره بنظراته المعبرة . وجمهور حاشد يكره الخطيب ، هم أعضاء الجمعية الوطنية ، لكن يحيط بهم جمهور آخر أعظم منهم يحبه ، ذلك هو الشعب . ومن حوله عقول كبيرة ، وأرواح عظيمة ، وشهوات ومطامع وطبائع متباينة يعرفها ويضرب عليها فيخرج منها النغمة التى يريدها بيد ماهرة ، وريشة قادرة . ومن فوقه قبة الصالة الكبرى ترتفع إليها عيناه كأنه يستنزل من سمائها وحى الفكرة ، فتنزل الأفكار من تلك القبة العظمى فوق تلك الرأس العظمى . هذا هو ميرابو فى مكانه ، بل تلك هى البذرة الصالحة فى أرضها .

* * *

فى يناير ١٧٩١ انتخبت الجمعية الوطنية «ميرابو» رئيساً لها ، وظل الخطيب العظيم يعتلى المنصة ويدلى برأيه فى الموضوعات التى تبحثها الجمعية . ولكن الجهد العنيف الذى بذله خلال عامين حافلين بالأحداث ، والإرهاق المتصل الذى تعرض له خلال كفاحه ، أنهك صحته ، فسقط مريضاً فى مارس من ذلك العام ، ولم يلبث أن فارق الحياة فى الثانى من أبريل عام ١٧٩١ وفقدت الثورة رجلها

الكبير الذى كان لها بمثابة صمام الأمن يفل من غربها ويطامن من غلوائها . وفقدت الملكية نصيرها العظيم الذى كان قادراً على إنقاذها . وكان ميرابو أول من دفن فى البانثيون من العظماء .

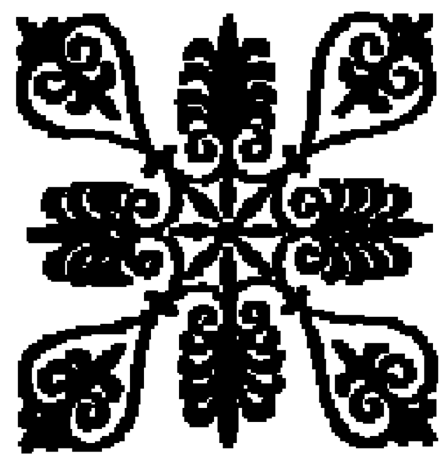
وقد قيل عنه إنه قسم حياته شطرين ، شطراً للهوى وشطراً للثورة ، فكانت حياته ثورتين ، ثورة للشباب ، وثورة للحرية ، فقضى حياته كلها ثائراً(١) .

---

(١) محمد صبرى أبو علم « الخطابة والخطباء » فى البلاغ الأسبوعى .

وليم پت الكبير

« لقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً »
« ولكنها أخرجت فى نهاية الأمر للعالم رجلاً »
فردريك الأكبر



وليم پت الكبير

قال عنه « ماكولى » أكبر ناقديه : « لو فتشنا بين العظماء الذين تجاور عظامهم فى التراب عظامه فلن نجد من يفوقه نبالة اسم وطهارة ذكر . . » .

وقال عنه فردريك الأكبر : « إنه أعظم رأس فى إنجلترا » .

وقال عنه لورد بروكهام : « هو الخطيب الذى لم يعرف المنبر له مثيلا ، والسياسى عندما يصيب أكبر حظ من التوفيق . . »

ويعتبر المؤرخون « وليم بت الكبير » واحداً من بناة الإمبراطورية البريطانية فى القرن الثامن عشر .

ولد وليم بت فى نوفمبر عام ١٧٠٨ ، وكان جده لأبيه حاكماً لمقاطعة مدراس فى الهند ، فهو من أسرة غنية محترمة . وكان أبوه « روبرت » عضواً فى البرلمان ، فلما توفى ورث ابنه الأكبر « توماس » المال والعقار فلم يبق لوليم إلا الشيء اليسير .

وتلقى « بت » علومه فى مدرسة « إيتون » ثم التحق بجامعة اكسفورد ، ولكنه كان يعانى من مرض النقرس ، فنصحه الأطباء بالسفر إلى فرنسا وإيطاليا للعلاج ، فقطع دراسته قبل أن يحصل على درجة علمية .

وعندما توفى أبوه التحق فترة بالجيش ، ثم تركه ليلقى بنفسه فى خضم الحياة السياسية . وفى عام ١٧٣٥ دخل مجلس العموم وهو فى

السابعة والعشرين عن عمره .

وقضى « بت » الدورة البرلمانية الأولى وهو لايكاد يفتح فمه . ولاشك أنه كان خلال هذه الفترة يدرس الحياة السياسية ويحاول أن ينفذ إلى أسرارها وخباياها ، وأن يلم بألاعيب الأحزاب ومناوراتها ، كما يفعل المحارب الذكى عندما يدرس أرض المعركة ويتعرف إلى أبعادها وطبيعتها قبل أن يخوض غمارها .

وقد أزعج « بت » ما تبينه من فساد الحياة السياسية ، وهاله أن يرى أصوات الأعضاء تشترى بأموال المصاريف السرية ، فتحفز للنضال والهجوم على وزارة « والبول » الذى كان على رأس الحكم .

وعندما ألقى « بت » خطابه الأول فى مستهل دورة المجلس عام ١٧٣٦ أدرك الجميع أنهم أمام قوة جديدة ، واستولى على انتباه الأعضاء واهتمامهم فصاروا يصغون إليه بإعجاب وشغف كلما هم بالكلام .

وحاول « والبول » رئيس الوزراء أن يرهب الشاب الخطيب أو يكمم فمه فعمد إلى السخرية منه معيراً إياه بحداثة سنه ، فوقف « بت » وارتجل تلك الخطبة الرائعة الساخرة التى تناقلها الناس والتى قال فى مطلعها :

— مع الاحترام العظيم للشعور الرمادية التى تزين رءوس حضرات الأعضاء المحترمين . . .

وعند ذلك نزع « والبول » جديلة الشعر المستعار من فوق رأسه فظهر شعره الرمادى فضج المجلس بالضحك ، واستمر « بت » يقول :

إن جريمة حداثة السن ، هذه الجريمة الهائلة التى راق لرئيس

الوزراء أن يقذفني بها في خفة ورشاقة . لن أحاول إنكارها أو تخفيف أثرها . إذ يكفيني أن أتمنى لنفسي أن أكون من أولئك الأحداث الذين ينتهي حمقهم بانتهاء حداثتهم لا من أولئك الذين كلما امتدت بهم السن زاد جهلهم وكبر حمقهم برغم طول التجارب . وسواء كان الشباب جريمة يحاسب عنها المرء . فلن أشغل نفسي بالتحري عن هذا الأمر أو تحقيقه . فلا جدال في أن الشيخوخة تجلب السخرية إذا كانت التجارب التي ساقتها تمر من غير أن تثمر . وإذا كانت الرذيلة تتغلب عندما تنطفئ جذوة الشباب . إن من ارتكب كثيراً من الأخطاء والآثام ورأى نتائجها ولا يزال برغم ذلك يقارف كل يوم إثماً جديداً . وكلما امتد به العمر جمح إلى العناد حمقاً وغباوة . يستحق منا كل سخرية واحتقار . ولن يحميه شعره الرمادي من سخطنا . . !

وهكذا عرف الخطيب الشاب كيف يرد الصاع صاعين . ويصب غضبه وسخريته على رأس رئيس الوزراء الذي جلس يترنح من قسوة الخطيب الجريء .

ومضى « بت » يشق طريقه صاعداً إلى ذروة الشهرة بفصاحته ومقدرته الخطابية التي نضجت بالممارسة والمران . ولم يكن ينتسب إلى حزب . فتحرر من الالتزام الحزبي الذي يفرض عليه الدفاع عن أشياء قدلا يؤمن بها . فلم يكن يتكلم إلا بوحي من ضميره واقتناعه . دفاعاً عن حق أو هجوماً على تصرف خاطئ . وكان يقول :

— لقد جئنا إلى هذا المجلس بقوة الشعب وسلطانه .

ووقف يحول بين الأحزاب ومحاولة العبث بالدستور . فعلمها

كيف تجمع على احترام الدستور وتقديسه . قال مرة لأعضاء المجلس :
— إذا كان مقدراً أن يصاب الدستور ، فأرجو ألا توجهوا إليه الطعنة في هذا الظلام الشامل وفي جوف هذا الليل الحالك .

وسرعان ما أصبح « بت » خطيب البرلمان الأول غير منازع ، تحسب الوزارة له ألف حساب ، وتتودد إليه المعارضة ، ويرهف الأعضاء أسماعهم مبهورين إذا وقف للكلام .

ولقد كان « بت » خطيباً عظيماً .

وهبته الطبيعة في سخاء كل ما يحتاج إليه الخطيب ، فكان طويل القامة ، رشيق الحركة ، يوحي منظره بالسيطرة والتحكم . أما عيناه فكانتا كعيني النسر اتساعاً وتحديقاً ، ينبعث منهما شعاع يثير الرهبة . وصوت رائع واضح النبرات ، إذا انخفض كان حلواً رقيقاً حافلاً بالأنغام ، وإذا ارتفع ملأ المجلس دوياً ، وهو في الحالين يعرف كيف يستخدمه لإحداث التأثير المطلوب .

قال عنه « ماكولي » الناقد الكبير :

عندما ظهر في البرلمان خطيباً لأول مرة ، بدا شكله رائعاً ، نبيلاً ومتحكماً ، والنار تنبعث من عينيه . وكان صوته إذا تكلم هامساً يسمع بوضوح من أقصى المقاعد الخلفية . أما إذا علا وارتفع فكان يجلجل في المجلس كأنه صوت أرغن ضخم في كاتدرائية كبيرة ، وكان يسمع في أروقة المجلس وتصل أصداؤه العالية إلى بهو وستمنستر .

وقال عنه ناقدوه بأنه كان يلجأ إلى الحركات التمثيلية في خطبه ، حتى لقد كتب « ماكولي » يقول :

—لو صعد « بت » خشبة المسرح لكان خير من يمثل دور بروتس .

والواقع أن الخطيب الناجح يحتاج إلى شيء من التمثيل الذى يعاونه على تلوين صوته وتجميل إشارته والاحتفاظ بانتباه السامعين والتأثير فيهم .

وكان « بت » خطيباً مرتجلاً ، فلم تكن خطبه خطب الأديب الذى ينمق كلامه ، بل كانت وحى الساعة ، وإلهام الظروف ، فإذا وقف منفعلا بفكرة تدفق كالسيل وتفجر كالينبوع ، وانطلق يصوغ أفكاره وخواطره فى عبارات تستعير من النار حرارتها ومن البلاغة جلالها وسحرها .

وقد قال عنه نقاده إنه لم يكن يملك زمام نفسه إذا وقف للكلام ، فلم يكن يعرف إلى أى مدى ينتهى به تدفقه الخطابي . وقال « ماكولى » :

— إن « بت لم يكن سيداً لخطابته بل كان عبداً لها » .

وقال « بت » نفسه مرة للورد شلبورن عند مناقشة موضوع حساس كان يعرف أسراره الرسمية :

— يجب أن أجلس صامتاً ، لأننى عندما أقف للكلام تتبادر إلى شفتى كل خواطرى .

وصفه اللورد « روزبرى » فقال :

— عندما قام « بت » خطيبـــاً فى المجلس استولى عليه صمت عميق ، وحبس الأعضاء أنفاسهم وهم يتابعون كلامه ، وهو ينتقل من استهلال بارع مؤثر فياض بالذكريات الممتعة ، والقصص الزاهية ، إلى تهكم مر وسخرية قاتلة ، كان يهمس فإذا همساته تهديد ، ويصرخ

فيلقى الرعـــد والوعيد . وتحسب الأعضاء من فرط الانتباه فى أثنـــاء كلامه ، وقد سكتت حركاتهم وانحبست أصواتهم ، كأنما قد أصابهم الشلل أو انعقدت ألسنتهم من خمر حديثه .

وقال عنه لورد « تشسترفيلد » الخبير بأساليب الكلام :

-كانت هجماته صادقة مخيفة ، وكان إلقاؤه وأداؤه وتحفزه للنضال يخيف أكبر الخطباء استعداداً لمجادلته ، فكان خصومه يلقون أمامهم سلاحه .

* * *

ومضت أعوام ونجم الخطيب الشاب يعلو ويلمع ، على حين أخذت المتاعب والاضطرابات تهدد الإمبراطورية البريطانية فى أكثر من مكان . وبدأت الأشتباكات بين الجيوش البريطانية فى الهند وكندا وبين الجيوش الفرنسية . وأخذت أنباء الهزائم تأتي من الشرق والغرب ، وكان أفجعها فقدان بريطانيا لجزيرة « مينورقا » . واشتعلت النار فى المستعمرات البريطانية التى لاتغرب عنها الشمس ، وفرض فردريك الثاني الصلح على حليفته بريطانيا وكان صلحاً مخزياً

وأحس الجميع بضعف الحكومة وعجزها عن مواجهة الأحداث الجسام وسقطت وزارة « والبول » وجاء الملك بوزارة أخرى اشترك فيها وليم بت وزيراً وزعيماً للمجلس النيابى ، ولكنها لم تدم فى الحكم سوى خمسة شهور .

ويقول « ماكولى » فى كتابه الذى ترجم فيه لحياة بت :

— فى ذلك الوقت كان بت بغير مركز أو لقب . وبغير ثروة . وكان مكروهاً من الملك جورج الثانى . مكروهاً من الطبقة الارستقراطية والرأسمالية . ومع ذلك فقد كان يبدو أهم شخصية فى الدولة .

وكان يرى بلاده تهان وتنهال عليها الهزائم برغم مواردها العظيمة . ويعتقد أن موارد الإمبراطورية لو وجدت من يحسن استخدامها بحزم وقوة . فسوف يتغير الأمر . وكان يقول فى ثقة بنفسه وقدراته :

— إننى واثق من قدرتى على إنقاذ هذه البلاد ، وأن لا أحد سواى يستطيع ذلك .

وفى عام ١٧٥٨ وجد الملك نفسه مضطراً إلى دعوته للحكم ، حيث تولى الإشراف بنفسه على الشئون الخارجية وشئون الحرب .

وما كاد « بت » يتولى الحكم حتى قال :

— أريد أن أبعث إنجلترا من حالة العجز واليأس التى جعلتها تنهزم أمام عشرين ألف جندى فرنسى .

ومضى « بت » ينفخ من روحه فى البلاد كلها ، ويبث فى الجميع الثقة والأمل ، حتى قال عنه خصمه « والبول » :

— لقد بث الحياة فى مجالسنا ، وبعث فى نواحيها روح النشاط . وحارب الخمول واليأس ، ورفع لإنجلترا أعلام النصر .

وقال أحد القواد العسكريين :

— ما دخلت مكتب بت إلا وخرجت منه أقوى عزماً وأثبت جأشاً وأشد إقداماً .

ولم تكد تبدأ سنة ١٧٥٩ حتى تحولت هزائم بريطانيا إلى انتصارات

فى كل مكان . لقد توالت الهزائم قبله على الجيوش البريطانية فى بروسيا والهند وكندا ، ولكنه لم يكد يتسلم زمام الأمر حتى أنساها الهزائم ، وكان سقوط «كويبك» يوم اجتماع مجلس العموم فى مستهل عام ١٧٥٩ قمة الانتصار ، فقابله المجلس بمظاهرة رائعة من الهتاف والتصفيق .

وجاء عام ١٧٦٠ والانتصارات يتلو بعضها بعضاً ، فقد سقطت «مونتريال» فى يد الإنجليز ، وارتفع العلم البريطاني على جميع أرجاء كندا ، ولحقت الكوارث بالأسطول الفرنسى على الشواطئ الأوربية والأمريكية ، واستطاع «بت» أن يوطد أركان الإمبراطورية البريطانية فى الهند وأمريكا .

فى ذلك الوقت قال فردريك العظيم وقد راعته عظمة «بت» :

ـــ لقد أجهدت إنجلترا نفسها وقاست كثيراً ، ولكنها أخرجت فى نهاية الأمر للعالم رجلا . .

وكان «بت» يمضى فى طريقه مؤمناً بقدرته ، يشتعل حماسة ونشاطاً برغم مرضه ، محتقراً لوسائل الرشوة والفساد التى كان يعتمد عليها الساسة فى زمانه لتحريك أداة الحكم ، عظيم الكبرياء ، شديد الترفع ، متسامياً عن المادة والأنانية الشخصية .

دعى مرة إلى القصر الملكى فقال :

ـــ لن أذهب إلى القصر إلا إذا وثقت من أننى سأعود ومعى الدستور نافذاً محترماً .

وفى أكتوبر عام ١٧٦٠ توفى جورج الثانى وتولى العرش الملك الشاب جورج الثالث .

وبدأت أحداث جديدة تتوالى ، وعقدت فرنسا معاهدة سرية مع أسبانيا فأعلن « بت » أنهما يستعدان لمهاجمة بريطانيا ، واقترح إعلان الحرب فوراً على أسبانيا ، ولكن رأيه لم يؤخذ به ، فانسحب من الحكم والوزارة . وعرض عليه الملك أن يعينه حاكماً عاماً لكندا ، ولكن « بت » رفض العرض برغم مرتب المنصب الكبير .

وبرغم اعتزاله الحكم فقد ظل « بت » معبود الشعب

حدث أن أقيمت فى جيلد هول مأدبة عشاء تكريماً للملك وعروسه دعى إليها بت . ويروى « ماكولى » ما حدث فيقول :

إن الملك الشاب قد تلقى فى تلك الليلة درساً ، فقد كانت كل العيون منصرفة عنه إلى الوزير المستقيل . وعندما مرت عربة « بت » فى الشوارع انفجر هدير من الهتاف له من الجماهير المحتشدة بالطريق وعلى الشرفات . ولوحت له النساء بمناديلهن من النوافذ . واندفع الناس نحو عربته يقبلون الخيل التى تجرها . . ! وارتفع الهتاف من كل مكان « بت إلى الأبد . . » .

* * *

انسحب « بت » من الحياة السياسية الرسمية ، واشتد عليه مرض النقرس فألزمه الفراش . وتولى الحكم وزراء لم يحسنوا التدبير ، وفرضت الحكومة على مستعمرتها الأمريكية ضرائب فادحة أيقظت الفتنة النائمة فى العالم الجديد وكانت الشرارة التى أشعلت حرب الاستقلال الأمريكية . وكان من رأى « بت » أن من حق أمريكا أن تقرر بنفسها الضرائب التى تفرض عليها . وفى يناير من ١٧٦٦ ذهب إلى مجلس العموم ليشترك فى

مناقشة خطاب العرش الذى كان قد استعرض حالة أمريكا .

وقال بت فى خطبة شهيرة ارتجلها فى تلك المناقشة :

– لقد طال غيابى عن هذا المجلس الموقـر ، وكان فراش المرض يضمنى عندما صدر القرار الخاص بفرض الضرائب على أمريكا . ولوكنت أستطيع فى تلك الوقت أن أحتمل النقل من فراشى لالتمست يداً محسنة كريمة ترفعنى من فراش المرض إلى هذا المجلس لكى أسمعكم صوتى . إننى أعلم أن قراركم قد أصبح قانوناً ، ويجب أن أتكلم باحترام عن القوانين التى تصدر عن هذا المجلس ، ولكننى مع ذلك أرجو أن تسمحوا لى بالتحدث عن هذا القانون ، لأنكم تملكون مع ذلك إعادة النظر فيه إذا تبين لكم وجه الحق .

ومضى « بت » يسوق الدليل تلو الدليل على أن فرض الضرائب على المستعمرات لا يدخل فى سلطة الحكومة المركزية ، وليس من اختصاص البرلمان ، لأن الضرائب منحة يقدمها الشعب إلى الحاكم ، ولا يعقل أن يقدم الإنجليز لملك بريطانيا أموال أمريكا منحة من غير رضاها . ورد عليه رئيس الوزراء مستنكراً مهاجمة قانون أصدره المجلس ، فقال بت :

—لقد تكلم كثير من الخطباء ضد هذا القانون بحرية عدها البعض جريمة . وإنى ليؤسفنى أن تعتبر حرية القول فى مجلسكم هذا جريمة !

ولكن هذا الاتهام لن يرهبني ، لأنه يلذ لى أن أمارس هذه الحرية وأتمتع بها إلى آخر حدودها .

يقول رئيس الوزراء إن أمريكا عنيدة ، وإنها فى شبه ثورة وإنه ليسعدنى

أن أسمع أن أمريكا تقاوم . فلو أن الملايين الثلاثة الذين يقيمون فى أمريكا من الأنجلو ساكسون ماتت فيهم كل عواطف الحرية ، وقبلوا أن يساموا الخسف كالعبيد . لأصبحوا آلات صالحة لأن تجعل من بقية هذا الجنس عبيداً أذلاء .

إن العضو المحترم يتساءل متى انفصلت أمريكا عنا ؟ فليسمح لى أن أسأله بدورى : متى كانت أمريكا عبداً لنا ؟ !

لقد تحدثوا عن أمريكا وثرائها ومبلغ سعادتها ، وهذا حديث غير مأمون ، إننى أعلم أن بريطانيا تستطيع أن تقضى على أمريكا وتهزمها فى حرب شريفة ولو قدر لنا أن ننتصر فى معركة لتأييد هذه الضرائب فسيكون انتصارنا محفوفاً بالمخاطر . إن امريكا إذا سقطت فإنها تسقط كما سقط شمشون الجبار . إذ تقبض بيديها على أساس الدولة وأعمدتها ، وإذ ذاك يتداعى وينهار معها كل بنائنا الدستورى . فهل هذا هو السلام الذى تريدونه ؟ سلام يغمد فيه سيفكم ، لا فى قرابه ، بل فى صدور أبنائكم . . ؟ !

لقد ظلمنا الأمريكيين ودفعناهم إلى الجنون ، فهل تريدون أن تعاقبوهم على جنون أنتم سببه ومصدره ؟ فليسمعوا صوت العقل والحكمة والاعتدال من جانبنا ، وأنا كفيل بأن أمريكا سوف تقابلنا بالمثل » .

وقد نجح « بت » فى إلغاء القانون بعد الصراع العنيف الذى خاضه فى مواجهة الحكومة وأغلبية البرلمان .

وسقطت وزارة « روكنجهام » ودعى « بت » لتشكيل الوزارة ، ومنحه الملك لقب إيرل ، ففقد مقعده فى مجلس العموم ، وأصبح عضواً فى مجلس اللوردات باسم « إيرل شاتام » الذى عرف به فى التاريخ .

ولكن المرض عاوده واشتد عليه فتخلى عن الحكم وابتعد عن الحياة العامة أكثر من ثلاثة أعوام حتى ظن الجميع أنه قد اختفى إلى الأبد .

ولكنه عاد فجأة إلى البرلمان مرة أخرى . كانت الحكومة البريطانية قد عادت تصب غضبها على أمريكا وترسل القوات لإخضاعها ، فتحامل « شاتام » على نفسه وذهب إلى مجلس اللوردات ليقول كلمته فى سياسة الحكومة .

وصف « ماكولى » ظهوره الفجائى فقال :

عاد عودة مفاجئة وكأنما قد بعث حياً . لقد اعتاد الناس أن يتكلموا عنه كما يتكلمون عن الموتى ، فلما ظهر لهم عند افتتاح الدورة فى حاشية الملك اضطربوا كأنهم يرون شبحاً . .

وعاد « شاتام » يدافع بحرارة عن أمريكا . وكان مما قاله :

— سوف أقوم بواجبى حتى النهاية ، ولن يقعدنى عن ذلك إلا المرض إذا ألصقنى بالفراش ومنعنى من الحركة . وسوف أظل أدق الباب على الوزارة الغافلة المرتبكة حتى أفتح عينيها على الخطر المحدق . إننى لا أطلب لأمريكا عطفاً أو رحمة بل عدلا وإنصافاً ، ولا أطلب إلغاء قوانين بل إلغاء آلامها ومخاوفها .

ثم ألقى فى وجه اللوردات بهذه النبوءة التى تحققت بعد أعوام فقال :

— سادتى اللوردات .

إننا لن نقدر على غزو أمريكا وقهرها ، وسوف نضطر فى النهاية إلى الانسحاب ، فلننسحب قادرين لا مرغمين . وسنضطر إلى إلغاء هذه القوانين الظالمة ، وسوف تلغونها بأنفسكم ، وأقسم لكم على ذلك بشرفى لو كنت

أمريكيًّا بقدر ما أنا بريطاني ، ورأيت جنود العدو تطأ بلادى لما وضعت سلاحى أبداً . . أبداً . . أبداً »

وكانت هذه الخطبة من أروع خطبه فى أعوامه الأخيرة وقد سمعها ابنه وليم بت الصغير الذى كان إذ ذاك فى السادسة عشرة من عمره وسمعها « لورد ستانهوب » فوصفها بقوله :

— سمعت قبل اليوم الفصاحة مجردة من الحكمة ، أو الحكمة خالية من الفصاحة ، ولكنى سمعتهما اليوم وقد امتزجتا فى خطبة شاتام » .

* * *

بينما كانت وطأة المرض تشتد على « شاتام » ، كانت الأحوال تزداد سوءاً فى أمريكا التى ثارت وأعلنت استقلالها عن بريطانيا . وساد الضعف والاضطراب أعضاء البرلمان والحكومة ، وتلفتت الأنظار نحو السياسى المريض تلتمس عنده الإنقاذ من الحالة السيئة .

وتقدم « لورد نورث » باستقالة الوزارة إلى الملك وأشار عليه باستدعاء شاتام .

ولكن شاتام أرسل إلى مجلس اللوردات يعلن أنه سيحضر جلسة يوم ٧ أبريل ١٧٧٨ ليدلى برأيه فى الاقتراح الخاص باستقلال أمريكا .

ويصف مؤرخه وناقده « ماكولى » عودته الأخيرة إلى البرلمان ، إلى الميدان الذى شهد مجده السياسى والخطابى ، فيقول إن أطباءه نصحوه بألا يغادر فراشه ولكنه لم يستمع إليهم ، وذهب إلى وستمنستر فى صحبة ابنه وليم بت وصهره لورد ماهون ، واستراح فى حجرة جانبية حتى بدأت المناقشة ، وعندئذ مضى يعرج إلى مقعده بالمجلس مستنداً إلى ذراعى رفيقيه . كان يرتدى

كمادته حلة من القطيفة السوداء ، وبيده عصاه ، وقد تهضم وجهه من الهزال حتى لا يكاد الناظر إليه أن يتبين من ملامحه سوى أنفه العالى المقوس وعينيه اللتين ما يزال يومض منهما بريق تلك النار القديمة .

وتكلم رئيس الوزراء ثم وقف شاتام وبدأ يتكلم بصوت غير مسموع ثم أخذت نبرات صوته فى الوضوح ، والمجلس يصغى إليه فى صمت وسكون عميق ، والأعضاء يحبسون أنفاسهم كى يلتقطوا كل كلمة تخرج من شفتيه .

ورفع إيرل شاتام إحدى يديه عن عصاه واتجه بعينيه نحو السماء وهو يقول . .

— أشكر الله الذى وهبنى القدرة على الحضور إليكم اليوم لأؤدى واجبى . لقد أصبحت شيخاً ضعيفاً يخطو نحو القبر ، وقد يكون اليوم آخر عهدى بكم ، ولكنى قمت من فراشى لكى أؤيد قضية بلادى .

ثم أخذ يصف الحرب الأمريكية ويتحدث عن شرورها والمسئولين عن إشعال نارها وقال :

— إنها نعمة من الله أن القبر لم يطبق بعد علىّ جوانبه ، وأنه ما زالت لدى القدرة لأرفع صوتى ضد تمزيق هذه المملكة الكريمة ، وإذا كان مقدراً لنا أن نسقط . . فلنسقط رجالا .

وكان الأعضاء يصغون إليه فى سكون رهيب ، وهم يشعرون أنه لم يعد يملك قواه ، وأنه يتحدث إليهم من عالم آخر ، كما لو كان شبحاً قد نفض عنه أكفان القبر .

ورد عليه دوق ريتشموند بلطف وأدب ، ولكنه لاحظ فى أثناء كلامه أن شاتام يتململ فى ضيق وألم شديد ، وعند ذلك قام شاتام ولكنه لم يستطع

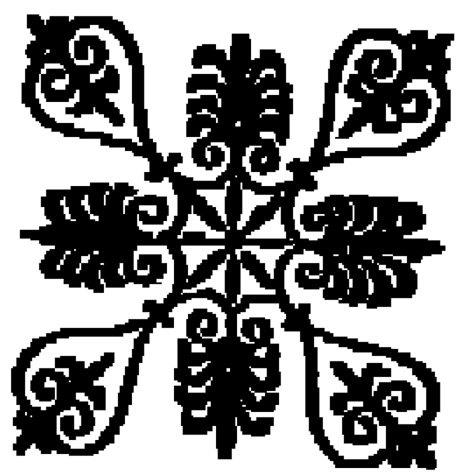
الكلام ورآه الأعضاء يضع يده على صدره ثم يسقط على مقعده . وأسرع لنجدته عدد من الأعضاء ، وانفضت الجلسة ، ونقل شاتام إلى دونتج ستريت ومنها إلى قريته حيث فاضت روحه .

وهكذا سقط الخطيب العظيم كما يسقط الجندى فى ميدان القتال ، وشاء القدر أن تكون نهايته على منبر البرلمان ، وهو ميدانه الذى عرف فيه النصر وحقق لنفسه مجداً خالداً على الزمان .

وليم بت الصّغير

« كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى »
« أجدها ، أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة »
« دائماً فى متناول يده ولسانه »

فوكس



وليم پت الصغير

اشتهر فى التاريخ باسم وليم بت الصغير ، تمييزاً له من أبيه وليم بت الكبير ، أو لورد شاتام الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق .

ولكنه لم يكن صغير القدر والمجد ، وإذا كان قد انتفع بالاسم الضخم الذى ورثه ، فقد بنى لنفسه بمواهبه وكفاحه مجداً أضخم كاد ينسى الناس مجد أبيه العظيم .

ولد فى عام ١٧٥٩ بين هالات المجد الذى تحيط بأبيه ، وفى السنة التى أسس فيها أبوه مستعمرة كندا ، وكان اسمه أرفع الأسماء وأعظمها فى بريطانيا .

وكان بت نحيلاً ضعيف الجسم ، فتلقى تعليمه فى المنزل تحت إشراف أبيه الذى أخذ يعده منذ طفولته للحياة العامة ، ويكلف بتعليمه أبرع الأساتذة ويلقنه أصول الخطابة .

وأخذ بت يطالع خطب الأقدمين من عهد ديموستين وشيشرون ، ويدرسها بعناية ، ويحفظ الكثير منها ، ويرددها أمام أبيه . وكثيراً ما كان يذهب إلى دار البرلمان ليشهد الجلسات الحافلة بالجدل الخطابى ، وليستمع إلى أعظم خطباء عصره ، وكأنه يتلقى دروساً عملية فى الخطابة والجدل البرلمانى .

ولم يدرك بت الصغير أيام والده فى مجلس العموم ، عندما كان يصول

على منبره ويجول ، ولكنه أدركه فى مجلس اللوردات ، عندما كان يعانى المرض ويقاومه بعناد .

وقد أحب وليم بت مجلس العموم وأخذ يعد نفسه ليكون من أعضائه وليشارك فى توجيه سياسة بلاده مترسماً خطى أبيه . وماذا ينقصه ؟ إن لديه الاسم اللامع والمقدرة الخطابية ، وقد قال « ماكولى » بحق: « إن إنجلترا يحكمها أقدر خطيب » .

وتوفى أبوه وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، فلما بلغ الحادية والعشرين نجح فى الانتخاب ودخل مجلس العموم ، وكان ذلك في يناير ١٧٨١ وهكذا دخل وليم بت المجلس الذى طالما ذهب إليه متفرجاً يعجب ببلاغة الخطباء ، ليصبح خطيبه اللامع ونجمه الساطع .

دخل المجلس ووزارة « لورد نورث » تهتز تحت ضربات المعارضة القوية وتواجه الهزائم المتلاحقة فى مستعمرتها الأمريكية ، وتكلم « بت » فلفت الأنظار وبهر الأعضاء ، وأعاد إلى الأذهان مواقف أبيه حتى قال أحد زعماء المجلس :

– إن بت ليس شبلاً لأبيه شاتام ، ولكنه الأسد نفسه ! .

وقال أحد الأعضاء لخطيب الأحرار وزعيمهم « فوكس » :

– إن هذا الغلام سيكون من رجال البرلمان المعدودين .

فقال له فوكس :

– إنه لكذلك من اليوم .

وسقطت وزارة « لورد نورث » ، وشكل « روكنجهام » الوزارة الجديدة وعرض على بت منصب وزير إيرلندا ، وكان منصباً وزارياً لا يسمح لمن

يشغله أن يكون عضواً عاملاً فى الوزارة . وقد أدهش بت الجميع عندما رفض قبول المنصب الذى كان يعد من غنائم الحياة السياسية ، والذى تولاه أبوه نفسه فى مستهل حياته السياسية ، وقال فى تعفف وكبرياء :

ــ إننى لا أقبل أن أكون مسئولاً عن أعمال وزارة لا أجلس بجانب أعضائها ولا أشترك فى مداولاتها ! . .

وضمت الوزارة الجديدة « فوكس » و« بيرك » ، ولكن روكنجهام » توفى بعد قليل ، ودعا الملك « شلبورن » لتشكيل الوزارة الجديدة التى رفض أن يشترك فيها « فوكس » و« بيرك » فاعتمد الرئيس الجديد على تأييد « بت » له فى مجلس العموم . ولكن فوكس اتفق مع خصومه السابقين ، وقام ائتلاف بينه وبين لورد تورث ، وهاجموا الوزارة حتى أسقطوها . ووجد الملك نفسه مضطراً إلى قبول وزارة ائتلافية ، ثم انتهز أول فرصة وأقالها ، وكلف وليم بت بتشكيل وزارة جديدة .

* * *

كان تكليف بت بتشكيل الوزارة حدثاً فريداً فى تاريخ السياسة البريطانية . شاب لم يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ليس له فى المجلس حزب يسنده ، ولم يسبق له أن تولى منصباً وزارياً ، يرأس وزارة بريطانيا العظمى ، بلد التقاليد المحافظة ، فى أواخر القرن الثامن عشر . . ! ! لهذا لم يكن غريباً أن يقول أحد الساسة المحترفين :

ــ أولاد يلعبون فى الوزارات ، وبعد قليل سوف يطردون منها ليعودوا إلى مدارسهم وتعود الحياة العامة لتجرى فى مجراها الطبيعى .

وثارت فى وجهه العواصف منذ اليوم الأول ، وكان خصومه يقابلونه

فى المجلس بالتصفير . وفى اليوم الثالث لتأليفه الوزارة استقال منها أحد كبار أركانها فهلل خصومه فرحاً وقالوا « لقد انتهينا من هذا الولد » . وعرض بت بعض المناصب الوزارية على أصدقائه فرفضوها اعتقاداً منهم بأن وزارته لن تعمر طويلاً .

ووقف « بت » وسط هذه الأعاصير صلباً رابط الجأش ، ثابت الجنان لم يفقد إيمانه وثقته بنفسه ، وهى صفات ورثها عن أبيه . واتجه نحو الشعب يتحدث إليه من فوق منبر مجلس العموم ، فيثير حماسته ، ويبث فيه الأمل فى حياة سياسية نظيفة ، ويبشره بالخلاص من ألاعيب الساسة المحترفين ، ويهاجم الفساد الذى استشرى فى أداة الحكم ، ويضرب بنفسه أروع الأمثلة العملية لما يجب أن يكون عليه السياسى المسئول . ومن خطبه فى تلك الفترة فى مجلس العموم خطبة رائعة قال فيها :

– إننى لم أكن شغوفاً بتولى الحكم أو متهالكاً عليه . ولن أتردد فى التخلى عنه إذا تراءى للشعب أن يستغنى عن خدماتى . ولقد كان أقصى غايتى فى المدة القصيرة التى قضيتها فى الوزارة أن أؤدى واجبى بكل مافى طاقتى من قدرة وقوة ، وبنزاهة وشرف كنت أستمد منهما القوة والثقة لمواجهة ما يعترضنى من عقبات . وأستطيع الآن أن أقرر بثقة تامة أنه لم تكن لى يوماً غاية لا تتعلق بمصلحة هذه الأمة .

ولكننى مع ذلك سأقلد العضو المحترم فى الصراحة التى زعم أنه اصطنعها فى كلامه ، فأعترف أن لى أيضاً أطماعى . إن المركز الكبير والنفوذ العظيم أشياء يتمناها معظم الرجال ، ولا أخجل من السعى إليها والحصول عليها . وطالما كان الحصول عليها بشرف ، والاحتفاظ بها بكرامة ،

فإننى لست أقل رغبة فى أن أكون قوياً وعظيماً مما هو طبيعى لدى أى شاب مثلى . ولكننى أتخلى عن هذه الأشياء كلها وأسحقها بقدمى فى اللحظة التى أرى فيها أن واجبى نحو أمتى يحتم على القيام بهذه التضحية . وحينئذ أنسحب إلى عزلتى ، لا خائباً بل منتصراً ، منتصراً باعتقادى أننى قد استخدمت مواهبى ، على تواضعها ، بكل قوة وحماس وبقدر ما أفهم ، فى سبيل النهوض بمصالح بلادى .

وقد اتهم بضعف الفهم ، أو الخطأ فى الحكم ، ولكن لا يمكن أن ينسب إلى أننى سعيت إلى مصلحة شخصية ، كما أنه لا يمكن أن ينسب إلىّ أى شىء يمس نزاهتى من قريب أو بعيد .

وعندما يحين الوقت الذى أتخلى فيه عن منصبى ، فلن تكون خطتى أن أزعج هذه البلاد وأهدد طمأنينتها ، فأتخذ من منبر هذا المجلس — كما يفعل غيرى الآن — ملجأ أحتمى به ، وأترايى بالغيرة على الصالح العام ، وأصيح متباكياً عليها ، وهم فى الواقع يندبون مطامعهم الخائبة .

وأحس خصومه بالوخزة القاسية فارتفع ضجيجهم فى المجلس ، ولكنه مضى فى خطبته ، وارتفع صوته مدوياً وهو يقول :

— إن من يشعر نحو أمته مثل شعورى ، ويتفانى فى خدمتها كما أفعل ، لا يهمه أن يكون فى الحكم أو خارجه ، وكل ما يهمه أن تراعى مصالح الدولة وأن تدار بحكمة ونزاهة .

إننى ألقى بمقاليد الحكم إلى من يستطيع السير بها أفضل منى ، وأخرج بغير حرب ، وبغير احتجاج . ولكنى أرجو أن يحملوا معهم إلى دور الوزارات المبادئ الوطنية الحقة التى تخلوا عنها عندما عادوا إلى صفوف

المعارضين . . ! ثم ختم خطابه موجهاً حديثه إلى الشعب خارج المجلس قائلاً :

—إننى أتجه إلى المستقلين فى هذا المجلس ، وأتجاوز حدود هذه القاعة فأتجه إلى الشعب عامة ، إذا لم يكن لطلب التأييد الذى تستحقه هذه الوزارة ، فعلى الأقل لتبرئتها من اللوم والنقد .

لقد كان كل همى أن أبذل ما فى وسعى لخدمة بلادى بشرف ونزاهة ، وكانت كل مشاعرى متجهة لخدمة الشعب ، وهذه المشاعر لا تزال تملأ نفسى وستبقى إلى الأبد تضطرم فى قلبى ، وسأعتز بها كأعظم تراث . على هذه المبادئ دخلت البرلمان وتوليت الوزارة ، وإني أشهد المجلس الآن على أننى لم أضطر يوماً إلى أن أخالف وعداً واحداً قطعته على نفسى للشعب .

إننى أضع نفسى الآن تحت تصرف هذا المجلس الموقر ، وكيفما كان قراره فإننى أقبله باغتباط . إنكم تستطيعون أن تجردوني من مظاهر السلطة وامتيازاتها لكنكم لا تستطيعون أن تحرموني من العواطف الحارة التى تجيش بها نفسى نحو مجد بريطانيا العظمى ، هذه العواطف الوطنية التى هى فخر حياتى ، والتى تكون شرفى ، وأستمد منها سعادتى ، والتى أعتقد أن الموت وحده يستطيع أن يطفئها وما دام هذا العزاء باقياً لى ، فإننى آمل أن أستطيع أن أنسى سريعاً ضياع النفوذ ، وضياع الثروة .

ومع ذلك فإن « بت » هزم مراراً فى التصويت ، وأزعج ذلك الملك الذى كان يؤيده فعاد إلى لندن وصرح له بحل مجلس العموم واستفتاء الشعب بإجراء انتخابات جديدة . ولكن « بت » رأى أن يتريت حتى يضمن كسب الرأى العام قبل الإقدام على هذه الخطوة ، ومضى يتحدى

خصومه المعارضين وفى مقدمتهم حزب الأحرار ، ويسلط عليهم نيران فصاحته . ويقدم الدليل بعد الدليل على نزاهته وطهارة يده . ومن ذلك أنه خلت وظيفة شرفية اعتاد أن يتقلدها رؤساء الوزارات لكى يستعينوا بمرتبها الكبير على التفرغ للخدمة العامة . وبرغم أن « بت » لم يكن غنياً ، بل كان مثقلاً بالديون ، فإنه تعفف عن قبول الوظيفة التى كان يقبلها غيره من الرؤساء ، وزهد فى آلافها الثلاثة وعين فيها سياسياً كان فى حاجة إلى مرتبها .

واستطاع وليم بت أن يمكن لنفسه فى قلوب الشعب ، وأن يقضى على الزوابع التى يثيرها خصومه ، فأصبح معبود الجماهير ، حتى إن مدينة لندن ، معقل حزب الأحرار ، أهدت إليه مفتاحها فى صندوق من الذهب . وذهب لتسلم الصندوق فى موكب حافل ، وأضيئت المدينة تكريماً له وهتف الشعب له فى كل مكان .

لقد وجد فيه الشعب نموذجاً جديداً لرجل السياسة والحكم لا يعتمد على المناورات الحزبية والألاعيب السياسية ، ولكنه يمضى إلى الخدمة العامة مسلحاً بنزاهة شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء ، وصراحة لا تعرف الالتواء ، وشجاعة فى الحق تترفع عن النفاق والرياء ، فتعلق بهذا الشاب النبيل ومنحه ثقته وحبه وتأييده .

وكان لهذا التحول فى الرأى العام صداه فى مجلس العموم ، فتسربت عوامل الضعف إلى صفوف المعارضة ، وانتقل بعض أعضائها إلى مقاعد مؤيدى الحكومة ، وأخذت الأحزاب الأخرى تفاوض فى الاشتراك فى الوزارة .

ورأى « بت » أن الفرصة قد حانت ليضرب ضربته القاضية ، وليواجه خصومه فى معركة فاصلة ، فحل مجلس العموم ، ودعا الشعب إلى انتخابات جديدة ، أسفرت عن هزيمة خصومه ، فقد انتزع منهم مائة وستين مقعداً ، وضمن لنفسه الأغلبية فى مجلس العموم .

وهكذا عقد له الشعب لواء النصر ، واستطاع « الولد » الذى ظن خصومه أنهم انتهوا منه ، أن يصبح رئيساً للوزارة نافذ الرأى والكلمة ، مؤيداً من الشعب والملك والبرلمان ، ولما يبلغ الخامسة والعشرين من عمره . وقدر لهذه الوزارة التى حسب خصومها أنها لن تعيش أياماً ، أن تمسك بأعنة الحكم فى بريطانيا أكثر من سبعة عشر عاماً حافلة بأشد العواصف الخارجية والداخلية .

* * *

بعد قليل اندلع لهيب الثورة الفرنسية وزمجرت عواصفها على الجانب الآخر من القنال الإنجليزى ، وأطاحت برأس ملك وملكة ، وخيف على إنجلترا من عدوى الجنون الذى يعربد فى باريس . ولكن بت وقف كالجدار الحائل بين بريطانيا والثورة المخيفة الحمراء ، وأعلن عليها الحرب ، وظلت إنجلترا تقاتل ثمانى سنوات دون أن تظفر بنصر .

وتمخضت الثورة الفرنسية عن نابليون بونابرت الذى مضى يدفع جنود الثورة ليجوس بهم خلال أوربا ينثر التيجان ويدك العروش ويضع الممالك تحت رحمته .

وأدرك « بت » الخطر الجديد فزاده ذلك إيماناً بضرورة الوقوف فى وجه المد الثورى الذى أخذ يزحف على خريطة أوربا ، وقدر له أن يقف

حياته كلها بعد ذلك على مقاومة هذا الخطر بعزم لا يلين وإيمان لا يتزعزع . كان يريد أن يؤمن الشعب البريطاني معه بفداحة هذا الخطر على مصالحه وعلى وجوده نفسه حتى يصمد فى وجهه ويكافح لتحطيمه .

وكانت عبقريته الخطابية أكبر سلاح له فى هذا المجال .

لقد أفرغت عليه الطبيعة كل مواهب الخطيب . صوت واضح مبين له رنين الفضة ، وقوام رشيق ؛ ووجه نبيل يوحى بالثقة ، وجبهة مرتفعة ، وحركاته كلها توحى بالترفع والاعتزاز بالنفس .

وقد نمت مواهبه بالدراسة والمران والممارسة . هيأه أبوه منذ صباه للبرلمان ، وشحذه للخطابة سيفاً قاطعاً . فلما أتيحت له الفرصة ظهر وبهر ، وجعل مقدرته الخطابية فى خدمة المنصب الرفيع الذى تولاه فى صدر شبابه .

دخل مجلس العموم فى عصر كان يفخر فيه بخطباء مشهورين من أمثال « فوكس » وشريدان ، وبيرك . وغيرهم ، ولكن الذين سمعوهم جميعاً يخطبون أجمعوا على أن بت كان يفوقهم ويتفوق عليهم .

قال عنه فوكس نفسه :

« كنت وأنا أخطب أبحث عن الكلمة حتى أجدها ، أما بت فكان يجد الكلمة المطلوبة دائماً فى متناول يده ولسانه » .

شهد له الجميع بأنه كان الخطيب المرتجل الذى يندفع كالسيل فى عبارة مرصعة الحواشى من غير استعداد ، لا يتوقف باحثاً عن كلمة أو مفتشاً عن عبارة بل كانت المعانى فى خدمته والألفاظ طوع لسانه .

وكان الوزير الوحيد الذى يقدم للبرلمان الميزانية من غير مذكرات

مكتوبة ، حتى قال عنه النقاد :

– إنه يستطيع أن يرتجل تلك القطعة السياسية الدقيقة المحرجة المعروفة فى النظام البرلمانى بخطاب العرش . . !

وكان إلى جانب قدرته الفائقة على الارتجال ، يعرف كيف يجعل نفسه مبهماً غامضاً ، وكيف يكون واضحاً مفهوماً عندما يريد . فعندما كان يريد أن يفهمه الناس كانت أعقد الموضوعات وأدقها وأكثرها غموضاً ، تكتسب من ذهنه الصافى وبيانه الناصع الوضوح والسهولة . أما إذا دعته الظروف إلى تعمد الغموض ، فكان يستطيع أن يخطب ساعات ولا يقول شيئاً ، ثم يغادر المنبر وقد أوهم السامعين أنه قال الكثير . اتهمه خصومه بالكبرياء والغرور ، وقال عنه « لورد روزبرى » :

– لقد كان فى طبيعته جفاء وبرود وصلابة ، يميل إلى تجنب الناس والابتعاد عنهم . ومن اللحظة الأولى التى وضع فيها قدميه فى البرلمان اعتاد أن يصعد المنبر بخطوات واسعة سريعة ثابتة ، ورأس مرتفع ، لا يتلفت يميناً أو يساراً ، ولا يلقى نظرة أو إيماء إلى أحد من الجالسين على جانبى طريقه ، وفيهم زعماء إنجلترا وأعيانها ! » .

ولكن « بت » لم يكن مغروراً ولا متكبراً ، وإنما كان يغلب عليه الكبرياء والترفع والاعتزاز بنفسه وبقدرته . كان يترفع عن المطامع والأهواء . الشخصية فى نزاهة نادرة المثال . حتى ألقاب الشرف كان يترفع عنها ، فرفض قبول وسام ربطة الساق الذى كان يتهافت عليه أكبر العظماء ، وبينما كان ينثر على غيره الأوسمة والألقاب ظل حتى مات يحمل لقب « مستر بت » .

هكذا كان « بت » السياسى والخطيب ، يقود سفينة الحكم فى بحر عاصف متلاطم الأمواج . ولقد صادفته المتاعب والهزائم ، ولكنه ما يكاد يستوى على المنبر ويرفع رأسه بكبرياء وعظمة ثم يتدفق بالكلام حتى يتسلط على القلوب ، ويبث فى أنصاره وخصومه روح الأمل والثبات .

وبفضل فصاحة « بت » تضاءلت المعارضة فى مجلس العموم حتى أصبحت فى عام ١٧٩٩ لا تزيد على خمسة وعشرين من الأعضاء .

* * *

بينما كان « بت » يؤلب دول أوربا على نابليون ، ويسعى إلى عقد المحالفات بينها لمواجهته ، ويمضى فى الحصار البحرى الذى فرضه على فرنسا ، كان نابليون ينتقل بسرعة من نصر إلى نصر ، وكان نجمه يعلو فى سماء فرنسا وأوربا . فأصبح القنصل الأول بعد « انقلاب برمير » الذى دبره ليكون الحاكم الحقيقى لفرنسا . وكان نابليون يعرض الصلح على إنجلترا ، ولكن « بت » كان يعارضه ويصر على محاربته اعتقاداً منه بأن نابليون لن يتوقف حتى يخضع أوربا كلها لسلطانه . وبدأ الخلاف يدب بين « بت » والملك ، وبينه وبين مجلس العموم ، فلما قدم إلى البرلمان فى عام ١٨٠١ مشروعاً لحكم إيرلندا لم يظفر بقبول المجلس ، تخلى عن الحكم .

وكانت صحة « بت » قد ساءت ، إذ كان المرض يمد إلى صدره سهامه القاتلة منذ الصبا ، فاعتزل الحياة العامة ، وانصرف إلى علاج نفسه ، ولم يشهد جلسات المجلس عامى ١٨٠٢ , ١٨٠٣ .

وفى خلال هذه الفترة تحققت ظنون وليم بت كلها ، فقد بدا واضحاً أن أطماع نابليون لن تقف عند حد ، وأخذت أحلامه تطوف بالجزر

البريطانية نفسها ، فأعد العدة لغزوها ، وحشد على الساحل الشمالى لفرنسا ثمانين ألفاً من الجنود ، وأمر بإعداد أسطول هائل من الناقلات للغزو المنتظر .

ورأى الجميع أن « بت » هو وحده القادر على إنقاذ البلاد ، وكان الرأى السائد أنه إذا استمرت وزارة « أدنجتون » فى الحكم فإن البلاد سوف تتعرض للضياع .

وعرض عليه « أدنجتون » أن يشترك فى الوزارة فرفض ، ثم عرض عليه أن يدخل الوزارة على أن يكون رئيساً لها فلم يقبل .

وفى مايو ١٨٠٣ كانت الحرب قد أعلنت رسمياً بين إنجلترا وفرنسا ، فذهب « بت » إلى مجلس العموم بعد غياب طويل ، وخطب خطبة دامت ثلاث ساعات وسط موجة عارمة من الحماس ، ورعد قاصف من الهتاف والتصفيق .

وسقطت وزارة « أدنجتون » ليشكل « بت » وزارته الثانية فى نفس اليوم الذى أعلن فيه نابليون نفسه إمبراطوراً على فرنسا .

وبدأ بين الدولتين صراع هائل لم ينته إلا بعد اثنى عشر عاماً فى واترلو . ولكن « بت » لم يشهد من هذا الصراع غير ثلاثة أعوام كانت كل ما بقى له من حياته القصيرة . ولقد كانت أعواماً سيئة له ولبلاده ، فقد كان نابليون يحقق خلالها انتصاراته الرائعة المذهلة ، غير أن بت لم يعرف اليأس ولم تتسرب إلى نفسه روح الهزيمة .

ولقد حاول عند تشكيل وزارته الثانية أن يضم إليها كل الرءوس الكبيرة فى إنجلترا ، ولكنه لم يوفق ، فاكتفى بتشكيل وزارة ضعيفة من أنقاض

وزارة « أدنجتون » كان هو كل شيء فيها ، حتى قيل إنها مؤلفة من « وليم » و« بت » . وسرعان ما أصيبت هذه الوزارة بضربة فى الصميم عندما اتهم « اللورد ملفيل » أقرب الوزراء إلى « بت » بتهمة خطيرة وحوكم أمام مجلس العموم . وانتهزت المعارضة الفرصة فحشدت جهودها وأصواتها ضد الوزير حتى انقسمت آراء الأعضاء وتساوت عند الاقتراع . وكان على رئيس المجلس أن يدلى بصوته للترجيح ، فأعلن رأيه بالإدانة ، وخرج « بت » من المجلس تحوطه شماتة المعارضين .

ولكن المخاطر التى كانت تستهدف لها بلاده كانت تشعل فى نفسه روح النضال ، فسعى حتى عقد التحالف الثالث ضد فرنسا كى يشغل نابليون عن غزو إنجلترا ، وجمع فى هذا الحلف روسيا والنمسا والسويد . وأسرع نابليون ليضرب الحلف الجديد ضربة قاضية ، فقد هاجم النمسا بسرعة مذهلة قبل أن ينجدها حلفاؤها ، وحاصر جيشها واضطره إلى التسليم فى ساحة « أولم » ثم دخل « فينا » وهرب إمبراطور النمسا محاولا جمع فلول جيشه والاستعانة بحليفه قيصر روسيا لاسترداد عاصمة بلاده . وبدأت أخبار هذه الهزائم تخط سطور الموت على وجه « بت » الذى أنهكه المرض ، وحاول أن يتجلد ، ثم أسعفه القدر بنصر رائع أنسى الناس مرارة الهزيمة فى « أولم » . ذلك أنه فى يوم ٢١ أكتوبر ١٨٠٥ كانت موقعة الطرف الأغر البحرية التى حطم فيها « نلسن » الأسطول الأسبانى الذى كان يتجمع لمساعدة نابليون فى مشروعه لغزو بريطانيا. وقد قضى هذا النصر البحرى الحاسم على أحلام نابليون فى الغزو ، وأكد سيادة بريطانيا على البحار ، وأنقذها من أعظم الأخطار التى تعرضت لها .

ووقف « بت » فى مجلس العموم عند منتصف الليل يتلو بلاغات المعركة البحرية التى حققت فيها بريطانيا أعظم نصر بحرى ، وفقدت فى نفس الوقت أعظم قائد بحرى فى تاريخها .

وأقام محافظ لندن مأدبة غداء فى اليوم التالى لتكريم « بت » فقابله الشعب بحماس جنونى ، وجر عربته إلى « الجيلد هول » فى مظاهرة حافلة وشرب المحافظ نخبه كمنقذ لأوربا ، فرد عليه « بت » بكلمة موجزة قال فيها :

—أشكركم على ما أسبغتم على من شرف عظيم . إن أوربا لا ينقذها رجل واحد . فقد أنقذت إنجلترا نفسها بجهودها ، وسوف تنقذ أوربا بمثلها .

وكان المرض قد تمكن من جسم « بت » الضعيف ، الذى وهب حياته لبلاده ، فلم يتزوج لكى يكرس كل وقته وجهده للقضية التى وقف عليها حياته ، وقف فى الميدان كالطود الراسخ فى وجه العواصف الداخلية التى تثيرها المعارضة والسياسيون المحترفون من خصومه وحاسديه ، وفى وجه التحدى الكبير الذى كان يمثله نابليون ، وبعد شهر واحد من انتصار الطرف الأغر ، كانت موقعة « أوسترلتز » التى انتصر فيها نابليون على الجيشين الروسى والنمسوى ، انتصاراً خالداً جعل قيصر روسيا يتقهقر هارباً إلى بلاده ، على حين وقع إمبراطور النمسا فى الأسر ووقع معاهدة الصلح التى فرضها عليه نابليون .

وتلقى « بت » أنباء « أوسترلتز » وهو يستجم فى قريته ، وكان يتأمل خريطة أوربا المعلقة فى حجرته ، فقال لمن حوله :

–اطووا هذه الخريطة ، فلن يحتاج إليها أحد فى هذه السنوات ! . .

واشتد عليه المرض ، وزاره فى القرية « ولسلى » فأدرك أنه يقترب من نهايته ، وأبلغ الأمر إلى زعيم المعارضة ، فأجل مجلس العموم جلساته ، وأوقفت المنازعات الحزبية .

وفى صباح يوم ٢٢ يناير ١٨٠٧ دخل « بت » مرحلة الاحتضار ، ويروى أنه قال وهو يعانى سكرات الموت :

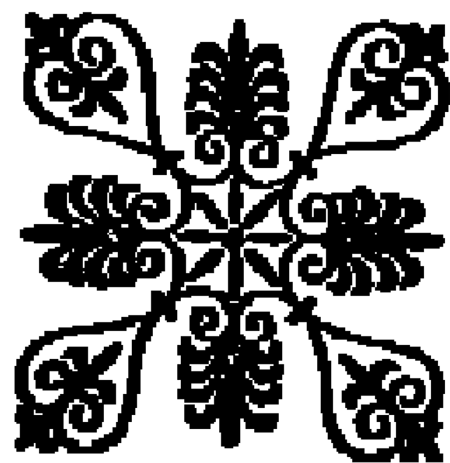
–بلادى . . . بلادى . . . ما أصعب فراقك ! .

ثم أسلم الروح .

عبد الله النديم

« رأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا » .

أحمد تيمور



عبد الله النديم

من حق عبد الله نديم أن يُعرف له مكانه من تاريخ الخطابة فى مصر . فقد كان فيها رائداً عرف فضلها ، والتفت إلى قيمتها فى الحياة العامة ، فدعا إلى الاهتمام بها ، وكان هو من فرسان حلبتها ، بل كان سيد المنابر فى عصره . عرف له رجال الثورة العرابية خطره فحشروه فى زمرتهم ، ووجد هو فيها مجالا يوافق طبيعة نفسه فأصبح خطيب الثورة ولسانها الناطق ، حتى اقترن بها اسمه ، واكتوى بنارها ، وقضى حياته مغامراً ، فكانت أيامه سلسلة من الكفاح الذى لا يعرف الهدوء ، والجهاد الذى لا يعرف الاستسلام ، وكأنما كانت نفسه ترتاح لمقارعة الخطوب ومصارعة الأحداث .

قال فى قصيدة له يتحدث عن نفسه :

إذا ما الدهـر صافانا مرضنا　　فإن عدنـا إلى خطب شفينـا
إذا طاش الزمـان بنـا حلمنا　　ولكنا نهينـا إن نهينـا
وإنا والورى قسمـان لكن　　إذا ماتوا بنـازلة حيينـا

وهكذا كان عبد الله نـديم ، ثورة مضطرمة دائمة ، حتى بعد أن سكن الثوار واستسلموا للأمر الواقع ، رفض أن يستسلم أو يهدأ ، لأن الثورة كانت طبعاً أصيلاً فيه . ولم يكن عبد الله نـديم غنياً ولا كان من بيت كبير . نزح أبوه من الشرقية إلى الإسكندرية واشتغل فترة من الزمن نجاراً بدار صناعة السفن ، ثم افتتح مخبزاً صغيراً كفل له الكفاف من العيش .

وفى عام ١٨٤٥ رزق « مصباح إبراهيم الإدريسى » بولده « عبد الله » فأدخله « كتاب » الحى ، حيث حفظ القرآن الكريم وأتمه وهو فى التاسعة من عمره .

وكانت للصبى ذاكرة عجيبة ، وقدرة نادرة على الحفظ ، فأدخله أبوه معهد « الجامع الأنور » الذى أنشأه الشيخ إبراهيم باشا بالإسكندرية لدراسة علوم الدين واللغة على نمط الدراسة بالأزهر . وظل « عبد الله » بضع سنوات يدرس على بعض أكابر الأشياخ ، ولكن لم يلبث أن ضاق بهذا اللون من الدراسة الجافة ، فهرب منها ، واتجه اتجاهاً يوافق طبيعته ومزاجه ، وأخذ يغشى مجالس الأدباء ، ويستمع إلى ما يروى من الشعر ويلقى من الأزجال والنوادر ، فهامت نفسه بهذا اللون من المعرفة ، وأحس إحساساً عميقاً بأن هذا طريقه .

ولم يكن للأدب فى ذلك الزمان دراسة منظمة ، فانصرف « عبد الله » من حلقات العلم بالجامع الأنور إلى دكاكين التجار المحبين للأدب ، يتطارح معهم الشعر ، ويستمع إلى شاعر الربابة يروى القصص والأساطير الشعرية ، ويشبع نهمه إلى فنون الأدب . وكان بين أساتذته فى الجامع الأنور شيخ يدعى الشيخ محمد العشرى ، وكان يتعشق الأدب ، فاكتشف موهبة تليمذه « عبد الله » وقدرته على النظم ، فأخذ يشجعه ويصحبه إلى ندوات الأدباء ، وبيوت الأثرياء حيث يستمع إلى المباريات الأدبية والشعر وفنون الزجل(١) .

وتفتحت مواهب الأديب الناشئ عندما وجدت المناخ الملائم ،

---

(١) عبد الله نديم للدكتور على الحديدى .

وعاونته حافظته العجيبة التى اختزنت كثيراً مما سمعت ، وساعده حسه المرهف ، فأخذ يقول الشعر والزجل ويعالج الكتابة ، ويطارح غيره فى المجالس ، حتى ذاع أمره ، وأخذ يدعى ليجالس الخاصة من هواة الأدب ، وينادم الكبراء ، فينطلق لسانه بالشعر والزجل والنوادر والفكاهات .

وعلم أبوه بأمره ، فخيره بين العودة إلى دروس الجامع والانتظام فى طلب العلم ، أو الذهاب عنه إلى حيث يكسب رزقه بنفسه .

واختار « عبد الله » الطريق الثانى ، وخرج من الإسكندرية مطوفاً فى البلاد ، وقضى ستة أشهر ينزل ضيفاً على العمد والأعيان ، يستمتع بكرمهم ، ويمتعهم بأدبه وإنشاده ، ثم عاد إلى الإسكندرية يحمل لقب « النديم » الذى عرف به طول حياته .

وضاق النديم بالإسكندرية وضاقت به ، فهاجر إلى القاهرة .

كان ذلك فى عام ١٨٦١ ، وكان فى السابعة عشرة من عمره ، فبحث عن سبيل للكسب ، وإذا به يتجه اتجاهاً غريباً ، إذ تعلم فن الإشارات التلغرافية ثم التحق بمكتب التلغراف بينها ، ثم نقل إلى مكتب تلغراف القصر العالى حيث كانت تقيم والدة الخديو اسماعيل .

وعندما استقر عبد الله النديم بالقاهرة ، واطمأن إلى رزقه المكفول بوظيفته فى القصر العالى ، عاوده الحنين إلى الأدب ومجالسه ، فكان يمضى أوقات فراغه فى الأزهر لحضور الدروس التى يلقيها بعض كبار العلماء ، ثم اتصل بكثير من الأدباء والشعراء مثل محمود سامى البارودى وعبد الله فكرى والساعاتى وغيرهم ، فكان يحضر مجالسهم ويرتوى من مناهلهم .

وجاء جمال الدين الأفغانى إلى مصر ، وأخذ ينشر آراءه الثورية ساعياً

إلى تنبيه العقول لتتبين ما ترسف فيه البلاد الإسلامية من بؤس العبودية ، داعياً إلى التحرر ومقاومة الاستعمار فى شتى صوره . واتصل به النديم ، فاستهوته آراؤه الجريئة ، وأصبح من تلاميذه المقربين ، يحرص على لقائه وحضور مجلسه وأعجب به الأفغانى فاهتم بتوجيهه وقد توسم فيه الخير ، واكتشف مواهبه الخطابية ، فدعاه إلى تنميتها ، وأخذ يلقنه الآراء والمبادئ التى يؤمن بها ويدعو إليها .

وكان لاتصال النديم بالأفغاني أكبر الأثر فى حياته بعد ذلك ، فكما وجهه من قبل أستاذه الشيخ محمد العشرى إلى الأدب ، وجهه الأفغانى إلى الثورة وغرس بذرتها فى نفسه .

ولكن حادثاً وقع للنديم أخرجه من وظيفته ، ومن القاهرة كلها .

لقد غضب عليه « خليل أغا » كبير أغوات القصر العالى ، وكان صاحب نفوذ كبير ، فأمر بجلده بالسياط وطرده من عمله بالقصر .

وترك عبد الله النديم القاهرة كلها ومضى إلى الدقهلية ، وفى المنصورة اتخذ دكاناً لبيع الخردوات جعله ندوة للأدباء والشعراء فانتهى أمره إلى الإفلاس . وأغلق النديم دكانه ومضى يطوف بالبلاد ، ينزل ضيفاً على هواة الأدب من الكبراء والأغنياء ، حتى سمع بأمره شاهين كنج باشا مفتش الوجه البحرى ، فاستدعاه وأعجب به وأكرمه واتخذه نديماً .

وفى طنطا برزت مواهبه ، فى مجالس شاهين باشا ظهر تفوقه على من كان يحضرها من الأدباء والشعراء ، فقد رأوا بديهة حاضرة ، وخاطراً يومض فى سرعة البرق ، ومقدرة فائقة على إرسال الشعر والزجل ارتجالا ، فاعترفوا له بالسبق طائعين أو كارهين .

فى أحد هذه الاجتماعات لدى شاهين باشا دفعت الغيرة الحاضرين من الشعراء والأدباء فتحاملوا عليه . وتحداه بعضهم أن يقول شعراً يعارض به دالية المتنبى التى مطلعها :

أقل فعالى – بله أكثره – مجد   وذا الجد فيه ، نلت أو لم أنل ، جد

فغضب النديم وأمسك بالقلم وأنشأ قصيدة طويلة يقول فى مطلعها :

سيوف الثنا تصدا ومقولى الغمد   ومن سار فى نصرى تكفله الحمد
ومن عجب الأيام شهم أخو حجا   يعارضه غر ويفحمه وغد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما   لتحفظ أعراض تكفلها المجد

فأفحم الحاسدين وأسكت المعارضين :

وجرت له فى طنطا حادثة أخرى أطارت ذكره بين الناس . كان يجلس مع بعض أصحابه فى أحد المقاهى أيام المولد الأحمدى ، فأقبل اثنان من « الأدباتية » ومرا على الحاضرين حتى وصلا إلى عبد الله النديم ، فقال أحدهما :

إتعم بقرشك يا جندى   والا اكسنا أمال يا أفندى
أحسن أنا وحياتك عندى   بقى لى شهرين طول جعان

فأجابه النديم على البديهة :

أما الفلوس أنا مديشى   وانت تقول لى ما أمشيشى
يطلع على حشيشى   أقوم أملص لك لودان

فرد الأدباتى وأجابه النديم ، وظلا كذلك ساعة حتى سكت الأدباتى واعترف بالهزيمة . ونقلت القصة إلى شاهين باشا فأحضر الأدباتية والزجالين من أقطاب هذا الفن . وعرض عليهم أن يقيم حفلاً عاماً يساجلون فيه النديم

فإن غلبوا كافأهم ، وإن غلبهم النديم ضرب كلا منهم عشرين كرباجاً . . !
وقبلوا العرض ، وأقام شاهين باشا سرادقاً أمام بيته ازدحم بالناس ، واستمرت المساجلة ثلاث ساعات ، يقولون ويرد عليهم النديم حتى غلبهم وأسكتهم .

وتفصيل هذا الحادث أو المهرجان منشور بمجلة « الأستاذ » ، ويقول النديم إن شاهين باشا عدل عن ضربهم ومنحهم خمسة جنيهات .

وفى مجلس شاهين باشا تعرف النديم على تونجى بك وكان من الحاشية الخديوية ، فأعجب به وعينه وكيلاً لدائرته ، فهيأت له هذه الوظيفة التردد على القاهرة وهو آمن من أذى خليل أغا .

* * *

وفى القاهرة عاد إلى مجلس أستاذه جمال الدين الأفغانى فوجده أكثر ثورية فى أحاديثه . كان يدعو إلى التحرر من الظلم الاجتماعى والاستبداد السياسى والتدخل الأجنبى ، ويرى أن السبيل إلى ذلك لا يكون إلا بتكوين رأى عام مستنير وتنظيم المقاومة الشعبية . ومست كلمات الثائر الكبير شغاف قلبه فلزم مجلسه ، وانضم إلى المحفل الماسونى الذى أنشأه السيد جمال الدين .
ووجهه الأفغانى إلى الإسكندرية ليكون رسول دعوته بها ؛ وليساعد فى تحرير الصحف التى يصدرها المحفل بالثغر ، فسافر النديم إلى الإسكندرية فى أوائل عام ١٨٧٩ .

ومنذ ذلك التاريخ بدأ الكفاح الحقيقى لعبد الله النديم ، وترك خلف ظهره حياته الماضية التى كان فيها مجرد نديم للكبراء يمتعهم بأدبه ونوادره وحمل رسالة الدعوة الوطنية ورفع شعلتها عالية فلم تسقط من يده حتى انطفأت جذوة حياته .

ولقد وجد النديم فى الإسكندرية شعوراً قومياً فى دور التكوين ، ووجد الناس قد أخذوا يعنون بالسياسة ويتحدثون فى تصرفات الخديو إسماعيل وتدخل الدول الأجنبية . فانضم إلى جمعية « مصر الفتاة » السرية ، التى كانت تهدف إلى القضاء على استبداد إسماعيل ، والعمل على خلعه أو قتله ، والمطالبة بحكم الشورى والدعوة إلى الإصلاح العام . واتصل بأديب إسحق محرر جريدة « التجارة » وأخذ ينشر المقالات فيها وفى جريدة « مصر » يعالج فيها الموضوعات التى تشغل الناس .

وأدرك عبد الله النديم أن الكتابة السياسية يناسبها الأسلوب السهل المتدفق ، فحرر كتابته من السجع والمحسنات اللفظية التى كانت طابع كتابته قبل ذلك . وأعجب القراء بمقالات النديم ، التى كان يدعو فيها إلى الإصلاح الاجتماعى والسياسى . وأخذ الكتاب يقلدون أسلوبه المرسل الجديد ، فذاع صيته بين الناس ، وراجت بفضله الجريدتان .

وحاول النديم إقناع أعضاء جمعية « مصر الفتاة » بتحويلها إلى جمعية علنية تعمل للإصلاح فى وضح النهار ، وبذلك يكون لها أثر فى تنبيه الرأى العام . فلما فشل فى محاولته انفصل عنها ، وكون أول جمعية مصرية فى أبريل ١٨٧٩ وهى « الجمعية[١] الخيرية الإسلامية » التى أنشأت مدرسة للتعليم على غير النمط الذى تسير عليه مدارس الحكومة ، وعين النديم مديراً لهـا ، فألقى فى حفـلة الافتتاح خطبة رائعة كان لها دوى كبير فى الإسكندرية ، ونشرتها الصحف ، وقالت عن الخطيب إنه « أول خطيب مصرى وقف بين الحكام ، وفتح فاه بالكلام فى مكان عام ، فى وقت بلغ

(١) وهى غير « الجمعية الخيرية الإسلامية » والتى أنشئت بعد ذلك فى القاهرة .

فيه الاستبداد أشده ، وجاوز الظلم حده » .

وفى هذه المدرسة ظهر حب عبد الله النديم للخطابة واهتمامه ، وإيمانه بفائدتها فى تثقيف الشعب وإيقاظ الشعور القومى وقيادة الرأى العام . فأخذ يلقن أصول الخطابة للطلاب ، ويدربهم عليها ، ويقيم الحفلات يخطب فيها هو وتلاميذه ، ولم يكتف بذلك ، بل خرج بالمدرسة إلى الحياة العامة ، فكون من تلاميذها جمعيات للخطابة والآداب والفنون والتمثيل ، وألف بعض الروايات التمثيلية فى نقد العيوب الاجتماعية ومثلها مع تلاميذه على المسارح العامة .

وبعد شهرين من إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، أجبر الخديو إسماعيل على التنازل لابنه توفيق ، وظن النديم كما اعتقد الناس أن الخديو توفيق سوف يفى بالوعود التى قطعها للشعب ولحزب الإصلاح ويحاول أن يصحح أخطاء إسماعيل ، ولكنه لم يلبث أن تنكر لوعوده ، وأمر بنفى جمال الدين الأفغانى رئيس حزب الإصلاح ، وأسلم قياده لقناصل الدول الأجنبية . ولكن ذلك لم يفت فى عضد النديم ، بل واصل السير قدماً نحو الأهداف التى أنشأ من أجلها الجمعية ، غير مبال بتحذير الناس له وتخويفهم إياه . فأعلن عن إقامة حفلة للخطابة فى ساحة المدرسة ليلة الجمعة من كل أسبوع .

ويقول الدكتور على الحديدى فى كتابه عن « عبد الله النديم » إن ساحة المدرسة كانت تغص بالوافدين عليها ، وكان عددهم يزيد على خمسمائة مستمع كل اجتماع . وأحدثت هذه الحفلات هزة فكرية فى الإسكندرية ، إذ هرع إليها الناس يستمعون إليه بما لم يسمعوه من خطيب مصرى قبله ،

فكان يخطب فى موضوعات ظاهرها الإصلاح الاجتماعى والثقافى ولكنها محشوة بما ينبه الألباب إلى ما وصلت إليه البلاد من سوء الحال .

وأخذت الصحف تنشر خطب النديم كاملة فى صفحاتها الأولى ، وخلعت عليه كثيراً من الألقاب ، فسمته « خطيب الشرق » وأطلقت على محفله « سوق عكاظ » وتصف حفلاته وإقبال الجمهور عليها ، وكيف يسحر النديم مستمعيه ويأخذ بقلوبهم ويمتلك عواطفهم « ويثبت فى الأفئدة الضعيفة أنوار الحمية الوطنية ويضرم فى النفوس الهامدة نيران الغيرة والحرية » . .

وأصبحت الإسكندرية ولا حديث لها إلا خطب النديم ، واجتذب محفله الخطابى كبار القوم وسراة الإسكندرية ، وانضم إلى الجمعية كثيرون من أصحاب النفوس المشتعلة بالوطنية[١] » . .

ويقول الدكتور الحديدى فى كتابه إنه حين وقع النزاع بين الخديو توفيق ورئيس وزرائه رياض باشا على السلطة ، وتسابقا فى التقريب إلى السلطة الأجنبية ، لم يجد الخديو لديها النصير ، فعاد يتقرب إلى الشعب مرة أخرى لعله يستعيد ثقته فينصره على رياض باشا . واستغل النديم الفرصة ليحتمى بالخديو من بطش رياض ، فدعاه لزيارة مدرسة الجمعية وجعلها تحت رعاية ولى العهد ليضمن بقاءها ، وانطلق النديم يدعو إلى إنشاء الجمعيات ، واتجه بدعوته إلى المدن والقرى يطوف بها ويخطب الناس فى المساجد والمجتمعات ، فتألفت على يديه جمعيات بدمنهور وميت غمر والمنصورة ودمياط وغيرها ، وكما يقول النديم : « وقويت هذه العصابة ،

---

(١) عبد الله النديم بقلم الدكتور على الحديدى .

وتعددت محافل الخطابة ، وانتشرت الدعوة فى البقاع ، حتى ملأت القلوب والأسماع ، وانفتح باب الجمعيات ، ودخلها الناس أفواجاً وزرافات » ، وصارت جمعيات النديم مجالاً للصراع بين الخديو ورياض باشا ، يحاول كل منهما أن يتخذها وسيلة من وسائل الدعاية له ، والنديم من جانبه ، يتخذ من تأييدها وسيلة لنشر دعوته ، فقد أصبحت المعانى السياسية التى تدل عليها خطب النديم غير خافية ، إذ فهمتها النفوس ، وأصبحت حديث الناس (١) .

وقام النديم مع فريق التمثيل بالمدرسة بتمثيل روايته « الوطن وطالع التوفيق » على مسرح « زيزينيا » بحضور الخديو والوزراء ، وكانت الرواية حافلة بالأهداف السياسية . وشعر رياض باشا بخطر النديم عليه وعلى حكمه ، فتآمر مع المحافظ الذى كان رئيساً للجمعية على إخراج النديم منها وتلويث سمعته بنسبة أمور إليه تسمح بفصله ، ولكن النديم علم بالمؤامرة فأرسل إلى مجلس الإدارة استقالته من إدارة المدرسة ومن عضوية الجمعية .

واتجه النديم إلى الصحافة ، فأصدر صحيفة سماها « التنكيت والتبكيت » كانت لوناً جديداً من الصحافة لم يسبق إليه . وقد قال فى افتتاحية العدد الأول الذى صدر فى ٦ يونية ١٨٨١ « إنه لا يريد منها أن تكون منمقة بمجازات واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بفخامة لفظ وبلاغة عبارة ، ولا معربة عن غزارة علم وتوقد ذكاء ، ولكن أحاديث تعودناها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . . » وفى هذه الصحيفة

(١) المصدر السابق .

الرائدة عاد عبدالله النديم يدعو إلى الاهتمام بالخطابة ، ويقول إن من أسباب غفلة الشرق ضعف الخطابة فيه وانحصارها فى خطب المساجد التى لا تمس الحياة الواقعة .

وكتب مقالاً قوياً بعنوان « ألسن الخطباء تحيي وتميت » طلب فيه أن تكتب خطب المساجد بشكل جديد بحيث تعالج شئون الحياة ، وتشرح الموقف الحاضر ، وتبين الأخطار المحيطة بالأمة ، وقال فى نهاية المقال :

« أود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ لنشر خطب أدبية وسياسية . وأنا أتبرع بإنشاء خطبة فى كل أسبوع تناسب أحوال الزمان ، ثم تطبع هذه الخطب وتنشر فى سائر أنحاء القطر لتنبه الأفكار وتعرف الأمة قدرها بين الأمم . . » .

ثم أردف المقال بخطبة نموذجية توضح غرضه ، وصاغها صياغة دينية تناسب صلاة الجمعة . . ومما قاله فيها :

« إن لكل أمة كلمة تجمعها ، وسيرة تسمعها ، وكلمتنا الوحيدة حسن الاعتقاد ، وسيرتنا حفظ الملة والبلاد . . وقد تأسست كلمتنا بالاتحاد واللين ، والقيام بما جاء به هذا الدين ، من ترك العقوق ، وحفظ الحقوق ، والبعد عن الظلم والبغى ، والتطهر من الرجس والغى ، والحث على الائتلاف ، والتحذير من الاختلاف . وقد دخل معنا من أهل الذمة من تعلمون ، وصاروا إخواننا فى الوطنية ، وأنتم تعلمون ما نزل به الوحى من السماء ، وما أهريق فى نشره من الدماء ، حتى بلغنا السعود ، وصرنا أمة عظيمة فى الوجود . ولولا تفرق الكلمة ما انحل عقد اجتماعنا ، ولا خرج علينا أحد من أتباعنا ، ولا ضعفت منا الهمم حتى تلاعبت بنا الأمم . . » .

ثم قال :

« أترون الدول ترحمكم إذا ملكتكم ، أو تبكى عليكم إذا أهلكتكم ، أو تعاملكم بالرفق واللين ؟ كلا والله . . ما هى إلا أسود إن دُهمت احترست وإن تمكنت افترست ، وإن ملكت أساءت السيرة ، وإن جاورت لم تحفظ الجيرة ، وإن تداخلت احتالت ، وإن رأت غرة اغتالت . . إلخ » .

* * *

نجحت مجلة « التنكيت والتبكيت » فكانت أعدادها تنفذ بمجرد صدورها ، ويتخطفها رجل الشارع الذى وجد لأول مرة جريدة تهتم به وبمشاكله ، وتعالجها فى أسلوب سهل يجمع بين القصة والنكتة ، ويحدث العامة بلغتهم تارة وبالزجل الرشيق تارة أخرى . ثم أخذ النديم يتطرق فى مقالاته إلى السياسة فيهاجم الظلم والاستبداد . ولم يكتف بالكتابة فى مجلته بل أخذ يتنقل فى البلاد ويخطب فى المساجد ، ويخاطب الفلاحين محاولاً أن يبذر فى نفوسهم بذور الثورة على الحكم الظالم وعلى الإقطاع والاستغلال .

وفى خلال ذلك كان « أحمد عرابى » يمهد مع زملائه للثورة على الأوضاع القائمة ، وقد وجد العرابيون فى عبد الله النديم خير داعية يستطيع أن ينشر دعوتهم بين صفوف الشعب ، فاتصلوا به ، وأطلعوه على خططهم ، وضموه سراً إليهم ، وكان النديم مهيأ لهذا الدور الخطير .

كان قد بلغ الأربعين من عمره ، ولكن هذه الأعوام كانت قد حفلت بالتجارب ، فنضجت رجولته كما نضج فنه ، حدث عن نفسه فقال :

« أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة

والفلاحة والمهن الصغيرة . وأدركت ما هم فيه من جهالة ، ومم يتألمون ، وماذا يرجون . وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين . وألممت بما انطبع فى صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جماً من أفاضل الشرقيين المتعلمين فى الغرب . وعرفت كثيراً من الغربيين . ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية المقصودة لهم . واختلطت بأكابر التجار . وسبرت ما هم عليه من السير فى المعاملة أو السياسة وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً . واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والتاريخ والأدب ، وتعلقت بمطالعة الجرائد مدة . واستخدمت فى الحكومة المصرية زمناً . واتجرت برهة . وفلحت حيناً وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً . وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذى وصلت إليه بعناء كسانى نحول الشيخوخة فى زمن بضاضة الصبا ، وتوجنى بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتى تريك هيئة أبناء السبعين ، وحقيقتى لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

هكذا كان عبد الله النديم فى مطلع الثورة العرابية .

كان كاتباً يدعو فى مجلته إلى الإصلاح بأسلوب مبتكر ، وكان خطيباً وهبه الله قدرة عجيبة على الارتجال ، لا يكاد يفتح فمه للقول حتى تنثال عليه وتنهال الألفاظ ، فيتدفق بالكلام البليغ تدفق السيل .

ونستطيع أن نتصور مقدرته كخطيب إذا ذكرنا كيف كان يرتجل الشعر والزجل بداهة ، وكيف كان يؤلف الروايات التمثيلية ثم يعتلى المسرح فيمثلها مع تلاميذه أمام الخديو ، وكيف التفت إلى أهمية الخطابة كأداة للإصلاح وتنبيه الشعور القومى ، فدرب عليها تلاميذه ، وعلم

كثيراً من الشبان كيف يخطبون فى المحافل .

والواقع أن المقدرة الخطابية كانت أبرز نواحيه وأظهر مافيه .

كتب صديقه « أحمد سمير » يقول عنه فى ترجمة حياته :

« كان يخطب فى كل ناد ومحفـل بصوت جهورى ، ولسان أمضى من الحسام ، وقلب أجرأ من الأسد . ويعلم الله أنى ما رأيت عمرى أخطب منه على كثرة من سمعت فى الشرق والغرب من كبار الخطباء الذين تضرب ببلاغتهم وقوة براهينهم الأمثال » ثم قال أيضاً :

« وأما خطبه وتأثيرها السريع فى الأذهان فيكفينى مؤونة الكلام الطويل فيه إجماع كتاب الجرائد العربية والأجنبية على تلقيبه بخطيب الشرق ، فهو أول شرقى وقف المواقف الهائلة وخصوصاً قبل الثورة العرابية ، إذ كان يستدعى بالتلغراف إلى الإسكندرية وسواها فيرتجل من حر القول البليغ القوى القويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من غير مدام . . » .

قدر رجال الثورة العرابية للنديم هذه المواهب فضموه إليهم ، ليصبح أول عضو مدنى ينضم إلى منظمة الجيش ، وليصبح بعد ذلك خطيبها الرسمى والمتحدث بلسانها . وانطلق عبد الله النديم ينقد فى صراحة وجرأة تصرفات حكومة رياض ، وتصرفات الخديو ، وأخذ يطوف فى كل حفل ومجتمع يلقى الخطب الرنانة يدوى صداها فى البلاد . كان يخطب فى كل مكان ، فى الأزهر وطلبته ، والجيش وجنوده ، وفى حفلات الزفاف والأفراح ، فما يكون مجتمع لغرض من الأغراض إلا ويطلع عليهم عبد الله النديم وجماعة من تلاميذه المدربين يحتلون المكان العالى ، ويخطبون فى موضوعات الساعة . وكان يتنقل فى الأقاليم والبلاد يخطب ويخطب ، لا يكل ولا يمل ،

فساعد على تكوين رأى عام يؤمن بالحكم النيابي ويتطلع إلى الإصلاح .

وبتوجيه من عبد الله النديم كتب عرابي منشوراً يعلن فيه أن رجال الجيش يطالبون بإسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس نواب ، ويطلب إلى الأهالي أن يوكلوه ليكون نائباً عنهم فى المطالبة بذلك وتحقيق ما فيه مصلحة البلاد .

وقد جاء فى كتاب « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » أن عبد الله النديم « أخذ يجوب الأقاليم ويدعو الناس إلى نصرة زعماء العصابة . وكان عبد الله هذا قوى الحجة ، فصيح اللسان قوالاً ، سهل العبارات ، عذب المنطق ، مقلقاً مهيجاً بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه . وقد عرف عادات البلاد وميول أهلها ، فطفق يجوب المدن والقرى يخطب فى الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخيارهم ، ويصعد على منابر الجوامع ويخطب جهاراً وعيناه تذرفان الدمع ، فافتتن الناس ، ومال إليه خلق كثير من الأعيان والوجهاء من كل صوب وحدب . وعاد إلى القاهرة وهو يحمل فى حقيبته عرائض موقعاً عليها من الأعيان والأهالى يؤيدون فيها عرابي ومطالبه ، فاتخذها عرابي دليلا على إنابة الأمة له » .

وجاءت إلى القاهرة فى إثر النديم وفود الأعيان والفلاحين لمبايعة عرابي ، فكان يستقبلهم فى منزله ، ويقف النديم فيلقى الخطب والقصائد الحماسية .

ولا نستطيع مع الأسف أن نرجع إلى خطب النديم لنحكم على قيمتها الفنية لأنها لم تكن تدون ، وإنما كان يلقيها ارتجالا فتفعل فعلها ولا يعنى أحد بتدوينها ولم ينشر منها إلا الشيء القليل فى المجلة التى كان يصدرها .

ثم كانت مظاهرة عرابي العسكرية فى ميدان عابدين ، وكان عبد الله النديم هو المدنى الوحيد الذى اشترك فى الزحف مع الجيش إلى قصر عابدين

لتقديم مطالب البلاد إلى الخديو باسم الشعب .

وأذعن الخديو، وقبل فى النهاية مطالب عرابى ، وسقطت وزارة رياض وأعلن عن قيام الحياة الدستورية وتهيأت البلاد لانتخاب مجلس النواب . وبعد أن هدأت الخواطر واطمأن الناس وصدر المرسوم بإجراء الانتخابات عاد رجال الجيش الثائرون إلى معسكراتهم ، واستجاب زعماؤهم للأوامر التى صدرت إليهم بالابتعاد عن القاهرة حتى لا يظن أنهم يتدخلون فى السياسة ، فسافر « عبد العال حلمى » على رأس الآلاى السودانى ليعسكر فى دمياط ، وتبعه « أحمد عرابى » على رأس فرقته ليعسكر فى رأس الوادى . واحتشدت الجماهير الغفيرة فى المحطة لتودع الثائرين ، ووقف خطيب الثورة عبد الله النديم يخطب مرتجلاً موجهاً خطابه إلى الضباط والجنود يوم سفر عبد العال حلمى فيقول :

حماة البلاد وفرسانها .

إن من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والكوارث أدرك مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من حسنات . فقد ارتقيتم ذروة لم يسبقكم إليها سابق ، ولن يلحق بكم فى إدراكها لاحق . ألا وهى حماية البلاد ، وحفظ العباد والضرب على يد الاستبداد ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد الخالد ، يباهى بكم الحاضرون من أهلنا ، ويفاخر بأعمالكم الجيل الآتي من أبنائنا ، فقد أعدتم الروح إلى الوطن بعد أن بلغت الروح التراقى .

وفى يوم سفر « عرابى » طلبت الجماهير المحتشدة فى ميدان المحطة أن تسمع كلمة من « خطيب الثورة » فوقف النديم على مرتفع وقال :

ــسادتى وإخوانى :

أرونى أمة بلغت منـــاها بغير العلم أو حد اليمانى

قضت علينا الشقوة بأن نعيش فى زمن الخسف ، وعهد الاستعباد ، فرأينا المشنوق من أهلنا ، وشاهدنا المذبوح والمحروق ، والموضوع على الخازوق والمسجون والمنفى والمنهوب . والمشرد والمغلوب والمسلوب ، ولا ذنب لنا فى هذا كله إلا أننا لم نحسن المحافظة على البلاد .

ثم رأينا تسليم أمور بلادنا إلى الأجنبى ، وإذلال الوطنى وضياع حقه وتركه فى زوايا الإهمال ، فسعينا إلى تحقيق الاتحاد وجمع القلوب ، حتى نهض الجيش فأعرب عما فى ضمائرنا ، ونادى جهاراً بحقوق الأمة ، فنحن الآن نادى بصوت يسمعه القاصى والدانى : يموت الاستبداد وتعيش الحرية . ويعدم المستبد ويبقى جيش الحمية . . » .

ثم مضى يحثهم على الاتحاد والتمسك بالنظام والحكمة ، ويقول عن سفر « عرابى » .

هذا أخوكم الجليـــل ، السيف المجرد لحماية بلاده ، يودعكم . ويسافر إلى رأس الوادى ، لا بإكراه ولا إرغام ، ولكنه يسافر ليقطع ألسن الأعداء ، ويقضى على الأراجيف ، ويعلم الصديق والعدو أن الوطن فى هدوء عظيم ، وأن أهله فى طاعة لا يشو بها عصيان فاسألوا الله له ولإخوانه السلامة ، وكونوا مثلهم فى الاتحاد والوطنية ، فكلكم وطنى وإن اختلفت المقاصد وتباينت السبيل . . » .

ورافق النديم عرابى فى سفره ، وكان يخطب الجماهير التى تجمعت فى كل محطة على طول الطريق لاستقبال بطل الثورة .

وعندما أخذت البلاد تستعد للانتخابات ، قام النديم بنشر التوعية بين الشعب ، ويحذر الناس من سوء الاختيار ، ويدعو إلى حكم الشعب بواسطة ممثليه الذين يحسون بآلامه ، ويبشر بالديمقراطية الحقيقية .

وأصبح معروفاً أن عبد الله النديم هو المتحدث بلسان الثورة ، واتفق معه عرابى على أن تصبح جريدته هى اللسان الرسمى للحركة الثورية الجديدة . وهكذا تغير اسم « التنكيت والتبكيت » ليصبح « الطائف » ، التى صدر عددها الأول فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨١ .

* * *

لا يتسع هذا المجال لتفصيل أسباب إخفاق الثورة العرابية ، وحسبنا أن نذكر أن الثورة قد أخفقت وانتهت بالهزيمة والاحتلال البريطاني فى عام ١٨٨٢ .

وكان عبد الله النديم إلى جوار عرابي خلال الحرب التى خاضها فى مواجهة القوات البريطانية الغازية ، ينظم الدعاية ، ويستنهض الهمم ، ويرسل الخطباء والعلماء إلى البلاد يحرضون الأهالى على الحرب وإمداد الجيش بالجنود والمؤن .

كان النديم خلال تلك الحرب حركة لا تهدأ ، وشعلة لا تخمد ، يجوب البلاد فيذكى الحماسة فى قلوب الشعب ، ويخطب فى المساجد والطرقات ، وفى الحقول والمجتمعات ، محرضاً على القتال دفاعاً عن الأرض والشرف والكرامة والدين . ولنسمع إليه يقول فى إحدى خطبه التى نشرها بعد ذلك فى جريدة الطائف فهى نموذج لمئات الخُطب التى كان يرتجلها فى تلك الأيام :

يا بنى مصر

هذه أيام النزال . هذه أيام النضال . هذه أيام الذود عن الحياض ، والدفاع عن الأعراض . هذه أيام يمتطى فيها بنو مصر صهوات الحماسة وغوارب الشجاعة لمحاربة عدو مصر ، بل عدو العرب ، لا بل عدو الإسلام ، الدولة الإنجليزية خذلها الله ورد كيدها فى نحرها .

يا أهل مصر . إنما آجال الناس محدودة ، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ، فاخرجوا لحرب عدوكم ولا تخشوا الموت ، فلكل أجل كتاب .

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد

يا أهل مصر . . إن الإنجليز يقولون إن مصر هى حصن البلاد العربية ، من فتحها فقد أخذ بلاد المسلمين ، فهبوا للدفاع عن وطنكم ، الذى هو حصن البلاد الإسلامية كلها ، وجاهدوا فى الله حق جهاده ، لتحفظوا هذا الدين العظيم ، وتدفعوا عدواً يريد أن يدخل بخيله ورجله فى بلد الله ، يريد أن يدخل الكعبة المشرفة عن طريق بلادكم ، وقد استعان على أغراضه بالخديو الذى باع الأمة إرضاء للإنجليز » . .

بهذا الأسلوب كان عبد الله النديم يستثير الأهالى ويستنفرهم للحرب المقدسة ، مستغلا الشعور الدينى . ويقول الدكتور على الحديدى فى كتابه إن النديم لم يدرس فن الإعلام أو الدعاية ولكنه كان موهوباً فى هذا الاتجاه ، خبيراً بالشعور المصرى وحساسيته للكرامة والشرف والعرض والدين ، وبأن هذه هى مفاتيح الثورة عنده وأوتار إثارة الحقد والكراهية فضرب عليها وغنى بها .

وهزمت جيوش « عرابي » فى التل الكبير بتأثير الخيانة ، واستسلم قائد الثورة ورفاقه . وطغت على البلاد موجة من الانحلال الخلقى ، فحاول كثيرون من زعماء الحركة التنصل من تبعاتها ، وتحول كثيرون من دعاتها ؛ ولكن عبد الله النديم لم يستسلم ولم يتحول ، وآثر الاختفاء هرباً من المحاكمة والعقاب .

وطال اختفاؤه عشر سنوات ، أتعب فيها نفسه وأتعب السلطات التى أخفقت جهودها فى البحث عنه ، فوضعت مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عنه ، وأصدرت عليه حكما غيابياً بالنفى المؤبد من البلاد .

وتنقل النديم بين البلاد متنكراً فى كل زى ، مصطنعاً كل لهجة : متحلا مختلف الشخصيات . وكانت له فى هذا الاختفاء حوادث عجيبة ، ونوادر غريبة ، تدل على براعته ولباقته وذكائه ، وتجعل حياته فى هذه الفترة أشبه بالقصص البوليسية المثيرة .

قال عن نفسه يصف هذه الفترة من حياته :

« خرجت من مصر مختفياً فدرت فى البلاد متنكراً ، أدخل كل بلدبلباس مخصوص ، وأتكلم فى كل قرية بلسان يوافق دعواى التى أدعيها ، من قولى إنى مغربى أو يمنى أو مدنى أو فيومى أو شرقاوى أو نجدى وأصلح لحيتى إصلاحاً يوافق هذه الدعوى فأطيلها فى مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها فى آخر عند دعوى السياحة ، وأبيضها فى بلد ، وأحمرها فى قرية وأسودها فى عزبة . . إلخ » .

ولكن هذا الاختفاء كان نعمة عليه من ناحية أخرى ، فقد أتيح له فراغ كبير فشغل نفسه بالكتابة والتأليف . ولندع له الحديث عن نفسه .

فقد كتب لأحد أصدقائه في أثناء اختفائه يصف حاله فى كتاب طويل مسجوع جاء فيه :

« إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة رائقة صافية ، لا أشغل فكرى بما يأتى به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهنى بتوالى الخطوب والأكدار ولا أتالم من طول المدة ، ووقع الشدة ، لاعتقادى أن لكل شدة مدة ، متى انتهت جفت الأوحال ، وحسنت الحال ، فتراني فكرى كليمى ، وقلمى نديمى تارة أشتغل بكتابة فصول ، فى علم الأصول ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد فى صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، فى فنون مختلفة ، وآونة أكتب فى التصرف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب فى العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان ، على سفينة تاريخ الزمان . وقد تم لى الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير . . . »

وظل هذا الخطيب الثائر على إيمانه الوثيق بقضية بلاده ، وبالرسالة الثورية التى نذر لها نفسه ، ووقف عليها جهوده وحياته . وبرغم ما كان يقاسيه من متاعب وعذاب فى وحدته واختفائه الذى طال ، فقد ظل فؤاده يهفو نحو « سيلان » الجزيرة النائية التى نفى إليها « عرابى » وزملاؤه ، واستمر يمارس مهمته كداعية لعرابى ومستشار له يكتب إليه الرسائل بإمضاء مستعار يحاول بها رفع روحه المعنوى ، ناقلاً إليه الأمل فى أن تثور الأمة على الاحتلال وتدعوه لقيادتها من جديد .

قال له النديم فى رسالة طويلة يلتمس له العذر فى الهزيمة :

« قد تكون الهزيمة لتقوية العزيمة ، وزيادة الاستبصار فى الأحزاب والأنصار ، وما علينا فى هزيمتنا بفعل الخائنين عار » .

ويقول له :

« لقد بعت نفسك لله ، لا للمظهر والجاه ، وقام معك الأمراء والقادة ، والعلماء والسادة ، وقام أخوك النديم ينادى بلسانك ، ويترجم عن جنانك فسرى صوتنا فى البلاد ، وتنبه الناس من الرقاد ، وتبعنا من الوطن أمشاج ، وتواردت علينا زمر وأفواج ، فكان لفيفنا العجيب ، على هذا الترتيب :

مخلص أدرك ما قصدنا ، فقام يرصد ما رصدنا .

ومتردد حائر ، مع النوازل دائر .

ومذبذب إن عظمت اللأواء ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ومنافق ينقل عنا وإلينا ، ويحمل معنا وعلينا ، وعدو ينسب إلينا البدعة وينصب لنا شرك الخدعة . . إلخ » .

ويشرح له فى رسالة أخرى حب الشعب له فيقول :

« وقد زاد محبوك ، ممن كانوا أبغضوك عندما رأوا فساد أحوالهم ، وانعكاس آمالهم ، فهم أشد شوقاً إليك ممن كانوا يجتمعون إليك . وإذا أتى منك كتاب إلى بعض الأحباب ، دار به على الإخوان ، وهو فرحان ، فأنت فى مصر وإن كان جسمك فى سيلان ، فذكرك فى الألسن ورسمك فى الأعيان . . »

وعندما دب الخلاف بين زعماء الثورة فى المنفى ، واستفحل هذا الخلاف حتى قاطع بعضهم بعضاً وتراشقوا بالتهم ، وعلمت بأمره صحف الاستعمار فأخذت تهاجمهم وتتهمهم بأنهم لم يستهدفوا بثورتهم مصلحة الوطن وإنما أرادوا تحقيق أطماعهم الشخصية ، انزعج النديم واستولى عليه الحزن ، وكتب إليهم من مخبئه رسالة شهيرة جاء فيها :

« إذا لم تكن عهودكم وثيقة ، ورابطة جمعكم أنيقة ، وعدتم إلى الديار ، على التباعد والنفار ، ساءت بكم الظنون ، ومالت عنكم القلوب والعيون ، وصرتم عرضة للدسائس ، ومرجعاً لأهل الخسائس ، وذكركم المؤرخون بالنقائص وجردوكم من الفضل والخصائص ، وأنكرت أوربا دعوتكم الوطنية ، ورماكم عدوكم متبجحاً بتهمة الهمجية . فارجعوا إلى الإخاء والحق ، والتزموا فى المودة والصدق ، ولا تسودوا وجوهنا بين أهل مصر ، ولا تخجلونا أمام نبهاء العصر. إلخ » .

وبينما كان عبد الله النديم فى قرية « الجميزة » مركز السنطة ، تعرف عليه شرطى سابق فوشى به طمعاً فى المكافأة ، فقبض على النديم فى ٢ أكتوبر ١٨٩١ ونقل إلى السنطة ومنها إلى طنطا حيث حقق معه رئيس نيابتها « قاسم أمين » الذى أحسن معاملته وعرف له قدره .

وكان للقبض على النديم دوى أعاد إلى الأذهان ذكرى الثورة وأحداثها وأثار الجدل فى الصحف ودوائر الحكومة ، وانتهى الأمر بالعفو عنه مع نفيه من مصر إلى الجهة التى يريدها ، فاختار « يافا » لإقامته .

* * *

ولم يطل بقاء النديم بالمنفى ، فقد توفى الخديو توفيق ليخلفه ابنه « عباس » ، فعفا عنه وسمح له بالعودة إلى مصر عام ١٨٩٢ .

وعاد النديم ليرى كل شيء فى وطنه وقد تغير بفعل الاحتلال الذى كان قد مضى عليه عشر سنوات . لقد استسلم الجميع ، وران اليأس على القلوب ، ولكن الثائر العظيم لم يستسلم ولم ييأس . وكانت عودته مشروطة بعدم اشتغاله بالسياسة ، فاتجه إلى الشباب من الجيل الجديد ، يبث فيهم دعوته

كلما لقيهم، ويزودهم بنصائحه . وفى منزل لطيف سليم باشا قابل « مصطفى كامل » الطالب الشاب المتحمس ، فتوسم فيه الخير ، وخصه بالعناية والتوجيه .

ثم أصدر النديم مجلة « الأستاذ » وحصل على الترخيص باسم أخيه عبد الفتاح وأعلن أنها جريدة علمية فكاهية تهذيبية لا تتعرض للسياسة .

وبدأ النديم ينقد العيوب الاجتماعية فى مجلته الجديدة ، ثم تدرج فاتهم الأوربيين بتشجيع هذه العيوب حتى تنحل أخلاق الشرق . وانتشرت « الأستاذ » حتى أصبحت منافساً خطراً لجريدة « المقطم » التى كانت تحظى برعاية السلطات الإنجليزية والمصرية ، فأخذت « المقطم » تهاجم النديم وتتهمه بأنه يهدف بمقالاته الاجتماعية إلى غرض سياسى .

وبدأ صوت النديم يعلو شيئاً فشيئاً ، ويخوض فى أحاديث السياسة صراحة مناصراً للخديو عباس ، مناهضاً للاحتلال . ثم أخذ ينقد السياسة البريطانية فى مصر والهند بصراحة وجرأة ، فطلب اللورد « كرومر » نفيه من البلاد ، فأجيب إلى طلبه .

وودع عبد الله النديم قراءه فى آخر عدد من « الأستاذ » دون أن يذكر السبب الحقيقى ، وختم وداعه قائلاً :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما دواع تعدت فالسلام عليكم

وخرج النديم إلى « يافا » فى منتصف يونية ١٨٩٣ ، ثم انتهى به الأمر إلى الآستانة حيث أمر السلطان عبد الحميد بتعيينه مفتشاً للمطبوعات بالباب العالى جرياً على سياسته فى إرضاء أمثال جمال الدين الأفغاني والنديم

من الناقمين الأحرار .

ودخل الثائر العظيم القفص الذهبي مع أستاذه القديم ، ليكون تحت أعين جواسيس السلطان ، وليعيش حياة هادئة ، لا عزاء له فيها إلا صحبته الدائمة للأفغاني .

ولكن هذه الحياة لم تطل ، فقد أصيب بالسل ، ومات فى العاشر من أكتوبر ١٨٩٦ وكان قد بلغ الرابعة والخمسين من عمره .

* * *

كان عبد الله نديم كاتباً اتجه إلى بساطة الأسلوب وسهولة التعبير فى مقالاته السياسية والاجتماعية ، وكانت له مؤلفات كثيرة ، فقد ذكر « أحمد سمير » فى ترجمته أن له من المؤلفات ما يعد بالمئات ، ولكن معظمها ضاع فى أثناء اختفائه أو حجز بالآستانة . وكان شاعراً له ديوانا شعر يشتملان على أكثر من سبعة آلاف بيت . وكانت له آراء قيمة فى السياسة والاجتماع . وكانت له كلمات يرسلها فتجرى أمثالا . ومن كلماته قوله :

« دولة بلا قانون فوضى وإن كثر الرعاة » .

وقوله :

« مملكة يسوسها غارق فى الشهوات مقبرة تزار ولا تسكن » .

وقوله :

« إذا ساعدت الأجنبى على أخذ بلادك فلا تغضب إذا نام فى فراشك »

وقوله :

« إذا اختلفت الأحزاب فكن مع أحفظها لوطنك » .

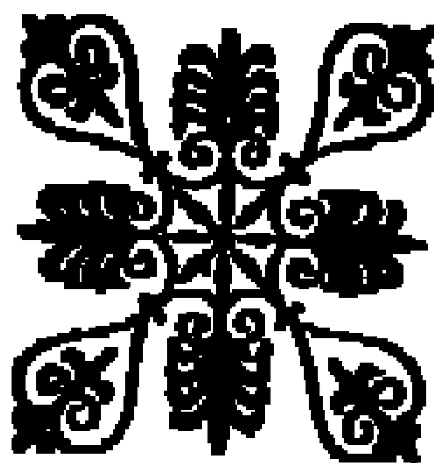
ولكن عبد الله نديم كان قبل كل شىء ، وبعد كل شىء، خطيباً عظيماً .

قال عنه أحمد تيمور باشا :

« كان شهى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ، لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلا فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى فى عصرنا هذا .

مصطفى كامل

« أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة »
مصطفى كامل



مصطفى كامل

شاب نحيل الجسم ، مشبوب العاطفة ، مضطرم الخيال ، يحلم بتحرير بلاده من الاحتلال الأجنبي ، فيهب وحده بغير حزب يؤيده ، أو جاه يسنده ، أو مال يعتمد عليه ، يصرخ فى وجه أعظم إمبراطورية لا تغيب الشمس عن أملاكها مطالباً بحقوق بلاده ، فيفيق مواطنوه فى دهشة على هذا الصوت الذى ارتفع بينهم وكأنما هو صوت المؤذن يسرى فى هدأة الفجر يوقظ النيام ، ويبعث فى النفوس الأمل ، فتشتعل من جديد جذوة الوطنية فى القلوب الهامدة ، ثم يقضى فى عمر الزهور وقد بعث فى قومه نهضة جديدة ، وترك وراءه حزباً فتياً يحمل رسالته ، وشعباً قوياً يطالب بحقه فى الحرية والاستقلال .

ذلك هو الزعيم الشاب مصطفى كامل الذى ظهر فى فترة مظلمة من أتعس فترات التاريخ المصرى الحديث ، بعد إخفاق الثورة العرابية واحتلال بريطانيا لمصر ، فكانت حياته القصيرة إرهاصاً بهذا البعث الجديد لشعب كاد يدركه اليأس . وعندما مات مصطفى كامل فى الرابعة والثلاثين من عمره ، كانت تربة مصر تحتضن البذور التى ألقاها وتعهدها بكفاحه الرائع ، لتنمو بعد ذلك وتتمخض عن ثورة الشعب الكبرى بعد أحد عشر عاماً من وفاته .

وإذا كنا نتحدث هنا عند مصطفى كامل الخطيب ، فذلك لأن

الخطابة كانت وسيلته الكبرى لتحقيق رسالته الوطنية ، فقضى حياته يكتب ويخطب فى مصر وأوربا ، فهو بحق خطيب البعث الوطنى الجديد الذى صنع الفجر الأول لتاريخ حركتنا الوطنية الحديثة .

ولد مصطفى كامل عام ١٨٧٤ ، وكان أبوه « على أفندى محمد » مهندساً حربياً أحيل إلى المعاش ومصطفى فى الثالثة من عمره . ويروى « على فهمى كامل » شقيق مصطفى كامل أن أباه كان يجمعهم مساء كل يوم ليسمر معهم فيروى لهم قصص التاريخ وسير الأبطال الفاتحين ، وكان أخوه الطفل « مصطفى » أكثرهم شغفاً بسماع هذه السير .

وعندما بلغ « مصطفى » الثانية عشرة من عمره توفى أبوه ، فكفله أخوه الأكبر « حسين واصف » الذى أصبح بعد ذلك وزيراً للأشغال ، وأقام « مصطفى » فى منزل جده لأمه ، وأكمل دراسته الابتدائية فى مدرسة القربية ، ثم التحق بمدرسة « الخديوية » ليتلقى دراسته الثانوية .

وفى خلال دراسته الثانوية بدأت تظهر مواهبه الخطابية وميوله الوطنية ، فأنشأ « جمعية الصليبة الأدبية » نسبة إلى الحى الذى يسكنه ، وكانت تعقد اجتماعات أسبوعية يخطب فيها مصطفى كامل . ويقول على فهمى كامل : « كان يقف خطيباً فى الجمعية فى مساء كل جمعة مرتجلا ما تملى عليه البديهة الحاضرة فيملك الأسماع والقلوب . . »

وذهب على مبارك باشا ناظر المعارف لزيارة المدرسة الخديوية ، وسمع مصطفى كامل يتحدث ويخطب فأعجب به وقال له « إنك امرؤ القيس »

وكان « مصطفى » شجاعاً شديد الاعتزاز بكرامته ، يتصرف فى هذه السن المبكرة كرجل ناضج ، ويبتعد عن العبث المألوف ممن كان فى مثل

سنه ، ويشغل نفسه بالمسائل العامة ، ويتعمق دراسة تاريخ بلاده .

وعندما أتم « مصطفى » دراسته الثانوية وحصل على شهادة « البكالوريا » كتب إلى أخيه على فهمي الذى كان ضابطاً بالسودان يقول إنه قرر أن يدخل مدرسة الحقوق « لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم ، وأنت تعلم أننى أميل إليها كثيراً ، وعزمت كذلك على تأسيس جمعية أسميها « جمعية إحياء الوطن » . . .

وفى أكتوبر عام ١٨٩١ دخل مصطفى كامل مدرسة الحقوق وهو فى السابعة عشرة من عمره ، وهناك التقى بزميله فؤاد سليم وأصبحا صديقين . وصحبه فؤاد إلى منزل أبيه لطيف سليم باشا بسوق السلاح حيث كان يجتمع طائفة من أهل الرأى والفكر والأدب ، فكان يستمع إليهم « مصطفى » وهم يتدارسون أحوال البلاد ، ويفكر فيما يسمع ، ويشارك فى الحديث .

وفى العام الثانى من دراسته بالحقوق ، التحق بالدراسة المسائية فى مدرسة الحقوق الفرنسية ، فكان يجمع بين الدراستين ، وأصدر مجلة سماها « المدرسة » جعل شعارها عبارة « حبك مدرستك . . حبك أهلك ووطنك » ومضى ينشر فى جريدتى الأهرام والمؤيد مقالات وطنية ، ويحضر الاجتماعات فى ندوة لطيف باشا سليم . وفى خلال ذلك عاد عبد الله النديم خطيب الثورة العرابية من منفاه عام ١٨٩٢ فاتصل به مصطفى كامل ، وسمع منه أسرار الثورة العرابية وأسباب فشلها ، وكان لهذه الأحاديث والتوجيهات أثرها فى أسلوب كفاح مصطفى كامل بعد ذلك .

وإن الإنسان ليعجب وهو يطالع ما كتب عن سيرة مصطفى كامل وأحواله خلال سنوات الدراسة . ذلك أنه يلمح كيف كان هذا الطالب

يعد نفسه لدوره المقبل ، ويتهيأ لحمل رسالته الوطنية ، وكأنما يحركه وحي خفي يناديه ويهتف به أن قم . . فإنك أنت الزعيم المنتظر . . !

وعندما أخفق « مصطفى » فى امتحان النقل إلى السنة الثالثة ، سافر إلى باريس ليكمل دراسة الحقوق ، ثم سافر إلى تولوز لكى يؤدى الامتحان النهائى مختصراً بذلك سنة أخرى من دراسته ، فحصل من جامعتها على إجازة الحقوق فى عام ١٨٩٤ .

وكتب على الفور إلى أخيه على فهمى يقول :

« عولت بمشيئة الله على الانتظام فى سلك رجال المحاماة ، لأدافع عن حقوق الأفراد ، ولو أتيح لى الخير ، وبلغت ما أتمنى ، لكنت المدافع عن حقوق الأمة بأسرها أمام العالم أجمع ، لأن مصر وهى جنة الدنيا ، لا تستحق أن يداس شرفها بالأقدام ، ونصبح فيها نحن أبناءها الأعزاء ، ممقوتين غرباء . . . » .

ولكن مصطفى كامل لم يحترف المحاماة ، ولم يترافع فى قضية فرد أبداً ، وقرر منذ اللحظة الأولى أن يقف حياته كلها على المرافعة فى قضية واحدة ، هى قضية مصر .

ويروى أخوه على فهمى أنه عندما عاد إلى مصر أحضر معه صندوقين كبيرين مملوءين بالكتب والوثائق المتعلقة بالمسألة المصرية ، وأنه عكف على دراستها وتلخيصها وكأنه يستعد للمرافعة فى قضية كبرى .

* * *

عندما نهض مصطفى كامل برسالته ، كان الاحتلال البريطانى قد مضى عليه أكثر من عشر سنوات ، وكان اليأس قد ران على النفوس بعد إخفاق

الثورة العرابية واستسلام زعمائها ، وانصرف الناس إلى رعاية مصالحهم الخاصة ، والتمس الكثيرون رضاء المحتل ليضمنوا المنصب والجاه .

وكانت هناك مع ذلك قلة من أهل الرأى تفكر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، ويجتمع بعضهم للتشاور وتبادل الرأى . كان لطيف باشا سليم مثلاً يرى كما يقول على فهمى كامل « إنه لابد من تكوين حزب منظم يعمل لصالح البلاد ويدافع عن حقها وكرامتها . . » .

ولكن هذا الحزب ظل فكرة تراود لطيف سليم وأصحابه ، واقتصرت جهودهم على الاجتماعات والندوات يعقدونها فى الغرف المقفلة ، وهى الندوات التى كان يحضرها مصطفى كامل منذ كان يدرس الحقوق ، ولا شك أن ما سمعه فيها كان له أثره فى تحديد اتجاهه وأسلوب كفاحه .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان فى رسالته عن مصطفى كامل إنه يمكن تقسيم المصريين بعد محنة الاحتلال إلى ثلاث طوائف . طائفة كانت ترى المقاومة والنضال ولكنها تتساءل كيف نقاوم ، وبماذا نقاوم . وطائفة ثانية اختارت الاستسلام وقبول الأمر الواقع والتعاون مع المحتل ، ويمثلها مصطفى فهمى ومحمد رياض . أما الطائفة الثالثة ، طائفة المعتدلين ، فكانت ترى من الخير أن تتوسط « فنصادق الأقوياء ونتعلم منهم ونحاكيهم ثم ننافسهم عسانا نستعيد ما فقدنا . . . وكان الشيخ محمد عبده رمز هذه الطائفة .

أما الطائفة الأولى ، طائفة المقاومة والنضال ، طائفة الفطرة السليمة والغريزة التى لم يفسدها اليأس فقد وجدت لسانها وقلبها فى مصطفى كامل . . . »

والواقع أن مصطفى كامل لم يتردد فى اختيار طريقه ، فقرر أن يجهر

بحق بلاده فى الحرية والاستقلال ، وأن يحول الأصوات الهامسة إلى زئير فى وجه الاحتلال وأن يطالب بريطانيا علناً وبأعلى صوت بالجلاء عن مصر ، وأن يقف حياته وجهوده كلها على تحقيق هذا الهدف العظيم .

ورأى أن السبيل إلى تحقيق ذلك تبدأ بمحاربة اليأس ، واستنهاض الهمم ونشر الدعوة الوطنية بين المصريين ؛ وتحريك أشواقهم إلى الحرية وإثارة كبريائهم الوطنى ، وبث الإيمان فى نفوسهم بقدرتهم على نيل حقوقهم واستعادة أمجادهم . وبذلك يخلق رأياً وطنياً عاماً يلتف حول مبادئه وينادى بها ويجاهد لتحقيقها .

وكان يرى فى نفس الوقت أن ينشر الدعوة لقضية مصر فى الخارج ، وبذلك يشرح المسألة المصرية للرأى العام الأوربى ، ويحمل الدُّول الأوربية على الاهتمام بها ومساعدة مصر على تحقيق أمانيها المشروعة .

وهكذا حدد مصطفى كامل طريقه وعرف دوره .

إنه دور الداعية للحركة الوطنية فى داخل بلاده وخارجها .

أما فى الداخل فقد كان عليه كما يقول الأستاذ فتحى رضوان أن يثير الروح الوطنى القائم ، وذلك بتثبيت العقيدة ، وتحريك الإيمان ، وبعث الثقة بالنفس وإيقاظ الأمل ، ثم مخاصمة العدو ، ومنازلته وعدم مسالمته أو مهادنته .

وأما فى الخارج فكان يهدف إلى بيان عدم شرعية الاحتلال ويريد أن يفضح كذب بريطانيا فى وعودها المتكررة بالجلاء ، ويثبت أحقية المصريين فى الحرية وجدارتهم بحكم أنفسهم ، ويوضح أن مصالح

الدول المختلفة فى مصر تقضى عليها بمساعدة المصريين للتخلص من الاستعمار البريطانى .

وكانت الخطابة والكتابة وسيلته وعدته الكبرى فى الجهاد الشاق . الذى وهب له حياته .

كان مصطفى كامل خطيباً موهوباً منذ صباه .

والخطابة موهبة طبيعية ، واستعداد فطرى ينمو ويصقل بالتجربة والممارسة والمران .

وقد روى أخوه على فهمى كامل فى كتابه أن نظارة المعارف أقامت حفلاً لتوزيع الجوائز على الطلبة المتقدمين عندما كان « مصطفى » تلميذاً فى مدرسة القربية الابتدائية ، وكان مصطفى هو الفائز بالجائزة من تلاميذ تلك المدرسة .

وحضر الخديو توفيق حفل توزيع الجوائز فلما جاء دور مصطفى لتسلم جائزته ، ألقى خطبة أثارت تصفيق الحاضرين وإعجاب الخديو الذى سأله عن اسمه فأجابه :

– اسمى مصطفى كامل .

فهمس فى أذنه ضابط المدرسة :

– قل عبد سموكم مصطفى كامل .

ولكن مصطفى أعرض عنه ، وسأله الخـــديو عن عمره ، ثم عن اسم أبيه فقال :

– المرحوم على أفندى محمد المهندس .

فعاد الضابط المذعور يهمس فى أذنه :

– قل عبد سموكم . . .

ولكن الصبي لم يفعل ، وقال له الخديو :

– فتح الله عليك .

– شكراً للأمير المعظم .

وبعد انتهاء الحفل قال مصطفى للضابط :

– ما كنت عبداً وما كان أبي عبداً لأحد ، ولو أجبت بغير الواقع لكنت كاذباً . .

وهذه القصة تبين أن مصطفى لم يكن منذ صباه الباكر يهاب مواجهة الجموع والتحدث إليها ، فما بالك بمواجهة أمير البلاد فى حفل عام ، والتحدث إليه بشجاعة تأبى النفاق وتنم عن اعتزاز بالنفس وتمسك بالكبرياء .

وفى المدرسة الثانوية أنشأ مصطفى كامل «جمعية الصليبة الأدبية» وكان يخطب فى اجتماعاتها الأسبوعية وفى غيرها من الجمعيات . ولا شك أن نشاطه الخطابي فى هذه الجمعيات قد أفاده ، وهيأ له الممارسة العملية لمواهبه ، وأكد ثقته فى نفسه كخطيب .

ومما يروى أن على مبارك باشا ناظر المعارف زار المدرسة الخديوية ودخل فصل مصطفى ، وطلب من المدرس أن يدله على أقدر التلاميذ فى كتابة الإنشاء فأشار إلى مصطفى كامل ، فطلب منه الوزير أن يرتجل خطبة فيما يريد أن يصنع بعد نيله شهادة الدراسة الثانوية ، فوقف مصطفى وارتجل كلمة ، كان مما قاله فيها :

– ولقد علمت من أحاديث المرحوم أبي ، ودروس أستاذنا الفاضل

معلم التـاريخ ، أن أعظم الرجال شأناً من يحرر بلاده وينقـــذ أمته من ربقة الذل والاستعباد ، وسوف أحاول أن أكون ذلك المحرر الذى يخطب ويكتب ويضرب الأمثال ، مبشراً بما فى الحرية من العزة والحياة ، ومنذراً بما فى الذل من الموت والصغار ، وأرجو الله تعالت حكمته ، وجلت قدرته ، أن يوفقنى إلى ذلك . . . .

هذه هى إرهاصات الزعامة وبشائر الخطيب الكبير .

تلميذ فى المدرسة الثانوية يسأله الوزير عن المهنة التى يريد اختيارها بعد انتهاء دراسته ، فلا يفكر فى اختيار مهنة الطب أو الهندسة أو المحاماة ، ولكنه يقول بداهة إنه يريد أن يكون المحرر لبلاده من الاستبعاد . . . !

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى :

– يجدر بنا أن نتساءل من أين جاءت مصطفى كامل هذه الروح الوطنية فى عصر اكتنفته عوامل اليأس والقنوط ، وكيف نهض وحده وهو فى هذه السن المبكرة ؟ لا تعليل لهذه النشأة إلا أنها قبس من نور العبقرية ، وقد اتجهت هذه العبقرية إلى إحياء الوطن ، وبعث الحركة القومية من مرقدها ، ومن مداد هذه العبقرية خط التاريخ دوراً عظيماً من أدوارها ، وكان مصطفى منشئ هذا الدور ، إذ نفخ فى الأمة من روحه . . . إلخ .

وفى مدرسة الحقوق انفسح أمامه مجال الكتابة والخطابة ، فكان ينشر المقالات فى جريدتى الأهرام والمؤيد ، وأنشأ مجلة « المدرسة » ، ومارس نشاطه الخطابى فى الجمعيات التى كان على صلة بها ، وفى مدرسة الحقوق التى كان من زعمائها . ولـما زار الخديو عباس الثانى

المدرسة خطب أمامه وألقى قصيدة من نظمه . وقد رأينا كيف سلح نفسه بعد عودته من فرنسا بدراسة الكتب والوثائق التى تتعلق بالقضية التى وهب حياته للدفاع عنها ، واستكمل بذلك عدته كخطيب . فأى نوع من الخطباء كان مصطفى كامل ؟

إن الذين كتبوا عنه من مؤرخيه أو معاصريه الذين سمعوه على المنبر لم يهتموا كثيراً بتحديد شخصيته وملامحه الخطابية ، ولم يصفوه إلا بعبارات عامة مبهمة تدل على إعجابهم ، ولكنها لا تكفى لإعطاء صورة حية لمصطفى كامل على المنبر ، قال الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى كتابه :

– هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة ، وأول خطيب سياسى جهر بالاستقلال فى عهد الاحتلال ، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية ، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة بتطورها واتساع مداها ، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة فى تاريخ الحركة القومية . كان خطيباً مفوهاً يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية . والخطابة بعد الوطنية ، كانت أبرز الجوانب فى شخصيته . كان إذا جلس فى محفل وتكلم مع الحاضرين يدوى صوته كأنه يلقى على السامعين خطبة من خطبه الرنانة ، وكان جهورى الصوت يتكلم من أعماق قلبه المملوء يقيناً وإيماناً ، وكان له سلطان روحى على من حوله من السامعين .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان :

– لقد أتاح الله لمصطفى كامل خيالاً ولساناً وقلماً وهمة جعلته الداعية القوى للوطنية المصرية فى أوائل القرن العشرين .

وكتب الأستاذ محمد مسعود فى الكلمة التى قدم بها كتاب « مصر والاحتلال الإنجليزى » الذي نشر فى عام ١٨٩٦ وكان يضم أعمال مصطفى كامل وخطبه ومقالاته وأحاديثه فى العام الأول من جهاده :

– إذا ارتقى المنبر ذلل له القول ، وسخر له الخطاب ، وتابعه الكلام متفق القرائن ، مطرد السياق : حتى يستميل إليه القلوب النافرة ، ويرد الأهواء الشاردة .

والواقع أن مصطفى كامل كان يملك كل ما يحتاج إليه الخطيب العظيم .

شاب متوسط القامة ، رشيق القوام ، بهى الطلعة ، له وجه نبيل يوحى بالثقة ، وعينان جميلتان تفيضان بالحيوية ، ينبعث منهما بريق هادئ يجذبك إليه ، وشارب طويل رقيق مفتول الطرفين كأنه علامة مميزة تشير إلى أن لصاحبه من الرجولة والنضج ما يعلو سنه . لا تكاد تجلس إليه حتى تشعر أنك أمام شخص صريح مستقيم الخلق ، واثق بنفسه فى غير غرور ، يتقد ذكاء وكبرياء .

وصوت قوى له جرس ورنين ، واضح النبرات ، فيه عذوبة ورقة ، يعرف كيف يلونه عند الخطابة . كان يبدأ كلامه بصوت هادئ فيسترعى الانتباه وتتعلق الأسماع بشفتيه ، ثم يرتفع شيئاً فشيئاً حتى تغمر نبراته الحلوة الرنانة أرجاء المكان .

وصفته إحدى الصحف الأجنبية التى كانت تصدر بالإسكندرية وهى تعلق على خطاب ألقاه عام ١٨٩٧ بمسرح زيزينيا فقالت :

– أما صوته فحسن جهورى ، ذو رنة قوية ، ولذلك كان يسمع

من كل أرجاء المسرح ، حتى استطاع كل من كان حاضراً ضمن هذا الجمع الحاشد أن يستوعب كل أقوال الخطيب ، التي كان يلقيها بعبارات فصيحة خالية من شوائب التعقيد » .

وكان مصطفى كامل أنيق الملبس ، حسن الهندام ، وكان من عاداته إذا ذهب للخطابة فى اجتماع كبير من الاجتماعات التى كان يدعو إليها فى المسارح وغيرها ، أن يرتدى « الردنجوت » فكانت أناقته تؤكد مظهره الوسيم النبيل .

ولقد قيل إن مصطفى كامل لم يكن يرتجل خطبه ، والواقع أنه كان خطيباً مطبوعاً قديراً على الارتجال ، وله خطب مرتجلة فى مناسبات كثيرة ، ارتجلها بالعربية والفرنسية تؤكد أصالته الخطابية .

ولكنه فى المناسبات الكبرى ، عندما كان يدعو لعقد اجتماع لسماع إحدى خطبه ، كان يكتب خطبته كاملة ، ثم يستوعبها فى ذاكرته القوية ، حتى إذا وقف على المنبر كان مالكاً لعناصر الموضوع ، مطمئناً إلى المرجع أمامه ، ثم ينطلق فى خطبته لا يكاد يعود إلى الورق الذى أعده ، تسعفه ذاكرته المدهشة ، وطبعه الفياض ، ووضوح الفكرة فى نفسه ، وقدرته الفائقة على التعبير .

وكان يخطب بأعصاب هادئة ، ويؤكد كلامه أحياناً بالإشارة الرشيقة ، ولم يكن مع ذلك كثير الحركة على المنبر ، وإنما هى يده يرفعها أو ينزل بها مشيراً بسبابته فى موضع التوكيد .

أما أسلوبه الخطابى فكان أسلوباً قوياً متدفقاً خالياً من زخارف الصناعة اللفظية . فأنت تقرأ خطب مصطفى كامل فلا تجد فيها سجعة

مفتعلة أو عبارة طنانة مبتذلة ، وهى مع ذلك نموذج رائع لما يمكن أن يقوله الخطيب فى مثل ظروفه . كان يحاول بعث الروح الوطنى ، وتعميق الشعور بحب مصر ، وتجميع الجهود لنوع من الثورة السلمية تطالب بالجلاء وتسعى لتحقيقه بالطرق المشروعة . كان يحاول ذلك فى مواجهة قوى عاتية تتربص به ، وتحاول النيل منه وتشويه حركته واتهامه بالتعصب الدينى والتحريض على كراهية الأجانب وإثارة الفتنة والسعى لتكرار مأساة الثورة العرابية .

ولهذا كان عليه أن يتكلم فى خطبه بحماسة الزعيم وكياسة السياسى الحذر ، فلا يطلق العنان للعبارات الحماسية الجامحة ، بل يحكم لسانه بعقله الذكى ووعيه المسئول .

وليس معنى هذا أنه كان يخشى مواجهة الاحتلال بصراحة ، فقد كان يفعل ذلك بشجاعة لا تهاب شيئاً ، ولكنه كان يتحرز أن يتمسك عليه أعداؤه بشىء يسيئون به إلى الحركة الوطنية التى يتزعمها .

وكانت خطبه سهلة خالية من التعقيد لأنها صادرة من قلب يؤمن بما يقول فتجد طريقها مباشرة إلى قلوب سامعيه ، حاملة الحجة الدامغة ، والمنطق السليم ، والشعور الصادق .

وبنفس هذا الأسلوب البليغ كان يخطب بالفرنسية التى أتقنها فينتزع إعجاب من يسمعه من الأجانب فى مصر وأوربا .

* * *

ومهما حاولنا أن ننقل شيئاً من مواقف مصطفى كامل الخطابية ، فلن نستطيع أن ننقل للقارئ تلك الحياة الزاخرة التى كانت تنبعث منها وهو

يلقيها أمام جمهوره ، ولسوف تظل مجرد كلمات جامدة على الورق بعد أن فقدت تلك النبرات الرنانة التى كانت تبهر ، والنغمات الحلوة التى كانت تسحر ، والنظرات التى كانت تشع ناراً ونوراً ، وبعد أن سقط حجاب الزمن بيننا وبين الخطيب ومنصته ، والزعيم وحماسته ، ولم يبق لنا إلا النصوص تتراءى من خلال سطورها أطياف شاحبة لمظاهر عظمة الخطيب .

لم يكد مصطفى كامل ينتهى من دراسته بفرنسا حتى تفرغ على الفور لرسالته الوطنية الكبرى ، فعاد إلى فرنسا فى العام التالى ليدعو لقضية بلاده فى الخارج ، وقدم عريضته المصورة الشهيرة إلى مجلس النواب الفرنسى ، وأدلى بحديث سياسى إلى جريدة « الجورنال » ، ثم عقد اجتماعاً فى جامعة تولوز وألقى خطبة بالفرنسية شرح فيها قضية مصر واعتداء بريطانيا عليها ووعودها المتكررة بالجلاء ، وطالب فرنسا ودول أوربا بمساعدة بلاده لاسترداد استقلالها ، ثم نشر رسالة ضافية عن « أخطار الاحتلال البريطانى » وسعى مصطفى كامل إلى التعرف بمدام جوليت آدم ، فكتب لها رسالة جاء فيها :

– إننى لا أزال صغيراً ، ولكن لى آمالا كباراً ، فإنى أريد أن أوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطنى لا وجود له ، وأنا أقول يا سيدتى إنه موجود ، وأشعر بوجوده بما آنس له فى نفسى من الحب الشديد الذى سوف يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود فى سبيله بجميع قواى ، وأفديه بشبابى ، وأجعل حياتى وقفاً عليه . . . . »

يالها من رسالة تلخص برنامج مصطفى كامل وحياته كلها . . !

إنه يريد أن يوقظ فى مصر الهرمة مصر الفتاة .

وسوف يجود بقواه كلها فى سبيل وطنه ويفديه بشبابه ، هذا الوطن الذى يحبه حباً شديداً سوف يتغلب على كل حب سواه .

وقد بر مصطفى بوعده ، ووفى بعهده ، فوقف حياته كلها على الجهاد لبعث وطنه . وطوى قلبه على حب مصر وحدها ، وعاش بغير زوجة تخفف عنه متاعب الكفاح ، ثم سقط كما يسقط الجندى فى الميدان فذهب شهيداً فى عمر الزهور .

كانت خطبه التى يلقيها فى مصر تهدف إلى تحقيق أغراض كثيرة . كان يريد أن يوقظ فى قلوب مواطنيه حب بلادهم حتى يتعلقوا بها ويجاهدوا لتخليصها من ذل الاحتلال . فهو يقول فى أول خطبة سياسية له بمصر ، ألقاها فى ٣ مارس ١٨٩٦ بالمسرح العباسى بالإسكندرية :

– ألا تحبون مصر التى خيم عليها الشقاء ، وحل بها البلاء ، تناديكم وأنتم حولها « ألا فانصروني يا أعز البنين ، ألا فارفعوا شأنى بين الأمم ، واجعلوا لى مكانا فسيحاً بين الشعوب الحية » . أجل . . إنكم تحبونها ، ويجب أن تحبوها وتحنوا عليها كما يحنو المرء على أمه إذا اعتلت ، ويسعى فى خدمتها ويبحث عن دوائها .

ولا يكن حبكم وقفاً عند الحب ، بل لتتجاوزوا ذلك إلى العمل لخيرها وإعلاء شأنها .

وإن يوماً تجتمع فيه قلوبنا على محبة بلادنا وخدمتها ، لهو يوم تحقيق الآمال ، وعندئذ يحق لنا أن نقف أمام الأمم كافة وننادى بأعلى صوتنا وبكل فخار : نحن بنو مصر الأحرار .

وفى خطبة أخرى له يتحدث عن مصر حديث العاشق الولهان فيقول :

– يقول الجهلاء إنى متهور فى حبها ، وهل يستطيع مصرى أن يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها فلن يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها .

ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوا بها ، واقرأوا صحف ماضيها واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض ، هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ، وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ، وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعباً يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح فى حقها .

إنى لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً .

قد يرى السفهاء أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصرى مما لا يليق بإنسان ! ولكن أى شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التى سبقت الأمم كافة فى العلم والمدنية والأدب ؟ أى رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذاً لشعوب البشرية ؟ أى سؤدد ترمى النفوس إليه أعلى من إخراج وطننا المصرى من الظلمات إلى النور وإحلاله المحل الأول بين الأوطان الأخرى التى كانت فى الدجنة الحالكة يوم كانت بلادنا مشرقاً للعرفان ؟ .

وفى الاحتفال بمرور مائة عام على ولاية « محمد على » يقول من خطبة طويلة :

– صبراً أيها الوطن المحبوب على بلواك ! فما ازدحم بنوك اليوم إلا

لينشدوا أكبر العصور وأعظم الأيام ، ويجمعوا أمرهم بينهم على إحيائها بالجد والعمل والوفاق والوئام . صبراً أيها الوطن العزيز صبراً ، فقد ناجت الضمائر وتفاهمت النفوس والخواطر ، وشعر كل مصرى بأنه الوارث لأفضل الأوطان وأعز البلدان .

ثم يقول مذكراً مواطنيه بالأمجاد الحربية التى حققها أجـــدادهم بقيادة إبراهيم باشا :

– ما هذا المجد الفخيم الذى يحدثنا عنه التاريخ ؟ أين ذلك المصرى الذى كان إذا جاب المدائن والممالك تحولت عن غيره الأنظار والتفتت إليه الشعوب بعيون الإعجاب والاعتبار ؟

أين ذلك الذى إذا فاخر القوم ببلادهم أعطى المقام الأول ونال الشرف الأعلى وعد وطنه فى مقدمة الأوطان ، ومصره فى الصف الأول من مصاف الأمصار والبلدان .

أين عصر نقل عنه الناقلون أن الدول غدرت بمصر وأحرقت أسطولها فى « نافارين » وأغرقت من بحارتها البواسل ستة آلاف ، وتقدم ضابط فرنسى بالخبر إلى إبراهيم باشا ، فهز رأسه ساخراً وقال « ما أنشئت السفن والبواخر إلا لتكون فريسة النار أو البحار ، فلست بآسف عليها ، وإن والدى لقادر على أن يجدد مثلها فى عام أو بعض عام » .

أين ذلك العهد البعيد ليتعزى به المصرى الحزين الأسيف ؟

أين هو ليبعث فى القلوب الميتة شيئاً من الحياة والقوة ، ويدل المصرى على حقيقة موقفه وقيمته ومكانته .

أين هو ليخطب فيكم بلسان الحال ، فيبلغ من نفوسكم مالا يبلغه لسان المقال » .

ثم مضى مصطفى كامل يحارب اليأس فى خطبه ، ويعمل على أن تثق الأمة بنفسها وبقدرتها على تحقيق آمالها فى الحرية والاستقلال . وكان يقول :

– إن ثقة الأمة بنفسها هى الأساس الذى يبنى عليه مجدها ويشاد عزها وسؤددها . ترى الأمة إذا اعتقدت الخير و القدرة فى مجموعها وأفرادها تغلبت على الحادثات والأيام ، وقهرت ألد أعدائها ، واجتازت المصاعب غير هيابة ولا وجلة .

وكان شعاره الذى أطلقه فى هذا الشأن :

– لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة .

ويقول فى إحدى خطبه :

– عجباً وألف مرة عجباً ! كيف تسىء الظن بنفسها أمة تغلبت على الأيام والحوادث ، وقاتلت الليالى وما ولدت ، وقاومت تيارات الزمان أجيالا طوالا ، وأوقفتها وهى فى منتهى قوتها . كيف يقول بعض أبناء هذه الأمة عنها إنها ماتت وزالت آثارها وأصبحت نسياً منسياً وهى التى اهتز لمجدها الشرق والغرب ، وسارت الركبان بأحاديث مفاخرها . كيف يقضى اليائسون عليها وقد كانت قبل عهد محمد على أكثر أدواء وأقل أملا فى الشفاء من الآن ثم عادت لها الحياة والقوة والجاه والعز ورفعة الشأن .

وفى أول خطبة له بالإسكندرية قال :

– إن فى مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعى الأمل ، فلبست

ثياب اليأس ، وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز ، وجعلت مهمتها فى الأمة تثبيط الهمم وإقعاد العزائم ، فلا تنادى فى المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ فى المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية ، وأن شعبها قد مات من زمن طويل .

وعندى أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم الضرر ، إذ أن قتل العواطف الشريفة ، وإخماد نار الغيرة الوطنية هما أكبر جناية على الوطن وأهله . فلنترك هؤلاء اليائسين فى سفن يأسهم تصعدهم أمواج الأفكار وتهبط بهم حتى نصل بهم إلى شاطئ الخير والرفاهية فنذكرهم عندئذ بفساد مزاعمهم وخطأ آرائهم .

ويقول فى إحدى خطبه الأخيرة :

– إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع ، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصرى ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة ، وسيكون كذلك لا محالة . فمهما تعددت الليالى وتعاقبت الأيام ، وأتى بعد الشروق شروق ، وأعقب الغروب غروب ، فإننا لا نمل ولا نقف فى الطريق ولا نقول أبداً : لقد طال الانتظار .

إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم فى ماضى الأيام وحاضرها ، فلا الدسائس تخيفنا ولا التهديدات تقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية .

نعم . . إننا لو تخطفنا الموت من هذه الديار واحداً بعد واحد ، لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا « كونوا أسعد حظاً منا ، وليبارك الله فيكم

ويجعل الفوز على أيديكم ، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس .

بلادى . . بلادى . . لك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك روحى ونفسى ، لك عقلى ولسانى ، لك لبى وجناني ، فأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يا مصر .

* * *

وكان على مصطفى كامل أن يوجه الشعور الوطني الذى أخذ يتنبه وينمو إلى مخاصمة الاحتلال ومقاومته ، فأخذ يهاجمه فى خطبه ويدلل على عدم مشروعيته ويعدد مساوئه ، ويفند المزاعم القائلة بأنه أفاد البلاد وأنقذها من الفوضى والفساد . ولم يكن هذا بالأمر الهين فى تلك الظروف التى كانت الجنود البريطانية فيها تحتل البلاد ، واللورد كرومر هو الحاكم الفعلى ، والموظفون الإنجليز يسيطرون على المرافق والوظائف الكبرى ، والوزارة المصرية تنفذ أوامرهم فى استسلام كامل ، والانتهازيون يتملقون المحتل ليظفروا منه بالجاه والمنصب . فكان على مصطفى كامل أن يستل الخوف من القلوب ويبث فيها الشجاعة حتى تنبض بروح المقاومة ، وذلك بغير أن يدفع بها إلى عنف لم تتهيأ لها وسائله . ولهذا كانت خطب مصطفى كامل فى هذا الشأن « مزيجاً عجيباً جداً من الحماسة والاعتدال ، كما أنها جمعت بحذق ومهارة بين مخاصمة الإنجليز وتأليب المصريين على احتلالهم وبين البعد عن الألفاظ الحماسية الرخيصة الجوفاء » كما يقول الأستاذ فتحى رضوان فى كتابه الصغير القيم عن مصطفى كامل .

وقد بدأ مصطفى كامل كفاحه الرائع ضد الاحتلال بحركة سياسية

بارعة فكتب رسالة إلى « جلادستون » زعيم الأحرار الذى كان رئيساً للوزارة البريطانية عند وقوع الاحتلال والذى ألقى تصريحات سابقة أمام مجلس العموم أعلن فيها أن الاحتلال إجراء مؤقت وأن بريطانيا تبحث عن وسيلة للخروج من مصر بشرف . وجاءه رد « جلادستون » فى يناير ١٨٩٦ متضمناً قول الزعيم البريطاني الذى كان قد تخلى عن الحكم « إن زمن الجلاء على ما أعلم قد وافى منذ سنين » .

ونشر مصطفى كامل الرسالتين فى مصر وأوربا فكان لهما صدى عميق فى الدوائر السياسية والوطنية .

وفى خطبته السياسية الأولى بالإسكندرية دعا المواطنين إلى نبذ العنف والتمسك بالحكمة والاعتدال ، وأطلق شعاره المعروف « أحرار فى بلادنا كرماء لضيوفنا . . » وقال إنه ليس من غرضه أن يندد بالأمة الإنجليزية « لأني أترفع عن أن أدافع عن بلادى بالطعن والسباب ، فضلا عما أحس به دائماً من وجوب احترام الشعب الإنجليزى » وقال :

– إن الخلاف بيننا وبين إنجليز هو : هل زمن الجلاء عن مصر قد حان أو لم يحن ، فدول أوربا ذوات المصالح فى مصر تقول معنا إن زمن الجلاء قد حان منذ أعوام ، والمستر جلادستون زعيم الأحرار وأكبر سياسى إنجليزى يقول ذلك أيضاً . . .

ومضى يقول :

– وإلا فهل يرضى أبناء إنجلترا أن يستعمل شرفهم آلة دنيئة لامتلاك بلاد حرة واستعباد أمة حرة ؟ وهل ترضى الأمة البريطانية الغيورة على

مقامها واحترامها أن يقال عنها إنها لا شرف لها ولا احترام لكلمتها العلنية وعهودها الصريحة ؟

وفى نهاية الخطبة طلب مصطفى كامل من الحاضرين أن يرفعوا أيديهم إذا كانوا يوافقونه على مطالبة بريطانيا بالجلاء ، فرفع الجميع أيديهم فى حماسة بالغة .

وكتبت جريدة « المؤيد » تقول :

– إنها الخطبة الأولى التى أقدم على إلقائها شاب مصرى غيور ، عرف واجب الوطن وضرورة التفانى فى حبه المقدس بعد أن مر على الاحتلال الأجنبي أربعة عشر عاماً . ولقد استهوى الخطيب المسامع بحسن إلقائه وبلاغة منطقه وغزارة مادته ولطيف اعتداله .

وكان لهذه الخطبة دوى عظيم فى الإسكندرية ، تردد صداه فى أرجاء مصر وظهر تأثيرها فى نفوس المواطنين يوم عودته من الإسكندرية إلى القاهرة ، فكان توديعه بالمحطة مظاهرة وطنية اشترك فيها جمع حاشد من الناس يتقدمهم أعيان الثغر ، وقدموا لمصطفى كامل وساماً من الفضة ، وأمطروه بالأزهار ، وهتفوا له عندما تحرك به القطار .

وأدركت سلطات الاحتلال خطر مصطفى كامل ودعوته إذا انتشرت ، وأرادت إرهابه والانتقام منه ، فدبرت محاكمة عسكرية لأخيه على فهمى كامل الضابط بالجيش عن تهمة وهمية ، وحكم بإنزاله إلى رتبة نفر . ثم دبروا مؤامرة أخرى لتجنيد مصطفى كامل حتى تسكت صوته ، ولكنه أحبط المؤامرة ، كما استطاع أن يحصل من الخديو على أمر بالعفو عن أخيه .

وخطب مصطفى فى مسرح زيزنيا بالإسكندية فى اجتماع ضم أعضاء

الجاليات الأوربية ، خطبة بالفرنسية ، كان مما قاله فيها :

– إذا كانوا يحسبون أنهم أوقفونى إلى الأبد ، إذ يظنون بسذاجة لا مثيل لها أن الظلم الذى أوقعوه أخيراً بأحد إخوتى يضعف قواى أو يوهن عزيمتى أو يقلل من جهادى فى سبيل سعادة بلادى ، فقد أخطأ ظنهم وخاب سعيهم ، لأن الضعف لن يعرف طريقه إلى نفسى ، وسوف أستمر فى الدفاع عن وطنى العزيز بكل ما لدى من قوة ، وسوف أمضى فى شرح قضية مصر ووصف آلامها والمناداة فى كل مكان بحقوقها المقدسة ، والمطالبة بحريتها واستقلالها ، ولن يوقفنى عن ذلك إلا الموت .

ثم شرح فى خطبته قضية الجلاء والسودان ، وكيف أن ما يطالب به لا يتعارض مع مصالح الأجانب بل يعزز هذه المصالح وقال :

– إننى أعلم جيداً أيها السادة أنكم تؤيدون الجلاء ، لأن ذلك يتفق مع مبادئ العدالة والشرف الدولى من جهة ، ولأن مصالحكم تقضى به من ناحية أخرى . أجل . . إن من مصالح الأوربيين النازلين فى مصر أن يتحقق الجلاء ، لأنه إذا صارت إنجلترا مالكة لمصر فإن حياة الأوربيين على ضفاف النيل تصبح مستحيلة ، ذلك أن إنجلترا سوف تضع يدها على كل شيء ولا تترك لغيرها شيئاً ، وتدعى عندئذ أنها الوكيلة الوحيدة للمدنية فى وادى النيل متجاهلة مصالحكم أنتم وكلاء المدنية الأوربية فى العلوم والفنون ، كما أنكم وكلاؤها فى التجارة والصناعة . .

ومضى مصطفى كامل يشدد حملته على الاحتلال ، وأخذ يجوب البلاد شرقاً وغرباً ، متنقلا بين عواصم أوربا ، يكتب ويخطب ، ويعقد المؤتمرات ، ويدلى بالأحاديث ، ولا يترك فرصة إلا انتهزها رافعاً صوته بدعوته .

وكم أرهق جسمه النحيل بالعمل المتواصل ، ولم تكن المصاعب والعقبات تثنيه عن طريقه أو تضعف من عزيمته ، بل كانت تزيده ايماناً وإصراراً .

فى عام ١٨٩٨ وقعت حادثة « فاشودة » عندما تقدم الكابتن الفرنسى « مارشان » على رأس حملة صغيرة واحتل هذا الموقع الفرنسى الهام فى السودان ورفع عليه العلم الفرنسى . وفهم المصريون أن فرنسا تهدف بذلك إلى صد التيار الإنجليزى فى قلب أفريقيا وفتح باب المسألة المصرية حتى تضطر إنجلترا لتنفيذ وعودها بالجلاء . ولكن أملهم خاب عندما أسرع « كتشنر » واضطر « مارشان » إلى إخلاء الموقع فانسحب ونفضت فرنسا يديها من الأمر كله .

كان هذا الحادث صدمة للحركة الوطنية ، وكتبت مدام جوليت آدم تقول عنها .

— « فاشودة . . . إنها الضربة القاضية ! إن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديو والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وقالوا لهم إن بعثة « مارشان » هى الحاملة لراية استقلال مصر ، فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان ، ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين .

وهب مصطفى كامل يحارب موجة اليأس الجديدة ويقول :

— إننا لم نيأس ولن نيأس أبداً من مستقبل الوطن العزيز . فإننا نعلم علم اليقين أن مصر مقبرة للأمم الطاغية ، ونعرف أن حظ إنجلترا فيها سيكون كحظ الدول التى سبقتها . ولكننا إذا كنا غير يائسين من مستقبل بلادنــا ، فإننـا يائسون من أى تعضيــد يأتينا من أوربا ، وأصبحنا

نوجه همتنا ونشاطنا لتعليم الأمة وتربيتها بإنشاء المدارس حيث ينشأ الشباب على أشرف مبادئ الوطنية . . » .

وهكذا أدرك الزعيم الشاب أن مصر يجب أن تعتمد على جهود أبنائها وجهدهم إذا أرادت أن تظفر بالاستقلال ، وأن الكفاح لتحقيق هذه الغاية سوف يطول ، فاندفع بكل قواه يمد الحركة الوطنية بمزيد من الجهد والعمل ويطارد شبح اليأس ، ويرسم طريق العمل البناء فى إحدى خطبه :

– ما هذا السم القتال الذى تناولته الأمة عن طيب خاطر ؟ ما هذا البلاء المدمر الذى حل بالبلاد وتساقط على رءوس أهلها وهم إليه ناظرون ؟ كيف تنسى هذه الأمة العزيزة أنها هى التى فتحت وقهرت وضربت وانتصرت وبهرت العالمين بقدرتها وشدة بأسها ؟ ! لا ريب أن أصل هذا البلاء وجرثومة ذلك الداء إهمال أمر التربية الوطنية . . .

ودعا مصطفى كامل إلى إنشاء المدارس الحرة التى تنشر التعليم القومى ، فأنشئت أول مدرسة تحمل اسمه فى عام ١٨٩٩ .

ثم رأى أن تكون له صحيفة يومية وطنية يتصل عن طريقها بالرأى العام ، فتكون له بمثابة منبر دائم يلقى منه آياته الوطنية ، وهكذا صدر العدد الأول من جريدة « اللواء » فى ٢ يناير ١٩٠٠ .

وعندما أبرمت إنجلترا وفرنسا « الاتفاق الودى » فى عام ١٩٠٤ وقد جاء فيه أن إنجلترا « ليس فى نيتها تغيير الحالة السياسية فى مصر » ، وتعهدت الحكومة الفرنسية من جانبها « ألا تعرقل عمل إنجلترا فى هذه البلاد لا بطلب تحديد أجل للاحتلال البريطاني ولا بأى صورة أخرى » ، وكان هذا الالتزام من جانب فرنسا يقابله التزام من بريطانيا ألا تعرقل عمل

فرنسا فى مراكش ، أدرك الجميع أن فرنسا قد تخلت نهائياً عن مساندة الحركة الوطنية ، وأنها تآمرت مع بريطانيا على تقسيم مناطق النفوذ بينهما فى الشرق .

وعاد مصطفى كامل مرة أخرى يطارد اليأس ويبث الثقة فى النفوس ، وألقى خطبة فى مسرح زيزينيا بالإسكندرية فى ٧ يونية ١٩٠٤ تحدث فيها عن الاتفاق الودى ، ومؤامرة بريطانيا وفرنسا على مراكش . وحمل على السياسة الاستعمارية الإنجليزية والفرنسية ، وهاجم سياسة الاستسلام التى يسلكها وزراء مصر ، ودعا إلى الثبات والكفاح وقال :

– إن الوطنية شعور ينمو فى النفس ويزداد لهيبه فى القلب ، ويرسخ فى الفؤاد ، كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه واشتدت كربته .

فإذا كنا قد افتخرنا بهذا الشعور الوطنى ورمينا كل من تجاهله بالخيانة أيام كنا نؤمل الخلاص القريب والجلاء العاجل ، فخليق بنا أن نتعلق به اليوم أضعاف تعلقنا به بالأمس ، وأن نقول لهذا الوطن العزيز الأسيف : كلما تمكن العدو منك ، تمكن حبك من القلوب ، وتعددت واجباتنا نحوك ، واشتد تمسكنا بحقوقك .

إن الذى يسمع صوت ضميره منادياً فى كل لحظة بوجوب خدمة الوطن وإعلاء شأنه يشعر بأن دم آبائه الذى يجرى فى عروقه يطالبه بتضحية النفس لتلك الأرض الطاهرة التى لا شرف له إلا بها ، ولا حياة بغيرها ، ولا رفعة بدون رفعتها ، ولا مجد إذا زال مجدها . إن الذى يسمع ذلك الصوت ، ويشعر بهذا الشعور لا يخاف العقبات والموانع ، ولا يخشى السباب والمطاعن ، بل يمضى فى طريقه ناظراً إلى الغاية التى طلبها ، والبغية التى

تعلق بها ، واجداً من سهام الأعداء ما يجده الجندى فى جراح الحرب من شرف وفخار . . » .

ثم كانت حادثة دنشواى .

ويقول الأستاذ فتحى رضوان إن الداعية كقائد الجيش يبقى متربصاً بعدوه الدوائر حتى إذا آنس فى صفوفه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها انطلق إليها بقوته جميعاً أو بأكثرها ليضمن تشتيت شمل خصمه والقضاء عليه . وكان مصطفى كامل كهذا القائد لا يزال يدور حول قلعة الإنجليز فى مصر وقلعة حكمهم ، حتى كانت حادثة دنشواى فوقعوا فى خطأ صارخ يختلف عن أخطائهم التى يرتكبونها كل يوم ، فشحذ مصطفى كامل قلمه وأطلق لسانه ، وجعل يصور المأساة فى ألوانها القاتمة . وأحست بريطانيا أنها العاصفة فأحنت رأسها كعادتها ، وسحبت اللورد كرومر طاغية قصر الدوبارة ، وعميدهم العتيد الذى يفاخرون إلى اليوم بعبقريته وطول باعه وشدة مراسه .

ذهب خمسة من الضباط الإنجليز لصيد الحمام فى قرية « دنشواى » فأصابت طلقة طائشة فلاحة كانت فى جرنها وأشعلت النار فى الجرن ، فاستغاث شقيق زوجها وهجم على الضابط يحاول انتزاع بندقيته ، وتكاثر الأهالى ، وجاء زملاء الضابط لنجدته ، وجاء فى الوقت نفسه شيخ الخفراء مع زملائه لتفريق الناس ، فتوهم الضباط الإنجليز أنهم يريدون بهم شرًّا ، فأطلقوا النار عليهم فأصابوا شيخ الخفراء وزميلاً له وآخر من الأهالى ، الذين ثارت ثائرتهم وهاجموا الإنجليز بالطوب والعصى فجرحوا بعضهم ، وأحاط بهم الخفراء وتحفظوا على بنادقهم وتمكنوا من حمايتهم من غضب الأهالى حتى جاء ضابط الشرطة . وفى خلال ذلك كان أحد الضباط وهو الكابتن

بول قد هرب من القرية وظل يعدو حتى سقط مغشياً عليه ، وثبت من تقرير الطبيب الشرعى البريطاني أنه مات من ضربة الشمس .

هذا هو حادث دنشواى بإيجاز ، وقد هاجت له سلطات الاحتلال ، وأراد « كرومر » أن يتخذه ذريعة ليضرب ضربة ترهب المصريين ، وتعيد هيبة الإنجليز التى زعزعتها الحركة الوطنية التى أشعلها مصطفى كامل .

وفى أيام قليلة انعقدت المحكمة المخصوصة ، وصدر الحكم بإعدام أربعة من الأهالى وبالأشغال الشاقة والحبس والجلد على سبعة عشر شخصاً آخرين ونفذ الحكم علناً فى قرية دنشواى .

وكان مصطفى كامل مريضاً فى باريس عندما علم بما حدث ، فثارت نفسه وكتب مقالاً بعنوان « إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدين » نشرته جريدة « الفيجارو » الفرنسية الشهيرة . وكان هذا المقال أروع ما كتب مصطفى كامل فى حياته السياسية . برغم مرضه ونصائح الأطباء قرر أن يهاجم الاحتلال فى عقر داره . تقول مدام جوليت آدم فى كتابها « إنجلترا فى مصر » :

— لقد طلب منى طبيبه أن أستخدم نفوذى لحمله على السفر إلى « فيشى » للراحة والاستشفاء ، ولكنى لم أستطع منعه من السفر إلى لندن عقب حادثة دنشواى ، لأن إخلاصه لبلاده ، ذلك الإخلاص المتناهى ، كان عنده فوق جميع الاعتبارات الشخصية ، وفوق الحياة نفسها .

وسافر مصطفى كامل إلى لندن فى ١٥ يولية من عام ١٩٠٦ ، واتصل برجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وأدلى بالأحاديث فى الصحف ، وترجم مقاله عن حادث دنشواى ووزعه على الوزراء وأعضاء البرلمان ،

والصحف ، ونجح فى إثارة الرأى العام البريطاني حتى انبرى بعض النواب الأحرار يستنكرون تصرف اللورد كرومر ، وكتبت بعض الصحف والمجلات الإنجليزية تذكر حكومتها بوعودها لمصر منذ بدء الإحتلال ، وتطالب بمنح مصر حكومة مستقلة .

وأقام مصطفى كامل وليمة كبرى بفندق كارلتون دعا إليها عدداً كبيراً من رجال الصحافة والسياسة وأعضاء البرلمان ، وألقى فيها خطبة بالفرنسية كان مما قاله فيها :

إن الحركة الموجودة فى مصر هى حركة وطنية أصيلة لا شك فيها ، فإن الشعب المصرى متمسك باستقلال بلاده أشد التمسك . وإذا كان بعض الساسة الإنجليز يتظاهرون الآن بنسيان الوعود والعهود التى قطعها رجالكم المسئولون علناً فإننا لم ننسها نحن أبداً ، بل لا يزال كل مصرى يكررها وسوف يكررها على الدوام ، عالماً بأن العهود وكلمة الشرف لا تسقط بمضى المدة . . !

ومع ذلك فإذا فرضنا أن هذه الوعود والعهود لم تقدم فعلاً من رجال سياستكم ، فإن من حق المصريين أن يطالبوا باستقلال بلادهم . إن إنجلترا لم تفتح مصر ولم تغزها ، بل دخلتها كدولة صديقة تريد توطيد عرش الخديو ومساعدة الشعب المصرى على أن يعيش عيشة الأمم المتمدينة . فمصر لاتسأل إحساناً عندما تطالب بحريتها ، بل تطلب حقاً شرعياً لانزاع فيه ، تطلب حقها فى الحياة والوجود . وإنى على يقين أنكم لو كنتم محلنا لشعرتم بنفس شعورنا ، وسلكتم مسلكنا ، لأنه لا يوجد إلا مطلب واحد خليق بأن يشغل حياة الإنسان ، ألا وهو استقلال وطنه وعظمته .

وتروى مدام جوليت آدم فى كتابها أن السير «كامبل بانرمان» رئيس

الوزراء طلب مقابلة مصطفى كامل بعد هذه الخطبة ، وتمت المقابلة فى « داوننج ستريت » ودار بينهما حديث عن الحالة فى مصر ، وأن مصطفى كامل قال له :

– أرجو أن تكون قد لمست الآن كيف نال عمالكم بمصر من شرف إنجلترا بتلويثهم للعدالة .

وقد اعترف له رئيس الوزراء البريطانى بأن دنشواى « حادثة مؤسفة » ، ثم قال إنه لا يظن أن فى مصر رجالاً أكفاء يستطيعون حكم البلاد إذا تركتها بريطانيا ، ولكن مصطفى كامل فند هذا القول ، فعرض عليه السير كامبل بانرمان أن يشكل الوزارة المصرية برئاسته ، فرد عليه الزعيم الشاب :

– إن وطنيتى تفرض على أن أرفض كل منصب حكومى مادام الاحتلال فى بلادى .

وأدرك رئيس وزارة بريطانيا أنه أمام زعيم وطنى حقيقى لا يسعى لمنصب أو جاه ولا يستهدف مصلحة شخصية .

وكان من نتيجة كفاح مصطفى كامل بعد مأساة دنشواى أن سحبت بريطانيا عميدها كرومر من مصر ، وتم العفو عن المحكوم عليهم بالسجن ، واتجهت السياسة البريطانية إلى ملاينة المصريين .

* * *

عاد مصطفى كامل إلى مصر ليضاعف جهاده فى سبيل قضية بلاده ، وكانت صحته تسوء وتنهار تحت وطأة المجهود الشاق الذى يبذله ليل نهار . فأصدر جريدة اللواء باللغتين الإنجليزية والفرنسية ، فأصبحت له ثلاث جرائد يومية تنشر دعوته الوطنية بثلاث لغات .

ورأى أن دعوته قد فشت بين المصريين ، وكان يشعر بأن صحته تتدهور يوماً بعد يوم ، فأراد أن يطمئن إلى قيام حزب منظم يحمل اللواء من بعده إذا سقط فى الميدان . وهكذا قرر أن يدعو إلى إنشاء « الحزب الوطنى » بعد أن رأى ثمار دعوته وقد نضجت فى قلوب مواطنيه .

وفى الإسكندرية حيث كان يحب إلقاء خطبه الكبرى ، ألقى خطاباً ضافياً فى مسرح زيزينيا فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧ ، وقد سمى هذا الخطاب « خطبة الوداع » . وقد بلغ عدد الذين ذهبوا لسماعه سبعة آلاف احتشد بهم المسرح وحديقته والشوارع المحيطة به .

وكأنما كان الزعيم الشاب يحس أنها خطبته الأخيرة ، وأنه يلقى إلى أنصاره بوصاياه ، فلم يترك جانباً من جوانب القضية الوطنية إلا شرحه وجلاه ، ورد على كل تهمة وسؤال ، وحدد طريق العمل وأسلوب النضال ، كل ذلك فى أسلوب متدفق وإلقاء ساحر . على أن أسلوب الخطيب وفصاحته وسحره وفتنة إلقائه لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب الشجاعة وإنكار الذات وروح التضحية والاستهانة بالخطر والمرض والموت ، وهى العناصر التى منها نسج خطابه وخاط أثوابه .

تحدث عن الاتفاق الودى فكان مما قاله :

- ظن الساسة الإنجليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على المسألة المصرية طويت أوراق هذه القضية الخطيرة ، وخفت كل صوت ، ومات كل أمل ، وحل اليأس محل الرجاء ، وصار الشعب المصرى أثراً كتلك الآثار القديمة التى يأتى السائحون لرؤيتها فى كل عام . ولكنهم أخطأوا خطأ كبيراً ، لأن العزلة التى صرنا إليها بعثت فينا روحاً جديداً أرشدنا إلى الحقيقة التى لا قوام

لشعب بدونها ، ولا حياة لأمة بغيرها وهى أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا بجهودها .

وتكلم عن تهمة التطرف التى يرميه بها أعداء الحركة الوطنية فقال :

– نلقب بالمتطرفين ! ولماذا ؟ لأننا نطالب بحقوق مصر واستقلالها ! لأننا نذكر إنجلترا بشرفها ووعودها وعهودها ! لأننا نقول لها بصوت الحق والإيمان القوى إن المستقبل يكفل لمصر هذا الاستقلال ، وأنه خير لها ألا تقاوم سير الحوادث ؛ وألا تحاول إعدام أمة خلقها الله للحياة والعمل . متطرفون . . لأننا نعلن ثقتنا الكاملة بمستقبل بلادنا ، ونقول لهذه الأمة فى الصباح والمساء : اليوم عسر ، وغداً يسر ، اليوم أسر وغداً فخر ، اليوم احتلال وغداً استقلال ، اليوم عناء وشقاء ، وغدا رخاء وهناء . متطرفون . . لأننا نقول للأمة اعملى وحافظى على السكينة . إياك والقلاقل ! فهى تخدم العدو وتضر بالوطن ، إياك والانقسامات فإنها منشأ الخراب والدمار ، إياك وهوس العداوات الدينية فإنها آفة الآفات وجالبة المحن .

متطرفون . . لأننا نقول للأمة خذى من العلم أوفر قسط وتسلحى بأسلحته ، واملئى وادى النيل من نوره ، وردى إلى الفقير حقه ونصيبه من هذا المنهل العذب .

متطرفون . . لأننا نرد تهم العدو ، ونثبت للعالم كله أننا شعب متمدين ، وأنه ليس للتعصب بيننا وجود ، وأن الإسلام عامل قوى لترقية الأمة ونشر أنوار المدنية فيها .

متطرفون . ، لأننا رفعنا أصواتنا محتجين على فظيعة الفظائع فى دنشواى وعارضنا السياسة الإنجليزية فى دعاواها ، ووقفنا فى وجه أعدائنا والحق

سلاحنا ، والصراحة عدتنا ، والإقدام مطيتنا .

متطرفون . . لأننا نمثل مصر للأمم تتدفق حياة ، ونشخصها قوية ناهضة شريفة المقاصد ، أبية لا ترضى الذل ، ولا تعرف الكذب والخداع .

متطرفون . . لأننا لا نطلب استعمار بلاد الغير ولا استعباد شعب من شعوب الأرض ، بل نقنع بطلب الاستقلال لوطننا .

فإن كنا نعتبر متطرفين لأننا نعلن ذلك كله ، فأكرم بالتطرف ، وياله من فخر أن نلقب بالمتطرفين !

من منكم لا يفخر بأنه متطرف ؟ وأيكم لا يريد أن يكون سائر المصريين متطرفين ؟ وهل يكون الاعتدال فى هذه الحالة شيئاً آخر سوى الخوف والجبن والرياء ، واتباع سياستين ، ومخاطبة الناس بلسانين ؟

عجباً . . عجباً ! ! أنلقب نحن بالمتطرفين لأننا نطلب استقلال وطننا من أشرف السبل ، وبأقوم الوسائل ، ولا نريد أن نتعداه بالاعتداء على أحد ، فى حين أن الإنجليز لم يكتفوا باستقلال وطنهم بل استعبدوا الأمم وتوسعوا فى الاستعمار وملكوا البحار ، ولا يزال أكثرهم يقول : هل من مزيد ؟

هل يلقبون هم بالعقلاء لأنهم إنجليز ، ونلقب نحن بالمتطرفين لأننا مصريون ؟ ! هل الوطنية التى تروق وتعجب هناك ، تؤذى وتؤلم هنا ؟ !

إن من يظن أن الإنجليز يحبون الخونة يخطئ خطأً كبيراً . نعم إنهم يستخدمونهم لأغراضهم ولكنهم يحتقرونهم أشد الاحتقار .

ولقد سمعت من يقول إننى شديد فى تفريع من خالفوا الواجب الوطنى ومالوا عن مصلحة البلاد ، فأجيبهم اليوم بأنه إذا صح التسامح فى بعض

الأمور فى ظروف معينة ، فإن التسامح فى الوطنية إعدام لها وقضاء عليها ، وأن من يتسامح فى حقوق بلاده ولو مرة واحـدة يبقى أبـد الـدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان .

وتكلم مصطفى كامل عن حب مصر وجدارتها بهذا الحب الكبير ، ثم تكلم عن أعداء الحركة الوطنية ، وفند مغالطاتهم وحذر منها ، وتحدث عن سيئات الاحتلال ورد على الزعم القائل بأنه أصلح أحوال البلاد وأغناها وملأها عدلا ، واستشهد بما حدث فى دنشواى على بطلان دعوى العدل البريطانى ، وهاجم اللورد كرومر الذى توقح على المصريين فى الخطبة التى ألقاها عندما غادر البلاد .

ثم أشار مصطفى كامل إلى التهمة التى كان يحلو لأعدائه أن يرموه بها لكى يوهموا البسطاء بأنه صنيعة تركيا فقال فى صراحة قاطعة :

– رمانا الطاعنون أيضاً بأننا نريد أن نخرج الإنجليز من مصر لنعطيها لتركيا كولاية عادية ، أى أننا نريد تغيير الحاكمين لا طلب الاستقلال . فليعلم أعداء مصر أننا نطلب لها الاستقلال ونطلب لها ذلك الاستقلال بأعلى أصواتنا ، وعلى مسمع من أمم الأرض كلها ، وأننا إذا أخلصنا الود لأمة أو لدولة فإنما نعمل كغيرنا ، ونتبع ناموس الطبيعة القاضى بأن من اتفقت مصالحهم يجتمعون ويتناصرون .

ولا نستطيع أن نلخص ما قاله مصطفى كامل فى هذه الخطبة الجامعة الرائعة ، وقد ختمها بدعوة الحاضرين والمواطنين للدخول فى الحزب الوطنى الذى كان يتأهب لإعلان تشكيله رسمياً .

وقد عقدت الجمعية العمومية الأولى للحزب الوطني في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٠٧ وحضر الاجتماع أكثر من ألف من المؤسسين واعتذر أكثر من ثمانمائة مع تأييدهم لما يصدر من قرارات .

وافتتح مصطفى كامل الاجتماع بكلمة حدد فيها أهداف الحزب وسياسته وقال :

– إننا إذا دعونا الناس للدخول في هذا الحزب ، لاندعوهم باسم سلطة عالية أو حاكم نافذ الكلمة ، بل ندعوهم باسم وطنيتهم ، باسم شرفهم ، باسم حقوق وطنهم باسم كرامة الإنسان ، باسم ذكريات آبائهم وأجدادهم ، باسم مصالح أبنائهم وأحفادهم .

ووافقت الجمعية العمومية بالإجماع على انتخاب مصطفى كامل رئيساً للحزب مدى الحياة ، فوقف مصطفى كامل وارتجل الكلمات التالية :

– إنكم حملتموني طول حياتي حملاً ثقيلاً على كاهلي ، وإني لأشكر لكم ثقتكم بي ، هذه الثقة التي كانت عوناً لي في كل أعمالي ، وأقول لكم إنكم أنتم قوتي وساعدي يا أبناء خير أمة أوقفت على خدمتها حياتي وقواي وعقلي وقلبي وقلمي ولساني وصحتي . وكم من صديق قال لي أشفق على صحتك ، ولكن الواجب لبلادي ووطني ينسيني هذه النصائح الثمينة . فإنا الآن إذا قبلت اختياركم لي رئيساً ، فإنما لثقتي بأن كل واحد منكم أصبح حياتي وشعوري واعتمادي ، بل صار كل منكم في الشعور الوطني أكبر من مصطفى كامل .

وكان هذا آخر اجتماع عام شهده الزعيم الشاب .

وكانت هذه الكلمات آخر كلام له على المنبر .

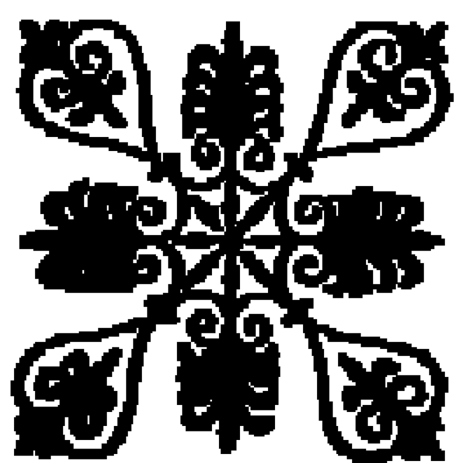
كان المرض قد حطم كيانه الرقيق ، ولكنه تحامل على نفسه ليشهد اجتماع تأسيس الحزب ويخطب فيه ، ثم عاد إلى فراش المرض حيث فاضت روحه الطاهرة يوم ١٠ فبراير سنة ١٩٠٨ .

وسكت إلى الأبد صوت الخطيب الذى احترق ليضيىء لأمته طريق الحرية والاستقلال .

سعد زغلول

أرغن هام به وجدانها وأذانٌ عشقته أذناها
كل يوم خطبة روحية كالمزامير وأنغام لغاها
دلّهت مصراً ولو أن بها فلوات دلهت وحش فلاها

أحمد شوقي



سعد زغلول

إذا كان بعض الناس قد اختلفوا فى أمر سعد زغلول ، وعارضه بعضهم فى حياته ، فإن أحداً لم يختلف فى منزلته كخطيب ساحر قادر على الإقناع والتأثير . تلك ناحية يتفق فيها الخصم والنصير والمؤرخ والصديق .

كتب أحد الأدباء من خصوم « سعد » يقول :

« إن كاتب هذه السطور كان من أولئك الذين يعارضون سعداً أوفر معارضة ، ويتميزون من سياسته فى إحدى مراحلها غيظاً ، حتى أتيح لى أن أذهب إليه كارهاً فى ليلة كان يخطب فيها الجماهير تمجيداً لعيد الجهاد الوطنى عام ١٩٢٣ ، فلما أن بدأ يخطب ، دلفت عواطفى المتأججة خصومة إلى الفرار ، ولما أن اكتمل سحره فى القول والتوجيه ، رأيت معارضتى له تنال من نفسى مكاناً غير محمود ، وعندما تركت الحفل وددت لو أن الأثير لا يعيد إلى أذنى تلك الكلمات التى فاض بها لسان سعد ، ذلك اللسان الذى لم تبخل المقادير عليه بما فى طوق اللغة أن تؤديه من التأثير . ووددت لو ظل « سعد » طيلة الدهر صامتاً لا يقول ، ساكتاً لا ينطق لسانه ، لأن الغيظ قد أوحى إلى نفسى أن نفوذ سعد قد هيأ له هذا السحر يزجيه من فيه ، فإذا هو لا يزيد فى خصومه وإنما يدفع إليه فى كل خطبة أنصاراً أوفياء . . »

هذه شهادة خصم لسعد ، وإذا كان الغرض الأول من الخطابة هو الإقناع والتأثير ، وكان نجاح الخطيب يقاس بمقدار ما يحقق من هذا

الغرض ، فقد كان « سعد » على هذا القياس يبلغ بخطبه من ذرى النجاح ما تنقطع دونه أنفاس كل خطيب . فقد كان يرسل فى نفوس سامعيه تياراً من الجاذبية والسحر ، يهيمن على الحاضرين ، فإذا أسماعهم وعيونهم وقلوبهم معلقة بشفتيه وكأنما يمسك بيده مطرقة سحرية يضرب بها أوتار قلوبهم فيخرج النغمة التى يريدها .

كتبت الأديبة النابغة « مى زيادة » مرة تقول :

« سمعت سعداً متكلماً على المنبر ، فأدركت ثمة كيف الوجه العادى يصبح أجمل من الجمال وأوفر إغراء ، وكيف تهزأ حيوية الشيوخ بحيوية الشبان فتجرفها جرف العاصفة لأوراق الخريف ، وكيف ينفتح الجفن الكثيف المتهدل عن بؤبؤ العين فينجلى البصر حساماً استل من غمده ، وتشيع النظرات أنصالا تشق الصدور ، وكيف يشذ خطيب أحياناً عن أصول الخطابة وهو مع ذلك ينتزع قلبك من بين جنبيك ويمضى يتقاذفه ويلهو به وأنت من نشوتك لا تفيق ، وكيف يرتفع الصوت الخافت ويتعالى ويسود حيث تعصف فيه الأنواء وتزمجر خلاله العواصف ، لتتجلى فيه إرادة شعب يقول : أنا . . . إنى موجود » .

* * *

كيف تهيأت لسعد زغلول هذه المقدرة الخطابية التى كانت آيته الكبرى وعدته فى زعامة هذه الأمة ؟

دخل سعد مكتب القرية ، حيث حفظ القرآن ، ثم تردد على دسوق حيث درس النحو والفقه ، ثم رحل إلى القاهرة حيث دخل الجامع الأزهر ، وثابر على حضور الدروس بين يدى الشيوخ النافعين من أنصار الإصلاح .

وتتلمذ سعد على الإمام الشيخ محمد عبده ، واتصل بجمال الدين الأفغانى واختلف إلى مجالسه .

وعندما عهدت الحكومة إلى الشيخ محمد عبده بتحرير « الوقائع المصرية » وهى الجريدة الرسمية ، اختار « سعد زغلول » ليكون مساعداً له ، وسعى حتى عينه لتحرير القسم الأدبى بها ، فأصبحت هذه الصحيفة الرسمية ، صحيفة الثورة الفكرية فى ذلك الحين .

وفى تلك الفترة حفر القدر الخطوط الأولى لملامح سعد الخطيب ، إذ أتيحت له الفرصة ليتعرف ملكاته العقلية والبيانية ، ويتجه بها الوجهة التى تلائم مواهبه بالتعبير عنها فى صور الخطابة والبيان . كان يكتب فى صحيفة للجمهور ، ينادى بالإصلاح ، ويدعو للحرية والشورى ، فتعود مخاطبة الجماهير فى مقالات هى فى الواقع خطب مكتوبة ، وشحذ بذلك مواهبه التى كانت كامنة فيه . ونقلته هذه الوظيفة من الأزهر إلى الحكومة ، ومن العمامة إلى الطربوش ومن دراسة العلوم الدينية إلى دراسة العلوم القانونية .

ثم كانت الثورة العرابية ، فألقى سعد بنفسه فى غمارها ، فكوته بنارها ولما انقشع غبارها كان قد خسر وظيفته فأقدم على احتراف المحاماة .

وكأنما كان القدر يوجه خطوات « سعد » ليهيئه لدوره العظيم . فقد كانت المحاماة أوفى ميدان لشحذ مواهبه ، وتمرينه على الجدل الخطابى ، فلم يلبث أن ظهر وبهر ، فاختاروه قاضياً فمستشاراً فوزيراً .

وفى خلال هذه الفترة الطويلة من حياته فى القضاء والوزارة

كملت تجاربه ، ونضجت مواهبه ، حتى إذا افتتحت الجمعية التشريعية التى انتخب عضواً فيها ثم أصبح وكيلاً منتخباً لها ، عاد « سعد » الخطيب إلى الظهور ، فإذا هو قوة أزعجت الحكومة . ثم عصفت الحرب العالمية الأولى بالجمعية التشريعية ، وهدأ الخطيب العظيم ، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، نهضت مصر تطالب بحقوقها ، وكان « سعد » الرجل الذى ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فبرزت مواهبه الخطابية المكنونة ، ورأى الناس هذا الشيخ المهيب الذى نيف على الستين ، يتقدم الصفوف ، ويخطب المصريين فيعبر عن آمالهم بفصاحته النارية ، فألقوا إليه قيادهم ، وقد أدركوا أنه الزعيم المنتظر .

وهكذا وصل الخطيب إلى طوره الأخير ، وامتزجت شخصية الخطيب بشخصية الزعيم .

* * *

كانت الطبيعة سخية على سعد ، فحبته كل ما يتمناه الخطيب ليكون بالغ التأثير فى سامعيه .

وصفه عباس العقاد فى كتابه عنه فقال :

— تراه فترى من النظرة الأولى أنك على مقربة من رجل ممتاز فى الصورة كامتيازه فى الطبيعة . وطلعته تذكرك على الفور طلعة الأسد فى بأسه ونبله وجلالة محياه . وليس بين الوجوه الآدمية ما هو أشبه بالأسد فى قسماته ومهابته من وجه سعد زغلول . له قامة مديدة ، ووجه أقرب إلى البياض ، ورأس مستطيل فى غير ضخامة ، وجبين يميل إلى السعة وينحدر قليلاً إلى أعلى ، وعينان ثاقبتان فيهما انحراف قليل نحو اللحاظ ،

يطبقهما أحياناً عند الحماسة والغضب فلا تنفتحان إلا بمقدار ما ينطلق منهما الشعاع كأنه سهم نافذ أو إيحاء منوم جبار . وله صدغان ناتئان ، وأذنان بسطاوان ، وأنف منفرج واسع المنحرين ، وفم أهرت الشدقين كما يصف العرب أفواه الخطباء المطبوعين ، وذقنه من تحت ذلك بارزة فى غير حدة ولا استعراض كثير ، تتم ملامح البروز فى ذلك الوجه فيلوح للوهلة الأولى كأنه مفصل من زوايا حديد لا من اللحم والعظام . يحمل ذلك الوجه عنق راسخ على منكبين عريضين ، وصدر فسيح أقعس واسع التجويف . أول ما تطالعك من رؤية « سعد » مهابة بالغة تملأ ما حوله من فضاء . ويكون فى المجلس من يكون فيه من كبار أو صغار ، ومن أقوياء أو ضعفاء ، ومن كثرة أو قلة ، فلا يخطر لك وأنت تغشاه أن فى المجلس أحداً غير سعد زغلول . . »

أما صوته فقد قال عنه كاتب من خصومه :

— « كان صوته قوى النبرات ، فيه سحر وفيه أسر ، وفيه سلاسة وفيه انسجام ، وفيه جاذبية . وكان إلى ذلك صوتاً طيعاً لا ينساق عن عى ، ولا يمضى عن تلكؤ ، وإنما كان الزوبعة حين يهدد ، والعاصفة حين ينطلق ، والموج حين يدوى ، والنغمة الساحرة حين يستقر . . »

وقال عنه الأستاذ عباس العقاد :

— « صوت رقيق ، لين الوقع على الأسماع ، يخفى فيه الجهد ، ويظهر الارتفاع الذى يعم أجزاء المكان ولو كان من أرحب ميادين الخطابة . فهو صوت مرتفع لاشك فى ارتفاعه ، إلا أنك إذا نظرت إلى صاحبه وهو يهدر بالقول لم تر أوداجاً تنتفخ ، ولا ملامح تلتوى

وتتقبض ، وأحسست بسهولة القول وسهولة الصوت ، فأحسست بالقدرة التي تلازم السهولة وبالسيطرة التي تملك الأسماع ، وليس بعد السيطرة على السامعين من مطمع لخطيب . . »

ووصفه الأستاذ فكرى أباظة فقال :

– كان خريج الصحن الأزهرى أبلغ المرتجلين ، حباه الله حنجرة لو وجهها للطرب لكان أبرع المطربين ، فيها النغم الطروب والنغم الحزين ، والجرس الأجش وذو الحنين ، وذو اللين ، وفيها الرعد وفيها الأنين . تلك كانت منحة السماء ، وكانت سلاحه فى السلم وفى الهيجاء . . » .

ووصفه « مكرم عبيد » فى خطبة له فقال :

– « من منا لم تلهبه تلك الفصاحة النارية ، ولم يحترق قلبه ذلك الصوت المتهدج . صوت ذهبي حار ، ذو رنين ورجفة الحماسة الفتية لا الشيخوخة الواهنة . صوت يشترك كل أعضاء الجسم فى إخراجه من مكمنه ، فتكاد تسمع فيه أزيز نفسه ، وخفقان قلبه ، وغليان دمه ، وتساقط دموعه . تتفجر من فمه الألفاظ جارفة قوية واضحة صريحة قاطعة ، رنين التنوين فيها كرنين القضاء المحتوم ولهجته لهجة القائد الذى تعود أن ينتصر ولابد أن ينتصر ، وخطابه فصل الخطاب . »

وكان سعد خطيباً هادئ الحركة ، يستوى على منصة الخطابة بقامته المديدة المعتدلة ، تحيط به مهابة تملأ ما حوله من فضاء ، فإذا تكلم أحسست أن ستين عاماً من تجاريب الزمان تخاطبك على لسان هذا الشيخ المهيب ، وهو ثابت فى مكانه من المنصة كالطود الراسخ ، لا يكاد ينقل قدماً ، ولا يسرف فى حركة أو إشارة ، وإنما هو ذراعه

يرفعه أو يمده فى الحين بعد الحين ليستعين به على توضيح غرضه . وقد يبسط يده فى مواطن التوكيد وينزل بها كأنما هى سيف يشق الفضاء ، فيقع توكيده من نفس السامع موقع القضاء المبرم . ومع ذلك فإنك تقنع من سعد بهذا السكون فيزيدك روعة وتبجيلا ، ويغنيك بالطلعة المهيبة والنظرة الماضية عن الإفراط فى حركات الخطباء الشبان .

هذه صفات « سعد » الخطيب ، فما هى خصائص هذا الخطيب العظيم ؟

* * *

كان « سعد » خطيباً بطبعه وتكوين فكره وملكاته ، فهو إذا لم يخطب تحدث كأنه يخطب ، وكان يفضل الإملاء على الكتابة ، لأن الإملاء ضرب من الخطابة . وفى ذلك يقول « سعد » فى حديث له مع عباس العقاد :

– إن الكتابة أصبحت تتعبنى أكثر من الكلام . أما بياناتي فإننى إذا أمليتها كانت كالخطب ، وإذا كتبتها بنفسى استحضرت موقف الخطابة .

وهذا هو شأن الخطيب المطبوع الذى تمتزج الخطابة بدمه . وآية ذلك أن سعداً كان يغذى نفسه بالخطابة ، فكان يقف أحياناً فى مستهل حديثه إلى الجماهير متعباً متثاقلا ، يستأذنهم فى ألا تزيد خطبته على دقائق ، فإذا انطلق وامتزجت بنفسه حماسة الجمهور ، استطالت هذه الدقائق إلى ساعات .

عاد سعد من رحلة الصعيد فى نوفمبر سنة ١٩٢١ متعباً ، وأشار

عليه الأطباء بالتزام الدور العلوى من بيت الأمة وعدم استقبال أحد ، فلما حل موعد الاحتفال بذكرى عيد الجهاد فى ١٣ نوفمبر ، ألح فى أن يحضر الاحتفال فسمح له الأطباء على شرط ألا يخطب فيه ، فقبل ذلك . وذهب سعد إلى الحفل بادى الضعف ، وجلس يستمع إلى الخطباء من إخوانه وهتاف الجماهير يدوى فى أذنيه ويتردد صداه فى قلبه فيحرك فيه الشوق إلى الكلام ، وإذا به يندفع إلى المنبر ، ويخلع عنه معطفه ، ويلقى كوفيته ، ويرتجل خطبته التاريخية التى دامت أكثر من ثلاث ساعات ، وقد نسى تعبه ومرضه ، وعاد أتم ما يكون صحة وعافية .

وفى يوم المؤتمر الوطنى الذى تم فيه ائتلاف الأحزاب سنة ١٩٢٦ كان سعد مريضاً ، فلما حان موعد المؤتمر قام من فراشه وذهب إلى الاجتماع يتحامل على نفسه — ولكنه حين أخذ يلقى على المؤتمرين خطبة الافتتاح ، عادت إليه القوة ، حتى تهامس أولئك الذين كانوا من ساعة واحدة يغالبون دموعهم من الجزع حول فراشه . كانت هذه ظاهرة ملموسة فى سعد ، ولقدروى لى الأستاذ عباس العقاد أن أنصاره المقربين كانوا يعلمون ذلك عنه ، فكانوا إذا وجدوه ضعيفاً أو متعباً ، حاولوا أن يستثيروه ليتحدث أو يخطب كى تعود إليه قواه . . !

وروى لى الأستاذ المهندس عبد المجيد بدر أنه ذهب لزيارة سعد فى بيت الأمة مع زميلين من أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلبة ، وذلك بعد فوز سعد الساحق فى الانتخابات البرلمانية الأولى عام ١٩٢٣ وقبوله تشكيل الوزارة . وكان « سعد » مريضاً معتكفاً فى الدور العلوى ، فلما علم بوجودهم ، دعاهم لمقابلته بحجرة نومه . ووجدوه فى فراشه

لا يكاد يقوى على الحركة ، ووصيفته الألمانية « فريدا » ترجوه أن يتناول الدواء ، وهو يصرفها ويأبى أن يتناول شيئاً .

وسألهم فى صوت خافت :

— ماذا يقول الناس ؟

وأجاب عبد المجيد بدر بأن الناس يقولون إن سعداً بدأ يوزع الغنائم على أنصاره ، وأن التعيينات فى الوظائف تقوم على المحسوبية . وبدأ « سعد » يتكلم مدافعاً عن تعيين بعض أنصاره فى وظائف البرلمان والحكومة ، ولم يلبث أن جلس فى فراشه ، وأخذ صوته يتعالى وكأنه يخطب ، وعادت إليه الحيوية ومظاهر العافية .

وهكذا كانت نفسه تجيش بالخطابة ، فيتحرك لسانه بالكلام وكأن قوة لا يستطيع مقاومتها تدفعه إلى الكلام دفعاً .

ذلك هو وحى الجمهور يسرى فى الخطيب المطبوع ، وهو ما أشار إليه « سعد » فى إحدى خطبه فقال :

— « ما حيرت الشعر ولكن الشعر حيرني ! هذا الجمع الكبير ، وهذا الهتاف والتهليل ، كل هذا حيرني فلا أملك من العبارات ما أستطيع به أن أصف ما يخالج قلبي من عواطف الشكر التى أريد أن أقدمها لكم . إننى ما وجدت لهذا الجمع عبارة ألقيها ، ولكن هذا الجمع يقذف فى قلبي ، ويلقى على لساني تلك العبارات التى يجرى بها فمى . . » .

وهكذا كان سعد يأخذ من جمهوره ويعطيه ، يؤثر فيه ويتأثر به ، وكانت حماسة الجمهور تسرى إلى نفسه فيتدفق بالقول ، فيذكى هذه الحماسة وكأنه يلقى على نارها وقوداً جديداً يزيد اشتعالها ويؤجج لهبها .

وفى هذا المعنى قال « مكرم عبيد » فى إحدى خطبه :

« إن خطب سعد مظهر من مظاهر عظمته ، فلا تتجلى فيها روحه فقط ، بل روح الجمهور الذى يسمعه . وان أخطب الخطباء من خطبت الجماهير فيه قبل أن يخطب فيهم . ولم أر فى حياتى أقدر من سعد زغلول على التشرب بروح الجمهور واستكشاف شعور سامعيه بقوة غريزية . . ولذلك نرى أن أكثر خطبه العظيمة قد خطبها على البديهة . وقد قال لى الرئيس مصداقاً لهذا إن أجمل عباراته جاءته بداهة فى أثناء الخطابة . . » .

ويقول « العقاد » فى كتابه عن سعد :

— وكان أكثر ما يتدفق فى خطبه عندما يتعدى التبادل بينه وبين سامعيه حد الشعور إلى المجاذبة بالكلام . . فإذا سئل ونوقش قليلا تفتح فى القول ، وأخذ من طوالع الملتفين به ما يوحى إليه فنون المقال المناسب لذلك المقام . وكان أسرع ما يكون إلى الإفاضة إذا تكلم أمامه المتكلمون وأحسنوا التعبير والإلقاء ، فإذا أجابهم بعد ذلك جمع أغراضهم كلها وتأهب للكلام ، كما يتأهب الفرس الكريم للإيفاض فى مجال السباق » .

ولذلك كان سعد زغلول يرتجل خطبه ، ولم يكن يعد منها إلا الخطب الرسمية أو التى تضطره ظروف خاصة لإعدادها . ومع ذلك فقد كان فى بعض هذه الأحوال يغلب عليه الارتجال فينحى الورق جانباً ويندفع كالسيل جارفاً أمامه السدود والقيود .

يقول الأستاذ محمد إبراهيم الجزيرى سكرتيره الخاص : « كان تعبيره فى الارتجال أقوى من تعبيره فى الروية . وقد لاحظت ذلك كثيراً

وصرحت له به مرة فأجابني :

– صحيح . . . أنا أجد ذلك فى نفسى .

والواقع أن سعداً كان أبلغ المرتجلين ، تسعفه بديهة حاضرة ، وخاطر سريع التلبية ، هما عدة الخطيب المرتجل فى مواطن الحرج .

وما أكثر ما يمكن أن يروى عن بديهة سعد .

حدث أن أقام له الأطباء الذين عالجوه حفلة قبل مغادرته المستشفى ، ابتهاجاً بشفائه من الاعتداء الأثيم الذى وقع عليه . وخطب سعد فشكرهم بأسمائهم ، ثم التفت إلى أحدهم ولم يكن يعرف اسمه فسأله عنه ، ثم قال :

– « إني وإن كنت لم أذكر أسماءكم فإن صوركم منقوشة على صفحات قلبي ، وهى تحوط الرصاصة التى فى صدرى ، وتحفظنى منها . . » .

وحدثنى المهندس عبد المجيد بدر عن بديهة « سعد » وحسن تخلصه ، فقال إنه ذهب يزور سعداً فى بيت الأمة بعد أن تخرج من « مدرسة المهندسخانة » وعين مهندساً صغيراً فى أحد مرافق القاهرة ، وكان سعد رئيساً لمجلس النواب ، وفى مكتب « سعد » ببيت الأمة وجد عنده المهندس عثمان محرم وزير الأشغال ، والأستاذ أحمد لطفى السيد ، فلما انصرف عثمان محرم أخذ « سعد » يثنى على كفاءته كمهندس رى ، ويقول إنه يعرف كل ترعة ومسقى وقنطرة فى البلاد كلها . وكان « سعد » يتجه بحديثه إلى عبد المجيد بدر ، فقال له لطفى السيد معاتباً ومداعباً :

– ما هذا يا باشا . . ؟ ! أنا أفهم أن تزكى المهندس الصغير لدى

الوزير ، لا أن تزكى الوزير لدى المهندس الصغير .

ولم يظهر الحرج على « سعد » لهذه « القفشة » التى تبدو فى محلها ، ولكنه ابتسم وقال على الفور مخاطباً لطفى السيد :

— علمت شيئاً وغابت عنك أشياء .

وسأل لطفى السيد :

— وماذا غاب عنى ؟

وقال سعد :

— غاب عنك أن عثمان محرم نائب عن دائرة دسوق ، وأن عبد المجيد بدر ناخب فى نفس الدائرة ، فأنا أزكى النائب لدى الناخب ، ولا أزكى الناخب لدى النائب . . !

* * *

كان سعد زغلول يتدفق بالكلام المرتجل فيلهب الحماسة ويخلب الألباب ، فإذا قرأت كلامه بعد ذلك أدهشك أنك لا تقع فيه على عبارة جامحة أو كلمة نابية أو منطق سقيم . وإنما هو الكلام الموزون والأحكام المسببة كأنما هو سلسلة من القضايا المنطقية يخاطب بها العقل قبل أن يثير الشعور .

استمع إليه يخطب فى وفد مدينة طنطا الذى سعى إلى بيت الأمة يهنئه بالعيد فى ٨ يونيه سنة ١٩٢١ ، فيقول فى ختام كلامه رداً على اتهامات خصومه :

— يقولون إن لنا أغراضاً شخصية . ولكن ما هى هذه الأغراض ؟

أنطلب مالا وعندنا منه والحمد لله الكفاية ؟ أم نطلب مناصب وقد عرضت علينا الوزارة فرفضناها ؟ أم نطلب جاهاً وقد أنزلت الأمة الضعيف الماثل أمامكم منزلة لم يحلم بها حالم ؟ ليس لنا غرض إلا المصلحة العامة ، وهي فوق كل شيء ، وليس لنا إلا عامل واحد هو الإخلاص للوطن . . »

واستمع إليه يقول في خطبة مرتجلة وهو رئيس للوزارة :

« إن حرية كل واحد منكم محدودة بحرية غيره ، فكل فرد حر في أن يفكر ويتكلم ويكتب ، بشرط ألا يسب ولا يشتم . وقد نص الدستور على ذلك بقوله إن الحرية مكفولة في حدود القانون . أنا لست رئيس حزب ، ولكني وكيل أمة ، قلت ذلك مراراً ، وكررته تكراراً . قلته عقب خروجي من منفاى ، وقلته بعد عودتي منه ، وسأقوله دائماً وأعمل به . فلا أحابي شخصاً لمبدئه السياسي ، ولا أتعرض لآخر لآرائه السياسية . ولكني أحسن لمن يعمل لمصلحة الوطن وأنكل بمن يسيئ إليه ، فمن عمل صالحاً فلنفسه وللأمة ، ومن أساء فعليه إثم ما فعل . ولو أجرم ابن سعد لحقت عليه كلمة العقاب . . »

وفي هذين المثالين نسمع سعداً يرتجل كلامه وكأنه يلقي طائفة من القضايا المنطقية ، وهو مع ذلك يلهب به الشعور ويشعل حماسة الجمهور .

ويقول الأستاذ العقاد في ذلك :

« قد لاتعجبك من كل قائل تلك الكلمات الموزونة ، والأحكام المسببة والقضايا المقيسة ، ولكنك إذا وقع من نفسك توكيده موقع القضاء المبرم ، واشتعلت في نفسك شدته كما يشتعل الحريق المضرم ، واطمأنت

بك عظمته اطمئنان الطود الأعظم ، فهنالك ليست الكلمات الموزونة كلمات موزونة ، وليست الأحكام المسببة أحكاماً مسببة ، وليست القضايا المقيسة قضايا مقيسة ، بل هى عاصفة جارفة ، كأقوى ما تكون. المبالغة فى اجتراف السامع ، وكأمضى ما تكون الصرخات الجامحات فى خروجها على المنطق والتحليل والتعليل ، لأنها قطعة من نفس قوية انتقلت إليك ، فنقلت معها القوة كما هى فى جوانح صاحبها ، فلا حاجة بها إلى مبالغة المبالغين ولا جموح الجامحين . . »

والواقع أن سعداً كان يجمع بين خصلتين قلما تجتمعان لخطيب . كان يجمع بين القدرة على الإقناع ، والقدرة على إثارة الحماسة والشعور ، فهو فى خطبه وكلامه يخاطب العقل والشعور جميعاً . لهذا كان « سعد » خطيباً شعبياً ، كما كان خطيباً برلمانياً . كان بشخصيته الساحرة وروحه القوى المشتعل ، وبلاغته المتدفقة خطيباً شعبياً يعرف كيف يلهب شعور الجماهير . وكان بقوة عارضته وبراعة تدليله وروعة منطقه خطيباً برلمانياً ممتازاً ، يعرف كيف يهجم ويدفع ، ويجادل ويقنع . ولا يتسع المجال لدراسة مفصلة نستعرض فيها مواقف « سعد » الخطابية فى الجمعية التشريعية عندما كان عضواً فيها ووكيلا منتخباً لها ، أو فى البرلمان الحديث بعد إعلان دستور سنة ١٩٢٣ ، فهذا حديث يطول ، وتضيق عنه هذه الصفحات . وما أكثر المواقف الرائعة الجديرة بالتسجيل فى حياة سعد البرلمانية . وحسبنا أن نذكر هنا بعض المواقف التى تتمثل فيها خصائص « سعد » الخطابية التى أشرنا إليها .

دخل « سعد » البرلمان الأول فى سنة ١٩٢٤ رئيساً للوزارة الدستورية

الأولى ، وتقدم إلى البرلمان بخطبة العرش شارحاً برنامج وزارته . وقد جاء في هذه الخطبة أن الحكومة مستعدة للدخول مع الحكومة البريطانية في مفاوضات حرة من كل قيد لتحقيق الآمال القومية بالنسبة لمصر والسودان . ولم تلبث الأندية الخاصة والعامة أن امتلأت بالمناقشات في خطبة العرش ، وأخذ بعض الناس يشككون في معانيها ، وقال خصوم « سعد » إنه قد فترت حماسته بعد أن تولى الحكم ، فلم يعد يذكر الاستقلال التام لمصر والسودان بصراحته المعهودة . ووجدت هذه الأحاديث صدى لها بين الشيوخ ، فإذا بلجنة الرد على خطاب العرش تضع مشروعاً للرد يتضمن تفسيراً لعبارتين في الخطاب . وكان سعد قد أعلن في أحاديثه وخطبه قبل ذلك عندما شاعت تلك الأقاويل أنه إذا قرر النواب تعديلا في خطبة العرش ، فإنه يعتبر ذلك طبقاً للعرف الدستوري عدم ثقة بالوزارة يفرض عليه ترك الحكم . وجاء « سعد » إلى مجلس الشيوخ في جلسة ٢٤ مارس ١٩٢٤ لمناقشة مشروع الرد على خطاب العرش ، وتلي مشروع اللجنة الذي يتضمن تفسيراً للعبارة التي ذكرناها . وتكلم بعض الأعضاء في الموضوع ، ثم وقف « سعد » ليدافع عن خطاب العرش ، فألقى خطبة تتمثل فيها تلك الخصائص التي ذكرناها .

بدأ كلامه يخاطب عقول الأعضاء ، فشرح لهم وجهة نظره بأسلوب منطقي ، حتى إذا اطمأن إلى أنه وصل من إقناعهم إلى ما يريد ، ألقى إليهم ببعض الجمل المشتعلة ليثير شعورهم بعد أن أقنع عقولهم ، فإذا به يلهب جو المجلس ، وإذا الأيدي تتحرك بالتصفيق ، وإذا الحناجر تنطلق بالهتاف معلنة انتصاره في معركته الأولى للمجلس .

قال سعد فى خطبته :

— « أيها السادة . . . إنى لا أريد فى هذا الموقف أن ألقى خطاباً سياسياً ، ولا أريد أن أبين غامضاً فى خطبة العرش ، فإن خطبة العرش قد تليت عليكم يوم افتتاح المجلس ، فصفقتم لها تصفيقاً حاداً فى أكثر من موضع ، وكانت أول جملة صفقتم وهتفتم لها هى الجملة التى يُدعى بأنها مبهمة ، وهى الدخول فى مفاوضات حرة من كل قيد ، بقصد تحقيق الأماني القومية بالنسبة لمصر والسودان ، وأن المعنى الذى فهمتموه فى ذلك الوقت ، والذى استفزكم للتصفيق والهتاف ، هو المعنى الذى قصدته الوزارة من تلك الجملة .

أريد أن أقول إننا نحن الوزراء لسنا أجانب عنكم . نحن قسم من البرلمان تخصص لتنفيذ أفكاره وآرائه والتعبير عنها . فالوزارة فى خطبة العرش تعبر عن أفكار البرلمان وآرائه ، فإن كانت أحسنت التعبير عنها فبها ونعمت ، وإن لم تكن قد أحسنت التعبير ، فالبرلمان يرد بما يدل على أنها لم تحسنه . . وهذا الرد قد يكون تعديلا ، وقد يكون تفسيراً ، وقد يكون تأويلا ، وكل هذه عبارات معناها أن الوزارة التى تولت وضع هذا الخطاب وتولت التعبير عن أفكار البرلمان ، قد أساءت التعبير عنه ، فإذا كان الأمر كذلك ، فالوزارة التى تخصصت للتعبير عن أفكار البرلمان وتنفيذ آرائه لا يمكنها أن تبقى بعد هذا فى مراكزها » .

ثم يمضى « سعد زغلول » متابعاً هذه السلسلة من القضايا المنطقية فيقول :

« التفسير المراد إدخاله إما أن يكون مفهوماً من الخطبة أولا يكون

مفهوماً منها . فإن كان مفهوماً منها فهو عبث محض . لأنه إذا كان كل قارئ للخطبة يفهم منها ما يفهمه من التفسير ، فإذن لا حاجة للتفسير . وأما إذا كان لا يفهم منها المعنى الذى يراد تفسيره . ويراد أن يلقى فى ذهن السامع أو القارئ شىء جديد ، فهذا مالا تقبل معه الوزارة البقاء . لأنه يكون بمثابة لطمة لا تتحملها وزارة أجهدت نفسها فى وضع المبادئ وتحرير المعانى لخطبة العرش .

نبئونى يا حضرات الأعضاء . . . أخبرونى . . . ما الذى يراد بالأمانى القومية ؟ .

هل فهمتم من الأمانى القومية معنى آخر غير الاستقلال التام ؟

الأمانى لغة جمع أمنية . والأمنية هى ما يتمناه الإنسان ، والقومية نسبة للقوم ، والقوم هم المصريون . والمصريون ما الذى يتمنونه ؟ يتمنون الاستقلال التام . وإذن فالأمانى القومية هى عبارة عن الاستقلال التام لمصر والسودان . .

إن كان للأماني القومية معنيان ، معنى هو الاستقلال التام ، ومعنى آخر أقل من هذا الاستقلال ، كنت أفهم لهذا التفسير معنى . . ولكن إذا لم يكن هناك تعدد فى المعنى ، وكانت العبارة لا تدل إلا على معنى واحد هو الاستقلال التام ، فأنا لا أفهم معنى لتفسير هذه العبارة إلا الرغبة فى إرضاء الخصوم ، فهل ترضون بذلك ؟ إننى لا أقبل على شرفى وشرفكم أن نتطوح إلى هذا الحد ، فتجرح كرامتى إذا كنت أقبل تفسيراً لكلمة واضحة ، خصوصاً على يد مجلس أعتمد على ثقته فى إدارة شئون البلاد . كيف أقبل أن أشترك فى عمل مع مجلس يضن علىّ

بلفظة ، ويقول إني رغماً عنك ، وإرضاء للخصوم ، أفسر كلامك مع كونه واضحاً ؟ أنا لا أقبل ذلك مطلقاً ، فالواقف بين أيديكم هو الذى يصيح ، صباح مساء ، مطالباً بالاستقلال التام لمصر والسودان . . » .

ثم مضى الخطيب العظيم يمزج المنطق بالحماسة بعد أن ملك زمام الموقف ، ويقول :

« ما هى خطبة العرش ؟ إنها الخطة السياسية التى تجرى الوزارة عليها . هذه الخطة السياسية معروفة أيها السادة ، فقد كتبت بدماء الشهداء ، ونقشت على قلب كل مصرى ، وهى السعى للحصول على الاستقلال التام لمصر والسودان . هذه هى الخطة التى جرت الوزارة عليها قبل أن تتولى الحكم ، وبعد أن تولته . إنها خلاصة للخطب التى سمعتموها ، والمقالات التى قرأتموها والبيانات التى نشرت عليكم . فهل يخطر فى بال أحد أن الوزارة تريد أن تتلاعب بالأفهام ، وأن تغمض وتبهم لكى ترضى قوماً على حساب مصالح الوطن ؟ كلا وألف مرة كلا ! إنى أشكر اللجنة على أنها قالت إنها واثقة كل الثقة بالوزارة ، أشكر اللجنة وحضرة المقرر ، ولكننى أرجوه وحضرات إخوانه أن يلتفتوا إلى أن هناك فوزاً أجدر منه وأليق ، وهو التصديق على خطبة العرش دون تفسير » .

ثم التفت إلى مقرر اللجنة وهو يختم كلمته قائلا :

« تقول إنك واثق بى ولكن تأتينى بما يرضى خصومى ، وتقول كما يقول الخصوم ؟ تقول إني واثق بالوزارة ولكنى أطلب التعديل ؟ الوزارة لاتحتمل هذا . ولا يمكننى باعتبارى وطنياً ، ورئيساً للحكومة ، ومعتنقاً

للمبادئ الدستورية ، أن ألمح ولو من بعيد أن هناك عدم ثقة مهما غُطيت ، ومهما لفت ، ومهما سترت . لا يمكننى بعد هذا أن أبقى دقيقة واحدة فى منصة الحكم . . » .

بهذا الأسلوب المنطقى كان « سعد » يرتجل خطبه فى البرلمان ، بل كان هذا طابعه حتى فى أشد خطبه إثارة للحماسة . ولقد أدلى فى عام ١٩٢٤ بحديث إلى مراسل إحدى الصحف البريطانية ، قال فيه للمراسل :

« اقرأ جميع خطبى تجد أننى لم ألق كلاماً على عواهنه ، بل جعلت لكل كلمة مستنداً ، فقررت وقائع وقدمت أدلة » .

وهذا هو رأى سعد فى خطبه . لا يلقى الكلام على عواهنه ، بل إن أشد خطبه اشتعالا وأعظمها توهجا وإثارة للحماسة ، تثبت بعد ذلك للتحليل المنطقى والقراءة الهادئة .

حدث فى أثناء نظر الميزانية أن تكلم أحد المعارضين يحتج على عدم تقديم ميزانية مفصلة للمبلغ الذى تدفعه الحكومة للسودان . وقامت بينه وبين سعد زغلول رئيس الوزراء مناقشة قرر فيها سعد أنه يوافق العضو المعارض على اعتراضه ولكنه لا يملك إجابته ، لأن ميزانية السودان تضعها حكومة السودان التى لم تقدم ما طلبته الحكومة المصرية من بيانات فى هذا الصدد ، وقرر أنه يأمل أن تحل هذه المسألة بالمفاوضة مع الحكومة البريطانية ولكن النائب المعارض أخذ يطعن فى مبدأ المفاوضة ، ويطلب من الحكومة أن تجد طريقة أخرى . وطالت المناقشة بينه وبين سعد على غير طائل ، فقام « سعد » وارتجل خطبة قال فيها :

— يراد منا أن نقدم ميزانية السودان ، ونحن لم نضع له الميزانية ، بل السودان هو الذى يضع ميزانيته ، فنحن لا نستطيع أن نقدمها لأنها ليست تحت يدنا ولم نضعها . وأنا أقول بأنه كان يجب أن تكون ميزانية السودان معنا ، وأن نكون نحن واضعيها ، ويجب أن نسعى لذلك ؛ وأنا ساع له ، ومعتمد على قوة الأمة وعلى حقها فى هذا ، ولدى الأدلة القاطعة والحجج القوية . ولكن لمن أقدمها ؟ ألحضرتك . . . ؟ ! نحن نريد حقوقنا ، وأمامى طريق مفتوح أريد سلوكه لأصل إلى غايتى ، ولكنك لا تريد ذلك .

فماذا أصنع إذا كنت تطلب ميزانية السودان ، وتمنعنى فى الوقت نفسه من مخاطبة واضعى اليد عليه . . . ؟ ! إما أن تتبع طريقتى وإلا فدلنى على خير منها . أما أن تطلب منى أن أفعل شيئاً ولا تدعنى حراً فى أن أسلك الطريق الذى أراه موصلا لما تريد ، فذلك فوق مقدورى . وإن أردت أن تطاع ، فمر بما يستطاع . . » .

وبعد أن أفاض « سعد » فى هذا المعنى بهذا الأسلوب المنطقى ، الذى خاطب به عقول الأعضاء ، عاد يخاطب عواطفهم ، ويستثير شعورهم ، ويقول :

« المسألة جد لا هزل ، وعمل لا كلام . نحن هنا نتحمل مسئولية كل أمر نقرره ، فيجب علينا قبل أن نصدر قراراً فى هذه المسائل الهامة أن ندرسها وألا نطيع الهوى ، بل نستشير العقل والحكمة . فكر فى ذلك جيداً ولا تسع لإحراجى ، لأننى لا أريد إلا ما تريده الأمة ، فإذا أحرجت زغلولا فقد أحرجت الأمة . أجل . . إننى لا أسعى فى

سياسة غير سياسة الأمة ، والذى يرشدني ويدفعنى إلى ذلك صوت فى ضميرى صرخ قبل أن يصرخ فى قلب أى إنسان ، وهذا الصوت ينادينى دائماً للقيام بالواجب . اختر لك أحد أمرين إما أن تأمرني بالمفاوضة أو لا تأمرني . وفى الحالة الأخيرة يجب عليك أن تترك السودان وتكتفى بأن نتكلم معاً . . ! إننى أيضاً أعرف الخطابة والألفاظ المنمقة ، كتقوية إيمان الأمة ، وعدم توجيه مجهوداتها للخيال ، أستطيع أن أقول كل ذلك وزيادة ، وأنا أخطب منك . . » .

ثم ختم خطبته بهذه العبارة المشتعلة التى أثار بها عاصفة من التصفيق والهتاف :

نحن فى مراكزنا لا ندين بها إلا للأمة ، ولا نخشى إلا صوتها ، فإن رأيتم فينا اعوجاجاً فقوموه — لا بألسنتكم — بل بسيوفكم » .

* * *

كانت فى سعد فكاهه حاضرة على البديهة ، يستعين بها أحياناً فى خطبه ، فتكون كما يقول « العقاد » نوعاً من المنطق المختصر ، لا فرق فيه بين النكتة اللاذعة والحجة الصادعة .

كان يخطب فى نادى « سيروس » ، وتحدث عن تصريح ٢٨ فبراير الذى اعترف فيه الإنجليز باستقلال مصر مع تحفظات أربعة تهدر هذا الاستقلال ، فشبه التصريح والتحفظات بالناقة التى وضع صاحبها فى رقبتها حذاء ثم مضى بها إلى السوق . وكانت الناقة جميلة قوية ، فأراد أعرابى أن يشتريها ، فقال له صاحبها إنها بغير الحذاء المعلق فى رقبتها تساوى ديناراً واحداً ، ولكنها مع الحذاء تباع بألف دينار . ولما كان الأعرابى

إنما يريد الناقة دون الحذاء فقد عرض ذلك على صاحبها الذى قال له إنه لا يبيع الناقة بغير الحذاء ، فقال الأعرابي متحسراً :

– والله إنها لمليحة . . لولا الملعونة فى رقبتها . . !

قال « سعد » ذلك ثم ضحك ، فدوى المكان بتصفيق السامعين وضحكهم . ولقد يذكر الذين حضروا هذا الحفل أنه عندما هدأت عاصفة الضحك والتصفيق ، وسكت الناس ، كان أحد المستمعين ما يزال مسحوراً بضحكة سعد ، فما كاد « سعد » يعود إلى الكلام حتى وقف يصيح فى عصبية حادة :

– الله ياباشا . . دا انت ضحكتك حلوة . . حلوة قوى !

وهذا هو أثر « سعد » فى سامعيه . هذا الأثر الذى جعل فلاحاً من قنا يبكى وهو يسمعه يخطب فى الاحتفال بعيد النيروز ، ثم أفاق لنفسه وهو شيخ لم يتعود البكاء ، فطفق يعجب لنفسه ويسأل من حوله .

– لماذا أبكى ؟ أمات أبى ؟ أماتت أمى ؟ أغرقت مراكبى ؟ أأجدب زرعى ؟ وما لهذا الرجل يبكينى ؟ أساحر هو ؟ أفاتن هو ؟ والله لا أدرى .

وكانت لسعد قدرة كبيرة على إرسال جملة واحدة تحمل من المعانى ما تحمله الخطبة الكاملة .

كان يرتجل هذه الجمل الحاسمة ، الزاخرة بالإقناع والتأثير ، فلا تلبث أن تصبح من الجمل المأثورة فى أفواه الناس .

وقف يخطب فى ٢٥ أبريل ١٩٢١ ، وكان الخلاف قد وقع بينه

وبين حكومة عدلى يكن بشأن رياسة وفد المفاوضة مع الإنجليز . وكان « سعد » يرى أن تكون له رياسة الوفد ، باعتباره الوكيل عن الأمة التى اختارته للتحدث باسمها والمطالبة بحقوقها . أما الحكومة القائمة فى ظل الحماية البريطانية والتى لا تستطيع الاستمرار فى الحكم إلا برضاء الحكومة البريطانية وموافقتها ، فإنها لا يمكن أن تمثل الشعب المصرى فى مثل هذه المفاوضة .

أراد « سعد » أن يصور هذه المعانى كلها ، فلخص حججه فى جملة واحدة عندما قال « جورج الخامس يفاوض جورج الخامس . . »

ووقف يخطب فى الحفلة التى أقيمت لتكريم « صادق حنين » عندما فصلته وزارة « عدلى يكن » فى تلك الأيام بسبب تأييده لسعد ، فاستهل كلامه قائلا :

— لا أقول لصادق حنين إلا كلمة واحدة : كفاك شرفاً أن فصلتك الوزارة العدلية . . !

وقال فى إحدى خطبه مشيراً إلى وزراء ذلك العهد :

— « لنترك هؤلاء النفر المساكين المسجونين فى سجون وظائفهم ، فإنهم ليسوا أهلا لخصومتنا » .

وكان فى مكتبه يوماً ببيت الأمة وعلم أن رجال الشرطة يضربون الوفود الهاتفة ، فخرج إلى الشرفة مغضباً كالليث انتهك عرينه ، فرأى بعض الضباط المصريين يحملون العصى ويطاردون الناس فى فناء البيت ، فصاح فيهم قائلا :

— « أقسم بالوطن وعزته لو تركتم وشأنكم لكنتم لنا لا علينا »

فتراخت أيديهم وألقوا عصيهم وانسحبوا من الدار .

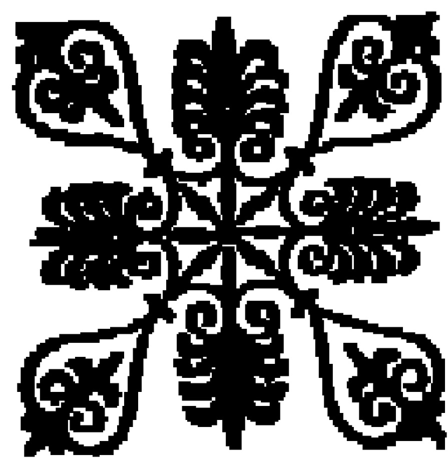
هذا هو سعد الخطيب . وصفه الكاتب الأديب أحمد حسن الزيات فقال :

– لم ير التاريخ المصرى بل الشرق قبل سعد خطيباً بليل اللسان ، ندى الصوت طلق البديهة ، دامغ الحجة ، حافل الخاطر ، رائع البيان ، أنيق اللهجة حسن السمت ، يزاوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الإقناع والإمتاع ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف فى فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بجمال الإيقاع ، وكل ذلك فى هالة من الشخصية المهيمنة الجذابة تساعد بلاغة اللسان والعين واليد بشعاع إلهى باهر ، ينفذ إلى النفوس المتكبرة فتتضع ، وإلى الأذهان المكابرة فتقتنع ، وإلى القلوب اللينة فتنماع .

خطباء الحروب

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . »

قرآن كريم



خطباء الحروب

قد يبدو للنظرة العابرة أن الخطابة ليس لها موضع فى الحروب ، حيث الكلمة الأخيرة للقوة ، وحيث لا تسمع إلا أصوات القذائف تحمل الهلاك والدمار ، وحيث :

السيف أصدق إنباء من الكتب   فى حده الحد بين الجد واللعب

ولكن الواقع أن للخطابة قديماً وحديثاً أثرها الكبير فى الحروب ، فهى الوسيلة الأولى لبث الحماسة فى نفوس المقاتلين ، وتقوية الروح المعنوى ، وهو أمر ضرورى لكسب الحرب .

أما فى الزمن القديم ، حيث كانت الحروب أقل تعقيداً وأبسط أسلوباً ، إذ كانت التحاما بين جيوش محدودة العدد ، فى رقعة محدودة من الأرض ، يحمل كل فريق أسلحة متماثلة من سيوف ورماح ونبال ، فقد كان للشجاعة أثر حاسم فى النصر ، لأن المقاتل لم يكن يخوض المعارك داخل دبابة أو مصفحة ، ولم يكن يصيب عدوه وبينهما المسافة الشاسعة ، وإنما كان يلقاه وجهاً لوجه فيكون بينهما نزال وصراع ، الغلبة فيه للكمى الشجاع .

وفى تلك الحرب لم يكن القواد يديرون المعارك من مكاتبهم وراء خطوط القتال ، بل كانوا ينزلون مع جيوشهم إلى الميدان ، ويشاركون فى القتال ، فكان اتصالهم لذلك مباشراً بالجنود . وكان من المألوف أن يخطب القائد

جنوده قبل المعركة ليشعل فيهم نار الحماسة ، لأن الجندى القوى الروح الذى يؤمن بالفكرة التى يحارب فى سبيلها أقدر على الحرب من سواه .

وقد حفظ لنا تاريخ الحروب القديمة الشواهد التى تؤكد هذه الحقيقة ، كما حفظ لنا كثيراً من الخطب الرائعة التى خطبها القواد ، والتى أصبحت جزءاً من تاريخ تلك الحروب .

وحسبنا من تلك الشواهد شاهد واحد مما نعلمه عن حروب المسلمين فى صدر الإسلام . فقد قهر المسلمون بجيوشهم القليلة الفرس والروم ، وبسطوا سلطانهم على الشام ومصر وشمال أفريقيا ، ثم عبروا البحر إلى الأندلس ، وكونوا إمبراطورية ضخمة امتدت من الهند إلى فرنسا ، وكان أكبر عامل لهم على النصر هو ذلك الإيمان القوى ، وتلك الحماسة الدينية التى كانت تدفع بالجندى منهم إلى القتال وهو يتمثل بقول الشاعر .

ولست أبالى حين أقتل مؤمنـــاً على أى جنب كان فى الله مصرعى

كانوا يؤمنون بأنهم جنود الله ، يحاربون فى سبيل دينه ، فكانوا يقبلون على القتال وهم يؤمنون بأنهم فائزون على كل حال ، فمن عاش وانتصر فله الغنيمة والفخر ، ومن استشهد فله الجنة ، فكانت جيوشهم القليلة العدة والعدد تنتصر على الجيوش الجرارة التى تساق إلى الحرب وليس لجنودها ما للعرب من حماسة وإيمان . وصدق الله تعالى حين يقول فى كتابه الكريم : «إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » هكذا كان يحارب الجندى المؤمن ، الذى تمتلئ نفسه بالقوة ، وتفيض حماسة وإيماناً . ولقد كان لخطب القواد أثر كبير فى إشعال هذه الحماسة . فهذا خالد بن الوليد ، سيف الله المسلول

اعتاد أن يخطب جنوده خلال المعارك . هذا هو يقف بين الصفوف التى كانت تتأهب للالتحام بالروم فى فلسطين ويخطب قائلا :

– أيها الناس

« انصروا الله ينصركم ، وقاتلوا فى سبيل الله ، واحتسبوا أنفسكم فى سبيل الله ، واصبروا على قتال أعدائكم . وقاتلوا على حريمكم وأولادكم ودينكم . واعلموا أن ليس لكم ملجأ تلجأون إليه ، ومكمن تكمنون فيه . فأقرنوا المناكب ، وقدموا المضارب ، ولا تحملوا حتى آمركم بالحملة . ولتكن السهام مجتمعة إذا خرجت من القسى كأنها تخرج من كبد قوس واحد ، فإنه إذا تلاحقت السهام رشفاً كالجراد لم يخل أن يكون فيها سهم صائب » . . . إلى آخر ما قال .

وهذا طارق بن زياد يعبر البحر إلى أسبانيا عند الصخرة التى سميت باسمه ، ثم يقف فى جيشه خطيباً ، فيلقى على جنوده خطبته الشهيرة التى يقول فى أولها :

– أيها الناس

أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام .

وهل ننسى الحرب الصليبية التى شغلت القرن الثانى عشر ، لقد كان الخطباء من رؤساء الأديان هم الذين يشبون نارها ، ويـذكون أوارها ، بخطبهم التى كانت تدفع إلى التعصب الدينى ، حتى لقد روى أن القديس برنار ، وكان خطيباً بارعاً ورئيساً لأحد الأديرة فى فرنسا ، كان إذا نزل

ببلدة ليخطب فيها أخفى الأمهات أولادهن ، والزوجات أزواجهن ، خوفاً من إغراء الخطيب لهم بالتطوع ، لأنه كان إذا خطب فى الحض على قتال المسلمين امتلك قلوب سامعيه .

ولكن ما هو أثر الخطابة فى الحروب الحديثة ؟

لا شك أن أسلوب الحروب قد تغير تغيراً كاملا ، فأصبحت الجيوش تحشد بالملايين ، وساعد العلم الحديث على ابتكار الوسائل الجديدة ، فعرف عصرنا الحرب الميكانيكية التى تعتمد على الدبابات والطائرات والصواريخ ، وضعفت الصلة المباشرة بين القائد وجنوده ، لأن القائد يدير المعارك بوسائل العلم الحديث وهو جالس فى مقر قيادته بعيداً عن خطوط القتال . وقد لا يرى الجند قائده إلا مصوراً فى الصحف . ومع ذلك فإن للخطابة فى الحروب الحديثة أثرها الملحوظ ، وإن تغير أسلوبها تبعاً لتغير أسلوب الحرب وظروفها . ولما كان من المستحيل أن يجمع المحاربون فى مكان واحد ، فإن الجنود تسمع الخطب مذاعة بالراديو وتتلقى النداءات الحماسية فى شكل أوامر يومية . وليس بالنادر مع ذلك أن يستعرض القائد بعض فرق جنوده ويلقى عليهم خطبة يسمعونها ويقرؤها زملاؤهم فى النشرات . إن المدفع فى حاجة إلى رجال يقومون عليه ، والدبابة تتطلب رجالا يوجهونها ويستخدمونها ، وكل آلات الحرب وأدواتها لا تعمل وحدها . فلابد لها من جنود ، وبقدر شجاعة هؤلاء الجنود وحماسهم يكون أثرها حاسماً فعالا .

وهذا هو رأى أحد أبطال الحرب العالمية الثانية . فقد وقف القائد الشهير « مونتجومرى » فى إحدى مدن إيطاليا يودع الجيش الثامن قبل سفره إلى بريطانيا ليتولى قيادة الجيوش البريطانية المعدة لغزو أوربا ، فكان

مما قاله فى خطبته :

— وإذ سألتموني ما هو العامل الجوهرى الأول للانتصار فى الحرب ، فإنى أقول لكم إنه العامل البشرى ، إذ يجب أن نذكر أن الدبابات والسيارات المدرعة أو البوارج ليست هى التى ستكسب هذه الحرب ، بل هم الرجال الذين يحركونها ، وهذه الحقيقة مهمة جداً ، فإن العامل البشرى هو المحور الذى يدور حوله كل شىء . . »

هذا هو ما قاله « مونتجومرى » ، فإذا كانت حالة الجنود المعنوية وشجاعتهم عاملا مهما فى النصر : فإن الخطابة فى صورها المختلفة أهم وسيلة لبث الشجاعة وإثارة الحماسة فى نفوس الجنود .

ومن ناحية أخرى فإن ويلات الحرب الحديثة لم تعد مقصورة على الجنود فى ميادين القتال ، بل شملت المدنيين من غير المحاربين فى بيوتهم ، وأصبحت المدن والقرى فى خط النار الأول ، بعد أن حملت الطائرات والصواريخ إليها الموت والدمار بالليل والنهار . لذلك كان من الضرورى الاحتفاظ بالقوة المعنوية للأهالى المدنيين أيضاً ، وإلا انهار الشعب قبل أن تنهار الجيوش فى الميدان . وهنا يبدو الدور الهام الذى تلعبه الخطابة فى الحروب الحديثة . وقد عرفت الحكومات لها هذا الخطر ، فأنشأت وزارات خاصة للدعاية والإعلام ، وسمعنا نوعاً آخر من الخطب الحربية ، تلك التى يلقيها الساسة والزعماء يستنفرون بها شعوبهم للحرب ، ويبثون فيهم القوة على احتمال ويلاتها . وهل ينسى أحد الأثر الذى كان لخطب ونستون تشرشل ، رئيس وزراء بريطانيا خلال الحرب العالمية ، فى الحالة المعنوية للشعب البريطانى ؟ إننا مازلنا نذكر تلك الخطب الرائعة فى الأيام

العصبية التى تلت انهيار فرنسا ، عندما وقفت بريطانيا وحيدة فى الميدان ، وهتلر يرسل إلى سمائها مئات من طائراته أفواجا متعاقبة تمطر المدن الآمنة بالقنابل ، فتقتل المدنيين وتنشر الدمار ، وزعيم ألمانيا النازية يهدد بمحو المدن البريطانية من الوجود ، ويلوح فى الوقت نفسه للشعب البريطانى بغصن الزيتون قائلا إنه يبسط يده للشعب البريطانى لأنه لا يرى معنى لاستمرار هذه الحرب . ولعله كان يقصد بذلك إلى تحطيم روح الشعب البريطانى كى يحمل زعماءه على عقد الصلح مع هتلر .

وكان تشرشل الرجل الذى ادخرته الأقدار لتلك الساعة الحاسمة ، فوقف وسط الخرائب والموت والآلام كالجبل الراسخ ، وارتفع صوته بخطبه النارية توحى إلى الشعب بالثبات والصمود والتصميم فيقول :

— نحن نحارب بمفردنا ، ولكننا لا نحارب من أجل أنفسنا فقط ، ونقف بلا خوف ولا وجل فى انتظار المعركة المقبلة . وإذا استطاع الغزاة أن يضعوا أقدامهم فوق أرض إنجلترا ، فإنهم لن يجدوا تسليماً وإلقاء للسلاح ، ولن يجدوا شعباً مهيناً يقبل الذل ، ولكننا سنقاتل ونداقع عن كل قرية وكل مدينة ، وسيقاتل سكان لندن نفسها فى كل شارع من شوارعها حتى يلتهموا العدو فى جيشه العظيم ، وإننا لنفضل أن نرى لندن وقد تحولت أنقاضاً وأكواماً من الرماد ، من أن نراها مستعبدة فى خضوع واستكانة . . »

ويقول فى خطبة أخرى :

— ليس من الوهم أن أقول إن هذه الأمة قد عقدت النية على أن تفوز أو تموت ، فما أعظم الفوز الذى نالته روح هذه المدن المهدمة على شر ما تستطيعه النار والقنابل . إن كل واحد يفخر بأنه تعرض لنار العدو ،

وبأنه يشاطر الجنود والبحارة ما يتعرضون له من أشد التجارب فظاعة ، ولا شك فى أن هذا العهد هو عهد بطولة عظيمة فى تاريخنا ، وأن نور المجد يسطع فوق رءوسنا . . . »

ثم يقول فى خطبة أخرى :

– سنقاتل فى فرنسا ، وفى البحار ، وفى المحيطات ، وسنقاتل فى الجو بقلوب قوية ، وسندافع عن جزيرتنا مهما كان الثمن ، وسنقاتل فى الحقول ، وفى الشوارع ، وعلى رءوس الجبال ولن نلقى السلاح ، وإذا فرض – وهو مالا أعتقده لحظة واحدة – وخضعت هذه الجزيرة أو جزء منها وتضورت جوعاً ، فستواصل إمبراطوريتنا النضال فيما وراء البحار ، وتستمر فى كفاحها إلى أن يأذن الله بظهور عالم جديد . . فمن أعماق المحن والتضحيات ينبعث من جديد مجد بنى الإنسان » .

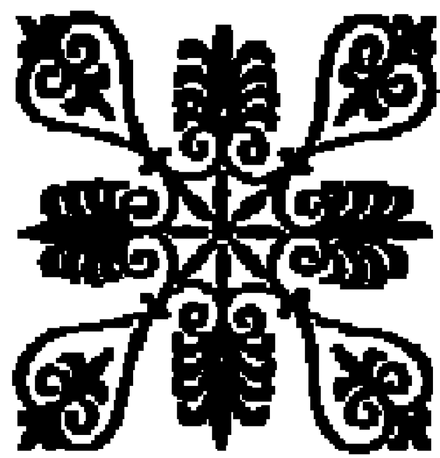
بمثل هذه الكلمات كان تشرشل يغذى روح الشعب البريطانى حتى استطاع أن يكسب الحرب .

وفى مواجهة تشرشل كان يقف « هتلر » ذلك العبقرى المجنون الذى هب على العالم كالإعصار المدمر ، وكان بدوره خطيباً من طراز فريد . وكذلك كان « موسولينى » حليفه وأستاذه السابق ، مؤسس الحركة الفاشية . ولكننا لا نتحدث فى هذا الكتاب عن الخطباء المعاصرين .

وحسبنا أن نختار من خطباء الحروب ، نابليون بونابرت ، أعظم عبقرية عسكرية ظهرت فى العصور الحديثة .

نابليون بونابرت

« لقد حول بونابرت معاركه الأولى بسحر بيانه
إلى انتصارات كبيرة فجعل لها مكاناً فى التاريخ »
إميل لودفيج



نابليون بونابرت

ليس هذا الفصل ترجمة لحياة نابليون . فإن تاريخ هذا القائد الكبير معروف مشهور . ولكننا نتحدث عنه كخطيب .

ولقد يقال ما شأن هذا القائد بالخطابة وقد قضى حياته فى الميدان ، وبنى مجده على الانتصارات الحربية ، وأقام إمبراطوريته على أسنة الحراب ؟

والواقع أن نابليون كان فى الصف الأول من خطباء الحروب . ولعله كان أعظمهم جميعاً .

إن من يقرأ الخطب والنشرات التى كان يذيعها نابليون فى الجنود يشعر بما كان فى كلامه من بلاغة وقوة وإشراق . فكان أسلوبه يمثل ما فى الطبع الفرنسى من حماسة مشبوبة وخيال مضطرم .

تلقى نابليون علومه فى مدرسة « بريان » ، ثم فى المدرسة الحربية بباريس وكان « دومارون » أستاذه فى الأدب يشبه كتابته بحجارة الصوان المحماة فى البركان . وقد نشأ مشغوفاً بالعلوم والآداب والفنون ، يحترم أهلها ويقدرهم ، وظل يحتفظ معتزاً بلقب « عضو الجمعية العلمية الوطنية » وقد ورد فى مذكرات « دى بوريان » كاتبه وكاتم سره أنه قال له يوماً بعد أن شهد تمثيل إحدى روايات « كورنيل » :

— لو كان رجل مثل كورنيل يعيش فى أيامى هذه لاتخذته وزيرى الأول .

وكان نابليون يقرب إليه الممثل « تالما » الذى كان يستطيع أن يعد

نفسه صديقاً للإمبراطور ، وقد قيل إن « تالما » كان يعلمه الإلقاء .

على أن نابليون كان قبل كل شيء رجل حرب ، بنى لنفسه بحسامه مجداً كسف مجد « هانيبال » ، وغطى على مجد الإسكندر ، وأنسى الناس مجد قيصر ونبغ فى فنون الحرب نبوغاً لم يشهده التاريخ من قبل ، وانتصر فى ستين معركة أثار غبارها وخاض غمارها .

ومهما قيل فى العوامل والأسباب التى كانت تكفل له هذا النصر ، فلا شك أن نابليون نفسه كان العامل الأول فى هذه الانتصارات . كانت له شخصية ساحرة جعلته معبود الجنود ، ما يكاد يظهر لهم بمعطفه الرمادى الطويل ، وحذائه العالى ، وقبعته المثلثة الأركان تعلو رأسه المستدير ، وتقاطيعه التى كأنما قدت من الصخر ، وما يكاد يلوح لهم بقامته القصيرة وعينيه البراقتين الرماديتين ، وكتفيه اللتين تتمثل فيهما القوة الهائلة ، حتى تسرى فيهم حماسة جارفة تطلق ألسنتهم بالهتاف وتبعث فيهم الشوق إلى القتال .

وليس أدل على قوة تأثيره فى الجنود من أنه عندما هرب من جزيرة « إلبا » لم يكن يعتمد على شيء سوى هذا الحب الذى جعل الجنود على طول الطرق يهرعون إليه هاتفين مهللين . وقد أرسلت فصيلة لصده والقبض عليه ، فالتقت بالجنود الذين كانوا معه عند ممر « لافريه » ومنعتهم من المرور ، فأسرع نابليون وترجل عن جواده ، فصاح قائد الفصيلة يأمر جنوده بالاستعداد لإطلاق النار ، ولكن نابليون تقدم إليهم وصاح فيهم قائلاً :

– ما بالكم أيها الرفاق ؟ ألا تعرفوننى ؟ أنا الإمبراطور . ألا ترون قائدكم ؟ . إذا كان بينكم من تحدثه نفسه بقتل قائده وإمبراطوره فهأنذا

أكشف له عن صدرى .

قال ذلك وكشف عن صدره فتراخت أذرع الجند ثم ارتفع هتافهم بحياة الإمبراطور . واستأنف العاهل زحفه إلى باريس ووراءه الجيش الذى أرسل لمحاربته ، فدخلها دون أن تطلق قذيفة أو تراق نقطة دم .

وكان نابليون يعرف قوة تأثيره فى الجنود ، ويدرك قيمة ظهوره بينهم فكان دائم الاتصال بهم ، يستغل حبهم له فى إثارة حماستهم بالخطب والنشرات والكلمات المثيرة التى كان يلقيها عليهم خلال المواقع .

وكانت لنابليون كلمات قصيرة مرتجلة تقوم مقام الخطب الطويلة ، فقد يلقى جملة واحدة تحمل من المعانى والتأثير ما تحمله الخطبة الكاملة .

فى الحملة المصرية التقى بجيش مراد بك عند الأهرام ، فلما رأى ذلك الأثر الخالد الذى يمثل حضارة ترجع إلى أربعة آلاف من الأعوام ، صاح فى جنوده :

– إنكم ستقاتلون الآن المتسلطين على القطر المصرى ، ولكن اعلموا أن أربعين قرناً تطل عليكم من قمة هذه الأهرام . .

وفى إحدى المعارك اندفع نابليون وسط المعركة حيث كانت تتساقط القذائف والقنابل ، فعلت أصوات المحيطين به من قواده خوفاً عليه فصرخ فيهم قائلاً :

– لا تخافوا يا أصحابى . . فإن القنبلة المعدة لقتلى لم تصبْ بعد !

* * *

كان نابليون فى كثير من الأحيان يخطب جنوده قبل المعركة يستنفرهم للقتال . ففى حملة إيطاليا الأولى عام ١٧٩٦ وهى أول حملة هامة انتصر

فيها عندما كان قائداً صغيراً ، تولى قيادة جيش قليل العدد والمؤن والذخيرة ، ولم يكن معروفاً لدى كبار ضباطه الذين زعموا أن ذلك الشاب الصغير ذا الوجه النحيل والقامة الضئيلة ، والذى أبرز لهم صورة عروسه مفاخراً بها ، لا يمكن أن يكون تعيينه إلا نتيجة المحاباة . ويقول « مسينا » أحد قواده فى تلك المعركة : « ولكنه بعد أن وضع على رأسه قبعة القيادة ، ظهر كأنما زاد فى الطول قدمين وبدأ يناقشنا فى مراكز فرقنا ، وفى الروح المعنوى ورسم لنا الخطة التى نسير عليها ، ثم أعلن أنه سيقوم فى الغد باستعراض الجيش ويبدأ مهاجمة العدو فى اليوم التالى ، وكان يتكلم بتؤدة وروية وثقة حتى أقنع كل من سمعه بأنه جدير بقيادة الأبطال . . » .

وفى الصباح استعرض الجيش وخطب فى جنوده قائلاً :

أيها الجنود

والله إنكم لجياع عراة ، وإن الوطن مدين لكم بالكثير ، ولكنه عاجز عن إمدادكم بشىء . وإن الصبر والبأس الذى ظهر منكم بين هذه الصخور ليدعو إلى العجب والإعجاب ، وسأمضى بكم إلى أخصب بقاع الأرض ، وستقع فى أيدينا أغنى الأقاليم والمدن ، فأمامكم الثروة الواسعة والمجد الأثيل ، وإن صبركم وتجلدكم لن يجدياكم غير الشرف . . . فيا جنود فرنسا ، هل تنقصكم فى ذلك الشجاعة . . . ؟ !

ويقول إميل لودفيج فى كتابه الرائع عن نابليون : .

– وحول بونابرت المعركة الأولى بسحر بيانه إلى انتصارات كبيرة ، وجسم أهمية هذه الانتصارات فجعل لها مكاناً فى التاريخ ، وأدخل فى روع الأمة أنها أصبحت حرة ، وفى روع الجيوش أنها حققت كل شىء ،

وأن كل شيء أصبح لها . ولقد جاء فى بلاغه للجيش بميلانو : « أيها الجنود .
• لقد تدفقتم كالسيل من أعالى جبال الأبنين فاستوليتم على ميلانو . نحن أصدقاء جميع الأمم ولا سيما أحفاد بروتس وسبيون وأولئك العظماء الذين اتخذناهم قدوة لنا . من ثمرات انتصاراتكم التى ستبهر الأجيال المقبلة سوف يعاد بناء الكابيتول وتنصب فيه تماثيل الأبطال التى اشتهر بها ، ويحرر الشعب الرومانى الذى لم يذق غير الاستعباد منذ قرون . ولسوف تعودون إلى بلادكم فيقول أبناء الوطن حينما يشيرون إلى الرجل منكم : « لقد كان هذا فى جيش الحملة الإيطالية » .

ثم يتساءل لودفيج :

– من هو القائد الذى يخاطب الجنود بمثل هذه الكلمات المغرية ؟ ومن ذا الذى يخاطب الخيال والمشاعر بدلاً من الدعوة إلى الطاعة كبونابرت ؟ وعندما أعد الحملة المصرية وسافر معها إلى طولون فى طريقه إلى مصر خطب فى جنوده قبل الرحيل فقال :

– منذ سنتين توليت قيادتكم ، وكان الشقاء مخيماً عليكم ، وقد أنفقتم كل شيء حتى ساعاتكم لابتياع ماتسدون به رمقكم ، فوعدتكم بإزالة شقائكم ، وسرت بكم إلى إيطاليا حيث توفر لكم كل شيء. فهل حققت وعودى لكم ؟

فصاح الجنود : أجل .

فاستأنف خطابه قائلاً :

– ولكن اعلموا أنكم لم تصنعوا حتى الآن شيئاً مذكوراً للوطن ، كما أن الوطن لم يفعل شيئاً لكم . وهأنذا الآن أمضى بكم إلى بلاد تسجلون فيها

لكم مجداً يزرى بكل مجد أحرزتموه من قبل ، وتؤدون للوطن خدمات نتوقعها من أبطال الحرب الذين لا يشق لهم غبار . إنكم ستتعرضون لمخاطر جديدة مع إخوانكم البحارة ، فكونوا معهم على متن السفن شاعرين بالعواطف التى يمتاز بها الأشخاص الذين تهمس فى قلوبهم أصوات الواجب الـوطنى . تعودوا أعمال الملاحة وأنتم على المراكب ، واقذفوا الذعر على أعدائكم فى البحر والبر ، وكونوا كجنود الرومان الذين دوخوا قرطاجنة فى البحر وظفروا بها وهم فى سفنهم فى عرض اليم . . » .

وعندما احتاجت حملته فى أسبانيا إلى مدد جديد ، قرر أن يقذف فى المعركة بكتائبه القديمة التى تعودت الظفر بالأعداء ، واستعرض هذه القوات وخطب فيها قائلاً :

أيها الجنود

إنكم بعد أن جررتم أذيال النصر على ضفاف الدانوب والفستول عدتم فعبرتم ألمانيا . والآن أرى أن الشرف الوطنى يضطرني أن أجتاز بكم فرنسا دون أن أمنحكم دقيقة واحدة من الراحة .

– أيها الجنود

إننى محتاج إلى شجاعتكم ، فإن الفهد الكريه الذى يقبع فى أرض أسبانيا والبرتغال يلوث تربتهما . فليفر مذعورا عندما يراكم . هلموا بنا نبلغ بأعلامنا المظفرة أعمدة هرقل ، ونثأر للإهانات التى أرادوا أن يلحقوها بنا . وستنالون جزاء على أعمالكم سلاماً طويل الأجل ، ويسراً مقيماً . إن الفرنسى الحقيقى لا ينبغى له أن يذوق طعم الراحة قبل أن يحطم الحصار البحرى فتفتح فى وجهه البحار وتصبح حرة .

أيها الجنود

إن كل ما فعلتموه ، وكل ما تفعلونه فى سبيل سعادة الشعب الفرنسى ومجده سيخلد فى قلبى إلى الأبد . . » .

ولنستمع اليه يخطب الجنود قبل أن يهاجم جيوش النمسا التى انتهزت فرصة غيابه وانقضت عليه :

– إن أرض المحالفة قد انتهكت حرمتها ، وإن القائد النمسوى يريد أن نفر هاربين من وجه جيوشه وأن نترك نصرة حلفائنا ، ولكنى قدمت بسرعة البرق .

أيها الجنود

لقد كنتم تحفون بى حين جاء عاهل النمسا إلى فى « مورافيا » وقد سمعتموه يلتمس شفقتى ، ويقسم على أن يحفظ لى صداقة ثابتة . ولما كنا قد ظفرنا بالنمسا فى ثلاث حروب ، فلنا الفضل عليها فى كل شىء ، أما هى فقد نقضت عهدها ثلاث مرات متوالية . ولكن ما أصبناه من النصر فى الماضى يضمن لنا ما نتوقعه من نصر فى المستقبل . سيروا بنا ، وليعلم العدو عندما تقع عينه علينا أننا المنتصرون . . » .

وفى معركة « أوسترلتز » حيث ظفر نابليون بإمبراطورين ، وهزم جيشين عظيمين ، خاطب جنوده وهو يستعرض الكتائب المصطفة للقتال قائلاً :

– أيها الجنود

ينبغى لنا أن نختم هذه الحروب بصاعقة لا تبقى ولا تذر .

فرفع الجنود قبعاتهم على رءوس الحراب وصاحوا هاتفين بحياة الإمبراطور .

وكان تاريخ المعركة يوافق ذكرى تتويج نابليون إمبراطوراً ، فكان الجنود

يعتبرون أنفسهم فى احتفال بذكرى التتويج . وفى الليلة السابقة للمعركة تفقد نابليون المعسكر متنكراً فعرفه الجنود ، والتفوا حوله ، ورفعوا المشاعل على روءس الأوتاد ، ودنا منه فارس من أقدم الفرسان فخاطبه قائلاً :

— مولاى . . . إنك لست فى حاجة إلى تعريض حياتك غداً للخطر ، فأنا أعدك باسم فرسان الجيش ألا نجعلك تقاتل إلا بعينيك ، وسنأتيك غداً بأعلام الجيش البروسى ومدافعه لنحتفل بتذكار تتويجك . .

وقد بر الجيش العظيم بوعده للإمبراطور ، ووقف نابليون يخطب جنوده بعد المعركة ويوجه إليهم هذا الكلام البليغ الرائع :

— أيها الجنود

إنى راض عنكم ، لقد كنتم عند ظنى فيكم فخلعتم على ألويتكم حللاً لا تبلى من المجد . فى أقل من أربع ساعات حطمتم جيشاً يربو على مائة ألف مقاتل بقيادة إمبراطورين . أربعون علماً ، ومائة وعشرون مدفعاً ، وعشرون قائداً ، وثلاثون ألفاً من الأسرى ، تلك هى نتيجة هذا اليوم المشهود . لقد أصبح السلم قريباً ، ولكنى لا أريده إلا كما وعدتكم قبل عبورى الراين ، أى سلماً أكيداً يكون فيه الضمان لنا والمكافأة لحلفائنا .

أيها الجنود

عندما وضع الشعب الفرنسى هذا التاج على رأسى كان كل اعتمادى عليكم لتحفظوا له مجده اللامع الذى بدونه لا قيمة له فى نظرى .

أيها الجنود

سأعيدكم إلى فرنسا بعد أن نحقق كل ما يكفل الهناء للوطن ولكم ، فتكونوا موضع الإعجاب والتكريم ، وتستقبلكم الأمة بسرور وفخر ،

وحسبكم يومئذ أن يقول الواحد منكم « لقد شهدت أوسترلتز » ليسمع من حوله يقولون : « إنه لبطل . . » .

وفى أثناء إقامة نابليون فى « شنبرون » بعد معركة أوسترلتز عرض الجيش فلما وصل إلى الفصيلة الأولى من الفرقة الرابعة ، وكان قد تمزق شملها فى المعركة وأضاعت علمها ، وقف نابليون وخاطبهم قائلاً :

– أيها الجنود . ماذا فعلتم بالراية التى سلمتكم إياها ؟ ! لقد أقسمتم على أن تبذلوا أرواحكم فى سبيل الدفاع عنها ، فكيف وفيتم بعهودكم ؟ .

فأجابه قائد الفصيلة بأن حامل الراية قتل فى المعركة فلم يبصره أحد بسبب الدخان الكثيف ، وأن الفصيلة لم تقصر فى أداء الواجب ، فإنها مزقت شمل فرقتين وغنمت علمين قدمتهما لجلالته . فصمت العاهل برهة ، ثم طلب من الضباط والجنود أن يقسموا على أنهم لم يبصروا حامل الراية مجندلاً ، فأقسموا على ذلك جميعاً ، فانبسطت أساريره الجامدة ، وقال لهم مبتسماً :

– وإذن أعيد إليكم رايتكم .

* * *

هكذا كان نابليون يخطب جنوده قبل المعارك ليبث فيهم الحماسة ويستنفرهم للقتال ، كما كان يخطب فيهم أحياناً بعد المعارك ليثنى عليهم ويشكر لهم حسن بلائهم ويعدهم لقتال جديد .

وكان نابليون يصدر نداءات ونشرات تفيض بلاغة وقوة . فعندما فر من جزيرة إلبا وعاد إلى فرنسا ، أعد نشرات للشعب والجيش ، ومما قاله فى نشرته للجيش :

– أيها الجنود

إننا لم نقهر . لقد سمعت نداءكم وأنا فى المنفى فأقبلت إليكم غير مكترث بالمهالك . إن قائدكم الذى اختارته الأمة للجلوس على العرش ، وكنتم ساعده الأيمن ، وعماد عرشه ، قد عاد إليكم فهلموا إليه . انزعوا هذه الأعلام التى نبذتها الأمة ، وانشروا الراية المثلثة الألوان التى حملتموها فى أيامنا العظيمة . لقد تجرع جنود الجيش العظيم كؤوس المهانة ، وامتهنت ندوبهم المقدسة ، واعتبرت انتصاراتهم جرائم ، وبطولتهم تمرداً .

أيها الجنود

تعالوا واجتمعوا تحت لواء زعيمكم وسيسعى إليكم النصر مسرعاً ، وسيطير النسر بألوانه الوطنية من قبة إلى قبة ، حتى يبلغ أبراج كنيسة نوتردام ، وحينئذ تستطيعون أن تفاخروا بإظهار ندوبكم . وعندما تدرككم الشيخوخة ، ويحيط بكم مواطنوكم ليسمعوا منكم باحترام وإعجاب رواية ما كان من مجد ، يستطيع الواحد منكم أن يقول بفخر « وأنا أيضاً كنت من رجال ذلك الجيش العظيم الذى دخل مرتين فينا وروما وبرلين ومدريد وموسكو ، وأنقذ باريس من الوصمة التى لطختها بها يد الخيانة . . » .

وقد ذكرنا كيف نجح نابليون فى إثارة حماسة الشعب والجنود ، فانضمت إليه على طول الطريق الفصائل التى أرسلت لصده ، ودخل باريس دون أن تراق قطرة من الدم ، وعاد إلى قصر التويلرى محمولاً على أكتاف ضباطه القدماء . وفى الصباح عرض الجنود الذين كانوا فى العاصمة وخطب فيهم قائلاً :

– إننى قدمت إلى فرنسا فى تسعمائة رجل معتمداً على محبة الشعب

والجنود فلم يخب أملى .

أيها الجنود . اقبلوا شكرى العميق ، فإن الفخر الذى جنيناه من أعمالنا مرجعه إليكم . إن عرش البوربون غير شرعى ، فقد أقامته أيدى الأجانب بعد أن هدمته الأمة ووافقت على هدمه المجالس الوطنية ، وليس فيه ضمان إلا لمصالح فريق يسير من المدعين المتعجرفين . إننا سنزحف لنطرد من أرضنا أولئك الأمراء الموالين للأجانب . نحن لا نبتغى التدخل فى شئون الأمم الأجنبية ، ولكن الويل لمن يتدخل فى شئوننا . . » .

وعلت أصوات الجنود بالهتاف للإمبراطور ، واتفق فى هذه اللحظة أن وصل جنود الفرقة التى كانت معه فى جزيرة إلبا ، فلما رآهم نابليون صاح قائلاً :

– هؤلاء هم ضباط الفرقة التى صحبتنى فى الضراء ، فكلهم أصدقائى وأعزائى . هؤلاء الشجعان أشخاص من جميع الفيالق يذكروننى بالأيام العظيمة التى لا يزال ذكرها عزيزاً لدى ، وجميعهم تزين أجسامهم ندوب شريفة أصابتهم فى المعارك الخالدة ، وقد أعادوا إليكم راية النسر التى ألقت عليها الخيانة والأحوال السيئة غشاء محزناً ، ولكنها عادت بفضلكم إلى الظهور . فأقسموا على أن تجعلوها دائماً فى المكان الأسمى الذى تدعو إليه مصلحة الوطن ، وليعجز عن النظر إليها الخونة ومن تحدثهم النفس بغزو بلادنا . . . »

وأقبلت إليه وفود من المتطوعين تطلب السلاح للدفاع عن الوطن ، فخطب فيهم قائلاً :

– قدمت وحدى معتمداً على سكان المدن والقرى وجنود الجيش ،

ولقد حققتم جميعاً ثقتى فيكم ، وأقبل ما تقدمونه لى ، وس
وسأجعل عليكم ضباطاً لا تزال آثار الجروح بادية عليهم ، وهم الذين تعودوا أن يروا العدو هارباً أمامهم . .

وهكذا أخذ نابليون يستنهض فرنسا للسير معه من جديد ، وأعلنت الدول الأوربية التى باغتها فراره أنها لن تضع السلاح حتى تقضى عليه .

وأسرع نابليون إلى لقاء أعدائه على أرض بلجيكا ، وخاطب جنوده للمرة الأخيرة فقال لهم :

– أيها الجنود

اليوم تذكار معركتى « مارنجو » و « فريدلاند » اللتين قررتا مصير أوربا مرتين . وقد أظهرنا حينئذ من كرم الخلق مثل ما أظهرناه بعد معركتى أوسترلتز ، ووجرام ، ووثقنا فى أقسام وعهود الملوك الذين أبقيناهم على عروشهم ، ولكنهم قد خانوا عهودهم وتألبوا علينا ، وأرادوا العبث بسيادة فرنسا وحقوقها المقدسة . فلنزحف لملاقاتهم . أو لسنا نحن وهم كما كنا عليه من قبل ؟

أيها الجنود

أمامنا سير عنيف ، ومعارك ضارية ، ومتالف لا مندوحة لنا عن اقتحامها ، ولكننا سنظفر بالنصر إن نحن ثبتنا . لقد دنت الساعة التى يكون فيها شعار كل فرنسى فى صدره قلب : إما أن أنتصر أو أموت .

وألقى نابليون بنفسه فى أتون المعركة ، ولكن آماله تحطمت فى سهل واترلو ، وعاونت الطبيعة على فشل نابغة الحروب ، فتخلى النصر عنه لآخر مرة وللأبد .

وترك نابليون جيوشه المهزومة فى الميدن ، وألقى بنفسه فى غمرة القضاء

والقدر ، فطوحت به الأقدار إلى جزيرة سانت هيلانة .

ولم تكن له فرصة لتوديع جيوشه التي أحبها ، ولكنه كان قد ودع هذا الجيش قبل ذلك عندما تنازل عن العرش فى المرة الأولى قبل نفيه إلى جزيرة إلبا . ففى يوم رحيله من « فونتنبلو » اصطف جنود الحرس الإمبراطورى ليودعهم قبل الرحيل . ورفع نابليون يده مشيراً إلى أنه يريد أن يتكلم فساد سكون رهيب ، وأرهف الجميع آذانهم لتلتقط الكلمات الأخيرة التي يوجهها الإمبراطور إلى رجاله الشجعان . وقال نابليون :

– يا ضباط وجنود حرسى القدماء ، أستودعكم الله فقد سعدت بكم عشرين عاماً ، وكنتم دائماً موضع فخرى . إن الدول المتحالفة قد جندت أوربا كلها ضدى . وقد خان قسم من الجيش واجبه ، وشاءت فرنسا لنفسها حظاً آخر . إننى أستطيع أن أخوض بكم وبالشجعان الباقين على ولائى حرباً أهلية تدوم ثلاثة أعوام ، ولكن ذلك يكون وخيماً على فرنسا ويخالف الغاية التي أريدها .

لا ترثوا لحالى ، فإنى أكون سعيداً جداً حين أعلم أنكم سعداء . لقد كان الموت مستطاعاً لى ولا شيء أسهل على من ذلك ، ولكنى أسير دائماً فى طريق الشرف . وقد بقى على أن أكتب تاريخ ما فعلنا .

أيها الضباط والجنود

لا تتسنى لى معانقتكم جميعاً ، ولكنى أعانق قائدكم ، تعال يا جنرال .

وعانق نابليون قائد الحرس ، ثم طلب راية الحرس فقبلها وقال :

– أيتها الراية العزيزة . فليكن لهذه القبلة دوى فى أفئدة جميع الشجعان . الوداع يا أولادى ، ولتصحبكم دائماً تمنياتي الطيبة ، فاحفظوا ذكراى .

بعض مراجع الكتاب

١ – خطباء اليونان تأليف ج . ف . دبسون ترجمة أمين سلامة .

٢ – قصة الحضارة تأليف ويل ديورانت ترجمة محمد بدران .

٣ – دائرة المعارف البريطانية .

٤ – ديموستين – من سلسلة أعلام الحرية تأليف قدرى قلعجى .

٥ – نهج البلاغة .

٦ – الكامل لابن الأثير .

٧ – تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبرى .

٨ – العقد الفريد لابن عبد ربه .

٩ – البيان والتبيين للجاحظ .

١٠ – عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد .

١١ – سيف بنى مروان لعبد الرازق حميدة .

١٢ – الحجاج – حياته وخطابته لعلى صافى حسين .

١٣ – ميرابو تأليف الوزير الفرنسى « بارتو » .

١٤ – دراسات تاريخية تأليف لوردماكولى .

١٥ – عبد الله النديم للدكتور على الحديدى .

١٦ – سلافة النديم لأحمد سمير .

١٧ – مصطفى كامل بقلم عبد الرحمن الرافعى .

١٨ – تاريخ مصطفى كامل بقلم على فهمى كامل .
١٩ – مصطفى كامل بقلم فتحى رضوان .
٢٠ – سعد زغلول بقلم عباس محمود العقاد .
٢١ – مصطفى كامل بقلم أحمد رشاد .
٢٢ – إنجلترا فى مصر بقلم مدام جوليت آدم .
٢٣ – آثار الزعيم فى عهد وزارة الشعب بقلم محمد إبراهيم الجزيرى .
٢٤ – مجموعة خطب سعد زغلول .
٢٥ – تاريخ نابليون الأول بقلم إلياس الحويك .
٢٦ – نابليون تأليف إميل لودفيج وترجمة عادل زعيتر .
٢٧ – مجموعة البلاغ الأسبوعى ، والرسالة ، والصحف اليومية .

كتب صدرت للمؤلف

١ – اللهب المقدس	مجموعة قصص قصيرة	١٩٥٦
٢ – نساء خالدات		١٩٦٥
٣ – التوعية الاجتماعية		١٩٦٦

الفهرس

	صفحة
هذا الكتاب	٧
ديموستين	٩
الإمام على	٢٧
زياد بن أبيه	٤٧
الحجاج	٥٧
عبد الله بن الزبير	٧٣
ميرابو	٨٣
ولم پت الكبير	١٠٧
ولم پت الصغير	١٢٣
عبد الله النديم	١٣٩
مصطفى كامل	١٦٧
سعد زغلول	٢٠٥
خطباء الحروب	٢٣١
نابليون بونابرت	٢٣٩

رقم الإيداع	١٩٧٦/٣٦٧١
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ – ٢٤٦ – ٣١٥ – ٦

١/٧٦/٢١٢ مطابع دار المعارف–١٩٧٦

